سعيد حوّى

الأساس في السُّنَّة وفقهها

المجلد الأول

القسم الأول

السّيرة النّبويّة

دار السّلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الأساس في السنة

وفقهها

السيرة النبوية

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

١٢٠ شارع الأزهر _ ص .ب ١٦١ الغورية
ت: ٩٣٢٨٢٠ : ٢٧٤١٥٧٨ فاكس ٢٧٤١٧٥٠

الطبعة الثالثة
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

راجع هذا القسم ودققه
فضيلة أخينا الشيخ
عبد الحميد الأحدب
حفظه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبع سنتهم وعمل بهديهم إلى يوم الدين .

فقد روى الإمام مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال : « تَرَكْتُ فيكم أمْرَين لن تَضلُّوا ما مَسَكتُم بهما : كتابَ الله وسنَّةَ نبيِّه » فلقد يسر الله لنا أن قدمنا للأمة الإسلامية تفسير كتاب الله (الأساس في التفسير) وهو يعتبر القسم الأول من سلسلة الأساس في المنهج وأرجو أن نكون وفقنا في ذلك وها نحن والحمد لله نقدم لأمتنا الغالية (التي لم تعرف قدر نفسها) الكتاب الأول من القسم الثاني من سلسلة الأساس في المنهج والمكون من خمس كتب .

والتي تمثل الأساس في السنة وفقهها ، وهذا القسم له ما للتفسير من الأهمية ، وخاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه الصيحات للأخذ بالقرآن دون السنة وهذا عن جهل أحياناً وعن علم وتخطيط ومكر أحياناً أخرى وقد اتخذت هذه الدعوات أشكالاً شتى ، تارة بالطعن فيها وتارة بطبع الكتب وتوزيعها وتارة بالتشكيك في حجيتها ونصوصها وتارة في صحة نقلها وتارة بالطعن في رواتها كما تفعل بعض الفرق الضالة . وهذا الاتجاه قديم يعود للقرن الهجري الأول فقد أخرج البيهقي بسنده عن شبيب بن أبي فضالة المكي أن عمران بن حصين رضي الله عنه ذكر الشفاعة فقال رجل من القوم : يا أبا نجيد إنكم تحدثونا بأحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن فغضب عمران وقال للرجل : قرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعاً وصلاة المغرب ثلاثاً والغداة - أي الصبح - ركعتين والظهر أربعاً والعصر أربعاً ؟ قال لا . قال : فَعَمَّنْ أخذتم ذلك ؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن رسول الله ﷺ .... إلخ الحديث ، وفي نهاية الحديث يقول عمران بن حصين رضي الله عنه ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ . قال عمران : فقد أخذنا عن رسول الله ﷺ أشياء ليس لكم بها علم .

بل إن الرسول ﷺ قد أخبرنا عن أمثال هؤلاء المشككين في السنة النبوية وحذر

منهم فقد روى الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن المقدام بن معد يكرب (رضي الله عنه) قال ﷺ : « ألا إنّي أُوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه ، ألا إنّي أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه ، ألا يوشِكُ رجلٌ شبعانُ على أريكَتِه يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » . وصدق رسول الله ﷺ . ويقول الله تبارك وتعالى ﴿ من يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أطاعَ اللهَ ﴾ .

وأقول : الحمد لله الذي حفظ لنا القرآن الكريم وسنة نبيه ﷺ ، والشائع أن الآية الكريمة ﴿ إنّا نحن نزّلْنا الذّكْرَ وإنّا له لَحافِظُون ﴾ هي للقرآن فقط ، وإن كان هذا على أرجح الأقوال إلا أن حفظ السنة النبوية من لوازم حفظ الشريعة ، وقد اختارها الله تعالى ديناً لعباده إلى قيام الساعة ، وختم بها الشرائع ، فكان من لوازم التدبير الإلهي أن تحفظ هذه الشريعة الغراء ولن يتحقق ذلك الحفظ إلا بحفظ أصليها العظيمين الكتاب والسنة.

وقد انفردت هذه الأمة عن باقي الأمم بأنها حفظت نصوص دينها حفظاً دقيقاً كاملاً لا مثيل له لتبقى زاد الأمم ومصدر هدايتها إلى قيام الساعة .

إلا أن فهم هذه النصوص هي التي محل اجتهاد وتقديمها للناس بأسلوب يناسب العصور على تتابعها ، والتركيز على ما يهم كل جيل من الأجيال وتلمس حاجاته ومراعاة مدى استيعابه وفهمه ، وحل مشاكله . فهذا هو الذي نحن بحاجة إليه في عصرنا ، فكان هذا الكتاب ، الذي نأمل من الله تبارك وتعالى أن يسد ثغرة في وجه المشككين بالسنة .

وأكرر دعوة وجهتها للقارئ الكريم على صفحات المقدمة في الأساس في التفسير أن لا يألو جهداً في توجيه النصح لنا لكي نتدارك ذلك في الطبعات القادمة إن شاء الله سواء ذلك للمؤلف حفظه الله أو للناشر مباشرة فنكون له من الشاكرين ، ورحم الله عملاق هذه الأمة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال : رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي .

وفي الختام اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

الناشر

عبد القادر البكار

بسم الله الرحمن الرحيم

تستطيع أن تقول إذا قرأت هذا الكتاب أنك كدت تحيط بمعاني السنة النبوية ، لأنه حوَى الهدْيَ النبوي الذي روته أمهات كتب السنة : صحيحا البخاري ومسلم ، والسنن الخمسة : لأبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي ، وموطأ الإمام مالك ، ومسانيد : الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ، وصحيحا ابن خزيمة وابن حبان ، ومعاجم الطبراني الثلاثة ومستدرك الحاكم وما تيسر جمعه من غير هذه الكتب من صحيح السنة وحسنها .

مقدمة

الأساس في السنة وفقهها

وفيها

أولًا : تعريف بهذا الكتاب

ثانيًا : التعريف بأصول هذا الكتاب ومصنفيها

أولًا : تعريف بهذا الكتاب

تمهيدٌ

أقبلت على الدعوة الإسلامية ـ بفضل الله ـ في سنٍّ مبكرة من حياتي ،وكانت المكتبة الإسلامية الحديثة فقيرة ، وكان من أبرز الكُتَّاب الذين تصادفنا كتبهم في تلك الأيام الشيخ محمد الغزالي ـ أطال الله بقاءه ـ وكان مما قرأت له كتاب فقه السيرة ، وكان مما قاله في هذا الكتاب :

إن القرآن روح الإسلام ومادته ، وفي آياته المحكمة شُرِحَ دستوره وبُسِطَتْ دعوته ، وقد تكفّل الله بحفظه فَصِينت به حقيقة الدين ، وكُتِبَ لها الخلود أبد الآبدين ، وكان الرجل الذي اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالته (قرآناً) حيًّا يسعى بين الناس ، كان مثالاً لما صوَّره القرآن من إيمان وإخبات ، وسعي وجهاد ، وحق وقوة ، وفقه وبيان ، فلا جرم أنّ قوله وفعله وتقريره وأخلاقه وأحكامه ، ونواحي حياته كلها تعد ركناً في الدين ، وشريعة للمؤمنين .

إن الله اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه ، فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال ؟ ومن أولى منه بتحديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة ؟ إن تطبيق القانون لايقلُّ خطراً عن صياغته ، وللقانون نص وروح ، وعند علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون العتيد ، تجدُ فتاوى وتدوّنُ نصائح ، وتُحفظ تجاربُ وعِبر ،وتثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص وبعضها أدنى إلى روحه .. وهكذا .

والقرآن هو قانون الإسلام ، والسنة هي تطبيقه ، والمسلم مكلّفٌ باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه ، و قد أعطى الله نبيه ﷺ حقَّ الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه ـ في ذلك ـ لايصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه ، فطاعته هي طاعة الله ، قال الله عز وجل : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم**

حفيظاً ﴾ (١) وقال : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾** (٢) وقال : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** (٣) .

إنّ السير في ركاب المرسلين هو الخير كله ،ومن ثَمّ كانت سنة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مصدراً لشريعته مع الكتاب الذي شرّفهُ الله به ، إلا أنّ السنن المأثورة عَرَضَ لها ما يوجب اليقظة في تلقيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سنة تقبل ، ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه ، أو وُضِعَ موضعه .

والمسلمون لم يؤذوا من الأحاديث الموضوعة ـ لسهولة تزييفها وفضحها ـ قدر ما أوذوا من الأحاديث التي أُسيءَ فهمها واضطربت أوضاعها ، حتى جاء أخيراً من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ريبة واتهام ، ويتمنى لو تخلص المسلمون منها .

وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً ، فإنّ الدنيا لم تعرف بشراً أُحصيت آثاره ونُقِدت بحذر ، ومُحِّصت بدقة ، كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله ﷺ .

والناحية الأخرى أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية ، لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين ، فلماذا تضيع ويحرمُ الناس خيرها ؟!

عندما درسنا تراث محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في (الأخلاق) وذاكرنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل ، خيل إلينا : لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز ، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الضخمة اهـ .

وهكذا استقر في ذهني منذ بدايات سيري إلى الله ضرورة التعرف على السنة الصحيحة والحسنة ، وضرورة فهمها فهماً صحيحاً . وبعد مطالعات كثيرة في كتب السنة وجدت أن الحاجة ملحة لوجود كتاب يجمع السنة الصحيحة والحسنة ، ويقدم مع ذلك الفهم الصحيح للنصوص التي تحتاج إلى شرح أو توضيح . ومن ثَمّ ولدت فكرة هذا الكتاب .

---

(١) النساء : ٨٠ . (٢) النحل : ٤٤ . (٣) الحشر : ٧ .

وأثناء مطالعاتي في كتب السنة كنت أتردد في قراءة بعض الكلمات أو الأسماء بسبب من غياب الشكل والضبط ، وإذا ما أردت التحقيق كان ذلك يستغرق قسماً من الوقت ليس قليلاً ،وكثيراً ما كانت تفوتني معاني بعض الكلمات والتراكيب ، وكان ذلك يقتضي مني بحثاً طويلاً إن أردت المعرفة ، فشعرت أنه إذا كان من الضروري أن تجمع السنة المعتمدة في كتاب ، وأن يعرض في هذا الكتاب الفهم الصحيح لبعض النصوص ، فلا بد أن يكون هذا الكتاب مشكّلاً مشروحاً فيه كل ما هو غامض في حق القارئ العادي .

وأثناء مطالعاتي في كتب السنة كنت ألاحظ أن المؤلفين فيها ما تركوا شيئاً إلا وعملوا على خدمة السنة النبوية فيه، ولكنه شيء عادي أن يتحكم في تأليف كل عصر اهتمامات ذلك العصر ، فالتأليف في الأصل وليد الحاجة أو وليد الظرف ، فمثلاً حيثما وجد صراع مذهبي أو وجدت فرقة ضالة أو جهل معيّن أو انحراف ما فلابد أن يراعى في تأليف أهل ذلك العصر مثل هذا ،ومن ههنا تبرز عناوين ويركّز على موضوعات ،وقد يتغلّب نوع من الترتيب في عصر على غيره ،وقد وجدت أن موضوعات كثيرة مما تهم عصرنا لم تنل حظها من الإبراز ، كما أني وجدت أن نوعاً من الترتيب يمكن أن يكون أكثر مناسبة للقارئ العادي ، وأكثر تحقيقاً لبعض المعاني التربوية أو النفسية التي أحرص عليها .

وكان مما استقر في نفسي أن احتياجات القارئ العادي غير احتياجات القارئ المختص ، فالقارئ العادي يهمه الجوهر دون ما احتاجه حفظ هذا الجوهر أو تمييزه عن غيره ،ولما كانت أكثر كتب الحديث تهتم بما أحاط بالسنة أو لزم لتمحيصها اهتمامها بالسنة نفسها فقد وجدت أن كتاباً ينصبُّ الكلام فيه على السنة ذاتها دون ما أحاط بها من ضرورات التحقيق هو الذي يحتاجه القارئ غير المختص في عصرنا . وهذا الكتاب للقارئ المسلم مطلقاً .

وإذ كنت أرى أن من واجبات دعاة الإسلام في عصرنا أن يقدموا للناس نصوص الكتاب والسنة بأسهل عرض وأجوده ، وأقوم شرح وأعدله ، خاصة وهم يريدون أن يقدموا للعالم هذا الإسلام ، ويريدون أن يصوغوا الحياة عليه ، فقد وجدت من الضرورة أن توجد

سلسلة في هذا الشأن ،وهكذا تأكد لَدَيَّ إصدار سلسلة الأساس في المنهج بأقسامها الثلاثة : (الأساس في التفسير) و (الأساس في السنة) و (الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص) .

وإذ كنت أتصور أنه لاتنضج شخصية الداعية والقائد المسلم في عصرنا إلا باستكماله دراسة عدة أمور ، منها السنة النبوية ، فقد رأيت أنه لابد من كتاب جامع لنصوص السنة الصحيحة والحسنة يدرسه كل من يتصدر للدعوة إلى الله أو تؤهله مؤهلاته لذلك ، أو يقدمه إخوانه للقيادة الإسلامية الراشدة .

وكان هذا عاملاً من عوامل تأليف هذا الكتاب .

* * *

هذه بعض الدوافع التي دفعت إلى التفكير في إخراج هذا الكتاب . ودعني الآن أحدثك بعض الحديث عن بعض المباحث الحديثية وغيرها بين يَدَيْ ما فعلته ؛ ليخرج هذا الكتاب بالشكل الذي تراه ، والذي أطمع أن يكون قد حقق كل ما استهدفته منه .

(١)

انفردت الأمة الإسلامية عن جميع الأمم بأنها حفظت نصوص دينها حفظاً دقيقاً كاملاً ، وذلك من معجزات الإسلام ، وأن ما قاله كتابه هو الحق والصدق ، يشهد لذلك تحقق قوله ـ جل جلاله ـ : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (١) فلقد حفظ القرآن حفظاً لا ينتطح فيه عنزان ،وحفظت السنة النبوية التي تشرح القرآن حفظاً هو وحده معجزة ، فلقد وُفِّقَتْ هذه الأمة إلى اعتماد كل ما يلزم لحفظ النصوص ، وقد قامت جهود هائلة من أجل ذلك ، ومن عرف حقائق هذا الأمر أدرك معجزة الإسلام هذه .

(٢)

اعتمدت الأمة الإسلامية من أجل حفظ نصوص الوحي مبدأي الرواية والتثبت ،

---

(١) الحجر : ٩ .

وتوَضَّعَتْ نتيجة لاعتماد هذين المبدأين مئات الاصطلاحات والقواعد والضوابط وعشرات العلوم وأنواع الدراسات ، ونتج عن ذلك عشرات الألوف من الكتب ، و كل ذلك للوصول في النهاية إلى ما يصح اعتماده من النصوص ومالا يصح .

(٣)

انصب جهد القراء على حفظ الشاردة والواردة مما له علاقة بالقرآن الكريم ، أحرفه ورواياته ، من الهمس فيه إلى تعدد اللهجات في النطق به ، إلى استقراء طرائق الأداء التي أدى بها الرسول ﷺ هذا القرآن لشتى القبائل .

وانصَبَّ جهد المحدثين على حفظ الحديث وتبيان ما داخَله أو خالطه أو أدخل عليه .

وبهذا الجهد وذاك قدم القراء والمحدثون المادة الخام لكل علوم الإسلام التي انبثقت عن الكتاب والسنة ، كعلم أسباب النزول وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم التفسير وعلم الأصول وعلوم العقائد والفقه والأخلاق والآداب والسلوك وعلوم السيرة والشمائل والخصائص إلى غير ذلك من علوم أمهات ، ولقد وَسِعَتْ هذه المادة الخام الحياة كلها ؛ ولذلك فإن الدراسات والمعاني التي يمكن أن تنبثق عن الكتاب والسنة لا تتناهى .

وإذ كانت المحصلة المرادة من النصوص هي الأحكام الشرعية فقد وجد علم أصول الفقه الذي يضبط كيفية الوصول إلى الأحكام الشرعية التي تسع الزمان والمكان والتي لا تتناهى كذلك .

وهذا العلم ـ علم أصول الفقه ـ هو الذي وضع القواعد التي تضع السنة في محلها بالنسبة لأصول التشريع ، والذي وضع قواعد الوصول إلى الحكم الشرعي من خلال استشراف النصوص وأصول الأحكام .

وهكذا تعاون القراء والمحدثون والمجتهدون والأصوليون والراسخون في العلم بعامة على وضع كل نص في محله بالنسبة لبناء الإسلام .

(٤)

وقد اشتغل المحدثون للتثبت من المرويات على محورين : محور السند ، ومحور المتن .

فعلى محـور السنـد : درسـوا وضـع الرواة : عـدالتهم وصـدقهم وضبطهم ، واجتماعهم ببعضهم ، وإمكانية أخذ بعضهم عن بعض ، إلى غير ذلك .

وعلى محور المتن : قارنوا بين المتون المروية فـإذا خـالف الثقـة من هو أوثق منـه أو إذا خالف الثقة الثقات لم يقبلوا المتن إلا إذا أمكن الجمع بين الحديثين .

وهكـذا من خلال سبر السنـد ومقـارنـة المتون أحكموا أمر التثبت ، ومـع ذلـك فـإنهم لم يكتفوا بـذلـك بل أوجبوا على أنفسهم أن ينظروا نظرة شموليـة إلى السنـد والمتن بعين الخبير بشأنها البصير بها ، لعلهم يكتشفون قادحاً خفياً ، ومن ثَمّ أوجدوا ما يسمى بعلم العلل ، ولم يعتبروا الحديث صحيحاً إلا إذا سلم من الشذوذ والعلة .

وهذا كله كان جهد المحدثين ، وأكمل عملهم الأئمـة المجتهـدون ، فـإذا كان المحـدثون مهمتهم النظر في السنـد والمتن ومقـارنـة متـون السنـة النبـويـة ببعضهـا البعض لمعرفـة الشـذوذ في الرواية ، فمهمة المجتهدين أن يستشرفوا نصوص الكتـاب والسنـة ، وأن يلحظوا مـا إذا كانت روايـة من الروايـات تخـالف معنى قرآنيًـا أو قـاعـدة تشريعيـة ،وهكـذا أكمـل المجتهـد عمـل المحدث ، ولذلك ترى بعض النصوص صحّحها المحـدّثون ولم يـأخـذ بهـا الأئمـة المجتهـدون إمـا لاعتبارها مخالفة لنص قرآني أو لقاعدة شرعية محكمة أو لاعتبـارهم إيـاهـا سنـة يوميـة فعلهـا رسول الله ﷺ بحكم قيادته السياسية للدولة الإسلامية ، وإذ كـانت هـذه القضيـة من أخطر القضايا لمـا يترتب عليهـا من تعطيل السنن فـإنهـا محرمـة إلا على أهل الاجتهـاد ، ولـذلـك اعتبروا من يتصـدر لـلاجتهـاد وليس أهـلاً لـه ضـالاً مضـلاً ؛ لمـا يترتب على اجتهــاده من تعطيل لبعض النصوص أو مَسّ لهيكل الشريعة .

وهكـذا تضـافرت جهـود لامثيـل لهـا حتى بقيت نصـوص الإسـلام سليـمة من الخلـط أو التحريف أو التبـديل أو الـزيـادة أو النقص ، لتبقى زاد الأمم ومصـدر هـدايتهـا إلى قيـام الساعة .

* * *

ضخامة المكتبة الحديثية :

وائذن لي أن أحدثك من أقرب طريق ـ عن المكتبة الحديثية ، وذلك من خلال استعراض كتاب مشهور عنوانه : (الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة) لمؤلفه السيد : محمد بن جعفر الكتاني ـ رحمه الله ـ وذلك بين يدي ما فعلته لتحقيق ما استهدفته في هذا الكتاب .

بدأ المؤلف الحديث عن المؤلفات الأولى في السنة النبوية ، وذكر أعلام المؤلفين في القرنين الأول والثاني ، ثم تحدث عن تتابع التأليف فقال :

ثم كثرت بعد ذلك التصانيف ، وانتشرت في أنواعه وفنونه التآليف ، حتى أربت على العدّ وارتقت من كثرتها عن التفصيل والحدّ ، وهي مراتب متفاوتة وأنواع مختلفة ، فمنها ما ينبغي لطالب الحديث البداءة به ، وذكر الأصول الستة صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجه .

ثم ذكر كتب السنة التي تعتبر أساساً لمذاهب الأئمة الأربعة فذكر موطأ الإمام مالك ومسند الإمام أبي حنيفة وقد قال في الأخير منهما :

ومسند إمام الأئمة ـ أيضاً ـ ركن الإسلام أبي حنيفة النعمان بن ثابت القارئ الكوفي فقيه العراق ، المتوفَّى ببغداد سنة خمسين أو إحدى وخمسين ومائة ، وله خمسة عشر مسنداً ، وأوصلها الإمام أبو الصبر أيوب الخلوتي في ثبته إلى سبعة عشر مسنداً ، كلها تنسب إليه لكونها من حديثه وإن لم تكن من تأليفه ، وقد جمع بين خمسة عشر منها أبو المؤيد محمد بن محمود بن محمد بن الحسن الخطيب الخوارزمي ـ نسبة إلى خُوارِزم بضم الخاء وكسر الراء ناحية معلومة ـ المتوفى سنة خمس وخمسين وستمائة ، في كتاب سماه جامع المسانيد ، رتّبه على ترتيب أبواب الفقه بحذف المعاد وترك تكرير الإسناد .

ثم ذكر مسند الإمام الشافعي وعرّف به ثم ذكر مسند الإمام أحمد وعرف به وبعد ذلك قال :

فهذه كتب الأئمة الأربعة وبإضافتها إلى الستة الأول تكمل الكتب العشرة التي هي أصول

الإسلام وعليها مدار الدين .

ثم قال : ومنها ـ أي ومن كتب السنة ـ كتب التزم أهلها فيها الصحة من غير ما تقدم . فذكر : صحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان وصحيح الحاكم وكتاب الإلزامات للدارقطني وكتاب المستدرك للحافظ أبي ذر الهروي وصحيح الحافظ أبي حامد النيسابوري المعروف بابن الشرقي وكتاب الأحاديث الجياد المختارة لضياء الدين المقدسي وكتاب المنتقى لابن الجارود وكتاب المنتقى لابن أصبع الأندلسي وصحيح ابن السكن ، والكتب المخرّجة على الصحيحين أو أحدهما : كمستخرج الإسماعيلي ، ومستخرج الغطريفي ومستخرج أبي ذهل ومستخرج ابن مردويه الكبير ومستخرج أبي عوانة ومستخرج ابن أصبع ومستخرج أبي جعفر الحبري ومستخرج محمد بن محمد النيسابوري ومستخرج الجوزقي ومستخرج الشاركي ومستخرج أبي الوليد القزويني ومستخرج أبي عمران الجويني ومستخرج أبي النصر الطوسي ومستخرج أبي عثمان الحيري ومستخرج أحمد بن سلمة النيسابوري ومستخرج أحمد بن محمد الطوسي البلاذري ... إلى كثيرين آخرين ذكرهم ، لهم مستخرجات بأسانيد أخرى للصحيحين أو لأحدهما ، وكلها تفيد توثيق أحاديث الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم .

ثم تحدث عن الكتب المؤلفة في السنن ،وهي الكتب المؤلفة على أبواب الفقه ، فذكر زيادة على الكتب الأربعة المشهورة : سنن الإمام الشافعي للمزني وسنن النسائي الكبرى وسنن ابن جريج الرومي وسنن سعيد بن منصور وسنن الكشي وسنن محمد بن الصباح البزار وسنن أبي قرة موسى بن طارق وسنن الأشرم وسنن الخلال وسنن سهل بن أبي سهل وسنن الصفار وسنن الهمداني وسنن ابن لال وسنن النجاد وسنن ابن إسحاق وسنن يوسف بن يعقوب الأزدي اللالكائي . ثم قال : فهذه هي مشاهير كتب السنة وبعضها أشهر من بعض وبإضافتها إلى السنن الأربعة السابقة تكمل كتب السنن خمسة وعشرين كتاباً .

ثمّ تحدّث عن نوع آخر من التآليف ،وهو في الحضّ على اتّباع السنة وترك الأهواء والبدع ، فذكر ستة عشر كتاباً .

ثم ذكر نوعاً آخر من التآليف في السنة وهي كتب مرتبة على الأبواب الفقهية ، مشتملة على السنن وما هو في حيزها أو له تعلق بها بعضها يُسمى مصنفاً وبعضها جامعاً وغير ذلك سوى ما تقدم ، فذكر اثنين وعشرين كتاباً .

ثم ذكر نوعاً آخر من التصانيف وهي الكتب المفردة في الآداب والأخلاق والترغيب والترهيب والفضائل ونحو ذلك فذكر حوالي مئة وأربعين كتاباً .

ثم ذكر نوعاً آخر من التصانيف وهي كتب المسانيد ـ جمع مسند ـ وهي الكتب التي موضوعها جعل حديث كل صحابي على حدة صحيحاً كان أو حسناً أو ضعيفاً ، مرتبين على حروف الهجاء أو على القبائل أو على السابقة في الإسلام أو الشرف في النسب ، وقد يقتصر في بعضها على أحاديث صحابي واحد أو أكثر .

قال : (والمسانيد كثيرة جداً) ثم عدّد ما تيسر له ذكره منها فذكر اثنين وثمانين مسنداً .

ثم ذكر كتباً لم تؤلف في السنة قصداً ، ولكنها حوت الكثير من نصوصها ، ككتب التفسير والكتب المؤلفة في المصاحف والقراءات وكتب الناسخ والمنسوخ وذكر أسماء العشرات منها .

ثم تحدث عن المؤلفات في الأحاديث القدسية والأحاديث المسلسلة والأحاديث المرسلة فذكر العشرات منها .

ثم تحدث عما يُسمى بالأجزاء الحديثية وهي كتب مفردة في موضوع أو في روايات أو مرويات فذكر العشرات منها .

ثم ذكر كتباً مؤلفة تحت عنوان (الفوائد) فذكر كثيرا منها .

ثم ذكر ما يُسمّى خصوصيات انفرد بها بعض الأئمة وألف فيها آخرون فذكر الكثير من ذلك .

ثم تحدث عن كتب الشمائل النبوية والسير المصطفوية والمغازي فذكر منها تسعة

وعشرين كتاباً .

ثم تحدث عن نوع من الكتب يجمع أحاديث شيوخ بأعيانهم فذكر أحد عشر كتاباً .

ثم ذكر كتباً تجمع طرق بعض الأحاديث فذكر عشرة كتب .

ثم تحدث عن نوع من الكتب فذكر رواية بعض الأئمة المشهورين فذكر اثني عشر كتاباً .

ثم ذكر الكتب التي تتحدث عن الأحاديث الأفراد فذكر أربعة كتب .

ثم تحدث عن الكتب التي تتحدث عن المتفق لفظاً وخطاً والمفترق معنى من الأسماء والألقاب والأنساب وعن المتفق خطًا والمختلف لفظاً .. وذكر ثلاثة وثلاثين كتاباً مؤلفاً فيها .

ثم تحدث عن نوع آخر من التأليف وهو في مهمات الأسانيد والمتون فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب الأنساب فذكر أحد عشر كتاباً .

ثم تحدث عن الكتب المؤلفة في معرفة الصحابة فذكر ثمانية عشر كتاباً .

ثم تحدث عن الكتب المؤلفة في تواريخ الرجال وأحوالهم فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب المعاجم ،وهي الكتب التي تذكر الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك فذكر ثلاثة وأربعين معجماً .

ثم تحدث عن كتب الطبقات وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ وأحوالهم ورواياتهم طبقة بعد طبقة وعصراً بعد عصر إلى زمن المؤلف فذكر ثمانية عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب المشيخات ، وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم مؤلف وأخذ عنهم ، أو أجازوه وإن لم يلقهم فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن الكتب المؤلفة في علوم الحديث ـ أي مصطلحه ـ ، ذكرت فيها أحاديث بأسانيد فذكر منها ثمانية كتب .

ثم تحدث عن الكتب التي تتحدث عن الضعفاء من الرواة ، أو تتحدث عن الثقات ، فذكر خمسة وعشرين كتاباً .

ثم ذكر الكتب التي تتحدث عن الأحاديث الموضوعة المكذوبة على رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر ثلاثة وعشرين كتاباً .

ثم ذكر الكتب المؤلفة في غريب الحديث ـ أي في شرح الكلمات الغامضة منه ـ فذكر سبعة عشر كتاباً .

ثم ذكر كتباً تتحدث عن مشكل الحديث وهي كتب تجمع بين النصوص فترد المتشابه إلى الحكم أو تُرجّح النسخ أو عدمه فذكر خمسة كتب .

وهناك كتب الأمالي التي يملي فيها الشيخ على تلاميذه في جلسات عامة فتسجل ، ذكر منها واحداً وثلاثين كتاباً .

ثم ذكر الكتب التي تتحدث عن رواية الأكابر عن الأصاغر ، ورواية الآباء عن الأبناء والعكس ، فذكر ستة كتب مؤلفة فيها .

ثم تحدث عن الكتب التي يجمع فيها الأسانيد العالية أي التي يقل فيها الرواة بين الشيخ وبين رسول الله ﷺ فذكر أربعة عشر كتاباً .

ثم ذكر كتباً في التصوف فيها أحاديث بأسانيد فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب الأطراف ، وهي التي يقتصر فيها على ذكر طرف الحديث الدّالّ على بقيته ، مع الجمع لأسانيده إما على طريق الاستيعاب أو على جهة التقيد بكتب مخصوصة ، فذكر خمسة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب الزوائد ، أي الأحاديث التي تزيد فيها بعض كتب الحديث على بعض آخر معين منها ، كزوائد سنن ابن ماجه على كتب الحفاظ الخمسة للشهاب البوصيري ،

فذكر تسعة عشر كتاباً .

ثم ذكر الكتب التي تجمع بين بعض الكتب الحديثية فذكر سبعة عشر كتاباً .

ثم ذكر كتباً مجردة من الأسانيد أو كتباً فيها أحاديث منتقاة فذكر واحداً وثلاثين كتاباً .

ثم ذكر كتباً تختص بتخريج الأحاديث الواردة في كتب بعض المصنفين فذكر ثلاثة وأربعين كتاباً .

ثم ذكر بعض الكتب التي تتحدث عن الأحاديث المشتهرة على الألسنة فذكر أحد عشر كتاباً .

ثم تحدث عن الكتب التي جمعت فتاوى مبناها على النصوص ، والتي تسمى الفتاوى الحديثية ، فذكر منها ستة كتب .

ثم تحدث عن كتب تجمع نوعاً من الحديث كالحديث المتواتر ، فذكر خمسة كتب .

ثم ذكر كتباً في التفسير والشروح الحديثية لأهلها اعتناء بالحديث ومعرفة به وإكثار من رواياته ، فذكر عشرة كتب .

ثم ذكر كتباً في السيرة النبوية والخصائص المحمدية غير ما سبق ، فتحدث عن ثلاثة وثلاثين كتاباً .

ثم تحدث عن كتب في أسماء الصحابة غير ما ذكر ، فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب تذكر أحوال الرواة وتضبط أسماءهم وأسماء بلدانهم غير ما ذكره من قبل ، فذكر ثلاثة وخمسين كتاباً .

ثم تحدث عن كتب الوفيات فذكر أربعة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب مصطلح الحديث فذكر ستة وثلاثين كتاباً .

ثم ختم كتابه بالحض على الاشتغال بعلوم الحديث .

* * *

من هذا العرض المختصر ندرك الجهود الهائلة التي بذلتها الأمة الإسلامية في خدمة سنة نبيها ﷺ حتى تبقى غضة طرية متميزة عما سواها ، مَعْلَماً للهداية الربانية ، فإذا ما ألقيت نظرة على كتب مصطلح الحديث تجد الدقة العلمية في البحث بما لا تطال العقول أرفع منه ، ولا تحكم العقول بأن هناك أكثر منهجية في الوصول إلى الحق الخالص منه ، فهناك قواعد لجرح وتعديل الرواة ، وهناك قواعد تُسْبَرُ بها المتون .

وكأثر عن هذا كله ميّز العلماء بين أكثر من خمسين نوعاً من أنواع الأحاديث كلها متفرعة عن دراسة السند والمتن ، وكل ذلك في النهاية للوصول إلى ما تبنى عليه الأحكام من المرويات ، كالأحاديث المتواترة لفظاً ومعنى ، أو معنى فقط ، والأحاديث الصحيحة والحسنة ، ومن أجل ذلك كتبوا كل رواية لأن الروايات الضعيفة يمكن أن يكون لها دخل في تحسين حديث أو في تصحيحه، واقتضى ذلك منهم جهوداً كبيرة ، حتى إن الإمام أحمد كان يحفظ مليون حديث بأسانيدها ومتونها ، وهذا يعني بالضرورة أنه دخل كثيرون من الرجال تحت أشعة رصده ، فإذا ما عرفنا أن تشعب الروايات يكثر كلما تطاول الزمن أدركنا كم من الجهود بذلت في خدمة السنة النبوية . ومن أجل الوصول إلى هذا الجوهر كم وجدت من دراسات وتوضعت من قواعد ، ويكفي أن تقرأ كتاباً في مصطلح الحديث حتى تدرك جلل ما نذكره لك .

فمن أجل تمحيص الرواية وُجِدَتْ علوم كعلم الوَفَيات وسني الولادة ، ووجدت دراسات مستوعبة عن كل راوٍ ، عن عقيدته وسلوكه وصدقه وكذبه وعن عوامل الجَرح أو التعديل في حياته ، ومن أجل المتن وجدت علوم كعلم المقارنة بين المتون لمعرفة العلل والشذوذ ، ولمعرفة الناسخ والمنسوخ ،وتوضعت نتيجة لذلك مصطلحات .

ثم كان علم أصول الفقه هو العلم المكمل بالنسبة للسنة النبوية ، إذ إنه هو العلم الذي تحدث عن محل السنة بالنسبة لأصول التشريع الأربعة الرئيسية وهي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وهو الذي تحدث عن قوة إلزامية السنة بحسب كونها متواترة أو صحيحة أو حسنة أو غير ذلك، وهو الذي وضع القواعد التي تجمع بين النصوص بعضها مع بعض وبين

النصوص والأحكام العقلية والعادية ، وهو الذي وضع القواعد لاستخراج الحكم الشرعي بناء على أن هناك رخصة وعزيمة وقواعد أصلية وأحوالاً استثنائية ......

إن من ثمرات العلم بالكتاب والسنة وأصول الفقه الوصول إلى معرفة الحكم الشرعي في كل قضية من قضايا المكلفين ،وثمرة ذلك كله الاعتقاد الصحيح والعمل الصحيح ، المقبولان عند الله تعالى ، وإن ذلك لشيء عظيم وكبير ، فهؤلاء الذين اجتمع لهم حسن الاعتقاد وحسن العمل هم وحدهم من بين أفراد هذا العالم الذين حقّقوا معنى العبودية لله - عز وجل - .

* * *

إذا عرفت ما مَرّ وثقت في تحقيقات الراسخين في العلم ، وأدركت عظم الجهود التي قام بها علماؤنا في خدمة السنة النبوية ، تثبتاً في شأنها وتخليصاً لها عن سواها ، وفي الوقت نفسه تدرك استحالة جمع كل ما ورد في السنة النبوية في كتاب ، بل استحالة أن يطلع إنسان ما على كل ما كتب في السنة ، فضلاً عن جمع كل روايات السنة في كتاب .

ولكن إذا عرفت معاني أخرى فإن ذلك يرجعك إلى أن تطمئن إلى أنه بإمكانك أن تطلع بسرعة على معاني السنة دون أن تغرق في بحار التأليف .

إنك إذا عرفت أن الكتب الستة المشهورة في السنة وهي : صحيحا البخاري ومسلم ، والسنن الأربعة لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، والمختلف في السادس منها : هل هو الموطأ أو سنن ابن ماجه - والتي تلقتها الأمة بالقبول - ما فاتها إلا القليل من الأحاديث الصحيحة ،وإذا عرفت أن هذه الكتب الستة تمت محاولات لجمع معانيها في مجلدين كما فعل ذلك ابن الديبع الشيباني في كتابه : (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) مثلاً ؛ إذا عرفت ذلك أدركت أن بإمكانك أن تعرف معاني السنة النبوية عن طرق مختصرة .

وقد اشتهرت بجانب الكتب الستة كتبٌ أخرى ، كمسند الإمام أحمد ومسند أبي بكر والبزار ومسند أبي يعلى الموصلي ، ومعاجم الطبراني الثلاثة ، فلو أنك قرأت زوائد هذه الكتب على الكتب الستة أو السبعة فإنك تستطيع أن تثق أنه ما فاتك إلا القليل ، وإلا تحقيقات وكماليات ، فإذا اطمأننت إلى كلامنا هذا فقد آن الأوان لنحدثك عن كتابنا هذا .

* * *

منهج تأليف هذا الكتاب

١ ـ تستطيع أن تقول إذا قرأت هذا الكتاب أنك كدت أن تحيط بمعاني السنة النبوية ، لأنه حوى الهدي النبوي الذي روته أمهات كتب السنة وهي سبعة عشر كتاباً هي : صحيحا البخاري ومسلم ، والسنن الخمسة : لأبي داود و النسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي ، وموطأ الإمام مالك ، ومسانيد الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ، وصحيحا ابن خزيمة وابن حبان ،ومعاجم الطبراني الثلاثة ، ومستدرك الحاكم ، وما تيسر جمعه من غير هذه الكتب من صحيح السنة وحسنها .

فقد اتجهت الهمة لأن تكون هذه الكتب السبعة عشر هي أصول هذا الكتاب ، على أن أستفيد من الكتب التي جمعت بعضها أو أكثرها من أمثال الجامع للأصول لابن الأثير أو مجمع الزوائد للهيثمي أو جمع الفوائد لمحمد بن محمد بن سليمان المغربي .

٢ ـ وقد ألزمت نفسي ألا آخذ من هذه الأصول إلا حديثاً صحيحاً أو حسناً ، وقد أدخلت في الكتاب بعض ما صادفني من الحديث الصحيح أو الحسن مما ليس في الكتب السبعة عشر ، فتميز هذا الكتاب على كتب الجمع الأخرى بأنه ما حوى إلا الصحيح والحسن ، وحاول أن يستقصي أصوله ، مع ملاحظة أن هناك روايات في أصول هذا الكتاب لا تدخل بشكل مباشر في مقصوده ، فأسقطتها ، فهناك روايات كثيرة مثلاً تتحدث عن أنساب الصحابة وعن تاريخ وفياتهم مما يصلح لدراسات إحصائية استقرائية ، ومما محله كتب التاريخ ومما لا تعلق مباشراً له بالهدي النبوي الذي يحتاجه كل مسلم ، أو بالمعرفة التي يُطالب بها كل مسلم ، ولذلك فقد أسقطت مثل هذه الروايات في الغالب من كتابي .

وقد أدخلت في هذا الكتاب بعض الأحاديث المرسلة مع ما يقال في الأحاديث المرسلة ، لأن لها محلها في البناء الأصولي لمن يريد التحقيق ، وأدخلت روايات أناس اختلف عليهم إذا حكم إمام لحديثهم بالصحة أو الحسن إذا وُجِدَ ما يقوي الرواية .

٣ ـ ولم أكتف بتصحيح أو تحسين من اشتهر عنهم أنهم يتساهلون في التصحيح والتحسين كالترمذي وابن حبان والحاكم إلا إذا أكد ذلك إمام آخر أو محقق ثبت ، وكل ذلك ليطمئن

القارئ والداعية أن ما يأخذه من هذا الكتاب حجة وبه تقوم الحجة بإذن الله ، ونرجو أن يكون مأجوراً في علمه وعمله إذا بناه على هذا الكتاب .

وإذا كنا أدخلنا روايات لأناس اختلف عليهم فذلك لأن التصحيح والتحسين والتضعيف يخضع في بعض حيثياته لعوامل ذوقية . وللتبحر في علم الحديث ، وللخبرة دخلها في ذلك ، ومن ثم كان للاجتهاد دخل في التصحيح أو التحسين أو التضعيف ، ألا ترى أن بعض قواعد الجرح والتعديل محل خلاف ؟

ومع أننا أدخلنا بعض ما اختلف فيه إذا كان التحقيق يوصل إلى تصحيح أو تحسين ، فقد حاولنا أن نذكر وجهات النظر الأخرى إذا عثرنا عليها احتياطاً لحرمة جناب السنة النبوية المطهرة .

وإنما انصب جهدي على جمع الصحيح والحسن ؛ لأنهما اللذان عليهما مدار الأحكام ، وبهما تقوم الحجة ، ولم أدخل الضعيف في متن هذا الكتاب - مع أن الضعيف لايعتبر موضوعاً بالضرورة ، وبالتالي فاحتمال أنه من كلام رسول الله ﷺ قائم - لأنني استهدفت بهذا الكتاب معاني متعددة ...

منها : أن يألف القارئ العبارة النبوية وأن يراها خالصة لايخالطها غيرها .

ومنها : حفظ القارئ عن التشويش والاضطراب وتغير الخاطر وقلق الفكر .

ومنها : حفظ وقت القارئ .

ومنها : أن يندفع القارئ في العمل دون تردد .

٤ - وقد كنت ذكرت في مقدمة كتاب الأساس في التفسير بعض احتياجات الأمة الإسلامية في عصرنا بالنسبة للسنة فقلت :

أ - المسلم المعاصر عنده رغبة في أن يتعرف على السنة المتواترة والصحيحة والحسنة السند ، ويحتاج إلى كتاب جامع لذلك كله ، على أن يكون هذا الكتاب مضبوطاً شكله

مشروحاً غريبه .

ب ـ والمسلم غير المتخصص في الحديث يهمه كذلك أن يأخذ الجوهر دون ما احتاجه هذا الجوهر لحمايته ـ أي هو يحرص على أن يقرأ متون السنة دون أسانيدها .

جـ ـ والمسلم المعاصر بحاجة إلى أن يفهم السنة فهماً صحيحاً وأن يأخذ الجواب الشافي على كثير من الإشكالات ، وأن يعرف كثيراً من الأمور التي يتلجلج في قلبه سؤال عنها .

د ـ وهناك شبهات حول السنة يثيرها أعداء الله عز وجل ، وهناك مناقشات حادة حول الكثير من الأمور بين المسلمين أنفسهم في شأن فهم الكثير من متون السنة ، وكل ذلك يحتاج المسلم المعاصر إلى أن يرتاح قلبه في شأنه .

هذا ما ذكرته في مقدمة كتاب التفسير عما يحتاجه المسلم المعاصر بالنسبة للسنة وشيء عادي أن أراعي ذلك في هذا الكتاب .

٥ ـ ولما كان هذا الكتاب ليس جمعاً للسنة فقط ، بل جمع للسنة وحديث عن شيء من فقهها ، وذلك من أهداف هذا الكتاب ، فإنني أدخلت بعض تحقيقات أهل الاختصاص فيه ، وذلك شيء لابد منه لمريد فهم السنة ؛ فهناك نصوص في السنة فهمها بعض الناس فهماً خاطئاً فَضَلُّوا وأضلُّوا ، كتلك الفرق المنشقة عن جسم الأمة الإسلامية .

وهناك نصوص يمكن أن يفهمها بعض الناس فهماً خاطئاً كالنصوص التي تتحدث عن تسلسل الأحداث إلى قيام الساعة ، وأقواله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جوامع الكلم ، وأفعاله كلها في غاية من الحكمة ، وفي هذا وذاك يوجد الفقيه والأفقه ، والاستفادة من فقه أهل الفقه مهمة .

وهناك نصوص تعددت في فهمها أو في الموقف منها آراء أئمة الاجتهاد فكان لابد من تبيان أسباب ذلك لتبقى ثقة الأمة الإسلامية بأئمتها على أشدها فذلك هو الذي يعصم من السير وراء الأهواء ، أو عن الاندفاع وراء الآراء الشاذة ، أو عن الخطأ في المواقف .

وهناك ـ أيضاً ـ قضايا كثيرة تحتاج إلى أن يذكر فيها تحقيق المحققين كل في

اختصاصه ، فمثلاً : تجد في السيرة كثيراً من النصوص الصحيحة والحسنة تشير إلى حادثة بعينها ،ولكنك لا تجد في النصوص الصحيحة والحسنة التفصيلات ، فإذا ما وجدت تفصيلات عند أئمة السير والمغازي فهذه التحقيقات مهمة ومفيدة ، فهي لا تخرج عن أن يكون مضمونهامذهباً لصاحب التحقيق ، فإذا كان إماماً فلنا في هذه الحالة أن نتابعه في قضية ليس فيها نص مخالف ، وفي قضايا العقائد أو السلوك أو الفقه أو الطب أو التفسير نجد تحقيقات مهمة ومفيدة ، تعين على الفهم أو تجيب على تساؤلات .

كل ذلك دعاني إلى إدخال تحقيق أهل التحقيق من أهل الاختصاص في هذا الكتاب ، ولكن بأقصى ما أستطيع من الاختصار حتى لايتوسّع حجم الكتاب ، وعلى هذا الهدي علّقت وحشّيت وهمّشت وأدخلت كثيراً من الفوائد ليحقق الكتاب مجموع أهدافه .

٦ - وإذ كنت مولعاً بالبحث عن الكليات وربط أجزائها بها فقد راعيت في هذا الكتاب أن تأخذ موضوعات السنة محلها ضمن تسلسل يستشعر فيها القارئ وحدة السنة النبوية وكأنها في الأصل كتاب واحد .

٧ - وقارئ هذا الكتاب يخرج بانطباع أنه أمام أعظم هدي بشري لنبي . وقد راعيت فيه أن لايمل قارئه وأن يزداد رغبة في القراءة كلما أوغل فيه ، كما راعيت فيه أن يخرج قارئه وقد فقه السنة حق الفقه ، مركزاً على ما يغفل عنه أبناء العصر من موضوعات تفرضها وقائع ومناقشات .

٨ - وقد بذلت جهداً كبيراً في تحقيق روايات بعض الكتب التي لم تنل من التحقيق ما يكفي ، مما يعتبر وحده جهداً تتوجه إليه مقاصد الراغبين في السنة ، كمجمع الزوائد للهيثمي ، وقمت بضبط وتحقيق وتشكيل ما يشكل على القارئ العادي ، معتمداً في ذلك على مصادر السنة الصحيحة المحققة وكتب اللغة المعتمدة .

٩ - وقد كان لأعداء الإسلام دور كبير في محاولة التشكيك في السنة وفي بعض معانيها ، مما جعلني ألحظ ذلك في تأليف هذا الكتاب بشكل غير مباشر ، بحيث تعود الكرة إلى مرمى أهلها ، فيصبح ما هو محل تشكيك في زعمهم محل إيمان كما هو في الواقع والحقيقة

١٠ ـ وإذ كانت بعض الموضوعات تحتاج إلى الاستفادة من معطيات عصرنا ، وإذ كانت بعض معطيات عصرنا تُظهر من معجزات نبينا ﷺ الكثير، فقد كان هذا وهذا محل تركيز في هذا الكتاب .

١١ ـ ثم إن المسلم في عصرنا يحتاج إلى أن تفتح أمامه آفاق جديدة على الحاضر والمستقبل التزاماً وتطبيقاً ، وأملاً وتفاؤلاً ، وإذ كانت النصوص تعطي هذا كله ، فقد كان هذا محل تركيز في الكتاب ، خاصة وأن بعض الموضوعات قد فهمت فهماً مغلوطاً انعكس على نفسية الأمة يأساً وإحباطاً .

١٢ ـ وكما أن بعض الموضوعات قد ركزت عليها شرحاً وتقديماً وتعليقاً وتلخيصاً وإلحاقاً إياها بمسائل وفوائد ، فإنني سردت أحاديث بعض الموضوعات سرداً؛ لرؤيتي أن حاجة المسلم هي تملّي هذه النصوص صِرفاً لم تُشَبْ بتعليقات الرجال .

١٣ ـ ومع هذا كله فإن هذا الكتاب لايعتبر شرحاً تقليديًّا للسنة ولا يعتبر تحقيقاً تقليديًّا لها ، ولكنه كتاب يعطيك السنة عن أقرب طريق ويعطيك فهماً لها عن أيسر طريق ، الحشو فيه مستبعد ، والتعقيد فيه متروك ، هذا مع المحاولة بألا يفوتك شيء من الهدي النبوي إن شاء الله .

١٤ ـ والأصل عندي أن أختصر ما أمكن ليسهل على القارئ الاستيعاب السريع ، ولذلك لم أكرر إلا حيث وجدت ملحظاً يقتضي التكرار : إمّا لإعلام أن أكثر من صحابي قد روى معنى من المعاني ، وإمّا لضرورة أن يكرر حديث في أكثر من مكان إلى غير ذلك من الضرورات ، ولقد أهملت بعض المعاني الفنية عمداً رغبة في الاختصار ، حيث أجد أن ما أذكره كاف ليثق المسلم فيعتقد ويعمل .

ومن باب الاختصار أيضاً أنني في بداية كل حديث أذكر من أخرجه ، ثم أحذف السند ، وأكتفي بالصحابي الذي رواه فأقول مثلاً : روى البخاري عن أبي هريرة .... وكان ينبغي أن يقال : روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ، ولكن حذفت الجار والمجرور تخفيفاً ، اعتماداً على أن هذا مفهوم من الكلام ، ويستطيع القارئ الكريم أن يقدره ، بناء على معرفته بشرط هذا الكتاب .

١٥ ـ وفي عملية جمع النصوص من أصول هذا الكتاب صادفني أن بعض الروايات موجودة في أكثر الأصول فلم أر أن أذكر الأصول كلها في العزو لأن ذلك يضخم حجم الكتاب دون فائدة للقارئ العادي ، ولذلك اختصرت في العزو بالقدر الذي يحقق الغرض ، وإذ كانت أكثر روايات الأصول الزائدة على الكتب الستة تكراراً لما في الكتب الستة ، فإنك لا تجد كثيراً من العزو إلى هذه الأصول ، فلا تظنن أن هذا قصور في الكتاب .

١٦ ـ وعلى عادتي فيما أؤلف فإنني لا أتوانى أن أنقل تحقيقات المحققين مما يحتاجه كتابي ، دون أن أحاول إعادة صياغته ، ولاحرج عَلَيَّ في كل ما فعلته فلقد درج علماء المسلمين خلال العصور على أن يعتبروا مجرد الدمج بين كتابين أو أكثر هدفاً ، وأن يعتبروا الانتقاء والاختيار من كتاب أو مجموعة كتب هدفاً ، وأن يزيد اللاحق على فعل السابق آخذاً جهده مضيفاً إليه هدفاً ،ومجرد تجميع الفوائد من كتب متعددة هدفاً .

فإذا حاولت أن أوجد عقد جوهر من جواهر مبثوثة ، فإني لا أجد حرجاً من أن أكثر النقل فقد لا يصل الكتاب المنقول عنه إلى قارئي فأكون وسيطاً ، ثم إن كثيرين يعرضون بعض الأمور عرضاً موفقاً قد لا أطيقه لو أني أردته ، فماذا لو أنني رصعت كتابي بفوائد أمثال هؤلاء ؟!

١٧ ـ وقد أفدت من تحقيقات البوصيري لزوائد ابن ماجه ، وتحقيقات عبد الله اليماني لجمع الفوائد وتحقيقات عبد القادر أرناؤوط لجامع الأصول وتحقيقات الهيثمي لمجمع الزوائد وتحقيقات الذهبي للحاكم وتحقيقات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة وناصر الألباني وشعيب الأرناؤوط وغيرهم ، فجزى الله الجميع خيراً .

١٨ ـ ولعل قصة الجهد الذي بذلناه في هذا الكتاب تجعل لنا عند أهل الإنصاف عُذراً فيما يرونه من تقصير ، فلكي أتجنب أخطاء النقل الكتابي ، ولكي لا يفوتني حديث من أحاديث الكتب التي قررت أن أجمع منها هذا الكتاب ، فقد جعلت كل حديث من أصول هذه الكتب في ورقة مستقلة تصويراً أو أخذاً مباشراً من نسخ هذه الكتب ، حتى إذا انتهى

هذا الجهد ، وجدتني أمام عشرات الآلاف من أوراق ، فبدأت بحذف الضعيف ، وضم النظير إلى النظير ، على ضوء نظرية جامعة في الترتيب والتبويب ، ثم كانت مرحلة ثانية وثالثة ورابعة ، وخامسة حتى استكمل هذا الكتاب شكله الذي أقدمه إليك .

ونرجو من أي إنسان عنده علم في السنة أن يقدم لنا ملاحظاته ، فنحن بفضل الله نفرح إن أهدانا أحد هدية الدلالة على خطأ .

* * *

أقسام الكتاب

وقد جعلت هذا الكتاب مقدمة وخمسة أقسام :

المقدمة : وفيها تعريف بهذا الكتاب ومنهج البحث فيه ، وإلمامة بأصوله ، وتعريف بالجهود الكبرى التي جمعت بين هذه الأصول و أفدت منها .

وجعلت القسم الأول من الكتاب في السيرة النبوية ، لأن التعريف بالرسول ﷺ مقدم على التعريف بالرسالة ، ولأن الإيمان بالرسول ﷺ هو المقدمة العادية لتلقي هديه .

وجعلت القسم الثاني في العقائد ، لأنها هي الأساس ، وعنها يصدر العمل وإذا صحت وجد القبول ، ولأنها أول ما يخاطب به الإنسان ، وهي المظهر الأول لدعوة رسول الله ﷺ فناسب أن يكون أول ما يطالعه الإنسان بعد سيرة رسول الله ﷺ العقائد ، وقد جمعت في قسم العقائد بين الفهم الفطري للنصوص ، ومباحث الأصوليين ، وتحقيق المحققين .

وجعلت القسم الثالث في العبادات الرئيسية وما هو ألصق بها .

وجعلت القسم الرابع في الأخلاقيات وأحكام الحياتيات والعاديات .

وجعلت القسم الخامس في الحكم وما هو ألصق به وفي حقوق الإنسان .

وسنرى أن الربط بين أبحاث كل قسم والتسلسل بين الأقسام كان قويّاً لدرجة يجعل الكتاب بعضه آخذاً برقاب بعض ، وقد لحظت في هذا الترتيب معاني تربوية ونفسية نرجو أن تكون ذا نفع .

* * *

وبعد : فهاك السنة النبوية تكاد تكون مجموعة في كتاب ، وإني لأرجو لمن قرأ هذا الكتاب وكتاب الأساس في التفسير وكتاب الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم ، أن يكون قد اجتمع له إبصار كامل بمواطن الحق والباطل والخطأ والصواب .

ولقد مرت على المسلمين أدوار ، دور كانوا يأخذون فيه الكتاب والسنة وحدهما ، ودور

أخذوا فيه الكتاب والسنة مع أقوال العلماء كلٌّ بدليله ، ودور أخذوا فيه أقوال العلماء بلا دليل وأهملوا دراسة الكتاب والسنة ، مع أن أكثر أقوال العلماء تبحث في غير الأمور المشهورة في الكتاب والسنة ، فحدث نتيجة لذلك أخطاء كثيرة ، وجهل عريض ،وغفلة كبيرة ، ولا أزعم أنه ليست لهذا استثناءات ولكنه هو الغالب ، ولعل جهدي في سلسلة (في المنهج) يشارك في إعادة الأمور إلى نصابها .

* * *

وها أنذا أكرر توجيه الدعوة لأهل العلم والفضل أن يوافوني بأي وجهة نظر - مباشرة أو عن طريق الناشر - أستكمل فيها ما فاتني ، أو أحرر فيها ما ذكرته ، أوأرصع بها هذا الكتاب ، فكل ذلك أفتح له صدري بل أطلبه ، وليس عندي من حرج أن يَرُدَّ عَلَيَّ من يردّ في كتاب أو مجلة سيارة أو في صحيفة ، فإنني أرجو أن أستفيد من ذلك كله ، لله وفي الله .

وإذا وجد أحد أن هذا الكتاب لم يبلغ الكمال فأي جهد بشري بلغ الكمال ؟! إنما هو خطوة في طريق جمع الأحاديث الصحيحة والحسنة لَعَلِّي أو لعل غيري يسير خطوات أخرى نحو الكمال والله الموفق ، وما يجد القارئ في هذا الكتاب من خير وسداد فمن الله تعالى وما يجد فيه من نقص وخلل فمني وأستغفر الله .

هذا وإني لأدعو الله - عز وجل - أن يتقبلني ويتقبل أعمالي وأن ينفع بها ، كما أنني أدعو لنفسي ولكل من ساعدني في إنجاز هذا المشروع أو انتفع به أن يتغمدنا الله وأهلينا وذرياتنا برحمته ، وأن يكرمنا برعايته ، إنه سميع مجيب .

(رب اغفر لي ولوالدي رب ارحمها كما ربياني صغيراً)

ثانيًا: تعريف بأصول هذا الكتاب ومصنفيها

أصول هذا الكتاب الحديثية سبعة عشر كتاباً، هي: صحيحا البخاري ومسلم، والسنن الخمسة لأبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي ، وموطأ الإمام مالك ، ومسانيد الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ، وصحيحا ابن خزيمة وابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، ومعاجم الطبراني الثلاثة .

والجامع لهذه الكتب لايستطيع إلا أن يستهدي بجمع من جمع منها ، احتياطاً في البحث ، واسترشاداً بجهود المتقدمين ، وبعض كتب الجمع هي السبيل الوحيد المتوفر عندي للوصول إلى مروياتها لأنها لم تطبع حتى تأليف هذا الكتاب .

وأهم ما انصبت عليه عملية الجمع قديماً جمع الأصول الستة للبخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي والموطأ ، وجمع زيادات بعض الكتب على الأصول الستة ولكن بتبديل الموطأ بابن ماجه ، وهي عملية الجمع التي قام بها نور الدين الهيثمي ، ثم الجمع بين الجامع للأصول ومجمع الزوائد ، مضافاً إليهما زيادات من ابن ماجه وسنن الدارمي ، والتي قام بها محمد بن محمد بن سليمان المغربي في كتابه جمع الفوائد .

ونحن في هذا الكتاب مع استرشادنا بكتاب جمع الفوائد الذي هو أرقى عمليات الجمع فقد جمعنا الروايات كلها من الأصول الأقرب حتى لاتفوتنا رواية من روايات الكتب الأصول فكانت المحصلة هي ما جمعناه لك أو اعتمدناه في هذا الكتاب .

وسنقدم لك في هذه الفقرة تعريفاً بأصول هذا الكتاب وأصحابها وتعريفاً ببعض من جمع الأصول الستة وبمجمع الزوائد وبجمع الفوائد .

* * *

١ ـ الإمام البخاري وصحيحه

قال ابن الأثير ـ صاحب جامع الأصول ـ في ترجمة البخاري :

هو أبو عبد الله : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجُعفي البخاريّ .

وإنما قيل له : الجُعْفي لأن المغيرة ـ أبا جدّه ـ كان مجوسياً ، أسلم على يد يمان البخاري ، وهو الجعفي والي بُخَارَى ، فَنُسب إليه حيث أسلم على يده .

وجُعْفي : أبو قبيلة من اليمن ، وهو جُعْفي بن سعد العشيرة بن مذحج ، والنسبة إليه كذلك .

ولد يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خَلَتْ من شوّال سنة أربع وتسعين ومائة ، وتوفي ليلة الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ، وعمره اثنتان وستون سنة ، إلا ثلاثة عشر يوماً ، ولم يعقب ذكراً .

والبخاري ـ الإمام في علم الحديث ـ رحل في طلب العلم إلى جميع محدثي الأمصار ، وكتب بخراسان والجبال ، والعراق والحجاز ، والشام ومصر ، وأخذ الحديث عن المشايخ الحفاظ .

منهم : مكي بن إبراهيم البلخي ، وعبدان بن عثمان المروزي ، وعبيد الله بن موسى العبْسي ، وأبو عاصم الشيباني ، ومحمد بن عبد الله الأنصاري ، ومحمد بن يوسف الفريابي ، وأبي نُعيم الفضل بن دُكَيْن ، وعلي بن المديني ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وإسماعيل بن أبي أويس المدني ،وغير هؤلاء من الأئمة .

وأخذ عنه الحديث خَلْقٌ كثير في كل بلدة حدث بها .

قال الفِرَبْري : سمع كتاب البخاري تسعون ألف رجل ، فما بقي أحد يروي عنه غيري ، وكذلك لايروى اليوم ـ صحيح البخاري ـ عن أحد سواه .

وردّ على المشايخ وله إحدى عشرة سنة ، وطلب العلم وله عشر سنين .

قال البخاري : خرجت كتاب الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث ، وما وضعت فيه حديثاً إلا صليت ركعتين .

وقدم البخاري بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذ الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوها على البخاري ، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث . فلما اطمأن المجلس بأهله ، وانتدب إليه رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال : لا أعرفه ، فسأله عن آخر ، فقال : لاأعرفه . حتى فرغ من العشرة . والبخاري يقول : لاأعرفه . فأما العلماء فعرفوا بإنكاره أنه عارف ، وأمَّا غيرهم فلم يدركوا ذلك منه . ثم انتدب رجل آخر من العشرة فكان حاله معه كذلك ، ثم انتدب آخر بعد آخر ، إلى تمام العشرة ، والبخاري لايزيد على قوله : لا أعرفه .

فلما فرغوا التفت إلى الأول منهم ، فقال : أما حديثك الأول ، فهو كذا ، والثاني كذا ، على النسق ، إلى آخر العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده ، وكل إسناد إلى متنه ، ثم فعل بالباقين مثل ذلك ، فأقر له الناس بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل .

الجامع الصحيح

قال الشيخ محمد أبو شهبة :

كان الأئمة قبل البخاري لايقصرون مؤلفاتهم على الأحاديث الصحيحة ، بل كانوا يجمعون بين الصحيح والحسن والضعيف ، تاركين التمييز بينها إلى معرفة القارئين والطالبين بنقد الأحاديث ، والتمييز بين المقبول والمردود ، إلى أن جاء البخاري فرأى أن يخص الصحيح بالتأليف ، فألف كتابه الصحيح ، وسماه :

(الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) .

وبذلك يكون الإمام البخاري قد خطا بالتأليف في الحديث خطوة موفقة يسرت

معرفة الحديث والاحتجاج به على الطالبين ، ولاسيا المتأخرين .

الحامل له على تأليف الصحيح :

وقد وجهه إلى هذا العمل الجليل كلمة سمعها من أستاذه إسحاق بن راهويه . روي عن البخاري أنه قال : كنت عند إسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ ، قال : فوقع في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح ، وقد قوّى عنده العزم رؤيا رآها فقد روي عنه أنه قال :

رأيت النبي ﷺ وكأني واقف بين يديه ، وبيدي مروحة أذب بها عنه ، فسألت بعض المعبرين فقال لي : أنت تذب الكذب عن حديث رسول الله ﷺ ، فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح .

منهج البخاري في جمع الصحيح :

لقد نهج البخاري في جمع صحيحه منهجاً يدعو إلى الثقة والاطمئنان إلى صحة أحاديثه ، وقد بالغ في التحري عن الرواة ، والتوثق من صحة المرويات ، وبذل في هذا أقصى ما وصل إليه الجهد الإنساني ، وما زال يوازن بين المرويات ، ويمحصها ، ويتخير منها ما تركن إليه نفسه حتى صار كتابه إلى الحالة التي هو عليها تحريراً وتنقيحاً ، يدل على ذلك ما روي عنه أنه قال : صنفت هذا الجامع من ستمائة ألف حديث ـ في ست عشرة سنة .

ومع أن البخاري اتبع في جمع صحيحه قواعد البحث العلمي الصحيح فقد استلهم الجانب الروحي من نفسه ، قال تلميذه الفربري . سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول : صنفت كتاب الجامع في المسجد الحرام ، وما أدخلت فيه حديثاً إلا استخرت الله ، وصليت ركعتين ، وتبينت صحته .

ومراده أنه بوب أبوابه ، ووضع أساسه في المسجد الحرام ، ثم بيض تراجمه ، وأصوله في

الروضة [1] بين قبر النبي ﷺ ومنبره ، ثم صار يجمع ما يتيسر له من الأحاديث ، ويضعها في أبوابها اللائقة بها في الحرمين وغيرهما من البلاد التي ارتحل إليها ،وقد مكث في تأليف صحيحه ست عشرة سنة ، وهو يحرر ويدقق ،وينتقي ويتخير ما هو على شرطه حتى جاء كتابه على ما أحب ، ويحبه طلاب الحقيقة ، ورواد البحث .

وبذلك اجتمع لهذا الكتاب الصحيح من دواعي التوفيق إلى الحق والصواب ما لم يجتمع لغيره ، فلا عجب أن كانت له منزلة سامية في نفوس العلماء ، وأن تلقته الأمة الإسلامية بالقبول والاطمئنان إلى ما فيه ، وأن استحق أن يطلق عليه أنه أصح الكتب المدونة في الحديث النبوي .

براعة البخاري في النقد :

وللإمام البخاري في تعديل الرجال وتجريحهم ، ونقد المتون ، ونقد الرواية شروط عالية دقيقة ، وشفوف نظر ، وملكة عجيبة اكتسبها من طول ما بحث ، ونقد ، ومن طول ما عرض له من علل الأسانيد والمتون وذلك : كالنطاسي البارع الذي يحصل له من طول ملازمته لمهنة الطب وكثرة ما عرض عليه من الأمراض ، نوع من العلم ، قد يصل إلى حد الإلهام ، بالعلل والأمراض ، والوقوف على حقيقتها ومكامنها مهما كانت خفية ، أو كانت عوارضها غير واضحة . وكالصيرفي الماهر الذي اكتسب بطول ملازمته الصيرفة التمييز بين النقود الجيدة السليمة ، والنقود الزائفة وربما تسأله عن السبب في الحكم عليها فلا يجيب .

وهذه الملكة في التمييز بين الصحيح من الحديث والعليل تكاد تكون عند معظم أئمة الحديث وجهابذته ، وإن كانوا يتفاوتون فيها على حسب الأصالة في النقد والاستعداد ، وسعة الاطلاع ولعلك لمحت هذا التنظير بين المحدثين والأطباء في كلمة الإمام مسلم للبخاري : (يا أستاذ الأستاذين ، وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث في علله) وبين المحدثين والصيارفة في تعبيرهم عن نقاد الحديث : (صيارفته) .

---

(١) في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » .

شروط البخاري في التصحيح في القمة :

من المعروف المقرر عند أئمة الحديث وعلمائه أن شروط الحديث الصحيح أن يكون : راويه مسلماً ، عاقلاً ، صادقاً ، غير مدلس ولا مختلط [١] ، متصفاً بصفات العدالة [٢] ، ضابطاً لما يرويه ، متحفظاً عليه ، سليم الذهن والحواس التي لابد منها في السماع والضبط ، قليل الوهم - الغلط - سليم الاعتقاد .

وأن يكون إسناده [٣] متصلاً ، فلا إرسال فيه ، ولا انقطاع ، ولا إعضال [٤] وأن يكون متن الحديث غير شاذ ، ولا معلل [٥] .

فإذا اجتمعت هذه الشروط في الحديث كان صحيحاً - يعني في نسبته إلى قائله - وترجح ترجحاً قوياً في صدق هذه النسبة يكاد يصل عند أهل هذا الفن المتمرسين فيه إلى حد العلم واليقين .

ومن ثم يتبين لنا أن الشروط التي وضعها المحدثون لصحة الحديث تقتضي الثقة والطمأنينة ، وترجح جانب الصدق على الكذب ، والصواب على الخطأ ، ومما ينبغي أن يعلم أن البخاري لم ينقل عنه أنه قال : شرطي في صحيحي كذا وكذا على التفصيل والتصريح كما يصنع بعض المؤلفين ،وإنما عرف ذلك من سبر [٦] كتابه ، والبحث فيه .

---

(١) المدلس : هو الذي يروي عمن عاصره مالم يسمعه منه موهماً أنه سمعه منه . والمختلط : هو الذي طرأ عليه كثرة الغلط أو الخطأ بسبب كبر سن أو عمى أو ضياع كتبه مثلاً .

(٢) العدالة : ملكة أي حالة نفسية راسخة تحمل على ملازمة التقوى ، والمروءة . والتقوى : امتثال المأمورات واجتناب المنهيات فلا يفعل كبيرة ولا يصر على صغيرة ، ولا يكون مبتدعاً بدعة تخل بعدالته . والمروءة : اداب نسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات فيترفع عن صغائر الخسة ، والمباحات التي تواضع العرف على إخلالها بالكرامة .

(٣) السند والإسناد : هم الرواة الذين يروون الحديث .

(٤) المرسل : من الحديث : ما حذف من سنده الصحابي ، والمنقطع : ما حذف من سنده راو واحد غير الصحابي ولو فى مواضع ، والمعضل : ما حذف من سنده إثنان فأكثر على التوالي .

(٥) الشاذ : هو الحديث الذي خالف فيه الثقة من هو أوثق منه ، والمعلل : ما اطلع فيه على علة خفية غامضة تطعن في صحة الحديث .

(٦) اختبرها وتعرف عليها .

والـذي استخلصـه العلمـاء بعـد البحث والتتبـع أن الإمـام البخـاري في صحيحــه التزم أعلى درجات الصحة ، ولا ينزل عن هذه الدرجة إلا في بعض الأحـاديث التي ليست من أصل موضوع الكتاب كالمتابعات والشواهد [١] ، والأحاديث المروية عن الصحابة والتابعين .

وليس من شك في أن الرواة يتفاوتون في الأخذ عن شيوخهم إتقاناً وضبطاً ، وطول ملازمـة ومصاحبة وقلة ذلك ، كما يتفاوتون في العدالة والأمـانـة ، والبخـاري في صحيحـه إنمـا يعتمـد من الرواة من كانوا في أعلى الدرجات من هذه الصفات وسأوضح ذلك بمثال : ذلك أن تلامذة الإمـام الزهري مثلاً على خمس طبقات ودرجات ولكل طبقة مزية على التي تليها :

الطبقة الأولى : هم الذين امتـازوا بـالعـدالـة والحفـظ والإتقـان والأمـانـة ، وطول الملازمـة للزهري في السفر والحضر مثل : مالك وسفيان بن عيينة ورجال هذه الطبقة هم مقصد البخـاري في صحيحه .

الطبقة [٢] الثـانيـة : وهم الـذين شـاركوا الأولى في التثبت والأمـانـة ، إلا أن رجـال الأولى امتـازوا بطول المصـاحبـة للزهري سفراً وحضراً ،أما رجال الثـانيـة فلم يلازموا الزهري إلا مـدة يسيرة فكانوا في الإتقان والمعرفة بحـديثـه دون الأولى ، وذلـك مثل : الأوزاعي والليث بن سعـد ورجال هذه الدرجة الثانية يعتمد رواياتهم الإمام مسلم ، أما البخـاري فلا يخرج من أحـاديثهم إلا قليلاً في غير أصول الكتاب كما ذكرنا آنفاً .

الطبقة الثالثة : وهم من دون الثانيـة مثل : جعفر بن برقـان وزمعـة بن صـالح ، فلا يخرج لهم البخاري أصلاً ، وقد يخرج لهم في المتابعات والشواهد .

أما رجال الطبقة الرابعة والخامسة : وهم المجروحون والضعفاء فلا يخرج لهم البخاري ومسلم .

وهكذا يتبين لنا أن شرط البخاري في صحيحه في القمة .

* * *

(١) المتابعة : موافقة راو لراو آخر في رواية لفظ الحديث ، والشاهد : الحديث الذي يوافق حديثاً آخر في معناه .

(٢) الطبقة : هم الرواة الذين تقاربوا في السن ولقاء الشيوخ .

٢ ـ الإمام مسلم وصحيحه

قال ابن الأثير في ترجمة مسلم :

هو أبو الحسين : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، أحد الأئمة الحفاظ .

ولد سنة ست ومائتين ، وتوفي عشية يوم الأحد لست بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين .

رحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر .

وأخذ الحديث عن يحيى بن يحيى النيسابوري ، وقتيبة بن سعيد ، وإسحاق بن راهويه ، وعلي بن الجعد ، وأحمد بن حنبل ، وعبيد الله القواريري ، وشريح بن يونس ، وعبد الله بن مَسْلَمة القعْنبيِ ، وحرملة بن يحيى ، وخلف بن هشام ، وغير هؤلاء من أئمة الحديث وعلمائه .

وقدم بغداد بغير مرة وحدث بها .

روى عنه خلق كثير ؛ منهم : إبراهيم بن محمد بن سفيان ، ومن طريقه روينا صحيحه ، وكان آخر قُدومه بغداد سنة سبع وخمسين ومائتين .

قال أحمد بن سلمة : رأيت أبا زُرعة وأبا حاتم يُقَدِّمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على أهل عصرهما .

وقال الحسن بن محمد الماسِرْجِسي : سمعت أبي يقول : سمعت مسلماً يقول : صنفت (المسند الصحيح) من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة .

وقال محمد بن إسحاق بن منده ، سمعت أبا عليّ بن عليّ النيسابوري يقول : ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث .

وقال أبو عمرو محمد بن حمدان الحيري : سألت أبا العباس بن عُقْدة عن محمد بن إسماعيل البخاري ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري أيهما أعلم ؟

فقال : كان البخاري عالماً ، وكان مسلم عالماً ، فكررت عليه مراراً وهو يجيبني بمثل هذا

الجواب ، ثم قال : يا أبا عمرو : قد يقع للبخاري الغلط في أهل الشام ، وذلك أنه أخذ كتبهم ، فنظر فيها ، فربما ذكر الواحد منهم بكنيته ، ويذكره في موضع آخر باسمه ، ويتوهم أنهما اثنان ، فأما مسلم ، فقلما يقع له الغلط ، لأنه كتب المقاطيع والمراسيل .

وقال محمد بن يعقوب الأخرم ـ وذكر كلاماً معناه ـ : قلما يفوت البخاري ومسلماً مما يثبت في الحديث حديث .

قال الخطيب أبو بكر البغدادي : إنما قفا مسلم طريق البخاري ، ونظر في علمه وحذا حذوه .

ولما ورد البخاري نيسابور في آخر مرة ، لازمه مسلم ، وأدام الاختلاف إليه .

وقال الدارقطني : لولا البخاري لما ذهب مسلم ولا جاء .

صحيح الإمام مسلم

وهو أحد الكتابين اللذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل ، واللذين تلقتهما الأمة الإسلامية بالقبول .

وقد بالغ الإمام مسلم في البحث والتحري عن الرجال ، والتحيص للمرويات ، والموازنة بينها ، والتدقيق في تحرير الألفاظ ، والإشارة إلى الفروق بينها ، حتى جاء صحيحه على الهيئة الكاملة ، التي ينشدها أهل البحث والمعرفة .

وليس أدل على هذا من أنه انتقى كتابه من ألوف الروايات المسموعة ، روى عنه أنه قال : (صنفت هذا الصحيح من ثلثمائة ألف حديث) .

والكتاب ثمرة حياة مباركة استغلها صاحبها في السفر والارتحال والكد والجد ، والجمع والحفظ ، والكتابة والتنقيح ، حتى كان كما ترى صحة وتهذيباً وتنسيقاً ، وقد مكث هو وبعض تلاميذه يكتبون ويحررون حتى تم تأليفه في خمس عشرة سنة .

روي عن أحمد بن سلمة أنه قال : كتبت مع مسلم في تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وهو اثنا عشر ألف حديث .

فلا تعجب إذا كان مسلم يشيد بذكر صحيحه فيقول ـ تحدثاً بنعمة ربه عليه ـ : لو أن أهل الأرض يكتبون الحديث مائتي سنة ما كان مدارهم إلا على هذا المسند .

ويدل على شدة تحريه ، واستيثاقه من المرويات قوله : ما وضعت شيئاً في كتابي هذا إلا بحجة ، وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة .

سماحة الإمام في البحث :

ولم يكن مسلم متعصباً لرأيه بل كان يتسم بسمة العلماء الذين يبتغون الحق ، ولا عليهم لو ظهر على لسان أي شخص كان ، ولا يرون غضاضة في الرجوع إلى الحق إذا ظهر ، بل يعتبرونه فضيلة .

وبعد انتهائه من تدوين صحيحه عرضه على أئمة هذا العلم النبوي الشريف . روى الخطيب بإسناده عن مكي بن عبدان أحد حفاظ نيسابور قال : سمعت مسلماً يقول : عرضت كتابي هذا على أبي زرعة الرازي [١] ، فكل ما أشار أنه له علة تركته ، وكل ما قال إنه صحيح وليس له علة خرجته .

وهذا غاية التواضع ، وعدم الاغترار بالنفس ، والإعجاب بالرأي ، وهو أدب عال من آداب البحث في الإسلام .

منهج مسلم في صحيحه :

لم ينص الإمام مسلم على أن شرطه في صحيحه [٢] هو كذا ، وإنما استخرج العلماء ذلك من النظر في كتابه ؛ والذي استخلصوه أن شرطه في صحيحه أنه لا يخرج الأحاديث إلا عن العدول الضابطين ، الموثوق بصدقهم وأمانتهم ، وحفظهم ويقظتهم وعدم غفلتهم ، كما يخرج عمن دون ذلك من الرواة وأنه لا يخرج في كتابه بالأصالة إلا الأحاديث المسندة المتصلة المرفوعة إلى النبي ﷺ .

---

(١) هو حافظ عصره عبيد الله بن عبد الكريم ، كان من أفراد الدهر حفظاً ودكاء وديناً ، وإخلاصاً . وعلماً وعملاً ، وكانت وفاته سنة أربع وستين ومائتين .

(٢) وذلك فيما عدا العنعنة فقد ذكر في مقدمة صحيحه اكتفاءه في إفادتها الاتصال بالمعاصرة ولم يشترط اللقي وأنحى باللائمة على من اشترطه أيضاً .

ومعنى هـذا أنـه لم يلزم نفسـه بمـا التزم بـه البخـاري من مراعـاة مستـوى خـاص في الروايـة والرواة ، بل توسع في شرطه فروى عن رواة لم يرو لهم البخـاري في صحيحـه ، ولعلـك على ذكر من المثال الذي ذكرناه أثناء الكلام على شرط البخاري في صحيحـه ، وهو أن تلامـذة الإمـام ابن شهاب الزهري على خمس طبقات : الأولى ، ثم الثانيـة ، ثم الثـالثـة ، ثم الرابعـة ، ثم الخـامسـة ، ولكل طبقة مزية على التي تليها في الحفظ والإتقان وطول الملازمة والصحبة .

وقد ذكرنا هناك أن البخاري يخرج أحاديث الطبقـة الأولى ، ويخرج من أحـاديث الطبقـة الثانية قليلاً وفي غير أصول الكتاب .

أما مسلم فيخرج أحاديث رجـال الطبقـة الأولى والثـانيـة استيعـاباً ، ويخرج من أحـاديث الطبقة الثالثة قليلاً ، وذلك في المتابعات والشواهد لا في أصل الكتـاب ، ولعل فيما ذكره مسلم في مقدمة صحيحه ما يلقي لنا ضوءاً نتعرف به شرطه في صحيحـه ذلـك أنـه قسم الأحـاديث ثلاثـة أقسام :

الأول : ما رواه الحفاظ المتقنون .

الثاني : ما رواه المستورون المتوسطون في الحفظ والإتقان .

الثالث : ما رواه الضعفاء والمتروكون وقد ذكر أنه إذا فرغ من القسم الأول أتبعه الثـاني وأمـا الثالث فلا يعرج عليه [1] وهو يؤيد ما ذكرناه .

خصائص صحيح مسلم :

وقد امتاز صحيح مسلم بأن مؤلفـه سلـك فيـه طريقـة حسنـة ، ذلـك أنـه يجمع المتون كلهـا بطرقهـا في موضع واحـد ، ولا يفرقهـا في الأبـواب ، ولا يكررهـا إلا في القليـل النـادر ، إلا إذا كانت هناك ضرورة لهذا التكرار كفائدة زائدة في سند الحديث أو متنه .

وقـد سهل لـه هـذا المنهج أنـه لم يقصـد أن يضم إلى جمـع الأحـاديث بيـان فقههـا واستنبـاط الأحكام والآداب منها .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ٤٨ .

أما البخاري فقد قصد إلى ذلك فمن ثم اضطر إلى طريقته التي سلكها في صحيحه .

ومن هذه الخصائص : التدقيق في الألفاظ ، والمحافظة على اللفظ ما وسعه الأمر حتى إذا خالف راوٍ راويا آخر في لفظه والمعنى واحد فرواها بعضهم بلفظ والآخر بلفظ آخر ، بيّنَهُ ، وكذا إذا قال راوٍ (حدثنا) وقال آخر (أخبرنا) [1] بيّن الخلاف في ذلك ، وكذلك إذا روى الحديث جماعة وكانت هناك مغايرة في بعض الألفاظ فإنه يبين أن اللفظ المذكور من رواية فلان ، ولذا تجده يقول في هذا النوع من الحديث : (واللفظ لفلان) وهذا غاية الدقة والأمانة في النقل اللتين امتاز بهما مثل الإمام مسلم .

وأيضاً فقد حرص مسلم أن لايذكر في كتابه إلا الأحاديث المسندة المرفوعة ـ أي المنسوبة إلى النبي ﷺ ـ فلذلك لم يذكر أقوال الصحابة ولا التابعين وليس فيه بعد المقدمة إلا الأحاديث المرفوعة .

وكذلك لم يكثر مسلم في كتابه من الأحاديث المعلقة [2] فليس فيه إلا اثنا عشر حديثاً وهي في المتابعات لا في أصول الكتاب ومقاصده ، هذا وهناك ـ غير ما ذكرنا ـ خصائص تظهر لمن يدرس الكتاب حق الدرس .

* * *

---

(١) الذي عليه جمهور المحدثين ـ ومنهم مسلم ـ التفرقه بين حدثنا ، وأخبرنا ، فالأول : بما سمعه الراوي من لفظ شيخه ، والثاني : لما قرأه التلميذ على شيخه .

(٢) هي ما حذف من مبتدأ إسنادها واحد أو أكثر .

٣ ـ الإمام أبو داود وسننه

قال ابن الأثير في ترجمة أبي داود :

هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني ، أحد من رحل وطوف ، وجمع وصنف ، وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين .

ولد سنة اثنين ومائتين ، وتوفي بالبصرة لأربع عشرة بقيت من شوال سنة خمس وسبعين ومائتين .

وقدم بغداد مراراً ، ثم خرج منها آخر مراته سنة إحدى وسبعين .

وأخذ الحديث عن مسلم بن إبراهيم ، وسليمان بن حرب ، وعثمان بن أبي شيبة وأبي الوليد الطيالسي ، وعبد الله بن مسلمة القعنبي ، ومُسدَّد بن مُسَرْهَد ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة بن سعيد ، وأحمد بن يونس ، وغير هؤلاء من أئمة الحديث ، ممن لا يحصى كثرة .

وأخذ الحديث عنه : ابنه عبد الله ، وأبو عبد الرحمن النسائي ، وأحمد بن محمد الخلال ، وأبو علي محمد بن عمرو اللؤلؤي ، ومن طريقه نروي كتابه .

وكان أبو داود سكن البصرة .

وقدم بغداد ،وروى كتابه المصنَّف في (السنن) بها ، ونقلها أهلها عنه ، وصنفه قديماً ، وعرضه على أحمد بن حنبل ، فاستجاده واستحسنهُ .

قال أبو بكر بن دَاسَة : قال أبو داود : كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب ـ يعني كتاب السنن ـ جمعت فيه أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث ذكرت الصحيح ، وما يشبهه ويقاربه . ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث .

أحدها : قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات » .

والثاني : قوله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركُهُ مالا يعنيه » .

والثالث : قوله ﷺ : « لايكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه مايرضاه لنفسه » .

والرابع : قوله ﷺ : « إن الحلال بيّن ، وإن الحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات ... » الحديث .

وقال أبو بكر الخلال : أبو داود : سليمان بن الأشعث : الإمام المقدم في زمانه ، رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بمواضعها أحد في زمانه ، رجل ورع مقدم .

وكان إبراهيم الأصفهاني ، وأبو بكر بن صَدَقَة ، يرفعان من قدره ، ويذكرانه بما لا يذكران أحداً في زمانه بمثله .

وقال أحمد بن حنبل بن ياسين الهروي : كان سليمان بن الأشعث ، أبو داود ، أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ ، عِلْمِهِ وَعِلَلِهِ وَسَنَدِهِ ، وكان في أعلى درجة من النسك والعفاف ، والصلاح والورَع ، من فرسان الحديث .

وقال محمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق : كان لأبي داود كُمٌّ واسع وكُمٌّ ضيق ، فقال له : يرحمك الله ! ما هذا ؟ قال : الواسع للكتب ، والآخر لانحتاج إليه .

وقال أبو سليمان الخطابي : كتاب (السنن) لأبي داود ، كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله ،وقد رزق القبول من كافة الناس ، على اختلاف مذاهبهم ، فصار حَكَماً بين فرق العلماء ، وطبقات الفقهاء ، فلكل فيه ورد ، ومنه شرب ، وعليه معول أهل العراق ومصر وبلاد المغرب ،وكثير من مدن أقطار الأرض ، فأما أهل خراسان ، فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل البخاري ، وكتاب مسلم بن الحجاج النيسابوري .

وقال : قال أبو داود : ما ذكرت في كتابي حديثاً اجتمع الناس على تركه .

وكان تصنيف علماء الحديث قبل زمان أبي داود : (الجوامع) و (المسانيد) ونحوهما ، فتجمع تلك الكتب - إلى ما فيها من (السنن) و (الأحكام) - أخباراً وقصصاً ، ومواعظ

وأدباً . فأما (السنن) المحضة ، فلم يقصد أحد منهم إفرادها واستخلاصها من أثناء تلك الأحاديث ، ولا اتفق له ما اتفق لأبي داود ، ولذلك حل هذا الكتاب عند أئمة الحديث وعلماء الأثر محل العجب ، فضربت إليه أكباد الإبل ، ورامت إليه الرحل .

قال إبراهيم الحربي لما صنف أبو داود هذا الكتاب ، أُلين لأبي داود الحديث ، كما أُلين لداود عليه السلام الحديد .

وقال ابن الأعرابي عن كتاب أبي داود : لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله ـ عز وجل ـ ثم هذا الكتاب ، لم يحتج معهما إلى شيء من العلم بتة .

* * *

٤ ـ الإمام الترمذي وسننه

قال ابن الأثير في ترجمة الترمذي :

هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السُّلمي الترمذي ، ولد سنة تسع ومائتين .

وتوفي بـ (ترمذ) ليلة الاثنين الثالث عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، وهو أحد العلماء الحفاظ الأعلام ، و له في الفقه يد صالحة .

أخذ الحديث عن جماعة من أئمة الحديث ، ولقي الصدر الأول من المشايخ مثل : قتيبة بن سعيد ، وإسحاق بن موسى ، ومحمود بن غيلان ، وسعيد بن عبد الرحمن ، ومحمد بن بشار ، وعلى بن حجر ، وأحمد بن منيع ، ومحمد بن المثنى ، وسفيان بن وكيع ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، وغير هؤلاء ، وأخذ عن خلق كثير لايحصون كثرة .

وأخذ عنه خلق كثير : منهم محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي المروزي ، ومن طريقه روينا كتابه (الجامع) .

وله تصانيف كثيرة في علم الحديث ، و هذا كتابه (الصحيح) أحسن الكتب وأكثرها فائدة ، وأحسنها ترتيباً ، وأقلها تكراراً ، وفيه ما ليس في غيره : من ذكر المذاهب ، ووجوه الاستدلال ، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح والحسن والغريب ، وفيه جرح وتعديل ، وفي آخره كتاب (العلل) قد جمع فيه فوائد حسنة لا يخفى قدرها على من وقف عليها .

قال الترمذي ـ رحمه الله تعالى ـ : صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز فرضوا به ،وعرضته على علماء العراق فرضوا به ، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به ، ومن كان في بيته هذا الكتاب ، فكأنما في بيته نبي يتكلم .

وقال الترمذي : كان جدي مروزيا انتقل من مرو ، أيام الليث بن سيار .

* * *

٥ ـ الإمام النسائي وسننه

قال ابن الأثير في ترجمة النسائي :

هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على بن بحر بن سنان النسائي ، ولد سنة خمس وعشرين ومائتين .

ومات بمكة سنة ثلاثة وثلاثمائة ، و هو مدفون بها .

قال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري : سمعت أبا علي الحافظ غير مرة يذكر أربعة من أئمة المسلمين رآهم فيبدأ بأبي عبد الرحمن .

وهو أحد الأئمة الحفاظ العلماء ، لقي المشايخ الكبار .

وأخذ الحديث عن قتيبة بن سعيد ، وإسحاق بن إبراهيم ،وحميد بن مسعدة وعلي بن خشرم ، ومحمد بن عبد الأعلى ، والحارث بن مسكين ، وهَنَّاد بن السَّري ، ومحمد بن بشار ، ومحمود بن غيلان ، وأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، وغير هؤلاء من المشايخ الحفاظ .

وأخذ عنه الحديث خلق كثير ، منهم : أبو بشر الدولابي ـ وكان من أقرانه ـ وأبو القاسم الطبراني ، وأبو جعفر الطحاوي ، ومحمد بن هارون بن شُعيب ، وأبو الميمون بن راشد ، وإبراهيم بن محمد بن صالح بن سنان ، وأبو بكر أحمد بن إسحاق السُّنِّيّ الحافظ ، ومن طريقه روينا كتابه (السنن) .

وله كتب كثيرة في الحديث والعلل ، وغير ذلك .

قال مأمون المصري الحافظ : خرجنا مع أبي عبد الرحمن إلى طرسوس سنة الفداء ، فاجتمع جماعة من مشايخ الإسلام ، واجتمع من الحفاظ عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ومحمد ابن إبراهيم مُرَبَّعٌ ، وأبو الآذان ، وكِيْلَجَةَ وغيرهم ، فتشاوروا من ينتقى لهم على الشيوخ ؟ فاجتمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي ، وكتبوا كلهم بانتخابه .

وقال الحاكم النَّيْسابوري : أما كلام أبي عبد الرحمن على فقه الحديث فأكثر من أن يذكر ، ومن نظر في كتاب السنن له تحير في حسن كلامه .

وقال : سمعت علي بن عمر الحافظ غير مرة يقول : أبو عبد الرحمن مُقدَّم على كل من يذكر بهذا العلم في زمانه .

وكان شافعي المذهب ، له مناسك ، ألفها على مذهب الشافعي وكان ورعاً متحرياً ، ألا تراه يقول في كتابه (الحارث بن مسكين قراءة عليه ، وأنا أسمع) ولا يقول فيه : (حدثنا) ولا (أخبرنا) كما يقول عن باقي مشايخه .

وذلك : أن الحارث كان يتولى القضاء بمصر ،وكان بينه وبين أبي عبد الرحمن خشونة ، لم يمكنه حضور مجلسه ، فكان يستتر في موضع ، ويسمع حيث لا يراه فلذلك تورع وتحرى فلم يقل : حدثنا وأخبرنا .

وقيل : إن الحارث كان خائضاً في أمور تتعلق بالسلطان ، فقدم أبو عبد الرحمن فدخل إليه في زي أنكره ، قالوا : كان عليه قباء طويل ، وقلنسوة طويلة فأنكر زيَّه ، وخاف أن يكون من بعض جواسيس السلطان ، فمنعه من الدخول إليه فكان يجيء فيقعد خلف الباب ويسمع ما يقرؤه الناس عليه من خارج ، فمن أجل ذلك لم يقل فيما يرويه عنه (حدثنا ، وأخبرنا) .

وسأل بعض الأمراء أبا عبد الرحمن عن كتابه (السنن) : أكله صحيح ؟ فقال : لا ، قال : فاكتب لنا الصحيح منه مجرداً ، فصنع المجتبى ، فهو (المجتبى من السنن) ترك كل حديث أورده في (السنن) مما تُكُلِّم في إسناده بالتعليل ، والله أعلم بالصواب .

* * *

٦ ـ ابن ماجه وسننه

قال الشوكاني :

وأما ابن ماجـه فهو أبو عبـد الله محمـد بن يزيـد بن عبـد الله بن مـاجـه القزويني مولى ربيعة بن عبد الله .

ولد سنة تسع ومائتين ، ومات يوم الثلاثـاء لثان بقين من رمضـان سنـة ثلاث أو خمس وسبعين ومائتين .

وهو أحـد الأعلام المشـاهير ، ألف سننـه المشهورة ، وهي إحـدى السنن الأربع وإحـدى الأمهات الست . وأول من عدها من الأمهات ابن طاهر في الأطراف ثم الحافظ عبـد الغني ، قال ابن كثير : إنها كتاب مفيد قوي التبويب في الفقه .

رحل ابن ماجه وطوّف الأقطار وسمع من جماعة منهم أصحـاب مـالـك والليث ،وروى عنه جماعة منهم أبو الحسن القطان .

وقد تحدث صاحب الرسالة المستطرفة عن ابن ماجه وسننه بقوله :

وسنن أبي عبد الله محمد بن يزيد المعروف بابن ماجه ، وهو لقب أبيه لا جده ، ولا أنـه اسم لأمه خلافاً لمن زعم ذلك ، وهاؤه ساكنة وصلاً ووقفاً لأنـه اسم أعجمي ، الربعي نسبـة إلى ربيعـة مولاهم ، القزويني نسبـة إلى قزوين مـدينـة مشهورة بعراق العجم ، المتـوفى سنـة ثلاثة أو خمس وسبعين ومائتين .

وهي التي كملت بهـا الكتب الستـة والسنن الأربعـة بعـد الصحيحين ، واعتنى بـأطرافهـا الحافظ ابن عساكر ثم المزي مع رجالها ، ولم يذكر ابن الصلاح والنووي وفاته ، كما لم يـذكرا كتـابـه في الأصول ، بـل جعـلاهـا خمسـة فقـط تبعـاً لمتقـدمي أهـل الأثر وكثير من محققي متأخريهم .

ولما رأى بعضهم كتابه كتاباً مفيداً قوي النفع في الفقه ورأى من كثرة زوائده على الموطأ أدرجه على ما فيه في الأصول وجعلها ستة .

وأول من أضافه إلى الخمسة مكملاً به الستة أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي في أطراف الكتب الستة له ، وكذا في شروط الأئمة الستة له ، ثم الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي في الكمال في أسماء الرجال ، أي رجال الكتب الستة ، الذي هذبه الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي ـ بكسر الميم وتشديد الزاي المكسورة ، نسبة إلى المزة قرية بدمشق ـ فتبعهما على ذلك أصحاب الأطراف والرجال والناس ، ومنهم من جعل السادس الموطأ كرزين بن معاوية العبدري في التجريد ، وأثير الدين أبي السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري الشافعي في جامع الأصول .

وقال قوم من الحفاظ منهم ابن الصلاح والنووي وصلاح الدين العلائي والحافظ ابن حجر : لو جعل مسند الدارمي سادساً كان أولى ، ومنهم من جعل الأصول سبعة فعد منها زيادة على الخمسة كلاً من الموطأ وابن ماجه ، ومنهم من أسقط الموطأ وجعل بدله سنن الدارمي ، والله أعلم .

وقد تحدث الدكتور محمد أديب الصالح في كتابه (لمحات في أصول الحديث) عن سنن ابن ماجه فقال :

أحد السنن الأربع ، وأحد الكتب الستة والأمهات : الصحيحين والسنن الأربع ، وإنه ـ بشهادة العلماء الأثبات ـ غزير الفقه والفوائد ، وفيه الكثير من الزيادات على الموطأ ، بل والزيادات على الكتب الخمسة ، فقد روى عنه الحافظ الذهبي أنه قال : عرضت هذه السنن على أبي زرعة فنظر فيه وقال : أظن إن وقع هذا في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع أو أكثرها ، ثم قال : لعله لايكون فيه تمام ثلاثين حديثاً مما في إسناده ضعيف . ووصفه الحافظ ابن كثير بأنه كتاب مفيد قوي التبويب في الفقه .

ومع شهادة العلماء بجودة هذا الكتاب لم يغفلوا ذكر ما فيه من الضعيف ، قال ابن حجر : كتابه في السنن ـ يعني ابن ماجه ـ جامع جيد كثير الأبواب والغرائب وفيه أحاديث ضعيفة جداً ، وقد نقل مثل هذا الكلام عن ابن الأثير أيضاً : وكل هذه الأحاديث معروف

عند العلماء متميز عن غيره من الصحيح . ولكن عدد الضعيف قليل إذا قيس بعدد الأحاديث التي يشتمل عليها الكتاب ، فقد ذكر أبو الحسن القطان ـ من أصحاب ابن ماجه ـ أن في السنن ـ يعني سنن ابن ماجه ـ ألفاً وخمسمائة باب ، وجملة ما فيها أربعة آلاف حديث . وهذه الجملة دقق فيها أحد علماء العصر الحديث ، محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله ، فبلغت في تعداده (٤٣٤١) حديثاً . من هذه الأحاديث (٣٠٠٢) حديثاً أخرجها أصحاب الكتب الخمسة كلهم أو بعضهم ، ولكنه هو رواها من طرق غير طرقهم ، وباقي الأحاديث مما يحتج به عند العلماء . وتفصيل الزوائد ـ كما أثبتها محمد فؤاد عبد الباقي فى آخر الجزء الثاني من (سنن ابن ماجه) كما يلي :

(٤٣٨) أحاديث رجالها ثقات ، وصحيحة الإسناد .

(١٩٩) أحاديث حسنة الإسناد .

(٦١٣) أحاديث ضعيفة الإسناد .

(٩٩) أحاديث واهية الإسناد أو منكرة أو مكذوبة .

وبعد هذا التقسيم قرر رحمه الله أن من مزايا الكتاب : ... رواية أحاديث الكتب الخمسة من طرق أخرى يؤيد بعضها بعضاً مما يعطي الأحاديث قوة على قوة ، ثم كون الأحاديث ـ صحيحة الإسناد وحسنة الإسناد ـ تشكل عدداً كبيراً مما انفرد به ، فإذا أضيف هذا إلى مزاياه الأخرى ظهرت لنا قيمة هذا الكتاب بشكل جلي .

* * *

٧ ـ الدارمي وسننه

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

وسنن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد التميمي السمرقندي الدارمي ، نسبة إلى دارم بن مالك بطن كبير من تميم ، المتوفى بمرو سنة خمس وخمسين ومائتين ، وله أسانيد عالية وثلاثياته [١] أكثر من ثلاثيات البخاري .

قال الدكتور أديب الصالح :

وذهب جماعة من العلماء منهم ابن الصلاح والنووي والحافظ ابن حجر إلى أنه لو جعل مسند الدارمي سادساً (أي سادس كتب السنة المعتمدة) لكان أولى .

وقد قدم محقق سنن الدارمي : محمد أحمد دهمان ، للسنن معرفاً بالسنن وبمؤلفها فقال :

هو الحافظ الكبير ، شيخ الإسلام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ابن عبد الصمد التميمي السمرقندي الدارمي ـ بكسر الراء ـ نسبة إلى دارم بن مالك بن حنظلة ابن زيد مناة بن تميم أحد بطونه .

روى ابن عساكر بسنده إلى أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم الوراق قال : سمعت أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن يقول : ولدت سنة مات ابن المبارك سنة ١٨١هـ .

نشأ على غاية من العقل والديانة يضرب به المثل في الحلم والدراية والحفظ والعبادة والزهد . ورحل في طلب الحديث فدخل مصر والشام والعراق والحرمين ، وأظهر علم الحديث والآثار بسمرقند ، وذب عنها الكذب ، وكان مفسراً كاملاً ،وفقيهاً عالماً ، طلب للقضاء على سمرقند فأبى ، فألح عليه السلطان حتى تقلده فقضى مرة واحدة ثم استعفى فأعفي .

توفي سنة (٢٥٥هـ) يوم التروية بعد العصر ودفن يوم عرفة يوم الجمعة وهو ابن (٧٥)

---

(١) الثلاثية : السند الذي فيه ثلاثة رواة بين المؤلف والنبي ﷺ .

سنة ودفن بمرو ، وقيل إن وفاته سنة (٢٥٠هـ) وهو وهم .

قال إسحاق بن أحمد : كنا عند محمد بن إسماعيل البخاري فورد عليه كتاب فيه نعي عبد الله بن عبد الرحمن فنكس رأسه ثم رفع واسترجع ، وجعل يسيل دموعه على خديه ثم أنشد :

إن تبق تفجع بالأحبة كلهم وفناء نفسك لا أبالك أفجع

ولم يكن ينشد شعراً إلا ما ورد في الأحاديث .

ومن مؤلفاته : التفسير ، والجامع ، والمسند وهو هذا .

شيوخه :

سمع من أبي مسهر ومروان بن محمد ، وعبد الوهاب بن سعيد المغني والنضر بن شميل ويزيد بن هارون وسعيد بن عامر الضبعي وجعفر بن عون وزيد بن يحي بن عبيد الدمشقي ووهب بن جرير وخالد بن مخلد وطبقتهم بالحرمين وخراسان والشام والعراق .

من روى عنه :

روى عنه البخاري في غير جامعه ، ومسلم في صحيحه ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي خارج سننه ، والحسن بن الصباح البزار ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، وبقي بن مخلد ، وعمر بن محمد البجيري ،وجعفر بن محمد الفريابي ،وعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وعيسى بن عمر بن العباس السمرقندي ، وغيرهم .

ثناء الأئمة عليه :

قال إسحاق سمعت محمد بن عبد الله بن المبرد الحرمي ببغداد يقول : يا أهل خراسان ! ما دام عبد الله بن عبد الرحمن بين أظهركم فلا تشتغلوا بغيره ، قال إسحاق : وسمعت أبا سعيد الأشج يقول : عبد الله بن عبد الرحمن إمامنا . قال إسحاق : وسمعت عثمان بن أبي شيبة يقول : إن عبد الله بن عبد الرحمن أعظم من ذاك فيما يقولون من البصر والحفظ وصيانة النفس عافاه الله .

وقال إسحاق : سمعت شريح بن يونس البغدادي يقول : طوبى لكم يا أهل خراسان بعبد الله بن عبد الرحمن .

وقال محمد بن عبد الله بن بكير : غلبنا عبد الله بن عبد الرحمن بالحفظ والورع .

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم سمعت أبي يقول : عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي إمام أهل زمانه .

وقال زاهر الخطيب السمرقندي : كنت عند أحمد بن حنبل فذكر عبد الله بن عبد الرحمن فقال : هو ذاك السيد ، ثم قال عُرض علي الكفر فلم أقبل وعرضت عليه الدنيا فلم يقبل .

وقال أحمد بن حامد : سمعت رجاء بن مرجى يقول : رأيت أحمد بن حنبل وإسحاق وابن المديني والشاذكوني فما رأيت أحفظ من عبد الله .

وقال أبو سعيد الجريري ، عمر بن الحسن : كنت بمصر والشام ـ وذكر البلدان ـ ما رأيت أحداً من أهل العلم إلا وهو يعرف عبد الله بن عبد الرحمن ، ولا يعرفون رجاء بن المرجى ولا محمد بن إسماعيل .

وقال أبو حامد بن الشرقي : إنما أخرجت خراسان من أئمة الحديث خمسة رجال محمد بن يحيى ، ومحمد بن إسماعيل ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم بن أبي طالب .

وقال أبو محمد جعفر بن محمد الأمي سمعت رجاء الحافظ يقول : ما أعلم أحداً أعلم بحديث النبي ﷺ من عبد الله بن عبد الرحمن .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : قلت لأبي : ياأبت ما الحفاظ ؟

قال : يابني شباب كانوا عندنا من أهل خراسان وقد تفرقوا .

قلت : من هم يا أبت ؟

قال : محمد بن إسماعيل ذاك البخاري ، وعبد الله بن عبد الكريم ذاك الرازي ـ يعني أبا زرعة ، وعبد الله بن عبد الرحمن ذاك السمرقندي ، والحسن بن شجاع ذاك البلخي .

قلت : فمن أحفظ هؤلاء ؟

قال : أما أبو زرعة فأسردهم ، وأما محمد بن إسماعيل فأعرفهم ، وأما عبد الله بن عبد الرحمن فأتقنهم ، وأما الحسن بن شجاع فأجمعهم للأبواب .

وقال بندار : حفاظ الدنيا أربعة : أبو زرعة بالرّي ، ومسلم بن الحجاج بنيسابور ، وعبد الله بن عبد الرحمن بسمرقند ، ومحمد بن إسماعيل ببخارَى .

وقال أبو حاتم الرازي : البخاري أعلم من دخل العراق ، ومحمد بن يحيي أعلم من بخراسان اليوم ، ومحمد بن سليم أورعهم ، والدارمي أثبتهم .

وقال النووي عنه : هو أحد حفاظ المسلمين في زمانه ، قل من يدانيه في الفضيلة والحفظ .

مرتبة هذه السنن عند المحدثين :

اشتهرت هذه السنن عند المحدثين بالمسند ، على خلاف اصطلاحهم . قال السيوطي في تدريب الراوي : ومسند الدارمي ليس بمسند ، بل هو مرتب على الأبواب ، وبعض المحدثين سموه بالصحيح .

وقال الحافظ الذهبي عنه : صاحب المسند العالي الذي في طبقة منتخب مسند عبد بن حميد .

قال الحافظ الذهبي : وسمي كتابه مسنداً وإن لم يكن على ترتيب المسانيد .

وقال ملا علي القاري في المرقاة : ومسنده المشهور وهو على الأبواب دون الصحابة خلافاً لمن وهم فيه .

والذي وهم فيه هو ابن الصلاح فقد عده من المسانيد على وجه اليقين : قال السيوطي

في تدريب الراوي : قيل ومسند الدارمي ليس بمسند بل هو مرتب على الأبواب وقد سماه بعضهم بالصحيح . قال شيخ الإسلام : ولم أر لمغلطاي سلفاً في تسميته الدارمي صحيحاً إلا قوله أنه رآه بخط المنذري .

وقال شيخ الإسلام : إنه ليس دون السنن في الرتبة بل لو ضم إلى الخمسة لكان أولى من ابن ماجه فإنه أمثل منه بكثير .

وقال العراقي في النكت : اشتهر تسميته بالمسند كما سمى البخاري كتابه بالمسند لتكون أحاديثه مسندة .

* * *

٨ ـ الإمام مالك وموطؤه

قال ابن الأثير :

هو أبو عبد الله : مالك بن أنس بن مالـك بن أبي عـامر بن عمرو بن الحـارث بن غيمان بن خُثَيْل بن عمرو بن الحارث ـ وهو ذو أصبح ـ بن سويد ، من بني حمير بن سبـأ الأكبر ، ثم من بني يشجب بن قحطان ، وفي نسبه خلاف غير هذا .

ولد سنة خمس وتسعين من الهجرة ، ومات بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائـة ، ولـه أربع وثمانون سنة .

وقال الواقدي : مات وله تسعون سنة ، وله ولد اسمه يحيى ، ولا يعلم له غيره .

هو إمام أهل الحجاز ، بل إمام الناس في الفقه والحديث ، وكفاه فخراً أن الشـافعي من أصحابه .

أخذ العلم عن : محمد بن شهاب الزهري ، ويحيى بن سعيد الأنصـاري ، ونـافع مولى عبـد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ومحمد بن المنكدر ، وهشـام بن عروة بن الزبير ، وإسماعيل بن أبي حكيم ، وزيد بن أسلم ، وسعيد بن أبي سعيد المَقْبُري ، ومَخْرَمة بن سليمان ، وربيعـة بن أبي عبد الرحمن ، وأفتى معه ، وعبـد الرحمن بن القـاسم ، وشريـك بن عبـد الله بن أبي نمر ـ وليس بالقاضي ـ وخلق كثير سواهم .

وأخذ العلم عنه خلق كثير لايحصون كثرة ، وهم أئمة البلاد .

منهم : الشـافعي ، ومحمـد بن إبراهيم بن دينـار ، وأبـو هشـام المغيرة بن عبـد الرحمن المخزومي ، وأبو عبـد الله عبـد العزيـز بن أبي حـازم ، وعثمان بن عيسى بن كنـانـة؛ هـؤلاء نظراؤه من أصحـابـه ومَعْن بن عيسى القَـزَّاز ، وأبـو مروان عبـد الملـك بن عبـد العـزيـز المَاجِشُون ، ويحيى بن يحيى الأنـدلسي ، ومن طريقـه روينـا الموطـأ ـ وعبـد الله بن مسلمـة القعنبي ، وعبد الله بن وهب وأَصْبغَ بن الفَرَج ، وغير هؤلاء ممن لا يحصى عدده .

وهؤلاء مشايخ البخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، وأحمـد بن حنبل ، ويحيى بن

معين ، وغيرهم من أئمة الحديث .

قال مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: قل من كتبت عنه العلم ، مامات حتى يجيئني ويستفتيني .

وقال بكر بن عبد الله الصّنعاني : أتينا مالك بن أنس فجعل يحدثنا عن ربيعة بن عبد الرحمن وكنا نستزيده من حديثه . فقال لنا ذات يوم : ما تصنعون بربيعة ،وهو نائم في ذلك الطاق ؟ فأتينا ربيعة فأنبهناه ، وقلنا له : أنت ربيعة ؟ قال : نعم . قلنا : الذي يتحدث عنك مالك بن أنس ؟ قال : نعم ، قلنا : كيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟! قال : أما علمتم أن مثقالاً من دَوْلَةٍ خيرٌ من حِمل علم ؟! [1] .

وكان مالك مبالغا في تعظيم العلم والدين ، حتى كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ، ثم حدث ، فقيل له في ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ .

ومر يوماً على أبي حازم وهو جالس فجازه ، فقيل له ، فقال : إني لم أجد موضعاً أجلس فيه ، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم .

قال يحيى بن سعيد القطان : ما في القوم أصح حديثاً من مالك .

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما أحد أمَنّ عليّ من مالك ـ رحمة الله عليه ـ .

وروي أن المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ، ثم دسّ عليه من يسأله ، فروى على ملأ من الناس : (ليس على مُسْتَكْرَه طلاق) فضربه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث .

وروي أن الرشيد سأل مالكاً فقال : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وقال : اشتر بها داراً ، فأخذها ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخوص . قال لمالك : ينبغي أن تخرج معي ، فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ ، كما حمل عثمان الناس على

---

(١) يعني : أن مالك بن أنس محظوظ ، جعل الله له شهرة وسمعة وإقبالاً ، بخلاف حالي .

القرآن . فقال : أما حمل الناس على الموطأ فليس إلى ذلك سبيل ، لأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا بعده في الأمصار فحدثوا ، فعند أهل كل مصر علم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « اختلاف أمتي رحمة » [1] وأما الخروج معك فلا سبيل إليه . قال رسول الله ﷺ : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » وقال : « المدينة تَنفي خَبَثها » وهذي دنانيركم كما هي ، إن شئتم فخذوها ، وإن شئتم فدعوها .

يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إليّ فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله ﷺ .

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان وبغال مصر ، ما رأيت أحسن منه ، فقلت له : ما أحسنه ، فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها ، فقال : أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة .

وكم مثل هذه المناقب لهذا الطود الأشم ، والبحر الزاخر .

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

ولأبي عمر بن عبد البر .. كتاب في وصل ما في الموطأ ، من المُرسَل والمنقطع والمُعْضَل . قال : وجميع ما فيها من قوله بلغني ، ومن قوله عن الثقة عنده مما لم يسنده أحد وستون حديثاً ، كلها مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة لا تعرف ، ثم ذكرها .

قال الشيخ صالح الفلاني : وقد رأيت لابن الصلاح تأليفاً وصل هذه الأربعة فيه بأسانيده .

* * *

---

(١) حديث سنده ضعيف ، وبعضهم قال : لا أصل له .

٩ ـ الإمام أحمد ومسنده

قال الشوكاني :

وأما أحمد بن حنبل فهو الإمام الكبير ، المجمع على إمامته وجلالته ، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني . رحل إلى الشام والحجاز واليمن وغيرها ،وسمع من سفيان بن عيينة وطبقته ، وروى عنه جماعة من شيوخه وخلائق آخرون لا يحصون ، منهم البخاري ومسلم .

قال أبو زرعة : كانت كتب أحمد بن حنبل اثني عشر حملاً وكان يحفظها عن ظهر قلبه وكان يحفظ ألف ألف حديث .

ولد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ، وتوفي سنة إحدى وأربعين ومائتين على الأصح ، وله كرامات جليلة وامتحن المحنة المشهورة . وقد طول المؤرخون ترجمته وذكروا فيها عجائب وغرائب ، وترجمه الذهبي في (سير أعلام النبلاء) في مقدار خمسين ورقة وأفردت ترجمته بمصنفات مستقلة .

وله ـ رحمه الله ـ المسند الكبير انتقاه من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث ولم يدخل فيه إلا ما يحتج به وبالغ بعضهم فأطلق على جميع ما فيه أنه صحيح ، وأما ابن الجوزي فأدخل كثيراً منه في موضوعاته ، في كتاب الموضوعات لابن الجوزي ، حيث أورد فيه أحاديث موضوعة مكذوبة .

لكنه رحمه الله كان يورد أحاديث ضعيفة ، بل حسنة وصحيحة في كتابه ـ وتعقبه بعضهم في بعضها ، وقد حقق الحافظ ابن حجر نفي الوضع عن جميع أحاديثه وأنه أحسن انتقاء وتحريراً من الكتب التي لم يلتزم مصنفوها الصحة في جميعها كالموطأ والسنن الأربعة ، وليست الأحاديث الزائدة فيه على الصحيحين بأكثر ضعفاً من الأحاديث الزائدة في سنن أبي داود والترمذي ، وقد ذكر العراقي أن فيه تسعة أحاديث موضوعة ، وأضاف إليها خمسة عشر حديثاً أوردها ابن الجوزي في الموضوعات وهي فيه ، وأجاب عنها حديثاً حديثاً . قال

السيوطي : وقد فاته أحاديث أخر أوردها ابن الجوزي وهي فيه وقد جمعها السيوطي في جزء سماه (الذيل الممهد) وذب عنها وعدتها أربعة عشر حديثاً . قال الحافظ ابن حجر في كتابه ، (تعجيل المنفعة في رجال الأربعة) ليس في المسند حديث لا أصل له إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة ، منها حديث عبد الرحمن بن عوف أنه يدخل الجنة زحفاً ، قال : والاعتذار عنه أنه مما أمر أحمد بالضرب عليه فترك سهواً ، قال الهيثمي في زوائد المسند : إن مسند أحمد أصح صحيحاً من غيره ، لا يوازي مسند أحمد كتاب مسند في كثرته وحسن سياقاته . قال السيوطي في خطبة كتابه (الجامع الكبير) ما لفظه : وكل ما كان في مسند أحمد فهو مقبول فإن الضعيف الذي فيه يقرب من الحسن .

وقال صاحب الرسالة المستطرفة :

ومسند الإمام الأوحد محيي السنة أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي ، ثم البغدادي المتوفى ببغداد سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وكان يحفظ ألف ألف حديث ، ومسنده هذا يشتمل على ثمانية عشر مسنداً أولها مسند العشرة ، وما معه من زيادات ولده عبد الله ويسير من زيادات أبي بكر القطيعي الراوي عن عبد الله .

وقد اشتهر عند كثير من الناس أنه أربعون ألف حديث . قال أبو موسى المديني : لم أزل أسمع ذلك من الناس حتى قرأته على أبي منصور بن زريق . وقد صرح بذلك الحافظ شمس الدين محمد بن الحسين في التذكرة فقال : عدة أحاديثه أربعون ألفاً بالمكرر . وقال ابن المنادي : إنه ثلاثون ألفاً ، والاعتماد على قوله دون غيره . وقد انتقاه من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألف حديث . ولم يدخل فيه إلا ما يحتج به عنده ، وتفضيل ابن الصلاح كتب السنن عليه منتقد ،وبالغ بعضهم فأطلق عليه اسم الصحة ، والحق أن فيه أحاديث كثيرة ضعيفة وبعضها أشد في الضعف من بعض ، حتى إن ابن الجوزي أدخل كثيراً منها في موضوعاته ، ولكن تعقبه في بعضها الحافظ أبو الفضل العراقي ،وفي سائرها الحافظ ابن حجر في (القول المسدد في الذب عن مسند أحمد) والسيوطي في ذيله المسمى : (الذيل الممهد على القول المسدد) . وحقق الأول منها نفي الوضع عن جميع أحاديثه ، وأنه أحسن انتقاء وتحريراً من الكتب التي لم تلتزم الصحة في جمعها . قال : وليست الأحاديث الزائدة

فيـه على مـا في الصحيحين بـأكثر ضعفاً من الأحـاديث الزائـدة في سنن أبي داود والترمـذي عليهما . وقال غيره: ما ضعف من أحاديثه أحسن حالاً مما يصححه كثير من المتأخرين .

وقـد رتبـه على الأبـواب بعض الحفـاظ الأصبهـانيين ،و كـذا الحـافـظ نـاصر الـدين بن زريق ، وكذا بعض من تأخر عنـه ، ورتبـه على حروف المعجم في أسماء المقلين الحـافـظ أبو بكر بن المحب ، ولولده أبي عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل البغدادي الحـافـظ المتوفى سنة تسعين ومـائتين كتـاب في زوائـد مسنـده هـذا وهو نحو من ربعـه في الحجم ، قيل إنـه مشتمل على عشرة آلاف حديث ، وله أيضاً زوائد كتاب الزهد لأبيه ، وللإمـام الحـافـظ أبي بكر محمد بن الحافظ أبي محمد عبـد الله المقـدسي الحنبلي ترتيب مسنـد أحمـد هـذا على حروف المعجم .

ومن أجود الخدمات المعاصرة التي قدمت لمسند الإمام أحمد : خدمـة الشيخ أحمـد شـاكر له على أنها خدمة لم تتم ، وخدمة الشيخ عبد الرحمن البنا والد الشيخ حسن البنـا ـ رحم الله الجميع ـ إذ رتب المسند على حسب الأبواب الفقهية والعلمية وشرحه .

وقال المناوي في التعريف بالإمام أحمد وبكتابه :

والإمام أحمد هو ابن محمد بن حنبل ، النـاصر للسنـة ، الصـابر على المحنـة ، الـذي قـال فيـه الشافعي : ما ببغداد أفقه ولا أزهد منه . وقال إمـام الحرمين : غسل وجـه السنـة من غبـار البدعة وكشف الغمة عن عقيدة الأمة .

ولد ببغـداد سنـة أربع وخمسين ومـائـة ، وروى عن الشـافعي وابن مهـدى وخلق وعنـه الشيخان وغيرهما ، ومات سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وارتجت الدنيا لموته .

قال ابن المـديني : مسنـده ـ وهو نحو أربعين ألفـاً ـ أصل من أصول الإسلام ، وقـال ابن الصلاح : مسند أحمد ونحوه من المسانيد كأبي يعلى والبزار والـدارمي وابن راهويـه وعبـد بن حميـد لا يلتحق بـالأصـول الخمسـة ومـا أشبههـا ـ أي كسنن ابن مـاجـه ـ في الاحتجـاج بهـا والركون إليهـا . وقـال العراقي : وجود الضعيف في مسنـد أحمـد محقـق ، بـل فيـه أحـاديث موضوعة جمعتها في جزء . وتعقبه تلميذه الحافظ ابن حجر بأنه ليس فيه حديث لا أصل له

إلا أربعة منها خبر ابن عوف أنه يدخل الجنة زحفاً . قال (أعني ابن حجر في تجريد زوائد البزار) : وإذا كان الحديث في مسند أحمد لايعزى لغيره من المسانيد .

* * *

١٠ ، ١١ ، ١٢ ـ معاجم الطبراني الثلاثة

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

كتب المعاجم جمع معجم ، وهو في اصطلاحهم ما تذكر فيه الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك ، والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء ، كمعجم الطبراني الكبير : المؤلف في أسماء الصحابة على حروف المعجم ، عدا مسند أبي هريرة : فإنه أفرده في مصنف ، يقال : إنه أورد فيه ستين ألف حديث في اثني عشر مجلداً ،و فيه قال ابن دحية : هو أكبر معاجم الدنيا ، وإذا أطلق في كلامهم (المعجم) فهو المراد وإذا أريد غيره قيد .

والأوسط : ألفه في أسماء شيوخه ، وهم قريب من ألفي رجل ، حتى إنه روى عمن عاش بعده لسعة روايته وكثرة شيوخه ، وأكثره من غرائب حديثهم ، قال الذهبي : فهو ينظر الأفراد للدارقطني بين فيه فضيلة سعة روايته ، ويقال : إن فيه ثلاثين ألف حديث وهو في ست مجلدات كبار ، وكان يقول فيه : هذا الكتاب روحي ، لأنه تعب فيه . قال الذهبي : وفيه كل نفيس وعزيز ومنكر .

والصغير : وهو في مجلد خرّج فيه عن ألف شيخ ، يقتصر فيه غالباً على حديث واحد عن كل واحد من شيوخه ، قيل : وهو عشرون ألف حديث ذكره غير واحد ، لكن ذكر المقري في (فتح المتعال) نقلاً عن كتاب (إرشاد المهتدين لمشايخ ابن فهد تقي الدين) أن المعجم الصغير للطبراني في مجلد ، يشتمل على نحو من ألف وخمسمائة حديث بأسانيدها . قال : لأنه خرّج فيه عن ألف شيخ ، كل شيخ حديثاً أو حديثين . وهو التحرير والصواب وخلافه سبق قلم ، والله أعلم ، اهـ .

وقد عرف المناويُّ المؤلفَ بقوله :

سليمان اللخمي أبو القاسم أحد الحفاظ المكثرين الجوالين ، صاحب التصانيف الكثيرة أخذ عن أكثر من ألف شيخ منهم : أبو زرعة وطبقته ، وعنه : أبو نعيم وغيره . قال

الذهبي : ثقة صدوق ، واسع الحفظ ، بصير بالعلل والرجال والأبواب ، كثير التصانيف ، إليه المنتهى في كثرة الحديث وعلومه ، تكلم ابن مردويه في أخيه فأوهم أنه فيه وليس به ، بل هو حافظ ثبت ، مات بأصبهان سنة ستين وثلاثمائة عن مائة سنة وعشرة ، اهـ .

وحظنا من معاجم الطبراني في هذا الكتاب هو ما أخرجه نور الدين الهيثمي منها في كتابه مجمع الزوائد ، الذي يفترض فيه أنه جمع فيه زوائد الطبراني على الكتب الستّ ، ولذلك نقول : إن من قرأ كتابنا هذا لم يفته معنى من المعاني التي انفرد بها الطبراني من هديه ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

وبعد أن سرت شوطاً بعيداً في هذا الكتاب ، وصلتني بعض الأجزاء المطبوعة من كتاب المعجم الكبير لكني لم أجد فيها ما يجعلني أعيد النظر فيما سرت فيه .

* * *

١٣ ـ ابن حبان وصحيحه

قال محمد بن جعفر الكتاني :

وصحيح أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ اليمني الدارمي ، البُستي ـ بضم الموحدة ، وإسكان السين ـ نسبة إلى بست بلد كبير من بلاد الغور بطرق خراسان ، الشافعي ، أحد الحفاظ الكبار ، صاحب التصانيف العديدة ، المتوفى ببست سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، وهو المسمى بالتقاسيم والأنواع في خمسة مجلدات ، وترتيبه مخترع ليس على الأبواب ولا على المسانيد ، والكشف منه عسر جداً ، وقد رتبه بعض المتأخرين على الأبواب ترتيباً حسناً ، وهو الأمير علاء الدين أبو الحسن على بن بلبان بن عبد الله الفارسي الحنفي الفقيه النحوي ، المتوفى بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، وسماه (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) كما أنه رتب معجم الطبراني الكبير على الأبواب أيضاً ، وصحيح ابن حبان موجود الآن بتمامه ، بخلاف صحيح ابن خزيمة فقد عدم أكثره كما قال السخاوي . وقد قيل إن أصح من صنف في الصحيح بعد الشيخين ابن خزيمة فابن حبان .

وقد تحدث الدكتور محمد أديب الصالح في كتابه (لمحات في أصول الحديث) عن ابن حبان وصحيحه بقوله :

صاحب هذا الصحيح هو : الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البستي الشافعي . سمع من كثير : أبو عبد الرحمن النسائي ، وأبو بكر بن خزيمة ،وجعفر بن أحمد الدمشقي ، وغيرهم من مصر إلى خراسان ، وممن حدث عنه : الحاكم ، ومنصور ،و عبد الله الخالدي وآخرون . وهو أحد الحفاظ الكبار . قال الخطيب : كان ثقة نبيلاً فهماً ، وله بجانب (صحيحه) العديد من التصانيف في الحديث والتاريخ ، وله كتاب (الضعفاء) وقال عنه الحاكم : كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث . وقال ياقوت الحموي : أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره .. توفي سنة (٣٥٤) .

وقال المناوي في التعريف به :

محمد بن حبان أبو حاتم التيمي الفقيه الشافعي البستي ، أحد الحفاظ الكبار ، روى عن النسائي وأبي يعلى وابن خزيمة وخلق ، وعنه الحاكم وغيره ، وصنف كتباً نفيسة منها : تاريخ الثقات وتاريخ الضعفاء .

ولي قضاء سمرقند ، وكان رأساً في الحديث ، عالماً بالفقه والكلام والطب والفلسفة والنجوم ، ولهذا امتحن ونسب للزندقة وأمر بقتله ، ثم مات بسمرقند سنة أربع وخمسين وثلثمائة في عشر الثمانين .

وقال عن صحيحه : المسمى بالتقاسيم والأنواع المقدم عندهم على مستدرك الحاكم . قال الحازمي : ابن حبان أمكن في الحديث من الحاكم ، والحاكم أشد تساهلاً منه ، غايته أن ابن حبان يسمي الحسن صحيحاً ، وما اقتضاه كلام التقريب كأصله مما يخالف ذلك ردّه الزين العراقي بأن ابن حبان شرط تخريج مراويه ثقة غير مدلس سمع من شيخه وسمع منه الآخذ عنه ، ووفّى بالتزامه ، ولم يعرف للحاكم ، قال : وصحيح ابن خزيمة أعلى رتبة من صحيح ابن حبان لشدة تحريه ، فأصح من صنف في الصحيح بعد الشيخين ابن خزيمة فابن حبان فالحاكم قال ابن حجر : وذكر ابن حبان في كتابه أنه إنما لم يرتبه ليحفظ ، لأنه لو رتبه ترتيباً سهلاً لاتّكل كل من يكون عنده على سهولة الكشف فلا يحفظه ،وإذا توعر طريق الكشف كان أدعى لحفظه ليكون على ذكر من جمعه .

* * *

١٤ ـ ابن خزيمة وصحيحه

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

ومنها ـ أي كتب السنة ـ كتب التزم أهلها فيها الصحة من غير ما تقدم من الموطأ والصحيحين ، منها صحيح أبي عبد الله وأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة السلمي النيسابوري الشافعي شيخ ابن حبان المتوفى سنة إحدى عشر وثلاثمائة ،ويعرف عند المحدثين بإمام الأئمة .

وقد تحدث الدكتور محمد أديب الصالح في كتابه (لمحات في أصول الحديث) عن ابن خزيمة وصحيحه بقوله :

صاحب هذا الصحيح هو شيخ الإسلام الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق (ابن خزيمة) النيسابوري ، سمع من كثيرين مثل : محمود بن غيلان ،وعتبة بن عبد الله اليحمدي ، وأحمد ابن منيع ، وعبد الجبار بن العلاء وطبقتهم ، وانتهت إليه الإمامة والحفظ في عصره بخراسان .

وقد حدث عنه الكثيرون من العلماء ، منهم : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أحد شيوخه ، وأحمد بن المبارك المستملي ، وأبو علي النيسابوري ، وحدث عنه الشيخان البخاري ومسلم في غير صحيحيهما .

ولد رحمه الله سنة (٢٢٣هـ) وتوفي سنة (٣١١هـ) .

إلا أن الكتاب (صحيح ابن خزيمة) غير موجود بتمامه لأن أكثره قد عدم ، علماً بأنه قيل : إنه أصح ما صنف في الصحيح بعد البخاري ومسلم . وهذا الموجود هو في غاية القبول عند العلماء . وإنك واجد في نقول الثقات الكثير من ردّ أحاديثهم إليه .

وقد تحدث محقق صحيح ابن خزيمة الدكتور : محمد مصطفى الأعظمي ، في تقديمه لصحيح ابن خزيمة عن ابن خزيمة وصحيحه ، وكان من كلامه :

يعد القرنان الثالث والرابع الهجريان من أنضج قرون الثقافة الإسلامية إنتاجاً ، وما

غرس في القرن الأول على يد الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وسقي على أيدي التابعين وأتباع التابعين في القرن الثاني ، بدأ يؤتي أكله ناضجاً شهياً في القرنين الثالث والرابع .

في هذا العصر الذهبي ولد إمام الأئمة فقه الآفاق المجتهد المطلق أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة النيسابوري مولى مجشر بن مزاحم ، في شهر صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين بنيسابور .

عني بالحديث منذ حداثته ، وسمع من إسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨هـ ، ومحمد بن حميد المتوفى سنة ٢٣٠هـ ولم يحدث عنهما لكونه كتب عنهما في صغره وقبل فهمه وتبصره .

رحلاته لطلب العلم :

وعلى سنة الزمان أراد أن يرتحل لسماع الحديث النبوي ،وكان يرغب في الذهاب إلى قتيبة فاستأذن أباه ، فأجابه : (اقرأ القرآن أولاً حتى آذن لك) يقول ابن خزيمة : فاستظهرت القرآن ، فقال لي : امكث أولاً حتى تصلي بالختمة ، ففعلت ، فلما عيّدنا أذن لي ، فخرجت إلى مروٍ ، وسمعت بمرو الروذ من محمد بن هشام ـ يعني صاحب هشيم ـ فنعى إلينا قتيبة . وكانت وفاة قتيبة في سنة أربعين ومائتين .

فعلى هذا بدأ ابن خزيمة رحلاته العلمية وهو في السابعة عشرة من عمره ، وقد اتسعت رحلاته حتى شملت الشرق الإسلامي حينذاك فسمع :

بنيسابور :	ابن راهويه وغيره .
وبمرو :	علي بن محمدوغيره .
وبالري :	محمد بن مهران وغيره .
وبالشام :	موسى بن سهل الرملي وغيره .
وبالجزيرة :	عبد الجبار بن العلاء وغيره .

وبمصـــر : يونس بن عبد الأعلى وغيره .

وبـواسـط : محمد بن حرب وغيره .

وببغــداد : محمد بن إسحق الصاغاني وغيره .

وبـالبصرة : نصر بن علي الأزدي الجهضمي وغيره .

وبالكوفـة : أبا كريب محمد بن العلاء الهمداني وغيره .

كما سمع من البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري والذهلي وخلق .

وروى عنه جماعة من مشايخه منهم البخـاري ومسلم خـارج الصحيحين ، ومحمـد بن عبـد الله بن عبد الحكم شيخه ،ويحيى بن محمـد بن صـاعـد ، وأبو على النيسـابوري وخلائق ، وآخر من روى عنه بنيسابور حفيده أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة .

شجاعته الأدبية :

كان ابن خزيمة جريئـاً لايخـاف قـال أبو بكر بن بـالويـه : سمعت ابن خزيمـة يقول : كنت عند الأمير إسماعيل بن أحمد فحدث عن أبيه . بحديث وهم في إسناده فرددتـه عليـه ، فلما خرجت من عنـده قـال أبو ذر القـاضي : قـد كنـا نعرف أن هـذا الحـديث خطـأ منـذ عشرين سنة ، فلم يقدر واحد منا أن يرده عليـه ، فقلت لـه : لا يحل لي أن أسمع حـديث رسول الله ﷺ فيه خطأ أو تحريف فلا أرده .

* * *

١٥ ـ أبو يعلى ومسنده

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

ومسند أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى التيمي الموصلي الحافظ المشهور الثقة المتوفى بالموصل سنة سبع وثلاثمائة ، وقد زاد على المائة وعمر وتفرد ورحل الناس إليه ، وله مسندان صغير وكبير . وفيه قال إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الحافظ : قرأت المسانيد كمسند العدني ومسند أبي منيع وهي كالأنهار ، ومسند أبي يعلى كالبحر فيكون مجموع الأنهار .

وقال المناوي في التعريف بأبي يعلى :

الحافظ الثبت محدث الجزيرة أحمد بن علي بن المثنى التيمي ، سمع ابن معين وطبقته ،وعنه ابن حبان والإسماعيلي وغيرهما ، أهل صدق وأمانة وعلم وحلم ، وثقه ابن حبان والحاكم ، ولد سنة عشر ومائتين ومات سنة سبع وثلاثمائة .

* * *

١٦ ـ أبو بكر البزار ومسنده

قال محمد بن جعفر الكتاني :

ومسند أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار البصري الحافظ الشهير المتوفى بالرملة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وله مسندان الكبير المعلل وهو المسمى (البحر الزاخر) يبين فيه الصحيح من غيره ، قال العراقي : ولم يغفل ذلك إلا قليلاً ، إلا أنه يتكلم في تفرد بعض رواة الحديث ومتابعة غيره عليه .

وحظنا في هذا الكتاب من مسند البزار هو زوائده على الكتب الستة التي أخرجها الهيثمي في (مجمع الزوائد) أو في كتاب (كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة) فنحن في هذا الكتاب نختار منها ما اجتمع فيه شرط الحسن أو الصحة ووافق غرضنا من هذا الكتاب .

قال الهيثمي في تقديمه لكشف الأستار :

وبعد فقد رأيت مسند الإمام أبي بكر البزار المسمى بـ (البحر الزخار) قد حوى جملة من الفوائد الغزار ، يصعب التوصل إليها على من التمسها ، ويطول ذلك عليه قبل أن يخرجها ، فأردت أن أتتبع ما زاد فيه على الكتب الستة ، من حديث بتمامه ، وحديث شاركهم .. وفيه زيادة .

* * *

١٧ ـ الحاكم ومستدركه

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

وصحيح أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيّع ـ بوزن قيّم ـ صاحب التصانيف التي لم يسبق لمثلها ككتاب (الإكليل) وكتاب (المدخل إليه) (وتاريخ نيسابور) (وفضائل الشافعي) وغيرها ، المتوفى بنيسابور سنة خمس وأربعمائة ، وهو المعروف بـ (المستدرك على الصحيحين) مما لم يذكراه وهو على شرطها ، أو شرط أحدهما ، أولا على شرط واحد منهما . وهو متساهل في التصحيح . واتفق الحفاظ على أن تلميذه البيهقي أشدّ تحرياً منه .

وقد لخص مستدركه هذا الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز التركماني الفارقي الأصل الذهبي نسبة إلى الذهب كما في النصير الدمشقي الشافعي المتوفى بدمشق سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، وتعقب كثيراً منها بالضعف والنكارة أو الوضع ، وقال في بعض كلامه : إن العلماء لايعتدون بتصحيح الترمذي والحاكم . وذكر له ابن الجوزي في موضوعاته ستين حديثاً أو نحوها .ولكن انتصر له الحفاظ في أكثرها .

وفي التعقبات أنه جرّد بعض الحفاظ منه مائة حديث موضوعة في جزء ، وللجلال الدين (توضيح المدرك في تصحيح المستدرك) لم يكمل ولخصه أيضاً ـ أعني المستدرك ـ برهان الدين الحلبي ـ وزعم أبو سعد الماليني أنه ليس فيه حديث على شرطهما ،ورده الذهبي بأنه غلو وإسراف ، بل فيه جملة وافرة على شرطهما ، وأخرى كبيرة على شرط أحدهما ،و لعل مجموع ذلك نحو نصف الكتاب ، وفيه نحو الربع مما صح سنده ، وإن كان فيه علة ، وما بقي فهو مناكير وواهيات لا تصح وفي بعض ذلك موضوعات ، ويقال : إن السبب في التساهل الواقع فيه أنه صنفه أواخر عمره ،وقد حصلت له غفلة وتغير أو أنه لم يتيسر له تحريره وتنقيحه ، ويدل له أن تساهله في قدر الخمس الأول منه قليل جداً بالنسبة لباقيه ، وقد قال الحافظ : وجدت قريباً من نصف الجزء الثاني ـ من تجزئة ستة من المستدرك ـ إلى هنا انتهى إملاء الحاكم ، قال : وما عدا ذلك من الكتاب لايؤخذ عنه إلا بطريق الإجازة ،

والتساهل في القدر المملى قليل جداً بالنسبة إلى ما بعده . وقد قال الحازمي : ابن حبان أمكن في الحديث من الحاكم . وقال العماد ابن كثير : قد التزم ابن خزيمة وابن حبان الصحة وهما خير من المستدرك بكثير وأنظف أسانيد ومتوناً ، وقال غيرهما : صحيح ابن خزيمة أعلى مزية من صحيح ابن حبان وصحيح ابن حبان أعلى من الحاكم ، وهو مقارب للحاكم في التساهل ، لأنه غير متقيد بالمعدّلين ، بل ربما يخرج للمجهولين لا سيما ومذهبه إدراج الحسن في الصحيح ، ولكن هذا كله اصطلاح له ولا مُشَاحة فيه ، على أن في صحيح ابن خزيمة أيضاً أحاديث محكوم منه بصحتها وهي لا ترتقي عن درجة الحسن ، بل وفيما صححه الترمذي من ذلك أيضاً جملة مع أنه يفرق بين الصحيح والحسن وحينئذ فلا بد من النظر في أحاديث كل ليحكم على كل واحد منه بما يليق به . والله أعلم .

وفي تدريب الراوي :

واعتنى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في المستدرك بضبط الزوائد عليهما ، مما هو على شرطهما أو على شرط أحدهما ، أو صحيح مصحح وإن لم يوجد شرط أحدهما ، وربما أورد فيه مالم يصح عنده منبهاً على ذلك وهو متساهل في التصحيح . وقد لخص الذهبي مستدركه وتعقب كثيراً منه بالضعف والنكارة ، وجمع جزءاً في الأحاديث التي فيه وهي موضوعة فذكر نحو مئة حديث . فما صححه الحاكم ولم نجد فيه لغيره من المعتمدين تصحيحاً ولا تضعيفاً ، حكمنا بأنه حسن ، إلا أن يظهر فيه علة توجب ضعفه ، اهـ ملخصاً .

وقد أغنانا عن ذلك الذهبي ، فما أقره عليه فهو صحيح ، وما سكت عنه ولم يتعقبه بشيء فهو كما قال ابن الصلاح : حسن . وقد رأيت العزيزي في (شرحه للجامع الصغير) يحتج كثيراً بتقرير الذهبي للحاكم على التصحيح ، فليعلم ذلك . والله أعلم . ا هـ .

وقد علق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة على قول صاحب تدريب الراوي : (فما صححه الحاكم ولم نجد فيه لغيره من المعتمدين ...) بقوله :

هذا كلام ابن الصلاح في (مقدمته) ووافقه النووي في (التقريب) وقد انتقده السيوطي في (التدريب) ص ٥٣ فقال عقبه : قال البدر بن جماعة : والصواب أنه يتتبع

عليه بما يليق بحاله من الحسن أو الصحة أو الضعف ، ووافقه العراقي وقال : إن حكمه أي : ابن الصلاح ـ عليه بالحسن فقط تحكم .

قال إلا أن ابن الصلاح قال ذلك بناء على رأيه : أنه قد انقطع التصحيح في هذه الأعصار ، فليس لأحد أن يصحح ، فلهذا قطع النظر عن الكشف عليه ، والعجب من المصنف ـ أي النووي ـ كيف وافقه هنا ؟ مع مخالفته له في المسألة المبني عليها .

* * *

١٨ - رزين وابن الأثير وابن الديبع الشيباني والأصول الستة

قال في الرسالة المستطرفة :

والجمع بين الأصول الستة أي : الصحاح الثلاثة التي هي البخاري ومسلم والموطأ ، والسنن الثلاثة وهي سنن أبي داود والترمذي والنسائي ، لأبي الحسن (رزين) بوزن أمير ، ابن معاوية العبدري السرقسطي الأندلسي المالكي ، المتوفى بمكة - بعد ما جاور بها أعواماً - سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وهو المسمى بـ(التجريد للصحاح والسنن) ، والجمع بينهما أيضاً لأبي السعادات مجد الدين المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف (بابن الأثير) الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر لكونه ولد بها ونشأ بها ، ثم انتقل إلى الموصل وبه توفي سنة ست وستمائة ودفن برباطه ، وهو المسمى (جامع الأصول من أحاديث الرسول) على وضع كتاب رزين إلا أن فيه زيادات كثيرة عليه ، في عشرة أجزاء ، واختصره أبو زيد وأبو الضياء حافظ العصر وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشهير (بابن الدَّيْبَع) بدال مهملة مفتوحه فياء تحتية ساكنة فباء موحدة مفتوحة أيضاً فعين مهملة آخره ، الشيباني الزبيدي اليمني الشافعي المولود بزبيد سنة ست وستين وثمانمائة ، والمتوفى ضحى يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة أربع وأربعين وقيل سنة خمسين وتسعمائة وهو أحسن مختصراته سماه (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) في مجلدين .

وإذن فعندنا ثلاثة كتب :

(تجريد الصحاح والسنن) لرَزِين ، و(جامع الأصول من أحاديث الرسول) لابن الأثير و(تيسير الوصول إلى جامع الأصول) مبني على كتاب جامع الأصول محاولاً فيه صاحبه الخروج من التكرار وهو لابن الديبع الشيباني ، وأصول هذه الكتب الثلاثة : صحيحا البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك وسنن أبي داود والترمذي والنسائي .

قال ابن الأثير في مقدمة كتابه الجامع للأصول :

لما وقفت على هذه الكتب أي الستة ورأيتها في غاية من الوضع الحسن والترتيب الجميل ، ورأيت كتاب (رَزِين) هو أكبرها وأعمها ، حيث حوى هذه الكتب الستة التي هي أم كتب الحديث ، وأشهرها في أيدي الناس وبأحاديثها أخذ العلماء واستدل الفقهاء ، وأثبتوا الأحكام ، وشادوا مباني الإسلام .

ومصنفوها أشهر علماء الحديث ، وأكثرهم حفظاً ، وأعرفهم بمواضع الخطأ والصواب ، وإليهم المنتهى ، وعندهم الموقف .

فحينئذ أحببت أن أشتغل بهذا الكتاب الجامع لهذه الصحاح ، وأعتني بأمره ، ولو بقراءته ونسخه ، فلما تتبعته وجدته ـ على ما قد تعب فيه ـ قد أودع أحاديث في أبواب ، غير تلك الأبواب أولى بها ، وكرر فيه أحاديث كثيرة ، وترك أكثر منها .

ثم إنني جمعت بين كتابه وبين الأصول الستة التي ضمنها كتابه ، فرأيت فيها أحاديث كثيرة لم يذكرها في كتابه ، إما للاختصار ، أو لغرض وقع له فأهملها ، ورأيت في كتابه أحاديث كثيرة لم أجدها في الأصول التي قرأتها وسمعتها ونقلت منها ، وذلك لاختلاف النسخ والطرق ،ورأيته قد اعتمد في ترتيب كتابه على أبواب البخاري ، فذكر بعضها وحذف بعضها .

فناجتني نفسي أن أهذب كتابه ، وأرتب أبوابه ، وأوطىء مقصده ، وأسهل مطلبه ، وأضيف إليه ما أسقطه من الأصول ، وأتبعه شرح ما في الأحاديث من الغريب والإعراب والمعنى ، وغير ذلك مما يزيده إيضاحاً وبياناً ، فاستصغرت نفسي عن ذلك ، واستعجزتها ، ولم يزل الباعث يقوى والهمة تنازع ، والرغبة تتوفر ، وأنا أعللها بما في ذلك من التعرض للملام ، والانتصاب للقدح ، والأمن من ذلك جميعه مع الترك ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، فتحققت بلطف الله العزيمة ، وصدقت بعونه النية ، وخلصت بتوفيقه الطوية .

فشرعت في الجمع بين هذه الكتب الستة التي أودعها (رزين) ـ رحمه الله ـ كتابه ، وصدفت عما فعله ورتبه ، فاعتمدت على الأصول دون كتابه ، واخترت له وضعاً يزيد بيانه حسبما أدى إليه اجتهادي ، وانتهى إليه عرفاني .

لكن ابن الأثير كرر الأحاديث على حسب احتياجات الأبواب إليها ، فخرج كتابه كبيراً واسعاً ؛ لذلك اختصره ابن الديبع في مجلدين . وقد عرف الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ محقق كتاب الجامع ـ على ابن الأثير وكان مما قال :

هو الإمام البارع مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ، ثم الموصلي المعروف بابن الأثير .

ولد في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة في جزيرة ابن عمر ، وهي ـ على ما يقول ياقوت الحموي معاصر المؤلف ـ بلدة فوق الموصل : بينهما ثلاثة أيام ،ونشأ بها وتلقى من علمائها معارفه الأولى ، من تفسير وحديث ونحو ولغة وفقه ، ثم تحول سنة (٥٦٥هـ) إلى الموصل ،وفيها بدأت معارفه تنضج وثقافته تزداد ، وأقام بها إلى أن توفي .

قرأ الأدب على ناصح الدين أبي محمد سعيد بن المبارك بن الدهان البغدادي ، وأبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي ، وأبي الحزم مكي بن الريان بن شبَّة النحوي الضرير ، وسمع الحديث بالموصل من جماعة منهم خطيب الموصل أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي ، وقدم بغداد حاجاً فسمع بها من أبي القاسم صاحب ابن الخل ، وعبد الوهاب بن سكينة ، وعاد إلى الموصل فروى بها وحدث وانتفع به الناس .

وصفه من أرخ له بأنه كان من محاسن الزمن ، ذا دين متين ، وطريقة مستقيمة ، عارفاً ، فاضلاً ، ورعاً ، عاقلاً ، سيداً ، مطاعاً ، رئيساً ، مشاوراً ، ذا بِرّ وإحسان. قد جمع بين علم العربية والقرآن والنحو واللغة والحديث والفقه ، وصنف تصانيف مشهورة وألف كتباً مفيدة .

منها : (غريب الحديث) على حروف المعجم ، وهو المعروف بالنهاية ، و(الشافي في شرح مسند الشافعي) و (الإنصاف بين الكشف والكشاف) ، جمع فيه بين تفسيري الثعلبي والزمخشري ، و (البديع) في النحو ، و (الباهر في الفروق) في النحو أيضاً ، و (تهذيب فصول ابن الدهان) و (المصطفى المختار من الأدعية والأذكار) و (كتاب لطيف في صناعة الكتابة) وله رسائل في الحساب مُجَدْوَلات ، وكتاب ديوان رسائله : كتاب البنين

والبنات ، والآباء والأمهات ، والأذواء والذوات ، و (جامع الأصول في أحاديث الرسول) وهو هذا الكتاب . إلى غير ذلك من المؤلفات القيمة والمصنفات النافعة .

قال ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) : حدثني أخوه أبو الحسن قال : تولى أخي أبو السعادات الخزانة لسيف الدين الغازي بن مودود بن زنكي ، ثم ولاه ديوان جزيرة ابن عمر وأعمالها ، ثم عاد إلى الموصل ، فناب في الديوان عند الوزير جلال الدين أبي الحسن علي بن جمال الدين محمد بن منصور الأصبهاني ، ثم اتصل بمجاهد الدين بن قايماز ـ وكان نائب المملكة ـ بالموصل أيضاً ، فنال عنده درجة رفيعة ، فلما قُبض على مجاهد الدين سنة ٥٨٩هـ اتصل بخدمة أتابك عز الدين مسعود بن مودود إلى أن توفي عز الدين وآل الأمر إلى ولده نور الدين شاه ، فاتصل بخدمته حتى صار واحد دولته حقيقة ، بحيث إن السلطان كان يقصده في منزله في مهام نفسه ، لأنه أُقعد في آخر زمانه ، فكانت الحركة تصعب عليه ، فكان يجيئه بنفسه أو يرسل إليه بدر الدين لؤلؤاً .

وكان قد عرض عليه غير مرة أن يستوزره ، وهو يأبى ، فركب السلطان إليه ، فامتنع أيضاً ، حتى غضب عليه ، فاعتذر إليه وقال له : أنا رجل كبير ، وقد خدمت العلم عمري واشتهر ذلك عني في البلاد ، وأعلم أني لو اجتهدت في إقامة العدل بغاية جهدي ما قدرت أن أؤدي حقه ، ولو ظُلِم أكّار (حرّاث) في ضيعة من أقصى أعمال السلطان لنسب ظلمه إليَّ ، ورجعت أنت وغيرك باللائمة عليَّ ، والملك لا يستقيم إلا بشيء من العسف والظلم ، وأخذ الخَلْق بالشدة، وأنا لا أقدر عليه ، ولا يليق بي ، فعذره وأعفاه .

ولما أُقعد في آخر عمره ، جاء رجل مغربي فعالجه بدهن صنعه ، فبانت ثمرته ، وتمكن من مدِّ رجليه ، فقال لأخيه عز الدين أبي الحسن على بن الأثير : أعطه ما يرضيه ، واصرفه ، فقال أخوه : لماذا وقد ظهر النجح ؟! قال : هو كما تقول ، ولكني في راحة من صحبة هؤلاء القوم ـ يعني الأمراء والسلاطين ، وقد سكنت نفسي إلى الانقطاع والدعة ، وبالأمس كنت أذل نفسي بالسعي إليهم ،وهنا في منزلي لا يأتون إليَّ إلا في مشورة مهمة ، ولم يبق من العمر إلا القليل ، فدعني أعش باقيه حراً سليماً من الذل ، قال أخوه : فقبلت قوله وصرفت الرجل بإحسان .

فلزم بيته صابراً محتسباً ، يقصده العلماء ، ويفـد إليـه السلاطين والأمراء ، يقبسون من علمه ، وينهلون من فيضه ، حتى توفي رحمه الله بالموصل سنة ٦٠٦هـ .

* * *

١٩ - نور الدين الهيثمي ومجمع الزوائد

هو علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر بن صالح نور الدين أبو الحسن الهيثمي القاهري الشافعي الحافظ ويعرف بالهيثمي . كان أبوه صاحب حانوت بالصحراء ، فولد له هذا في رجب سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، ونشأ فقرأ القرآن ، ثم صحب الزين العراقي وهو بالغ ، ولم يفارقه سفراً وحضراً ، حتى مات بحيث حج معه جميع حجاته ، ورحل معه سائر رحلاته ، ورافقه في جميع مسموعه بمصر والقاهرة والحرمين وبيت المقدس ودمشق وبعلبك وحلب وحماة وطرابلس وغيرها ، وربما سمع الزين بقراءته ، ولم ينفرد عنه الزين بغير ابن البابا ، والتقي السبكي وابن شاهد الجيش . كما أن صاحب الترجمة لم ينفرد عنه بغير صحيح مسلم على ابن عبد الهادي .

وممن سمع عليه سوى ابن عبد الهادي : الميدومي ومحمد بن إسماعيل بن الملوك ومحمد بن عبد الله النعماني وأحمد بن الرصدي وابن القطرواني والعرضي ومظفر الدين محمد بن محمد بن يحيى العطار وابن الخباز وابن الحموي وابن قيم الضيائية وأحمد بن عبد الرحمن المرداوي ، فما سمعه على المظفر : صحيح البخاري ، وعلى ابن الخباز : صحيح مسلم ، وعليه وعلى العرضي : مسند أحمد ، وعلى العرضي والميدومي : سنن أبي داود ، وعلى الميدومي وابن الخباز : جزء ابن عرفة .

وهو مكثر سماعاً وشيوخاً ، ولم يكن الزين يعتمد في شيء من أموره إلا عليه حتى إنه أرسله مع ولده الولي لما ارتحل بنفسه إلى دمشق ، وزوجه ابنته خديجة ، ورزق منها عدة أولاد .

وكان عجباً في الدين والتقوى والزهد والإقبال على العلم والعبادة والأوراد وخدمة الشيخ وعدم مخالطة الناس في شيء من الأمور ، والمحبة في الحديث وأهله . وحدّث بالكثير رفيقاً للزين بل قل أن حدث الزين بشيء إلا وهو معه ، وكذلك قلّ أن حدّث هو بمفرده ، لكنهم بعد وفاة الشيخ أكثروا عنه ، ومع ذلك فلم يغير حاله ولا تصدر ولا تمشيخ ، وكان مع كونه شريكاً للشيخ يكتب عنه الأمالي بحيث كتب عنه جميعها وربما استملى عليه ،

ويحدث بذلك عن الشيخ لا عن نفسه إلا لمن ضايقه .

ولم يـزل على طريقـه حتى مـات في ليلـة الثـلاثـاء تـاسـع عشر من رمضـان سنـة سبـع وثمانمائة ، بالقـاهرة ودفن من الغـد ، خـارج بـاب البرقيـة منهـا ، رحمـه الله وإيـانـا . اهـ .

قال الهيثمي في مقدمته على مجمع الزوائد :

وبعـد فقـد كنت جمعت زوائـد مسنـد الإمـام أحمـد وأبي يعلى المـوصلي وأبي بكر البزار ومعـاجم الطبراني الثلاثـة ـ رضي الله تعـالى عن مؤلفيهم وأرضـاهم وجعل الجنـة مثواهم ـ كل واحد منهـا في تصنيف مستقل ـ مـا خلا المعجم الأوسـط والصغير فـإنهما في تصنيف واحـد ـ فقال لي سيـدي وشيخي العلامـة شيخ الحفـاظ بـالمشرق والمغرب ومفيـد الكبـار ومن دونهم الشيخ زين الدين أبو الفضل عبـد الرحيم بن العراقي ـ رضي الله عنـه وأرضـاه وجعل الجنـة مثوانا ومثواه ـ : اجمع هذه التصانيف واحذف أسانيدها لكي يجتمع أحاديث كل باب منها في باب واحد من هذا ، فلما رأيت إشـارتـه إليّ بـذلـك صرفت همتي إليـه ، وسـألت الله تعـالى تسهيله والإعانة عليه ، وأسأل الله تعالى النفـع به إنه قريب مجيب .

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

و(غاية المقصد في زوائد المسند) ـ أي مسند أحمد ـ على الكتب الستـة ، للحـافـظ نور الـدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمـان الهيثمي بـالثـاء المثلثـة ، وأمـا أحمـد بن حجر الهيتمي ، فقال الأمير في ثبته « بالمثناة الفوقية نسبة للهياتم من قرى مصرَ » الشـافعي المصري المتوفى بالقـاهرة سنـة سبع وثمـانمـائـة وهو رفيق أبي الفضل العراقي في سماع الحـديث وصهره وتلميذه ، وهو الذي أشار عليه بجمع الزوائد المذكورة وهي في مجلـدين ، ولـه أيضـاً زوائـد مسنـد البزار على الكتب الستـة وسماهـا « البحر الـزخـار في زوائـد مسنـد البزار » في مجلـد ضخم ، وزوائد مسند أبي يعلى الموصلي عليها أيضاً في مجلد ، وزوائـد المعجم الكبير للطبراني عليها أيضاً ، وسماها (البدر المنير في زوائد المعجم الكبير) في ثلاثة مجلدات ، وزوائد المعجم الأوسط والصغير له عليها أيضاً وسماها (مجمع البحرين في زوائـد المعجمين) في مجلـدين ، ثم جمع الزوائد الستة المذكورة كلها في كتاب واحد محذوف الأسانيد مع الكلام عليها بـالصحـة

والحسن والضعف ، ومـا في بعض رواتها من الجرح والتعـديل ، وسماه (مجمع الزوائـد ومنبـع الفوائـد) وهو في ست مجلـدات كبـار ويوجـد في ثمـان مجلـدات وأكثر وهو من أنفـع كتب الحديث ، بل لم يوجد مثله كتاب ، ولا صنّف نظيره في هذا الباب .

* * *

٢٠ ـ محمد بن محمد بن سليمان المغربي
وكتابه جمع الفوائد

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

وللشيخ الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمد بن سليمان المغربي الروداني ، صاحب (صلة الخلف بموصول السلف) المتوفى سنة أربع وتسعين وألف ، ودفن بسفح جبل قاسيون من دمشق الشام ، كتاب (جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد) اشتمل على الصحيحين والموطأ والسنن الأربعة ومسند الدارمي ومسند أحمد ومسند أبي يعلى ومسند البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة .

وقد تحدث الشيخ محمد بن محمد في مقدمة كتابه عن كتابه فقال :

فهذا (جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد) .

(الأول) للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الموصلي ـ رحمه الله ـ جمع فيه ما في تجريد رزين بن معاوية للأصول الستة ، بإبدال ابن ماجه بالموطأ ، وما نقصه رزين منها ، وعزا كل حديث إلى مخرجه سوى ما زاده ـ أعني ما في تجريد رزين ـ ولم يجده ابن الأثير في الأصول الستة ، فإنه بيّض له مكاناً حتى إذا عثر على مخرجه عزاه إليه فيه ، ورتبه على ترتيب بديع، لكن لغموض دقة وضعه واتساع حجمه في جمعه : قل أن ينتفع به إلا ذو فكرة ذاكية وحافظة واعية .

(وأما الثاني) للحافظ نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر ابن سليمان الهيثمي ـ رحمه الله ـ جمع فيه ما في مسند الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة من الأحاديث الزائدة على ما في الأصول الستة بجعل ابن ماجه ههنا دون الموطأ وعقب كل حديث بالكلام على رواته تعديلاً وتجريحاً ، فجاء حجمه في ست مجلدات يتناهز بجامع الأصول ، فتجشمت هذا الجمع منهما لضيق وُسعي عن الإحاطة بكل ما فيهما ، فاقتضى الجمع أن أضيف إليهما سنن ابن ماجه ، لكن لكون جامع الأصول أخرجه من الستة فلم يذكر

ما فيه ، وكون مجمع الزوائد أدخله فلم يذكر زوائده ، لم يحسن مني أن أضيف كله إلى الجامع أو زوائده إلى المجمع لأن ذلك كجبر لأحدهما على خلاف مراده ، فلهذا أفردت زوائده وعزوتها إليه ،ولما كان اختلاف القوم في سادس الستة أهو ابن ماجه أو الموطأ أو مسند الدارمي ؟ راعيت هذا الخلاف ، فأضفت لذلك أيضاً زوائد الدارمي مفردة ، إلا أن يتفق مع ابن ماجه فأجمعها ، وتكلمت على رجالها تجريحاً وتعديلاً بما في الكاشف للذهبي وتهذيب التهذيب والتقريب للحافظ ابن حجر وغيرها ، ورتبته على ترتيب أصوله لكونه مألف طبعي دون ترتيب الجامع ، وأينما عثرت على حديث مكرر عندهم في أبواب أثبته في أليق تلك الأبواب به وحذفته في غيرها ، إلا لفائدة أو غفلة مني كما فعل مسلم - رحمه الله - وأينما ورد في حكم أو معنى حديثان فأكثر أو روايتا حديث فأكثر ، فإني أقتصر فيه على ما هو أكثر فائدة من تلك الأحاديث أو الروايات ، وأحذف غيره إلا إن اشتمل على زيادة ، فإني أخلص منه تلك الزيادة ، أو أذكر كله ، والحديث الذي تعدد من أخرجه أذكره بلفظ أحدهم وسياقه ثم تارة أذكر من له اللفظ وتارة لا أذكره .

أقول : وقد جعلت كتاب محمد بن محمد بن سليمان أنيساً لي ، ودليلاً في عملي ، فقد اجتمع فيه ما تفرق في غيره ، بل وجدت فيه الكثير مما يحقق مقاصد كتابنا هذا ، ولولا أني أستهدف أكثر مما استهدف ، وأريد أكثر مما أراد لاكتفيت بخدمة كتابه ، ولكن حاجة عصرنا أوسع ، فتطلعت إلى التأليف المستقل فكان هذا الكتاب ، الذي أرجو أن يكون قد انصبت فيه كل هذه الجهود التي خدمت السنة النبوية ، كما أرجو أن أكون قد وفقت لاستخلاص جناها وعبيرها ، ورصف جواهرها ، وإحكام البناء والزخرفة من لبنات ذهبها . وها نحن أولاء نسلمك للقسم الأول من هذا الكتاب .

* * *

القسم الأول

في

السيرة النبوية

ويشتمل على:

مقدمة وستة أبواب

الباب الأول: من البدء حتى النبوة الشريفة

الباب الثاني: من البعثة حتى الاستقرار في المدينة

الباب الثالث: من الاستقرار في المدينة حتى الوفاة

الباب الرابع: في الصفات والخصائص والشمائل

الباب الخامس: في معجزات الرسول ﷺ

الباب السادس: دوائر شرف حول الرسول ﷺ

المقدمة

السيرة النبوية ـ في الأصل ـ هي الكتاب والسنة ، إنك لا تعرف رسول الله ﷺ إلا إذا عرفت الكتاب الذي أنزل عليه ، وعرفت مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته ، وتلك هي سنته .

لقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، ولقد كان القرآن نفسه سجلاً لأهم الأحداث في حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمن هنا قلنا إن القرآن سيرته ، وإن أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته هي سيرته ، ومن ثم فإن هذا الكتاب وكتاب الأساس في التفسير من سلسلة في المنهج هما في سيرته .

وبهذا المعنى نقول : إن السيرة النبوية تسع الزمان والمكان والأشخاص فهي منهج متكامل متجدد ، فما من وضع للإنسان وللناس وللمكلفين إلا والسيرة النبوية تسعه قدوة وعملاً ملاحظاً في ذلك أحوال الناس جميعاً من ضعف إلى قوة ، و ما دام الإنسان على مقتضى الفتوى فإنه على نوع من القدوة .

على أن كُتّاب السيرة درجوا على أن يرسموا صورة لشخصه ومسرى لأحداث حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن ههنا أصبحت السيرة في الاصطلاح جزءاً من كلٍّ ، وأصبحت عَلَماً على علم خاص أشبه بالتاريخ الشخصي وما يحيط به .

ولهذا جعلنا الكلام عن سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ قسماً من أقسام هذا الكتاب .

وقد أدخلنا في هذا القسم ما هو ألصق بالسيرة الذاتية ، وما فاتنا ذكره هنا مما هو ألصق بموضوعات أخرى يجده القارئ في بقية الأقسام .

وكما توضّعت حول أي موضوع من موضوعات الكتاب والسنة دراسات وتحقيقات وأصبح لكثير من الموضوعات مختصون ومحققون ، فكذلك هذا القسم من السنة النبوية ، فكما وجد في الفقه وفي التوحيد وفي التفسير أئمة ، فقد وجد في السيرة أئمة ، من أمثال ابن إسحق وموسى بن عقبة والواقدي ، وغيرهم كثير .

وهناك فـارق بين المُحدِّث وكاتب السيرة ، كالفـارق بين المحـدث والفقيـه ، كالفـارق بين المنقِّب عن الآثار والمؤرخ . فالمنقب عن الآثار مهمته : أن يعثر على الأثر وأن يُقـدِّم دراسـة عنه ، ولكن مهمة المؤرخ : أن يستفيد من هذا الأثر وغيره ليقدم صورة متكاملة عن حدث أو مرحلة ، أو يقدم نظرية متكاملـة في مسرى الأمور . والفـارق بين المحـدث والفقيـه : أن المحدث مهمته: جمع الروايات وتحقيقها ، وهو لا يدخل في حسابه ما زاد على ذلك من التتبع للنصوص القرآنية ، أو البحث في مَحلّ هذه الروايات بالنسبة لبنـاء الشريعـة ، أمـا الفقيـه فمهمته : رؤيـة كل مـا ورد من كتـاب أو سنـة في موضوع مـا ، وإذا كانت هنـاك مسـائل تحتاج إلى جواب وليس في النصوص الصحيحة والقرآن جواب واضح عليها فعليـه أن يبحث عن الجواب من خلال قياس أو إجماع أو روايات ضعيفة يسندها قيـاس أو استئنـاس بروح الشريعة إلى غير ذلك ، قُلْ مثل هـذا في الفـارق بين المحـدث وكاتب السيرة ، فكاتب السيرة محدِّث وزيادة ، فهو من حيثية كونه محدثاً عليه أن يروي وأن يجمع الروايات وأن يمحصها وأن ينتقد الرواة وأن يقارن بين المرويات ، ولكنه ككاتب سيرة له مهمة زائدة : أن ينظر في هـذه الروايـات على ضـوء النصـوص القرآنيـة ، ومـا كان لـه أصـل صحيـح وليس فيـه تفصيلات فعليـه أن يبحث عن هـذه التفصيلات ، وإذا كان هنـاك تعـارض بين الروايـات فعليه أن يرجح ، وإذا كانت هنـاك فجوة في تسلسل الأحداث فعليـه أن يبحث ليملأهـا ، وقد يملؤها من خلال استقراء أو استنتاج أو من خلال روايات ضعيفة ، وأحيـانـا من خلال روايات وصلته دون إسناد ، فهو من هذه الحيثية محقق ومؤرخ بل قد يكون مجتهداً .

وكما يختلف الفقهاء في النهاية فقد يختلف محققو السيرة في النهاية . وفي حالة الاتفـاق أو الاختلاف فهناك صور لا يترتب عليها عمل، سواء اتفقوا أو اختلفوا كالقضايـا التاريخية البحتـة، فمثلاً : ما هي مدة فترةِ الوحي التي حدثت بين نزول قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربـك .. ﴾ من سـورة العلـق ، وبين نـزول سـورة (المـدثر) ؟ لا يترتب على المعرفـة التفصيليـة ههنـا عمل ، وإن كان بعض علماء التربية قد يستفيد منها نوع فائدة .

وهنـاك قضـايـا يترتب عليهـا عمـل ، ولاتفـاق المحققين أو اختـلافهم تـأثير ، فمثـلاً : المعاهدات التي عقـدهـا رسول الله ـ ﷺ ـ أول استقراره في المـدينـة مع غير المسلمين ، هـذه

المعاهدات تعتبر سوابق دستورية للحركة الإسلامية في تعاملها مع الآخرين إذا لم تكن منسوخة ، نفرض أن هذه المعاهدات نقلت لنا على طريقة المحدثين ، وسندها صحيح أو حسن ، فالأمر في هذه الحالة واضح ، إذ تأخذ هذه الروايات محلها من أصول الأحكام فحكمها حكم السنة النبوية المعتمدة . ولكن لنفرض أن هذه الروايات لم تبلغ هذا المستوى وأجمع عليها كُتّابُ السِّيَر المعتمدون وأئمة هذه الشأن أو اختلفوا ، فهل هذه الروايات لا قيمة لها أبداً ؟ الذي أذهب إليه أن هذه الروايات إذا لم يكن لها معارض ، وكان لها أصل صحيح ترجع إليه ، لا تنزل عن أن تكون مذهباً لصاحبها ، فإذا كان صاحبها إماماً أو مرجعاً في هذه الشأن صح تقليده ، وللمسلمين أن يبنوا على مثل هذه الروايات ، والحجية في هذه الحالة لا من حيث إن ما ورد تقوم به الحجة سنداً ، لكن من حيث إن من رواه يعتبره جزءاً من السيرة ، ويعتبره أهلاً للبناء عليه .

واحتراساً أقول : ليس كل إنسان مرشحاً لأن يفتي بناء على ذلك .

إنني أذهب إلى مثل هذا في كتب التراث ، فمن كان من أئمة شأن من الشؤون ، وقد وصل إلى أن يكون مرجعاً فيه ، وليس متهماً في عقيدته أو ورعه أو علمه ، فإن للمسلم أن يعتمد تحقيقه ، وأن يبني عليه ، قل مثل هذا في كتب الحديث أو التفسير أو الفقه أو السيرة الصادرة عن الراسخين في العلم .

وإنما أوردنا هذه المعاني حتى لا يظن ظان أن كتب السيرة وكتب الحديث يحرم النظر فيها إلا إذا كانت محققة على الأصول الفنّية التي هي محل اجتهاد ، فذلك باب لو أغلقناه ينسد به باب القراءة للتراث كله ، وهذا مخالف للإجماع ، فما أحد من أهل العلم في تاريخ هذه الأمة قال : يحرم على المسلم أن يقرأ سيرة ابن هشام أو مسند الإمام أحمد أو سنن الترمذي .

وكذلك أوردنا هذه المعاني هنا للتقديم لعملنا في هذا القسم ، فعملنا في هذا القسم أن نذكر الروايات الصحيحة والحسنة الواردة في سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أصول هذا الكتاب وقد نذكر ما صح أو حسن من غير هذه الأصول مع الخدمة التي وعدنا بها ، وتحقيق الأغراض التي استهدفناها ، ولكنا في الوقت نفسه ننقل خلاصات من أقوال المحققين

من أئمة أهل السير والمغازي ، فما ننقله عن هؤلاء لا ينزل في رأينا عن أن يكون مذهباً لصاحبه ، ونحن مضطرون لذلك لأنه إذا لم نفعله فإن قارئ هذا القسم سيخرج بفوائد أقل ، وقد التزمنا في كتابنا هذا أن ننقل في كل بحث تحقيقات أهل الاختصاص فيه ، ولا نحب أن نخل بهذا الالتزام في هذا القسم أو غيره .

* * *

وإنما جعلنا هذا القسم مقدمة وستة أبواب ، لأننا حريصون على تصحيح مفاهيم وترسيخ أخرى حول السيرة ، فاخترنا أن يكون هذا في المقدمة ، واعتمدنا الأبواب الستة ـ كما سنعرضها ـ كشيء لابد منه لتكامل العرض .

فالمراحل الرئيسية في حياة رسول الله ﷺ ثلاثة : ما قبل البعثة ، ثم ما بعد البعثة حتى الاستقرار في المدينة ، ثم من الهجرة حتى الوفاة ؛ فهذه ثلاثة أبواب .

وهناك دائرتان لابد من الحديث عنهما لتتكامل الصورة : دائرة آل بيته وفيهم أزواجه ، ودائرة أصحابه ومنهم خلفاؤه ، فهؤلاء الذين حملوا الراية ، وتابعوا مرحلة التأسيس فأصبحت الأبواب أربعة .

ومعرفة صفاته وشمائله وخصائصه جزء من سيرته ، والتعرف على معجزاته طريق الإيمان به فتمّت الأبواب بذلك ستة ، وما سيأتي في بقية أقسام هذا الكتاب يكمل صورة ما فات ، فهذه الموضوعات هي الألصق بالسيرة .

* * *

تصحيح مفاهيم حول السيرة :

إن هذه المقدمة قد خصصناها لتصحيح مفاهيم ولترسيخ أخرى ، والمفاهيم الخاطئة في موضوع السيرة نوعان : فمنها أخطاء عند بعض الإسلاميين ، ومنها مفاهيم خاطئة أو قاصرة عند الكافرين . ألا إنّ هناك أغلاطاً في شأن السيرة النبوية ، بعضها ناشيء عن جهل بكمالات السيرة النبوية ، وبعضها ناشيء عن القصور في تصور أصول التشريع الإسلامي

وكيفية انبثاق الأحكام عنها ، ومحل السيرة النبوية ـ في الاصطلاح ـ منها .

وقد وجدت أن كثيراً من المفاهيم التي أحب تصحيحها أو ترسيخها ، وكثيراً من الأغلاط التي أرغب في تصويبها ، قد تعرَّض لها الشيخ سليمان الندوي ـ رحمه الله ـ في محاضراته الثمان التي خرجت باسم (الرسالة المحمدية) ، بل إن المعاني التي ذكرها لا يستغني عنها قارئ للسيرة النبوية في عصرنا ، ولذلك فإنني سأعطيك تصوراً عن بعض ما ذكره في هذه المحاضرات ، ثم أنطلق بعد ذلك في المقدمة مكملاً ما أردت لها من أغراض .

* * *

إن سيرة النبي ﷺ حلقة من سلسلة النبوات والرسالات ، وللنبوة والرسالة خصائصها وميزاتها ، وسيرة النبي ﷺ مع اشتراكها في خصائص النبوات والرسالات لها خصائصها وسماتها الخاصة ، ومحاضرات الشيخ سليمان الندوي الثمان كانت في هذه الشؤون ، فقد أبرز المؤلف في محاضرته الأولى أهمية رسالات الله في الحياة البشرية ، وأن الرسل وحدهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم الهداة الحقيقيون بالدعوة والقدوة لكن هؤلاء الرسل باستثناء محمد ﷺ لم يصلنا عنهم ما يغطي احتياجات البشر في الهداية والقدوة ، ولذلك حكمته ، فمحمد ﷺ هو الرسول الخاتم ورسالته هي الرسالة الخاتمة ولذلك اجتمع لها أربعة شروط لابد منها لسيرة القدوة والهادي: التاريخية، والشمول، والكمال، والواقعية العملية. وهذا هو محور المحاضرة الثانية. ثم جاءت المحاضرات الأربع التالية لتفصل في كل شرط من هذه الشروط وكيف أنه موجود على التمام في سيرة رسول الله ﷺ ، حتى إذا وصل إلى المحاضرة السابعة تحدث عن أن سيرة النبي ﷺ التي تجمعت فيها كل شروط القدوة والهداية ينبغي أن تهتدي بها الأمم ، لأنها موجهة إلى الأمم جميعها ، ولأن الأمم كلها بحاجة إليها ، ثم تأتي المحاضرة الثامنة لتذكر بعض أيادي الرسالة المحمدية على البشرية ، وفيها تأكيد لضرورة اهتداء البشرية برسالة محمد ﷺ كما فيها تعداد لجوانب كثيرة في هذه الرسالة وأنها هي الدواء والبلسم لأصعب أمراض الأمم القديمة والمعاصرة .

هذا هو الخط العريض لهذه المحاضرات ، وكم فيها من معانٍ عظيمة ، وكنوز راقية ، وكم فنّدت فيها أخطاء وشبهات ، لذلك أجدني أسير النقل عنها في هذه المقدمة شعوراً مني بأن ذلك يخدم أغراضها .

(١)

حاجة البشرية إلى الدين

إن أعظم احتياجات البشر على الإطلاق هي حاجتهم إلى دين ، يعطيهم تصورات صحيحة ، ويطلق طاقاتهم في طريق مستقيم وبسلوك قويم ، والرسل من بين خلق الله تعالى هم الذين قدّموا للبشرية ذلك من خلال الدعوة والقدوة ، أما من سواهم من أمراء وملوك وشعراء وأدباء وغير ذلك ممن ليسوا على قدم الأنبياء فهؤلاء مهما أعطوا البشرية فإنهم يعطونها ما هو دون الاحتياج الأعظم ، بل هم يضلونها ويعذبونها ، وفي كل الأحوال فهم لا يشكّلون القدوة الرفيعة للإنسانية الجديرة بالاحترام .

هذا هو المحور الرئيسي للمحاضرة الأولى التي سار فيها المؤلف على الترتيب التالي :

أ ـ الحديث عن مكانة الإنسان في هذا الكون ، ومحله في تسلسل مراتب الكمال الحياتي ، وأنه أُعطِيَ استعداداً للكمالات فاقت ما أُعطِيه كل مخلوق ، وقد سخر الله له المخلوقات كلها .

ب ـ هذا الإنسان عنده استعداد للعدل والعلم كما أن عنده استعداداً للظلم والجهل ، وهو بدون هداية الأنبياء يغلب عليه الظلم والجهل ، بينما تجعله هداية الأنبياء سائراً في طريق العدل والعلم ، والبشرية لم يزل مستقراً في ضميرها حب العلم والعدل ، ولذلك فقد استقر في ضميرها تقديس الأنبياء والرسل ، وازدراء الظالمين والجاهلين .

ج ـ وإذا كان الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم الذين دعوا بالحال والمقال إلى العدل والعلم ، فقد استقامت بهم الحياة ، وتحقق بهم فلاح الإنسان وصلاحه وسعادته ، بينما نجد غيرهم في تاريخ البشرية قد لمعت أسماؤهم ، ولكن من منهم ترك لمن أتى بعده أسوة

يتأسى بها في تعميم الخير ؟ ومن منهم إذا اهتدى الناس بهديه ينجون من المهالك ويسلكون سبيل السعادة والهناء ؟ ومَن مِن هؤلاء مَن استعملوا سيوفهم البواتر في قطع حبائل العقائد الفاسدة ، وتخليص العقول من الأوهام الواهية والأفكار الباطلة ؟ ومَن منهم من وقف حياته على حل معضلات بني آدم ، وكان حريصاً على عقد أواصر الإخاء بينهم على الحق والتواصي بالخير ؟ وهل يوجد في حياة من ذكرنا من هؤلاء العظماء ما يستعين به بنو الإنسان على تخفيف ما يعانونه من الغمرات في حياتهم الاجتماعية ؟ أم في أخلاقهم وأعمالهم ما ييسر للإنسانية الشفاء من أمراضها الخلقية وأوصابها النفسية ؟ أم في دعوتهم ما يجلو صدأ القلوب ورينها ، أو يرتق فتقاً في الحياة الاجتماعية ؟

وقد تحدث المؤلف حديثاً مستفيضاً عن أصناف من الأعلام شعراء وكتاب وقانونيين واجتماعيين وأمراء وملوك ، وأقام الدليل على أن هؤلاء ليسوا في منصب الإصلاح الحقيقي ، مهما كان شأنهم إذا قورنوا بالأنبياء .

ثم تحدث عن الأنبياء والمرسلين الذين لم يترك الله أمة إلا وقد أرسل لها طائفة منهم وأن كل لمعة خير في قلب أو في أمة إنما هي بقايا فطرة وأثر دعوة نبي .

وبعد أن يقارن بين آثار الملوك والجبابرة وبين آثار الأنبياء، وبين ما تجيش به العواطف والقلوب نحو الأنبياء ، وبين تأثيرات الملوك على القلوب والعواطف ، يقول :

أظنكم قد استمعتم لما ألقيت عليكم من الأدلة العقلية والبراهين التاريخية ، وإخالها قد تركت فيكم أثراً أورث في قلوبكم يقيناً بأنه لم تكن طائفة من الناس أصلحت من فساد الأخلاق ، وقومت من عوجها ، وهذبت النفوس ، وهدتها من ضلال ، مثل الذي قام به الأنبياء عليهم السلام ، فهم الذين أصلحوا الحياة الاجتماعية ، وعلموا الناس الاقتصاد في المعيشة ، والاعتدال في كل شيء ، وهم الذين أقاموا العدل في الدنيا ، وحكموا بالقسط بين الناس ، وزكّوا القلوب ، وأخذوا بيد الإنسانية إلى الحق والخير وأنقذوها من حمأة الرذائل ، وأن الله سبحانه قد بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات ـ ظلمات العقائد ، وظلمات الأخلاق ، وظلمات الأعمال ـ إلى النور ـ نور الإيمان ، ونور الخلق الكريم ، ونور العمل

الصالح ـ ، وتركوا بعدهم سنة للناس يتبعها السوقة ويعمل بها الملوك ، وينتفع بها صغار الناس وكبارهم ، ويتمتع بخيراتها الأغنياء والبؤساء على السواء ، وإن مثل الأسوة بهم كمثل عين ثرةٍ فياضة تروي البلاد وتسقي العباد ، يشرب منها كل عطشان بقدر حاجته ، ويرتوي بمائها العذب الزلال كل ظمآن فينقع غلته .

وبعد ذلك يتحدث عن أعلام الأنبياء في القرآن ، ويذكر المعالم الكبرى لشخصية كل نبي ، وأن مجموع هذه المعالم هي التي تحتاجها الحياة البشرية .

ثم تحدث عن دور البناة جميعاً في الحياة البشرية من مهندسين وأطباء وحكماء وأنصف الجميع ، ثم برهن على أن ذلك كله بالنسبة لاحتياجات البشرية هو الجانب الأدنى إذا قورن باحتياجات البشر إلى هداية الأنبياء .

وبعد هذا خلص إلى الحديث عن الدعوة والقدوة في حياة الأنبياء ، وكالها وتكاملها ، وذلك هو المظهر الأرقى للرشد والإرشاد في حياة البشرية .

تلك هي بعض معالم المحاضرة الأولى التي بينت عظم الفضل وعظيم العمل الذي قام به الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فطوّقوا جِيدَ البشرية بالمِنّة .

* * *

(٢)

محمد الرسول الأكمل ﷺ

ومن بين الرسل جميعاً يظهر محمد ﷺ كأكمل رسول ، وهو من بين الرسل جميعاً تصلنا دعوته مفصلة وسيرته كاملة ، ولذلك فهو الذي يمكن أن يُهتدى بهديه اهتداءً كاملاً ، ويُقتدى بسيرته اقتداءً كاملاً ، لأنه من بين الأنبياء كانت سيرته ورسالته تجتمع فيها : التاريخية والشمولية والكمال والعملية ، عدا عن كون رسالته هي الرسالة الخاتمة والناسخة ، وهي التكليف الرباني الذي لايقبل الله غيره ، ولكنها كذلك جعلها الله على ما ذكرنا .

هذا هو محور المحاضرة الثانية :

إنّ لكلّ رسول ميزة وخصيصة ، ومحمد ﷺ من بين الرسل تجمّعت فيه الميزات والخصائص جميعها على كمالها وتمامها ، ولكل رسول إضاءته وتبشيره وإنذاره ودعوته ، ومحمد ﷺ من بين الرسل الشمس المنيرة والبشير الأعظم والمنذر الأكبر والداعية الأجل ، فهو النبي الجامع محمد ﷺ لأنه بعث ليختم الله به النبيين والنبوات ، فأعطي الرسالة الأخيرة ليبلغها إلى البشر كافة ، فجاء بالشريعة الكاملة التي لا يحتاج البشر معها إلى غيرها ،ولم تنزل من السماء إلى الأرض شريعة على قلب بشر بعد هذه الشريعة ، لقد حظيت التعاليم المحمدية بالخلود ، واختصت بالبقاء والدوام إلى يوم القيامة ، فكانت نفس محمد ﷺ جامعة لجميع الأخلاق العالية والعادات السنية ، وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق .

ثم يأتي بالأدلة والبراهين على ذلك ، وأول برهان على ذلك : أن سيرته وشريعته باقيتان خالدتان معروفتان .

ثم يتحدث عن أشهر الديانات المعروفة : الهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية واليهودية والمسيحية ، ليقيم الدليل على أن المنقول منها لا يغطي احتياجات البشرية في الهداية ولا في القدوة .

يقول المؤلف :

إنه ليس في مئات الألوف من المصلحين والنبيين من يشهد لهم التاريخ إلا ثلاثة أو أربعة ، ومع ذلك فإن التاريخ لايعرف من تفاصيل أحوالهم وشؤون حياتهم ودخائل سيرتهم إلا نزراً يسيراً وغير كامل ، فكيف يتسنى للإنسان أن يتخذ من ذلك أسوة لحياته ذات النواحي المختلفة ؟ .

وأخذ يضرب الأمثلة في البرهان على ذلك من خلال ما يعرفه الناس عن بوذا وزرادشت وموسى وعيسى ، مع البرهان على أن هذه المعلومات ـ كما وردت عن أهلها ـ لا تشكل روايات ثابتة ، ويخلص بالتالي إلى أن كل ما تعرفه البشرية عن الأنبياء السابقين عن طريق أتباعهم لا تجتمع فيه شروط التاريخية أو الواقعية أو الشمولية أو الجمع لكل ما يلزم الإنسان وهي شروط الاهتداء والاقتداء . ثم إن هذه الديانات نفسها على حسب ما

نقلت لنا ليس فيها ما يتفق مع الفطرة البشرية ، إنْ في شأن الربوبيـة أو في شـأن السلوك أو في شـأن العمران ، فعـدا عن قصورهـا فـإن فيهـا انحرافـاً وضلالاً وخراباً ، فبعض هـذه الديانات ليس لله فيها ذكر كالديانة البوذيـة والصينيـة ، وبعضهـا ليس في أصولهـا المنقولـة تفصيل عن طبيعة العلاقة مع الله كالديانة اليهودية والمسيحية ،وفي التعامل بين بني الإنسـان لا تجد تفصيلاً شاملاً بل نجد قصوراً وأخطاءً فطريـة ، ولو طبقت هـذه الأديـان حرفيـاً كما وصلت إلينا لترتب على ذلك خراب العالم وشقاء الإنسان .

يقول المؤلف :

لم تكن سيرة بوذا قـط أسوة للهنـاء العـائلي ، ولا لأهل الصنـاعـات والمتـاجر، ولو اتخـذ أتباع بوذا قدوة لهم من حياة بوذا لما قامت لهم هذه الدول في الصين واليابـان وسيـام وتبت وبرما ، ولما عرت للتجارة في بلادهم سوق ، ولا دبت الحياة في صنـاعـاتهم ومصـانعهم ، ولو اختـار أهـل تلـك البـلاد سيرة متبـوعهم سيرة لهم وسـاروا عليهـا لأقفرت الأرض العـامرة وتحولت إلى صحاري قاحلة ، ولأصبحت المدن خراباً أو أرضاً جرداء .

ولـو أن النـاس في أيـامنـا هـذه آثروا التـأسي بحيـاة عيسى ـ عليـه السـلام ـ وأرادوا أن يعيشوا كما عاش ، لخربت الدنيا واستحال عمرانها خراباً يباباً ، ولأصبحت القرى مقابر تتردد في أنحائها أصوات البوم ، أما الحضارة وتقـدمهـا فسرعـان مـا يعتريها الزوال ويمحى اسمها ، وأوروبا المسيحية لن تبقى بعد ذلك يوماً واحداً .

ويخلص في نهاية المحاضرة إلى قوله :

إن الإنسان ينشد مثالاً يقتدي به في كل عمل يقـدم عليـه ، في غنـاه وفقره ، وفي سلمـه وحربه ، ويتحرى السبيل الذي يسلكه إذا تزوج أو بقي عزباً ، ويريد أنموذجاً عاليـاً يـأتم به إذا عبد ربه ، أو عاشر الناس ، ويحاول أن يلم بالقوانين التي ينبغي العمل بها بالنسبة إلى الراعي والرعية والحكام والمحكومين .

جميع هذه الأمور ينبغي للمرء أن يتخذ لنفسه القدوة فيها ، لأن الأمم قد التوت عليهـا هذه المسألة ، فأهمها التماس الطريق الموصل إلى حلّ هذه المعضلات وتذليل هذه المصـاعب ،

ومعظم الشعوب تشعر بالحاجة الشديدة إلى المثل العليا في ذلك لتخفّ عن الإنسانية آلامها وتأسو جراحها ، وهي متلهفة على مثال لذلك من الأعمال ، لا على مثال عليه من الأقوال .

ولست بمبالغ إذا قلت : إن التاريخ أصدق شاهد على أنه ليس في الدنيا أحد يصح أن يكون للإنسانية أسوة من سيرته وحياته غير سيرة محمد ﷺ وحياته .

وليكن على ذكر منكم ما تحدثت به إليكم من قبل ، وهو أن حياة العظيم التي يجدر بالناس أن يتخذوا منها قدوة لهم في الحياة ينبغي أن تتوافر فيها أربع خصال :

١ ـ أن تكون (تاريخية) أي أن التاريخ الصحيح المحض يصدقها ويشهد لها .

٢ ـ أن تكون (جامعة) أي محيطة بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شئونها .

٣ ـ أن تكون (كاملة) أي أن تكون متسلسلة لا تنقص شيئاً من حلقات الحياة .

٤ ـ أن تكون (عملية) أي أن تكون الدعوة إلى المبادئ والفضائل والواجبات بعمل الداعي وأخلاقه ، وأن يكون كل ما دعا إليه بلسانه قد حققه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية ، فأصبحت أعماله مثلاً عليا للناس يتأسون بها .

وأنا لا أقول إن الأنبياء صفرت صحائف حياتهم من هذه الميزة مدة وجودهم في الحياة الدنيا ، بل أقول إن سيرتهم التي توجد الآن بين أيدي الناس لا تنص على هذه الأمور ، ويخيل إليّ أن الحكمة الإلهية في ذلك ترجع إلى أن أولئك الأنبياء إنما بعثِ الواحد منهم لزمن قصير نسبياً فكان الموفَّقون للخير من شعوبهم يعرفون سيرتهم فيتأسون بها ، ولم يكن هنالك حاجة إلى أن تبقى سيرتهم معلومة للأجيال التالية بعدهم ؛ لأن النبوّات ستختم برسالة محمد ﷺ الكاملة إلى الناس كافة في كل زمان ومكان ، فمست الحاجة إلى أن تكون سيرته ﷺ معلومة على حقيقتها في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة ، ليتيسر التأسي بها لجميع أمم الأرض . وهذا من أصدق البراهين على كون محمد ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [1] .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

الشروط الصحيحة لسيرة الهادي القدوة

ثم جاءت المحاضرات الأربع اللاحقة تنصبُّ على الشروط التي يجب أن تتوافر فيها سيرة الهادي القدوة . فالأولى في شرط التاريخية ، والثانية في شرط الكمال ، والثالثة في شرط الشمول ، والرابعة في شرط العملية .

* * *

(٣)

شرط التاريخية

وها هو ذا يتحدث عن التاريخية في سيرة محمد ﷺ :

لقد شهدت الدنيا أصدق شهادة ، ثم ازداد ذلك ثبوتاً على الأيام ، بأن المسلمين لم يقتصروا على حفظ سيرته ﷺ بل توسعوا في ذلك إلى ما يتعلق بها من كل النواحي ، فصانوا هذه الأمانة القدسية فلم تلمسها يد الضياع ، ولم تعبث بها عوامل الدهر ، إلى درجة أن العالم كله يقف من ذلك موقف العجب والاستغراب . والذين وقفوا حياتهم منذ العصر النبوي على حفظ أقوال النبي ﷺ ورواية أحاديثه ، وكل ما يتعلق بحياته ، أدَّوْها إلى من ضبطوها بعدهم ، وكتبوها وصاروا يسمون (رواة الحديث) أو (المحدثين) و (أصحاب السير) وهم طبقات متسلسلة من (الصحابة) و (التابعين) و (تابعي التابعين) .

وقد بلغ عدد الصحابة - رضي الله عنهم - في آخر حياة النبي ﷺ الذين حجوا معه حجة الوداع [حوالي] مائة ألف ، ومن هؤلاء [حوالي] عشرة آلاف صحابي مذكورة أسماؤهم وأحوالهم في كتب التاريخ التي أفردت لتدوين أحوالهم خاصة ، لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

ثم جال المؤلف جولات موفقة في عرض طبقات المشتغلين بنقل السنة النبوية وتعليمها ، متحدثاً خلال ذلك عن تحري الصحابة والأئمة العدول صدق النقل عن رسول الله ﷺ ومتحدثاً عن قوة ذاكرة العرب خاصة ، ثم المشتغلين بالسنة بشكل عام ، وكيف أنهم كانوا يجمعون مع الحفظ الكتابة لزيادة التوثيق ، وإنه مع هذا وهذا وجدت العلوم التي تُمحِّص

وتقارن وتحقق ،ووجد الجهابذة الذين يمتلكون القدرة على التمييز بين المرويات .

وخلال ذلك ردٌ على فرية بعض المستشرقين الذين يزعمون أن السنة النبوية تأخر تدوينها ، فيقيم الأدلة التاريخية القاطعة على كذب هؤلاء ، فلم ينقطع التدوين منذ عهد رسول الله ﷺ إلى أن وجدت كتب السنة المشهورة ، ولعل هذه الصفحات من كتابه من أروع الصفحات . ومما قاله في هذه الصفحات :

فأصحاب النبي ﷺ كتبوا بأيديهم في عهده ﷺ وجمعوا من أحاديثه في حياته ،وتركوا ذلك لمن بعدهم ، والذين جاءوا بعدهم أدخلوه في كتبهم ، ولا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن التابعين - رضي الله عنهم - جمعوا جميع المرويات في عهد الصحابة ، وكتبوا في حياتهم ما وصل إلى علمهم من الأخبار والشؤون ، وبحثوا عن ذلك بحثاً طويلاً ، وبذلوا فيه جهودهم وسافروا له ، وطرقوا أبواب العلماء والمحدثين ، حتى لقد كانوا يطوون لأجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشُقّة بعيدة .

والحق أن جميع الأحاديث والأحكام والأخبار تمّ تدوينها عند المسلمين في ثلاثة أطوار :

الطور الأول هو الذي كان فيه الصحابة وكبار التابعين .

الطور الثاني هو الذي كان فيه صغار التابعين وتابعو التابعين .

والطور الثالث هو عهد المحدّثين وأئمة السنة كالإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، والإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح ، والإمام الترمذي ، والإمام أحمد بن حنبل ، وغيرهم من المحدّثين .

وما جمع في الطور الأول دوّن في كتب الطور الثاني ، وما دوّن في الطور الثاني جمع ونُظّم في كتب الطور الثالث ، ونرى أمامنا أكثر ما جمع في الطورين الثاني والثالث مدونا في كتب كثيرة تشتمل على آلاف من الأوراق هي في الواقع من أثمن الذخائر العلمية في العالم ، بل لا يوجد في جميع ذخائر الدنيا العلمية أوثق منها سنداً وأصح تاريخاً ورواية .

ولقد صدق الأستاذ الكبير العلامة الشيخ شبلي النعماني حين قال :

(لما أرادت الأمم الأخرى من غير المسلمين أن تجمع في أطوار نهضتها أقوال رجالها ورواياتهم ، كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غثّ ذلك الماضي وسمينه ،وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم ولا تواريخ ولادتهم فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم ويلائم بيئتهم وينطبق على مقاييسهم ، ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات معدودة كالحقائق التاريخية المدوّنة في الكتب ، وعلى هذا المنهاج السقيم صنفت أكثر الكتب الأوربية مما يتعلق بالأمم الخوالي وشئونها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ومذاهبها ورجالها .

أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمة يرجعون إليها وأصولاً متقنة يتمسكون بها وأعلاها أن لا تُروى واقعة من الوقائع إلا عن الذي يشهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذي نقله عمّن شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة والتحدث عنها إلى زمن وقوعها . والتثبت من أمانة هؤلاء الرواة وفقههم وعدالتهم وحسن تحمّلهم للخبر الذي يروونه ، وإذا كانوا على خلاف ذلك وجب تبيينه أيضاً .

وهذه المهمة من أشق الأمور ، ومع ذلك فإن مئات من المحدثين تفرغوا لها ، ووقفوا أعمارهم على تحري ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لأجله البلاد ،ورحلوا بين الأقطار ، باحثين دارسين لأحوال الرواة ، وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم ، وإذا اطمأنوا إلى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة التي كانت قبلهم ، وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل من العلوم الإسلامية أطلق عليه فيما بعد عنوان (أسماء الرجال) فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على أقدار مئات الألوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم) .

هذا فيما يتعلق بالرواية وحملتها ، وهنالك (علم نقد الحديث) من جهة الدراية والفهم ، وأن له أصولاً محكمة وقواعد متقنة اتخذوها لنقد المرويات وتمييز صحيحها من سقيمها وغثها من السمين والراجح من المرجوح ، وقد تحرّى علماء السنة في هذا الأمر الحقّ وحده ،وتمسكوا

فيه بالمحجة البيضاء ،وكل ما يؤدي إليه الصدق ، فكان عملهم هذا من مفاخر الإسلام .

وبعد ذلك يجول المؤلف جولة موفقة فيا يؤكد التوثيق ، في شأن نقل السنة النبوية وتمحيص رواياتها ، ثم بعد ذلك يخص السيرة النبوية بالحديث ، فيتحدث عن مصادرها فيقول :

وأريد أن ألفت أنظاركم إلى المصادر التي أخذت عنها سيرة النبي ﷺ وهديه ، وكيف دونت تلك المصادر وجمعت ، وأن أهم ما في سيرته ﷺ وأوثقها وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الحكيم الذي ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ عَزِيزٍ حَمِيدٍ ﴾ ، وهو الذي لم يشك في صحته العدو اللدود ، فضلاً عن الحبيب الودود .

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر السيرة النبوية : والقرآن يقص علينا جميع مناحي السيرة النبوية وطرفاً من حياته ﷺ قبل النبوة ، فيذكر لنا يتمه وفقره وتحنثه ، كما يذكر لنا شئونه بعد النبوة من هبوط الوحي الإلهي عليه وتبليغه إياه والعروج به وعداوة الأعداء وهجرته وغزواته ، وفي القرآن الكريم ذكر أخلاقه ﷺ .

كل ذلك تراه مذكوراً في القرآن ببيان واضح وأسلوب متين رائق : ومن ذلك تعلمون أنه لم تطرق أذن التاريخ سيرة رجل بأحسن ولا أصح ولا أوثق من سيرة محمد ﷺ .

والمصدر الثاني من مصادر السيرة النبوية كتب الحديث : وهي كتب حفظت لنا من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله ما يبلغ مائة ألف حديث ، وقد امتاز الصحيح منها عن الضعيف والموضوع ، والقوي منها عن غير القوي .

ومن الكتب المصنفة في الحديث الكتب الستة التي محص العلماء كل ما ورد فيها ،و ذكروا شواهده ومتابعاته ، حتى لم يتركوا في النفوس منزع ظفر لمحقق منصف ، بل ولا لمدقق جائر ، ويتلو الكتب الستة كتب المسانيد ، وأعظمها مسند الإمام أحمد بن حنبل ، في ستة مجلدات كبار ، كل مجلد منها يحتوي على نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير بحروف دقيقة ،وقد تضمن هذا المسند مرويات كل صحابي مجموعة ومذكورة على

حدة ، وفي هذه المجموعات جميع تعاليم الرسول ﷺ وأحواله وسيرته غير مرتبة على المواضيع .

والمصدر الثالث كتب المغازي : ومعظم ما فيها ذكر الغزوات النبوية ، وقد تتضمن أموراً أخرى ، ومن المصنفات القديمة في المغازي : مغازي عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤هـ ، ومغازي الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ . ومغازي ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠هـ ، ومغازي زياد البكائي المتوفى سنة ١٨٢هـ ، ومغازي الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ وغيرهم .

والمصدر الرابع كتب التاريخ الإسلامي العام : التي تبتدئ بالسيرة النبوية ومن أوثقها وأصحها وأطولها وأضخمها : طبقات ابن سعد ، وتاريخ الرسل والملوك للإمام أبي جعفر الطبري ، والتاريخ الصغير والتاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري ، وتاريخ ابن حبان ، وتاريخ ابن أبي خيثمة البغدادي المتوفى سنة ٢٩٩هـ وغيرهم .

والمصدر الخامس الكتب التي ألفت في المعجزات : وتسمي بكتب الدلائل ومنها : دلائل النبوة لأبي إسحق الحربي المتوفى سنة ٢٥٥هـ ، ودلائل النبوة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، ودلائل النبوة للإمام البيهقي المتوفى سنة ٤٣٠هـ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠هـ ، ودلائل النبوة للمستغفري المتوفى سنة ٤٣٢هـ ، ودلائل أبي القاسم إسماعيل الأصفهاني المتوفى سنة ٥٣٥هـ ، وأضخمها وأبسطها كتاب الخصائص الكبرى للجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ .

والمصدر السادس كتب الشمائل : وهي مقصورة على ذكر أخلاق النبي ﷺ وعاداته وفضائله وما كان يعمل في يومه من الصباح إلى المساء ، وفي ليله من المساء إلى الصباح . وأشهر هذه الكتب وأولها : كتاب الشمائل للحافظ المنذري . وقد كتب كبار العلماء زيادات عليه أهمها وأضخمها وأطولها : كتاب الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض ، وقد شرحه الشهاب الخفاجي وسماه نسيم الرياض ، وصنف في هذا الموضوع علماء آخرون ، منها : كتاب شمائل النبي ﷺ لأبي العباس المستغفري المتوفى سنة ٤٣٢هـ ، والنور الساطع لابن المقري الغرناطي المتوفى سنة ٥٥٢هـ ، وسفر السعادة لمجد الدين الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٢هـ .

يضاف إلى ما ذكرناه الكتب التي صنفها بعض العلماء المتقدمين في أحوال مكة المعظمة والمدينة المكرمة ، وذكروا فيها ما في هذين البلدين الطيبين من بقاع وأماكن وأودية وجبال وخطط ، وذكروا من تولى إمارتها ، بادئين بكل ما له علاقة بالنبي ﷺ وأقدم كتاب في هذا الموضوع : أخبار مكة للأزرقي المتوفى سنة ٢٢٣هـ ، وأخبار المدينة لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٨هـ ، ثم أخبار مكة للفاكهي ، وأخبار المدينة لابن زبالة .

ثم بعد ذلك يتحدث عن التأليف في السيرة النبوية وأنه تجاوز على مدى العصور كل تصور ، وبعد أن يضرب أمثلة على سعة التأليف في السيرة النبوية ينقل نقلاً عن كاتب متحامل على الإسلام هو (ريوزورند باسورث سميث) من كتابه (محمد والمحمدية) يقول فيه هذا الكاتب :

كل ما يقال في الدين يغلب فيه الجهل ببدايته ، ومما يؤسف له أن هذا يصح إطلاقه على الديانات الثلاث [1] وعلى أصحابها الذين نعدهم تاريخيين ، لأننا لا نعلم لهم وصفاً أحسن من هذا الوصف ، فإننا قلما نعلم عن الذين كانوا في طلائع الدعوة ، والذي نعلمه عن الذين جاءوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن أصحاب الدعوة الأولين ، فالذي نعلمه من شئون زردشت وكونفوشيوس أقل من الذي نعلمه عن سولون وسقراط . والذي نعلمه عن موسى ، وبوذا أقل مما نعلمه عن أمبرس Ambrase وقيصر ، ولا نعلم من سيرة عيسى إلا شذرات تتناول شُعباً قليلة من شُعَبِ حياته المتنوعة والكثيرة ، ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شئون ثلاثين عاماً هي تمهيد واستعداد للثلاثة أعوام التي لنا علم بها من حياته ، إنه بعث ثلث العالم من رقدته ، ولعله يحي أكثر مما أحيا ، وحياته المثالية بعيدة عنا مع قربها منا ، وإنها تتراوح بين الممكن والمستحيل ، بيد أن كثيراً من صفحاتها لا نعلم عنها شيئاً أبداً ، وما الذي نعلمه عن أم المسيح ، وعن حياته في بيته ؟ وعيشته العائلية ؟ وما الذي نعلمه عن أصحابه الأولين وحوارييه ؟ وكيف كان يعاملهم ؟ وكيف تدرجت رسالته الروحية في الظهور ؟ وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته ؟ وكم وكم من الأسئلة تجيش في نفوسنا ، ولن يستطيع أحد أن يجيب عليها إلى يوم القيامة ؟!

---

(١) يريد ديانات : بوذا وكونفوشيوس وزرادشت .

أما الإسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سر مكتوم عن أحد ، ولا غمّة يَنْبَهم أمرها على التاريخ . ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كالذي يعلمونه من أمر لوثر وملتن ، وإنك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاماً ولا مستحيلات ، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه ولا أن يخدع غيره ، والأمر كله واضح وضوح النهار ، كأنه الشمس رأد الضحى ، يتبين تحت أشعة نورها كل شيء . اهـ .

هذا كلام كاتب متحامل على الإسلام ، لكنه لم يسعه إلا أن يقرر هذه الحقيقة التي كانت وراء محور هذه المحاضرة ، إن سيرة محمد ﷺ تاريخية لاريب في ذلك ولا لبس ، وقد ختم المؤلف المحاضرة الثالثة بقوله :

لقد ألف المسلمون في السيرة النبوية ألوف الكتب بل أكثر من ذلك ، ولا يزالون ماضين في التأليف فيها ، وكل كتاب في السيرة المحمدية ـ مهما كان ـ لاريب أنه أوضح بياناً وأوثق رواية وأكثر صحة من كل ما كتبه الناس في قصص النبيين وسيرهم ـ عليهم السلام ـ .

والكتب الأولى في السيرة المحمدية تلقاها عن أصحابها مئون وآلاف من تلاميذهم ، وأتقنوها فهماً ، وأحكموها فقهاً ، ولم يتركوا فيها كلمة غامضة ولا عبارة معضلة إلا أوضحوا مبهمها وحلوا معضلها .

وأول كتاب عندنا في الحديث النبوي كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس ، وقد سمعه من مؤلفه ستمائة من تلاميذه فيهم الخلفاء والولاة والعلماء والفقهاء والأدباء والزهاد والنساك ، والجامع الصحيح لأبي عبد الله بن إسماعيل البخاري تلقاه ستون ألفاً من أهل العلم عن تلميذ واحد من تلاميذه وهو الإمام الفِرَبْري ، فهل في العالم دين احتاط أهله مثل هذا الاحتياط واهتموا مثل هذا الاهتمام بكل ما يتعلق بأمر نبيهم وهدايته ؟ وهل ألف في هذا الباب تأليف أكثر صحة وأعظم ثقة وتثبتاً ؟ وهل نال مثل هذه الصحة التاريخية دين غيره ؟ وهل حفظ التاريخ من تفاصيل حياة نبي من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مثل الذي حفظه من سيرة محمد ﷺ ؟ .

(٤)

شرط الكمال المطلق

قد يوجد في تاريخ البشرية مَن سيرتُه تاريخية ولا يعتبر ذلك وحده كافياً للهداية والاقتداء ، بل قد تكون سيرة هؤلاء شراً وخبثاً ، فلابد أن يجتمع مع شرط التاريخية شرط آخر لتصلح السيرة للاقتداء والاهتداء ، هذا الشرط هو أن يكون تصرف صاحب السيرة في الصغيرة والكبيرة هو الكمال المطلق ، وهذا الذي نجده على الكمال والتام في سيرة النبي ﷺ وهذا هو محور المحاضرة الرابعة ، فلقد أخذ المؤلف يضرب على ذلك الأمثال في الصغيرة والكبيرة من تصرفاته ﷺ قبل النبوة وبعدها في حياته البيتية وغيرها مقيماً الأدلة على ذلك .

ومن كلامه في هذه المحاضرة :

إن أعظم الناس وأجلهم إذا انقلب إلى بيته كان فيه رجلاً من الرجال وواحداً كآحاد الناس ، ولقد صدق فولتير في كلمته المشهورة : (إن الرجل لايكون عظيماً في داخل بيته ، ولا بطلاً في أسرته) يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس إليه ، لاطلاعه على دخيلته في مباذله .

وهذا الحكم يشذ عن الرسول ﷺ فيقول باستور سميث : (إن ما قيل عن العظماء في مباذلهم لايصح ـ على الأقل ـ في محمد رسول الإسلام) واستشهد بقول كبن : (لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه ، إنه قبل أن يتقدم إلى الناس جميعاً ، تقدم إلى الذين عرفوه إنساناً ، المعرفة الكاملة ، فطلب من زوجته وغلامه وأخيه وأقرب أصدقائه إليه وأحب خلانه أن يؤمنوا به نبياً مرسلاً ، فكلٌ منهم صدق دعواه وآمن بنبوته ، وإن حليلة المرء أكثر الناس علماً بباطن أمره ودخيلة نفسه وألصقهم به ، فلا يوجد من هو أعرف منها بهناته ونقائصه ، أليس أول من آمن بمحمد رسول الله زوجه الكريمة التي عاشرته خمسة عشر عاماً ، واطلعت على دخائله في جميع أموره وأحاطت به علماً ومعرفة فلما ادعى النبوة كانت أول من صدقه في نبوته) .

إن أعظم الناس لا يأذن لزوجه - وإن كانت له زوج واحدة - بأن تحدث الناس عن جميع ما تراه من حليلها ، وأن تعلن كل ما شاهدته من أحواله . لكن رسول الله كانت له في وقت واحد تسع زوجات ، وكانت كل منهن في إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في خلواته ، وهُنَّ في حِلٍّ من أن يخبرن الناس في وضح النهار كل ما رأين منه في ظلمة الليل ، وأن يتحدثن في الساحات والمجامع بما يشاهدن منه في الحجرات ، فهل عرفت الدنيا رجلاً كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة ، ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد لأنه أبعد الناس عن السوء .

إن النبي ﷺ أذن لأصحابه ولمن يحضر مجالسه أن يبلغوا عنه لمن غاب عنها ، وهذا الإذن عام لما يكون عنه في بيته وبين أهله وعياله ، أو ما يصدر عنه في حلقته مع أصحابه ، أو ما يقفون عليه من أعماله وأقواله ، عند تعبده في مسجده ، أو قيامه على منبره خطيباً ، أو جهاده في ساحة الحرب تجاه أعدائه ، وهو يسوّي صفوف المجاهدين في سبيل الله ، أو إذا خلا إلى ربه في حجرة منعزلة في بيته يعبد الله ويتضرع إليه فكان أزواجه وأصحابه يتحدثون جميعاً بكل ما يصدر عنه من قول أو عمل .

ثم إنه كان تجاه مسجده صُفَّة يأوي إليها فقراء الصحابة الذين لم تكن لهم بيوت يأوون إليها ، فكانوا يتناوبون الخروج إلى ما بعد بنيان المدينة يحتطبون من أشجار الصحراء والجبل ، ويبيعون ما يأتون به ليقتاتوا جميعاً بثمنه ، ولم يكن لسائرهم عمل غير صحبة النبي ﷺ ولزوم مجالسه ليحفظوا عنه ما يقول وما يعمل ثم يروونه للناس بعناية وأمانة ، وقد بلغ عدد أهل الصُفَّة هؤلاء [في بعض الأحوال] سبعين رجلاً ، كان منهم أبو هريرة الذي لم يكن صحابي أكثر منه حديثاً عن رسول الله ﷺ وهؤلاء السبعون يسرهم الله لحفظ كل ما يستطيعون حفظه مما يدخل في موضوع الحديث النبوي لا يفترون عن ذلك اناء الليل وأطراف النهار ، وقد استمر الحال بهم على ذلك يومياً ، وإذا ارتحل الرسول ﷺ عن المدينة في غزوة أو حج كانوا معه ، وكذلك غيرهم من الصحابة ، حتى لم تخف عنهم خافية من أمره ، ولم يغب عنهم معنى من معاني رسالته ، ولما كان فتح مكة كان معه من أصحابه

حوالي عشرة آلاف ، ولما سار إلى تبوك كان في معسكره حوالي ثلاثين ألفاً ، ولما حج حجة الوداع حج معه تلك السنة حوالي مائة ألف مسلم ، ينطبق عليهم عنوان الصحابة ، وما منهم إلا من يحرص على الوقوف على شيء من هداية نبيه ﷺ أو أي أمر من أموره فيتحدث عنه ، بل هو الذي أمرهم أن يبلغوا عنه ما يسمعون منه أو يرون من تصرفاته ، فما ظنكم به بعد ذلك هل يخفى عن التاريخ وجه من وجوه حياته أو ناحية من نواحيها .

هذا من جهة أصحابه ، وأما أعداؤه فإنهم أفرغوا جهدهم ، واستنفدوا سعيهم ليقفوا على دخيلة من دخائله وليؤاخذوه بحقيقة يعلمونها عنه فلم يستطع أحد منهم أن يجد له ناحية ضعف ولا ما يندد به وأقصى ما استطاع أعداؤه في كل زمان ومكان أن يقولوه عنه إنه سلّ سيفه للقتال وأنه كان كثير الزوجات .

وقد تبين لكم أن حياته الطاهرة هي حياة العصمة من كل نقص ، البريئة من كلّ عيب .

إن الرسول ﷺ لم يقض حياته كلها بين أحبائه وأصحابه ، بل قضى أربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث ، فكان بين أهلها مشركي قريش ، وكان يتعاطى فيهم التجارة ، ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار ، وهي الحياة اليومية وما تنطوي عليه من أخذ وعطاء ، ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء فيتبين للناس فسادها وصلاحها ،وهي عيشة طويل طريقها ، كثيرة منعطفاتها ، وعرة مسالكها ، تعترضها وهدات مما قد يصدر عن المرء من خيانة وإخفار عهد وأكل مال بالباطل ، وعقبات من الخديعة والخيانة وتطفيف الكيل وبخس الحقوق وإخلاف الوعد .

وإن الرسول ﷺ اجتاز هذه السبيل الشائكة الوعرة وخلص منها سالماً نقياً لم يصبه شيء مما يصيب عامة الناس ، حتى لقد دعوه (الأمين) وإن قريشاً بعد بعثته وادعائه النبوة كانوا يودعون عنده ودائعهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به ، وقد علمتم أنه ﷺ لمّا هاجر من مكة خَلَّفَ عليها علياً ليردّ ما كان لديه من الودائع إلى أهلها . فقريش خالفوه أشد الخلاف في دعوته ولم يتركوا سبيلاً إلى ذلك إلا سلكوه ، فقاطعوه وعاندوه وصدوا عن

سبيله ، وألقوا عليه سلى جزور وهو يصلي ، ورموه بالحجارة ، وأرادوا قتله ، وكادوا له كيدهم ، وسَمّوه ساحراً ودعوه شاعراً ، وفندوا آراءه وسخفوا حلمه ، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئاً في أخلاقه ، ولا أن يرميه بالخيانة ، أو ينسب إليه الكذب في القول ، أو إخلاف الوعد أو إخفار الذمة أو نقض العهد .

وإن من ادعى النبوة وقال إن الله يوحي إليه فكأنه ادعى العصمة والبراءة من جميع المفاسد ومساوئ الأعمال . ألم يكن يكفي قريشاً في ردهم على الرسول أن يذكروا أموراً عمل فيها الرسول بغير الحق ، وأن يشهدوا عليه بأنه أخلفهم وعداً أو خانهم في أموالهم أو كذبهم في شيء مما قاله لهم ؟ إن قريشاً أنفقوا أموالهم ، وبذلوا نفوسهم في عداوة الرسول ، وضحوا بفلذات أكبادهم في قتاله حتى قتل منهم وجرح كثيرون ، لكنهم لم يستطيعوا أن يُدَنِّسوا ذيله الطاهر ولا أن يصموه بشيء في عظيم أخلاقه . وكانت أحوال الرسول ﷺ وشئونه وهديه ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم ، استوى في ذلك أحبابه وأعداؤه ولم يخف عليهم شيء من أمره .

ثم أفاض المؤلف في ذكر الأعجوبة الماثلة أن يقدم شخص للعالم كل ما يحتاجه هذا العالم ، بحيث يزيد سعة وشمولاً ويفوق كمالاً ـ مع السلامة من النقص ـ على ما تبنيه الأمم خلال عصور ، مما لا نجده في ما وصلنا عن أحد غيره ، ألا أنّها الرسالة والنبوة .

ويختتم محاضرته بقوله :

نحن لا نزال نقدم للناس تلك السيرة الكاملة ، التي هي لنا سراج وهاج في جميع شئون الحياة البشرية ، فكأن السيرة المحمدية مرآة صافية للدنيا كلها ، يرى فيها كل إنسان صورته وروحه ، ظاهره وباطنه ، قوله وعمله ، خلقه وأدبه ، هديه وسنته ، وفي استطاعته أن يصلح أخلاقه ويثقف عوجه بحسب ما يراه في تلك المرآة الصافية .

لأجل ذلك لاترى أمة مسلمة تبحث ـ في خارج دينها وبمنأى عن سيرة نبيها ـ عن أصول وضوابط تقوم بها اعوجاجها وتثقف منآدها وتصلح زيغها . لأنها في غنى عما هو أجنبي عنها ، وعندها في هدي سيرة نبيها ﷺ الميزان القويم والقسطاس المستقيم ، الذي تبين

به ما في العالم من خير وشر وتميز به الحق من الباطل .

وفي الحق إن العالم كله لفي حاجة شديدة إلى سيرة بشر كامل تتخذ من حياته الأسوةالعظمى ،وليس في الدنيا إنسان كامل يعرف التاريخ سيرته على التفصيل كما يعرف تفاصيل حياة محمد ﷺ خاتم النبيين ، فالناس كلهم في أمس الحاجة إلى أن يتخذوا من السيرة المحمدية منهاج حياتهم ففيها الأسوة الطاهرة ، وهي الحياة المثالية للناس جميعاً ، ﷺ .

* * *

(٥)

شرط الشمولية

قد توجد التاريخية في حياة بعض الناس ، وقد يوجد شيء من الكمال في حياة هؤلاء ، ولكن أن تكون حياتهم من الخصب والغنى بحيث تسع الناس زماناً ومكاناً ـ حيث إن هذا هو المطلوب في سيرة القدوة والهادي ـ فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله ﷺ فقد اجتمع في سيرته التاريخية والكمال في التصرفات ، والشمولية ، حتى لتسع سيرته الزمان والمكان والأشخاص ، بالقدوة والهداية ، وهذا هو محور المحاضرة الخامسة .

يقول المؤلف :

ليس من الممكن أن يكون جميع الداخلين في دين من الأديان من طائفة بشرية واحدة ، أو أن يكونوا من شعب إنساني واحد ، لأن الدنيا قد قام بنيانها على التنوع في الأعمال والاختلاف في الأفعال ، ولولا أن الناس مختلفون في مهنهم ومكاسبهم وأشغالهم ومعايشهم ، وهم يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً ، لخربت الدنيا .

ولا بد للعالم من ملك أو رئيس جمهورية أو وال يتولى أمورهم العامة ، وحاكم يحكم بينهم فيما يختلفون فيه . وكذلك لا تخلو الدنيا من رعية يرعى أمورهم رئيس ، ومن محكومين يحكم فيهم حاكم ، ومن خصوم يقضي بينهم قاض بالعدل ، ليسود الأمان ويستتب

السلام . وكذلك الأمم تحتاج إلى أن يكون لها جنود يدافعون عن كيانها ، وأن يكون على الجنود ضباط وقادة ، وتجد فيهم الفقراء الذين يعانون الشدة والبؤس ، كما تجد فيهم الأغنياء من أهل الترف والسرف . وفيهم عباد لله يقومون بطاعته في جوف الليل ، وزهاد تحرروا من متع الدنيا وزخرفها ، ومجاهدون في سبيل الله يقارعون الباطل ويقيمون الحق في الأرض ، وكذلك الدنيا لا تخلو من قادة الأمم وساسة الشعوب وزعماء الأحزاب .

وعلى شتى الطوائف ومختلف الفرق قام نظام هذه الدنيا ، وكل منهم يحتاج في عمله إلى حياة مثالية وأسوة كاملة يقتدي بها ليكون سعيداً في الحياة . والإسلام دعا جميع هذه الفرق والطوائف والأحزاب لأن يتبعوا سنة محمد ﷺ ويقتفوا آثاره ويسلكوا طريقه .

ومن تتبع ذلك يتبين له أن السيرة المحمدية تكفي جميع شعوب البشر وطوائفهم وفرقهم ، إذا اتخذوا منها الأسوة والقدوة ، ففيها النور الذي يستضاء به في ظلمات الحياة الاجتماعية وكم من ظلمة حالكة في الحياة ! ومن هنا تعلم أن سيرة محمد رسول الله ﷺ جامعة تجد فيها كل طائفة من طوائف البشر المثل الأعلى الذي تقتدي به ، والأسوة التي يتأسى بها .

ومن الظاهر الواضح أن حياة المحكوم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة الحاكم ، كما أن حياة الحاكم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة المحكوم . وكذلك الفقير المعدم لا يتسنى له أن يسير في معيشته على ضوء من حياة الغني المثري ، ومن ثم مست الحاجة إلى أن تكون الحياة المحمدية جامعة يجد فيها الناس كلهم ـ على اختلاف طوائفهم ـ الأسوة الكاملة في جميع ألوان الحياة وأطوارها ، وإن مثلها كمثل الباقة الجامعة لكل أصناف الزهور والورود بجميع ألوانها ، ففيها الأحمر القاني والأبيض الناصع والأخضر الناضر والأصفر الفاقع .

وفي البشر طوائف مختلفة وفرق شتى تحتاج كلها إلى حياة مثالية تكون نموذجاً لها في حياتها ومعيشتها .ولكل إنسان من هذه الطوائف أعمال وأحوال تتقلب عليه بتقلب الظروف ، بين قيام وقعود ومشي وأكل وشرب ونوم ويقظة وضحك وبكاء وارتداء الملابس وخلعها وأخذ وعطاء وتعلم وتعليم ، وقد يموت حتف أنفه أو يقتل ، ويكون محسناً لغيره أو محتاجاً لإحسان الآخرين إليه ، وقد يكون في عبادة ربه أو في معاملة الناس

ومعاشرتهم ،و قد ينزل على غيره ضيفاً أو يستقبل الضيف ويقوم له بحق القِرَى . هذه الأحوال وغيرها تطرأ على الإنسان وتعرض له فيما يتعلق بجسمه وجوارحه فيحتاج في كل حال منها إلى هداية نافعة وأسوة كاملة .

وأعظم من الأسوة في أعمال الإنسان الظاهرة ، الأسوة فيما يتعلق بخطرات القلوب ومجالات الفكر ونزعات العواطف ، فنحن نشعر بين كل حين وآخر بنزعات وعواطف تخالج قلوبنا وأفكارنا ، فنرضى ونسخط ، ونفرح ونحزن وتعترينا السكينة والطمأنينة أو القلق والضجر ، وتترتب علي هذه الأحوال عواطف مختلفة ونوازع متعددة ، وليس الخلق الحسن إلا التعديل بين هذه الأحوال ، وإقامة الوزن بالقسط بين العواطف القوية والنوازع الثائرة ، ولا يحظى بنصيبه من مكارم الأخلاق إلا الذي يعرف كيف يكبح النفس عند جموحها ، ويحسن التصرف فيها وقت ثورتها ، ومع ذلك فلا بد للإنسان من إمام تكون له فيه الأسوة التامة في هذه الأمور ، فيأتم به في قهر هذه القوى الثائرة والعواطف المتوثبة ، إلى أن تسكن ثورة نفسه ، ويسلك في ذلك مسلك قدوته الأعظم ، وهو النبي ﷺ الذي يحمل بين جنبيه قلباً زكياً ونفساً طاهرة وروحاً عالية نزيهة .

وهكذا المرء في كل خلة من خلال العزيمة والشجاعة والشكر والتوكل والرضا بالقدر والصبر على النوائب والتضحية والقناعة والاستغناء والإيثار والجود والتواضع والمسكنة ، وسائر ما يطرأ على البشر في منفسح حياتهم ومدى عيشهم ، وما ربما يعتري هذه الخصال في ساعات مختلفة من مضطرب حياة الإنسان ، فإنه يحتاج في كل ذلك إلى أسوة وهداية ممن سبق له العمل بذلك ، وأنى لنا هذه الأسوة الكاملة والهداية التامة إلا في حياة محمد رسول الله ﷺ .

إذا كنت غنياً مثرياً فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجراً يسير بسلعه بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين .

وإن كنت فقيراً معدماً فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب ، وحين قدم إلى المدينة مهاجراً إليها من وطنه وهو لايحمل من حطام الدنيا شيئاً .

وإن كنت ملكاً فاقتد بسننه وأعمـالـه حين ملـك أمر العرب ،وغلب على آفـاقهم ، ودان لطاعته عظماؤهم ، وذوو أحلامهم ، وإن كنت رعية ضعيفاً فلك في رسول الله أسوة حسنـة أيام كان محكوماً بمكة في نظام المشركين .

وإن كنت فاتحاً غالباً فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوّه في بـدر وحنين ومكـة ، وإن كنت منهزمـاً ـ لا قـدر الله ذلـك ـ فـاعتبر بـه في يوم أحـد وهو بين أصحـابـه القتلى ورفقائه المثخنين بالجراح .

وإن كنت معلماً فـانظر إليـه وهو يعلم أصحـابـه في صُفّة المسجـد ، وإن كنت تلميـذاً متعلماً فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جـاثيـا مسترشـداً . وإن كنت واعظـاً نـاصحـاً ومرشداً أميناً فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي .

وإن أردت أن تقيم الحق وتصـدع بـالمعروف وأنت لا نـاصر لـك ولا معين فـانظر إليـه وهو ضعيف بمكـة لا نـاصر ينصره ولا معين يعينـه ،ومع ذلـك فهو يـدعو إلى الحق ويعلن بـه . وإن هزمت عـدوك ، وخضـدت شوكتـه ، وقهرت عنـاده ، فظهر الحـق على يـدك ، وزهق البـاطل ، واستتب لك الأمر ، فانظر إلى النبي ﷺ يوم دخل مكة وفتحها .

وإن أردت أن تصلح أمورك وتقوم على ضياعك فانظر إليه ﷺ وقد ملـك ضيـاع بني النضير وخيبر وفَدَك كيف دبرّ أمورها وأصلح شئونها وفوضها إلى من أحسن القيام عليها .

وإن كنت يتيماً فانظر إلى فلذة كبـد آمنـة وزوجهـا عبـد الله وقـد توفيـا وابنهما صغير رضيع . وإن كنت صغير السن فانظر إلى ذلك الوليـد العظيم حين أرضعته مرضعتـه الحنون حليمة السعدية . وإن كنت شاباً فاقرأ سير راعي مكة . وإن كنت تاجراً مسافراً بـالبضـائع فلاحظ شئون سيد القافلة التي قصدت بُصرى .

وإن كنت قاضياً أو حكماً فانظر إلى الحكم الـذي قصـد الكعبـة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله وقـد كاد رؤسـاء مكـة يقتتلون ، ثم ارجع البصر إليـه مرة أخرى وهو في فناء مسجـد المـدينـة يقضي بين النـاس بـالعـدل يستوي عنـده منهم الفقير المعـدم والغني المثري .

وإن كنت زوجاً فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة . وإن كنت أبا لأولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين .

وأيّاً من كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت وعلى أي حال بت أو أضحيت فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش ، فتصلح ما اضطرب من أمورك ، وتثقف بهديه أودك ، وتقوّم بسنته عوجك .

وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق وجماع التعاليم لشعوب الأرض وللناس كافة في أطوار الحياة كلها وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها ، فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدي وإرشادها ملجأ لكل مسترشد .

بمثل هذا البيان تحدث المؤلف عن الشمولية في السيرة النبوية ، وقارن في هذه المحاضرة بين حياة محمد ﷺ وحياة غيره من الأنبياء ، فأثبت أن سيرة غير سيرته لم ينقل لنا منها مثل هذه الشمولية ، ومن ثمّ كلف الله عز وجل الإنسانية جميعاً ـ وإلى قيام الساعة ـ أن تقتدي به ، وبيّن أن الاقتداء بغيره ليس كافياً ، عدا عن كونه لا يمثل التكليف الإلهي بعد بعثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

وقدّم في جملة ما قدّم براهين على شمولية سيرته ﷺ أن دعوته منذ نشأتها كانت موجهة لكل الناس ، ودخل فيها كل الناس ، وكل الأصناف ، وظهرت في أتباعه جميع الطبقات ، وكلهم سواءٌ كانوا سياسيين أو عسكريين أو زهاداً أو عباداً أو علماء مربين وسعتهم سيرته وكان لهم القدوة الكاملة .

وكما أنه في المحاضرة السابقة استطرد ليبعث على الإيمان بمحمد ﷺ ويستجلب التصديق ، فههنا كذلك استطرد ليعمق الإيمان ، فضرب الأمثلة على الانقلاب الهائل الذي حدث في حياة أصحاب رسول الله ﷺ فأصبحوا أكمل الخلق في كل شيء ، كما تحملوا في سبيل هذه الدعوة مالا يتحمله إلا أصحاب الدعوات الربانية ، وذلك وحده علامة من علامات الرسالة .

وختم هذه المحاضرة بقوله :

لقد بينت لكم في هذه المحاضرة ما كان في الرسول الأعظم ﷺ من خلالٍ جامعة . وقد أشرت إلى مظاهرها العديدة ونواحيها المختلفة ، وإخالكم قد ألفتم مما درستم في طبيعة الكون من ألوان مختلفة ، وما عرفتم في طبائع البشر من مواهب شتى وهذه الدنيا ليست إلا مظهراً من مظاهر الحياة متنوعة الألوان - أن العالم لايمكن أن تكون هدايته إلا بالمصلح الأخير للدنيا وهو خاتم رسل الله محمد ﷺ الذي اجتمعت فيه خلال الإرشاد كلها وخصال الإصلاح للنوع البشري بأجمعه ، ولذلك قال له الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [1] فوجه الرسول ﷺ الدعوة إلى كل من يدعي محبة الله بأن يتبعه ويطيع أمره ، ونادى الملوك في ممالكهم ، والرعاع في شوارعهم ، والمعلمين في مدارسهم ، والتلاميذ في فصولهم ، والفقراء في أكواخهم ، والأغنياء في قصورهم ، كما دعا المظلومين والمقهورين والمخذولين ، بل أهاب بالعالم كله أن يتبعوا سبيله ويقتفوا أثره ، لأن سيرته الشريفة هي المثل الأعلى ، وفيها الأسوة الكاملة لكل من يحب الخير ويبتغي الصلاح لنفسه .

اللهم صل وسلم عليه وآله وصحبه أجمعين .

* * *

(٦)

واقعية السيرة المحمدية

وبعد أن أثبت تاريخية السيرة المحمدية وكمالها وشمولها ، خشي أن يفهم فاهم أن هذه السيرة غير عملية أو غير واقعية أو غير ممكنة التطبيق فكانت المحاضرة السادسة في ذلك : فأثبت واقعيتها من خلال نقطتين ، الأولى : أن رسول الله ما كان يأمر بشيء إلا فعله ، الثانية : أنه ارتفع بأصحابه إلى تطبيق ما دعا إليه ، فسيرته قائمة على التطبيق العملي في حياة

---

(١) آل عمران : ٣١ .

القدوة ، وفي حياة الجيل الذي رباه ، والذي كان خيراً على العالم لايمكن أن يكون إلا عمليّاً وواقعيّاً وقابلاً للتطبيق ، هذا مع الكمال والشمول والنقل التاريخي التفصيلي ، إن ذلك لم يجتمع لأحد إلا لرسول الله ﷺ وذلك دليل من أدلة رسالته ، وذلك يجعله القدوة الأولى لهذا العالم .

استعرض في هذه المحاضرة أعظم التكليفات الإسلامية وبرهن أنه عليه الصلاة والسلام كان أكثر خلق الله التزاماً بها ، وأعظمهم تطبيقاً لها ، سواء في ذلك الأذكار والدعوات أو الصلوات والإنفاق أو الصوم والجهاد .

كما استعرض كل الأخلاق التي استقر في ضمير البشرية تقديسها وتعظيم أهلها ، من ثبات على الدعوة ، إلى الرحمة والعفو ، إلى العدل والحزم ، إلى التوكل والصبر ، إلى الرضا بالقضاء والتسليم لله في المحنة إلى الشجاعة والنجدة ، إلى غير ذلك من أخلاق عظيمة وكيف أن رسول الله كان أكمل خلق الله فيها .

هذا مع القدرة والاقتدار ، فلم يكن حليما لأنه لا يستطيع إلا الحلم ، بل كان حليماً وهو قادر على البطش . ولم يكن رحيماً وهو عاجز عن العقوبة ، بل كان قادراً على الاستئصال .

وكما كان في نفسه كذلك فإنه كان يحمل أصحابه وأهله على ذلك ، حتى سَمَا بهم هذا السمو الذي لم يعرف في تاريخ البشرية إلا لماماً .

لقد تحدث المؤلف عن هذه الموضوعات فأطنب ، وضرب كثير الأمثال حتى استوعب وأقام الحجة واستخرج من القلوب كوامن الفطرة ، داعياً إياها إلى الإيمان بمحمد ﷺ فكان معلما وداعية وواعظاً في محاضرته بآن واحد .

وهكذا من خلال تطبيق رسول الله ﷺ لما دعا إليه ، ومن خلال ارتقاء الجيل الذي رباه للتطبيق العملي رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً وحاكمين ومحكومين ومحاربين ومسالمين ، أثبت المؤلف العملية والواقعية وإمكانية التطبيق في الرسالة المحمدية .

* * *

(٧)

عالمية السيرة المحمدية

بعد أن أقام المؤلف الحجة على أن سيرة محمد ﷺ هي السيرة المثلى التي لا يوجد في غيرها ما يوجد فيها ، بيّن في المحاضرة السابعة أن هذه السيرة وهذه الرسالة تُطالب بها الأمم جميعها ، تطالب بالاهتداء بها والاقتداء بصاحبها ، فهي رسالة للجميع ويطالب بها الجميع ، ولا نجاة لأحد ولا فلاح لإنسان إلا باتباعها ، وقد سلك لإقامة الحجة في هذا مسالك شتى .

تحدث عن التوقيت في حياة الرسل ، وتحدث عن التخصيص في حياة الرسل ، فكل رسول قبل محمد ﷺ كان لزمان ، والدليل على ذلك ضياع هديهم ، وكل رسول بعث لقومه خاصة والدليل على ذلك موجود في كتبهم ، أما محمد ﷺ فقد بَشّر به من سبقه ، وهذه نصوص دعوته محفوظة ، وقد دعا كل الأقوام ، وأتى على كل ذلك بالأدلة الكثيرة .

ثم سلك في إقامة الحجة مسلكاً آخر ، فذكر أن الدين الذي يحتاجه كل إنسان هو ما اجتمع فيه تفصيل في قضايا الإيمان والعبادة والمعاملات والآداب والأخلاق ، ويدخل في المعاملات القوانين والمبادئ الدستورية ، ويدخل في الأخلاق والآداب: أخلاق النفس وآداب السلوك وآداب التعامل الاجتماعي .

ثم تحدث عن أن هذه الأمور لا تجد تفصيلاتها إلا في الإسلام ، ومع هذا فإن كل جزء منها معقول المعنى صحيح المضمون ممكن الفهم والتطبيق ، أما الأديان الأخرى ـ كما هي عليه منذ الدعوة المحمدية ـ فلا تجد فيها شيئاً من ذلك ، فكم من خرافات في شأن الربوبية عند الأديان القائلة بها ، وكم من أباطيل في التصورات ، ثم إنك لا تجد أي تفصيل لقضية العبادات في أي من الكتب الدينية المنقولة إلينا ، وفي المعاملات لا تجد تفصيلاً ، وإذا وجدت تفصيلاً ففي الغالب يرافق التطبيق حرج ، وأكثر الأخلاق التي فصلتها كتب الأديان أخلاق سلبية بعضها جيد تجده في الإسلام وبعضها تفنى به الحياة ، لكن الإسلام كما فصل في الرذائل فصل في الفضائل ، كبيرها وصغيرها .

وبعد جولة موفقة في هذه الأمور كلها ، قال :

والذي يعنينا الآن من هذا الكلام على الرسالة المحمدية ناحية الكمال فيها ، وإتمامها ما كان ناقصاً في الديانات السابقة مما يرجع إلى العقائد والأعمال ، فأصلحت ما كان من قبل فاسداً ، وردّت البدع الطارئة ،و قمعت المفاسد العظيمة الفاشية التي شَوَّهَتْ وجه الإنسانية ، وكانت باباً لكل شَر ، وأصلاً لكل فساد ، وبذلك سدت في أصول الدين جميع الثلمات التي تسربت منها المفاسد ، التي كانت سبباً في انحطاط الإنسانية عن مستواها الكريم .

ثم سلك في إقامة الحجة على عالمية الإسلام ، وأنه التكليف الوحيد للإنسان ، وأن أي إنسان لايكون منسجماً مع فطرته وعقله إلا باتباعه الإسلام ، عدة مسالك يطول شرحها ثم سلك في إقامة الحجة في ذلك مسلكاً آخر ، هو مسلك التركيز على جوانب بعينها من الرسالة المحمدية تقوم بها الحجة على كل مخلوق .

فتحدث عن التوحيد ، وكيف أن الإسلام بواسطته نقل الإنسان من كونه أحط المخلوقات بسبب الشرك إلى أن أصبح سيد الوجود بسبب التوحيد ، ثم تحدث عن نظرة الإسلام إلى الإنسان ، وكيف أن فطرته بريئة في الأصل ، بل كيف أن تكاليف الإسلام هي الفطرة ، فالفطرة والدين توأمان بل متطابقان ، وأن الإنسان ليس مسؤولاً إلا عن عمله ولا يتحمل وزر من تقدمه أو سبقه أو ولده ، أين هذا من الأديان القائلة بالتناسخ ، والتي تجعل الإنسان الحالي أثراً عن عمل من تقدمه ؟ أين ذلك من الأديان التي تجعل الأصل في الإنسان الشر ، وتجعله مسؤولاً عن خطيئة أبيه ، وتنطلق في التكليف من مبدأ التناقض مع الفطرة ؟

إن هذه المعاني وحدها كافية لإقناع المنصف أن الإسلام هو دين الله ، وأنه الدين الحق ، وأنه ليس أمام الإنسان إلا طريق وحيد هو الإيمان به ، والالتزام بتعاليمه ، فهو تكليف الله إلى كل الأمم ، وقد جعل الله فيه من مشرقات البراهين ما لا يسع المنصف إلا التسليم به .

ثم سلك المؤلف مسلكاً آخر للتدليل على عالمية الإسلام ، وأن البشرية مطالبة به ، ذلك أن الإسلام هو الذي طالب بالإيمان برسل الله جميعاً ، فطالب بالإيمان بهم وعدم التفريق فيما

بينهم وصحح النظرة إليهم ، فالغلاة من أتباعهم أرجعهم إلى القصد ، والمنتقصون لأقدارهم أرجعهم إلى الرشد .

بهذا وأمثاله وبمسالك متعددة أقام المؤلف الحجة على عالمية الإسلام ، وأنه لكل الأمم ، وأن على الأمم جميعاً أن تؤمن به ، وأن تقتدي بسيرة رسوله ﷺ وأن تهتدي بهداه .

* * *

(٨)

حقية الرسالة المحمدية وأياديها على البشرية

وبعد أن برهن المؤلف على أن الرسالة المحمدية لكل الأمم ، وأن على جميع الشعوب والأفراد أن يدخلوا فيها ، ختم محاضراته بالمحاضرة الثامنة التي تحدث فيها عن حقية هذه الرسالة ، وعن حقية مضموناتها ،وعن بعض أياديها على البشرية ،وعن احتياجات البشرية حالاً واستقبالاً لها .

تحدث عن مظاهر متعددة من انحراف البشر قديماً وحديثاً ، وكيف أن الرسالة المحمدية صححت ، وأنها وحدها أعطت الحَلَّ الصحيح والجواب الصريح لمشكلات البشرية ولتساؤلاتها .

تحدث بالنسبة للذات الإلهية عما وقعت فيه البشرية من تشبيه وتمثيل ، وكيف أن الإسلام صحح ذلك .

وأن نظريات الخير والشر وفلسفة الخير والشر وأسباب الخير والشر ، كل ذلك قد وجدت فيه أخطاء ، وجاء الإسلام فصحح ذلك .

وأن فكرة تعذيب الأجسام أصبحت جزءاً من كل الديانات ، فجاء الإسلام وحسم ذلك .

وأن فكرة الانتحار تضحية لله في زعمهم أو فراراً من ألم كانت ولازالت جزءاً من تفكير

الإنسان ، وجاء الإسلام فأبطل ذلك وحرمه .

وأن فكرة قتل الأولاد أو وأد البنات أو حرق المرأة نفسها بعد وفاة زوجها كانت في بعض الأديان ، ولازالت في بعضها بصور شتى ، وجاء الإسلام فحرم ذلك وأبطله .

ومن أكبر الجرائم التي اقترفتها الأمم ولا تزال باقية في بلاد لم تبلغها دعوة الإسلام ولم تشرق أنواره في أرضها ، أنهم جعلوا ثراء المال ونقاء الدم وشرف النسب وكرم المحتد ولون البشرة أساس الكرامة ورأس ما يتفاضلون به ويتفاخرون ، فجاء الإسلام بأسس جديدة هي وحدها الأسس الحميدة في تقويم الإنسان .

وكانت حياة الرقيق والمستعبدين والأسرى لا تطاق ، فجاء الإسلام برحمته الشاملة ، ففتح الباب لتحرير الرقيق ، ووضع الأساس لحسن التعامل مع الأسير .

ولقد وجد من فرّق بين الدين والدنيا ، وجاء الإسلام فألغى هذا التناقض ، ولقد جاء الإسلام وفي العالم رهبانية وعزلة رهيبة عن الحياة فوضع الأمور مواضعها ، فهناك واجبات حياتية لايسع أحداً أن يفرط فيها .

وفي شأن المرأة كانت ولازالت أخطاء ، وفي شأن الأسرة كانت ولازالت أخطاء ، وفي شأن السلم والحرب ، وفي شأن الحياة الاقتصادية كانت ولازالت أخطاء ، وفي علاقات الشعوب مع بعضها البعض ، وفي نظرة الإنسان إلى الإنسان ، جاء الإسلام مصححاً وموجهاً ومعلماً ومربياً وقاطعاً الطريق على الانحراف .

كل ذلك بعض أيادي الإسلام على البشرية ، وكل ذلك وغيره تحتاجه البشرية بلا استثناء ، وكل ما في الإسلام حق وعدل .

فيا شعوب هذا العالم ويا أبناءه ليس أمامكم إلا الإسلام فآمنوا به والتزموا هديه .

وقد عرض المؤلف هذه المعاني كلها أجمل عرض وأقواه وضرب له من الأمثلة ما يشفي ويغني .

وقد ترددتُ كثيراً أن أجعل هذا التلخيص جزءاً من هذه المقدمة لطوله ، ولكن غلبني أسره فأثبته .

* * *

وعلى كل حال فقد عرفنا من هذه المحاضرات القيمة الكبرى لدراسة كل ما له علاقة بالرسالة المحمدية ، وعرفنا أن السيرة النبوية لا تعني فقط أن ندرس بعض أحداث هذه السيرة تاريخياً ، وقد أصاب الشيخ محمد الغزالي عندما ختم كتابه (فقه السيرة) بهذه الكلمات :

قد تظن أنك درست حياة محمد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة ، وهذا خطأ بالغ ، إنك لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة . وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبي الإسلام ﷺ . اهـ .

* * *

ولقد صحح ما نقلناه عن الشيخ سليمان الندوي بعضَ المفاهيم والأغلاط ورسَّخ بعض المعاني ، وقد آن الأوان لنكمل أغراض هذه المقدمة في التصحيح والترسيخ فأقول :

السيرة في الاصطلاح هي التأريخ لحياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما جرت عليه عادة كتاب السيرة . فالسيرة من هذه الحيثية يدخل فيها جزء من أفعاله وأقواله وتاريخه ﷺ وفي السيرة بالمعنى الاصطلاحي يقع بعض الناس في أغلاط .

من هذه الأغلاط أن بعضهم يعتبر السيرة النبوية بالمعنى الاصطلاحي وكأنها المصدر التشريعي الوحيد الذي تستخرج منه الأحكام ، وبعضهم يستخرجون من السيرة قواعد وعموميات ويحاولون تطبيقها على جزئيات حياتية قد تدخل فيها وقد لا تدخل ، وأحياناً يفرضون على الأمة ألا تخرج على ما يستنبطون ، ويحرمون على الأمة ألا تسير على ما يستخرجون ، وهناك ناس يعتبرون أفعال رسول الله ﷺ كلها على حد سواء في فرضية الاقتداء ، وهناك ناس يعطون أنفسهم حق التمييز بين أفعال الرسول ﷺ فهذا سنة وهذا مباح ، وهذا فَعَلَه بحكم رئاسته للدولة ، وهذا فَعَلَه بحكم أنه مشرع للأمة ، يعطون أنفسهم هذا الحق وهم ليسوا مؤهلين لذلك ، وهذا كله يستدعي توضيحاً .

إن أفعال الرسول ﷺ كلها جزء من سنته ، وسنته هي المصدر الثاني من مصادر التشريع ،ومصادر التشريع الأصلية أربعة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس . أما المصادر

الفرعية فمتعددة وهي مَحِلٌّ خلاف بين المذاهب الأربعة ، ومنها : الاستحسان والاستصحاب والاستصلاح .. الخ .

والمسلمون بمجموعهم مكلفون أن يسيروا على ضوء حكم الله في الواقعة التي تواجههم ، والمسلم مكلف بالسير على ضوء حكم الله في الواقعة التي تواجهه ، وحكم الله يؤخذ من المصادر الأصلية والفرعية ، وتطرأ عليه طوارئ بسبب من ظروف خاصة زماناً أو مكاناً أو شخصاً ، فما دام المسلم ملتزماً بحكم الله وبالفتوى المبصرة من أهلها فهو على إسلام ، وهو على سنة ، وهو مقتد برسول الله ﷺ ويدخل في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [1] وهكذا لا تقيد الأمة الإسلامية ولا الفرد المسلم إلا بهذا القيد ، وهو الفتوى البصيرة من أهلها .

فإذا اتضح هذا نقول : إن من مصادر التشريع - التي تبنى عليها الفتوى - السنة ، وأفعال الرسول جزء من السنة النبوية وسيرته من أفعاله ، وللأصوليين مباحث بخصوص هذا الشأن منها : هل إذا فعل رسول الله ﷺ فعلاً فذلك يفيد الوجوب إلا إذا وجدت قرينة ، أم أنه لايفيد الوجوب إلا إذا وجدت قرينة ؟ هناك وجهتا نظر .

قال أبو حامد الغزالي في (المنخول) :

والمختار عندنا وهو مذهب الشافعي - رضي الله عنه - أنه إن اقترن به قرينة الوجوب كقوله ﷺ : « صلوا كما رأيتموني أصلي » فهو للوجوب . وإن لم يقترن نظر ، فإن وقع من جملة الأفعال المعتادة ، من أكل ، وشرب ، وقيام وقعود ، واتكاء ، واضطجاع ، فلا حكم له أصلاً . وظن بعض المحدثين أن التشبه به في كل أفعاله سنة ، وهو غلط ؛ وإن تردد بين الوجوب والندب ، فإن اقترنت به قرينة القربة فهو محمول على الندب ، لأنه أقل ، والوجوب متوقَّف فيه . وإن تردد بين القربة والإباحة ، فيتلقي منه رفع الحرج ، وليس هذا متلقى من صيغة الفعل ، إذ الفعل لا صيغة له ، ومستنده مسلك الصحابة فإنا نعلم أن الممنوع من فعل فيما بينهم ، لو نقل عن الرسول ﷺ فعله لفهموا منه رفع الحرج .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

وأما الإباحة فلا نتلقاه ، فإنه حكم يقتضي التخيير مع تساوي الطرفين ،وهو يناقض الندب ،والفعل متردد بينه وبين رفع الحرج ، فأقل الدرجات رفع الحرج .

فإن تمسك أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ بإجماع الأمة على كون النبي ـ عليه السلام ـ أسوة وقدوة ومطاعاً ،وشرطه الاقتداء به في كل ما يأتي ويذر .

قلنا : معناه أن أمره ممتثل ، كما يقال : الأمير مطاع في قومه ، ولا يراد به أنهم يتربعون إذا تربع ، أو ينامون إذا نام .

فإن تمسك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنهُ فَانْتَهُوا ﴾ [١] وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .... ﴾ [٢] وقوله : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [٣] فكل ذلك محمول على الأمر ، وهو الذي أتانا به دون الفعل .

وهل الأصل فيما لم يفعله الرسول ﷺ الحرمة أو الإباحة ؟ الذي عليه جماهير الأمة سلفاً وخلفاً أن الأصل في الأشياء الإباحة ، ومن هنا ندرك خطأ الذين يقولون : هات الدليل على أن هذا الشيء فعله رسول الله ﷺ لكي يعتبر جائزاً ، الصواب أن يقال : هات الدليل على أن الرسول ﷺ حرّمه ، فشيء لم يفعله ولم يأمر به ولم ينه عنه فالأصل فيه الجواز .

إذا اتضحت هذه المعاني فإننا نستطيع أن ندرك كثيراً من الأخطاء ، خطأ الذين يحرمون شيئا لأن رسول الله ﷺ لم يفعله ، وخطأ الذين يعتبرون أن مجرد فعل الرسول ﷺ يفيد الفرضية .

لقد وجد ناس قرأوا السيرة فاستخرجوا منها أن المنحى العام لرسول الله ﷺ في إقامة الدولة الإسلامية كان على طريقة معينة : دعوة دون قتال مع طلب النصرة ثم هجرة ثم ... ، وبناء عليه فإن الأمة الإسلامية يفترض عليها أن تسير على نفس المنحى ، مع أن الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية تختلف ، والأحكام قد اكتملت ولم يعد النسخ في الشريعة متصوراً ، والعبرة لآخر ما استقر عليه التشريع ، ومن ثم فالمسلم مكلف في ما

---

(١) الحشر : ٧ .

(٢) النور : ٦٣ .

(٣) آل عمران : ٣١ .

يواجهه أن يبحث عن حكم الله ، والأمة الإسلامية مقيدة في سيرها بحكم الله ، فقد يكون حكم الله القتال ابتداء ، وقد يكون غير ذلك .

وأفعال الرسول ﷺ منها ما يفيد الإباحة ،ومنها ما يفيد السنية ،ومنها ما يفيد الوجوب ، والقرائن هي التي تحدد ، وحتي أوامره ونواهيه ﷺ للقرائن دخل في فهم الوجوب أو الحرمة منها ، وفهم هذه القضية بالمكان الأعلى من فقه الحركة ، صحيح أن من قلد رسول الله ﷺ في أفعاله غير المنسوخة فهو مأجور في كل حال ، ولكن هذا شيء وادعاء الفرضية أو الحرمة شيء آخر .

ولا شك أن بعض أفعال رسول الله ﷺ ينطبق عليه وصف السياسة الشرعية ،وبالتالي فبعض أفعاله جزء من السياسة اليومية التي كان يفعلها رسول الله ﷺ بحكم إدارته لشؤون المسلمين .

ولكن هل كل أحد مرشح لأن يقول عن أفعال رسول الله ﷺ إن هذا يفيد السنية ، وهذا يفيد الوجوب ؟ وهل كل إنسان مرشح لأن يقول : هذا من السياسة اليومية وهذا من التشريع الدائم ؟

إن هناك معلومات من الدين بالضرورة يستوي في معرفتها والفتوى بها العام والخاص ولكن ما سوى ذلك من أمور مشتبهات لا يستطيعها إلا مجتهد استشرف نصوص الكتاب والسنة واستوعب الكليات والجزئيات ، أمثال هؤلاء هم المرشحون للبيان قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحديث الصحيح : « وبين ذلك أمور مشتبهات لايعلمها كثير من الناس » وإذن فهناك من يعلمها وهم الأئمة المجتهدون ، ولخطورة أن يتكلم في هذا الموضوع أحد لم يصل إلى رتبة الاجتهاد ، حكم الأئمة على من يتصدر للاجتهاد وليس أهلاً له بأنه ضال مُضِل ، لأنه في هذه الحالة يجعل الحرام حلالاً ، والواجب مباحاً ، أو المباح حراماً ، أو يعطل لنصوص بحجة أنها مؤقته بوقت ، أو كانت مرحلية ، إلى غير ذلك من أقوال إن لم تكن صادقة فهي الضلال عينه .

* * *

وإلى الباب الأول من قسم السيرة النبوية .

الباب الأوّل

من

سيرته صلّى الله عليه وسلّم

وهو

مِنَ البدء حتّى النبوّة الشّريفة

هذه المرحلة في سطور

* لم نقصد بكلمة (البدء) الميلاد ، وإنما أردنا في هذا الباب أن نذكر بعض النصوص التي تعتبر معالم كبرى متعلقة به ﷺ قبل النبوة ، سواء كانت قبل الميلاد أو بعده .

* أخذ الله على الرسل جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إذا بعث وهم أحياء ، وقد بشر به الرسل أقوامهم ، ولازالت في بقايا الوحي آثار كثيرة تبشر به ﷺ ففي كتب الهند الدينية ، وفي كتب الفرس الدينية ، وفي العهدين القديم والجديد ، كثير من البشارات به ، وقد ذكرنا ذلك في كتابنا (الرسول ﷺ) وهو مع ذلك كله من ذرية إبراهيم عن طريق إسماعيل ـ عليهما السلام ـ .

* ظهرت إرهاصات كثيرة تبشر ببعثته ، وظهرت علامات تمهد لاستقبال الوحي .

* ولد من أبوين قرشيين ، يعتبران أكرم خلق الله نسباً ، هما : عبد الله بن عبد المطلب ، وآمنة بنت وهب الزهرية .

* ولد عام الفيل ، ونبئ على رأس الأربعين ، توفي أبوه في المدينة المنورة وأمه حامل به ـ على القول الراجح ـ ، ومن حواضنه : بركة أم أيمن ، ومن مراضعه : ثويبة مولاة أبي لهب ، وحليمة السعدية .

* بقي في حضانة حليمة السعدية حتى السنة السادسة من عمره ـ في رواية ـ ثم أعادته إلى أمه بعد حادثة شق الصدر ، وفي نفس السنة ذهبت أمه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر زوجها ، وفي العودة توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة .

* وفي أوائل السنة التاسعة من عمره توفي كافله ومربيه : جده عبد المطلب ، بعد أن عهد إلى ابنه أبي طالب بكفالته .

* وفي أوائل السنة الثالثة عشرة من عمره خرج به أبو طالب إلى الشام ، وأرجعه من الطريق بناءً على وصية بَحيرا الراهب .

* وفي السنة العشرين من عمره ـ على قول ـ حضر حرب الفجار التي كانت بين قومه

وكنانة وبين قيس ،وكان يجهز فيها النبل لأعمامه .

* وشارك بعد حرب الفجار في حلف الفضول في دار ابن جدعان ، وهذا الحلف من مكارم قريش الكبرى ، إذ كان حلفاً على نصرة المظلوم .

* وقد رعى أثناء هذه المرحلة الغنم ، وكان لايألو جهداً في العمل .

* وأخيراً أجر نفسه لخديجة ، فذهب هو وغلامها ميسرة إلى الشام في تجارة لها ، وتمخضت العلاقة التجارية عن زواج رسول الله ﷺ بها وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين ، وولدت له جميع أولاده وبناته ، ما عدا إبراهيم عليه السلام .

* ووالى العمل التجاري بعد ذلك ، وكان له في مرحلة من المراحل شريك هو السائب ابن أبي السائب .

* وشارك وهو في سن الخامسة والثلاثين في بناء الكعبة ، وحكّمته قريش فيمن يضع الحجر الأسود .

* وغلبت عليه العبادة في أخريات هذه المرحلة ، وأصبحت رؤياه كفلق الصبح ، ورأى خلال هذه المرحلة نوراً ، وسمع صوتاً ، وكلمته بعض الجمادات ، وحدث له في صغره حادثة شق الصدر ، ثم تكررت .

* ولم يشارك طوال حياته في أعمال الجاهلية ، ولا في عبادات أهلها ، وكان قومه يطلقون عليه لقب الأمين .

* تبنى زيد بن حارثة بعد أن أعتقه على إثر إيثار زيد له ﷺ على أهله ، وبقائه معه .

* وكانت له صداقاته القليلة ، وعلاقاته النظيفة ، وسمعته الطاهرة ، واجتمع له الفقر والعمل مع مكارم الأخلاق كلها .

* كفل في أخريات هذه المرحلة عليّ بن أبي طالب ، ليخفف عن عمه أبي طالب .

* وصفته خديجة بعد النبوة -ملخصة صفاته قبل النبوة بما معناه- بأنه : يحمل المنقطع، ويقري الضيف ، ويغيث الملهوف ، ويعين على نوائب الحق ، مستدلة بهذه الصفات على السلامة من الآفات ، ومثبتة له على أمر النبوة .

* * *

فَصْلٌ : في فضل النَّسَبِ وفي فضل الجيل

نسب الرسول ﷺ :

* ذكر البخاري (١) نسب رسول الله ﷺ فقال : (هو ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان) .

أقول : ثم يصل نسبه إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويرى بعض النسابين أن بين عدنان وإبراهيم أربعين جداً لرسول الله ﷺ ، فهو من أبناء إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ثم بعد ذلك يدخل في نسب إبراهيم الذي تلمع فيه نبوات ورسالات كبرى إلى آدم ـ عليه السلام ـ وإنما اتصل نسب إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالعرب من خلال ابنه إسماعيل ، حيث أسكنه وأمه بوادٍ غير ذي زرع في مكة المكرمة ، كما هو معلوم من القرآن والسنة الصحيحة .

* * *

اصطفاء نبينا من خير بني آدم ومن خير الأجيال : (٢) :

١ ـ * روى مسلم عن واثلة بن الأسقع ـرضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« إنَّ اللهَ اصطَفَى كِنَانةَ من وَلَدِ إسمَاعِيلَ ، واصطفى قُرَيْشاً من كِنَانةَ ، واصطَفَى من قُرَيشٍ بَني هَاشِمٍ ، واصطَفَانِي من بَني هَاشِمٍ » .

٢ ـ * روى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ قال : قلت :

---

(١) ذكر رَزِينٌ أنه عن ابن عباس.

(٢) لهذه الفقرة تعلّق بفصل النسب من حيث شرفه ﷺ .

١ ـ مسلم (٤ / ١٧٨٢) ٤٣ ـ كتاب الفضائل ـ ١ ـ فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة .

والترمذي (٥ / ٥٨٣) ٥٠ ـ كتاب المناقب ـ ١ ـ باب في فضل النبي ﷺ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

٢ ـ الترمذي (٥ / ٥٨٤) ٥٠ ـ كتاب المناقب ـ ١ ـ باب في فضل النبي ﷺ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

كبوة : الكبوة ههنا محل تجمع الغبار والطمي .

يارسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم ، فجعلوا مَثَلَكَ كمثل نخلة في كبوة من الأرض فقال ﷺ : « إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلقَ ، فَجَعلني من خَيْرِهم من خَيرِ فِرَقِهم ، وَخَيْرِ الفَريقَين ، ثُم تَخَيَّر القَبائِلَ ، فَجَعَلني من خَيْرِ قَبيلَةٍ ، ثُمَّ تَخَيَّرَ البُيُوتَ ، فَجَعَلني مِن خيْرِ بُيُوتِهِم ، فَأنَا خَيرُهم نَفْساً وَخَيْرُهم بَيْتاً » .

٣ - * روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «بُعِثتُ من خيرِ قرونِ بني آدمَ قرناً فقرناً، حتى كنتُ منَ القرنِ الذي كنتُ منه».

٤ - * روى الطبراني عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وتقلبك في الساجدين** ﴾ [1] قال : « من صلب نبي إلى صلب نبي حتى صرت نبيًّا » .

وقد علق الدكتور البوطي على ما ورد بخصوص نسبه الشريف ﷺ بقوله : فيما أوضحناه من نسبه الشريف ﷺ ، دلالة واضحة على أن الله - سبحانه وتعالى - مَيَّزَ العرب على سائر الناس ، وفضل قريشاً على سائر القبائل الأخرى .

واعلم أن مقتضى محبة رسول الله ﷺ ، محبة القوم الذين ظهر فيهم والقبيلة التي ولد فيها ، لا من حيث الأفراد ... بل من حيث الحقيقة المجردة ، ذلك لأن الحقيقة العربية القرشية ، قد شرف كل منها - ولا ريب - بانتساب رسول الله ﷺ إليها .

ولا ينافي ذلك ما قد يلحق من سوء بكل من قد انحرف من العرب أو القرشيين ، عن صراط الله - عز وجل - وانحط عن مستوى الكرامة الإسلامية التي اختارها الله لعباده ، لأن هذا الانحراف أو الانحطاط من شأنه أن يودي بما كان من نسبة بينه وبين رسول الله ﷺ ويلغيها من الاعتبار .

---

٣ - البخاري (٦ / ٥٦٦) ٦١ - كتاب المناقب - ٢٣ - باب صفة النبي ﷺ .

القرون : جمع قرن ، وهو الأمة في عصر من الأعصار ، كلما انقضى عصر سمي أهله قرناً ، سواء طال أو قصر .

٤ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٨٦) وقال : رواه البزار والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح ، غير شبيب بن بشر ، وهو ثقة .

(١) الشعراء : ٢١٩ .

أقول :

وفي الحديث قبل الأخير ما يفيد أن إيجابيات بعض النفوس البشرية في عصره كانت أرقى منها في أي عصر مضى أو سيأتي بعده ، ومن عرف خصائص جيل الصحابة أدرك أنه جيل فريد لم يوجد مثله ولن يوجد جيل في مستواه .

* * *

تزكية الله لنبيه ﷺ وللصحابة[1] :

٥ - * روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : إنَّ الله نَظَر في قُلوبِ العِبَاد ، فَوَجَد قلبَ مُحمّدٍ ﷺ خيْرَ قُلُوبِ العِبَاد ، فاصْطَفَاهُ لِنَفسِهِ ، فابْتَعَثَهُ برسالاته ، ثم نَظَر في قُلُوب العِبَادِ بعد قلب محمد ، فوَجَد قُلُوب أصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوب العبادِ ، فجَعلهُم وُزراء نبيِّهِ . يُقَاتِلُونَ عن دِينِهِ ، فما رَآى المُسْلِمُونَ حَسَناً فَهُو عِنْدَ الله حَسَنٌ وَمَا رأوا سيِّئاً فهو عند الله سيِّىء .

فائدة :

هذا الحديث أصل من الأصول التي يستدل بها على حجية الإجماع . وفيه تعليل لاختيار الله محمداً ﷺ . كما أن فيه تعليلاً لفضل الصحابة على غيرهم ، ولفضل جيلهم على الأجيال . ومن الحديث تعرف سرّ قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه ﴾ [2] فقلب من نوع معين هو الذي يستأهل أن يتلقّى الوحي ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ ﴾ [3] .

* * *

(١) تعلّق هذه الفقرة بعنوان الفصل من حيث إنها حديث عن كرامة الجيل الذي وجد فيه رسول الله ﷺ .

٥ - أحمد في مسنده (١ / ٣٧٩) . وذكر البزار جزءاً منه ، راجع : كشف الأستار (٣ / ١١٤) كتاب علامات النبوة - باب في منزلته ﷺ . ورواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله موثقون ، راجع : مجمع الزوائد (٨ / ٢٥٢) - كتاب علامات النبوة - باب عظم قدره ﷺ .

(٢) الأنعام : ١٢٤ .

(٣) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .

[هاجر] جدة رسولنا ـ عليهما الصلاة والسلام ـ : [١]

٦ ـ * روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ قَطُّ ، إِلاَّ ثَلاَثَ كَذْبَاتٍ ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ ، قَوْلُهُ : ﴿ **إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ [٢] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ [٣] . وَوَاحِدَةً فِي شَأْنِ سَارَةَ ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ ، فَقَالَ لَهَا : إِنَّ هَذَا الجَبَّارَ ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي ، يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ ، فَإِن سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي ، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الإِسْلاَمِ ، فَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ مُسلِماً غَيْرِي وَغَيْرَكِ .

فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الجَبَّارِ ، أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لا يَنْبَغِي لَهَا أَن تَكُونَ إِلا لَكَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأُتِيَ بِهَا . فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلى الصَّلاَةِ .

فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيهَا ، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً ، فَقَالَ لَهَا : ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلاَ أَضُرُّكِ . فَفَعَلَتْ ، فَعَادَ ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ القَبْضَةِ الأُولَى ، فَقَالَ لها مِثلَ ذلِكَ ، فَفَعلتْ ، فَعَادَ ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ القَبْضَتَينِ الأُولَيَينِ ، فَقَالَ : ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي ، فَلَكِ اللهَ أَنْ لاَ أَضُرَّكِ ، فَفَعلتْ ، وأُطْلِقَتَ يَدُهُ ، وَدعَا الذِي جَاءَ بِهَا ، فَقَال لَه : إِنَّكَ إِنَّمَا أَتيتَنِي

---

(١) تعلّق هذه الفقرة بفصل النسب واضح لأن فيها حديثًا عن الجد الأشرف لرسولنا عليه الصلاة والسلام وفي هذه الفقرة كلام عن جدته هاجر أم إسماعيل عليهما السلام .

٦ ـ البخاري : (٦ / ٣٨٨) ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ـ ٨ ـ باب قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيم خَلِيلاً ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ ﴾ . وأخرجه مسلم ، واللفظ له : (٤ / ١٨٤٠) ٤٣ ـ كتاب الفضائل ـ ٤١ ـ باب من فضائل إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ .

يغلبني عليك : يقتلني ليتزوجك . فَلَكِ الله : أي شاهد وضامن أن لا أضرك . مَهْيَمْ : كلمة معناها : ما شأنك ؟ وما خبرك ؟ . الخادم : يطلق على الذكر والأنثى . بنو ماء السماء : هم العرب ، سُمُّوا بذلك لخلوص نسبهم وصفائه ، وقيل : لأنهم يرعون العشب الذي ينبته ماء السماء .

(١) الصافات : ٨٩ .

(٢) الأنبياء : ٦٣ .

بِشَيْطَانٍ ، وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ ، فَأَخْرِجْهَا من أَرْضِي ، وَأَعْطِهَا هَاجَرَ .

قَالَ : فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي ، فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ - عَلَيهِ السَّلامُ - انْصَرفَ ، فَقَال لَهَا : مَهْيَمْ ، قَالَت : خَيْراً ، كَفَّ الله يَدَ الفاجِرِ ، وَأَخْدَمَ خَادِماً » .

قَالَ أَبُو هُرَيْرَة : فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاء السَّمَاء .

تعليق حول صدق إبراهيم - عليه السلام - :

ما ذكره إبراهيم - عليه السلام - في المواقف الثلاثة إنما هو من التورية الجائزة ، وإنما أطلق عليه الكذب مجازاً ، قال النووي في شرحه لمسلم :

وأما قوله ﷺ :«.... ثنتين في ذات الله - تعالى - ....، وواحدة في شأن سارة ..» فمعناه:

أن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع ،وأما في نفس الأمر فليست كذباً مذموماً ، لوجهين ، أحدهما : أنه وَرَّى بها ، فقال في سارة : أختي في الإسلام ، وهو صحيح في باطن الأمر ، وسنذكر - إن شاء الله تعالى - تأويل اللفظين الآخرين [1] . والوجه الثاني : أنه لو كان كذباً لا تورية فيه لكان جائزاً في دفع الظالمين ، وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفياً ليقتله ، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً ، وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به ، وهذا كذب جائز بل واجب لكونه في دفع الظالم فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلة في مطلق الكذب المذموم .

ولعله من أجل كال صدق إبراهيم - عليه السلام - سماه الله - تعالى - في التنزيل الشريف : ﴿ .... صِدِّيقاً نبيّاً ﴾ [2] ، ولعل أيضاً من إنعامات الله عليه لهذا الصدق أن

---

(١) قال النووي في موضع آخر : وذكروا في قوله : إني سقيم ، أي : سأسقم ، لأن الإنسان عرضة للأسقام ، وأراد بذلك الاعتذار عن الخروج معهم إلى عيدهم وشهود باطلهم وكفرهم . وقيل : سقيم بما قدر عليَّ من الموت . وقيل : كانت تأخذه الحمى في ذلك الوقت . وأما قوله : بل فعله كبيرهم ، فقال ابن قتيبة وطائفة : جعل النطق شرطاً لفعل كبيرهم ، أي فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون ، وقال الكسائي : يوقف عند قوله : بل فعله ، أي فعله فاعله فأضمر ، ثم يبتدىء فيقول : كبيرهم هذا ، فأسألوهم عن ذلك الفاعل .

(٢) مريم : ٤١ .

جعل من نسله إمام الصديقين وخاتم المرسلين محمداً ﷺ الذي ربى أمة على الصدق في القول والحال والعمل ، فكانت خير أمة أخرجت للناس .

قصة إسماعيل الذبيح - عليه السلام - وبناء البيت [1] :

٧ - * روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : أول ما اتخذَ النساءُ المِنْطَق من قِبَلِ أمِّ إسماعيلَ ، اتَّخذَتْ مِنْطقاً لِتُعَفِّيَ أثرَها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيمُ وبابنِها إسماعيلَ - وهي تُرضِعُهُ - حتى وَضعَها عند البيتِ ، عند دَوحةٍ فوقَ زمزَم في أعلى المسجدِ ، وليس بمكةَ يومَئذٍ أحد ، وليس بها ماءٌ ، فوَضعَها هنالك ، ووضعَ عندَهما جِراباً فيه تمرٌ ، وسِقاءً فيهِ ماءٌ ، ثم قَفَّى إبراهيمُ مُنطلِقاً ، فتَبِعتهُ أم إسماعيلَ ، فقالت : يا إبراهيمُ ، أينَ تَذهبُ وتتْركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء ؟ فقالت له ذلكَ مِراراً ، وجَعلَ لاَ يلتفِتُ إليها ، فقالت له : آللَّهُ أمرك بهذا ؟ قال : نعم : قالت : إذاً لا يُضيِّعُنا .

ثمَّ رَجعَت ، فانطَلقَ إبراهيمُ حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ - حيثُ لا يرونَهُ - استقبَلَ بوَجههِ البيتَ ، ثمَّ دَعا بهؤلاء الكلماتِ ، وَرفعَ يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ [2] .

وجعَلت أمُّ إسماعيلَ تُرضِعُ إسماعيلَ ، وتَشربُ من ذلك الماء ، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء عَطِشَت ، وعطِشَ ابنُها ، وجعَلَت تَنظُرُ إليه يَتلوَّى - أو قال : يَتَلَبَّط - فانطلقتْ كراهيةَ أن تَنظُرَ إليه ، فوَجدَتِ الصَّفا أقربَ جَبلٍ في الأرضِ يَليها ، فقامَت عليه ، ثمَّ استقبلَتِ الواديَ تنظرُ هل ترى أحداً ؟ فلم تَرَ أحداً ، فهَبَطت منَ الصَّفا ، حتى إذا بَلَغتِ الواديَ رَفعَت طرفَ دِرعِها ، ثمَّ سَعَت سعيَ الإنسانِ المجهودِ ، حتى جاوَزَتِ الواديَ ، ثم أتَتِ

---

(١) تعلّق هذه الفقرة بفصل النسب من حيث إنها حديث عن إبراهيم وإسماعيل جدّي رسول الله عليهم الصلاة والسلام وما أحاط بسرية السكنى في الحرم .

٧ - البخاري (٦ / ٣٩٦) ٦٠ - كتاب الأنبياء - ٩ - باب يزفون النسلان في المشي .

المِنْطق : هو ما تشد به المرأة وسطها عن عمل الأشغال لترفع ثوبها . وهو أيضاً النطاق . لتعفي : لتخفي . الدوحة : الشجرة العظيمة . قَفَّى : ولاَّك قفاه رجعاً عنك . آلله أمرك بهذا : أي هل أمرك الله بهذا ؟ . الثنية : الطريق في العقبة ، وقيل : هو المرتفع من الأرض فيها . ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ : مكة ، فلا ينبت فيها زرع . يتلبط : يضطرب ويتقلب ظهراً لبطن . درعها : قميصها . الإنسان المجهود : الذي أصابه الجهد .

(٢) إبراهيم : ٣٧ .

المرْوَة ، فقامت عليها فنَظَرت ، هل ترى أحداً ؟ فلم ترَ أحداً ، ففعلت ذلك سبعَ مرّاتٍ قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فذلك سَعْي الناس بينهما » ـ .

فلما أشرَفَت على المروة سمعَت صوتاً ، فقالت : صَـهٍ ـ تريـدُ نفسَهـا ـ ثم تسمَّعتْ أيضـاً ، فقـالت : قـد أسمعتَ إن كان عنـدَكَ غِواث ، فـإذا هيَ بـالمَلَـكِ عنـد مَوضعِ زَمزم ، فبَحثَ بعَقِبـهِ ـ أو قـال : بجَنـاحـهِ ـ حتى ظهَر المـاء ، فجَعَلت تَحُـوضُـه ، وتقـول بيـدهـا هكـذا ، وجَعلت تَغرفُ من الماء في سِقائها ، وهو يَفورُ بعدَ ما تَغرفُ . قال ابنُ عبـاسٍ : قـال النبيُّ ﷺ : « يَرحَمُ الله أمَّ إسماعيلَ ، لو ترَكَت زمزمَ ـ أو قال : لو لم تَغرفْ من المـاء ـ لكانت زمزمُ عَيناً مَعيناً » ، قال : فشَرِبت وأرضَعتْ ولَدَها ، فقال لها المَلَـكُ : لا تخـافوا الضَّيعَة ، فإنَّ هاهنا بيتَ الله ، يَبني هذا الغلامُ وأبوه ، وإنَّ الله لا يضيعُ أهلَه .

وكان البيتُ مرتفعاً من الأرضِ كالرابية ، تأتيهِ السيولُ فتأخُذُ عن يمينه وشمالهِ ، فكانت كذلكَ حتى مرَّت بهم رُفقة من جُرهُم ـ أو أهلُ بيتٍ من جُرْهم ـ مُقبلينَ من طريقِ كَـدَاء ، فنَزلوا في أسفَلِ مكةَ ، فَرأوا طائراً عائفاً ، فقالوا : إنَّ هذا الطائرَ لَيَدُورُ على ماء ، لَعَهْـدُنـا بهذا الوادي وما فيه مـاء ، فـأرسَلوا جَرِيّـاً أو جَرِيَّين ، فـإذا هم بـالمـاء ، فَرجَعوا فـأخبروهم بـالمـاء ، فـأقبلوا ـ قـال : وأمُّ إسماعيلَ عنـد المـاء ـ فقـالوا : أتَأذَنينَ لنـا أن نَنزِلَ عنـدَكِ ؟ فقالت : نعم ، ولكنّ لا حقَّ لكم في الماء . قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قـال النبيُّ ﷺ : « فـألفى ذلـكَ أم إسماعيلَ وهيَ تحبُّ الأُنسَ » فنزَلوا وأرسلوا إلى أهليهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهلُ أبيـاتٍ منهم ، وشبَّ الغُلامُ ، وتعلَّمَ العربيةَ منهم ، وأَنْفَسَهُمْ وأعْجَبَهُمْ حين شَبَّ ، فلما أدركَ زوَّجوهُ امرأةً منهم .

وماتَت أمُّ إسماعيلَ ، فجـاء إبراهيمُ ، بعـد مـا تزوّجَ إسماعيلُ ، يُطـالِعُ تَرِكَتـهُ ، فلم يجـد

= صَهٍ : اسكت ، وقوله : (تريد نفسها) معناه : لما سمعت الصوت سَكَّتتْ نفسها لتتحققـه . غِواث : الغواث والغيـاث والغوث : المعونة ، وإجابة المستغيث . تحُوضُه : أي : تجعل له حوضاً يجتمع فيه الماء . معيناً : المـاء الظـاهر الجـاري الذي لا يتعذر أخذه . الضيعة : الضياع والحاجة . الرابيـة : مـا ارتفع من الأرض . جُرْهُم : قبيلـة من اليمن ، تزوج منها إسماعيل ـ عليه السلام ـ . كداء : بالفتح والمد : الثنية من أعلى مكة مما يلي المقابر . وبالضم والقصر : من أسفلهـا مما يلي بـاب العمرة . عـائفـاً : العـائف : المتردد حول المـاء . الجريُّ : الرسول والوكيل . أنْفَسَهُمْ : أي : صـار عنـدهم نفيساً مرغوباً فيـه . تركتـه : التركـة بسكون الراء : ولـد الإنسـان ، وهو في الأصل : بيضـة النعـام ـ والتركـة : اسم للشيء المتروك .

إسماعيل ، فسألَ امرأتَهُ عنه ؟ فقالت : خرجَ يَبتغي لنا ، ثم سألها عن عَيشِهم وهَيئَتِهم ؟ فقالت : نحنُ بِشَرّ ، نحنُ في ضيق وشدَّة ، فشكَتْ إليه ، قال : فإذا جاء زوجُكِ فاقرَئي عليهِ السلامَ ، وقولي لهُ : يُغيِّرْ عَتبةَ بابه ، فلما جاء إسماعيلُ كأنهُ أنَسَ شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخٌ كذا وكذا ، فسألَنا عنك ، فأخبرتهُ ، وسألني : كيف عَيشُنا ؟ فأخبرتهُ أنا في جَهدٍ وشِدَّة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرَني أن أقرَأ عليكَ السلام ، ويقول : غَيِّر عتبةَ بابك ، قال : ذاك أبي ، وقد أمرَني أن أفارِقَكِ ، الحَقي بأهلكِ ،فطلَّقَها ، وتزوجَ منهم أخرَى .

فَلبثَ عنهم إبراهيمُ ما شاء الله ، ثم أتاهم بعدُ ، فلم يَجِدْه ، فدخَلَ على امرأته ، فسألها عنه ؟ فقالت : خَرجَ يَبتغِي لنا ، قال : كيفَ أنتم ؟ وسألها عن عيشِهم وهَيئَتِهم ، فقالت : نحن بخيرٍ وسَعَة ، وأثنَتْ على الله ، فقال : ما طعامُكم ؟ قالتِ : اللحمُ ، قال : فما شرابُكم ؟ قالتِ : الماء ، قال : اللهمَّ بارك لهم في اللحم والماء ، قال النبيُّ ﷺ : « ولم يكن لهم يومَئذٍ حَبٌّ . ولو كان لهم دعا لهم فيه » ، قال : فهما لا يَخْلُو عليهما أحدٌ بغيرِ مكةَ إلا لم يوافِقاهُ .

قال : فإذا جاء زوجُكِ فاقرَئي عليهِ السلامَ ، ومُريهِ يُثَبِّتُ عتبةَ بابه ، فلما جاءَ إسماعيلُ قال : هل أتاكم مِن أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شَيخٌ حَسنُ الهيئةِ ـ وأثنَتْ عليه ـ فسألني عنكَ ؟ فأخبرتهُ ، فسألني ، كيف عيشُنا ؟ فأخبرتهُ أنّا بخيرٍ ، قال : فأوصاكِ بشيءٍ ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليكَ السلامَ ، ويأمُرُكَ أن تُثَبِّتَ عتبةَ بابك ، قال : ذاك أبي وأنتِ العتبة ، أمَرَني أن أُمسكَكِ .

ثم لَبِثَ عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعدَ ذلك وإسماعيلُ يَبري نَبْلاً له تحتَ دوحة قريباً منَ زَمزَمَ ، فلمّا رآهُ قام إليه ، فصَنَعا كما يَصنَعُ الوالدُ بالوَلد ، والوَلَدُ بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيلُ ، إن اللهَ أمَرني بأمر ، قال : فاصْنَعْ ما أمَرَكَ ربُّك ، قال : وتُعِينُني ؟ قال : وأُعِينُك ، قال : فإن اللهَ أمَرَنِي أن أبْني هاهنا بيتاً ـ وأشارَ إلى أكَمة مُرتفعةٍ على ما حَوْلَها ـ

يبتغي لنا : يطلب لنا الرزق ويسعى فيه . اقرئي عليه السلام : بلغيه السلام . آنس شيئاً : أبصر شيئاً ، وأراد : كأن رأى أثر أبيه وبركة قدومه . أفارقك : أي أطلقك . أكمة : الأكمة ما ارتفع من الأرض كالرابية . القواعد : مفردها قاعدة ، وهي أساس البيت .

فعندَ ذلكَ رَفَعا القواعدَ منَ البيت ، فجعلَ إسماعيلُ يـأتي بـالحجـارةِ ، وإبراهيمُ يبني ، حتى إذا ارتَفعَ البناء جاءَ بهذا الحجَرِ فوضَعَهُ لهُ ، فقامَ عليه وهو يَبْني ، وإسماعيلُ يُناولهُ الحِجارةَ ، وهُما يَقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [١] .

٨ - * روى الحاكم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله - عز وجل - :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴾ [٢] قال : من شيعة نوح إبراهيم على منهاجه وسنته .

﴿ بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [٣] : شب حتى بلغ سعيه سعيَ إبراهيم في العمل .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ [٤] : ما أمرا به .

﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [٤] : وضع وجهه إلى الأرض ، فقال : لا تذبحني وأنت تنظر ، عسى أن ترحمني فلا تجهز عَلَيَّ ، اربط يدي إلى رقبتي ، ثم ضع وجهي على الأرض ، فلما أدخل يده ليذبحه ، فلم يحك المديَة حتى نودي :

﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ [٥] : فأمسك يده ورفع .

قوله : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [٦] : بكبش عظيم متقبل .

وزعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل .

أقول :

ما قاله ابن عباس يوافق دقائق فهم القرآن من أن الذبيح إسماعيل - عليه السلام - ، ولا

---

(١) البقرة : ١٢٧ .

٨ - المستدرك (٢ / ٤٣٠) وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

لا تجهز عَلَيَّ : معناه : ترحمني فلا تقتلني .

(٢) الصافات : ٨٣ .

(٣) الصافات : ١٠٢ .

(٤) الصافات : ١٠٣ .

(٥) الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٦) الصافات : ١٠٧ .

أعلم في تـاريخ العـالم مثلاً أرقى على الاستسـلام لله من هـذا المثـل ، فـلا عجب أن أكرم الله - تبـارك وتعـالى - إبراهيم وإسماعيـل أن جعـل من نسلهما محمـداً ﷺ أول المسلمين وخـاتم المرسلين .

وقـد سـارع إبراهيم وإسماعيـل إلى تحقيـق الرؤيـا ، لأن رؤيـا الأنبيـاء وَحْيٌ واجب الطاعة ، وأما رؤيا غير الأنبياء فمحلها النظر .

* * *

فائدة في التعريف بالقبائل العربية :[1]

يحسن بنـا ونحن بصـدد بعض النصـوص التي تتحـدث عن نسب رسـول الله ﷺ ، أن نتعرف في عجالة سريعة على قبائل العرب ، خاصة العرب المستعربة ، أو العدنانية المنحـدرة من صلب إسماعيل ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليمات .

قال المباركفوري في الرحيق المختوم[2] :

أقوام العرب قـد قسمهـا المؤرخون إلى ثـلاثـة أقسـام ، بحسب السـلالات التي ينحـدرون منها :

١ - العرب البائدة : وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافيـة عن تاريخهم ، مثل : عاد ، وثمود ، وطَسْم ، وجَدِيس ، وعِمْلاَق ، وسواها .

٢ - العرب العـاربـة : وهم العرب المنحـدرة من صلب يَعْرُبَ بن يَشْجُبَ بن قَحْطَـانَ ، وتسمى بالعرب القحطانية .

٣ - العرب المستعربة وهم العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بـالعرب العـدنـانيـة . فأما العرب العاربة - وهي شعب قحطـان - فمهدهـا بلاد اليمن ، وقـد تشعبت قبـائلها

---

(١) لهذه الفقرة صلة بفصل النسب لأنها تعرفنا على قبـائل الشعب العربي وعلى محل قبيلتـه عليـه الصلاة والسلام من هـذه القبائل .

(٢) الرحيق المختوم : (٢٠ - ٢٧) .

وبطونها ، فاشتهرت منها قبيلتان :

أ ـ حِمْيَر ، وأشهر بطونها : زيد الجمهور ، وقضاعة ، والسكاسك .

ب ـ كَهْلَان : وأشهر بطونها : هَمْدَانُ ، وأَنْمَار ، وطَيِّيء ، ومَذْحِج ، وكِنْـدَة ، ولَخْم ، وجُذَام ، والأَزْد ، والأَوْس ، والخَزْرَج ، وأولاد جَفْنَة ملوك الشام[١].

وأما العرب المستعربة ، فأصل جدهم الأعلى ـ وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام ـ من بلاد العراق ، من بلـدة يقـال لهـا (أور) على الشـاطيء الغربي من نهر الفرات ، بـالقرب من الكوفة .... ومعلوم أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هاجر منهـا إلى حـاران ـ أو حران ـ ، ومنهـا إلى فلسطين ، فاتخذها قاعدة لدعوتـه ، وكانت لـه جولات في أرجـاء هـذه البلاد وغيرهـا ، وقدم مرة إلى مصر ،وقد حاول فرعون مصر كيداً وسوءاً بزوجته سارة ، ولكن الله رد كيـده في نحره ، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله ، حتى أخـدمهـا (هـاجر) اعترافـاً بفضلها ، وزَوَّجَتْهَا سارةُ إبراهيمَ [٢] .

ورجع إبراهيم إلى فلسطين ،ورزقـه الله من هـاجر إسماعيل ،وغـارت سـارة حتى ألجـأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الصغير ـ إسماعيل ـ فقدم بها إلى الحجاز ، وأسكنهما بوادٍ غير ذي زرع عنـد بيت الله المحرم الـذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعـاً من الأرض كالرابيـة .... والقصة معروفة بطولها [٣] .

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته ، ولا يعلم كم كانت هـذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية حفظت أربعة منها [٤] .

وقـد رزق الله إسماعيـل من ابنـة مضـاض [٥] اثني عشر ولـداً ذكراً ، وهم : نـابت أو

---

(١) وانظر : المصدر السابق (٢٠ ـ ٢٢) لتفصيل هذه القبائل وهجراتها .

(٢) انظر : نص الحديث الذي رواه البخاري ومسلم ، لتفصيل قصة هذا الكيد : ص ١٤١ من هذا الفصل .

(٣) انظر : نص الحديث الذي رواه البخاري ، لتطالع تفصيل هذه القصة : ص ١٤٣ إلى ص ١٤٦ .

(٤) انظر : النص السابق والذي بعده ، ففيه تفصيل الرحلات الأربع التي ارتحلها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى مكة .

(٥) وهي الزوجـة الثـانيـة التي أمر إبراهيم ولـده إسماعيـل أن يثبتهـا ولا يفـارقهـا . راجـع الحـديث ص ١٤٥ وهي ابنـة مضاض كبير قبيلة جرهم وسيدهم .

بنـالـوط ، وقيـدار ، وأدبـائيـل ، ومبشـام ، ومشماع ، ودومـا ، وميشـا ، وحـدد ، ويتما ، ويطور ، ونفيس ، وقيدمان .

وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة ، وكانت جُلُّ معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ، ثم انتشرت هذه القبـائل في أرجـاء الجزيرة بل إلى خارجها ، ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان ، إلا أولاد نابت وقيدار .

وازدهرت حضـارة الأنبـاط في شمال الحجـاز ، وكـونـوا حكـومـة قـويـة دان لهـا من بأطرافها ، واتخذوا البتراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع منـاوأتهم أحـد حتى جـاء الرومـان فقضوا عليهم ، وقـد رجح السيـد سليمان النـدوي بعـد البحث الأنيق والتحقيق الـدقيق أن ملوك آل غسـان وكـذا الأنصـار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطـان ، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقاياهم في تلك الديار .

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولـده معد ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها ، وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي ، وقـد ورد أنـه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عـدنـان يمسـك ويقول : « كـذب النسـابون » فلا يتجـاوزه . وذهب جمع من العلمـاء إلى جـواز رفـع النسب فـوق عـدنـان ، مضعفين للحديث المشار إليه ، وقالوا : إن بين عدنـان وبين إبراهيم ـ عليـه السلام ـ أربعين أباً بالتحقيق الدقيق .

وقـد تفرقت بطـون معـد من ولـده نـزار ـ قيـل : لم يكن لمعـد ولـد غيره ـ فكان لنزار أربعـة أولاد ، تشعبت منهم أربعـة قبـائـل عظيمـة : إيـاد وأنمـار وربيعـة ومضر ، وهـذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونها واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعـة : أسـد بن ربيعـة ، وعنزة ، وعبـد القيس ، وأبنـا وائل ـ بكر وتغلب ـ ، وحنيفـة ، وغيرهـا . وتشعبت قبـائل مضر إلى شعبتين عظيمتين : قيس عيـلان بن مضر ، وبطـون إليـاس بن مضر ، فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان . ومن غطفان : عبس وذبيـان وأشجع وغني بن أعصر . ومن إلياس بن مضر : تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمـة ، وبطون كنانة بن خزيمة .

ومن كنانة قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وانقسمت قريش إلى قبائل شتى ، من أشهرها : جمح وسَهْم وعَدِي ومخزوم وتيم وزُهْرة ، وبطون قصي بن كلاب وهي عبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العُزّى بن قصي وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم . وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله ـ تعالى ـ منه سيدنا محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ [1] .

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب ، متتبعين مواقع القطر ومنابت ... [2] .

وبقي بتهامة بطون كنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم .

* * *

(١) ذلك مصداقه ما رواه واثلة بن الأسقع والعباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ . راجع : ص ١٣٨ من هذا الفصل .

(٢) ولتفصيل ذلك ، راجع : الرحيق المختوم ص ٢٦ ، ٢٧ .

فصل : في بعض البشارات بنبينا ﷺ

بشارات في الكتب السابقة :

٩ ـ * روى البخاري عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهم ـ : أن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [1] قال في التَّوراةِ : يا أيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرْزاً لـلأمِّيينَ ، أنت عبدي ورسولي ، سَمَّيْتك المتوكلَ ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ ، ولا سَخَّابٍ بالأسواق ، ولا يدفع السَّيئةَ بالسَّيئة ، ولكن يعفُو ويصفح ، ولن يقبضَه الله حتى يقيمَ به المِلة العَوْجاء ، بأنْ يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أَعْيناً عُمْياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً .

١٠ ـ * روى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بتأويل ذلك ، دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، خرج منها نور ، أضاءت له قصور الشام ، وكذلك أمهات النبيّين يرينَ » .

١١ ـ * روى الطبراني عن أبي مريم رضي الله عنه قال : أقبل أعرابي حتى أتى النبي ﷺ ، وعنده خلق من الناس ، فقال : ألا تعطيني شيئاً أتعلمه وأحمله وينفعني ولا يضرك ؟

---

٩ ـ البخاري (٨ / ٥٨٥) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ ٣ ـ باب ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ .

حرزاً : أصل الحرز هو الوعاء الحصين الذي يحفظ فيه الشيء . الأميون : جمع الأمي ، وهم العرب ، وذلك أنهم لا يحسنون الكتابة ، والذي لا يكتب يقال له : أمّيّ . فظ : الفظ القاسي القلب ، الغليظ الجانب . سَخَّاب : السخب بالسين والصاد : الصياح والجلبة ، أي : ليس ممن ينافس في الدنيا وجمعها ، فيحصر الأسواق لذلك . بالسيئة : لا يقابل الإساءة والشر بالمثل . آذاناً صمّاً : لا تسمع ، أو أعرض أصحابها عن السماع . الغُلْفُ : جمع أغلف ، وهو الذي عليه غلاف .

(١) الأحزاب : ٤٥ .

١٠ ـ أحمد في مسنده (٤ / ١٢٧) وكشف الأستار (٣ / ١١٣) وللحاكم قريب منه ، وقد حسنه بعضهم .

منجدل في طينته : أي ملقى على الجدالة وهي الأرض .

١١ ـ المعجم الكبير (٢٢ / ٣٣٣) ورجاله وثقوا ، وهو حسن .

فقال الناس : مه ، اجلس .

فقال النبي ﷺ : « دعوه ، فإنما يسأل الرجل ليعلم » .

فأفرجوا له حتى جلس .

فقال : أيٌّ شيء كان أول نبوتك ؟

قال : « أخذ الله الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ، ثم تلا : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ [1] وبشر بي المسيح ابن مريم .

ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام » .

فقال الأعرابي : هاه ، وأدنى منه رأسه ، وكان في سمعه شيء .

فقال النبي ﷺ : ووراء ذلك » .

قصة تدل على أن الراسخين في العلم من أهل الكتاب كانوا يعرفون علامات في شأنه :

١٢ - * روى ابن سعد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : سكن يهودي بمكة يبيع بها تجارات ، فلما كان ليلة ولد رسول الله ﷺ ، قال في مجلس من مجالس قريش : هل كان فيكم من مولود هذه الليلة ؟ قالوا : لا نعلمه ، قال : أخطأت والله حيث كنت أكره ، انظروا يامعشر قريش ، واحصوا ما أقول لكم : وُلِدَ الليلة نبيّ هذه الأمة أحمد الآخر . فإن

مه : اسكت .

سراج : هو المصباح الزاهر . هاه : بمعنى : ماذا تقول ؟ ووراء ذلك : أي وراء قصور الشام من البلاد .

(١) الأحزاب : ٤٥ .

١٢ - أخرجه ابن سعد ، قال : أخبرنا علي بن محمد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر وغيره عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، به . (الطبقات الكبرى : ١ / ١٦٢ - ١٦٣) .

الآخر : الخاتم . يبز أحبارهم : أي يغلبهم ويدحرهم ويبطل باطلهم . والبزز : الغلبة . ليسطون بكم : ليبطشن بكم وليقهرنكم .

أخطأكم فبفلسطين ، به شامةٌ بين كتفيه سوداء صفراء ، فيها شعرات متواترات ، فتصدع القوم من مجالسهم وهم يعجبون من حديثه ، فلما صاروا في منازلهم ذكروا لأهاليهم ، فقيل لبعضهم : وُلِدَ لعبد الله بن عبد المطلب الليلة غلام فسمّاه محمداً ، فالتقوا بعدُ من يومهم فأتوا اليهودي في منزله فقالوا : أعلمت أنه ولد فينا مولود ؟ قال : أبعد خبري أم قبله ؟ قالوا : قبله واسمه أحمد ، قال : فاذهبوا بنا إليه ، فخرجوا معه حتى دخلوا على أُمّه ، فأخرجته إليهم ، فرأى الشامة في ظهره ، فغشي على اليهودي ثم أفاق ، فقالوا : ويلك ! مالك ؟ قال : ذهبت النبوة من بني إسرائيل ، وخرج الكتاب من أيديهم ، وهذا مكتوب يقتلهم ويَبَزُّ أحبارهم ، فازت العرب بالنبوة ، أفرحتم يامعشر قريش ؟ أما والله لَيسطُونَّ بكم سَطْوَةً يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب .

تعليق :

تحدث العقاد في كتابه (مطلع النور) عن كتاب بعنوان (محمد في الأسفار الدينية العالمية) لمؤلفه (عبد الحق فدبارتي) ونقل منه نقولاً واضحة الدلالة على أن محمداً ﷺ مذكور في كتب العهدين القديم والجديد ، ومذكور في كتب الهند الدينية الساماڤيدا وغيرها ، وفي كتب الديانة الفارسية القديمة المنسوبة لزرادشت .

وقد نقلنا في كتابنا (الرسول ﷺ) الكثير من هذه النقول ، سواء ما كان منها موجوداً في هذا الكتاب أو في غيره ، ومن تتبع هذا الأمر في مصادره ، ومن تأمل النصوص والحوادث والأحداث يجد أن الأمر كان على غاية الوضوح عند أصحاب الديانات أن رسولاً عربياً اسمه محمد ﷺ سيبعث .

وقد ذكرنا الحديث الأخير هنا ليعلم أنه كان عند أهل الكتاب علامات كثيرة يتعرفون بها على الحدث الجلل والنبأ العظيم ، نبأ الرسالة الخاتمة ، وهذا معنى سيتأكد لك مرة بعد مرة .

أقول :

وقد أشارت الأحاديث إلى التمهيدات الكبرى التي قدمت لبعثته ونبوته ﷺ . ولقد اختير لرسول الله ﷺ الزمان والمكان والنسب والبيئة ، كما اختيرت له حتى الأسماء ، فكان في ذلك توفيق على توفيق ، وذلك من أعلام نبوته ﷺ .

وفي قصة بحيرا شاهد على أنه عليه الصلاة والسلام مبشر به :

١٣ - * روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال : خَرَجَ أبو طَالِبٍ إلى الشَّام ، وَخَرجَ مَعَهُ النبيُّ ﷺ في أشْيَاخٍ من قُرَيشٍ ، فَلَمّا أشرَفُوا على الرَّاهبِ هَبَطَ فَحَلُّوا رِحَالَهم ، فَخرجَ إليهِمَ الرَّاهبُ ، وكَانُوا قبلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فلا يخرجُ إليهم ولا يلتفتُ .

قال : فَهُم يَحُلونَ رِحَالَهُم، فَجَعلَ يَتَخَلَّلُهُم الرَّاهِبُ ، حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسول اللهِ ﷺ ، قال : هَذَا سَيِّدُ العَالَمِينَ ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ، يَبعَثُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلعَالَمينَ ، فقال لهُ أشيَاخٌ مِنْ قُرَيشٍ : مَا عِلْمُكَ ؟

فقالَ : إنَّكُم حِينَ أَشْرَفْتم مِنَ العَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ ولا حجرٌ إلاَّ خَرَّ سَاجداً وَلاَ يَسْجُدَانِ إلاَّ لِنَبيٍّ ، وإنِّي أعرِفهُ بِخَاتَمِ النُّبوَّةِ أسفَلَ مِنْ غُضروفِ كَتِفِهِ مِثلَ التُّفاحَةِ .

ثُمَّ رجَعَ فَصنَعَ لَهُم طَعَاماً ، فَلَمّا أتَاهُم بِهِ فكان هُوَ في رِعْيَةِ الإبلِ فقالَ : أرْسِلُوا إليه ، فأقبلَ وَعَليهِ غَمَامةٌ تُظِلّهُ ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ القَوْمِ وجَدَهُمْ قَدْ سَبقُوهُ إلى فَيْءِ الشَّجَرَةِ ، فَلَمَّا جَلسَ مَالَ فَيءُ الشَّجَرةِ عَلَيهِ ، فقالَ : انظُرُوا إلى فَيْءِ الشَّجَرةِ مَالَ عَلَيهِ .

قالَ : فَبَيَنَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيهِم وهو يُناشِدهُم أن لا يَذهبُوا بهِ إلى الرُّومِ ، فإنَّ الرُّومَ إن رأوهُ عَرفُوه بالصِّفَةِ فَيَقتلُونهُ ، فالتَفَتَ فإذا بِسَبْعةٍ قَدْ أقْبَلُوا من الرُّومِ فاسْتَقبلَهُمْ فقال : ما جَاءَ بِكُم ؟ قالوا : جِئْنَا أنَّ هَذَا النَبيَّ خَارِجٌ في هَذَا الشَّهرِ ، فَلَم يَبْقَ طَرِيقٌ إلا بُعِثَ إليهِ بأُناسٍ وإنَّا قَد أُخبِرنَا خَبَرهُ بُعِثْنَا إلى طَرِيقِكَ هَذَا ، فقال : هَل خَلْفَكُم أَحَدٌ هُو خَيرٌ مِنكُم ؟ قالوا : إنَّما اخترنا خيرةً لك بِطَرِيقِكَ هذا .

---

١٣ - الترمذي : (٥ / ٥٩٠) ٥٠ - كتاب المناقب - ١ - باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ . قال أبو عيسى : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه : وقد رواه البزار بنحوه .

وقد أقرَّ الترمذي على تحسينه ، لكن العلماء قالوا : ذِكْرُ بلالٍ فيه غير محفوظ ، وعدّه الأئمة وهماً ، فإن سنَّ النبي إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، وأبو بكر أصغر منه بسنتين ، وبلال لعله لم يكن في ذلك الوقت .

وفي رواية البزار : « وأرسل معه عمُّه رجلاً » ، ولعل ذكر أبي بكر وبلال مدرج في الحديث ، ووهم من أحد الرواة ، فإذا انتهى هذا الإشكال فقد صحح الحديث أكثر من محدث .

أشرفوا : اقتربوا . حلوا رحالهم : كناية عن التوقف عن المسير والاستراحة ، وإنزال حوائج الاستراحة عن الرواحل وهي الإبل . غضروف كتفه : رأس لوحة الكتف .

قالَ : أفَرَأيْتُم أمْراً أرَادَ اللهُ أن يَقْضِيَهُ ، هَلْ يَسْتَطِيعُ أحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ ؟ قَالُوا : لاَ . قالَ : فَبَايَعُوهُ وَأقَامُوا مَعَهُ قـال : أنْشُـدُكُم بـاللهِ أيُّكُمْ وَلِيُّـهُ ؟ قـالوا : أبُو طـالبٍ ، فلم يَزَلْ يُنَـاشِـدُهُ حتى رَدَّهُ أبُـو طَـالِبٍ وبَعَثَ مَعَـهُ أبُـو بكرٍ بـلاَلاً ، وزوَّدهُ الرَّاهِبُ مِنَ الكعـكِ والزَّيتِ .

فائدة حول موضوع الكشف للأولياء :

تحدثنا في كتابنا (تربيتنا الروحية) عمّا يسمّى في اصطلاح العلمـاء بـالكشف ، وذكرنـا هناك أدلة وجوده وإمكانية وقوعه ، وههنا نقول :

إنّ الكشف في حق الأنبيـاء معجزة ، وهو في حق الأوليـاء كرامـة ، فقـد يُكشف للنبي من أمر الغيب ، وقـد يكشف للنبي الشيء ولا يُكشف لمن هم معـه ، وذلـك يمكن أن يكون لأولياء هذه الأمة ، ومن سياق قصـة الراهب بحيرا نعلم أنـه من بقـايـا أهل الكتـاب الـذين حافظوا على ديانة المسيح نقية ، ومن ثم فإن تعليلنا لبعض ماورد فيها أنه كشف كوشف به الراهب بحيرا ، فلقد كوشف بأمر محمد ﷺ ، وكوشف بسجود الشجر والحجر له عليه الصلاة والسلام .

* * *

معه : يعني : بايعوا بحيراً ، ودخلوا معه في سلك الرهبنة .

فصل : في الميلاد

متى ولد رسول الله ﷺ ؟

١٤ - * روى الحاكم عن أبي قتادة ؛ أن أعرابيّاً سأل النبي ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال : « إن ذلك اليوم الذي وُلدتُ فيه وأُنْزِلَ عليَّ فيه » .

١٥ - * روى الترمذي عن قيس بن مخرمة قال : وُلِدتُ أنا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الفِيلِ ، وسأل عثمانُ بن عفّانَ قُبَاثَ بن أُشَيَمَ أخَا بني يَعْمَر بن ليثٍ : أأنت أكْبَرُ أم رسولُ اللهِ ﷺ ؟ فقال : رسولُ الله ﷺ أكبرُ منّي ، وأنا أقدمُ مِنهُ في المِيلادِ ، قال : ورأيت حَذْقَ الطيرِ أخضَرَ مَحِيلاً .

١٦ - روى الطبراني عن قَيْسِ بن مَخْرَمَة قال : وُلِد النبي ﷺ عامَ الفيل ، وبين الفِجار والفيل عشرون سنة ، وبين الفجار وبناء الكعبة خَمْسَ عشرةَ سنةً ، وبين بناء الكعبة ومَبْعَثه ﷺ خمس سنين ، فبُعث وهو ابنُ أربعين .

فائدة :

قال الشيخ الغزالي في فقه السيرة :

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم ، ومكانة أرض الحرم ، وهذه الشعائر بقية مما احترمه العرب من دين إبراهيم ، وكان احترامها مصدر نفع

---

١٤ - المستدرك (٢ / ٦٠٢) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

١٥ - الترمذي (٥ / ٥٨٩) ٥٠ - كتاب المناقب - ٢ - باب ما جاء في ميلاد النبي ﷺ . وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق .

حَذْقَ الطير : الحَذْقَ والذَّرْقَ والخُزْءُ ، كلها بمعنى واحد ، وهو العَذِرَةُ ، أي : براز الطائر . وقد قيل : إن المراد هنا الفيل لا الطير ، وهو يعني أن الراوي رأى براز الفيل أخضر محيلاً ، أي : بالياً قد دثر ، وذلك لأن ميلاد النبي ﷺ عام الفيل ، وهو أسن من النبي ﷺ ، كما ذكر وعلل ذلك بأنه رأى حذق الطير أو الفيل . ولأن رواية « حذق الطير » صحيحة ، فلعله أراد الطير التي أرسلها الله على أصحاب الفيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وذلك صحيح أيضاً .

١٦ - قال في مجمع الزوائد (٨ / ٢٥٧) : رواه الطبراني ، وفيه جعفر بن مهران السباك ، وقد وثق وفيه كلام ، وبقية رجاله ثقات .

الفجار : اسم للحروب التي اندلعت في الجاهلية في الأشهر الحرم .

كبير لهم ، وضماناً لانتظام مصالحهم وهدوء عداوتهم . كان الرجل يلقى قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات .

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتُلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم فيها ، وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة ، وليس هنا تفصيل خبرها ، وقد ظلت أربعة أعوام كان عُمْرُ (محمدٍ ﷺ) في أثنائها بين الخمسة عشرة والتسعة عشر ، قيل : قاتل فيها بنفسه . وقيل : بل أعان المقاتلين .

أقول :

اختير له ـ عليه الصلاة والسلام ـ في جملة ما اختير له عام الميلاد ، فكان ميلاده في عام الفيل ، وهو العام الذي وقع فيه أعظم حدث في تاريخ الجزيرة العربية وقتذاك ، مما مكن لقريش ولكعبتها .

* * *

ولد يتيماً ﷺ :

١٧ ـ *روى الحاكمُ عن قَيْسِ بن مَخْرَمَة أنه ذكَر وِلادَةَ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقال : تُوُفِّيَ أبوه وأمه حُبْلَى به .

أقول :

يذكر أهل السير أن أباه توفي في المدينة وأمّه حُبْلَى به ، وأن أمه توفيت بعد زيارة لقبر زوجها ، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ في السنة السادسة من عمره ، ودفنت بالأبواء ، وتوفي جدّه عبد المطلب بعد السنة الثامنة من مولده فانتقل إلى كفالة عمّه أبي طالب الذي كان فقيراً .

---

١٧ ـ المستدرك (٢ / ٦٠٥) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

تعليق حول الحكمة من هذا اليتم وذاك الفقر :

يقول الدكتور سعيد رمضان البوطي في كتابه فقه السيرة :

لقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكمٍ باهرةٍ ، لعل من أهمها أن لايكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة القلوب ، أو إيهام للناس بأن محمداً ﷺ إنما رضع لَبانَ دعوته ورسالته التي نادى بها منذ صباه ، بإرشادٍ وتوجيهٍ من أبيه وجده ، ولم لا ؟ وإنْ جده عبد المطلب كان صدراً في قومه ، فلقد كانت إليه الرفادة [1] والسقاية .

ومن الطبيعي أن يُربِّي الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه هذا الميراث .

لقد شاءت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن لايكون للمبطلين من سبيل إلى مثل هذه الريبة ، فنشأ رسوله بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجده ، وحتى فترة طفولته الأولى ، فقد أرادت حكمة الله عز وجل أن يقضيها في بادية بني سعد بعيداً عن أسرته كلها ، ولما توفي جده وانتقل إلى كفالة عمّه أبي طالب الذي امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات كان من تتمة هذه الحكمة أن لايُسلم عمه . حتى لايُتوهم أن لعمه مدخلاً في دعوته ، وأن المسألة مسألة قبيلةٍ وأسرةٍ وزعامةٍ ومنصب .

وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً ، تتولاه عناية الله وحدها ، بعيداً عن الذراع التي تمعن في تدليله ، والمال الذي يزيد في تنعيمه ، حتى لاتميل به نفسه إلى مجد المال والجاه ، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة ، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا ، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني .

* * *

---

(١) الرفادة : شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية ، أي : تتعاون به ، فيخرج كل إنسان بقدر طاقته فيجمعون مالاً عظيماً ، فيشترون به طعاماً وزبيباً ونبيذاً ، ويطعمون الناس ويسقونهم أيام موسم الحج حتى ينقضي .

فصل : في أسمائه ﷺ

١٨ ـ * روى البخاريُّ عن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« لي خمسةُ أسماءٍ : أنا محمدٌ ، وأنا أحمدُ ، وأنا الماحي الذي يمحُو الله بِيَ الكُفرَ ، وأنا الحاشرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قَدَمِي ، وأنا العاقِبُ » ، والعاقب الذي : ليس بعده نبي . وقد سماه الله رؤوفًا رحيمًا .

١٩ ـ * روى مسلم عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ يُسَمِّي لنا نفسه أسماءً فقال :

« أنا محمدٌ ، وأحمدُ ، والمقفِي ، والحاشرُ ، ونبي التوبةِ ، ونبي الرحمة » وفي رواية [1] « ونبي الملاحِم » ، وفي أخرى [2] : « وإذا كان يومُ القيامةِ كنتُ إمامَ المرسَلين ، وصاحب شفاعتهم » .

٢٠ ـ * روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مُذَمَّماً ، ويلعنون مُذَمَّماً ، وأنا محمد » .

---

١٨ ـ البخاري : (٦ / ٥٥٤) ٦١ ـ كتاب المناقب ـ ١٧ ـ باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ .
ومسلم : (٤ / ١٨٢٨) ٤٣ ـ كتاب الفضائل ـ ٣٤ ـ باب في أسمائه ﷺ ، وزاد فيه : « وأنا العاقب الذي ليس بعده أحدٌ » .

١٩ ـ أخرجه مسلم : (٤ / ١٨٢٨) ٤٣ ـ كتاب الفضائل ٣٤ ـ باب في أسمائه ﷺ .

٢٠ ـ البخاري : (٦ / ٥٥٤) ٦١ ـ كتاب المناقب ـ ١٧ ـ باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ .
والنسائي : (٦ / ١٥٩) ـ كتاب الطلاق ـ باب الإبانة والإفصاح بالكلمة الملفوظ بها إذا قصد بها لما لا يحتمل معناها لم توجب شيئاً ولم تثبت حكماً .

(١) هذه الرواية عند أحمد في مسنده (٤ / ٣٩٥) .

(٢) هذه الرواية عند الطبراني في الكبير والأوسط عن جابر .

تعليق :

أسماؤه ﷺ مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال .

فمحمد : اسم مفعول ، مشتق من الفعل المضعف حَمَّدَ ، فهو ﷺ يستجلب الحمد من الناس بصفاته وأقواله وأفعاله ، وهو محل الحمد ، ومن ههنا فهو محمد .

وأحمد : اسم على زنة أفعل التفضيل ، مشتق ـ أيضاً ـ من الحمد ، فهو ﷺ أكثر خلق الله حمداً لله ، فمن ههنا كان أحمد .

والحاشر الذي يحشر الناس على قدمه : بمعنى أنه ﷺ أول من يُحْشَر من الخلق ، ثم يحشر الناس على قدمه ، أي : على أثره ، وقيل : أراد ﷺ عهده وزمانه ، يقال : كان ذلك على رِجْلِ فلان وعلى قدم فلان ، أي : في عهده .

والمقفي : الذاهب المُوَلّي ، لأنه ﷺ آخر الأنبياء ، وإذا قَفَّى فلا نبي بعده . وقيل : المقفي المُتَّبع ، أراد أنه مُتَّبع النبيين .

ونبي الملاحم : الملاحم جمع ملحمة وهي من التلاحم في الحرب ، أي : التقاء اللحم باللحم ، أو التقاء السيف باللحم . وفي وصفه ﷺ لنفسه بأنه نبي الملاحم إشارة إلى المعارك الكبرى التي خاضتها أمته والتي ستخوضها ، كما أنه يمكن أن يكون فيها إشارة إلى أن عهد نبوته الممتد إلى قيام الساعة ستكون فيه معارك ضخمة ، وعلى هذا الفهم فالحربان العالميتان الأولى والثانية من جملة الملاحم .

* * *

٢١ ـ * روى الحاكم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :

« أنا أبو القاسم ، الله يعطي ، وأنا أقسم » .

---

٢١ ـ المستدرك (٢ / ٦٠٤) وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي . وأخرج الطبراني نحو ذلك في حديث صحيح .

أقول :

يفيد الحديث أن من مهاته ﷺ القسمة ، والقسمة تقتضي عدلاً ، ولذلك كان ﷺ يقبل على أصحابه إقبالاً واحداً في التربية والتعليم والتوجيه ، حتى ليكاد يظن كل واحد من أصحابه أنه أحب إليه مما سواه ثم إن كل إنسان يأخذ على قدر استعداده ، وذلك هو العطاء الرباني .

وفي هذا الباب أدب للدعاة أن يقبلوا على المريدين إقبالاً واحداً ، كما أن في ذلك درساً للذين يزهدون في بعض المريدين فمن يدري فقد يكون المزهود فيه خيرا من كثير من المرغوب فيهم ، وفي سورة (عبس) درس .

* * *

ما جاء عن رضاعه وتنشئته في البادية :

٢٢ - * روى أبو يعلَى عن حليمةَ بنت الحارث - أمّ رسول الله ﷺ السَّعْدِيَّة التي أرضعته - قالت : خرجت في نِسوة من بني سعدِ بن بكرٍ نلتمس الرُّضَعاء بمكةَ على أتانٍ لي قمراء قد أذَمّتْ بالرَّكب . قالت : وخرجنا في سنة شَهْبَاء لم تُبْقِ لنا شيئاً ، ومعي زوجي الحارث بن عبد العُزّى . قالت : ومعنا شارِفٌ لنا والله إن يَبِضُّ علينا بقطرة من لبن ، ومعي صبي لي ، إن ننام ليلتنا مع بكائه ، ما في ثديي ما يَمُصُّه ، وما في شارِفنا من لبن نَغْذُوه ، إلا أنا

٢٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٢٢١): رواه أبو يعلى ، والطبراني بنحوه ، إلا أنه قال : حليمة بنت أبي ذؤيب ، ورجالها ثقات .

الأتان : أنثى الحمار ، وجمعها : أُتُن ، وأُتّن . قمراء : أي صاحبة لون قريب إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة . أذَمّت الركب : حبستهم لضعفها وانقطاع سيرها سنة شهباء : لا خضرة فيها أو لا قطر . شارف : الشارف من السهام العتيق القديم ، ومن النوق المسنة الهرمة . تبض : بَضّ الماء يبض بضاً وبضوضاً وبضيضاً ، سال قليلاً قليلاً . نغذوه : أي نغذيه . رواء : من الري وهو ضد العطش . كُفّي علينا : بمعى انتظرينا . الحاضر : الحاضر والحضارة خلاف البادية ، والحضارة الإقامة في الحضر ، أي المدينة أو القرية التي يقيم الناس فيها إقامة دائمةً دونما ترحال . بطاناً : أي أن بطونها ملأى من الشبع ، لبناً : حافلة باللبن ، حفلاً : ممتلآت الضروع باللبن . الشِّعْب : الطريق بين جبلين . غلام جفر : استجفر الصبي ، بمعى : قوي على الأكل . ونحن أضن بشأنه : أصل الضن البخل ، والمعنى هنا : أننا نحرص على أنه يبقى معنا . يرعيان بُهْماً : مفردها بهمة ، وهي صغار الضأن . جاء أخوه يشتد : أي : جاء يعدو ، والشَّدُّ : العدو . شِهَابٌ : شعلة من نار ساطعة .

نرجو . فلما قَدِمنا مكة لم يبق منا امرأة إلا عُرِض عليها رسولُ الله ﷺ فتأباه ، وإنما كنَّا نرجو كرامة رضاعِه من والد المولود ، وكان يتيماً ، فكنا نقول ، ما عَسىَ أن تصنَع أمُّه . حتى لم يَبْقَ من صَوَاحِبي امرأةٌ إلا أخذت صبيّاً غيري ، وكَرِهْتُ أن أرجِع ولم آخذ شيئاً وقد أخذ صواحبي فقلت لزوجي : والله لأرجِعَنّ إلى ذلك فلآخُذَنّه .

قالت : فأتيته فأخذته فرجَعْته إلى رَحْلي ، فقال زوجي : قد أخذتيه ؟ فقلت : نعم ، والله ذاك أني لم أجد غيره . فقال : قد أصَبْتِ ، فعسى الله أن يجعل فيه خيراً . فقالت : والله ما هو إلا أن حملته في حِجْري ، قالت : فأقبل عليه ثديي بما شاء من اللبن . قالت : فشَرِب حتى رَوِي ، وَشرِبه أخوه ـ تعني ابنها ـ حتى روي ، وقام زوجي إلى شارِفنا من الليل فإذا هي حامل ، فحَلَبَت لنا ما شئنا ، فشَرِب حتى روي ، قالت : وشربت حتى رَوِيت ، فبِتْنا ليلتنا تلك بخيرٍ شِبَاعاً رِواءً ، وقد نام صبيُّنا . قالت يقول أبوه ـ يعني زوجها ـ : والله يا حليمةُ ما أراك إلا أصَبْتِ نِسْمةً مباركةً ، قد نام صبينا وروي . قالت : ثم خرجنا فوالله لخَرَجَتْ أتَاني أمام الرَّكب قد قَطَعَتْه ، حتى ما يبلُغونها ، حتى أنهم ليقُولُونَ : وَيْحَكِ يا بنت الحارث كُفِّي علينا : أليست هذه بأتانك التي خرجت عليها ، فأقول : بلى والله ، وهي قُدّامنا حتى قَدِمنا منازلنا من حاضر بني سعدِ بن بكرٍ .

فقدِمنا على أجدبِ أرضِ الله فوالذي نفسُ حليمةَ بيده إن كانوا ليسرحون أغنامهم إذا أصبحوا ويسرح راعي غنمي ، فتروح غنمي بطاناً لبناً حفلاً ، وتروح أغنامهم جياعًا هالكةً مَا بها من لبن . قال : فشرِبنا ما شئنا من لبن ، وما في الحاضر أحد يحلِب قَطْرة ولا يجدها . فيقولون لرعاتهم : ويلكم ألا تَسْرَحون حيث يسرح راعي حليمة . فيسرحون في الشِّعْبِ الذي يسرح فيه راعينا .

قالت : وكان ﷺ يَشِبُّ في اليوم شباب الصبي في شهر ، ويشب في الشهر شباب الصبي في سنة ، فبلغ ستًا وهو غلام جَفْرٌ . قالت : فقدمنا أمه فقلنا لها ، وقال لها أبوه : رُدوا علينا ابني فلنرجع به ، فإنا نخشَى عليه وباء مكة . قلت : ونحن أضنّ بشأنه لما رأينا من بركته قالت : فلمْ نَزَلْ بها حتى قالت : ارجعا به فرجعنا به .

فمكث عندنا شهرين قالت : فبَيْنا هو يلعب وأخوه يوماً خلف البيوت يَرْعَيان بَهْماً

لنـا ، إذ جـاءنـا أخـوه يَشْتَـدُّ ، فقـال لي ولأبيـه ، أدركا أخي القرشيّ ، قـد جـاءه رجـلان فأضْجَعاه ، فشَقَّا بطنَه . فخرَجْنا نحوَه نَشْتَدُّ ، فانتهينا إليـه وهو قـائم مُنْتَقِعٌ لونـهُ فـاعتَنَقَـه أبـوه واعتنقتُـه ، ثم قلنـا : مـالـك أي بُنَيَّ ؟ قـال : أتـاني رجـلان عليهما ثيـابٌ بيـاضٍ فأضجعاني ، ثم شَقَّا بطني ، فوالله ما أدري ما صنعا . قالت : فاحْتَملْناه فرجَعنا به . قـالت يقول أبوه : واللهِ يا حليمةُ ما أرى هذا الغلام إلا قد أُصيبَ ، فانطَلِقي فلنردَّه إلى أهلـه قبل أن يظهر به ما نتخوَّف عليه . قالت فقلت : لا والله إنـا كَفَفْنـاه وأدَّينـا الحق الـذي يَجِبُ علينا فيه . ثم تخوَّفْتَ الأحداث عليه . فقلت : يكون في أهله . قالت فقالت أمه : والله ما ذاك بكـا ، فـأخبراني خَبَرَكُما وخبره ، قـالت : فوالله مـازالت بنـا حتى أخبرنـاهـا خبره . قالت : فتخوفتُما عليه ، كلا والله إن لابني هذا لشأنـا ، ألا أخبرُكما عنـه ، إني حَمَلْت بـه فلم أرَ حمـلاً قـطٌّ كان أخفَّ ولا أعظمَ بركـةً منـه ، ثم رأيت نـوراً كأنـه شهـاب خرج من حين وضعته أضاءت لي أعنـاق الإبل ببُصرى ، ثم وضعتـه فمـا وقع كما تقع الصبيـان ، وقع واضعـاً يده بالأرض رافعاً رأسه إلى السماء . دَعَاه والحقا بشأنِكما .

فائدة حول تنشئته ﷺ في البادية :

قال الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة :

وتنشئـة الأولاد في البـاديـة ، ليرحـوا في كنف الطبيعـة ، ويستمتعـوا بجـوهـا الطلـق وشعـاعهـا المرسـل ، أدنى إلى تـزكيـة الفطرة وإنمـاء الأعضـاء والمشـاعر ، وإطـلاق الأفكار والعواطف .

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقـة كأنها علب أغلقت على من فيها ، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش .

ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود ـ فيما يعود إليـه ـ إلى البعد عن الطبيعة ، والإغراق في التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهـد الأول للطفل حتي تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجـد فيـه ، ويبـدو أن هـذا حُلْمٌ عَسِرُ التحقيق . أهـ .

فصل : في شق صدر النبي ﷺ وتكرار هذه الحادثة

* سبق ذكر ما ورد عن حليمة السعدية في مسألة شق الصدر ، في الفصل السابق .

٢٣ - * روى الحاكم عن عُتْبَةَ بن عبد السُّلمي أنَّ رَجُلاً سأل رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم : كيفَ كانَ أوَّلُ شأنِكَ يَا رسُولَ الله ؟ قال : « كَانَتْ حَاضِنَتي من بَني سَعْد ابن بكر ، فانطلقتُ أنا وابنٌ لها في بُهمٍ لنا ، ولم نأخُذ معنا زاداً فقلت : يا أخي اذْهَبْ فَأتِنا بزادٍ من عِنْد أُمِّنا فانطلَقَ أخي ، وكُنتُ عِنْدَ البَهْمِ ، فأقبَلَ طَيْرَانِ أبيَضَانِ كأنَّهما نِسْرَانِ فقالَ أحدُهُما لِصَاحِبِهِ : أهُوَ هُوَ ؟ قال : نعم . فأقبلا يَبْتدِرَاني فَأخَذَاني فَبَطَحاني لِلْقَفَاء ، فَشقَّا بَطْني ، ثم اسْتخرَجَا قَلْبي فَشقَاهُ ، فَأخْرَجَا مِنْهُ عَلقتَين سَوْدَاوَين ، فقال أحَدُهُما لِصَاحِبه : حِصْهُ - يَعْني خِطْهُ - واخْتِم عَلَيهِ بِخَاتَم النُّبوة ، فَقَال أحَدُهُما لصاحبه : اجْعَلْهُ في كفَّة ، واجْعَلْ ألفاً منْ أُمَّتهِ في كِفَّة ، فإذا أنا أنْظُر إلى الألف فَوْقِي أشفق أنْ يَخرُّوا عَلَيَّ ، فقالا : لَوْ أنَّ أمَّتهُ وُزِنت بهِ لمالَ بِهِم . ثم انطَلَقا وَتَرَكاني وَفَرِقتُ فَرَقاً شَديداً ، ثُمَّ انْطَلَقتُ إلى أمّي فَأخْبرتُها بالذي رَأيْتُ ، فأشفقتْ أن يَكُونَ قَدِ التبسَ بي فقالت : أعيذُكَ بالله ، فَرَحَلتْ بَعيراً لها فجعلتني على الرَّحل ، وَرَكِبَتْ خَلْفِي ، حَتّى بَلَغْنَا أُمّي فَقَالت : أدّيتُ أمانَتي وَذِمَّتي ، وَحَدثْتُها بالّذي لَقيتُ . فلم يَرُعْهَا ذلك ، فَقَالت : إني رأيْتُ خَرَج مِنّي نُوراً أضَاءَتْ مِنه قصور الشام » .

٢٤ - * روى مسلم عن أنس بن مالك : أنَّ رسولَ الله ﷺ أتَاهُ جبْريلُ عليهِ السَّلامُ - وهوَ يلعبُ مَعَ الغِلْمَانِ - فأخذهُ فَصَرَعهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فاستخْرجَ القلب ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقةً ، فقال : هذا حظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ من ذَهَبٍ بماء زَمْزَمَ ، ثم لأمَهُ ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكَانِهِ ، وَجَاءَ الغِلْمانُ يَسْعَونَ إلى أمِّهِ - يَعْني ظِئْرَهُ - فقالوا : إنَّ مُحمداً قد قُتِلَ، فاستقبلُوهُ وهو مُنْتقِعُ اللّون . قال أنس : وقد كُنْتُ أرى أثر ذلك المِخيطِ في صدرِهِ.

---

٢٣ - المستدرك (٢ / ٦١٦) ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

حاضنتي : الحاضنة هي التي تقوم على تربية الصغير مقام الأم . بَهْم : مفردها بهمة وهي الصغير من الضأن .

٢٤ - مسلم (١ / ١٤٧) ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .

العلقة : القطعة من الدم . لأمَه : جمعه وضم بعضه إلى بعض . ظئره : مرضعته : وهي حليمة ، ويقال أيضاً لزوج المرضعة ظئر . منتقع : يقال : انتقع لونه وامتُقع : إذا تغيَّر .

٢٥ - *** روى النسائي عن أنس - أيضاً - قال : إن الصلوات فُرِضتْ بِمَكَّةَ ، وإنَّ مَلَكَيْنِ أتيَا رسولَ اللهِ ﷺ فَذَهبَا بِهِ إلى زَمْزَمَ ، فشقَّا بَطْنَهُ ، وَأَخْرَجَا حَشْوهُ فِي طَستٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَغَسَلاهُ بِمَاء زَمْزَمَ ، ثم كَبَسَا جَوْفهُ حِكمَةً وَعِلماً .

أقول :

الحادثة التي أخرجها مسلم غير الحادثة التي ذكرها النسائي ، فتلك في الصحراء وهذه في مكة ، وهذه متأخرة .

٢٦ - *** روى عبد الله بن أحمد عن أُبيّ بن كَعْب ، أن أبا هُريرة كان حَرِيصاً على ان يَسْأَلَ رسُولَ الله ﷺ عن أشيَاءَ لا يَسْأَلُهُ عنها غيرهُ ، فقال : يا رسول الله ! ما أوّلَ ما رأيتَ من أمرِ النُّبوةِ ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً ، وقال : « لقد سألتَ أبا هريرة ، إنّي لَفِي صَحْراء ابن عَشْرِ سِنينَ وأشْهُرٍ ، وإذا بِكَلامٍ فَوْقَ رأْسِي ، وإذا بَرَجُلٍ يَقُولُ لرجلٍ : أهُوَ هُوَ ؟ قال : نعم ، فاسْتَقْبَلاَني بوُجُوهٍ لم أرَهَا الخلق قَطُّ ، وأرْواحٍ لم أجِدْهَا من خَلْقٍ قَطُّ ، وَثِيابٍ لم أرَهَا على أحَدٍ قَطُّ ، فأقْبَلاَ إليَّ يَمْشِيَانِ حَتّى أَخَذَ كلٌّ واحدٍ منهما بِعَضُدِي ، لا أجِدُ لأخْذِهِما مسّاً ، فقال أحدُهُما لِصَاحبِهِ : أضْجِعْهُ ، فَأَضْجَعَاني بِلا قَصْرٍ ولا هَصْرٍ ، فقال أحَدُهُما لِصَاحِبِهِ : أفْلق صَدْرَهُ . فَهَوى أحَدُهُما إلى صَدْرِي فَفَلَقَها - فِيمَا أرى - بلا دَمٍ ولا وَجَعٍ . فقال له : أخْرِجِ الغِلَّ والحَسدَ ، فأخْرَجَ شَيْئاً كَهَيئَةِ العَلَقةِ ، ثُمَّ نَبَذَها فَطَرَحَها ، فقالَ لَهُ : أدْخِلِ الرّحمَةَ والرّأفَةَ ، فإذا مِثْلُ الّذي أخْرَجَ شَبِيهَ الفِضّة ، ثُمَّ هَزَّ إبْهامَ رِجْلي اليُمنَى ، فقال : أغدُ وأسلم فرجعتُ بِهَا أغْدُو بها رِقّةً على الصَّغير ورَحْمَةً على الكبير » .

---

٢٥ - النسائي (١ / ٢٢٤) كتاب الصلاة - باب أين فرضت الصلاة .

٢٦ - رواه عبد الله بن أحمد في زياداته على أبيه ورجاله ثقات وثقهم ابن حبان .

لقد سألت أبا هريرة : أي : لقد سألت سؤالاً مهما يا أبا هريرة . **فأضجعاني بلا قصرٍ ولا هَصْرٍ** : القصر • الإجبار ، والهصر : الجذب والإمالة والكسر والدفع والمعنى أنهم شقوا صدره بكل لطف وحنان دون إجبار أو قسوة . **إفلق** : من الفَلَق وهو الشق ، وفلقه : شقّه .

فوائد حول حادثة شق الصدر :

١ ـ قال الشيخ الغزالي :

وهذه القصة التي روعت حليمة وزوجها ، ومحمد مسترضع فيهم ، نجدها قد تكررت مرة أخرى ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسول جاوز الخمسين من عمره ، فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال : بينا أنا في الحَطيم ـ وربما قال في الحجر ـ مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آتٍ ، فشق ما بين هذه إلى هذه ـ يعني ثغرة نحره إلى شعرته ـ قال : فاستخرج قلبي : ثم أتيت بطَست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم حُشيَ ثم أُعِيْدَ ... .

وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس ، فإذا كانت للشر (موجات) تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين ـ بتولي الله لها ـ لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها ، وبذلك يكون جهد المرسلين في (متابعة الترقي) لا في (مقاومة التدلي) وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته .

* * *

٢ ـ قال القسطلاني في المواهب :

وهذا الشق روي أنه وقع له ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرات في حال طفولته إرهاصاً ، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص .

* * *

٣ ـ أقول :

لقد ذكر العلماء أن هناك قلباً حسياً للإنسان يرتبط به ـ نوع ارتباط ـ القلب الذي هو محل الكفر والإيمان ومحل الرجاء والخوف والحب والبغض ، ولا شك أن الشق الحسي

استهدف القلب الثاني الذي هو غيب من الغيب ، وإن كان بعض ما يجري فيه وعليه محسّاً من الإنسان ، هذا القلب يمرض ، وتتراكم عليه تراكات ، وتطرأ عليه الحجب .

وتكرر حادثة الشق قبل النبوة أي قبل التكليف فيه إشارة إلى إرادة الله - عز وجل - في أن يبقى قلب محمد على حالة خاصة استصلاحاً وإعداداً ، وهذا يفيد أنّه حتّى أطهر القلوب يحتاج إلى شيء من عالم الأسباب ليبقى على صفاء ونقاء ، وتكرر حادثة شق الصدر قبيل الإسراء والمعراج فيه إشارة إلى أن بعض مقامات القلوب يحتاج إلى مزيد من الصفاء القلبي .

* * *

فصل : في رعيه ﷺ الغنم والحكمة من ذلك

٢٧ - * روى البخاريّ عن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « ما بَعثَ اللهُ نبيًّا إلا رَعَى الغنمَ » فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نعم ، كنتُ أرعاها على قَراريطَ لأهلِ مكةَ » .

فوائد :

١ - **عن حكمة رعي الغنم :** قال الحافظ في الفتح : قال العلماء : الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يجعل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم ؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة ، لأنهم إذا صبروا على رعيها ، وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق ، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها ، واحتياجها إلى المعاهدة ، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلاف طباعها ، وتفاوت عقولها ، فجبروا كسرها ،

---

٢٧ - البخاري : (٤ / ٤٤١) ٣٧ - كتاب الإجارة - ٢ - باب رعي الغنم على قراريط.
وأخرج نحوه ابن ماجه : (٢ / ٧٢٧) ١٢ - كتاب التجارات - ٥ - باب الصناعات مع خلاف يسير في اللفظ .
بالقراريط : يعني كل شاة بقيراط ، والقيراط هو من أجزاء الدينار ، وهو نصف عشره في أكثر البلاد ، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين .

ورفقوا بضعيفها ، وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة ؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم ، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر ، وبالإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة ، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها ، وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم أنه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمننه عليه وعلى إخوانه الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

٢ ـ **وعن الأخذ بالأسباب للتكسب** ؛ أقول : يتحدث بعض العلماء عن الأخذ بالأسباب ، وعن التجريد في موضوع كسب القوت ، ويعتبرون كُلاًّ منهما في محله هو الكمال . وهكذا كان شأن رسول الله ﷺ ، فقد كانت حياته قبل النبوة عملاً متواصلاً لكسب القوت ، فمن رعي غنم إلى رعي إبل إلى تجارة ، ومن إجارة إلى شركة ، وقد استمر هذا بعد النبوّة ضمن حدود ، حتى إذا اقتضت الدعوة الإسلامية تجريداً لم يبق لمحاولة الكسب محل ، فكان التجريد على أكمله ، فحتى فتحت خيبر لم يكن له ـ عليه الصلاة والسلام ـ معلوم في الرزق ، بل هو الزهد والعفة والتوكل ،وكلا المقامين من أعلام نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

* * *

فصل : في عصمته ﷺ مما يشينه حتى قبل البعثة

بناء البيت وعصمته من كشف العورة :

٢٨ - * روى الحاكم عن أبي الطفيل ، قال : لما بُني البيت كانَ النّاسُ ينقلونَ الحجارةَ والنبي ﷺ ينقلُ معهم ، فأخذَ الثوبَ ووضعهُ على عاتقهِ فنوديَ : لا تكشف عورتكَ ، فألقى الحجرَ ولبسَ ثوبهُ .

٢٩ - * روى البخاري عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : لمّا بُنيتِ الكعبةُ ذهبَ النبي ﷺ وعباسٌ ينقلانِ الحجارةَ ، فقال عباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتكَ يقكَ من الحجارة ، فخرَّ إلى الأرض ، وطمحت عيناهُ إلى السماء ، ثمَّ أفاقَ فقال : « إزاري إزاري » ، فشدَّ عليهِ إزاره .

قال في الفتح : وقد وردت رواية بنحوها وفيها : فما رئيَ بعد ذلك عرياناً ﷺ .

* * *

عصمته من فعل الجاهلية :

٣٠ - * روى الحاكم عن علي بن أبي طالب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هَمَمْتُ بما كان أهْلُ الجَاهِليةِ يُهمُّونَ به إلا مَرَّتَيْنِ من الدَّهْرِ ، كِلاهُمَا يَعْصِمُني اللهُ تعالى مِنْهما ، قلتُ ليْلةً لفتى كان مَعَي من قُريشٍ في أعْلى مَكَّةَ فِي أغْنَامٍ لأهْلها تُرعى : أبْصُر لي غَنَمي حتى أسْمُر هذه الليلةِ بمكةَ كما تَسْمُر الفِتْيانُ قال : نَعم ، فَخَرجتُ فلما جِئْتُ أدْنى دَارٍ من دُور مَكةَ سَمِعتُ غِنَاءً وَصوتَ دُفُوفٍ وَزَمرٍ فقلتُ : ما هذا ؟ قَالُوا فُلانٌ تَزوَّجَ فُلانةً لِرجُلٍ من قُرَيْشٍ تَزوّجَ امْرأةً ، فَلَهوتُ

---

٢٨ - المستدرك (٤ / ١٧٩) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

العاتق : التقاء الذراع بالكتف ، ويسمى بالمنكب أيضاً .

٢٩ - البخاري (٧ / ١٤٥) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٢٥ - باب بنيان الكعبة .

ومسلم (١ / ٢٦٨) ٣ - كتاب الحيض - ١٩ - باب ما يستتر به لقضاء الحاجة ، باختلاف يسير .

الإزار : ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن . طمحت : طمع بصري أي : امتد وعلا .

٣٠ - المستدرك (٢ / ٢٤٥) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي ، وقد ضعف بعضهم هذا الحديث .

بـذَلِـكَ الغنــاءَ والصَّـوتِ حتّى غلبتني عَيْني فنمتُ فَمَـا أَيقَظني إلا مَسُّ الشَّمْس ، فَرَجَعتُ فَسمِعتُ مِثْلَ ذَلِـكَ فَقِيلَ لي مِثلُ مـا قِيلَ لي فَلَهـوتُ بمـا سَمِعْتُ وَغَلَبتني عَيْني فَمَـا أيْقَظَنِي إلاّ مَسُّ الشَّمْس . ثم رَجَعتُ إلى صـاحِبي فقــال : مَـا فَعلْتَ فقلتُ : ما فَعَلتُ شيئاً . قـال رسول الله ﷺ : « فوالله مـا هَمَمتُ بَعْـدهـا أبـداً بِسَوءٍ مّما يَعْملُ أهْلُ الجاهِليةِ حَتّى أكرمني اللهُ تعالى بِنبُوتِهِ » .

تعليق :

في هذه الأحاديث مظهر من مظاهر حفظ الله لرسوله ﷺ من كل ما يتنافى مع الهمـة العلية والسيرة المرضية ، فالمرشحون لجلائل الأعمال لا يليق بهممهم أن تتوجـه إلى مثل هـذه الأفعال .

* * *

فصل : في حضوره ﷺ حلف الفضول

٣١ - * روى ابن سعـد عن جُبير بن مُطعم قـال : قـال رسول الله ﷺ : « مَـا أُحِبُّ أن لي بحلفٍ حضرتُه بدار ابن جُدْعَانَ حُمْرَ النَّعَم وَأنّي أغْـدِرُ بـه ، هَـاشِمٌ وَزُهْرَةُ وَتَيمٌ ، تَحَالَفُوا أن يكونوا مع المظلوم ما بَلّ بَحْرٌ صُوفـةً ، ولَوْ دُعيتُ بـهِ لأَجَبْتُ ، وهُوَ حِلْفُ الفُضُولِ » . قال محمد بن عمر : ولا نعلم أحداً سبق بني هاشم بهذا الحلف .

تعليق :

قـال ابن هشـام : وكان حلف الفضول بعـد الفجـار ، وذلـك أن حرب الفجـار كانت في شعبان ، وكان حلف الفضول في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة .

فوائد حول حادث حلف الفضول :

١ - قال الشيخ الغزالي في حلف الفضول :

أما حلف الفضول فهو دلالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها وكلحت شرورها ، فلن تخلو من نفوس تهزها معاني النبل ، وتستجيشها إلى النجدة والبر .

ففي الجـاهليـة الغـافلة نهض رجـال من أولي الخير ، وتواثقـوا بينهم على إقرار العـدالـة وحرب المظالم ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم . أ هـ .

٢ - هل يجوز لبعض المسلمين أن يتعـاقـدوا عقـداً كعقـد حلف الفضـول ؟ وهـل يجـوز للمسلمين أن يتعاقدوا عقداً مع غيرهم كعقد الفضول ؟

أقول :

لقد أوجب الله على المسلمين التعاون على البر والتقوى بقوله سبحانـه : ﴿ وتعـاونوا على

---

٣١ - ابن سعد في الطبقات (١ / ١٢٨) من طريق محمد بن عمر عن محمد بن عبد الله الزهري عن طلحة بن عبد الله بن عوف بن عبد الرحمن بن أزهر عن جبير بن مطعم .

البر والتقوى ﴾[1] فأن يتعاقد بعض المسلمين عقداً في مثل هذا ، فذلك جائز ، لأنه ليس إلا مجرد تأكيد لشيء مطلوب شرعاً ، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضرار ، بحيث يتحول التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين ظلماً وبغياً ، وأمّا تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم ، فذلك جائز لهم ، على أن تلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر وفي المستقبل ، وفي هذا الحديث دليل ، والدليل فيه هو استعداد الرسول ﷺ للاستجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف .

* * *

فصل : في الإجارة عند خديجة ثم زواجه ﷺ منها

٣٢ ـ * روى الحاكم عن جابرٍ ، قال : استأجَرَت خديجةُ ـ رُضوان الله عليها ـ رسول الله ﷺ سفرتين إلى جَرَشٍ ، كل سفرة بِقَلُوصٍ .

٣٣ ـ * روى الطبراني عن جابر بن سَمُرَةَ ـ أو رجل من أصحاب النبي ﷺ ـ قال : كان النبي ﷺ يرعى غنماً ، فاستَعْلَى الغنم فكان في الإبل ، هو وشَرِيكٌ له . فأكْرَيا أختَ خديجةَ ، فلما قَضَوْا السفر بَقِي لهم عليها شيء ، فجعل شريكُهم يأتيها فيتقاضاهم ، ويقول لمحمد : انطلق فيقول : اذهب أنت فإني أستَحِي . فقالت مرةً وأتاهم : فأين محمد ؟ قال : قد قلت له ، فزعم أنه يَسْتَحِي . فقالت : ما رأيت رجلاً أشدَّ حياءً ولا أعفَّ ولا ولا ، فوقع في نفسِ أختِها خديجةَ ، فبعثت إليه فقالت : ائت أبي فاخطبني . قال : أبوكِ رجل كثيرُ المال ، وهو لا يَفعل . قالت : انطلِقْ فالْقَه فكلِّمه فأنا أكفيك ، وائتِ عند سُكْرِه . ففعل ، فأتاه فزوَّجَه ، فلما أصبح جلس في المجلس ، فقيل له : أحسنت زوَّجتَ محمداً . فقال : أو قد فعلتُ . قالوا : نعم . فقام فدخل عليها فقال : إن الناس يقولون إني قد زَوَّجْتُ محمداً وما فعلتُ . قالت : بلَى فلا تسفِّهَنَ رأيك فإن محمداً كذا . فلم تَزَلْ به حتى رَضِي ، ثم بَعَثَتْ إلى محمد ﷺ بوَقِيَّتين من فِضة ، أو ذهبٍ وقالت : اشترِ حُلَّة وأهدِها لي وكبشاً وكذا وكذا ، ففعل .

٣٤ ـ * روى الطبراني عن ابن عباس ـ فيما يحسب حَمَّاد أن رسول الله ﷺ ذكر خديجةَ ، وكان أبوها يرغب عن أن يُزَوِّجَه ، فصنَعَتْ طعاماً وشراباً ، فدَعَتْ أباها ونفراً

---

٣٢ ـ المستدرك (٣ / ١٨٢) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

جرش : لعلها جرش المدينة الواقعة في شمال الأردن حالياً . قلوص : القلوص من الإبل الفتية المجتمعة الخلق ، وذلك من حين تركب إلى التاسعة من عمرها ثم هي ناقة .

٣٣ ـ قال الهيثمي : رواه الطبراني والبزار ـ ورجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة ، ورجال البزار أيضاً إلا شيخه أحمد بن يحيى الصوفي : ثقة . انظر : مجمع الزوائد (٩ / ٢٢١) كتاب المناقب ـ باب فضل خديجة بنت خويلد .

أكريا : الكراء معناه أجر المستأجر .

٣٤ ـ قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد والطبراني رجال الصحيح . انظر : مجمع الزوائد (٩ / ٢٢٠) كتاب المناقب ـ باب : فضل خديجة بنت خويلد . وراجع نفس الحديث عند أحمد في مسنده (١ / ٣١٢) .

من قريش ، فطَعِمُوا وشَرِبوا حتى ثَمِلُوا . فقالت خديجةُ : إن محمدَ بنَ عبدِ الله يخطُبني فزوِّجْني إيّاه . فَزوَّجَها إيّاه ، فخلعته وألبسته حَلَّةً ، وكذلك كانوا يفعلون بالآباء . فلما سري عنه سُكْرُه نظر فإذا هو مُخَلَق وعليه حُلة . فقال : ما شأني ؟ ما هذا ؟ قالت : زوجتني محمد بن عبد الله . فقالَ أنا أزوِّج يتيمَ أبي طالب إلا لعمري . قالت خديجةُ : ألا تستحيي ، تريد أن تسفِّه نفسَك عند قريش ، تخبر الناس أنك كنت سَكْرَان . فلم تَزَلْ به حتى رضي .

تعليق حول الروايات السابقة :

قال الواقدي : والثابت عندنا المحفوظ عن أهل العلم ، أن أباها (أي خديجة) خويلد ابن أسد مات قبل الفجار ، وأن عمّها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ .

أقول :

وفي زواج خديجة روايات كثيرة ، وإنما أثبتنا هنا ما ذكر في الأصول التي اعتمدناها ، وقد حمل بعضهم حملاتٍ منكرةً على هاتين الروايتين ، لما ذكر فيهما من إسكار خديجة والدها ، ولا أري في ذلك شيئاً ، بل هذا يدل على دهائها وحسن تأتيها للأمور ، إذ الوقت وقت جاهلية ولا تحليل فيه ولا تحريم ، وإذا انتفى المحظور ، فبالإمكان الجمع بين هاتين الروايتين والمشهور ، فقد تطلق العرب على العمّ أباً ، فيكون المراد بالأب في الروايتين عم خديجة ، إذا ثبت أن أباها كان متوفًّى وقتذاك .

* * *

فصل : في رجاحة عقله ﷺ وتلقيبه بالأمين قبل البعثة

٣٥ - * روى الإمام أحمد عن مجاهد عن مولاه أنَّهُ حدَّثَهُ أنَّهُ كانَ فيمن يبني الكعبةَ في الجاهلية ، قال : ولي حجرٌ أنا أنحتهُ بيدي أعبدهُ من دون الله تعالى ، فأجيءُ باللبنِ الخاثرِ الذي آنفه على نفسي فَأَصُبُّهُ عليه فيجيءُ الكلبُ فيلْحَسُهُ ثم يَشْغَرُ فيبُولُ ، فَبَنَيْنا حتّى بَلَغْنا مَوضِعَ الحَجَرِ ، وَمَا يَرى الحجرَ أحَدٌ ، فإذا هُوَ وسَطُ حِجَارتِنَا مِثْلُ رَأسِ الرَّجُلِ يَكَادُ يَتَراءى مِنْهُ وَجْهُ الرّجُلِ ، فقال بَطْنٌ من قُرَيْشٍ : نحنُ نَضَعُهُ ، وقال آخَرونَ : نحْنُ نَضَعُهُ فقالوا : اجْعَلُوا بينكُم حَكَماً ، قالوا أوَّلَ رَجُلٍ يَطْلُعُ من الفَجِ .

فَجَاء النَّبيُّ ﷺ فقالوا : أتاكُم الأمِينُ فَقَالُوا لَهُ فَوَضعهُ فِي ثَوْبٍ ، ثُمَّ دَعا بُطُونَهُمْ فَأَخَذُوا بِنواحِيهِ مَعَهُ فَوَضَعَهُ هُوَ ﷺ .

٣٦ - * روى الطبراني عن عليٍّ بن أبي طالبٍ - في بناء الكعبة - قال : لما رَأَوْا النبيَّ ﷺ قد دَخَلَ قالوا : قَدْ جاءَ الأمينُ .

فائدة حول تحكيمه ﷺ في وضع الحجر الأسود :

في حادثة تجديد بناء الكعبة تجد كال الحفظ الإلهي وكال التوفيق الإلهي في سيرة رسول الله ﷺ ، كا أنك تجد كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات بأقرب طريق وأسهله ، وذلك ما تراه في حياته كلّها ، وذلك مَعلم من معالم رسالته ، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق ، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله .

* * *

---

٣٥ - أحمد في مسنده (٣ / ٤٣٥) وقال الهيثمي في المجمع: وفيه هلال بن جناب وهو ثقة وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح.
اللبن الخاثر : الرائب . آنف : أنفاً وأنفه ، استنكف واستكبر ، يقال : فيهم أنف وأنفة . يشغر : أي يرفع الكلب إحدى رجليه ليبول . يتراءى منه وجه الرجل : أي كالمرآة . البطن : دون القبيلة ودون الفخذ . الفج : الطريق الواسع بين جبلين ، وجمعه : فجاج وأفجّة .

٣٦ - قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط ، ورجال الطبراني رجال الصحيح غير حفص بن عمر الضرير ، وخالد بن عرعرة ، وكلاهما ثقة . انظر : مجمع الزوائد (٨ / ٢٢٩) كتاب علامات النبوة - باب : ما كان يدعى به ﷺ قبل البعثة .

بركته ومحبة الناس له وثقتهم به :

٣٧ - * روى الحاكم عن كندير بن سعيد عن أبيه قال : حَجَجْتُ في الجاهِليّة فإذا أنا برجُلٍ يطُوفُ بِالبيْتِ وهو يَرْتجزُ ويقول :

رَبِّ رُدَّ إليَّ رَاكِبِي مُحَمَّـــــدا رُدَّهُ إليَّ واصْطَنِـعْ عِنْـدِي يَــدا

فقلت : من هذا ؟ فَقَالُوا : عبدُ المطلبِ بن هَاشِمٍ ، بَعَث بابن ابنه مُحمَّدٍ في طَلَب إبلٍ لهُ ولم يبعثْه في حاجةٍ إلاّ أنجح فيها ، وقد أبْطأ عليه ، فَلَم يَلْبث أن جَاء مُحمدٌ والإبلُ فَاعْتنقهُ ، وقال : يا بُنيّ لقد جَزِعْتُ عَلَيكَ جَزَعاً لم أجْزَعْهُ على شيءٍ قطُّ ، واللهِ لا أبْعَثُكَ في حَاجَةٍ أبداً ، ولا تُفارِقْني بَعد هذا أبداً .

أقول :

ذكرت هذا الحديث هنا ليعلم كيف أن البركة والحب والشفقة كانت تحيط برسول الله ﷺ دائماً وأبداً ، فبركته يحسها الجميع ، وكل من يعرفه يحبه أصفى الحب وأرقاه ،وكل من يخالطه يمتلىء قلبه ثقة به في صغره وكبره ، ولو أنك تتبعت الروايات التي سجلها كتّاب سيرته ﷺ لوجدتها كلها تنصب فيما ذكرناه .

٣٨ - * روى الحاكم عن صهيب قال : لقد صَحِبْتُ رسولَ الله ﷺ قبلَ أن يُوحَى إليه .

أقول :

نذكر هذا الحديث تأسيساً لموضوع سيطالعنا كثيراً ، وهو أن كل من عرف رسول الله ﷺ وخالطه قبل النبوة آمن به بعد النبوة كأشد ما يكون الإيمان وأرقاه ، وصهيب واحد من هؤلاء ، وذلك من أعلام نبوته ، فلولا أنّ حياته قبل النبوة تستدعي الإيمان به ، ما كان مخالطوه ليؤمنوا به على مثل هذه الشاكلة ، فهذه خديجة وزيد وأبو بكر ... وغيرهم .

---

٣٧ - المستدرك (٢ / ٦٠٣) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

٣٨ - المستدرك (٣ / ٤٠٠) ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

فصل : في مقدمات بعثته ﷺ

تطلعات إلى دين جديد صحيح :

٣٩ ـ * روى البخاري عن سالم بن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ لقي زيدَ بن عمرو بن نُفَيلٍ بأسفل بَلْدَح قبلَ أن ينزلَ على النبيِّ ﷺ الوَحيُ ، فقُدِّمَت إلى النبي ﷺ سُفرةٌ ، فأبى أن يأكلَ منها . ثم قال زيدٌ : إني لستُ آكلُ مما تَذْبَحُون على أنصابكم ، ولا آكلُ إلا ما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه ، وأن زيدَ بن عمروٍ كان يَعيبُ على قُريش ذَبائحَهم ويقول : الشاةُ خلقَها الله ، وأنزلَ لها من السماء ماء ، وأنبتَ لها منَ الأرض ، ثمَّ تذبحونها على غيرِ اسم الله ، إنكاراً لذلك وإعظاماً له .

٤٠ ـ * روى البخاري قال موسى : حدثني سالم بن عبد الله ـ ولا أعلمهُ إلاّ تحدَّث به عن ابن عمرَ ـ أنَّ زيدَ بن عمرو بن نُفَيلٍ خَرَج إلى الشام يَسألُ عن الدِّين ويَتبعهُ ، فلقي عالماً من اليهود فسألهُ عن دينهم فقال : إني لَعَلِّي أن أدِينَ دِينكم فأخبرْني . فقال : لا تكونَ على دِيننا حتى تأخُذَ بنصيبكَ من غضبِ الله . قال زيدٌ : ما أفِرُّ إلا من غَضَبِ الله ، ولا أحمِلُ من غَضَبِ الله شيئاً أبداً وأنّي أستطيعهُ ؟ فهل تدُلُّني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حَنيفاً ، قال زيد : وما الحَنيفُ ؟ قال : دِينُ إبراهيمَ ؛ لم يَكن يهودياً ولا نصرانيّاً ، ولا يَعبُدُ إلا الله . فخرجَ زيدٌ فلقيَ عالماً منَ النصارى ، فذكرَ مثلَه فقال : لن تكونَ على دِيننا حتى تأخذَ بنصيبك من لعنةِ الله . قال : ما أفِرُّ إلاّ من لعنةِ الله ، ولا أحمِلُ من لعنةِ الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنّي أستطيع ؟ فهل تَدُلُّني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكونَ حَنيفاً ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دينُ إبراهيم ، لم يكن يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولا يَعبُد إلا الله . فلما رأى زيدٌ قولهم في إبراهيم ـ عليه السلام ـ خرَجَ فلما برزَ رفع يديهِ فقال : اللَّهم إني أشهدُ أني على دِين إبراهيم .

٤١ ـ * روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت : رأيتُ زيدَ بن

---

٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ هذه الأحاديث الثلاثة أخرجها البخاري : (٧ / ١٤٢ ـ ١٤٣) ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٢٤ ـ باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

بَلْدَح : هو مكان في طريق التنعيم بمكة ، ويقال : هو وادٍ . أنصابكم : الأنصاب جمع نُصب ، وهي الحجارة التي كانوا

عمرو بن نُفَيل قائماً مُسنِداً ظَهرهُ إلى الكعبـةِ يقول : يـا مَعشرَ قُريش ، والله مـا منكم على دين إبراهيمَ غيري . وكان يُحْيي المَوْءودةَ ، يقول للرجُلِ إذا أرادَ أن يَقْتلَ ابنتَهُ : لا تَقتُلْها ، أنا أكفيكَ مُؤْنتها ، فيأخذهـا ، فـإذا ترعْرَعت قـال لأبيهـا : إن شئتَ دفَعتُهـا إليـك ، وإن شئتَ كفيتُك مُؤْنَتَها .

٤٢ - * روى أبو يعلى عن سعيد بن زيدٍ ، قال : سألتُ أنا وعمرُ بن الخطـاب رسول الله ﷺ عن زيدِ بن عمرو ، فقال : « يأتي يومَ القيامةِ أُمةً وحدَه » .

أقول :

ذكرت هذه الروايات عن زيد بن عمرو بن نفيل ههنا للإشعار بـأنـه كانت قبل البعثـة تطلعـات لـدين يروي ظمأ القلوب العطشى إلى الحـق ، ولكن هـذه التطلعـات كانت ترتـد خائبة ، فتجتهد ، وكل ما تصل إليه كان محدوداً ، وهذا كله من أعلام نبوته ﷺ ، فالنـاس بحـاجـة إلى دين صحيح ، والاجتهـادات لا تغني فتيلاً في هـذا الشـأن عن الوحي المعصوم ، فأن يظهر رجل يروي الظمأ ويقيم صرح دينٍ كلّه حق يملأ الساحة البشرية إلى قيام الساعة فذلك وحده دليل على أن الرجل رسول الله وعلى أنّ دينه دين الله .

ضلال العرب في عقائدهم وفساد تصرفاتهم :

٤٣ - * روى البخاري عن ابن عبـاس - رضيَ الله عنهما - قـال : إذا سَرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومـائـة من سورة الأنعـام : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ

= ينصبونها ويذبحون عليها القرابين . وقول زيد : « إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم » يشعر بـأنـه تَوَهَّم أن هـذا الذي دعي إليه قد ذبح على الأنصاب ، ولم يكن الأمر كذلك ، فرسول الله ﷺ كان يتحـاشى هـذا وأمثـالـه من أمر الجـاهليـة ، ومـا ورد من روايـات تفيـد ذلـك فرجعهـا إلى اختلاط بعض الرواة . الموءودة : هي الطفلـة التي كانوا يدفنونها وهي حية ، وذلك أنهم كانوا إذا ولد لهم بنت حفروا لها حفرة ودفنوها فيهـا وهي حيـة ، يحملهم على ذلـك الغَيْرة - في زعمهم - والبخل ، فحرم الله ذلك .

٤٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٤١٧) - كتاب المناقب - باب ما جاء في زيد بن عمرو بن نفيل : رواه أبو يعلى ، وإسناده حسن .

٤٣ - البخاري (٦ / ٥٥١) ٦١ - كتاب المناقب - ١٢ - باب قصة زمزم وجهل العرب .

سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله ﴿ ... قدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [(١)] .

أقول :

تذكر الآيات فيا بعد ذلك من سورة الأنعام أن العرب حرّموا الإناث من الأنعام كما اعتبروا أن ما يفعلونه من كفر وشرك يمثل مشيئة الله ، وتذكر هذه الآيات تكذيب العرب بالآيات واليوم الآخر ، وإشراكهم بالله عز وجل ، ولو أنك تتبعت نصوص الكتاب والسنة التي تتحدث عمّا كان عليه العرب وغيرهم قبل البعثة النبوية لرأيت عجباً ، ولخلصت إلى أنّ من أعلام النبوة أن يبعث الله محمداً ﷺ والحال على ما هي عليه ، لأنه لا أمل في أي نوع من الهداية للبشرية إلا بهذه البعثة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [(٢)] .

٤٤ - * روى البخاري عن عروةَ بن الزُّبير أن عائشةَ زوجَ النبي ﷺ أخبرتهُ أنَّ النكاحَ في الجاهلية كان على أربعةِ أنحاء : فنكاح منها نكاحُ الناس اليومَ يَخطُبُ الرجل إلى الرجل وليَّتَه أو ابنته فيُصدِقها ثم ينكِحُها ، ونكاحٌ آخرُ كان الرجلُ يقول لامرأتهِ إذا طَهُرتْ من طَمثِها : أرسلي إلى فلان فاستبضِعي منه ويَعتزلها زوجُها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حَملُها من ذلك الرجل الذي تَستَبضعُ منه ، فإذا تبين حَملها أصابها زوجها إذا أحبَّ ، وإنما يَفعلُ ذلك رغبة في نجابةِ الولَد ، فكان هذا النكاح نكاحَ الاستبضاع ، ونكاح آخر يجتمعُ الرَّهط مادونَ العشرةِ فيدخلون على المرأةِ كلهم يُصيبها ، فإذا حَملَت ووضَعت ومرَّ ليَال بعدَ أن تَضَع حملها أرسَلَت إليهم ، فلم يَستطع رجلٌ منهم أن يمتنعَ حتى يَجتمعوا عندَها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمرِكم ، وقد وَلدتُ ، فهو ابنُكَ يا فلان ، تُسمِّي من أحبَّتْ باسمه ،

---

٤٤ - البخاري (٩ / ١٨٢ - ١٨٣) ٦٧ - كتاب النكاح - ٣٦ - باب من قال : لا نكاح إلا بولي .

وأخرجه أبو داود (٢ / ٢٨١ - ٢٨٢) .

الطمث : الحيض والدم . الاستبضاع : هو استفعال من البضع وهو الجماع ، ودلك أن تطلب المرأة جماع الرجل لتنال منه الولد فقط . القافة : الذين يشبهون بين الناس ، فيثبتون النسب بالشبه فالتاط به : أي ألصقه بنفسه وجعله ولده .

(١) الأنعام : ١٤٠ .

(٢) البيّنة : ١ / ٣ .

فيلحقُ به وَلدَها لا يستطيعُ أن يمتنعَ به الرجل ، ونكاح رابع يجتمعُ الناس الكثير فيدخلونَ على المرأة لا تمنع من جاءها ، وهنَّ البغايا كُن يَنصبنَ على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادَهن دخَل عليهن ، فإذا حَملَت إحداهن وَوضَعت حَملها جمعوا لها ، ودعوا لهمُ القافةَ ، ثم ألحقوا ولدَها بالذي يَرَون ، فالتاطتة به ودُعِيَ ابنه لا يَمتَنعُ من ذلك . فلما بُعِثَ محمدٌ ﷺ بالحق هدَم نِكاحَ الجاهليةِ كله ، إلا نكاحَ الناس اليوم .

أقول :

هذا نموذج على ما كان عليه الحال في الجاهلية ، فإذا ما عرفت أن بعض النساء كن يطفن بالكعبة عاريات أدركت أين وصل الإسفاف في العبادات وفي العلاقات ، فإذا ما اجتمع لذلك عبادة الأصنام عرفت الرحمة الإلهية بالبشرية إذ بعث الله محمداً ﷺ فأعطى أصفى أنواع التوحيد وأرقى أنواع العبادة وأطهر أنواع المعاملات والآداب .

نقل حول ما وصل إليه العرب من سوء الأحوال وحاجتهم إلى الدين الجديد :

لخص الأستاذ الندوي الحال التي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله :

كانت الأوضاع الفاسدة ، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون في أفراد الناس ، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد ، أو إزالة عادة من العادات ، أو قبول عبادة من العبادات ، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر .

ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض جاهلية ، ووثنية تخريبية ، تراكمت عبر القرون والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين ، وجهود المصلحين والمعلمين ، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان ، واسع الأرجاء ، يسع العالم كله ، ويؤوي الأمم كلها ، قضية إنشاء إنسان جديد ، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء ، كأنه ولد من جديد ، أو عاش من جديد ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (١) قضية اقتلاع جرثومية الفساد واستئصال شأفة الوثنية ،واجتثاثها من جذورها ، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر ، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً لايتصور فوقه ، وغرس ميل إلى إرضاء الله وعبادته ، وخدمة الإنسانية ، والانتصار للحق ، يتغلب على كل رغبة ، ويقهر كل شهوة ، ويجرف بكل مقاومة ، وبالجملة الأخذ بحَجزِ الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة ، والسلوك بها على طريق أولها سعادة يحظى بها العارفون المؤمنون . وآخرها جنة الخلد التي وعد المتقون ، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قول الله ـ تعالى ـ في معرض المن ببعثة محمد ﷺ :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ (٢) .

* * *

الفترة التي بين عيسى ونبينا ـ عليهما الصلاة والسلام ـ :

٤٥ ـ * روى البخاري عن سلمانَ ـ رضي الله عنه ـ قال فَتْرةَ بَيْنَ عِيسىَ ومحمدٍ ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ستمائةُ سنةٍ .

نقل :

قال الحافظ في الفتح : المراد بالفَتْرَةِ المدة التي لا يبعث فيها رسول من الله ؛ ولا يمتنع أن ينبأ فيها من يدعو إلى شريعة الرسول الأخير ،ونقل ابن الجوزي الاتفاق على ما اقتضاه حديث سلمان هذا ، وتُعُقِّب بأن الخلاف في ذلك منقول ، فعن قتادة : .... خمسمائة وستين سنة أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه .

---

٤٥ ـ البخاري : (٧ / ٢٧٧) ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٥٣ ـ باب إسلام سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه .

(١) الأنعام : ١٢٢ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

أقول :

قد يكون مرجع الخلاف بين روايتي سلمان وقتادة إلى أن أحدهما اعتبر الزمن الواقع بين البعثة والبعثة ، وآخر اعتبر الزمن الواقع بين بعثة وميلاد ، ولا يترتب على ذلك حكم ، أو أن أحدهما اعتبر السنين الشمسية والآخر القمرية ، والمشهور أن بين المولدين ٥٧٠ سنة شمسية ، والقياس بالسنة الشمسية أو القمرية يترتب عليه فارق كبير .

ويلحظ من هذا الحديث طول فترة انقطاع الوحي ، مما يؤكد حاجة الناس إلى من يصحح لهم المسار ، ويربطهم من جديد بالسماء .

* * *

إرهاصات بنبوته ﷺ :

٤٦ - * روى مسلم عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف حجراً بمكة ، كان يُسَلِّم عَلَيَّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن » .

٤٧ - * روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لخديجة : « إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً وإني أخشى أن يكون بي جنن » . قالت : لم يكن الله ليفعل ذلك بك ياابن عبد الله . ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له فقال : إن يك صادقاً فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى ، فإن بعث وأنا حيٌّ فسأعزره وأنصره وأومن به .

فائدة :

في هذا الحديث والذي قبله مظهران من الإرهاصات والتمهيدات التي هيأت رسول الله ﷺ للأمر الجلل وهو استقبال الوحي .

---

٤٦ - مسلم : (٤ / ١٧٨٢) - ٤٣ - كتاب الفضائل - ١ - باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة .
والترمذي (٥ / ٥٩٣) ٥٠ - كتاب المناقب - ٥ - باب ما جاء في آيات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله به .
وقال : حديث حسن غريب .

٤٧ - رواه أحمد في مسنده (١ / ٣١٢) ، والطبراني بنحوه وزاد : وأعينه .
الناموس : صاحب السر المطلع على باطن أمرك ، أو صاحب سر الخير . وجبريل - عليه السلام - ، والظاهر أنه الوحي . عززه : شدده وقواه .

خاتمة الباب

ونختم هذا الباب بتعليق :

هـذه السيرة العـامرة العطرة النظيفـة قبـل النبـوة ، كانت من أعظم التمهيـدات للنبـوة وللثقة بصاحبها ، فإذا ما اجتمع إلى ذلك التمهيدات القديمة لهـذه النبوة ، فـإن رصيـداً ضخماً من المقدمات أوصل إلى أن يستقبل هذا العـالم النبوة الخـاتمـة كاستقبـال المطر ، فلا غرو أن تنتشر رسالته هذا الانتشار .

انظر إلى وصفه من قومه بالأمين قبل النبوة .

انظر إلى وصف خديجة له ـ بما معناه ـ من أنـه يصل الرحم ، ويحمل المنقطع ، ويقري الضيف ،ويغيث الملهوف ، ويعين على نوائب الحق .

ثم انظر إلى البشارات به في النبوات السابقة ، واصطفائـه من العرب الأمـة الفطريـة ، واختياره من ذرية إبراهيم لتكون له عراقة النبوة .

وانظر إلى مـا اختـــار الله لـــه من كمال الاسم والنسب والتركيب الخِلقي والخُلقي ، وإلى الإرهاصات التي رافقت حياته الأولى .

ثم انظر إلى ما سخره الله له وما هيأه لـه من علاقـات نظيفـة ، ومـا كان فيـه من فقر وعمل ويُتْمٍ وحلم وبُعد عن التطلعات الهابطة أو التطلعات الدنيوية .

فإنّك تجد في هذا كله قوة الأساس للمرحلة اللاحقة (مرحلة النبوة) .

إن هذا وغيره ليدلُ على أن قدر الله يسوق كل شيء لصالح هذه النبوة وهذه الرسـالـة ، فلقد سبقت هذه الرسالة بمرحلة ممتـدة في الزمـان . وُجِـدَت فيهـا كل المقـدمـات التي تخـدم الدعوة الخـاتمـة من مكانـة قريش بين العرب ، والنسب إلى إبراهيم ـ عليـه الصلاة والسلام ـ وحفظ النسب من السفاح والضياع ، وأخذ العهد على الأنبيـاء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن يؤمنوا بمحمدٍ إذا بعث ، وما سبق من تعميق قضية النبوة في الحياة البشرية .

كل ذلك كان مقدّمات خدمت الرسالة الخاتمة والدين الخاتم الذي ستطالب به البشرية كلها .

ولعل من أهم المقدمات التي تقدمت الدعوة الإسلامية فساد الدين والدنيا قبل البعثة ؛ فالنصوص الدينية حُرِّفت ، والتصورات خرفت ، والضمائر فسدت ، والظلم كثر ، والشهوات تحكمت ، والفطرة البشرية السليمة بدأت تتطلع إلى نبوة جديدة ورسول ، وجاءت النبوة والرسالة لمحمد بن عبد الله ﷺ .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

* * *

الباب الثاني

مِنَ

البعثة حتّى الاستقرار في المدينة

هذه المرحلة في سطور

* بعد ثلاث سنوات من العزلة والخلوة ، وبعد ستّة أشهر من الرؤيا الصادقة ، وفي يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من رمضان ليلاً ـ على ما رجّحه المباركفوري في (الرحيق المختوم) ـ وكان عمره إذ ذاك أربعين سنة قمرية وستة أشهر واثني عشر يوماً ، أي تسعة وثلاثين سنة شمسية وثلاثة أشهر واثني عشر يوماً ، نزل عليه الوحي .

* أخبر الرسول ﷺ خديجة بما حدث فطمأنته ، وأخبرت هي بدورها ورقة بن نوفل فطمأنها وبشّرها بأنها النبوة .

* فتر الوحي بعد ذلك أياماً لتذهب حرّة المفاجأة وليحدث التشوّق ، ثم ظهر له جبريل مرّة ثانية جالساً على كرسيٍّ بين السماء والأرض ، فعاد إلى أهله طالباً التزَمُّل والتَّدثُّر فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ... ﴾ و ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * ... ﴾ ، وكان في ذلك الأمر بالتبليغ والدعوة .

* بدأ الرسول ﷺ يدعو سراً ، واستمرت الدعوة السرية ثلاث سنين ، ثم دعا جهراً في مكة ، فلم يتحرك أحد من أهلها أو ممن حولها أو ممن يأتي إليها حاجّاً أو معتمراً إلا وقد حاول إيصال الدعوة إليه ، على مدى سبع سنين بعد الدعوة السرية ، ثم حاول أن يخرج بالدعوة إلى الطائف في السنة العاشرة ، ولكن أهل الطائف لم يستجيبوا له ، فعاد إلى مكة ودخلها في حماية المطعم بن عدي ، ثم بعد ذلك وعلى مدار ثلاث سنوات دخل الإسلام إلى المدينة المنورة ، وتمت في السنتين الأخيرتين بيعتا العقبة الأولى والثانية ، ثم كان الإذن بالهجرة والاستقرار في المدينة .

* استجاب للدعوة خلال المرحلة السرية حوالي أربعين نفراً ـ ويرى بعضهم أن هذا العدد لم يكتمل إلا في السنة السادسة أي بعد ثلاث سنين من الجهر على رأي ابن هشام ـ وكانت الصلاة المفروضة عليهم وقتذاك ـ وبقي هذا حتى حادثة الإسراء ـ ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ـ على قولٍ ـ ، وقد فرض عليهم في المرحلة الأولى قيام الليل .

* بدأت الدعوة الجهرية بدعوة عشيرته الأقربين جهراً ، دعوةً جماعيةً ، ثم دعا قريشاً

جميعها دعوةً جماعيةً ، ثم بدأ ينقض البنيان الديني للناس نقضاً مباشراً وصريحاً ؛ وههنا بدأ أصعب صراع وأشده ، ومنذ المرحلة السرية بدأ الكيد يأخذ أبعاده الكثيرة المتعددة ، والإيذاء ينصب على المسلمين الذين لا يجدون حماية .

* ثم زاد الأمر شدة فتمخض ذلك عن الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وانطلق أول فوج في رجب من السنة الخامسة للبعثة وكان مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة .

* ثم حدثت حادثة مشاركة المشركين لرسول الله ﷺ في سجوده إثر تلاوة سورة (النجم) ، فبلغ ذلك مهاجري الحبشة فظنوا أن قريشاً أسلمت فرجعوا ، ثم تبين لهم كذب الشائعة فرجع بعضهم إلى الحبشة ، ودخل بعضهم مكة مستخفياً أو في جوار ، واشتد البلاء على المسلمين ، فكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وفي هذه المرة هاجر ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة أو تسع عشرة امرأة ، وكادت قريش للمسلمين عند النجاشي ولكنها لم تفلح .

* ثم لجأت قريش إلى تهديد أبي طالب وإغرائه ليتخلى عن محمد ﷺ أو يُسْلِمه إياها ، فباءت محاولاتها بالفشل .

* وأسلم في السنة السادسة للبعثة حمزة وعمر بن الخطاب وكان إسلامهما نصراً وفتحاً ، وههنا مالت قريش للمفاوضة والمسالمة فلم تنجح ، وجدّ أبو طالب في الحماية فعبّأ بني هاشم وبني المطلب لذلك . فاجتمعوا على ذلك ما عدا أبا لهب .

* وعلى إثر هذا كله تعاقدت قريش في السنة السابعة للبعثة على مقاطعة المسلمين ومقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم ، حتى يُسْلِمُوا إليهم رسول الله ﷺ . وكانت محنةً عظيمة استمرت ثلاث سنين .

* وفي المحرم سنة عشر من النبوّة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق بتوفيق من الله ، تم بترتيب من بعض المتعاطفين وأصحاب الأريحية .

* ثم حاولت قريش المحاولة الأخيرة مع أبي طالب ليثنوا محمداً ﷺ عن دعوته ، وهو

على فراش المرض ، فلم تنجح .

* وكان العام العاشر للبعثة عام حزن ، فقد توفي فيه أبو طالب في رجب سنة عشر للبعثة بعد الخروج من الشعب بستة أشهر ، وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين - على قولٍ - توفيت أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة ولها خمس وستون سنة ورسول الله ﷺ في الخمسين من عمره ، وفقد بذلك الدعم البيتي والدعم الخارجي ، ولله في ذلك حكمة ، وتجرأ المشركون على رسول الله ﷺ وزادوا في أذاه ، فخرج إلى الطائف لعله يجد أرضاً أكثر خصباً ، ولكن لم يجد استجابة .

* وفي شوال من السنة العاشرة تزوج رسول الله ﷺ سودةَ بنت زمعة - رضي الله عنها - على إثر وفاة خديجة ، وكانت ممن أسلم قديماً وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو الذي توفي بأرض الحبشة أو بعد العودة إلى مكة .

* وفي موسم الحج في السنة الحادية عشرة من النبوة دخلت الكوكبة الأولى من خزرج المدينة في الإسلام وكانوا ستة وعادوا دعاة مبشرين ، ففشا ذكر الرسول ﷺ في المدينة ، وفي شوال من نفس السنة عقد رسول الله ﷺ على عائشة - رضي الله عنها - وكانت صغيرة السن ؛ لذلك لم يدخل بها إلا بعد الهجرة .

* وفي هذه المرحلة حدثت حادثة الإسراء - على خلاف كبير في تعيين زمنها ، هل هو في السابع والعشرين من رجب في السنة العاشرة للبعثة ؟ أم في رمضان في السنة الثانية عشرة للبعثة ؟ أو المحرم في السنة الثالثة عشرة للبعثة ؟ أو ربيع الأول في السنة الثالثة عشرة ؟ وهناك أقوال أخرى . وأشهر الأقوال وأقواها القول الأول .

* وفي السنة الثانية عشر للبعثة وافى موسم الحج اثنا عشر نفراً من المدينة منهم خمسة سبقوا في العام السابق وسبعة جدد وكانت بيعة ، وأرسل رسول الله ﷺ مع هؤلاء مصعب ابن عمير ليعلمهم ويفقههم ويقرئهم القرآن ويدعو إلى الله ، وانتشر الإسلام في المدينة .

* وفي موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة تمت بيعة العقبة الثانية مع بضع وسبعين نفراً من أهل المدينة المنورة ، واختاروا بأمر النبي ﷺ اثني عشر نقيباً منهم .

* جاء بعد ذلك الإذن بالهجرة ، وتآمرت قريش على رسول الله ﷺ ليقتلوه وأنجاه الله منهم ، وكانت الهجرة ، وتمَّ الاستقرار في المدينة ، وكانت مرحلة جديدة .

* * *

من ملامح هذه المرحلة

١ - إنها مرحلة تبليغ ودعوة مستمرين ، فلقد سمع بالدعوة كل العرب تقريباً ، ولقد استفاد رسول الله ﷺ من موسم الحج ، فبلّغ تبليغاً مباشراً على مدى سنوات كل من استطاع الوصول إليهم .

قال المقريزي :

ثم عرض نفسه على القبائل أيام الحج ، ودعاهم إلى الإسلام وهم : بنو عامر وغسان وبنو فَزَارة وبنو مرّة وبنو حنيفة وبنو سليم وبنو عبس وبنو نصر وثعلبة بن عكابة وكِنْدة وكلب وبنو الحارث بن كعب وبنو عُذْرَة وقيسٌ بن الخطيم وأبو الحَيْسر أنس بن أبي رافع وبنو شيبان وبنو مجاشع وسويد بن الصامت والطفيل بن عمرو الدوسي وضمام بن ثعلبة .

وقد اقتصَّ الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة قبيلة .

ويقال : إنه ﷺ بدأ بكِنْدة فدعاهم إلى الإسلام ثم أتى كلباً ثم بني حنيفة ثم بني عامر ، وجعل يقول : مَنْ رجُلٌ يحملُني إلى قَوْمه فيمنعَني حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ رسالة ربي ؟ هذا ؛ وعمُّه أبو لَهَب وراءه يقول للناس : لا تسمعوا منه فإنه كذّاب . وكان أحْيَاء العرب يتحامَوْنه لما يسمعون من قريش فيه : إنه كاذِب ، إنه ساحرٌ ، إنه كاهن ، إنه شاعر ، أكاذيب يقترفونَهَ بها حسداً من عند أنفسهم وبَغْياً ؛ فيُصْغِي إليهم من لا تمييز له من أحياء العرب ، وأمّا الألِبّاء فإنهم إذا سمعوا كلامَهُ ﷺ وتفهّموه شهدوا بأنّ ما يقوله حقّ وصدقٌ ، وأن قومه يفترون عليه الكذب ، فيسلمون .

٢ - إنها مرحلة تكوين رفيع المستوى للجيل الأول ، فقد انصهر فيها ذلك الجيل بالمعاني القرآنية واحترق بمعاني العبادة ، وخرج ذهباً من محنة الاضطهاد والإيذاء

والتشكيك ، وتجرّد للآخرة حق التجرد ، وانسلخ عن الجاهلية انسلاخاً تاماً ، وبذلك وُجِدَ الجيل القادر على حمل الدعوة وصَهْرِ الناس فيها ، حتى إذا جاءت مرحلة الدولة في المدينة المنورة كان الملاك القيادي معداً .

لقد كانت المرحلة المكية مرحلة تعريف وتكوين ، وضع فيها الأساس للعمل الدعوي والتكويني إلى قيام الساعة ، كما أنها المرحلة التي تعد لأعباء المرحلة اللاحقة مرحلة الجهاد المتواصل ، على أعلى وأرقى ما يكون .

لقد كانت مرحلة مران على ضبط النفس والطاعة المطلقة ، وكانت مرحلة تعلق بالمثل العليا ـ وهم رسل الله صلى الله عليهم جميعاً ـ ولذلك نزلت أكثر قصص الأنبياء في هذه المرحلة .

وقد أخذ الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ من هذه المرحلة والمرحلة اللاحقة فكرته الرئيسية : أن الدعوة الإسلامية تمر بثلاث مراحل : **مرحلة التعريف ومرحلة التكوين ومرحلة التنفيذ** . ولقد صاغ نظريته هذه متأسياً بالسيرة ، ومنسجماً مع اكتمال الوحي واستقرار التشريع ، وملاحظاً الأوضاع المعاصرة للمسلمين ، فكانت نظرية لا أجمل منها ولا أكمل .

٣ ـ وتجد في هذه المرحلة أن الرسول ﷺ كان **يتجنّب الصراع السياسي والصراع العسكري** ، ويكرّس كل جهوده للوصول بالدعوة إلى قلوب الناس وعقولهم ، دون أن يعطي لعدوه فرصة الاستئصال للدعوة والداعية ، بل كان كثير الحرص على تأمين الحماية للدعوة والداعية والمستجيبين ، ولقد عدّد الطرق التي تتأمّن بها الحماية : فمن دخول في حماية ، إلى أمر بهجرة ، إلى طلب لبعضهم أن يعيشوا في أكناف قبائلهم مستفيداً من الأعراف والعادات والتقاليد .

وهذا وضع يجب أن يفطن له الدعاة فلا يعطوا فرصاً لخصومهم كي يستأصلوهم ، وعليهم أن يستفيدوا من الأعراف الدولية والقوانين المحلية ليعطوا لدعوتهم فرصة السير .

٤ ـ كما أنه من الواضح في هذه المرحلة أن الرسول ﷺ كان دائب **البحث عن الجهة القادرة على حماية هذا الدين ونصرته والقيام بنشره** ، وفي اصطلاح عصرنا كان دائم

البحث عمّا تقوم به دولة للإسلام يعيش المسلمون في ظلها أحراراً آمنين ، وتقوم هذه الدولة بحمل الإسلام والتبشير به والانتصار له ولأهله ، وجاءت الفرصة بقبول الأوس والخزرج القيام بهذا الدور ، وبذلك قامت دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة ، وهذا درس للدعاة ألا تقف هممهم دون الوصول إلى دولة للإسلام تقيه في واقع الحياة وتحمي حماه .

٥ ـ **إنها مرحلة بطيئة من حيث الكم كبيرة من حيث الكيف** ؛ لأنها المرحلة التي تمهد لكل المراحل اللاحقة إلى قيام الساعة .

* * *

فصل : في بدء الوحي وفترته واستئنافه

٤٨ ـ * روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : أولُ ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي : الرُّؤيا الصالحةُ في النَّوم ، فكان لا يَرَى رؤيا إلا جاءَتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبح ، ثم حُبِّبَ إليهِ الخلاءُ ، وكان يخْلُو بغارِ حِرَاءٍ ، فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبُّد ـ الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزوَّد لذلك ، ثُمَّ يرجعُ إلى خديجةَ ، فيَتَزوَّد لِمثْلِهَا .

حتَّى جَاءَهُ الحق ـ وفي رواية : حتَّى فَجَأهُ الحقُّ ـ وهو في غارِ حراءٍ ، فجاءَهُ المَلَكُ ، فقال : اقْرَأ ، قال : ما أنا بقارئٍ ، قال : فأخذني فغطّني ، حتى بلغ مني الجَهْدُ ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئٍ ، فأخذني فَغَطَّني الثَّانية ، حتَّى بلغ منِّي الجهدُ ، ثم أرْسَلَنِي ، فقال : اقْرَأ ، فقلتُ : ما أَنَا بقَارئٍ !؟ فأخَذَني فَغَطَّني الثَّالِثَة ، ثم أَرْسَلني ،

---

٤٨ ـ البخاري (١ / ٢٢) ١ ـ كتاب بدء الوحي .

٣ ـ باب حدثنا يحيى بن بكير .

مسلم (١ / ١٣٩) ١ ـ كتاب الإيمان ـ ٧٣ ـ باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

التحنُّث : التعبد وهو أن يفعل فعلاً يخرج به من الحنث ، وهو الإثم . **نزعتُ إلى أهلي** : أي رجعت . **غطّه** : إذا حطه بشدة كا يغطه في الماء إذا بالغ في حطه فيه . **الجَهْد** : بفتح الجيم : المشقة ، وبضمها : الطاقة ، وقيل : هما لغتان . **زَمّلُوني** : التزميل والتدثير : واحد وهو التغطية والتلفُّف في الثوب . **لقد خشيت على نفسي** : تكلم العلماء في معنى هذه الخشية بأقوال كثيرة : فذهب أبو بكر الإسماعيلي إلى أن هذه الخشية كانت منه قبل أن يحصل له العلم بأن الذي جاءه ملك من عند الله ، وكان أشق شي عليه أن يقال عنه : مجنون . وقد قيل في قوله : « لقد خشيت على نفسي » ، أي : خشيت ألا أنهض بأعباء النبوة ، وأن أضعف عنها ، ثم أزال الله خشيته ، ورزقه الأيد والقوة والثبات والعصمة . وقد قيل : إن خشيته كانت من قومه أن يقتلوه ، ولا غَرْوَ ، فإنه بشر يخشى من القتل والإذاية الشديدة ما يخشاه البشر ، ثم يُهوّن عليه الصبر في ذات الله كل خشية ، ويجلب إلى قلبه كل شجاعة وقوة . **الكلّ** : الأثقال والحوائج المهمّة والعيال ، وكل ما يتكلفه الإنسان من الأحوال ، ويحمله عن غيره فهو كلّ . **تكسب المعدوم** : جعل الكسب لنفسه وأنه يصل إلى كل معدوم وينـاله فلا يتعذر عليه لتعذره . وقيل : أي يعطي الشيء المعدوم غيره ويوصله إلى كل من هو معدوم عنده . ويقال كسبت مالاً : وكسبت زيداً مالاً : أي أعنته على كسبه ومنهم من عدّاه بالهمزة ، يقال : أكسبت زيداً مالاً ، أي جعلته يكسبه . والقول الثاني أولى القولين ، لأنه أشبه بما قبله في باب التفضل والإنعام ، إذ لا إنعام أن يكسب هو لنفسه مالا كان معدوماً عنده ، وباب الحظ والسعادة في الاكتساب غير باب التفضل والإنعام . **الناموس** : صاحبُ سرِّ الملك الذي لا يحضر إلا بخير ، ولا يُظهر إلا الجميل ، وسمّي جبريل عليه السلام ناموساً ، لأنه مخصوص بالوحي والغيب الذي لا يطلع عليه أحد من الملائكة سواه . =

فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [١] .

فرجعَ بها رسولُ الله ﷺ يَرجُفُ فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خُويلد - رضي الله عنها - فقال : « زمِّلُوني ، زمِّلُوني ، زَمِّلُوني » فزَمَّلُوهُ حتى ذَهَبَ عنه الرَّوْعُ ، فقال لخديجةَ - وأخبَرَها الخبَر -: « لقد خَشيتُ على نفْسي » فقالت خديجةُ : كَلا ، والله ما يخزيكَ اللهُ أبداً ، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَحْمِلُ الكَلَّ ، وتكسِبُ المعْدومَ ، وتَقْري الضيْفَ ، وتُعينُ على نَوائبِ الحقِ .

فانطلقتْ بهِ خديجةُ ، حتى أَتتْ به ورَقةَ بن نَوْفَل بن أسدِ بن عبد العُزّى ابنَ عَمِّ خديجة - وكان امْرءاً تَنَصَّر في الجاهلية ، وكان يكتبُ الكِتابَ العِبْرانيَّ ، فيكتُب من الإنجيلِ بالعِبْرانيَّة ما شاء اللهُ أن يَكْتُبَ ، وكان شَيْخاً كَبيراً قد عَمِيَ - فقالت لهُ خديجةُ : يا ابن عَمِّ ، اسمعْ من ابن أخيكَ ، فقال له ورقةُ : يا ابن أخِي ، ماذا تَرَى ؟ فأخبرهُ رسولُ الله ﷺ خبرَ ما رأى ، فقال له ورقةُ : هذا النَّامُوسُ الذي نزَّلَ اللهُ على موسى ، ياليتني فيها جَذَعاً ، ليتني أكونُ حَيّاً إذ يُخرِجُكَ قَوْمُكَ ، فقال رسول الله ﷺ : « أو مُخْرجيَّ هم ؟ » قال : نعم ، لم يَأْت رَجُلٌ قطُّ بمثلِ ما جئْتَ به إلا عُودِيَ ، وإن يُدْرِكني يومُكَ أنْصرْكَ نَصْرًا مؤزَّراً ، ثم لم ينشب ورقةُ أن تُوفِّيَ ، وفَتَرَ الوحي .

قال البخاري : وتابعه هلال بن رَدَّاد عن الزهري . وقال يونس ومعمر : (ترجُف بوادره)

وفي حديث معمر عن الزهري عند مسلم (فوالله لا يحْزنك الله أبدًا) بالحاء والنون .

وزاد البخاري[٢] في رواية أخرى قال : (وَفَتَرَ الوحيُ فَتَرةً ، حتى حَزِنَ النَّبيُ ﷺ -

---

= جَذَعًا: الجَذَع هاهنا : كناية عن الشباب، يقول : ياليتني كنت شابًا عند ظهورك لأنصرك وأعينك. نصرًا مؤزرًا : أي: مؤكدًا قويًا . ترجف: تخفق وبوادره جمع بادرة ، وهي اللحمة تكون بين عنق الإنسان ومنكبه، وكذلك في غير الإنسان .

(١) العلق : ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) البخاري (١٢ / ٣٥٢) ٩١ - كتاب التعبير - ١ - باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة .
يتردّى : التردي : الوقوع من وضع عال . الشواهق : الجبال العالية ، الواحد : شاهق . أوفى : أشرف على الشيء . وذروة كل شيء : أعلاه . الجأش : الجنان والقلب .

فيما بَلَغَنَا ـ حُزناً غـدا مِنـه مِراراً كي يتردَّى من رُؤوسِ شَواهِقِ الجبـال ، فَكُلَّمَـا أوفى بـذِروةِ جبلٍ لِكَي يُلقيَ نفسـهُ مِنـهُ : تَبَـدَّى لـه جِبْرِيلُ ، فقـال : يـا مُحَمَّد إنَّـك رسولُ الله حقـاً، فيسكُنُ لذلكَ جَأشُه وتَقرُّ نفسُهُ فيرجعُ ، فإذا طَالَت عَليهِ فَتْرَةُ الوَحْي غَدَا لِمثلِ ذلكَ ، فـإذا أوفى بذِرْوة جَبَلٍ تبدَّى له جبريلُ ، فقال لهُ مِثْلَ ذلكَ) .

وأخرج الترمذي[1] طرفاً من هذا الحديث عن عائشة قالت : (أوّلُ ما ابتُـدِئ بـهِ رسولُ الله ﷺ من النّبُوّة حين أرَادَ اللهُ كرامَتَهُ ورحْمةَ العبادِ بـهِ : أن لا يَرَى شيْئـاً إلا مثل فلقِ الصُّبحِ فمَكَثَ على ذلـك مـا شـاء اللهُ أن يمكُثَ ، وحُبِّبَ إليـه الخلـوَةُ ، فلم يكن شيءٌ أحبَّ إليه من أن يخلُوَ .

* * *

السر في الخلوة :

عند قوله : (ثم حُبِّبَ إليه الخلاء) قال صاحب الفتح :

والخلاء بالمدّ الخلوة ، والسرّ فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له .

أقول : وقد أخذ بعض أهل السلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذكر والعبادة في مرحلـة من مراحل السلوك ؛ لتنـوير القلب وإزالـة ظلمتـه وإخراجـه من غفلتـه وشهـوتـه وهفواته ، وبعضهم يستحبّها للسالك في أوّل سيره ويركّز على الاعتكاف في رمضـان وغيره ، أخذاً من حال رسول الله ﷺ في الابتداء والانتهاء .

* * *

حياته قبل النبوة :

عند قول خديجة : (كلا والله لا يخزيك الله أبداً . إنك .....) .

قال صاحب الفتح : استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلـك أبـداً بـأمر استقرائي ،

---

(١) الترمذي (٥ / ٥٩٦) ٥٠ ـ كتاب المناقب ، باب : ٦ . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

وصفته بأصول مكارم الأخلاق ، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب ، وإما بالبدن أو بالمال ، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل ، وذلك كله مجموع فيما وصفناه به .

أقول : لعل أبلغ وصف توصف به حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل النبوة ما وصفته به خديجة ـ وهي أعرف الخلق به ـ لقد اجتمع له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أطهرُ قلبٍ وأكرمُ سلوكٍ ، فكانت كرامة الله .

* * *

المراحل الأولى للوحي :

قال في الفتح :

(فائدة) : وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين ، وبه جزم ابن إسحاق ، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة ، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان . وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين وهي ما بين نزول اقرأ ويا أيها المدثر عدم مجيء جبريل إليه ، بل تأخر نزول القرآن فقط . ثم راجعت المنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد ، ولفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي : أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه . فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل ، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة . وأخرجه ابن أبي خيثمة من وجه آخر مختصراً عن داود بلفظ : « بعث لأربعين ، ووكل به إسرافيل ثلاث سنين ، ثم وكل به جبريل . فعلى هذا فيحسن ـ بهذا المرسل إن ثبت ـ الجمع بين القولين في قدر إقامته بمكة بعد البعثة ، فقد قيل ثلاث عشرة ، وقيل عشر ، ولا يتعلق ذلك بقدر مدة الفترة ، والله أعلم . وقد حكى ابن التين هذه القصة ، لكن وقع عنده ميكائيل بدل إسرافيل ، وأنكر

الواقدي هذه الرواية المرسلة وقال : لم يقرن به من الملائكة إلا جبريل ، انتهى . ولا يخفى ما فيه ، فإن المثبت مقدم على النافي إلا إن صحب النافي دليل نفيه فيقدم ، والله أعلم . وأخذ السهيلي هذه الرواية فجمع بها المختلف في مكثه ﷺ بمكة ، فإنه قال : جاء في بعض الروايات المسندة أن مدة الفترة سنتان ونصف ، وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستة أشهر . فمن قال مكث عشر سنين حذف مدة الرؤيا والفترة ، ومن قال ثلاث عشرة أضافها . وهذا الذي اعتمده السهيلي من الاحتجاج بمرسل الشعبي لا يثبت ، وقد عارضه ما جاء عن ابن عباس أن مدة الفترة المذكورة كانت أياماً .

أقول : على القول : إن فترة الوحي كانت ثلاث سنين فيكون نزول سورة المدّثر والمزمّل بعد بدء الوحي بثلاث سنين ، وبسبب هذا القول ذهب من ذهب أن النبوة كانت على رأس الأربعين ، وأن الرسالة كانت بعد ثلاث سنين ، والراجح عندي أن الأمر بالدعوة لم يكن متأخّراً كثيراً عن بدء الوحي ، ولكن منذ بدء الوحي حتّى انتهاء الفترة السريّة كان ثلاث سنين ، وعلى كل الأحوال فإن سورة ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر ﴾ نزلت بعد فترة الوحي ، وعلى هذا تحمل الرواية التي تذكر أن أول ما نزل سورة المدثر فهي أولية نسبية ذلك أنها أوّل ما نزل بعد فترة الوحي .

٤٩ - * روى الحاكم عن جابر رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرَةِ الوحي قال : « فقلتُ زَمِّلُونِي فَدَثَّروني فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر * قُمْ فَأَنْذِر * وَرَبَّكَ فَكَبِّر * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ » قال هي الأَوْثانُ .

يؤكد هذا الحديث أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي فليس هي أول سورة نزلت بإطلاق ، بل هي أول ما نزل بعد فترة الوحي .

٥٠ - * روى البخاري عن جُندُب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال : اشتكَى رسولُ

---

٤٩ - المستدرك (٢ / ٢٥١) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه اللفظة .

زملوني : أي لفوني بثيابي ، والمزمل هو الملتف بثيابه ، وكذلك دثروني . الأوثان : الأصنام ، والوثن هو الصنم .

٥٠ - البخاري (٨ / ٧١٠) ٦٥ - كتاب التفسير - ٩٣ - سورة الضحى - ١ - باب : ما ودعك ربك وما قلى .

ومسلم (٣ / ١٤٢٢) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٣٩ - باب : ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين . =

اللهِ ﷺ ، فلم يقُم لَيْلتين أو ثَلاثاً ، فَجاءتهُ امرَأةٌ ، فقالت : يا محمد ، إنّي لأرْجُو أن يكُونَ شَيطانُكَ قد تَركَكَ ، لم أرَهُ قَربكَ مُنذُ ليلتين أو ثلاثاً ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ والضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[1] .

وفي رواية قال : أبْطأ جبْريلُ على رسولِ اللهِ ﷺ : فقال المشركونَ : قد وُدِّعَ محمدٌ ، فأنزلَ اللهُ عزّ وجلّ : ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

٥١ - * روى الترمذي عن جُندُب البجلي قال : كُنتُ مع النبي ﷺ في غارٍ ، فَدميَتْ إصْبعُهُ ، فقالَ النبيُّ ﷺ :

هَلْ أنتِ إلا إصْبَعٌ دَميتِ ... وفي سَبيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ ؟

قال : فأبطأ عليه جبريلُ عليه السلامُ ، فقال المشركونَ : قد وُدِّعَ محمدٌ ، فأنزلَ اللهُ تباركَ وتعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

ذكرت هذه الرواية ههنا لأنه اختلط على بعض العلماء فترة الوحي هذه بفترة الوحي التي كانت بعد فجأة الوحي وليس ذلك صحيحاً . قال صاحب الفتح :

والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي . فإن تلك دامت أياماً وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً . وههنا إشكال : أن بعض الروايات تذكر : أن خديجة قالت لرسول الله ﷺ : ما أرى ربك إلا قد قلاك ، وقد قال صاحب الفتح في هذا :

وقع في رواية أخرى عن الحاكم (فقالت خديجة) وأخرجه الطبري أيضاً من طريق عبد الله بن شداد (فقالت خديجة ولا أرى ربك) ومن طريق هشام بن عروة عن أبيه

= اشتكى : أي : مرض . والمرأة : هي أم جَميل - بفتح الجيم - امرأة أبي لهب وأخت أبي سفيان . وقرب : بالضم لازم ، يقال : قرب الشيء ، أي : دنا ، وبالكسر : متعد ، يقال : قربته ، أي : دنوت منه . شيطانك : أي أنها كانت تقول عن الوحي شيطان ، قاتلها الله وتبت يداها ويدا زوجها . والليل إذا سجى : أي ثبت بظلامه وسكن بأهله . قلا : قلاه : إذا هجره ، والاسم : القِلى . ودّع : أي فورق ، ويقال ودّع المسافر الناس أي فارقهم محييّاً لهم .

(١) الضحى : ١ - ٣ .

٥١ - الترمذي (٥ / ٤٢٢) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٨٢ باب : ومن سورة الضحى . قال أبو عيسى : هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

(فقالت خديجة لما ترى من جزعه) ، وهذان طريقان مرسلان ورواتها ثقات ، فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك ، لكن أم جميل عبرت ـ لكونها كافرة ـ بلفظ شيطانك . وخديجة عبرت ـ لكونها مؤمنة ـ بلفظ ربك أو صاحبك ، وقالت أم جميل شماتة وخديجة توجعاً .

وفي الجمع بين سببي النزول لقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . أقول : إنه قد يتكرر نزول الآية مرة بعد مرة على إثر حوادث متعددة .

٥٢ ـ * روى البخاري ومسلم عن يَحْيَى بن أبي كثير قال: سألتُ أبا سلمة بن عبد الرحمنِ عن أولِ ما نزلَ من القرآنِ قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت : يقولونَ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قال أبو سَلَمةَ سألتُ جابراً ، فقلتُ لهُ مِثلَ ما قُلتَ لي ، فقال لي جابرٌ : لا أُحدِّثُكَ إلا ما حدَّثَنا رسولُ اللهِ ﷺ ، قال : « جَاورتُ بِحَراءٍ شهراً ، فَلَمَّا قضيتُ جِواري ، هَبطْتُ ، فَنُودِيتُ ، فَنظرتُ عن يَمِينِي فلم أرَ شَيْئاً ، ونظرتُ عن شِمالِي ، فلم أر شَيْئاً ، ونظرتُ أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرتُ خَلْفي ، فلم أر شَيئاً ، فَرفعتُ رَأسِي ، فَرأيتُ شَيئاً ، فَأتيتُ خَدِيجَةَ ، فَقلتُ : دَثِّروني ، فَدَثَّروني ، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِداً ، فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ »[١] وذلك قبل أن تفرض الصلاة .

وفي رواية[٢] « فَلَمَّا قَضيتُ جِوارِي هَبَطْتُ فَاستبطنتُ الوَادِي ، فَنُودِيتُ فَنَظَرتُ أمَامِي وَخَلْفي وعن يَمِينِي وَعَن شِمَالي ، فلم أر أحَداً ، ثم نُودِيتُ ، فنظرتُ فلم أر أحَداً ، ثم نُودِيتُ فَرفعتُ رأسي ، فَإذا هو قَاعِدٌ على عَرشٍ في

---

٥٢ ـ والبخاري (٨ / ٦٧٦) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ ٧٤ ـ سورة المدثر .

مسلم (١ / ١٤٤) ١ ـ كتاب الإيمان ـ ٧٣ ـ باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

فلما قضيت جواري : أي مجاورتي واعتكافي في الغار . فاستبطنت الوادي : أي : صرت في باطنه . فأخذتني رجفة شديدة : الرجفة : الاضطراب .

(١) المدثر : ١ ـ ٥ .

(٢) مسلم (١ / ١٤٤) ١ ـ كتاب الإيمان ـ ٧٣ ـ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

الهواءِ - يعني جبريلَ - فأخذتني رَجفةٌ شَديدةٌ ، فأتيتُ خَديجةَ فقُلتُ : دَثِّرُوني ، فَدَثَّروني ، وَصَبُّوا عَليَّ ماءً بَارِداً ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ ﴿ يا أَيُّهَا المُدَّثِّر * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّر * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ » .

وفي رواية[١] « فإذا هُوَ جَالسٌ على العرشِ بين السَّماءِ والأرْضِ » .

وفي رواية[٢] عن أبي سَلَمةَ عن جابرٍ قال : سمعتُ النَّبي ﷺ يُحدثُ عن فَتْرَةِ الوَحْيِ ، فقال لِي فِي حَديثِه « فبينـا أَنـا أَمْشِي إذ سمعتُ صَوْتـاً من السَّماء ، فَرفعتُ رَأسي ، فَإِذَا الملكُ الَّذِي جاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرسيٍّ بين السَّماء وَالأرض فَجُئِثْتُ منه رُعبًا ، فرجعت ، فَقلتُ : زَمِّلُوني زَمِّلُوني ، فَدثِّروني ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا المُدَّثِّر * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّر * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ » قبلَ أن تُفرضَ الصَّلاة ، والرُّجزُ هي الأوْثَانُ .

وفي أخرى « فَجُئِثْتُ مِنهُ حتى هَويتُ إلى الأَرْضِ » وفيه : قال أبو سَلمةَ (وَالرُّجزُ : الأَوثَانُ) قال : « ثُمَّ حَمِيَ الوَحْيُ ، وَتَتابَعَ » .

وأول هـذه الروايـة : أن رسولَ الله ﷺ قـال : « ثُمَّ فَتَرَ الوحيُ عنّي فَتْرةً ، فبينـا أنا أمشِي ... » ثم ذكر نحوه .

أقول : أوليـة نـزول ﴿ يـا أيُّهـا المُدَّثِّر ﴾ أوليـة نسبيـة فهي أول مـا نـزل بعـد فَتْرَة الوحي . فـالصحيح أن أول مـا نزل من القرآن هو قولـه تعـالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وأما ﴿ يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ ﴾ فكانت بعـد ذلـك . ويصـدّق في ذلـك مـا وقع في بعض روايات هذا الحديث « فإذا الملك الذي جاءني بحراء » وقوله « ثم تتابع الوحي » أي بعد فترته .

---

(١) البخاري (٨ / ٦٧٨) ٦٥ - كتاب التفسير - ٧٤ - سورة المدثر - باب : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّر ﴾ .

(٢) مسلم (١/ ١٤٥) ١ - كتاب الإيمان - ٧٣ - باب : بدء الوحي .

فإذا هو على العرش : المراد بالعرش الكرسي . قال أهل اللغة : العرش هو السرير ، وقيل سرير الملك . قال تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . فجُئِثْتُ منه : يقال : « جُئِثْت » بهمزة قبل ثاء ، وبثاءين ، وبياء وتاء : كلمة بمعنى فَزِعْتُ ، والذي في الرواية : الأول . هويت : هوى إلى الأرض وأهوى إليها . أي : سقط . ثم حمي الوحي وتتابع : أي كثر نزوله وازداد من قولهم حميت الشمس والنار أي قويت حرارتها .

وقبل كل ذلك الحديث الطويل الذي رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها في قصة أول بعثته ﷺ ونزول جبريل عليه بحراء .

بدأ الوحي بقوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وبعد فترة نزل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر * قُمْ فَأَنْذِر ﴾ .... ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل * قُمْ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً ﴾ فلنقف وقفة عند ذلك :

عند قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ قال السهيلي :

أي لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك ، كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم وغمز الشيطان في الصغر ، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية .

أقول : أخذ بعض أهل السلوك إلى الله عز وجل من هذا أن السالك إلى الله يبدأ بقراءة هذا الكون مستعيناً باسم الله ، حتى إذا احترق بالذكر وأذن له شيوخه بالدعوة إلى الله قام بالدعوة ، وعليه في هذا الحال أن يجتمع له دعوة وعبادة ﴿ قُمْ فَأَنْذِر ﴾ ﴿ قُم الليْل إِلا قَلِيلاً ﴾ ولا ينجح بالدعوة إلا من اجتمع له تعظيم الله ﴿ وَ رَبَّكَ فَكَبِّر ﴾ وطهارة الظاهر والباطن ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّر ﴾ والتباعد عن عبادات الجاهلية ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُر ﴾ والعمل مع رؤية التقصير ﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر ﴾ والصبر على مقتضيات الدعوة ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر ﴾ .

* * *

فصل : في ظاهرة الوحي

٥٣ - * روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارثَ بن هشام - رضي الله عنه - سأل رسول الله ﷺ ، فقال : يا رَسولَ اللهِ ، كيفَ يأتيكَ الوحيُ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحْيانًا يأتِيني مثلَ صلصلةِ الجرسِ - وهو أشَدُّه عليَّ - فيَفْصِمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ عنه ما قالَ ، وأحيانًا يتمثَّلُ لي الملَكُ رَجُلاً فيُكلِّمُني ، فأعِي ما يقُولُ » .

قالت عائشةُ - رضي الله عنها - : ولقدْ رأيته ينزِلُ عليهِ الوَحيُ في اليَوْم الشَّديد البَرْدِ فيفصمُ عنه وإن جَبينَه ليَتفصَّدُ عَرَقًا .

وفي رواية النسائي [(١)] إلى قوله : « فَيَفصمُ عَني وقدْ وَعيتُ عنهُ » ثم قال : « وهو أشدُّ عليَّ ، وأحيانًا يأتيني في مثل صورة الفتَى ، فينبذُهُ إليَّ » .

٥٤ - * روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أُنزِلَ عليه الوَحْيُ سُمِع عِند وَجهِهِ كَدَوِيِّ النحلِ ، فأُنزلَ عليهِ يومًا فمكثنا ساعةً فسُرِّيَ عنهُ فاستقبلَ القِبْلَةَ ورفع يديهِ وقال : « اللهُمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصنا ، وأكْرِمْنا ولا تُهِنَّا ، وأعْطِنَا ولا تَحْرِمْنَا ، وآثِرنَا ولا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا ، وأرْضِنا وارْضَ عَنَّا » ، ثم قال ﷺ : « أُنزِل عليَّ عَشَرُ آياتٍ ، مَن أقامهُنَّ دخلَ الجنَّة » ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [(٢)] حتى خَتَمَ عشر آيات .

٥٥ - * روى أحمد عن عائشة قالت : إنْ كَانَ لَيُوحَى إلى رَسُولِ الله ﷺ وهو على

---

٥٣ - البخاري (١ / ١٨) ١ - كتاب بدء الوحي ، باب : ٢ .

ومسلم (٤ / ١٨١٧) ٤٣ - كتاب الفضائل - ٢٣ - باب : عرق النبي ﷺ في البرد ، وحين يأتيه الوحي .

والترمذي (٥ / ٥٩٧) ٥٠ - كتاب المناقب - ٧ - باب : ما جاء كيف كان ينزل الوحي على النبي ﷺ . قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

الصَّلْصَلة : صوت الأشياء الصلبة اليابسة . فصَم عني : انفصل عني وفارقني . وعيت الكلام : إذا حفظته وعرفته .

ليتفصد عرقاً : أي : جرى عرقه كما يجري الدم من الفصاد . فينبذه إليَّ : أي يلقيه إليَّ .

(١) النسائي (٢ / ١٤٦) كتاب الافتتاح باب : جامع ما جاء في القرآن .

٥٤ - الترمذي (٥ / ٣٢٦) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٢٤ - باب : ومن تفسير سورة المؤمنين ، وهو حديث حسن .

كدوي النحل : صوتها وطنينها . آثرنا ولا تؤثر علينا : أي أكرمنا ولا تكرم غيرنا دون أن تكرمنا .

(٢) المؤمنون : ١ .

٥٥ - أحمد في مسنده (٦ / ١١٨) وقال عنه الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٥٧) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

راحلته فتضرب بِجِرَانِهَا .

٥٦ ـ * روى الطبراني عن زيد بن ثابتٍ قال : كنْتُ أكتبُ الوحيَ لرسولِ اللهِ ﷺ وكانَ إذا نزلَ عليهِ أخذتهُ بُرَحَاء شديدةٌ وعَرِقَ عَرَقاً شديداً مثْلَ الجمانِ ثم سُرِّي عنهُ ، فكنتُ أُدخلُ عليه بقطْعَةِ العَسبِ أو كَسرِهِ فَأَكتبُ وهو يُملِي عليَّ ، فما أفرغُ حتَّى تكادُ رِجلِي تنكسرُ من ثِقَلِ القرآنِ حتى أقولُ لا أمشِي على رِجلي أبداً ، فإذا فَرغتُ قال اقرأهُ فإن كانَ فيه سَقَطٌ أقامَه ، ثم أخرُجُ به إلى الناس .

٥٧ ـ *روى مسلم عن عُبادةَ بن الصامت رضي الله عنه قال : كانَ نبيُّ اللهِ ﷺ إذا أُنزلَ عليه الوحي كُرِب لذلك ، وتربَّدَ وجْهُهُ .

وفي روايةٍ : كان النبي ﷺ إذا أُنزلَ عليه الوحيُ نكَّسَ رأسهُ ، ونكَّسَ أصحابُهُ رؤوسهم ، فلما أُبلَّ عنه رفع رأسَهُ .

وفي رواية[1] : كان النبي ﷺ إذا أُنزلَ عليه كُرِبَ لذلك ، وتربَّدَ له وجهُهُ ، فأنزل عَلَيهِ ذات يوم فلقى كذلك ، فلما سُرِّي عنه قال : « خذوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قد جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سبيلاً ، البِكرُ بالبِكرِ جلدُ مائةٍ ، ونَفيُ سنة ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ جَلْدُ مائة والرَّجْمُ » .

= فتضرب بجرانها : أي تمد عنقها على الأرض من التعب . قال الحافظ في الفتح : الجران بكسر الجيم وتخفيف الراء المفتوحة : باطن العنق والمعنى أنه ﷺ إذا أتاه الوحي وهو راكب على راحلته بركت من ثقل الوحي وضربت الأرض بباطن عنقها . أي مدّت عنقها على الأرض لأن في ذلك راحة لها .

٥٦ ـ الطبراني (٥ / ١٤٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٥٧) : رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات .

الوحي : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك والصوت يكون في الناس وغيرهم والوحي ما يوحيه الله إلى أنبيائه . بُرَحاء : البرحاء : الشدة . ومنه برحاء الحمى . الجمان : اللؤلؤ . سرى : مضى وذهب . العسب : (العسيب) من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها والذي لم ينبت عليه الخوص من السعف .

٥٧ ـ مسلم (٤ / ١٨١٧) ٤٣ ـ كتاب الفضائل ـ ٢٣ ـ باب عرق النبي ﷺ في البرد ، وحين يأتيه الوحي .

كرب لذلك : أي أصابه الكرب وهو المشقة . تربد : أي تغير لون وجهه فأصبح قريباً من لون السحاب . أبلَّ : المريضُ من مرضه : إذا زال عنه ، وكذلك المغمى عليه ، والمراد : زوالُ ما كان يعرض عند نزول الوحي ، وكذلك سُرِّي عنه ، أي : كشف عنه ذلك .

(١) مسلم (٣ / ١٣١٦) ٢٩ ـ كتاب الحدود ـ ٣ ـ باب حد الزنى .

سبب ورود قول النبي ﷺ : « قد جعل الله لهن سبيلاً » أن الله عز وجل قد أنزل في سورة النساء في الحكم بشأن من يزني من النساء : ﴿ واللاتي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُم فَاسْتَشْهِدُوا عليهِنَّ أربَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْت أَوْ يَجْعَل اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ (٢) . قال مكي بن أبي طالب في الإيضاح : كان الله جل ذكره قد فرض في الزانيين المحصنين إذا شهد عليهما بالزنا أربعة شهود أن يحبسا في البيت حتى يموتا أو يجعل الله لهما سبيلاً ، فجعل الله السبيل بالرجم ، المتواتر نقله ، الثابت حكمه المنسوخ تلاوته .

٥٨ ـ * روى البخاري عن صفوان بن يَعْلى بن أمية ، أن يعلى كان يقول : ليتني أرى رسول الله ﷺ حين يُنزل عليه الوحي ، فلما كان النبي ﷺ بالجِعْرَانة وعليه ثوب قد أظل عليه ومعه الناس من أصحابه ، إذ جاءهُ رجل مُتَضَمِّخٌ بطيب فقال : يا رسول الله : كيف ترى في رجل أحرمَ في جبة بعدما تضمخ بطيب ، فنظر النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي : فأشار عمر إلى يعلى أي تعال ، فجاء يعلى فأدخل رأسه ، فإذا هو محمرٌّ الوجه يغط كذلك ساعة ، ثم سُرِّي عنه فقال : أين الذي يسألني عن العُمرة آنفاً ؟ فالتُمِس الرجل فجيء به إلى النبي ﷺ فقال : « أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجُبَّة فانزعها ، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك » .

ذكرنا هذه النصوص ههنا للتعريف على ظاهرة الوحي في حياة رسول الله ﷺ وهي ظاهرة لا تشبه أي ظاهرة من الظواهر التي علّل بها الكافرون لحدوثها عند رسول الله ﷺ ، إن تعليلاتهم حقد خالص ، فمن يصدّق أنّ ظاهرة مَرَضِية من الظواهر التي يزعمون أن يخرج على أثرها نص كنصوص القرآن ؟

وقد ناقش الأستاذ البوطي في كتابه فقه السيرة المشككين في ظاهرة الوحي ثم قال :

---

(١) النساء : ١٦ .

٥٨ ـ البخاري (٩ / ٩) ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ـ ٢ ـ باب نزول القرآن بلسان قريش والعرب .

ومسلم (٢ / ٨٣٧) . ١٥ ـ كتاب الحج ـ ١ ـ باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة وما لا يباح وبيان تحريم الطيب عليه .

إن هذه الحالة التي مرّ بها رسول الله ﷺ ، تجعل مجرد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً ضرباً من الجنون ، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال .

وإذاً فإن حديث بدء الوحي على النحو الذي ورد في الحديث الثابت الصحيح ، ينطوي على تهديم كل ما يحاول المشككون تخييله إلى الناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام ، وإذا تبين لك ذلك أدركت مدى الحكمة الإلهية العظيمة في أن تكون بداءة الوحي على النحو الذي أراده الله عز وجل .

وربما عاد بعد ذلك محترفو التشكيك ، يسألون : فلماذا كان ينزل عليه ﷺ الوحي بعد ذلك وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملكَ أحدٌ منهم سواه ؟

والجواب : أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأبصار ، إذ إن وسيلة الإبصار فينا محدودة بحد معين ، وإلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته . على أن من اليسير على الله جل جلاله - وهو الخالق لهذه العيون المبصرة - أن يزيد في قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى ، يقول مالك بن نبي في هذا الصدد :

إن عمى الألوان مثلاً يقدم لنا حالة نموذجية ، لا يمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون ، وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا ، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون . فلقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية .

ثم إن استمرار الوحي بعد ذلك يحمل نفس الدلالة على حقيقة الوحي وأنه ليس كما أراد المشككون : ظاهرة نفسية محضة . ونستطيع أن نجمل هذه الدلالة فيما يلي .

١ - التمييز الواضح بين القرآن والحديث ، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً ، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه ، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به ، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام . أما

الحديث فمعناه وحي من الله عز وجل ، ولكن لفظه وتركيبه من عنده عليه الصلاة والسلام ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو .

٢ ـ كان النبي ﷺ يُسأل عن بعض الأمور فلا يجيب عليها ، وربما مرّ على سكوته زمن طويل ، حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال ، طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأن سؤاله . وربما تصرف الرسول في بعض الأمور على وجه معين ، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عتب أو لوم له .

٣ ـ كان رسول الله ﷺ أمياً ، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية ، كقصة يوسف ، وأم موسى حينما ألقت وليدها في اليم ، وقصة فرعون ، ولقد كان هذا من جملة الحِكَم في كونه ﷺ أمياً : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَاب ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينكَ إذاً لارْتَاب المُبْطِلُونَ ﴾ [1] .

٤ ـ إن صدق النبي ﷺ أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك ، يستدعي أن يكون ﷺ من قبل ذلك صادقاً مع نفسه بما لا يمكن أن يشك في صدقه فيما بعد ذلك، اهـ .

وقال الدكتور مصطفى السباعي :

إن الله إذا أراد لعبد أن يوجهه لدعوة الخير والإصلاح ألقى في قلبه كره ما عليه مجتمعه من ضلال وفساد . إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن يستشرف للنبوة ، ولا يحلم بها . وإنما كان يلهمه الله الخلوة للعبادة تطهيراً ، وإعداداً روحياً لتحمّل أعباء الرسالة . ولو كان عليه الصلاة والسلام يستشرف للنبوة ، لما فزع من نزول الوحي عليه ، ولما نزل إلى خديجة يستفسرها عن سر تلك الظاهرة التي رآها في غار حراء . ولم يتأكد من أنه رسول إلا بعد رؤية جبريل يقول له : يا محمد أنت رسول الله . وأنا جبريل ، وإلا بعد أن أكد له ولخديجة وورقة بن نوفل أن ما رآه في الغار هو الوحي الذي كان ينزل على موسى عليه الصلاة والسلام .

* * *

(١) العنكبوت : ٤٨ .

أقسام الوحي :

ذكر ابن القيم وغيره مراتب الوحي فأوصلوها إلى الثمانية :

إحداها : الرؤيا الصادقة . وكانت مبدأ وحيه ﷺ .

الثانية : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبي ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته » .

الثالثة : أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه الله إليه ، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن . وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي : تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب ، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف . [الرحيق المختوم]

* * *

حفظ أمر السماء بعد النبوة :

٥٩ - * روى البخاري عن ابن عباسٍ قال : انطَلقَ رسولُ الله ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عَامدين إلى سُوقِ عُكَاظٍ ، وقد حِيلَ بين الشَّياطينِ وبين خَبَرِ السَّماءِ ، وأُرسِلَت عليهُم الشُّهُب ، فرجعتِ الشَّياطين ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حِيلَ بيننا وبين خبر السماء ، وأُرسلت علينا الشُّهُبُ . قال : ما حَالَ بينكمْ وبين خَبرِ السَّماء إلا ما حَدثَ ، فاضْرِبُوا مَشارِقَ الأرضِ ومغاربَها فانظُرُوا ما هذا الأمرُ الذي حَدثَ ؟ فانطلقوا فضربوا مَشارِقَ الأرضِ ومَغاربَها يَنظرُونَ ما هذا الأمرُ الذي حالَ بينهم وبين خبر السَّماء ؟ قال : فانطَلَقَ الذين توجهُوا نحو تِهامَة إلى رسولِ الله ﷺ بنخلةَ وهُو عامدٌ إلى سوقِ عكاظٍ وهو يصلّي بأصحابِه صلاةَ الفجرِ ، فلما سَمِعُوا القرآنَ تسمَّعوا لهُ ، فقالوا : هذا الذي حَالَ بينكم وبين خَبرِ السَّماءِ ، فهُنالِكَ رجعُوا إلى قومِهِم فقالوا : يا قومَنا ، إنّا سَمِعنا قُرآناً عجباً يَهْدي إلى الرُّشدِ فآمنَّا به ، وَلنْ نُشركَ بربِّنا أحَداً . وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ ﴾[1] وإنَّما أُوحِيَ إليه قولُ الجنّ .

هذه رواية البخاري . وقد أخرجها مسلم مع زيادة فيها نفي ابن عباس لرؤية الجن

---

٥٩ - البخاري (٨ / ٦٦٩) ٦٥ - كتاب التفسير - باب - ١ ، سورة ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ .

ومسلم (١ / ٣٣١) ٤ - كتاب الصلاة - ٣٣ - باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن .

عامدين : عمدتُ إلى الشيء : قصدت نحوه . عكاظ : موسم معروف للعرب قال في الفتح . بل كان من أعظم مواسمهم ، وهو نخل في واد بين مكة والطائف وهو إلى الطائف أقرب ، بينهما عشرة أميال ، وهو وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء اليمن . وقال البكري : أول ما أُحدثتْ قبل الفيل بخمس عشرة سنة ، ولم تزل سوقاً إلى سنة تسع وعشرين ومائة ، فخرج الخوارج الحرورية فنهبوها فتركت إلى الآن ، وكانوا يقيمون به جميع شوال يتبايعون ويتفاخرون وتنشد الشعراء ما تجدد لهم ، وقد كثر ذلك في أشعارهم كقول حسان :

سأنشر إن حييت لكم كلاماً ينشر في المجامع من عكاظ

وكان المكان الذي يجتمعون به منه يقال له الابتداء . وكانت هناك صخور يطوفون حولها ، ثم يأتون مجنة فيقيمون بها عشرين ليلة من ذي القعدة . ثم يأتون ذا المجاز ، وهو خلف عرفة فيقيمون به إلى وقت الحج .

حِيلَ : حلتُ بين الشيئين : فصلت بينهما ، ومنعت أحدهما من الآخر . تِهامة : بكسر التاء : وهو اسم لكل ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز ، ومكة من تهامة . نَخْلة : بفتح النون وسكون المعجمة . موضع بين مكة والطائف ، على ليلة من مكة ، وهي التي ينسب إليها بطن نخل . وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر : المراد به ههنا صلاة الغداة في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس لأن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء ، أما قبل ذلك فقد كان الفرض صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها .

وذلك محمول على ما كان في ابتداء النبوة وهو ما ذكره ابن عباس هنا ، أما رواية ابن مسعود التي ذكر فيها اجتماع رسول الله ﷺ بالجن فتلك حادثة متأخرة سنراها ، قال الحافظ في الفتح جامعاً بين نفي ابن عباس وإثبات ابن مسعود (ويمكن الجمع بالتعدد) .

قال في الفتح :

وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن وأنهما لمسمى واحد ، وإنما صارا صنفين باعتبار الكفر والإيمان ، فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان . وفيه أن الصلاة في الجماعة شرعت قبل الهجرة . وفيه مشروعيتها في السفر . والجهر بالقراءة في صلاة الصبح ، وأن الاعتبار بما قضى الله للعبد من حسن الخاتمة لا بما يظهر منه من الشر ولو بلغ ما بلغ ، لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بمجرد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها . ومع ذلك فغلب عليهم ما قضي لهم من السعادة بحسن الخاتمة . اهـ .

وهناك روايات صحيحة تثبت أن الشهب كانت موجودة قبل البعث فلا تعارض بغيرها لذلك قال الزهري في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ﴾[1] غلّظ أمرها وشدّد .

قال في الفتح : والشهب عند علماء الكون نيازك تشتعل إذا اصطدمت بالهواء من جرّاء الاحتكاك .

وإثبات هذا المعنى لا ينفي أن يكون لبعضها آثار على عالم الجن فأن يكون لشيء واحد مظهر حسيّ وارتباط عيني فذلك جائز كالموت يكون له سبب حسيّ كالمرض وهو أثر عن نزع الروح كذلك .

ومن فكرة أنّ اشتعال النيازك إنما يكون بعد ملامستها الهواء ، ومن تفسير المفسرين : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ أي قصدناها فُهِمَ أن مقاعد الجن في السماء إنما هي في جو الأرض .

والتشديد في حراسة السماء لا يمنع أن يستمر الجن في المحاولة وأن يسمعوا شيئاً .

---

(١) الجن : ٩ .

قال صاحب الفتح :

فإن الشياطين مع شدة التغليظ عليهم في ذلـك بعـد المبعث لم ينقطع طمعهم في استراق السمع في زمن النبي ﷺ فكيف بما بعده ، وقد قـال عمر لغيلان بن سلمـة لما طلق نسـاءه : إني أحسب أن الشياطين فيما تسترق السمع سمعت بأنك ستموت فألقت إليك ذلـك الحـديث ، أخرجه عبد الرزاق وغيره . فهذا ظـاهر في أن استراقهم السمع استمر بعـد النبي ﷺ ، فكانوا يقصدون استماع الشيء مما يحدث فلا يصلون إلى ذلـك إلا إن اختطف أحـدهم بخفـة حركتـه خطفة فيتبعه الشهاب ، فإن أصابه قبل أن يلقيها لأصحابه فاتت وإلا سمعوها وتداولوها . اهـ .

ومن الحديث نعلم أن السماء قـد حفظت من بـدء رسـالتـه عليـه الصلاة والسلام حتى لا يشتبه أمر النبوة على الخلق .

* * *

القرآن

معجزة الرسول ﷺ الخالدة

٦٠ - * روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « ما مِنْ الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطيَ من الآياتِ ما مِثْلُهُ آمنَ عَليه البَشَرُ ، وإنَّما كانَ الذي أُوتيتُهُ وحياً أوحاهُ اللهُ إليَّ ، فأرجُو أن أكُونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القِيَامةِ » .

المعجزة الرئيسية لرسول الله ﷺ هي القرآن ، والقرآن معجزة فيها معجزات : ففي القرآن كله إعجاز مظهره عجز البشر أن يأتوا بسورة مثله مع أنه كلام يتألف من اسم وفعل وحرف ، وزيادة على الإعجاز الموجود في القرآن كله فهناك معجزات كثيرة أخرى ، من مثل إخباره عن غيوب سابقة ولاحقة ، ومن مثل حديثه عن أسرار كونية لم تعرف إلا في عصور متأخرة لاحقة . وبالإعجاز القرآني والمعجزات القرآنية تقوم الحجة على الخلق إلى قيام الساعة أن محمداً رسول الله ﷺ .

ولكن إذا كانت المعجزة الرئيسية لرسولنا هي القرآن فهناك معجزات أخرى لا تعد ولا تحصى تقوم بها الحجة ، فهناك خوارق للعادات حدثت في عصره على يديه ، وهناك نبوءات تحققت في عصره وفيما بعد ذلك ، وهناك كرامات أولياء أمته .

وبسببٍ من كون القرآن هو المعجزة الرئيسية لرسولنا عليه الصلاة والسلام ، وبسببٍ من كون هذا القرآن باقياً محفوظاً ، فالمعجزة مستمرة في حق الأمم وهي محسوسة ملموسة ، بينما معجزات الرسل انقضت بوقوعها فلم يصل إلى الأمم إلا خبرها ، فمن هذه الحيثية فإن المتوقع أن يكون أتباع رسول الله ﷺ كثراً .

---

٦٠ - البخاري (٩ / ٣) ٦٦ - كتاب فضائل القرآن - ١ - باب كيفية نزول الوحي .

مسلم (١ / ١٣٤) - ١ - كتاب الإيمان - ٧٠ - باب : وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملة بملة.

آمن عليه البشر : أي : آمنوا عند معاينة ما آتاه الله من الآيات والمعجزات والدلائل الواضحات ، أراد إعجاز القرآن الذي خُصَّ به رسول الله ﷺ ، وإن كان كلُّ نبي من الأنبياء قد أوتي من المعجزات ما يوجب على البشر الإيمان به . وحياً أوحاه الله : أراد القرآن ، فإنه ليس شيء من كتب الله المنزلة كان معجزاً إلا القرآن .

بهذا القرآن بدأ الرسول ﷺ دعوته ، وبهذا القرآن ربّى من استجاب له وعلّمهم ، وبهذا القرآن واجه وجابه ، ولأمر أراده الله عز وجل لم تصلنا تفصيلات شاملة كاملة عن تسلسل الآيات في النزول ، وقد تكون الحكمة قطع الطريق على التفكير في إعادة ترتيب القرآن لأن ترتيبه رباني ومعجز كما أثبتنا ذلك في كتاب (الأساس في التفسير) ، وعلى كل فقد بقيت هناك معالم كبرى للقرآن الذي نزل في مكة قبل الهجرة ، ومعالم كبرى لما نزل في المدينة ، كما أن هناك معالم كبرى في تحديد زمن نزول بعض السور ، فقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ﴾ [1] نزل بعد أربع سنين من البعثة ، وسورة المزمّل نزلت في أوائل البعثة .

ومن استعراض لهذه المعالم الكبرى نستطيع أن نتعرف على كيفية المواجهة والمجابهة بين الوحي والفكر الجاهلي ، كما نتعرف على مجموع الأفكار التي واجهت بها الجاهلية هذه الدعوة ، لكن الترتيب الرباني لسور القرآن تسلسلت فيه المعاني على نمط لا يتقيد بترتيب النزول ، وقد كان هذا بصيغة خالدة تسع الزمان والمكان فالتسلسل ذاك ملاحظ به الجيل الأول ، أما هذا فقد جاء بشكل آخر يسع احتياجات البشر بعد كمال التشريع ، ولا يفوت قارئ القرآن حالياً أن يستأنس بمكيتها أو مدنيتها ليتعرف على ما كان في المرحلة الأولى والثانية .

* * *

متى وكيف نزل القرآن :

قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [3] .

فيستشهد بذلك على أن القرآن أُنزل في شهر رمضان ، وفي ليلة القدر ، وهذا يحتمل تأويلين : أحدهما : أن يكون أراد بدء النزول وأوله ، لأن القرآن نزل في أكثر من عشرين

---

(١) الحديد : ١٦ .
(٢) البقرة : ١٨٥ .
(٣) القدر : ١ .

سنة في رمضان وغيره ، والثاني : ما قاله ابن عباس : أنه نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، فجُعل في بيت العزة مكنوناً في الصحف المكرمة ، المرفوعة المطهرة ، ثم نزلت منه الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، في أجوبة السائلين ، والنوازل الحادثة ، إلى أن توفي ﷺ وهذا التأويل أشبه بالظاهر ، وأصح في النقل والله أعلم .

* * *

فصل : في الدعوة السرية

بعد نزول قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ ﴾ عرض رسول الله ﷺ ما حدث على خديجة وورقة بن نوفل فآمنا ابتداء لمجرد العرض دون دعوة منه عليه الصلاة والسلام ، وبنزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّر * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ...﴾ [١] أصبح الرسول ﷺ مكلفًا بالإنذار ومكلفًا بالصلاة والطهارة والتوحيد والصبر وتجنب الأوثان ، وهذه هي التكاليف التي جاءت بعد فترة الوحي ، ولم يسبق ذلك إلا التكليف بالقراءة باسم الله وذلك في قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... ﴾ [٢] وهكذا بدأ التكليف بالتوحيد والعبادة والدعوة والصبر . والعبادة في هذه المرحلة تتلخص في الصلاة وقراءة القرآن والذكر والفكر ، فالصلاة رافقت نزول سورة المدثر ، وعلى رواية المقريزي أنها رافقت نزول سورة اقرأ ، ولذلك فسنرى روايات تذكر الصلاة من الابتداء ، وقد دخل في تكليف الصلاة ابتداء صلاة في الصباح وصلاة في المساء على سعة في الوقتين ، ثم تكليف بقيام الليل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً ... ﴾ [٣] وبعد سنة خفف الأمر بقيام الليل عن عامة المسلمين وبقي في حقه عليه الصلاة والسلام فريضة ، واستمر الحال على ذلك حتى حادثة الإسراء والمعراج إذ فرضت الصلوات الخمس ، وقد بدأت الدعوة سرية وفردية حتى جاء الأمر بالجهر بالإنذار والصدع بالدعوة وذلك على القول الراجح بعد ثلاث سنين من البعثة ، ويبدو أن الاضطهاد بدأ مبكراً منذ هذه المرحلة ، واشتد بعد الجهر بالدعوة مما ألجأ إلى الاختباء في دار الأرقم ثم أسفر عن الهجرتين إلى الحبشة ، وقد شدد المشركون القبضة بفرض المقاطعة والحصار مما ألجأ المسلمين ومن تعاطف معهم إلى الانكماش في شعب أبي طالب .. كما سنراه .

وإذ كنا لا نملك تأريخاً محققاً لكل حادثة في المرحلة المكية متى كانت إلا في حدود ضيقة ، فإننا سنعرض الروايات على تسلسل معين مستأنسين لهذا التسلسل ببعض المعاني ، لكنه في الكثير من الأحيان لا يصل إلى حد الجزم فليلاحظ القارئ ذلك ، فبعض

---

(١) المدثر : ١ - ٤ .

(٢) العلق : ١ .

(٣) المزمل : ١ ، ٢ .

الروايات التي نذكرها قبل الهجرتين إلى الحبشة قد يكون زمنها بعد الهجرتين ، وبعض الروايات التي نذكرها بعد الهجرتين قد تكون وقعت قبلهما .

ولنعد إلى استعراض الحال قبل نزول الأمر بالجهر بالدعوة ، فالدعوة في هذه المرحلة سرية وفردية وقد قام بها رسول الله ﷺ بنفسه أو بمن استجاب له كأبي بكر رضي الله عنه.

قال المقريزي :

ثم استجاب له عبادُ الله من كل قبيلةٍ ، فكان حائز قصب السَّبق ؛ أبو بكر عبد الله بن أبي قُحَافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة بن كعب بن غالب القرشي التيمي رضي الله عنه فآزره في دين الله وصدَّقه فيما جاء به ، ودعا معه إلى الله على بصيرة ، فاستجاب لأبي بكر رضي الله عنه جماعة منهم : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَي القرشي الأموي ، وطلحة بن عُبَيْدِ الله بن عثمان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة القرشي التَّيمي ، وسعد بن أبي وقَّاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب القرشي الزهري ، والزُّبَير بن العوَّام بن خُوَيْلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَي الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زُهرة بن كلاب القرشي الزهري ، فجاءهم رسول الله ﷺ حتى استجابوا له بالإسلام وصلَّوا ، فصار المسلمون ثمانية نفر ، أوَّل من أسلم وصلى لله تعالى .

وأمَّا عليٌّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي فلم يشرك بالله قط ، وذلك أن الله تعالى أراد به الخير فجعله كَفَالة ابن عمه سيِّد المرسلين محمد ﷺ ، فعندما أتى رسول الله ﷺ الوحيَ ، وأخبر خديجة رضي الله عنها وصدَّقت ، كانت هي وعليّ بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العُزَّى بن امرئ القيس بن عامر ابن عبد وُدّ ابن كنانة بن عوف بن عُذرة بن زيد اللات بن رُفَيْدة بن ثور بن كلب بن وبرة الكلبي ، حِبٌّ رسول الله ﷺ يصلون معه ، وكان ﷺ يخرُجُ إلى الكعبة أول النهار فيصلي صلاة الضحى ، وكانت صلاة لا تُنكرها قريش . وكان إذا صلّى في سائر اليوم بعد ذلك قعد عليٌّ أو زيدٌ رضي الله عنهما يرصُدانه .

وكان ﷺ وأصحابه إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشّعاب فُرَادَى ومَثْنَى ، وكانوا يصلون الضُّحى والعَصر ، ثم نزلت الصلوات الخمس ، وكانت الصلاة ركعتين ركعتين قبل الهجرة . فلم يحتج عليّ رضي الله عنه أن يُدعى ، ولا كان مشركاً حتى يوحِّد فيقال أسلم ، بل كان ـ عندما أُوحى الله إلى رسول الله ﷺ ـ عمرَهُ ثماني سنين ؛ وقيل سبع سنين ، وقيل إحدى عشرة سنة . وكان مع رسول الله ﷺ في منزله بين أهله كأحَدِ أولاده يتبعه في جميع أحواله . وكان أبو بكر رضي الله عنه أوّل من أسلم ممن له أهليّة الذّبّ عن رسول الله ﷺ والحماية والمناصرة . هذا هو التحقيق في المسألة لمن أنصف وترك الهوى من الفريقين . أي : الذين يقدم أحدهما إسلام أبي بكر ، والآخر إسلام عليّ رضي الله عنهما .

وقال صاحب الرحيق المختوم :

ومن أوائل المسلمين : بلال بن رباح الحبشي ، ثم تلاهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر ابن الجراح من بني الحارث بن فهر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان ، وعثمان بن مظعون وأخواه قُدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد العدوي ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، وخبّاب بن الأرت ، وعبد الله بن مسعود الهُذَلي وخلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعدّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً . وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتُحدِّث به .

أسلم هؤلاء سراً ، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيا لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية ، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتمل على تحسين تزكية النفوس ، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا ، تصف الجنة والنار كأنها رأي عين ، تسير

بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك .

وتعليقاً على سرية الدعوة في السنين الثلاثة الأولى للدعوة قال الدكتور البوطي :

وبناءً على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة - من حيث التكتّم والجهر ، أو اللين والقوّة - حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه . وهي مرونة حدّدتها الشريعة الإسلامية اعتماداً على واقع سيرته ﷺ ... على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية .

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم ، إذا ما أجمعوا قتالهم ، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس ، لأن المصلحة المقابلة وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع .

ويقرر العز بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلاً :

فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام ، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام ، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة . ليس في طيها مصلحة .

وتقديم مصلحة النفس هنا من حيث الظاهر فقط ، أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد ، فإنها في الواقع مصلحة دين ، إذ المصلحة الدينية تقتضي - في مثل هذه الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سلمية لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى . وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل . ا هـ .

أقول : إن صاحب الدعوة لابدّ أن يعطيها فرصة لتتمكنّ في الأنفس فلا تؤثّر فيها الأعاصير ، قدّر لو أن الرعيل الأول انشغل بغير التكوين النفسي فكيف سيكون قادراً على الصبر والتحمل إذا جاءت المحنة ؟ وكيف يستطيع مقارعة الباطل وشبهه ؟ وهل يستطيع صهر المستجيبين وحمل الدعوة ؟.

٦١ - * روى الإمام أحمد عن إسماعيلَ بن إيـاسِ بن عفيفٍ الكِنـديِّ عن أبيـه عن جَـدِّه قال : كُنتُ امْرءاً تَاجراً فقدمتُ الحجَّ ، فأتيتُ العبـاسَ بن عبـد المطلب لأبتـاعَ منـه بعض التِّجـارةِ وكان امرءاً تـاجراً ، فـواللهِ إنِّي لعنـدهُ بِمنًى إذ خرجَ رجـلٌ من خِبَـاءٍ قريبٍ منـهُ فنظَرَ إلى الشَّمس فلمّا رآها مالت قامَ يُصلِّي ، قال : ثم خرجت امرأةٌ من ذلك الخِباءِ الـذي خَرج مِنهُ ذلكَ الرّجلُ فقامت خلفهُ تُصلِّي ، ثم خَرجَ غُلامٌ حين رَاهقَ الحُلُمَ من ذَلِكَ الخبـاءِ فقامَ معهُ يصلي ، قال : فقُلتُ للعبّاسِ من هذا يا عبّاسُ ؟ قال : هذا محمـدُ بن عبـد اللهِ بن عبـد المطلبِ ابنُ أخي ، قـال فقلتُ : مَنْ هـذهِ المرأة ؟ قـال : هـذه امرأتُـهُ خَـديجَـةُ ابنـةُ خُويلدٍ ، قال قُلتُ : من هذا الفتَى ؟ قال : هذا عليٌّ بن أبي طَالبٍ ابنُ عمِّه ، قال فقلتُ : فما هذا الذي يصنعُ ؟ قال : يُصلِّي وهو يزعُم أنَّهُ نبيٌّ ، ولم يَتْبَعْـهُ على أمرِه إلا امرأتـه وابن عمِّه ، هذا الفتى ، وهو يزعُمُ أنّه يُفتَحُ عليـهِ كنوزُ كِسْرَى وقيصرَ . قـال : فكان عفيفٌ وهو ابن عم الأشعثِ بن قيسٍ يقـولُ : ـ وأسلمَ بعـد ذلـكَ وحَسُنَ إسـلامُـه ـ لـو كانَ اللهُ رزقني الإسلامَ يومئذٍ فأكونَ ثالثاً مع علي بن أبي طالب .

قال صاحب الفتح الرباني :

مالت الشمس : أي إلى جهـة المغرب ، وجـاء في بعض الروايـات أن النبي ﷺ صلى بها حين زالت الشمس فهي تفسر ما هنـا ، ولا يعـارضـه قول مقـاتل كانت الصلاة أول فرضهـا ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي لقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [1] فقد قيل العشي ما بين الزوال إلى الغروب ، ومنـه قيل للظهر والعصر صلاتـا العشي (قـال الحافظ) كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعـاً وكـذلـك أصحـابـه ، ولكن اختلف هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا ؟ فقيـل إن الفرض كان صـلاة قبـل طلـوع الشمس وقبـل غروبها ، والحجة فيه قوله تعالى ﴿ وَسَبِّح ﴾ أي : صل حال كونك متلبساً ﴿ بِحَمْـدِ رَبِّـكَ

---

٦١ ـ أحمد في مسنده (١ / ٢٠٩) والطبراني (١٨ / ١٠٠) .

وقـال الهيثمي في مجمع الزوائـد (٩ / ١٠٣) : رواه أحمـد وأبو يعلى بنحـوه والطبراني بـأسـانيـد ، ورجـال أحمـد ثقات .

(١) غافر : ٥٥ .

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[1] .

٦٢ - *روى الطبراني عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ أن النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن ورَقةَ بن نوفلٍ فقال : « يُبْعَثُ يومَ القِيامةِ أُمَّةً وحده » . وذلك لأنه آمن ونوى النصرة وتوفي قبل أن يدعى .

٦٣ - * روى أحمد والترمذي عن زيدِ بن أرقم قال : أوّل من صلّى (وفي لفظ) أوّل من أسلم مع رسول الله ﷺ عليٌّ (قال عمرو أحد الرواة) فذكرت ذلك لإبراهيم (أي : النخعي) فأنكر ذلك ، وقال : أول من أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

قال في الفتح :

وروى ابن إسحاق في السيرة قال : أول ذَكَرٍ آمن برسول الله ﷺ وصدّقه عليّ بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين ، وكان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام . وقال محمد بن كعب : أول من أسلم من هذه الأمة خديجة ، وأول رجلين أسلما أبو بكر وعليّ ، وأسلم عليّ قبل أبي بكر وكان عليّ يكتم إيمانه خوفاً من أبيه حتى لقيه أبوه قال : أسلمتَ ؟ قال : نعم . قال : آزر ابن عمك وانصره ، قال : وكان أبو بكر الصديق أول من أظهر الإسلام ، وروى الطبراني عن أبي رافع: صلى النبي ﷺ أول يوم الإثنين وصلت خديجة آخره ، وصلى عليٌ يوم الثلاثاء . وروى الحاكم في المستدرك من حديث بريدة الأسلمي قال : أوحي إلى رسول الله ﷺ يوم الإثنين وصلىّ عليٌّ يوم الثلاثاء . وصححه الحاكم وأقرّه الذهبي .

وتوفيقاً بين النصوص التي تذكر أول من أسلم قال صاحب الفتح :

ولا منافاة ، فإن أبا بكر أول من أسلم من الرجال ، وعليًّا أول من أسلم من الصبيان ، فقد روي أنه كان حينذاك بين تسع سنين وعشر ، وكان إسلامه قبل إسلام أبي بكر رضي

---

(١) طه : ١٣٠ .

٦٢ - المعجم الكبير (٢٤ / ٨٢) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٤١٦) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

٦٣ - أحمد في مسنده (٤ / ٣٧١) والترمذي (٥ / ٦٤٢) ٥٠ - كتاب المناقب . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح مجمع الزوائد (٩ / ١٠٣) وقال : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح .

الله عنهما .

٦٤ ـ * روى أحمد والبزار عن حبَّة العُرَني قال : رأيتُ علياً رضي الله عنه يضحكُ على المنبرِ لم أرهُ ضَحِكَ ضحكاً أكثر منه حتى بدت نَواجذُهُ ، ثم قال : ذكرتُ قَولَ أبي طالبٍ : ظَهَر علينا أبو طالبٍ وأنا مع رَسولِ الله ﷺ ونحن نُصلّي ببطنِ نخلة فقال : ماذا تَصْنعان يا ابنَ أخي ؟ فَدعاهُ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الإسلامِ ، فقالَ : ما بالذي تَصنعان بأْسٌ ، ولكن لا تَعْلُونِي إستي أبداً . فضحك تعجُّباً لقولة أبيهِ ثم قال : اللهم لا أعترف عَبْداً من هٰذِه الأُمَّة عَبدكَ قبلي غَيرَ نبيِّك ـ ثلاث مرات ـ لقد صَلَّيتُ قبل أن يُصلِّي النَّاسُ سبعاً .

٦٥ ـ * روى الطبراني عن ابن شهاب قال : أول من أسلم زيدُ بنِ حارثةَ .

زيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي ، وقصة تبني رسول الله ﷺ لزيد بعد عتقه مشهورة ، وإسلام زيد وأمثاله ممن هم أكثر الناس خلطة برسول الله ﷺ وأكثرهم معرفة به علم من أعلام نبوّته .

٦٦ ـ * روى الترمذي عن جَبَلَةَ بنِ حارثةَ رضي الله عنه قال : قَدِمْت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسولَ اللهِ ابعَثْ معي أخي زيداً ، قال : « هو ذا ، فإنِ انطلقَ معكَ لم أمنعْه » . قال زيد : يا رسول الله ، والله لا أختار عليك أحداً ، قال : فرأيت رأيَ أخي أفضلَ من رأيي .

٦٧ ـ * روى أحمد عن ابن مسعود قال : كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبةَ بن أبي

---

٦٤ ـ أحمد في مسنده (١ / ٩٩) والبزار : كشف الأستار (٣ / ١٨٢) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ١٠٢) وقال : رواه أحمد وأبو يعلى باختصار ، والبزار والطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

نواجذه : النواجذ هي الأسنان التي تبدو عند الضحك . بطن نخلة : اسم مكان . سبعا : تحتمل كثيراً وتحتمل سبع ليال . لا تعلوني استي أبدا : أي لا ترتفع مقعدتي عن رأسي كا يحدث للساجد .

٦٥ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٧٤) وقال : رواه الطبراني مرسلاً وإسناده حسن .

٦٦ ـ الترمذي (٥ / ٦٧٦) ٥٠ ـ كتاب المناقب ـ ٤٠ ـ باب مناقب زيد بن حارثة رضي الله عنه . وقال عنه : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن الرومي عن علي بن مُسْهِر . والحاكم (٣ / ٢١٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وذكره الحافظ في الفتح وسكت عنه وذلك أمارة تحسينه .

٦٧ ـ أحمد في مسنده (١ / ٤٦٢) . قال الهيثمي : رواه احمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح .

مُعَيط ، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر وقد فرّا من المشركين ، فقالا : يا غلام هل عندك من لبن تسقينا ؟ قلت : إني مؤتمن ولستُ بساقيكما .

كان هذا أول الإسلام قبل إسلام عبد الله بن مسعود ، وقد يكون المراد بالفرار في الرواية ؛ ما كان يفعله رسول الله ﷺ وأصحابه من استخفاء إذا ما أرادوا الصلاة ولكن الظاهر أن الأمر غير ذلك ، وهذا يفيد أن الاضطهاد بدأ مبكراً ، والرواية تدلنا على أمانة ابن مسعود مما يشير إلى أن هذه النوعية من الناس هي التي تملك الاستعداد الرفيع للدخول في الإسلام كما حدث لابن مسعود ، وسؤالهما اللبن كان بناء على أن من حق ابن مسعود أن يسقيهما كأن يكون هو صاحب الغنم أو أنه مأذون بالضيافة .

٦٨ - * روى البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : لقد رأيتُني وأنا ثُلُثُ الإسْلام . وفي رواية : ما أسلمَ أحَدٌ إلا في اليوم الذي أسلمت فيه ، ولقد مكثتُ سبعة أيّامٍ ، وإنّي لثلثُ الإسْلام .

قال في الفتح شارحاً قوله : (وإني لثلث الإسلام) قال ذلك بحسب اطلاعه ، والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يخفي إسلامه ، ولعله أراد بالاثنين الآخرين خديجة وأبا بكر ، أو النبي ﷺ وأبا بكر ، وقد كانت خديجة أسلمت قطعاً فلعله خص الرجال ، وقد تقدم في ترجمة الصديق حديث عمار (رأيت النبي ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وأبو بكر) وهو يعارض حديث سعد ، والجمْع بينهما ما أشرت إليه ، أو يحمل قول سعد على الأحرار البالغين ليخرج الأعبد المذكورون وعلي رضي الله عنه ، أو لم يكن اطلع على أولئك ، ويدل على هذا الأخير أنه وقع عند الإسماعيلي من رواية يحي بن سعيد الأموي عن هاشم بلفظ (ما أسلم أحد قبلي) ومثله عند ابن سعد من وجه آخر عن عامر ابن سعد عن أبيه ، وهذا مقتضى رواية الأصيلي ، وهي مشكلة لأنه قد أسلم قبله جماعة ، لكن يحمل ذلك على مقتضى ما كان اتصل بعلمه حينئذ . وقد رأيت في (المعرفة لابن منده) من طريق أبي بدر عن هاشم بلفظ (ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه) وهذا

---

٦٨ - البخاري (٧ / ٨٣) ٦٢ - كتاب فضائل الصحابة - ١٥ - باب مناقب سعد بن أبي وقاص الزهري .

ثلث الإسلام : أي ثالث رجل أسلم .

لا إشكال فيه إذ لا مانع أن يشاركه أحد في الإسلام يوم أسلم ، لكن أخرجه الخطيب من الوجه الذي أخرجه ابن منده فأثبت فيه (إلا) كبقية الروايات فتعين الحمل على ما قلته .

٦٩ - * روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : إنه نزلت فيه آياتٌ من القرآن ، قال : حلفت أمُّ سعدٍ أن لا تُكلمهُ أبداً حتى يكفرَ بدينِهِ ، ولا تأكُلَ ولا تشربَ ، قالت : زعمْتَ أنَّ اللهَ وصَّاكَ بوالديكَ وأنا أمُّكَ ، وأنا آمرُك بهذا ، قال : مكثتْ ثلاثاً حتّى غُشِيَ عليها من الجَهْدِ فقامَ ابنٌ لها يُقالُ له : عُمارةُ ، فَسقاها ، فجعلتْ تدعُو على سعدٍ ، فأنزلَ اللهُ عزّ وجلَّ في القرآن هذه الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾[1] ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾[2] . قال : وأصابَ رسولُ اللهِ ﷺ غنيمةً عظيمةً ، فإذا فيها سَيفٌ ، فأخذتُهُ فأتيتُ به رسولَ اللهِ ﷺ ، فقلتُ : نَفِّلْني هذا السّيفَ ، فأنَا من قَدْ عَلِمتَ حالَهُ ، فقالَ : « رُدَّهُ من حَيثُ أَخَذْتَهُ » فَانْطَلقتُ حَتّى إذا أردتُ أن أُلقِيَهُ في القبض ، لامَتْني نَفْسي ، فَرَجعتُ إليهِ ، فَقلتُ : أَعْطِنيهِ ، قال : فَشَدَّ لِي صَوْتَه : « رُدَّهُ من حَيْثُ أَخَذْتَهُ » ، قال: فَأَنْزَلَ اللهُ عزّ وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ﴾[3] . وَمرِضتُ ، فأرْسلتُ إلى النّبيِّ ﷺ ،

---

٦٩ - مسلم (٤ / ١٨٧٧) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥ - باب في فضل سعد بن أبي وقاص .

نفّلني : نفّلته كذا ، أي : أعطيته نافلة وزيادة على سهمه من الغنيمة .

القبْض : بسكون الباء : مصدر قبضت الشيء قبضًا : أخذته إليك فصار في قبضتك ، أي : في يدك وتحت تصرفك ، وبفتح الباء : الشيء المقبوض وأراد به : ما يجمع من الغنائم ويُحرز ، وهو المراد في الحديث . الجَزُور : البعير ، ذكراً كان أو أنثى ، وأصله : البعير يُنْحرُ ويقطع لحمه ، إلا أن اللفظة مؤنثة . الميسر : القمار . الأنصاب : الأصنام أو الحجارة التي كانوا يذبحون عليها لآلهتهم . والأزلام : القداح ، وإحداها : زلم ، وزُلم - بفتح الزاي وضمها - وهي سهام بلا نصول ولا ريش ، كانوا يضربون بها في القمار ليعرفوا نصيب كل واحد منهم ، وكانوا يضربون بها أيضاً عند الشروع في الأمر يعرض لهم ، من سفر أو زواج أو بيع أو نحو ذلك ، يعرفون بها - في زعمهم - ما هو الأصلح لهم ، فإن خرج لهم « افعل » فعلوا ، وإن خرج « لا تفعل » لم يفعلوا . رجس : الرجس : النجس . شجروا فاها : أي : فتحوه كرهًا . أو جرتُ : الدواء في فيه : إذا ألقيته فيه ، فشبّه إلقاء الطعام في فيها كرهًا بإلقاء الدواء عن غير اختيار . مفزوراً : أي : مشقوقاً .

(١) سورة العنكبوت : ٨ .

(٢) سورة لقمان : ١٥ .

(٣) سورة الأنفال : ١ .

فَأَتَانِي ، فَقُلتُ : دَعْنِي أَقسِّمْ مَالِي حَيثُ شِئتُ ، قال : فأبىَ ، قُلتُ : فالنِّصفُ ، قال : فَأَبىَ قُلتُ : فالثُلثُ ، قال : فَسكَتَ ، فَكَانَ بعدُ الثُّلثُ جَائزاً ، قال : وأتيتُ على نفرٍ من الأنصار والمُهاجرينَ ، فقالوا : تعال نُطعِمْكَ ، ونُسْقِيكَ خَمْراً - وذلك قبلَ أن تُحرّمَ الخمرُ - قال : فأتيْتهُمْ فِي حِشٍّ - والحشُّ : البُسْتَانُ - فإذا رَأْسُ جَزُورٍ مشويٌّ عِنْدَهُمْ ، وزِقٌّ من خمرٍ فأكلتُ وشَربتُ معهمْ ، قال : فَذُكِرَتِ الأنصارُ والمهاجِرُونَ عِنْدهم ، فقلت : المهاجرونَ خيرٌ من الأنصار ، قال : فأخَذَ رجلٌ أحد لَحْيَ الرَّأس ، فَضَرَبَنِي بهِ ، فَجرحَ أنْفِي ، فأتيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ فأخبرتُهُ ، فأنزَلَ اللهُ فِيَّ - يَعْنِي نَفْسَهُ - شَأنَ الخمرِ ﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ والأَنْصَابُ وَالأَزْلام رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾[1] .

وفي رواية في قصة أم سعد : فَكَانوا إذَا أرادُوا أن يُطْعِمُوهَا شَجَروا فَاهَا بِعَصاً ، ثم أوْجَرُوهَا.

وفي آخرها : فَضَربَ به أنْفَ سَعْدٍ فَفَزَرَهُ ، فَكَانَ أنْفُ سَعْدٍ مَفْزُوراً .

واختصره الترمذي[2] قال : أُنزلت فِيَّ أرْبعُ آياتٍ ، فذكر قصَّةً فقالت أمّ سعدٍ : أليْسَ قَدْ أمَرَ اللهُ بالبِرِّ ؟ واللهِ لا أَطْعَمُ طَعَاماً ، ولا أشْرَبُ شَرَاباً حتّى أمُوتَ ، أو تكفُرَ ، قال : فكانُوا إذا أرادُوا أن يُطْعِمُوها شَجَرُوا فَاهَا ، فنزلتْ هذهِ الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ... ﴾[3] الآية .

٧٠ - * روى البخاري عن عمّارِ بن ياسرٍ رضي الله عنه قال : رأيتُ رسولَ الله ﷺ وما معَه إلا خمسةُ أعْبُدٍ وامرأتانِ وأبو بكرٍ .

نجد ههنا نوعية المستجيبين الأوائل لرسول الله ﷺ أصحاب الأصالة ومكارم الأخلاق والمضطهدين والنساء ، وفي ذلك تذكير للدعاة ألا يهملوا المضطهدين والفقراء من عمّال

---

(١) المائدة : ٩٠ .

(٢) الترمذي (٥ / ٣٤١) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٣٠ - باب ومن سورة العنكبوت . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) العنكبوت : ٨ .

٧٠ - البخاري (٧ / ١٨) ٦٢ - كتاب فضائل الصحابة - ٢٥ - باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » .

وفلاحين ، وألا يهملوا النساء ، وأن يركّزوا على المثقفين .

٧١ ـ * روى أحمد عن سالم بن أبي الجعد قال : دَعا عُثْمانُ نَاساً من أصحَاب النبيّ ﷺ فيهم عمَّارُ بن يَاسرٍ فقال : إنّي سَائلُكمْ وإنّي أُحِبُّ أن تَصْدُقُوني ، نشدْتُكُمُ اللهَ أتعلمونَ أن رسُولَ اللهِ ﷺ كان يُؤثِرُ قُريشاً على سَائرِ النَّاس ويُؤثِرُ بني هَاشمٍ على سائرِ قُريْش ؟ فسكَتَ القومُ فقال عثمان : لو أن بيَدِيْ مَفاتيحَ الجنّة لأعطيْتُها بني أميَّةَ حتَّى يدْخُلوا من عند آخرهم ، فبعَثَ إلى طلْحةَ والزُّبير فقال عثمان : ألا أُحدِّثُكُمَا عنهُ ـ يعني عَمّاراً ـ أقْبلْتُ مع رسولِ الله ﷺ آخِذاً بيدي نَتمشّى بالبطْحَاءِ حتّى أتى على أبيهِ وأُمّهِ وعليهِ يُعذَّبُونَ ، فقالَ أبُو عَمّار : يارسولَ اللهِ الدّهرُ هكذا ؟ فَقالَ لهُ النبيُّ ﷺ : « اصْبِرْ » ، ثمّ قال : « اللهُمَّ اغْفر لآلِ يَاسِرٍ وقد فَعلْتَ » .

٧٢ ـ * روى الحاكم عن جابر أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِعمّارٍ وأهله وهم يُعَذّبونَ فقال : « أبشروا آل عمّار وآل ياسر فإنّ موعدَكم الجنّةُ » .

٧٣ ـ * روى الحاكم عن كردوس : أن خبّاباً أسلم سادسَ ستة ، كان سُدُسَ الإسلام .

٧٤ ـ * روى ابن ماجه عن أبي ليلى الكندي قال : جاء خبّاب إلى عمر فقال : ادنُ فما أحدٌ أحقُّ بهذا المجلسِ منك إلاّ عمّار ، فجعل خباب يريه آثاراً بظهره ممّا عذّبه المشركون .

---

٧١ ـ أحمد في مسنده (١ / ٦٢) .

وأورده الهيثمي في الزوائد (٩ / ٢٩٣) ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

نشدتكم بالله : نشدتك بالله أي سألتك بالله . البطحاء : مسيل واسع فيه دقائق الحصى . يقصد عثمان ـ رضي الله عنه ـ أنه كما أكرم رسول الله ﷺ قريشاً وبني هاشم وآثرهم لأنهم قرابته فهو يفعل ذلك ببني أمية لأنهم قرابته حتى لو استطاع أن يدخلهم الجنّة لفعل ، ومن السياق نعلم أن عماراً ـ رضي الله عنه ـ كان لا يرتاح لإيثار بني أمية ، لأن الإيثار لم يقتصر على ما هو شخصي وخاص ، ورضي الله عن الجميع . والنص يدل على ما تقدم إسلام عثمان ـ رضي الله عنه ـ .

٧٢ ـ المستدرك (٣ / ٣٨٩) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

٧٣ ـ المستدرك (٣ / ٣٨٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٩٨) رواه الطبراني مرسلاً ورجاله إلى كردوس رجال الصحيح وكردوس ثقة .

٧٤ ـ ابن ماجه (١ / ٥٤) المقدمة ـ ١١ ـ باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ في الزوائد : إسناده صحيح .

٧٥ - * روى البخاري عن خباب بن الأرتّ قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بردةً له في ظِلِّ الكعبةِ قلنا له : ألا تَستنصِرُ لنا ، ألا تَدعو اللهَ لنا ؟ فقال : « كان الرَّجلُ فيمن قَبْلكم يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه ، فيُجاء بالمنشارِ فيوضعُ على رأسهِ فيُشَقُّ باثنَتين ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينه ، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دُونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عَصَب وما يَصدُّهُ ذلكَ عن دينه . واللهِ ليُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يخافُ إلا اللهَ أو الذئبَ على غَنَمه . ولكنَّكم تَستَعجِلونَ » .

٧٦ - * روى مسلم عن أبي أُمَامَةَ قال : قال عَمْرُو بن عَبَسَةَ السُّلَميُّ : كُنتُ ، وأنَا في الجاهليةِ ، أظنُّ أنَّ النَّاسَ على ضَلالَةٍ . وأنهم ليسوا على شيء . وهم يعبُدونَ الأوثَانَ . فسمعتُ برجُلٍ بمكَّةَ يُخبرُ أَخْبَاراً . فقعدتُ على رَاحِلتي . فَقدِمتُ عَليهِ . فَإذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُستخفياً ، جُرءَاءُ عليهِ قَومُهُ . فَتلطَّفتُ حتَّى دَخلتُ عَليهِ بمكَّةَ . فقلتُ لهُ : ما أنتَ ؟ قال : « أَنَا نَبِيٌّ » فقلت : وما نَبِيٌّ ؟ قال : « أرسَلَنِيَ اللهُ » فقلتُ : وَبِأيِّ شيءٍ أرسَلَكَ ؟ قال : « أرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأرْحَامِ وَكسرِ الأوْثَانِ وأن يُوحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ به شَيءٌ » قلتُ لهُ : فمن مَعَكَ على هذا ؟ قال : « حُرٌّ وعَبدٌ » (قال ومَعَهُ يومئذٍ أبُو بَكرٍ وَبِلاَلٌ مِمَّن آمَنَ بِهِ) فقلت : إنِّي مُتَّبِعُكَ . قال : « إنَّكَ لا تَستَطيعُ ذلك يَوْمكَ هَذَا . ألاَ تَرى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ ؟ ولكنِ ارجِعْ إلى أهْلِكَ . فَإذَا سَمِعتَ بِي قد ظَهرتُ فأتِني » قال : فَذَهبتُ إلى أهلِي . وَقدِمَ رسُولُ اللهِ ﷺ المدينَةَ . وكنتُ في أهْلِي فجعلتُ أتخبَّرُ الأَخْبَار ...

أقول : قوله عليه الصلاة والسلام : « ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت

٧٥ - البخاري (٦ / ٦١٩) ٦١ - كتاب المناقب - ٢٥ - باب علامات النبوة في الإسلام .

وأبو داود (٣ / ٤٧) كتاب الجهاد ، باب : الأسير يكره على الكفر .

٧٦ - مسلم (١ / ٥٦٩) ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - ٥٢ - باب إسلام عمرو بن عبسة .

الأرحام : مفردها رحم وهو بيت منبت الولد ووعاؤه ، والقرابة أصلها وأسبابها ، والمقصود من قول الرسول ﷺ أنه يأمر الناس بأن يبتعدوا عن التشاحن والبغضاء والاقتتال والغدر والكيد بين بعضهم وخاصة الأقارب منهم وأن ينشروا بينهم الحب والإخاء والمعاملة الحسنة والوفاء . ظهرت : ظهر الشيء ظهوراً : تبين وبرز بعد الخفاء ، وظهر على عدوه : غلبه .

فـأتني » ، نـأخـذ منـه درسـاً في الـدعـوة : أن تكـديس المريـدين والأعضـاء حيث المحنـة والإيـذاء ليس هو الأصـل ، فهـذا رسـول الله ﷺ يـوجـه نحـو الرجـوع إلى الأقـوام ، وأمر كما سنرى بـالهجرتين إلى الحبشـة ، فـذلـك تخفيف عن المسلمين وإبعـاد عن مواطن الخطر وستر لقـوة المسلمين ، وإعطـاء فرصـة للقـائـد حتى لا يشغل ، وضمان للسريـة ، وإفـادة للمكان المرسل إليه ، وإعداد للمستقبل ، وملاحظة لضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال .

٧٧ ـ * روى الحاكم عن خالدِ بن عميرٍ العَدَويِّ قال : خَطَبَنا عُتبـةُ بن غَزْوانَ فَحَمـد اللهَ وأثْنَى عَليهِ ثم قالَ : أما بعدُ فإنّ الدُّنيا قد آذنَتْ بصُرْمٍ وولّتْ حَذّاء ، وإنّما بَقي مِنْها صُبَابَة كَصُبَابةِ الإناءِ يَصْطَبُّها صَاحِبُهَا ، وإنّكُم مُنْتَقِلونَ منها إلى دارٍ لا زَوَالَ لهـا ، فـانتقِلُوا مِنْهـا بخيرِ ما يَحْضُرُكُم ، فإنّهُ قدْ ذُكِرَ لَنَا أنّ الحجَرَ يُلقَى من شَفيرِ جهنّمَ فَيهْوي بهـا سَبْعين عَـامـاً وما يدرك لهـا قَعْراً فوالله لتملأنّـهُ . أفَعَجِبْتم وقـد ذُكر لَنـا أن مِصْراعَيْن من مَصَـارِيع الجنّـة بينهُما أرْبعُونَ سنةً وليـأتينَّ عليـه يومٌ وهو كَظِيـظٌ من الزِّحـام . ولَقـدْ رأيْتُني وَإنّي لسـابعُ سبْعةٍ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ ما لَنَا طعامٌ إلاّ وَرَق الشّجرِ حتّى قَرِحَت أشْداقُنَـا ، وإني التَقَطتُ بُرْدةً فشققْتُهـا بيني وبين سَعْـد بن أبي وقـاصٍ فـارسِ الإسلامِ فـأتزرتُ بنصْفِهَـا وأتـزَر سَعْـدٌ بنصْفِهَا ، وما أصبَحَ منّا اليوم أحدٌ حيٌّ إلاّ أصبحَ أميرَ مصرٍ من الأمصـار ، وإنني أعوذُ بـاللهِ أنْ أكونَ في نَفْسي عظيماً وَعِنْدَ الله صغيراً ، وإنها لم تَكُنْ نبوّةٌ قطُّ إلاّ تَنـاقَصَت حتّى يَكُونَ عَاقِبَتُها مُلكاً ، وَسَتُجَرِّبُونَ أو ستَبلونَ الأُمَرَاء بَعْدي .

قوله : (وما أصبح منّا اليوم أحد حيّ إلا أصبح أمير مصرٍ من الأمصار) فيه إشـارة إلى ملاحظة السبق والقدم في التـأمير دون أن يكون ذلـك قـاعـدة مطلقـة ، ومن الملاحـظ أن الخلفاء الراشدين الأربعة كلهم ممن تقدمت له سابقة إسلام وتقدم إسلام .

قولـه : (لم تكن نبوّة قـط إلاّ تنـاقصت حتى يكـون عـاقبتها ملكاً) هـذا هـو الـواقـع التاريخي قديماً وهو ما حـدث بعـد محمـد ﷺ . وعلى الأمـة الإسلاميـة الآن أن تحكم أمرهـا

٧٧ ـ المستدرك (٣ / ٢٦١) وقال · صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

آذنت بصرم وولت حذاء : المراد انقطاع الدنيا ، والحذاء : المقطوعة . صبابة : البقية من الماء واللبن في الإنـاء . شفير جهنم : أي جانبها وطرفها . كظيظ : ممتلىء من الازدحام . قرحت أشداقنا : أي تجرّحت .

للوصول إلى الخلافة الراشدة ووضع القواعد لضمان استمرارها .

٧٨ - * روى مسلم عن عبدالله بن الصامت قال: قال أبو ذر : خرجنا من قَوْمِنَا غِفَارٍ وكانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الحَرامَ ، فَخَرجتُ أنا وأخي أُنَيْسٌ وأمُّنَا ، فنزلنَا على خالٍ لنا ، فأكرَمَنا خَالُنا وأحسَنَ إلينَا ، فَحسدَنا قومهُ ، فقالوا: إنَّكَ إذا خرجتَ عن أهلِكَ خالَفَ إليهم أُنَيْس ، فَجاءَ خَالُنا فَنَثَا عَلَيْنا الَّذي قِيلَ لَهُ ، فقلتُ: أمَّا ما مَضَى من مَعْرُوفِكَ ، فقد كدَّرتَهُ ، ولا جِمَاع لك فيما بعد ، فَقرَّبنا صِرمَتَنَا ، فَاحْتَمَلْنا عليها ، وَتَغطَّى خَالُنا ثوبه ، فَجعَل يَبْكي ، فَانْطَلَقْنا حتَّى نَزَلنا بحضرةِ مكةَ ، فَنافرَ أُنيسٌ عن صِرْمَتِنَا وعن مِثْلِها . فأَتَيَا الكاهنَ ، فخَيَّر أُنَيْسًا ، فأتانا أُنيسٌ بصِرْمَتِنا ومثلِها مَعَها قال: وقد صَلَّيْتُ يابن أخي قبلَ أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاثِ سنينَ ، قُلتُ: لِمَنْ ؟ قال: للهِ . قلتُ: فأين تَوَجَّهُ ؟ قال: أتوجَّهُ حَيْثُ يُوجِّهُني رَبِّي . أصلِّي عِشَاءً ، حَتَّى إذا كَانَ من آخِرِ اللَّيْلِ أُلقيتُ كأنِّي خِفَاءٌ ، حتى تعلُوني الشمس ، فقال أُنيسٌ : إن لي حاجة بِمكَّة ، فَاكْفِنِي ، فانطَلَقَ أُنيسٌ حتَّى أتَى مَكَّةَ ، فَرَاثَ عليَّ ، ثم جاءَ ، فقلتُ: ما صَنَعْتَ ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلاً بمكَّةَ عَلَى دينكَ يَزْعُمُ أن اللهَ أَرْسَلَهُ ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ ؟ قَالَ: يَقُولُونَ : شَاعِرٌ ، كَاهِنٌ ، سَاحِرٌ ، وكان أُنيسٌ أحَدَ الشُّعراء ، قَال أُنيسٌ :

---

٧٨ - مسلم (٤ / ١٩١٩) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٢٨ - باب من فضائل أبي ذر .

نثا : الحديث ينتوه نتواً : إذا أظهره وأشاعه وأفشاه . لا جِمَاعَ : أي : لا مجامعة لنا معك ولا مَقام . صِرمتنا : الصرمة : القطعة من الإبل نحو الثلاثين . فنافر : المنافرة : المحاكمة تكون في تفضيل أحد الشيئين على الآخر ، يقال : نافرته ، فنفرته ، أي : حاكمته ، فغلبته ، ونفّره الحاكم في المنافرة ، أي : غلّبه وحكم له . خِفاء : الخفاء بالخاء المعجمة وكسرها : كساء يطرح على السقاء . فراث : رات فلان علينا : أبطأ . أقراء الشعر : طرائقه وأنواعه ، واحدها : قَرء - بفتح القاف . فتضعفت : أي نظرت إلى أضعفهم فسألته لأن الضعيف مأمون الغائلة ومع ذلك فإنه لم يسلم من قِبله . الصابئ : منصوب على الإغراء أي : انظروا وحذوا هذا الصابئ . والصابئ من غيّر دينه . مدرة : المَدَرَة : الطينة المستحجرة . نصب : النُّصُب : الحجر أو الصنم الذي كانوا ينصبونه في الجاهلية ويذبحون عليه ، فيحمر من كثرة دم القربان والذبائح ، أراد : أنهم ضربوه حتى أدموه ، فصار كأنه نُصُب أحمر . تكسرت عكن بطني : جمع عكنة وهو الطيّ من البطن من السمن ، ومعنى تكسرت أي انثنت وانطوت طاقات لحم بطنه . سخفة جوع : سخفة الجوع : رقته وهزاله . ليلة إضحيان : وإضحيانة ، أي : مضيئة لا غيم فيها ، فقمرها ظاهر يضيئها . ضرب على أسمختهم : الأسمخة : جمع سماخ ، وهو ثقب الأذن ، والضرب هاهنا : المنع من الاستماع ، وذلك كناية عن النوم المفرط . إسافاً ونائلة : إساف ونائلة : صنمان تزعم العرب أنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة فَمُسِخَا . هنٌ مثل الخشبة : الهَنُ من الرجل ذَكَرهُ . تولولان : الولولة : الاستغاثة والصياح . أو الدعاء بالويل . أنفارنا : الأنفار : الجماعة ، أي : من أصحابنا وجماعتنا ، وهو من النفر الذي هو من الثلاثة إلى العشرة . تملأ الفم : قولها : تملأ الفم ، أي أنها عظيمة لا شيء أقبح منها . قدعْتُه : أي : منعته . طعامُ طعمٍ: يقال : هذا طعامٌ =

لَقَدْ سَمِعتُ قولَ الكَهَنَةِ ، فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِم ، وَلَقَد وَضَعتُ قَوْلَهُ على أَقْراءِ الشعراء ، فما يلْتَئِمُ على لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعرٌ ، والله إِنَّهُ لَصادقٌ ، وإنّهم لكاذبُونَ ، قَالَ : قُلتُ : فَاكفِني حتى أذهب فَأنظرَ ، قال : فَأتيتُ مَكَّةَ فَتضعَّفتُ رَجُلاً منهُم ، فَقُلتُ : أينَ هذا الّذي تَدْعُونه الصَّابِئ ؟ فأشَارَ إليَّ ، فقال : الصَّابِئ ؟ فمال عَليَّ أهلُ الوادي بكل مَدَرةٍ وعَظمٍ ، حتى خَرَرْتُ مَغْشِيًّا عليَّ ، قال : فارتَفَعتُ حِينَ ارتفعتُ . كأني نُصُبٌ أحْمرُ ، قال : فَأتيْتُ زمزَمَ ، فَغَسَلتُ عنِّي الدِّماءَ ، وشَرِبتُ من مَائِها ، وَلَقد لَبِثتُ يا ابنَ أخِي ثَلاثِينَ ، بَيْنَ ليلةٍ ويومٍ ، وما كَانَ لِي طعامٌ إلا ماءُ زمزمَ ، فَسَمِنتُ حتّى تكسرتْ عُكَنُ بطني ، وما وجدتُ على كبدي سَخفةَ جُوعٍ ، قال : فبينا أَهْلُ مكة في لَيْلَةٍ قمراءَ إضْحِيانَ ، إذ ضُرِبَ على أَسمِختِهِم فما يطُوفُ بالبيتِ أحدٌ ، وامرأتانِ منهم تدعُوانِ إسَافاً ونَائِلةَ ، قال : فأتتا عليَّ في طَوافِها ، فقلتُ : هَنٌ مثلُ الخشَبةِ - غَيْرَ أنّي لا أكني - فَانْطلقَتَا تُولوِلاَن ، وَتَقُولانِ : لو كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ من أنْفَارِنَا ؟ قَالَ : فاستقبلهُمَا رسُولُ اللهِ ﷺ وأبُو بكرٍ ، وهما هَابِطانِ ، قَالَ : مَا لَكُمَا ؟ قَالَتا : الصَّابِئ بَيْنَ الكعبةِ وَأسْتَارِهَا ، قال : مَا قَالَ لكما ؟ قَالَتا : إنّه قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَملأُ الفَمَ ، وَجاءَ رسُولُ اللهِ ﷺ حتى استَلَمَ الحجر ، وَطافَ بالبيتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ ، ثُمَّ صَلّى فَلَمّا قَضَى صَلاَتَهُ ، قال أبو ذرٍّ : فَكُنتُ أنا أول من حيَّاهُ بِتحيةِ الإسلام ، قال فقلتُ : السلام عليكَ يا رسولَ اللهِ . فقال : « وعليكَ السلام ورحمةُ اللهِ » ، ثم قال : « مَن أَنْتَ ؟ » قلتُ : مِنْ غِفارٍ ، قال : فأهوى بيدِهِ ، فوضَعَ أصَابِعهُ على جَبْهتِهِ ، فقلتُ في نفسي : كَرِهَ أن انتَميتُ إلى غِفارٍ ، فذهبتُ آخُذُ بيدِهِ ، فَقَدعَنِي صَاحِبُهُ ، وكانَ أعلم بهِ منّي ، ثم رَفَعَ رأسَهُ ، فقال : « مَتى كُنْتَ هَاهُنا ؟ » قال : قلتُ : قد كُنْتُ هَاهُنَا منذ ثَلاثِينَ ، بينَ ليلةٍ ويومٍ ، قال : « فمن كانَ يُطعِمُكَ ؟ » قال : قلتُ : مَا كانَ لِي طعَامٌ إلا ماءُ زَمْزَمَ ، فَسمنتُ حَتّى تكسَّرَت عُكَنُ بطني ، وما أجدُ على كَبِدِي سَخْفَةَ جُوعٍ ، قَالَ : « إنّها مُبَارَكَةٌ ، إنّها طَعَامُ

= طعمٍ ، أي : طعام شبع ، يعني أنه يشبع ويكف الجوع ويكفي منه . غَبَرْتُ : الغابر هاهنا : الباقي ، وهو من الأضداد . أي بقيت ما بقيت . يثرب : المدينة المنورة طابة وطيبة . وقد جاء في حديث في النهي عن تسميتها يثرب . شَنِفوا له : أي : أبغضوه ونفروا منه ، والشَّنَفُ : البغضُ ، تقول : شنِفتُه . وشنِفت له . تجهَّموا : تجهمت لفلان ، أي : تنكرتُ له واستقبلته بما يكره ، وفلان جهم المحيَّا ، أي : كريه المنظر .

طُعم » ، فقال أبو بكرٍ : يَا رسُولَ اللهِ ، ائـذَنْ لي في طعـامِـهِ الليْلـةَ ، فـانْطلقَ رسولُ اللهِ ﷺ وأبـو بكرٍ ، وانطلقتُ معهُما ، ففتَـحَ أبُو بكرٍ بَـابـاً ، فجعَـلَ يقبضُ لنـا من زَبيبِ الطَّائفِ ، وكان ذَلكَ أوّل طعامٍ أكلتُهُ بهَا ، ثم غَبَرْتُ مـا غَبَرْت ، ثم أتيتُ رسولَ الله ﷺ ، فقال : « إنّهُ قـد وُجِّهتْ لي أرضٌ ذَاتُ نخلٍ ، لا أراهـا إلا يَثْرِب ، فَهَل أنتَ مُبلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ ، عَسَى اللهُ أن يَنْفَعَهُم بِكَ ، وَيأجُركَ فِيهم ؟ » فَأَتيْتُ أُنيْسـاً ، فقَـالَ : ما صَنعْتَ ؟ قُلْتُ : صَنَعتُ أني قَدْ أسْلَمْتُ وصَدَّقْتُ ، قال : ما بِي رَغبـةٌ عن دِينِـكَ فَـإنِّي قد أسْلمتُ وصَدقتُ ، فاحتملنا حتّى أتينا قومَنَا غِفَاراً ، فأسلَم نِصفُهُم ، وكان يؤمُّهُم إيمَـاءُ بنُ رَحَضَة الغِفَارِيُّ ، وكان سَيِّـدهُم ، وقـال نِصفُهُم : إذا قَـدمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المـدينـةَ أسْلَمْنـا ، فقدمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ ، فأسلمَ نصفهُم الباقي ، وجاءتْ أَسْلَمُ ، فقـالوا : يـا رسولَ اللهِ ، إخوانُنا نُسلمُ على الذي أسلمُوا عليهِ ، فقـال رسول الله ﷺ : « غِفَـارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَـا ، وأسلَمُ سالَمَهَا اللهُ » .

زاد بعض الرواة ـ بعد قول أبي ذر لأخيـه : (فـاكْفِني حَتّى أذهبَ فـأنظُرَ) ـ (قـال : نَعمَ ، وكُنْ على حَذرٍ من أهلِ مكّةَ ، فإنهُم قد شَنِفُوا لهُ وتجهَّموا) .

وفي رواية قـال : (فَتَنَـافَرا إلى رَجُلٍ من الكُهّـانِ ، قَـالَ : فلم يَزَل أخِي أُنيسٌ يمـدحُـهُ حتّى غَلَبهُ ، فأخَذْنَا صِرمَتَهُ فَضَممناها إلى صِرْمَتِنا) .

وفي روايـة البخـاري ومسلم عن عبـد الله بن عبـاس قـال : ألا أُخبركم بـإسـلام أبي ذرّ ؟ قلنا : بلى ، قال : قال أبو ذرّ : كنتُ رجلاً من غِفار ، فبلغَنا أن رجلاً خرج بمكة يزعم أنـه نبيٌّ ، فقلتُ لأخي : انطلق إلى هذا الرجل فكلّمه ، وأتني بخبره .

٧٩ ـ * روى البخاري عن ابن عباس قال : لما بلغ أبا ذرٍّ مبعثُ النبيِّ ﷺ قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي ؛ فاعلمْ لي عِلمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ يـأتيـه الخبرُ من السماء ، واسمع من قوله ، ثم ائتني ، فانطلق الأخ حتى قدمه ، وسمع من قولـه ، ثم رجع إلى أبي ذر ،

---

٧٩ ـ البخاري (٧ / ١٧٣) ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٢٣ ـ باب إسلام أبي ذر الغفاري .

ومسلم (٤ / ١٩٢٣) ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ـ ٢٨ ـ باب : من فضائل أبي ذر .

الشَّنَّةُ : الزق البالي الذي يحمل فيه الماء .

فقال : رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشّعر ، فقال : ما شَفَيْتَني مما أردتُ ، فَتَزوَّد وحمل شَنَّةً له فيها ماءً ، حتى قَدِمَ مكةَ ، فأتى المسجد ، فالتمس النبيَّ ﷺ - ولا يعرفُه ، وكره أن يسأل عنه - حتى أدركه بعض الليل فرآه عليٌّ ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم احْتَمل قِرْبتَه وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى ، فعاد إلى مَضْجَعِه ، فمرَّ به عليٌّ ، فقال : أما نال للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان يوم الثالث فعاد علي مثل ذلك ، فأقامه معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أَقْدَمَك ؟ قال : إن أعطيتَني عهداً وميثاقاً لَتُرشِدَني فعلتُ ، ففعل ، فأخبره ، قال : فإنه حق ، وهو رسولُ الله ﷺ فإذا أصبحتَ فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أُريق الماء ، فإذا مضيتُ فاتّبعني حتى تدخل مَدْخَلي ، ففعل ، فانطلق يَقْفُوه حتى دخل على النبيِّ ﷺ ، ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانَه ، فقال له النبيُّ ﷺ : « ارْجع إلى قومك فأخبرهم ، حتى يأتيك أمري » ، قال : والذي نفسي بيده ، لأَصرُخَنَّ بها بين ظَهرانَيْهم ، فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ثم قام القوم فضربوه حتى أوجعوه ، وأتى العباسُ ، فأكبَّ عليه ، وقال : ويلكم ، ألستم تعلمون أنه من غِفار ، وأن طريق تُجّاركم إلى الشام ؟ فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد فضربوه ،وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه .

وفي الرواية الأخرى : أن النبي ﷺ قال له لما أسلم : « يا أبا ذرّ ، اكتُم هذا الأمر ، وارجعِ إلى بلدك ، فإذا بلغك ظُهورُنا فأقبِل » ، قال : فقلتُ : والذي بعثك بالحق ، لأصرخنّ بها بين أظهرهم .. وذكر نحوه » .

قال : فكان هذا أول إسلام أبي ذر رضي الله عنه .

٨٠ - * روى الحاكم عن عبد الله بن بُرَيْدَة عن أبيه قال : انطلَق أبو ذرٌّ ونعيم ابن عم أبي

---

٨٠ - المستدرك (٣ / ١١٢) وقال : صحيح الإسناد . ووافقه الذهبي .

مكتتم : أي متخفف وهو اسم فاعل من الكتم : وكتم الشيء كتماً وكتماناً : ستره وأخفاه . وفي هذا تصريح بأن إسلام أبي ذر كان في المرحلة السرية .

ذر وأنا معهم نطلبُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بـالجبلِ مُكتتمٌ ، فقـال أبو ذرٍّ : يا مُحمدُ أتيناكَ نسمعُ ما تَقولُ وإلى ما تَدْعُو ، فقـال رسُولُ اللهِ صلى الله عليـهِ وآلـه وسلم : « أقُولُ لا إله إلا اللهُ وإني رسُولُ اللهِ » فَآمَن به أبُو ذرٍّ وصاحبُهُ وآمنْتُ بـهِ ، وكان عليٌّ في حَاجةٍ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآلـه وسلم أرسلـهُ فيهـا ، وَأُوحي إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلمَ يومَ الاثنينِ وصلَّى عليٌّ يوم الثلاثاءِ .

والجمع بين هذه الرواية والتي قبلها أنها حادثة لاحقة للحادثـة الأولى ، فبعـد أن أسلم أبو ذر أتى بهذين معه متظاهراً أنه لم يسبق له إسلام من أجل أن يسمع رفيقاه فيسلما .

٨١ - * روى الحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : لقد رأيتُني سادس ستّةٍ ما على الأرض مسلمٌ غيرنا .

٨٢ - * روى الحاكم عن عُروَةَ قـال : كانت نَفْحـةٌ من الشَّيطـانِ أن محمـداً صلى الله عليـه وآله وسلم قد أُخِذَ ، فسمع بذلـك الزُّبيرُ وهو ابن إحـدى عَشْرةَ سنـة فَخرجَ بـالسَّيفِ مَسْلولاً حتّى وقفَ على النَّبي ﷺ فقال : « ما شأنُكَ ؟ » فقال : أردتُ أن أضْربَ من أخَذَكَ فدعـا لـهُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولسيفهِ ، وكان أوَّل سيفٍ سُلَّ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ .

٨٣ - * روى ابن مـاجـه عن عبـد الله بن مسعـود قـال : كانَ أوَّلَ من أظْهرَ إسْلامَـهُ سبعةٌ : رَسُولُ اللهِ ﷺ وأبُو بكرٍ وعمارٌ وأمُّهُ سُمَيَّةُ وَصُهيبٌ وَبِلاَلٌ والمِقْدامُ ، فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فمنعهُ اللهُ بعمّـهِ أبي طـالبٍ ، وأمَّا أبُو بكرٍ فمنعـهُ اللهُ بقومـهِ ، وأمـا سـائرُهُمْ فـأخـذهُم المشركُونَ وألْبسُوهُم أدراعَ الحديدِ وصهرُوهُمْ في الشَّمسِ . فَمَا مِنْهُم من أحَـدٍ إلا وقـدْ واتـاهُمْ على ما أرَادُوا إلاّ بلالاً فَإنَّهُ هانَتْ عَليـهِ نفسُـهُ في اللهِ وَهَـانَ على قومـهِ ، فـأخـذُوهُ فَـأَعْطوهُ

---

٨١ - المستدرك (٣ / ٣١٣) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

٨٢ - المستدرك (٣ / ٣٦٠) وسكت عنه الذهبي في التلخيص . وإنما أردناه هنـا مع أن فيـه ابن لهيعـة لموافقتـه للمحفوظ من تقدم إسلام الزبير وهو صغير .

٨٣ - ابن ماجه (١ / ٥٣) المقدمة ١١ - بـاب فضل سلمـان وأبي ذر والمقـداد . والحـاكم (٣ / ٢٨٤) ، وصححـه ووافقـه الـذهبي.

منعه : أي عصمه الله من أذاهم . صهروهم : من صهر كنع أي عـذبوهم . واتـاهم : أي وافقتهم على مـا أرادوا من ترك إظهار الإسلام . هانت : أي حقرت وصغرت عنده لأجله تعالى . الشعاب : جمع شعب وهو الطريق في الجبل .

الوِلْدانَ فَجعلُوا يُطوفُونَ به في شعابِ مكّةَ وهوَ يقُولُ أحَدٌ أحَدٌ .

٨٤ ـ * روى الحاكم عن محمد بن عمّارِ بن ياسرٍ عن أبيه قال : أخَذَ المشركُونَ عمّارَ بن ياسر فلم يتركوهُ حتى سَبَّ النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلمَ وَذكرَ آلهتهُم بخيرٍ ثم تركوُه ، فلمّا أتى رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم قال : « مَا وَرَاءَكَ ؟ » قال : شَرٌّ يا رَسُولَ اللهِ ما تُرِكتُ حتى نِلْتُ مِنْكَ ، وَذكَرْتُ آلِهتَهم بخيرٍ . قال : « كَيفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قال : مُطْمئنٌ بالإيمان . قال : « إنْ عادُوا فَعُدْ » .

٨٥ ـ * روى مسلم عن سعدِ بن أبي وَقّاصٍ رضي الله عنه قال : كُنّا مع النَّبي ﷺ ستّةَ نَفرٍ ، فقال المُشرِكُونَ للنَّبيِّ ﷺ : اطرُدْ هؤلاءِ لا يجترئُونَ عَلَيْنَا ، قال : وَكنتُ : أنا وابنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ من هُذيلٍ وَبِلالٌ وَرجُلانِ لستُ أُسمِّيهما ، فَوقَعَ في نَفسِ رَسُولِ الله ما شَاءَ اللهُ أن يَقعَ ، فَحَدَّث نَفْسه ، فأَنزَلَ اللهُ : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[1] .

٨٦ ـ * روى أحمد والطبراني عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ قال : مَرّ المَلأُ من قُريشٍ على رسولِ الله ﷺ وعِنْدَهُ خَبّاب وصُهيب وبلال وَعَمّارٌ فقالوا : يا مُحمَّدُ أرضِيتَ بِهؤلاءِ فَنزلَ فِيهمُ القرآنُ ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾

---

٨٤ ـ المستدرك (٢ / ٣٠٧) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

نلت منك : سببتك وشتمتك . كيف تجد قلبك : أي هل مازال على الإيمان بالله واليوم الآخر ، فالقول إذا كان من غير تصديق القلب فلا حرج فيه حال الإكراه وهذا مصداق قول الله عز وجل : ﴿ إِلا مَن أُكْرِه وَقَلْبُه مُطْمَئِنٌ بِالإيمَان ﴾ (النحل : ١٠٦) . وقد أجاز فقهاء الحنفية للمسلم أن يقول ما يخرج به من البلاء إذا كان هذا البلاء قتلاً أو قطعًا أو سجن ظالم .

٨٥ ـ مسلم (٤ / ١٨٧٨) ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ـ ٥ ـ باب في فضل سعد بن أبي وقاص .

لا يجترئون : من الجرأة وهو الإقدام على الشيء . والمعنى: أي أبعد هؤلاء عن مجلسنا معك حتى لا يتسلّطوا علينا ولكي يحترمونا ويقدرونا حق قدرنا . فوقع في نفس رسول الله : أي خطر في قلبه : وأصل الوقوع في اللغة السقوط .

(١) الأنعام : ٥٢ .

٨٦ ـ أحمد في مسنده (١ / ٤٢٠) المعجم الكبير (١٠ / ٢٦٨) .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٢١) : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة .

إلى قوله : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] وفي رواية الطبراني أنه قال : فقالوا : يا محمدُ أهؤلاءِ منَّ اللهُ عليهمْ مِنْ بيْنِنَا لو طَردْتَ هؤلاءِ لاتَّبَعْنَاكَ فأنزَلَ اللهُ : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ .

* * *

بداية الدعوة في سريتها وفرديتها :

سيرة رسول الله ﷺ تسع الزمان والمكان والأشخاص ، وهي بمجموعها يجد فيها كل عامل قدوة وأسوة ، وأحكام الإسلام المنبثقة عن الكتاب والسنّة تكفّل الاستجابة لحاجات الإنسان وظروفه ، ومن ههنا نقول :

إن من واجه ظروفاً كالظروف التي واجهها رسول الله ﷺ في بداية الدعوة يسنّ له أن يدعو سراً ، وقد يتعين ذلك عليه إذا كان واجب الدعوة وتحقيق الهدف لا يتمّان إلا بالسرية ، فليست السرية مفروضة دائماً أو مسنونة دوماً ، بل الحكم فيها منوط بالظروف التي تواجهها الدعوة وأصحابها .

ورأينا في مرحلة الدعوة السرية كيف أن الدعوة كانت فردية يقوم بها رسول الله ﷺ أو أصحابه ، وأن الإيذاء بدأ مبكراً ، والعروض والإغراءات والتزهيد بالمستجيبين من قِبل الكبراء كل ذلك كان واضحاً ، وهي قضايا يجب أن يلتفت إليها الدعاة ، وقد رأينا أكثر من نموذج أسلم فأرجعه رسول الله إلى قومه متربصاً منتظراً داعياً ، مما يشير إلى أن هناك حالات يفضّل فيها الانتشار على التجمع في المكان الواحد ، وهذا كذلك موضوع يخضع لظروف الدعوة والداعية فليس التجمع في المكان الواحد مفروضاً في كل الأحوال ، فلكل وضع أحكامه .

ولم نستقص فيما نقلناه كل الأحوال والأحداث التي حدثت في المرحلة السرية والفردية لتداخلها مع ما بعدها فكان ما ذكرناه نموذجاً يكفي لتوضيح الصورة .

---

(١) الأنعام : ٥١ ، ٥٢ .

قال السباعي :

إن دعوة الإصلاح إذا كانت غريبة على معتقـدات الجمهور وعقليتـه ، ينبغي أن لا يجهر بها الداعية حتى يؤمن بها عدد يضحون في سبيلها بالغالي والرخيص . حتى إذا نـال صـاحب الدعوى أذى . قام أتباعه المؤمنون بدعوته بواجب الدعوة ، فيضمن بذلك استمرارها .

* * *

فصل : في الدعوة الجهرية

اعتاد المؤلفون أن يعنونوا لهذه المرحلة بمثل العنوان الذي عنونا به ، فوافقناهم عليه مع أنه ملتبس ، فالمرحلة الثانية كان فيها دعوة جهرية جماعية ، لكن قد بقيت الدعوة الفردية مستمرة ، وبقيت السرية قائمة فالاستخفاء في دار الأرقم لازال موجوداً ، وهناك روايات تصرح بذلك ، المهم أن التكتم بقي مستمراً مع الجهر بالدعوة ، ولعل هذه المرحلة تشهد لمن ينادون بجهرية الدعوة وسرية التنظيم ، والظاهر أن هذه المرحلة استمرت حتى إسلام عمر فعندئذ وُجدت جهرية الدعوة على كالها ، وخلال ذلك كان كثيراً ما ينكشف إسلام من أسلم ، وعلى كل الأحوال فجهرية الدعوة وسرية التنظيم منوطان بالظروف والمصلحة والأوضاع التي تواجهها الدعوة أو يواجهها الدعاة .

وبعد ثلاث سنين من البعثة على القول الراجح نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر وَأَعْرِض عَنِ المُشْرِكِينَ ﴾ (٢) ، وعندئذ بدأت الدعوة الجهرية فخَصَّ بها رسولُ الله ﷺ وعمَّ تنفيذاً لأمره تعالى .

٨٧ - * روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قامَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ قالَ : « يا معشرَ قُريشٍ - أو كلمةً نحوها - اشتَرُوا أنفُسكُمْ ، لا أُغْني عَنْكُمْ من اللهِ شيئاً . يا بني عَبْد منافٍ ، لا أُغنِي عَنْكُمْ من اللهِ شيئاً . يا عبّاسُ بن عبد المطلب ، لا أُغني عَنْكَ من اللهِ شيئاً . ويا صفيَّةُ عمَّة رسولِ اللهِ ، لا أُغْنِي عنْكِ من اللهِ شيئاً . ويا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ، سَلِينِي ما شِئْتِ من مَالي ، لا أُغني عَنْكِ من اللهِ شيئاً » .

وللبخاري أيضاً(٣) قال : « يا بني عبدِ منافٍ ، اشتَرُوا أنفُسكُمْ من اللهِ ، يا بَني

---

(١) الشعراء : ٢١٤ .

(٢) الحجر : ٩٤ .

٨٧ - البخاري (٨ / ٥٠١) ٦٥ - كتاب التفسير - باب - ﴿ وَأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ .

(٣) البخاري (٦ / ٥٥١) ٦١ - كتاب المناقب - ١٣ - باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية .

عبد المطَّلب ، اشتَروا أنفسكم من اللهِ ، يا أمَّ الزُّبيرِ بن العوام عمَّةَ رسولِ اللهِ ، يـا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ، اشتريـا أنفسَكُما من اللهِ ، لا أمْلِـكُ لكُما من اللهِ شيئـاً ، سَلاني من مَالي مَا شِئْتُما » .

ولمسلم أيضاً [1] قال : لما نَزلتْ هذهِ الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ دَعـا رسولُ الله ﷺ قُريشاً ، فَاجتمَعُوا ، فَعمَّ وخَصَّ ، فَقالَ : « يَا بنِي كَعب بن لُؤيٍّ ، أَنقِذُوا أنفُسكُمْ من النَّار . يا بَني مُرَّةَ بن كَعْبٍ ، أَنْقِذُوا أنفُسكُمْ مِنَ النَّـارِ . يَـابني عَبْـدِ شَمْسٍ ، أنْقِذُوا أنْفُسكُم من النَّارِ . يا بني عَبدِ مَنـافٍ ، أنْقِـذُوا أنفُسكُمْ من النَّـارِ . يَـا بني هَاشمٍ ، أنْقِذُوا أنفُسكُمْ من النَّارِ . يا بني عبد المُطَّلبِ ، أنْقِذُوا أنْفُسكُم من النَّـار . يا فَاطِمَةُ ، أنْقذي نَفْسكِ من النَّارِ . فَـإنِّي لا أمْلِـكُ لكم مِنَ الله شَيْئـاً ، غَيْرَ أنَّ لَكُم رَحِماً ، سَأَبلُّها بِبَلالِها » .

وأخرجه الترمذي [2] عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ جمع رسـولُ الله ﷺ قريشـاً ، فَخَصَّ وَعَمَّ ، فقـال : « يَـامعشَرَ قُريشٍ ، أنْقِـذُوا أنْفسَكُمْ من النَّارِ ، فَـإنِّي لا أمْلِـكُ لَكُم من اللهِ ضَراً ولا نَفْعـاً . يـا مَعْشَرَ بني عبـد منـافٍ ، أنْقذُوا أنفسَكُم من النَّارِ ، فَإنِّي لا أمْلكُ لَكُم من اللهِ ضَراً ولا نَفْعاً . يَـامَعْشَر بني قُصيٍّ ، أنْقِـذُوا أنْفُسَكُم من النَّـارِ ، فَـإنِّي لا أمْلِـكُ لَكُم من اللهِ ضَراً ولا نَفْعـاً . يامَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِب ، أنْقذُوا أنْفُسكُم مِن النَّار ، فَـإني لا أمْلِـكُ لكم ضَراً ولا نَفْعاً . يَافَاطِمةُ بنْتَ مُحمَّدٍ ، أنْقِذِي نَفْسكِ من النَّارِ ، فَإني لا أملِكُ لَكِ ضَراً ولا نَفْعاً ، إنَّ لك رَحِماً ، سَأبُلُّها بِبَلالِها » .

---

(١) مسلم (١ / ١٩٢) ١ ـ كتاب الإيمان ـ ٨٩ ـ باب في قوله تعالى : ﴿ وأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ .
أنقذوا : أنقذت فلاناً : إذا خلصته مما يكون قد وقع فيه ، أو شارف أن يقع فيه .
سَأبُلُّها : البلالَ : ما يُبلُّ به ، وإنما قـالوا في صلـة الرحم : بل رَحِمَهُ ، لأنهم لمـا رأوا بعض الأشيـاء يتَّصل ويختلـط بالنداوة ، ويحصل بينهما التَّجـافي والتفرق بـاليبس ، استعـاروا البل لمعنى الوصل ، واليبس لمعنى القطيعـة ، والمعنى : سأصل الرحم بصلتها ، وقيل : البلال : جمع بَلٍ .

(٢) الترمذي (٥ / ٣٣٨) ٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن ـ ٢٧ ـ بـاب : ومن سورة الشعراء . قـال أبو عيسى : حـديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

٨٨ - * روى مسلم عن قَبِيصَةَ بن مُخَارِقٍ وزُهير بن عَمْرو رضي الله عنهما قالا : لما نزلتْ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ انْطَلَقَ نبيُّ الله ﷺ إلى رَضْمَةٍ من جَبلٍ فَعلا أعْلاها حَجَراً ، ثم نَادىَ : « يَا بني عَبْدِ مَنَافاه إنّي نَذِيرٌ ، إنّما مَثَلي وَمَثَلُكُم كَمَثَلِ رَجُلٍ رأى العَدُوَّ ، فَانْطَلَق يَرْبَأُ أهْلَهُ ، فَخَشِي أن يَسْبِقُوهُ ، فَجَعل يَهتِفُ: يا صباحاه ».

يغفل كثير من الدعاة عن تذكير أسرهم وأهليهم وعشيرتهم وأقاربهم ، وهذا مجافٍ للفطرة ولفقه الدعوة ولسنّة الدعوة فعلى الداعية إلى الله أن يخص أرحامه وأقاربه ببعض الوقت لدعوتهم وتعليمهم وتربيتهم .

إن أصل الفطرة أن يحب الإنسان أقاربه وأرحامه ، وأن يحرص على ما ينفعهم وأن يبعد عنهم ما يضرهم ، والداعية إلى الله همه الأول أن ينقذ الناس من النار ، فإذا ما أهمل أقرب الناس إليه ، فكأنه يدلل على عدم صدقه في دعوته ، فإن كان همه الإنقاذ فهؤلاء أولى الناس بالبداءة ، أما إذا كان همه الزعامة والرئاسة وهؤلاء مطمئن لموقفهم منه فهذه كارثة ، أو كان لا تحركه نحوهم عاطفة خاصة فهذا مجاف للفطرة ، المهم أن كل داعية لابد أن يخص أهله وأقاربه بمزيد عناية ابتداءاً أو توسطاً أو انتهاءاً ، والابتداء سنّة رسول الله ﷺ .

قال السباعي : إن على الداعية أن يهتم بأقربائه ، فيبلغهم دعوة الإصلاح . فإذا أعرضوا ، كان له عذر أمام الله والناس ، عما هم عليه من فساد وضلال .

٨٩ - * روى البخاري عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ وأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفا ، فجَعل يُنَادِي : « يا بني فِهْرٍ ، يا بني عَديٍّ » - لبطونِ قُرَيْشٍ - حتّى اجْتَمَعُوا . فجَعلَ الرَّجُل إذَا لم يستطعْ أن يَخرُجَ أرْسلَ رَسُولاً ، لينظُرَ ما هُوَ ؟ فجَاءَ أبو لهبٍ وقُريشٌ ، فقال : « أرأيتكمْ لو أخبرتُكُم أنّ خَيْلاً بالوَادي ،

---

٨٨ - مسلم (١ / ١٩٣) ١ - كتاب الإيمان - ٨٩ - باب في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ .

رضمة : الرَّضْمَةُ : واحدة الرضم : وهي الحجارة والصخور بعضها على بعض . يَرْبَأُ : الرَّبِيئَةُ : الذي يحرسُ القوم ، ويتطلع لهم ، خوفاً من أن يكبسهم العدو . يا صباحاه : كلمة يقولها الملهوف والمستغيث .

٨٩ - البخاري (٨ / ٥٠١) ٦٥ - كتاب التفسير - ٢ - باب ﴿ وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ .

تبّاً لك : التبُّ : الهلاكُ : أي هلاكاً لك ، وهو منصوب بفعل مضمر . البطحاء : الأرض المستوية .

تُرِيْدُ أن تُغيرَ عَلَيكُم ، أكنتمْ مُصدِّقيَّ ؟ » قالُوا : نَعمْ ، ما جرَّبْنا عليكَ إلا صِدْقاً ، قال : « فإنِّي نَذيرٌ لكُم بين يَديْ عذابٍ شديدٍ » فقال أبو لهب : تباً لكَ سَائِرَ اليومِ ، ألهذا جَمعْتَنا ؟ فنَزلتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾[1].

وفي بعض الروايات[2] : (وقد تَبَّ) كذا قرأ الأعمشُ .

وفي روايةٍ[2] : أنَّ النبيَّ ﷺ خَرجَ إلى البَطْحاء ، فَصَعِدَ إلى الجَبلِ ، فنادى : « صَبَاحَاهْ ، يا صَبَاحَاهْ » فاجتمعت إليه قريشٌ فقال : « أرأيتُم إن حَدَّثْتكم : أنَّ العدُوَّ مُصبِّحُكُمْ ، أو مُمْسيكُمْ ، أكنتمُ تُصدِّقُونِي ؟ » قالُوا : نَعَم ، قال : « فَإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بين يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ » وذكر نحوه .

وللبخاري[3] أيضاً قال : لما نزل : ﴿ وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ جَعَلَ النبيُّ ﷺ يَدْعُوهُم قَبَائلَ ، قَبَائلَ .

وفي رواية للبخاري[4] : لمَّا نزلت : ﴿ وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ، ورَهْطَكَ مِنْهُمْ المُخلصِينَ ﴾ خَرجَ رسولَ اللهِ ﷺ حتى صَعِدَ الصَّفا ، فهتفَ : « يا صباحاهْ » فَقَالُوا : من هذا ؟ فاجتَمعُوا إليهِ ، فقال : « أرَأيتم إن أخْبرتُكَم أنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ من سَفحِ هذَا الجبلِ ، أكُنتمْ مُصَدِّقيَّ ؟ » قَالُوا : ما جَرَّبنَا عليكَ كِذَباً .. وذكر الحديث .

قال في الفتح :

والسر في الأمر بإنذار الأقربين أولاً أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم ، وإلا فكانوا علة للأبعدين في الامتناع ، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف ، فلذلك نص له على إنذارهم . وفيه جواز تكنية الكافر ، وفيه خلاف بين العلماء ، كذا قيل .

(١) سورة المسد : ١ ، ٢ .

(٢) البخاري (٨ / ٧٣٧) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة (١١١) ـ ٢ ـ باب ﴿وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ .

(٣) البخاري (٦ / ٥٥١) ٦١ ـ كتاب المناقب ـ ١٣ ـ باب : من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية .

(٤) البخاري (٨ / ٥٣٧) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة (١١١) ، باب : ١ ـ .

(ورهطك منهم المخلصين) : هذا مما نسخت تلاوته .

٩٠ - * روى الإمام أحمد عن عليّ قال : لما نزلت هذه الآيةُ : ﴿ وَأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ قال : جمعَ رسولُ اللهِ ﷺ من أهل بيته فاجتمعَ له ثلاثونَ رجلاً فأكَلُوا وشرِبُوا قال : فقال لهم : « من يَضْمَنُ عَنِّي ديني وَمَوَاعيدِي ويكُونُ مَعِي في الجَنَّةِ ويكُونَ خَلِيفَتِي في أهلِي » فقال رجَلٌ لم يُسمه شريكٌ : يارسولَ اللهِ أنتَ كُنتَ بَحراً من يقُومُ بهذا ، قال : ثم قال : لآخر فعرض ذلك على أهل بيْتِهِ فقال عليّ : أنا .

نفهم من الحديث أدباً وهو أن يكون للداعية إلى الله سواء كان شيخاً أو أمير جماعة أن يكون معه من يحفظ مواعيده ليذكر بها أو ليوفيها، وقد يكون منصب أمين السر في عصرنا يحقق الضبط لهذه الشؤون ، وخلفاء القائد عليهم مراعاة ذلك ، ومن فقه الدعوة في الحديث أن يخص الداعية الأخص من أهل بيته بمزيد عناية في الدعوة ، وأن يصطنع المناسبات لتبليغ دعوته ، والوليمة مناسبة من المناسبات عند الداعية لتحقيق هدف أو لتبليغ دعوة .

* * *

أصناف خصوم الدعوة الجهرية :

ويبدو أن الدعوة الجهرية لقريش لم تلق استجابة مباشرة بل لقيت صداً مباشراً وكيداً عنيفاً ، وبهذه المناسبة تحدّث الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة عن أنواع الخصوم الذين واجهوا دعوة رسول الله ﷺ . قال : ومن أولئك الخصوم :

* متعصبون تحجّرت عقولهم . تزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم . ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ... ﴾[١] .

* .. أو مترفون سرتهم ثروتهم يحبون الباطل لأنه على أرائك وثيرة ، ويكرهون الحق

---

٩٠ - أحمد في مسنده (١ / ١١١) وإسناده جيد وتقدمت له طرق في علامات النبوة .

مواعيدي : أي ما وعد به الرسول ﷺ أحداً ولم يتم له أن يعطيه . بحراً : أي كانت مواعيده وعطاؤه كثيرين كالبحر .

(١) الحج : ٧٢ .

لأنه عاطل عن الحلي والمتاع ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِياً ﴾[1] !!

* .. أو متعنتون يحسبون هدايا الرحمن عبث صبية ، أو أزياء غانية فهم يقولون : دع هذا وهات هذا ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾[2] !!

* .. أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عندما تقرأ الآيات ، حتى لا تسمع فتفهم فتترك أثراً في عقل نقي وقلب طيب ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[3] !!

لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق محمد ﷺ حتى يبحثوا أمره ويمحصوا رسالته ، ويزنوا - على مهل - ما لديهم وما جاء به ، لما عابهم على هذا عاقل . ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعدما انكشفت جريمته وثبتت إدانته . اهـ .

٩١ - * روى الطبراني عن جُبيرِ بن نُفيرٍ قال : جَلسْنَا إلى المقدادِ بن الأسودِ يوماً وَمرّ بنَا رَجلٌ واستمعنا إليه فقال : طُوبَى لهاتين العَيْنَيْن اللتين رَأتَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، واللهِ لَوَدِدْنَا أنّا رَأيْنَا مَا رأيْتَ وشهدنَا ما شَهِدْتَ ، فأقبل إليه فَقالَ : ما يحملُ الرّجُلَ أن يتمنى مُحضراً غيَّبَهُ اللهُ عنهُ لا يَدْرِي كيف يكُونُ فيهِ ، والله لقد حضرَ رسولَ اللهِ ﷺ أقْوامٌ كَبَّهُمُ الله على مَنَاخِرِهِم في جَهَنم لم يُجيبُوه ولم يُصدِّقُوه ، ألا يحمدُ اللهَ تعالى أحدُكم أن لا تَعْرِفُوا إلا رَبَّكُم مُصدِّقينَ بما جَاء بهِ نبيِّكُم ، فَقد كُفِيتمُ البَلاءَ بغيركم ، والله لَقَدْ بُعِثَ النبيُّ ﷺ على أشدِّ حالٍ بُعِثَ عليها نبيٌّ من الأنْبيَاءِ في فترةٍ وجاهليّةٍ لم يَرَوا أنّ دِيناً أفْضَلُ مِنْ عِبَادة الأوْثَانِ ، فجاء بفُرقانٍ فرّق به بين الحقّ والباطلِ وَفرّقَ بين الوالِدِ وولدِهِ ، حتى إنْ كانَ الرجلُ ليَرىَ وَالِدهُ أو وَلَدهُ أو أخَاهُ

---

(١) مريم : ٧٣ . (٢) يونس : ١٥ . (٣) فصلت : ٢٦ .

٩١ - المعجم الكبير (٢٠ / ٢٥٤) وأحمد في مسنده (٦ / ٣) ، وقال الهيثمي في المجمع (٦ / ١٧) : رواه الطبراني بأسانيد في أحدها يحيى بن صالح ، وثقه الذهبي وقد تكلموا فيه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

طوبى : اسم للجنة . وقيل هي شجرة فيها وأصلها في اللغة فعلى من الطيب . لوددنا : من الود وهو الحب أي أحببنا . فترة وجاهلية : الفترة أي زمان انقطع فيه مجيء الأنبياء . وهي الفترة ما بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ . والجاهلية : ما كان عليه العرب قبل الإسلام من عبادة الأصنام والجهل والضلال . بفرقان : أي القرآن . حميه : أي قريبه .

كَافراً ، وقد فَتَح اللهُ تعالى قِفْلَ قَلْبِهِ للإيمان ليَعْلَمَ أنه قد هَلَكَ من دَخَلَ النَّـار ، فلا تَقَرّ عَيْنُـهُ وهُوَ يعلمُ أن حَميَهُ في النَّار ، وأنَّها التِي قال اللهُ تعالى :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾[1] .

٩٢ ـ * روى مسلم عن أبي هريرة قـال : قـال أبـو جهـل : هـل يُعَفِّرُ محمَّد وجهـه بين أظْهُرِكم ؟ قـال : فقيل : نعم ، فقـال : واللاتِ والعزّى لئنْ رأيتُـهُ يفعـل ذلـك لأطـأنَّ على رقبتـه أو لأُعفِّرنَّ وجهَـه في التراب . قـال : فـأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّي زَعَم لِيطأَ على رَقَبَتـه قـال : فـما فَجِئَهُم منـهُ إلا وَهُو ينكُصُ على عَقِبَيْـه ويتَّقِي بيَـدَيـه ، قـال : فقيلَ لـهُ : مالكَ ؟ فقال : إن بيني وبينهُ لخندقاً من نارٍ وهولاً وأجنحةً ، فقال رسولُ الله ﷺ : « لو دنَا منِّي لاختطفتهُ الملائكةُ عُضواً عُضواً » قـال : فـأنزل الله عز وجل ، لا نـدري في حـديث أبي هريرة أو شيء بلغـهُ ، ﴿ كَـلا إنَّ الإنْسَـانَ لَيَطْغَى أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إنَّ إلَى رَبِّـكَ الرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ الَّـذِي يَنْهَى * عَبْـداً إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إنْ كَـانَ عَلَى الهُـدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إنْ كَذَّبَ وَتَـوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى * كَـلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلا لا تُطِعْهُ ﴾[2] زادَ عُبيدُ اللهِ في حديثه قال : وأمرهُ بمـا أمرهُ بـهِ . وزاد ابنُ عبـدِ الأعلى فليـدعُ نـادِيَـهُ : يعنِي قومهُ .

قـال في الفتح : وإنمـا شـدد الأمر في حق أبي جهل ، ولم يقع مثـل ذلـك لعقبـة بن أبي مُعَيْـط حيث طرح سلى الجـزور على ظهره ﷺ وهـو يصلي ، لأنها وإن اشتركا في مطلـق الأذية حالة صلاته ، لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوى أهل طاعتـه وبـإرادة وطء العنق الشريف ، وفي ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل العقوبة لو فعل ذلـك ، ولأن سلى الجزور لم يتحقق نجاستها ، وقد عوقب عقبة بدعائه ﷺ عليه وعلى من شاركه في فعلـه فقتلوا يوم بدر .

---

(١) الفرقان : ٧٤ .

٩٢ ـ مسلم (٤ / ٢١٥٤) ٢٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ ٦ ـ باب قوله : إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

التعفير : التمريغ في التراب . يعفر أي يسجد ويلصق وجهه بـالعَفَر وهو التراب . فجئهم : بكسر الجيم ويقـال أيضاً فجأهم . نكص على عقبيه : رجع إلى ورائه القهقرى . الاختطاف : الاستلاب بسرعة . كذب وتولى : يعني أبا جهل .

(٢) العلق : ٦ ـ ١٩ .

٩٣ ـ * روى الحاكم عن خالدِ بن سعيدٍ أن سعيدَ بن العاصِ بنِ أميَّةَ مَرِضَ فقال : لَئِنْ رَفَعني اللهُ من مَرضي هذا لا يُعْبَدُ إلَهُ ابن أبي كَبْشَةَ ببطنِ مكّةَ أبداً فقالَ خالدُ بن سعيدٍ عند ذلك : اللهمَّ لا تَرفعهُ ، فَتُوفِيَ في مَرَضهِ ذَلِكَ .

٩٤ ـ * روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾(1) قال : نَزَلت في أبي طالبٍ ، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويتباعدُ عمّا جاءَ بهِ .

٩٥ ـ * روى البخاري عن قيسِ بن أبي حَازمٍ رحمه الله قال : سمعتُ سعيدَ بن زيدِ بن عمرو في مسجدِ الكوفةِ يقولُ : والله لقدْ رأيتُني وإن عُمَرَ لَمُوثِقِي على الإسلامِ قبل أن يُسلمَ عمرُ ، ولو أن أحَداً ارفضَّ للذي صَنَعتم بعثمانَ لكان محقوقاً أن يَرفَضَّ .

٩٦ ـ * روى الترمذي عن أنس قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لقد أُخفْتُ في الله وما يُخافُ أحَدٌ ، ولقد أُوذِيتُ في الله وما يُؤذَى أحَدٌ . ولقد أَتَتْ عَليَّ ثَلاثُونَ من بينِ يومٍ وليلةٍ وما لي وَلِبلالٍ طَعامٌ يأكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلا شيء يُواريهِ إبطُ بلال » .

ومعنى هذا الحديث : حين خرج النبي ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال إنما كان مع بلال من الطعام ما يحمله تحت إبطه .

---

٩٣ ـ المستدرك (٣ / ٢٤٩) وسكت عنه الحافظ الذهبي في التلخيص .

لئن رفعني الله من مرضي : أي : لئن شفاني الله من مرضي ، ومثل هذا النذر من هذا المشرك يدل على مقدار ثقة المشركين أنهم على حق ، وهذا يبين الصعوبة التي واجهها الرسول في التغيير . ابن أبي كبشة : أي : محمد ﷺ كانوا ينسبونه لأبيه من الرضاعة . وفي دعاء خالد : على أبيه مظهر من مظاهر الولاء الخالص الشديد عند أصحاب رسول الله ﷺ لهذا الدين .

٩٤ ـ المستدرك (٢ / ٣١٥) وقال : صحيح على شرط الشيخين وصححه الذهبي .

ينأون : يبتعدون . أي أنهم لا يستجيبون لدعوته .

(١) الأنعام : ٢٦ .

٩٥ ـ البخاري (٧ / ١٧٦) ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٣٤ ـ باب إسلام سعيد بن زيد .

لموثقي على الإسلام : أي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ ربطه بسبب إسلامه إهانة له وإلزاماً بالرجوع عن الإسلام .

ارفض : والارفضاض : التفرُّق .

٩٦ ـ الترمذي (٤ / ٦٤٥) ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة ـ ٣٤ ـ باب حدثنا هارون بن إسحاق ... وقال : حسن غريب .

وابن ماجه (١ / ٥٤) ١ ـ المقدمة ـ ١١ ـ باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ . وهو حديث حسن بشواهده .

ورواه ابن حبان ـ الإحسان (٨ / ١٨٢) .

٩٧ - * روى أبو يعلى عن جابر بن عبد الله قال : اجتمعت قُريشٌ للنبي ﷺ يوْماً ، فقالَ : انظرُوا أعْلمَكمْ بالسّحرِ والكَهَانةِ والشّعرِ ، فَليأتِ هذا الرّجُلَ الذي قد فرّقَ جماعَتَنا ، وشتّتَ أمْرنَا ، وعابَ دِيننَا ، فليُكلمهُ ولينظرْ ما يَردُّ عَليهِ ، قالوا : ما نعلمُ أحَداً غيرَ عُتبةَ ابن ربيعة ، قالوا : أنتَ يا أبا الوليدِ ، فأتاه عُتبةُ فقال : يا محمد أنتَ خيرٌ أم عبدُ اللهِ ؟ فسكتَ رسولُ اللهِ ﷺ قال : أنتَ خيرٌ أم عبدُ المطلبِ ؟ فسكتَ رسولُ اللهِ ﷺ قال : فإن كُنتَ تزعمُ أنّ هؤلاء خيرٌ منكَ قد عبدوا الآلهةَ التي عِبْتَ ، وإن كُنتَ تزعمُ أنّكَ خيرٌ منهم فتكلّم حتى نسمعَ قولكَ ، أما واللهِ ما رأينا سَخْطَةً أشْأمَ على قَوْمِكَ منْك ، فرّقتَ جَمَاعتَنا ، وشتّتَّ أمرنا ، وَعِبتَ دِيننَا ، وفَضَحتنَا في العربِ حتى طَارَ فيهم أنّ في قُريشٍ ساحراً ، وأنّ في قريشٍ كَاهِناً ، ما يُنْتظرُ إلا مِثلُ صَيْحةِ الحُبلى بأن يقومَ بعْضُنا لِبعضٍ بالسُّيوفِ حتى نتفانَى . أيُّها الرجُلُ : إن كانَ إنّما بكَ الحاجَةُ جمعنَا لكَ من أمْوالِنا حتى تكونَ أغنَى قريشٍ رَجُلاً ، وإن كان إنّما بك البَاءةُ فاخترْ أيّ نِساءِ قُريشٍ فَنُزوّجكَ عَشْراً ، فقال لهُ رسولُ اللهِ ﷺ : « أفَرغتَ ؟ » قالَ : نعم ، قال : فقال رسولُ اللهِ ﷺ : ﴿ حمٓ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[1] حتّى بلغَ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[2] فقال عُتبة : حَسْبُكَ ، ما عِنْدكَ غيرهذا ؟ قال : لا ، فَرجَعَ إلى قُريشٍ فقالوا : ما وراءكَ ؟ فقال : ما تَركتُ شيئاً أرى أنّكم تُكلّمُونهُ بهِ إلا كَلّمْتهُ ، قالوا : هل أجابَكَ ؟ قال : نعم ، قال : والذي نَصبَهَا بَنِيّة ما فَهمتُ شيْئًا مما قال غير أنه قال : أنذرْتُكُم صَاعِقةً مِثل صاعِقة عادٍ وثمودَ ، قالُوا : وَيْلَكَ يُكلّمكَ رجُلٌ بالعربيةِ فلا تدري ما قال ، قال : لا واللهِ ما فَهِمْتُ شَيْئاً مما قال غيرَ ذِكْرِ الصّاعِقةِ.

أقول : إن فتح باب الحوار لمصلحة الإسلام والمسلمين إذا وجد الداعية الكامل هو

---

٩٧ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٩) : رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره ، وبقية رجاله ثقات . وقال عنه الحافظ في التقريب (١ / ٤٩) (صدوق) لذا فالحديث حسن إن شاء الله تعالى . ويزيده ما رواه ابن إسحاق مرسلاً بإسناد جيد (١ / ٣١٣) .

الباءة : النكاح .

(١) فصلت : ١ ، ٢ .

(٢) فصلت : ١٣ .

الأصل ، فهذا رسول الله ﷺ ما كان يغلق باب الحوار مع أحد ، ولكنه في أي حوار كان يدعو إلى الله ويحقق مصلحة للإسلام والمسلمين .

٩٨ - * روى الترمذي عن عروة بن الزبير بن العوَّام ، أن عائشة رضيَ اللهُ عنها قالتْ : أُنْزِلتْ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾[1] في ابن أُم مكتومِ الأعمى ، أتى رسولَ اللهِ ﷺ ، فجعلَ يقولُ : يا رسولَ اللهِ أرْشِدني - وعندَ رسولِ اللهِ ﷺ من عُظَماءِ المشركينَ - فجعلَ رسولُ اللهِ ﷺ يُعْرِض عنهُ ويُقبلُ على الآخرين ، ويقولُ : « أترى بما أقُولُ بَأساً ؟ » فيقال : لا ، ففي هذا أُنْزِلَ.

هذه حادثة خالدة ولذلك سجلها القرآن الكريم ، لأنها تشكل ظاهرة متجددة في الدعوة إلى الله ، وهي من الخطورة بالمكان العظيم ، فالدعاة دائماً يتطلعون إلى كسب جديد للدعوة ، وفي غمرة التطلع هذا قد يغفلون حقوق المستجيبين للدعوة ، وفي كثير من الأحيان لا يستجيب الآخرون ويفقد الداعية صفته . وأول مبادئ العمل الإسلامي أن تحرص على رأس المال أكثر من حرصك على الكسب ، ثم إن التطلع المبكر نحو رؤوس القوم ليس هو الأصل ، فالعادة جرت أن هؤلاء تتأخر استجابتهم ، فالتركيز على المستجيبين ليشكلوا القيادة الحقيقية للأمة هو الأساس ، ثم إن الأولوية يجب أن تعطى دائماً للمستجيبين وللصف لتبقى أرواحهم معلقة بالملأ الأعلى .

٩٩ - * روى الطبراني وأبو يعلى عن عقيل بن أبي طالب قال : جاءت قُريشٌ إلى أبي طالبٍ فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيكَ يأتينا في أفنيتنا وفي نادينا فيُسْمِعُنا ما يُؤذِينا

---

٩٨ - الترمذي (٥ / ٤٣٣) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٧٣ - باب ومن سورة عبس . وقال : حديث حسن غريب. والموطأ (١ / ٢٠٣) ١٥ - كتاب القرآن - ٤ - باب : ما جاء في القرآن . وصححه ابن حبان (موارد : ١٧٦٩).
أرشدني . اهدني ودلني على الخير . والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه . أترى بما نقول بأساً : أي هل قلت شيئاً مذموماً ؟
(١) عبس : ١ .

٩٩ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٤) : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وأبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح المعجم الكبير (١٧ / ١٩٢) .
الكبس : بيت صغير مطاعاً : أي لمطواعاً أي لمطيعاً إما أنه ضمن اسم الفاعل معنى المفعول أو أنه بالنسبة لمحمد ﷺ مطاع . حلق : حلّق ببصره : رفعه . راشدين : مهتدين .

به ، فإنْ رأيتَ أن تكفَّهُ عنَّا فافعل . فقال لِي : يا عقيلُ التمسْ لي ابن عمِّك ، فأخْرجتُه من كبسٍ من أكباسِ أبي طالبٍ ، فأقبل يمشي معي يطلبُ الفيءَ يمشي فيه فلا يقدرُ عليه ، حتّى انتهى إلى أبي طالبٍ فقال لهُ : يا ابنَ أخي واللهِ ما علمتُ أن كُنتَ لي لمطاعاً ، وقدْ جاء قومُكَ يزعُمونَ أنك تأتيهمْ في كَعبتهم وفي نَادِيهم تُسمعهمْ ما يؤذيهمْ ، فإنْ رأيتَ أن تكُفَّ عنهم ، فحلَّقَ ببصرِه إلى السماءِ فقال : « واللهِ ما أنا بأقدَر أدَعَ ما بعثتُ به من أن يُشعِلَ أحدُكم من هذه الشمسِ شُعلةً من نارٍ » ، فقال أبو طالبٍ : والله ما كذبَ ابنُ أخي قطُّ ارجعوا راشِدينَ .

١٠٠ ـ * روى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن أبَا جهلٍ قال للنبي ﷺ : إنّا لا نُكذبكَ ولكِنْ نُكذِّبُ بما جئتَ بهِ ، فأنزلَ اللهُ : ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [1] .

* * *

---

١٠٠ ـ الترمذي (٥ / ٢٦١) ٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن ـ ٧ ـ باب : ومن سورة الأنعام . والحديث صحيح ، وهو عند الحاكم بلفظ : إنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا نكذبك ، ولكن نكذب ... قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : ما خرجنا لناجية شيئاً . قال ابن حجر : ناجية ثقة عن علي .

يجحدون : جحد الأمر جحداً أو جحوداً : أي أنكره مع علمه به .

(١) الأنعام : ٣٢ .

فصل ووصل

الوحي ، ففترة الوحي ، فالأمر بالإنذار ، فالدعوة الفردية السرية ، فالدعوة الجماعية الجهرية ، فالهجرة الأولى إلى الحبشة ، فالهجرة الثانية إلى الحبشة ، وإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما ؛ هذه هي المعالم الكبرى لأحداث السنين الست بعد البعثة .

دامت فترة الوحي على الأرجح أياماً وستة شهور ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ فبدأ رسول الله ﷺ الدعوة سرية وفردية واستمر على ذلك ثلاث سنين ، ثم أمر بالجهر بالدعوة ، فبدأ بعشيرته الأقربين فجهر ودعا فزادت المقاومة والاضطهاد مما اضطر رسول الله ﷺ لاتخاذ دار الأرقم مقراً سرياً للدعوة والتربية والتعليم والعبادة ، وكان ذلك في بداية السنة الخامسة، وفي رجب من السنة الخامسة ، هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة وكان مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، وفي شوال من نفس السنة عاد هؤلاء بعد أن بلغتهم شائعة أن قريشاً أسلمت فلما عرفوا جلية الأمر رجع بعضهم إلى الحبشة ودخل بعضهم مكة مستخفياً أو في جوار ، واشتد الاضطهاد فكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة والتي شارك فيها ثلاثة وثمانون رجلاً وثمان عشر أو تسع عشر امرأة ، والذي يبدو أن الهجرة الثانية كانت على دفعات ، والراجح أن إسلام حمزة وعمر كان بعد الهجرة الثانية أواخر السنة السادسة من البعثة ، والروايات تذكر أن عمر أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين امرأة ، أو بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة ، أو بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة ، أو بعد ثلاثة وثلاثين رجلاً ، والتوفيق بين هذا العدد وبين أن الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا حوالي المئة ، إما أن إسلام عمر كان بين الهجرتين فانتعشت الدعوة أو كان بعد الهجرتين ، لكن الهجرة الثانية كانت على دفعات وكانت محصلتها العدد المذكور .

وكان المسلمون لا يقدرون يصلّون عند الكعبة ، فلما أسلم عمر رضي الله عنه قاتل قريشاً حتّى صلى عندها وصلى معه المسلمون ، وقد قووا بإسلامه وإسلام حمزة رضي الله عنهما ، وجهروا بالقرآن ولم يكونوا قبل ذلك يقدرون أن يجهروا به ففشا الإسلام وكثر المسلمون .

١٠١ ـ * روى الحاكم عن عثمان بن الأرقم ، أنه كان يقولُ : أنا ابنُ سُبْعِ الإسْلام ، أسلَمَ أبي سَابِعَ سَبْعَةٍ ، وكانت دارُهُ على الصَّفا هي الدَّارُ التي كانَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلم يكون فيها في الإسلام ، وفيها دعا النَّاسَ إلى الإسلام فَأَسْلَم فيها قَومٌ كَثِيرٌ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلةَ الإثنينِ فيها : « اللهُمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحَبِّ الرجُلينِ إليكَ عُمرَ بن الخطَّابِ أو عمرو بنِ هِشامٍ » فجاء عمر بن الخطاب من الغَدِ بكرةً فأسلم في دارِ الأرقمِ وخَرجُوا منها وكبَّرُوا وطافوا بالبيتِ ظَاهرينَ ، ودُعيت دارُ الأرقمِ دارَ الإسلامِ .

تشير هذه الرواية إلى تقدم اتخاذ دار الأرقم فإذا كان الأرقم سابع سبعة دخلوا الإسلام ، وإذا شهدت دار الدعوة السرية الفردية فاتخاذ الدار إذن متقدم ، وكَوْنُ عمر بن الخطاب أسلم فيها فهذا يفيد أنها استمرت مركزاً للدعوة سنوات طويلة .

يقول الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله : إن على الداعية أن يجتمع بأنصاره على فترات في كل نهار أو أسبوع : ليزيدهم إيماناً بدعوتهم ، وليعلمهم طرقها وأساليبها وآدابها ، وإذا خشي على نفسه وجماعته من الاجتماع بهم علناً وجب عليه أن يكون اجتماعه بهم سراً لئلا يجمع المبطلون أمرهم فيقضوا عليهم جميعاً ، أو يزدادوا في تعذيبهم واضطهادهم . أ.هـ .

ومن فكرة اتخاذ دار الأرقم نأخذ ضرورة وجود مراكز للدعوة على أن يتولى الدعوة فيها الدعاة الكبار .

* * *

---

١٠١ ـ المستدرك (٣ / ٥٠٢) وسكت عنه الذهبي .

وآخر الحديث موجود عن الترمذي (٥ / ٦١٧) ٥٠ ـ كتاب المناقب ـ ١٨ ـ باب : في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال : حسن صحيح غريب . وصححه ابن حبان .

فصل : في هجرتي الحبشة

اشتدّ البلاء على المسلمين فوجد بعضهم حماية وبعضهم لم يجد ، ووجد هناك تطلع لحرية العبادة فكانت فكرة الهجرة إلى الحبشة حيث كان يحكمها ملك عادل .

كان عمر في تلك الأثناء مشركاً هو وحمزة ، وقد دخلا في الإسلام في هذه المرحلة بعد ابتداء الهجرة إلى الحبشة وقبل حصار الشعب في السنة السابعة ، وترتّب على إسلامهما وضع جديد مما جعل قريشاً تفكر بوسائل جديدة ، فاخترعت فكرة حصار الشعب ، وهكذا تعدّدت أنواع الإيذاء ، ورسول الله ﷺ ماض يبلغ الناس في المواسم وحيثما لقيهم ، أفراداً وجماعات .

والهجرة الأولى إلى الحبشة كانت في السنة الخامسة للبعثة وكان عدد الذين هاجروا فيها اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، ورجع بعض هؤلاء على أثر سجود المشركين عند تلاوة سورة النجم ، فوجدوا الأمر على أشدّه فكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وتمت على دفعات ، ومجموع من ذكرت أسماؤهم في الهجرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلاً وثمان أو تسع عشرة امرأة .

١٠٢ - * روى الطبراني عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أمّه ليلى قالت : كانَ عمرُ ابن الخطابِ من أشَد النّاسِ علينا في إسلامنا ، فلما تهيّأنا للخُروجِ إلى أرض الحبشة ، فأتى عُمرُ بن الخطابِ وأنا على بعيري وأنَا أُريدُ أن أتَوجَّهَ ، فَقَالَ : أينَ يا أُمّ عَبْد الله ؟ فقلت : آذيتُمُونَا فِي دِينِنَا فنذهبُ في أرض الله حيثُ لا نُؤْذَى . فقال : صَحِبَكُم الله ثمَّ ذهبَ ، فجاءَ زَوْجِي عَامِرُ بن رَبيعةَ فأخبرتهُ بما رأيتُ من رقّةِ عُمرَ ، فقال : تَرجينَ أن يُسلمَ ، واللهِ لا يسلمُ حتى يُسلمَ حِمارُ الخطّابِ .

وهذا يدل على أنّ إسلام عمر تأخّر إلى ما بعد البدء بالهجرة الأولى إلى الحبشة .

١٠٣ - * روى الطبراني عن عروة في تسمية الذين خرجوا إلى الحبشة المرة الأولى قبل

---

١٠٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٣) : رواه الطبراني وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فهو صحيح .

١٠٣ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٣) : رواه الطبراني في الكبير بلين وإرسال . قلت : وإنما ذكرناه ليتعرف القارئ على أسماء بعض من خرج في الهجرة الأولى .

خروج جعفر وأصحابه : الزبير بن العوام ، سهل بن بيضاء ، عامر بن ربيعة ، عبد الله بن مسعود ، عبد الرحمن بن عوف ، عثمان بن عفان ، مع امرأته رقية بنت النبي ﷺ ، عثمان ابن مظعون ، مصعب بن عمير ، أبو حذيفة بن عتبة ، مع امرأته سهلة بنت سهيل ، وولدت بالحبشة محمد بن أبي حذيفة ، أبو سبرة بن أبي رهم ، مع امرأته أم كلثوم بنت سهيل ، أبو سلمة بن عبد الأسد ، مع امرأته أم سلمة .

١٠٤ - * روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سجد النبيُّ ﷺ بالنَّجم ، وسَجَد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

وراجت على أثر هذا السجود شائعة أن قريشاً ومن معها أسلم فرجع بعض المهاجرين فوجدوا الأمر على غير ما شاع فرجع بعضهم ودخل بعضهم مستخفياً أو بجوار .

١٠٥ - * روى الطبراني والبزار عن عمير بن إسحاق قال : قال جعفر : يا رسولَ اللهِ ائذنْ لي أن آتيَ أرضاً يعبدُ اللهَ فيها لا أخافَ أحداً ، قال : فأذن لهُ فيها ، فأتى النجاشي.

قال عُمير : حدثني عمرو بن العَاصِ قال : لما رأيتُ جعفراً وأصحابَه آمنينَ بأرضِ الحبشةِ حسدْتُه قُلتُ : لا تَستَقْبلنَّ لهذا وأصحابِه فأتيتُ النَّجاشيَّ فقلتُ : ائْذنْ لعمرو بن العاص ، فأذن لي ، فَدخلتُ فقلتُ : إن بأرضِنَا ابن عمٍّ لهذا يزعمُ أنَّه ليسَ للنَّاسِ إلا إلهٌ واحدٌ وإنَّا واللهِ إن لم تُرِحنَا منهُ وأصحابِهِ لاقطعتُ إليكَ هذهِ النُّطفة ولا أحدٌ من أصحابي أبداً ، فقالَ : وأينَ هو ؟ قُلتُ : إنهُ يجيءُ مع رسُولِكَ إنَّهُ لا يَجيءُ مَعي ، فأرسَل مَعِي رَسُولاً فَوَجَدْنَاهُ قَاعِداً بينَ أصْحَابِهِ ، فَدعاهُ فجاءَ ، فلمَّا أتيتُ البَابَ نَاديتُ ائْذنْ لعمرو بن العاص ، ونَادى خلْفِي ائذنْ لحزب الله عزَّ وجلَّ فسمِعَ صَوْتَهُ فأذِنَ لهُ قَبلي ، فدَخلَ ودخلتُ ، وإذا النَّجاشي على السريرِ قال : فَذهبتُ حتَّى قَعدتُ بين يَديهِ وجعلْتُهُ خَلفِي وجعلتُ بين كلِّ رجلينِ من أصحابهِ رجُلاً من أصحابي .

---

١٠٤ - البخاري (٨ / ٦١٤) ٦٥ - كتاب التفسير (٥٣) سورة النجم - ٤ - باب ﴿ فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا ﴾ .

١٠٥ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٩) : رواه الطبراني والبزار وصدر الحديث في أوله له ، وزاد في آخره قال : ثم كنت بعد من الذين أقبلوا في السفن مسلمين . وعمير بن إسحق وثقه ابن حبان وغيره وفيه كلام لا يضر ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، وروى أبو يعلى بعضه ثم قال : فذكر الحديث بطوله . وانظر كشف الأستار : ٢ / ٢٩٧.

النطفة : الماء الصافي قل أو أكثر ، والمراد به هنا ماء بحر جدّة . القشرة : اللباس .

فقالَ النجاشيُّ : نَجّروا . قال عَمروٌ : يعني تكلّموا . قُلتُ : إنَّ بأرضِكَ رجُلاً ابنُ عمهِ بأرضِنَا ويزعُم أنّهُ ليس للناس إلا إلهٌ واحدٌ ، وإنَّكَ إنْ لم تقطعهُ وأصحابَهُ لا أقطعُ إليكَ هذه النُّطفةَ أنَا ولاَ أحدٌ من أصحَابي أبداً ، قالَ جعفرٌ : صدقَ ابنُ عمّي وأنَا على دِينهِ ، قال : فصاحَ صيَاحاً وقال : أوْهِ ، حتى قلتُ : ما لابنِ الحبشيّةِ لا يتكلّمُ ؟ وقال : أنَاموسٌ كنَاموسِ مُوسى ؟.

قال : ما تَقُولونَ في عيسى بن مريمَ ؟ قال : أقُولُ هو روحُ اللهِ وكلمَتُهُ . قال : فتنَاولَ شيئاً من الأرضِ ، فقال : ما أخْطَأ في أمرِهِ مثلَ هذا ، فَواللهِ لَولاَ مُلكي لاتّبعْتُكُم وقالَ لي : ما كُنْتُ أبالي أن لا تَأتِيني أنتَ ولا أحدٌ من أصحابِكَ أبَدًا ، أنت آمنٌ بأرضي ، من ضَرَبَكَ قَتَلتُهُ ، ومن سبَّكَ غرَّمتُهُ ، وقال لآذِنِه : مَتَى استأذنَكَ هَذا فائذَنْ لهُ إلا أن أكُونَ عندَ أهلِي فإن أبى إلا أن تأذنَ له فأذن له .

قال : فتفرقنَا ولم يكن أحدٌ أحبَّ إليّ أن ألقاهُ من جعفرٍ ، قال : فاسْتَقْبَلَني من طريقٍ مرَّةٍ فنظرتُ خَلْفَهُ فلم أرَ أحَداً ، فَنظرتُ خَلْفِي فلم أرَ أحَداً فَدنوتُ منهُ وقلتُ : أتعلمُ أنّي أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وأن محمداً عبدُه ورسولُه ، قال : فقد هداكَ الله فاثبُت ، فتركَنِي وذهَبَ ، فأتيتُ أصْحابِي فكأنّما شَهِدُوه مَعِي ، فأخذوا قَطِيفةً أو ثَوْباً فجعلُوهُ عليَّ حتَّى غمُّوني بها قال ، وَجَعلتُ أُخْرِجُ رأسِي من هذه النَّاحَيةِ مَرَّةً ومن هذه النّاحيةِ مرّةً حتّى أفلتُ ومَا علي قِشرةٌ ، فمررتُ على حَبَشيّةٍ فأخذتُ قِناعها فجعلتهُ على عَوْرَتِي ، فأتيتُ جَعْفراً فدخلتُ عليهِ فقال : ما لكَ ؟ فقلتُ : أُخِذَ كلُّ شيءٍ لي ما تُرِكَ عليَّ قشرة فأتيتُ حبشيّةً فأخذت قِنَاعها فَجعلتهُ على عَوْرتِي ، فانطَلَقَ وانطلقت معهُ حتّى أتى إلى بَابِ الملكِ ، فقال جعفرٌ لآذِنه : استأذن لي ، قال : إنَّهُ عندَ أهلِه فأذن لهُ فقلتُ : إنّ عَمْراً تَابعنى على دِينِي ، قال : كَلاّ ، قلتُ : بَلَى ، فَقالَ لإنسان : اذْهَبْ مَعهُ فَإنْ فَعلَ فلاَ تَقُل شَيْئًا إلا كتبتَه ، قالَ : فَجاءَ فقال : نعم ، فَجعلتُ أقُولُ وجَعلَ يكتبُ حتى كتبتُ كلَّ شيءٍ حتّى القَدحَ ، قالَ : ولو شئتُ آخُذ شيئاً مِن أمْوَالِهم إلى مَالِي فَعلتُ .

١٠٦ - * روى الطبراني عن ابن شهاب في تسميةِ من هَاجرَ إلى أرضِ الحَبشةِ فأقَامَ بهَا

---

١٠٦ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٣١) : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

حَتّى قَدِمَ بعد بدرٍ : شُرحبيلُ بن عبدِ اللهِ بن حسنَةَ وهي أمُّهُ .

١٠٧ ـ * روى الطبراني عن أبي موسى ، قال : أمرَنَا رسُولُ اللهِ ﷺ أن نَنْطلق مَعَ جعفرِ بن أبي طَالبٍ إلى النَّجَاشي ، فَبلغَ ذلكَ قُريشاً فَبعثُوا عمرَو بنَ العَاصِ وعُمارةَ بن الوليدِ وجمعا للنَّجاشي هدية ، وَقدِمَا على النَّجاشي فأتياهُ بالهديةِ فقبلَهَا وسجدَا لَهُ ، ثمّ قالَ عمرو بن العاص : إنَّ نَاساً من أرْضِنَا رَغِبُوا عن دِيننا وَهُم في أرْضِكَ ، فقال لهم النَّجَاشيُّ : في أرضي ؟ قالوا : نَعمْ ، فَبَعَث إلَيْنَا ، فقال لنا جعفر : لا يتكلَّمْ منكم أحدٌ أنا خطيبُكُم اليومَ ، فانتهينا إلى النَّجاشي وهو جَالِسٌ في مجلسٍ وعمرو بن العاصِ عن يمينه وعُمَارةُ عن يسارِه ، والقسِّيسُونَ والرهبانُ جُلوسٌ سماطينِ وقد قال لَهُ عَمرٌو وعمَارةُ إنّهم لا يَسْجُدُونَ لَكَ ، فلمّا انتهينا بدَرنا من عندَه من القسيسينَ والرهبانِ : اسجُدُوا للملك .

فقال جعفر : إنَّا لا نسجُدُ إلا للهِ ، قال لَهُ النَّجاشيُّ : ومَا ذَاكَ ؟ قال : إنّ اللهَ بعثَ إلينَا رَسُولاً وهوَ الرسُول الذِي بشَّر به عيسَىٰ عليهِ السَّلامُ من بَعْدِه اسْمُهُ أحمدُ ، فأمَرنَا أنْ نعبُدَ اللهَ ولا نُشْرك به شَيْئاً وأَمرنَا أن نُقيمَ الصلاةَ وأن نُؤتِيَ الزكاةَ وأمرنا بالمعروف ونهانَا عن المنكَرِ ، فأعجب النجاشيَّ قولُه ، فلما رأى ذلك عَمرُو قال : أصْلَحَ اللهُ الملكَ إنَّهم يُخالفُونكَ في ابن مريمَ ، فقال النَّجاشيُّ : ما يَقولُ صاحِبُكم في ابن مريمَ ؟ قال : يَقُولُ فيهِ قولَ اللهِ هُوَ رَوحُ اللهِ وكلمتُهُ أخرجهُ من العذْراءِ البتُولِ التي لَمْ يقربها بشرٌ ولم يفترضها وَلدٌ . فتناولَ النجاشيُّ عُوداً من الأرضِ فرفَعَهُ فَقالَ : يا معشرَ القِسّيسينَ والرهبانِ ما يزيدُ هؤلاء على ما تقُولُون في ابن مَرْيمَ ما يزنُ هذه ، مَرْحَباً بكم وبِمَنْ جئتم من عندِه أشْهَدُ أنَّهُ رَسُولُ الله وأنَّه الذي بَشَّر بِهِ عيسى ولولا ما أنَا فيهِ من المُلكِ لأتيْتُهُ حتّى أُقبّل نعليهِ ، امكُثُوا في أرْضِي ما شِئْتم ، وأمر لنا بطعَامٍ وكِسْوةٍ ، وقال : رُدُّوا على هذينِ هديَّتهما .

وكان عمرو بن العَاصِ رَجُلاً قَصيراً وكان عُمارةُ رجُلاً جميلاً وكَانَا أقْبَلا إلى النجَاشي فشَرِبُوا يعني خَمْراً ومع عمرو بن العاصِ امْرَأَتُهُ ، فَلمَّا شرِبُوا من الخَمرِ قال عُمارةُ لعمرو :

---

١٠٧ ـ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٣٠) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

سماطين : السِّماط : الصف يقال مشى بين سماطين : أي بين صفين . لم يفترضها : لم يؤثر فيها ولم يحزها أي قبل المسيح عليه السلام . طار مع الوحش : جُن وسار مع الوحوش .

مَرْ امرأتكَ فلْتقبِّلني . فقال لـهُ عمْرو : ألا تَسْتَحي ؟ فـأخـذَ عمـارةُ عمْراً فرمى بـه في البحرِ فَجعـلَ عمرو يُنـاشـدُ عُمارة حتى أدْخلـهُ السفينـةَ ، فَحقـدَ عَمْرو على ذلـك ، فقـال عَمرو للنَّجاشي : إنَّكَ إذا خَرجتَ خَلفكَ عُمارةُ في أهلِكَ . فدعا النجـاشيُّ عُمارةَ . فنفخَ في إحْليلِـهِ فَطارَ مع الوحشِ .

١٠٨ ـ * روى أحمد عن أم سلمة ابنةِ أميةَ بن المغيرة زوج النبي ﷺ ، قالت : لَمَّـا نزلنَـا أرضَ الحبشة جاورْنَا بها خيرَ جارٍ النجاشيُّ أمّنّا على دِينِنَـا وعبـدنَـا اللهَ ، لا نؤذَى ولا نسمع شَيْئاً نكرهُه ، فلما بلغ ذلك قُريشاً ائتمَرُوا أن يَبْعثُوا إلى النَّجاشِي فِينَا رَجُلينِ جلـدين ، وأنْ يُهدُوا للنَّجاشي هَـدايَـا مما يُستطرفُ من متـاعِ مكَّـة ، وكان أعجبُ مـا يـأتيـهِ منهـا الأدمَ فَجَمعُوا لهُ أدماً كثيراً ، ولم يترُكوا من بَطَارِقَتِهِ بطريقاً إلا أهْدوا له هدية ، ثم بَعثُوا بـذلـك مع عبد الله بن ربيعَـةَ المخزُومي وعمرو بن العـاض بن وائلٍ السهمي وأمرُوهُما أمرهم ، وقـالوا لهما : ادفعوا إلى كُلِّ بطريقٍ هديتهُ قبل أن تكلِّمُوا النجاشي فيهم ، ثمّ قَدّمُوا للنجَاشيِّ هَـدايَـاهُ ، ثم سلوه أن يُسَلِّمهم إليكم قبل أن يكلمهم .

قالت : فَخَرجَا فقَدِما على النجاشي ، ونحن عنـده بخير دارٍ ، وعنـد خير جـارٍ ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليـه هـديتـه قبل أن يكلمـا النجـاشي ، ثم قـالا لكل بطريق منهم : إنّهُ قـد صَبـا إلى بلـدِ الملـكِ منـا غِلمَـانٌ سُفهـاء ، فَـارقُوا دين قَومِهم ولم يَـدْخُلوا في دينكم ، وجَاءوا بدين مُبتدعٍ لا نعرفُهُ نحنُ ولا أنتمْ ، وقد بعثَنا إلى الملـك فِيهم أشرافُ قَوْمِهم لتردَّهمُ إليهم ، فإذا كلَّمنا الملِك فيهم فتشيرُوا عليه بأن يُسلِّمهُم إلينا ولا يكلمهُم ، فـإنّ قومهم أعلى بهم عيْناً وأعلم بما عابُوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم . ثمّ قرّبا هَدايَـاهُم إلى النَّجـاشي فَقَبلَهـا منهما ، ثم كلماه فقالا له : أيُّها الملكُ قد صَبَا إلى بلدكَ منّا غِلْمانٌ سُفهاءٌ ، فارقُوا دِينَ قومهم ولم يدخُلُوا في دِينكِ ، وجاءُوا بدينٍ مبتَدعٍ لا نعرفُهُ نحنُ ولا أنتَ ، وقـد بَعثَنـا إليْـكَ فيهم أشرافُ قومِهم من آبائِهم وأعمامِهم وعشَائرهِم لتردَّهُم إليهم ، فهم أعلى بهم عيْناً وأعْلَمُ بمـا عَـابُوا عليهم وعـاتبُـوهمُ فيـه . قـالت : ولم يكُنْ شيء أبغضُ إلى عبـدِ الله بن أبي ربيعـةٍ وعمرو بن

---

١٠٨ ـ أحمد في مسنده (١ / ٢٠١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٧) : رواه أحمد ورجـالـه رجـال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع .

البطريق : الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم وهو ذو منصب عندهم .

العاص من أن يسمعَ النَّجاشيُّ كَلامَهُم ، فقالت بَطَارِقَتُهُ حَولَهُ : صدقوا أيُّها الملِكُ ، قَومُهُم أعلى بهم عَيْناً وأعلمُ بما عَابُوا عليهم ، فأسْلِمْهُم إليهما فليَرُدَّاهُم إلى بلادِهِم وقَوْمِهِم .

فغضبَ النجاشيُّ ثم قال : لا ها اللهِ أيمُ اللهِ ، إذاً لا أسْلِمُهُمْ إليهما ، ولا أكاد قوماً جاوَرُوني وَنَزلُوا بلاَدي واخْتَارُوني على مَنْ سِوَاي ، حتى أدْعُوهُم فأسألَهُمْ ما يقولُ هذا في أمرِهم ، فإن كانُوا كما يَقُولانِ أسْلمتُهُم إليهما وَرَددتُهُم إلى قَوْمِهِم ، وإن كَانُوا على غَيْرِ ذلك منعتُهُم مِنْهُما وأحسنْتُ جِوارَهُم ما جَاوَرُونِي .

قال : ثم أرسلَ إلى أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فَدَعاهُم فلما جاءَهُم رَسُولُه اجتَمعُوا ، ثم قال بعضهم لبعضٍ ، ما تَقُولُونَ للرجلِ إذا جِئْتُمُوهُ ، قالوا : نقُولُ واللهِ ما علمنا وما أمرنا به نَبِيّنا ﷺ كائنٌ في ذلكَ ما هو كائنٌ ، فلما جاءوهُ وقد دعا النجاشي أساقفتَهُ فنشروا مصاحفَهم حوله ، سألهم فقال : ما هذا الدينُ الذي قد فارقتم فيه قومَكم ، ولم تدخُلوا في ديني ، ولا في دين أحدٍ من هذه الأمة ؟.

قالت : فكان الذي كلَّمهُ جعفرُ بن أبي طالبٍ فقال : أيُّها الملكُ كنّا قوماً أهل جَاهِلِيةٍ : نَعْبُد الأصْنَام ونأكُلُ الميتة وَنأتِي الفَواحِشَ ونَقطعُ الأرْحَامَ ونُسيءُ الجِوَارَ ويأكُلُ القَويُّ مِنّا الضَّعيفَ ، فكنّا على ذلك حتَّى بعثَ اللهُ إلينا رَسُولاً منّا نعرفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وأمانَتَهُ وَعفافَهُ ، فَدَعانا إلى اللهِ لنُوحِدهُ ونعبدَهُ ونخلعَ ما كنّا نعبدُ نحنُ وآباؤنَا من دُونهِ من الحجارةِ والأوثانِ ، وأمَرنَا بصدق الحديثِ وأداءِ الأمَانةِ وصِلةِ الرّحمِ وحُسنِ الجوارِ والكفّ عن المحارِمِ والدماء ، ونَهانَا عن الفَواحشِ وشَهادَةِ الزُّورِ وأكلِ مالِ اليتيمِ وقذفِ المحصَنةِ ، وأمَرَنَا أن نعبدَ اللهَ وحده لا نُشْرِكَ بهِ شيئاً ، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ والصيام . قال : فعدَّدَ عليهِ أمورَ الإسلامِ ، فصدّقناهُ وآمنّا به واتبعناهُ على ما جَاءَ به فَعَبَدْنا اللهَ وحْدَهُ فلم نُشْرك بهِ شيْئاً ، وحرَّمْنَا ما حَرَّم علينا وأحللْنا ما أُحِلّ لنا ، فَعَدا عَلَيْنا قومُنَا فَعَذَّبُونا وَفَتَنُونَا عن دِيننا ، ليردُّونَا إلى عِبَادة الأوْثانِ من عِبَادةِ اللهِ عزّ وَجلّ ، وأن نَسْتَحلّ ما كُنّا نستحلّ من الخَبائِثَ ، فلمّا قَهرُونَا وظَلَمُونا وشقُّوا علينا وحَالُوا بيْنَنَا وبين ديننا ، خَرجْنَا إلى بَلَدِكَ واخْتَرْناكَ على من سِوَاك ورَغِبنَا في جِوَارِكَ وَرَجَونَا أن لا نُظْلَم عِنْدَكَ أيّها الملك.

قالت : فقال له النَّجاشي : هل مَعكَ مِمّا جاءَ به عن اللهِ من شيءٍ ؟ قالت : فقال لهُ

جعفرُ : نَعَمْ ، فقال له النجاشيُّ : فاقرأهُ . فقرأ عليهِ صدْرَاً من ﴿ كهيعص ﴾ قالت : فبَكَى والله النجاشي حتى اخْضَلَّ لحيتَهُ وبكَت أساقفَتهُ حتى اخْضلُوا مَصَاحفَهُم حين سَمِعُوا ما تلا عليهم ، ثمَّ قَالَ النجاشيُّ : إنَّ هذا والله والذي جاء به موسى ليَخرُجُ مِنْ مشكَاةٍ واحدةٍ انطلقا فوالله لا أُسلِمهُمْ إليْكُما أبداً ولا أكَادُ .

قالت أم سلمة : فلمّا خَرجَا من عِنْدِهِ قال عمرُو بن العاصِ : واللهِ لأنبئنهم غداً أعيبهُم عندهم ثم أسْتَأصِل به خَضْراءَهم ، فقال له عبد الله بنُ أبي ربيعةَ وكان أتْقَى الرجُلين فِينا : لا تَفْعل فإن لهم أرْحَاماً وإن كَانُوا قد خَالَفُونَا قال : واللهِ لأخْبِرنّهُ أنَّهم يزعُمونَ أن عيسى بن مريمَ عليه السلام عَبْدٌ .

قالت : ثم غدا عليه الغد فقال له : أيها الملك إنهم يقُولُونَ في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأَرْسِلْ إليهم فَسْألْهم عمّا يقولُون فيه . قالت : فأرسل إليهم يَسألُهم عَنهُ . قالت : ولم يَنْزلْ بنا مِثْلها واجتَمَعَ القومُ فقالَ بعضُهُم لبعضٍ ما تَقُولونَ في عيسى إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله فيه ما قال اللهُ سبحانه وتعالى وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا عليه قال لهم ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالبٍ : نقول فيه الذي جاء به نبيُّنا هو عبدُ الله ورسولُهُ ورَوحُهُ وكلِمتُهُ ألقَاهَا إلى مريمَ العذرَاء البتُول ، قال : فضَربَ النجاشيُّ يدهُ إلى الأرض فأخَذَ منهَا عُوداً ثم قال : ما عَدا عيسىَ بن مريمَ ما قلتَ هذا العود ، فتناخرت بطارقته حَولَه حينَ قالَ ما قَالَ .

فقال : وإن نَخرتُم واللهِ ، اذهبُوا فَأَنْتم سيُومٌ بأرضي - والسّيُومُ الآمنون - مَنْ سَبّكم غَرِمَ ، ثم من سَبّكم غَرِمَ ، فما أُحِبُّ أن لي دُبْراً ذَهَباً وأنّي آذَيتُ رَجُلاً منكم (والدّبْر بلسان الحبشةِ : الجبل) ، رُدُّوا عليهما هَدَاياهُما فلا حاجَةَ لي بها ، فوالله ما أخَذَ الله مِنّي الرُّشوةَ حِينَ رَدَّ عليَّ مُلْكي فَآخذ الرشوة فيه ، وما أطَاعَ النَّاسَ فيَّ فأطيعَهُم فيهِ . قالت : فَخَرجَا من عِنْدِهِ مَقبُوحين مَرْدُوداً عليهما ما جَاءَ به وأقمنا عِنْدَهُ بخير دارٍ مع خير جارٍ فوالله إنّا على ذلك إذ نزل به من يُنَازِعهُ في مُلكِهِ .

خضراءهم : أصلهم الذي منه تفرعوا . تناخرت : نخر ينخر نخيراً : مد الصوت في خياشيمه . استوسق : اتسق وانتظم .

قالت : فواللهِ ما عَلِمنا حُزْناً قطُّ كان أشَدَّ من حُزْنٍ حَزنَاه عِنـدَ ذلـك تَخوُّفـاً أن يَظْهَرَ ذلك على النَّجاشِي فَيَأتِي رَجُلٌ لا يَعرفُ من حَقّنا ما كانَ النَّجاشيُّ يَعرفـهُ منـه . وقـالت : وسارَ النَّجاشيُّ وبينهما عرضُ النيلِ . قالت : فقـال أصحـابُ رسولِ اللهِ ﷺ مَنْ رَجُلٌ يخرُجُ حتى يحضُرَ القومَ ثم يأتينا بـالخبر . قـالت : فقـال الزبيرُ بن العوّام : أنـا . قلت : وكان من أحدث القوم سناً ، قالت : فَنَفخُوا له قِربةً فَجَعَلُوهَا في صَدْرِه ثم سبح عَلَيْها حَتَّى خَرَجَ إلى نـاحِيَـةِ النيلِ التي بِهَـا مُلتَقى القَومِ ثم انْطَلَق حتى حَضَرهُم ، قـالت : ودَعونَـا الله للنَّجـاشي بالظُّهورِ على عَدُوِّه والتمكين لـه في بلاده ، واسْتَوسَقَ عليـهِ أمـرُ الحَبَشـةِ فكُنَّـا عنـده في خيرِ منزلٍ حتَّى قَدِمْنَا على رسولِ اللهِ ﷺ وهو بمكّة .

* * *

دروس من الهجرة إلى الحبشة :

١ ـ هناك ناس يعتبرون مجرد التفكير في أمن الدعوة ورجالها ونسـائهـا علامـة ضعف ، ويعتبرون البحث عن الأمن والأمـان جريـمة ، وهـذا تفكير نـاس قطـع الله قلـوبهم عن أن تستشعر حاجات الإنسـان ، نعم لا يصح أن يكون البحث عن الأمن والأمـان على حسـاب الدعوة إلا في الحدود التي رخص فيها الإسلام ، والرخصـة في محلهـا طيبـة ، فهـذا عمـار بن ياسر قال كلمة الكفر تحت التعذيب ، وهؤلاء أصحـاب رسول الله ﷺ هـاجروا إلى الحبشـة بحثاً عن الأمن والأمان ، والعبرة في النهاية لإذن القيادة الراشدة وحسن تقديرها .

٢ ـ لقد هاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى قُطْرٍ كافر فيه عدالة وحريـة يستطيعون من خلالهـا أن يـأمنوا وأن يقيموا شعـائر الإسلام ، وهـذا يفتح أمـامنـا آفـاقـاً واسعـة في العمـل والحركة ، فهناك بلدان في العالم تسمح للمسلم بأن يقيم شعـائره الـدينيـة وتعـاملـه كما تعـامل أبناءها في الحقوق والواجبات ، مثل هذه البلدان تصلح للتفكير فيها إذا ما اضطهد المسلم في بلده بل تصلح للإقامة فيها ، ولا حرج إذا ما ضمن المسلم إمكانية تربيةأسرته بل قـال فقهـاء الشافعية : لو أن مسلماً استطاع أن يظهر شعائر الإسلام في دار كفر ، فالأولى له البقاء لأنه بذلك تصبح داره دار إسلام في أرض كفر ، والمسألة تخضع في النهاية للموازنات بين المصالح

والأضرار كما تخضع للفتوى البصيرة من أهلها .

٣ - يلاحظ أن مهاجري الحبشة لم يكلّفوا بأية مهام دعوية على أرض الحبشة ، وهذا يفتح أمامنا باباً واسعاً في آداب المسلم إذا ما اضطرته ظروفه إلى هجرة ، فإنه في هذه الحالة يسعه أن يلاحظ قوانين البلد الآخر وألا يتدخل في شؤونه الداخلية إلا بالقدر الذي يسمح به البلد الآخر ، والأمر واسع فهو يدور بين رخصة وعزيمة وللقيادة الراشدة دور في تحديد العمل المطلوب من المهاجرين على أن لا يقع غدر أو نكث أو خيانة من قِبَلِنا ، ولئن كان رسول الله ﷺ لم يكلف جعفراً وأصحابه بالدعوة فإن هناك روايات تفيد أن جعفرا قد دعا واستجيب له .

٤ - من قصة النجاشي ابتداءً وانتهاءً نصل إلى قضية على غاية من الأهمية في العمل الحركي ، فالنجاشي أسلم في النهاية ، وبقي على رأس نظام له قوانين غير إسلامية ، وقبل الرسول ﷺ ذلك منه وصلى عليه لما مات ، وهذا يفيد أن الحكم على نظام بالكفر لا يعني الحكم على كل فرد فيه بذلك ، بل قد يوجد نظام كافر ويحكم للرأس المدبر لهذا النظام بالإسلام ظاهراً وباطناً ، كما هو حال النجاشي .

٥ - نذكر بمناسبة الكلام عن الهجرة الأولى للحبشة حادثة سجود المشركين عندما سمعوا سورة « النجم » ويذكر في سياق ذلك حادثة الغرانيق من أن الشيطان أسمع المشركين تمجيداً من رسول الله ﷺ لأصنامهم أثناء تلاوته عليه الصلاة والسلام ، وتلك قصّة باطلة لا أصل لها .

٦ - وفي حكم الهجرة قال الدكتور البوطي : أما الهجرة من دار الإسلام فحكمها بين الوجوب والجواز والحرمة : أما الوجوب فيكون عند عدم تمكن المسلم من القيام بالشعائر الإسلامية فيها كالصلاة والصيام والأذان والحج .. ، وأما الجواز فيكون عندما يصيبه فيها بلاء يضيق به ، فيجوز له أن يخرج منها إلى دار إسلامية أخرى ، وأما الحرمة فتكون عندما تستلزم هجرته إهمال واجب من الواجبات الإسلامية لا يقوم به غيره .

٧ - وقال الدكتور البوطي تعليقاً على حادثة الهجرة إلى الحبشة :

يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي ـ إذ كان نصرانياً عندئذ ولكنه أسلم بعد ذلك ـ ، أو كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة ، وكأبي طالب عم الرسول ﷺ وكالمطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ مكة في حمايته عندما رجع من الطائف .

٨ ـ قال الدكتور السباعي رحمه الله : إن على الداعية إذا وجد جماعته في خطر على حياتهم أو معتقداتهم من الفتنة ، أن يهيء لهم مكاناً يأمنون فيه من عدوان المبطلين ، ولا ينافي ذلك ما يجب على دعاة الحق من تضحية ، فإنهم إذا كانوا قلة استطاع المبطلون أن يقضوا عليهم قضاءاً مبرماً ، فيتخلصوا من دعوتهم ، وفي وجودهم في مكان آمن ضمان لاستمرار الدعوة وانتشارها .

٩ ـ وقال : إن في أمر الرسول أصحابه أولاً وثانياً بالهجرة إلى الحبشة ، ما يدل على أن رابطة الدين بين المتدينين ـ ولو اختلفت دياناتهم ـ هي أقوى وأوثق من رابطتهم مع الوثنيين والملحدين .

١٠ ـ وقال : إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر ، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق ، ابتكروا وسائل أخرى ، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة .

* * *

فصل : في إسلام عمر وحمزة

١٠٩ ـ * روى الطبراني عن محمد بن كعب القرظي قال : كانَ إسلامُ حمزةَ رضي اللهُ عنهُ حَمِيَّةً وكان يَخرُجُ من الحرمِ فيصطادُ فإذا رجَعَ مرَّ بمجلس قُريشٍ ، وكانُوا يجلسُونَ عِنْدَ الصَّفَا والمرْوةِ فيمرُّ بهم فيقول : رميتُ كَذَا وكَذَا وصنعتُ كَذَا وكَذَا ثم ينطلقُ إلى منزلهِ ، فأقبَلَ من رَمْيِه ذَاتَ يَوْمٍ فَلَقيتهُ امْرَأَةٌ فقالت : يا أبا عُمَارَةَ ماذا لَقِيَ ابنُ أخيكَ من أبي جهلِ بن هشامٍ ؟ شتَمَهُ وتناولهُ وفعلَ وفعلَ ، فقال : هل رآهُ أحدٌ ؟ قالت : أي واللهِ لقدْ رآهُ ناسٌ ، فأقبل حتّى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصَّفَا والمرْوةِ ، فإذا هم جلُوسٌ وأبُو جهلٍ فيهم فاتّكأ على قوسِهِ وقال : رَميْتُ كَذَا وفعلتُ كَذَا وكَذَا ، ثمّ جَمَعَ يَديهِ بالقوْسِ فَضَربَ بها بين أذُني أبي جهلٍ فدق سيتها ، ثمّ قال : خُذْهَا بالقوسِ وأُخْرَى بالسّيفِ ، أشهدُ أنّهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأنّهُ جاءَ بالحقِ من عندِ اللهِ ، قالوا : يا أبا عُمارةَ إنّهُ سبَّ آلِهتنَا ، وإن كُنتَ أنت وأنتَ أفضلُ مِنهُ ما أقررناكَ وذاكَ ، وما كُنتَ يا أبا عُمارةَ فَاحِشاً .

١١٠ ـ * روى الترمذي عن عبدِ اللهِ بن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبي ﷺ قال : « اللهُمَّ أَعِزَّ الإسلامَ بأبِي جَهْلِ بن هشامٍ ، أو بِعُمَر » . قال : فَأَصْبَحَ ، فَغَدا عُمَرُ على رَسُول الله ﷺ فَأَسْلَمَ .

١١١ ـ * روى الطبراني عن ابن عباس قال : أوّلُ من جهرَ بالإسلام عُمرُ بن الخطاب .

المراد بالجهر هنا التحدي ، وإلا فقد جهر قبله غيره .

١١٢ ـ * روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : مازلنا أعزّةً منذ أسلم عمر .

---

١٠٩ ـ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٦٧) : رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح .

١١٠ ـ الترمذي (٥ / ٦١٧ ، ٦١٨) ٥٠ ـ كتاب المناقب ـ ١٨ ـ باب في مناقب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. وهذا الحديث غريب من هذا الوجه ، وتشهد لهذه الرواية روايات أخرى صحيحة . فغدا : غدا عليه غدواً وغُدوة ـ بالضم ـ واغتدى : بكّر ، أي ذهب إليه مبكراً . والغدوة البكرة أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

١١١ ـ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٦٣) : رواه الطبراني وإسناده حسن .

١١٢ ـ البخاري (٧ / ٤١) ـ ٦٢ ـ كتاب فضائل الصحابة ـ ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ .

١١٣ - * روى الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال : إنْ كان إسلامُ عُمرلَفتحاً ، وهجرته لَنصراً ، وإمارته رحمةً ، والله ما استطعنا أن نصليَ حول البيتِ ظاهرين حتى أسلم عمر .

١١٤ - * روى الحاكم عن عثمان بن عبد الله بن الأرقم عن جده الأرقم ، وكانَ بدرياً ، وكان رَسُولُ اللهِ ﷺ أوى في دَارِهِ عند الصَّفا حتى تكَامَلُوا أرْبَعِينَ رَجُلاً مُسلِمينَ وكان آخِرهُم إسْلاماً عُمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، فلما كانُوا أربعينَ خَرجُوا إلى المُشركينَ . قال الأرقَمُ : فجئتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لأودعهُ وأردتُ الخروجَ إلى بيتِ المقدس ، فقالَ لي رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أينَ تُريدُ ؟ » قلت : بيتَ المقدسِ . قال : « وما يخرجكَ إليه أفي تجارةٍ ؟ » قلت : لا ولكن أُصلّي فيه ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآله وسلم : « صلاةٌ ها هُنا خَيرٌ من ألفِ صلاةٍ » .

ذكر رقم الأربعين هنا يحتمل أنهم تكاملوا أربعين بعد هجرة من هاجر إلى الحبشة لأن الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية أكثر من ثمانين ، أو نقول : إن الثمانين لم يهاجروا دفعة واحدة فالمسلمون تزايدوا بعد إسلام عمر وقسم منهم هاجر فزاد رقم المهاجرين على الثمانين وهذا الذي نرجحه ، فيكون عمر هو الموفي على العدد الأربعين وهي حصيلة عمل خمس سنين من الدعوة ، وفي هذا درس للمتعجلين .

١١٥ - * روى البخاري عن زيد بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : بينَما هُوَ في الدارِ خَائفاً ، إذ جاءهُ العاص بن وائل السَّهمي أبو عمرو عليهِ حُلَّةُ حِبَرٍ وقميصٌ مكفوفٌ بحريرٍ ، وهو من بني سهمٍ ، وهم حُلفاؤنَا في الجَاهليةِ ، فقال : ما بَالُك ؟ قال : زَعَمَ قَومكَ أنّهم سيقتُلُونَني إن أسْلمتُ ، قال : لا سَبيلَ إليكَ - بعد أن قالها أمنتُ - فخرجَ العاص ، فلقيَ

---

١١٣ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٦٢) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن القاسم لم يدرك جده ابن مسعود . المعجم الكبير (٩ / ١٧٨) .

١١٤ - المستدرك (٣ / ٥٠٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي :

١١٥ - البخاري (٧ / ١٧٧) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٣٥ - باب : إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

الحِبَرة : بُرد يمانيٌّ ، والجمع : حِبَر وحِبرات . الحُلفاء : جمع حليف ، وهو الذي يحلف لك وتحلف له على التعاضد والتناصر . لا سبيل إليك : أي لن يقربك أحد بسوء . صبأ : صبأ فلان إذا خرج من دين إلى دين غيره . كر =

النّاسَ قد سالَ بهم الوادي ، فقال : أينَ تُريدونَ ؟ قالوا : نريدُ هذا ابن الخطاب الذي صبأ ، قال : لا سبيلَ إليهِ . فكَرَّ الناسُ .

وفي رواية قال : لما أسلمَ عُمر اجتمعَ الناسُ عند دارهِ ، وقالوا : صَبَأ عُمر - وأنا غلامٌ فوق ظهرِ بيتي - فجاءَ رجلٌ عليه قباءٌ من ديباجٍ ، فقال : قد صبأ عُمرُ ، فما ذاك ؟ فأنا لهُ جارٌ ، فرأيتُ الناسَ تصدعوا عنهُ ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : العاصُ بن وائلٍ .

١١٦ - * روى الطبراني عن عمرَ أنه أتى النبي ﷺ فقال : يا رسولَ اللهِ إنّي لا أدعُ مجلساً جلستهُ في الكفرِ إلا أعلنتُ فيه الإسلامَ ، فأتى المسجدَ وفيه بطونُ قريشٍ متحلقةٌ فجعلَ يعلنُ الإسلامَ ويشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وأن محمداً رسول الله . فثارَ المشركونَ فجعلوا يضربونهُ ويضربهمْ . فلما تكاثروا عليه خلصه رجلٌ فقلتُ لعمرَ : من الرجل الذي خلصكَ من المشركينَ ؟ قال : ذاك العاص بن وائلٍ السّهمِي .

* * *

دروس من إسلام عمر وحمزة :

إن معرفة الرجال وإدراك مزاياهم والاستفادة من كفاءاتهم شيء لا يلحق به أحدٌ من الناس رسولَنا عليه الصلاة والسلام وفي قصة عمر نموذج ، والقائد الذي لا يدرك مزيّة الرجال ويحسن الاستفادة من قوة القوي منهم قائد فاشل وضائع .

ولقد عزّ الإسلام بعمر من حيث إنه حمل هذا الدين جهرة وتحدّى به وصارع من أجله - دون قتال - ومن ههنا نعرف أن مجرد إظهار الدعوة والوقوف بقوة معها والثبات على ذلك يعتبر نصراً للإسلام وأهله.

وبإسلام حمزة وعمر وجد وضع جديد في مكة ، وبخروج بعض الأصحاب إلى الحبشة

= الناس : رجعوا . القباء : ثوب يلبس فوق الثياب . الديباج : نوع من الثياب يصنع من الإبرسيم ، وهو أحسن أصناف الحرير . جار : أنا لفلان جار ، أي : حام ، وفلان في جواري : في حِمَاي وحفظي . تصدعوا عنه : أي تفرقوا عنه .

١١٦ - قال في المجمع (٩ / ٦٥) : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

زادت أضغان المشركين ، ولكن أبا طالب كان يحمي رسول الله ﷺ ، وهذا كله دعا قريشاً لأن تفكر وتعمل الحيلة ، فهداها شيطانها إلى فكرة المقاطعة لرسول الله ﷺ وأصحابه ومن يتعاطف معهم مما ألجأ رسول الله ﷺ وأصحابه وأبا طالب وبني هاشم وبني المطلب ما عدا أبا لهب إلى الدخول في شعب أبي طالب لمواجهة الحصار الاقتصادي والاجتماعي مجتمعين ، وكانت محنة جديدة استمرت ثلاث سنين ، أنهك فيها أبو طالب وخديجة فتوفيا على إثرها ، وهنا ازدادت المحنة وبدأت قريش بالإيذاء المباشر لرسول الله ﷺ ، فكان من آثار ذلك أن قرر رسول الله الرحلة إلى الطائف للدعوة هناك ، فوقفت منه ثقيف موقفاً هو شر من موقف قريش فعاد إلى مكة ودخلها بحماية المطعم بن عدي .

وخلال هذه الأحداث كلها كانت الدعوة مستمرة ، والتبليغ قائماً على قدم وَسَاقٍ ، وفُتح آخر الأمر الطريق إلى المدينة بدخول الإسلام إلى أهلها على مدار ثلاث سنوات متوالية حدثت خلالها حادثة الإسراء والمعراج كمقدمة لميلاد الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، ثم كان آخر الأمر الهجرة إلى المدينة .

* * *

فصل : في حصار الشِّعْب

بدأ حصار الشعب في السنة السابعة للبعثة ، واستمر ثلاث سنوات وانتهى على القول الراجح في المحرم من السنة العاشرة . تعاقدت قريش على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم حتى يسلّموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلّموه للقتل ، وكتبوا هذا في صحيفة وعلّقوها في جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب إلى شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة ، واشتدّ الحصار وقطعت عنهم الميرة والمادة حتى بلغهم الجهد والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود ، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً ولا يشترون حوائج إلا في الأشهر الحرم أو مما يرد إلى مكة من خارجها ، ومع ذلك كانت قريش تزيد عليهم في السعر ، ثم تحركت عواطف أهل النخوة والأريحية فأبطلوا الصحيفة ، ولما أرادوا تمزيقها وجدوا الأرضة أكلتها إلا قولهم (باسمك اللهم) . وكان رسول الله ﷺ قد أخبر عمّه بذلك فكانت معجزة ، وقد ذكر البخاري حادثتين أشار فيهما رسول الله ﷺ إلى تقاسم المشركين على كفرهم هذا في خيف [1] بني كنانة مرة بمناسبة غزوة حنين ومرة بمناسبة الحج ، وكتب السيرة طافحة بأخبار هذا الحصار ومآسيه ، وقد ذكره البخاري في صحيحه مرتين وها نحن ننقل إحدى الروايتين وننقل ما ذكره ابن حجر بمناسبة إحداهما :

١١٧ - * روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : مِنَ الغدِ يومَ النَّحرِ وهو بمِنِيً : « نحنُ نازلونَ غداً بخيفِ بني كنانةَ حيث تقاسموا على الكفر » يعني بذلك المحصَّب ، وذلكَ أن قُريشاً وكِنانةَ تحالَفَتْ على بني هاشم وبني عبدِ المطلب - أو بني المطلبِ - أن لا يُناكِحوهم ولا يُبايعوهم حتى يُسلّموا إليهمُ النبي ﷺ . وقال سلاَمَةُ عن

(١) خَيف : الخيف : الناحية أو ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسب مسيل الماء وبها سمّي مسجد الخيف أو لأنها ناحية من منى .

١١٧ - البخاري (٣ / ٤٥٣) ٢٥ - كتاب الحج - ٤٥ - باب نزول النبي ﷺ مكة .

المحصّب : الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح ، أو المحصّب موضع رمي الجمار بمنى .

عُقيـل ويحيى بن الضحـاكِ عن الأوزاعي : أخبرَني ابنُ شِهـابٍ وقـالا : بني هـاشم وبني المطَّلب ، قال أبو عبدِ الله بني المطَّلب أشْبَه .

قال ابن حجر : قال ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما من أصحاب المغازي : لما رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أماناً وأن عمر أسلم وأن الإسلام فشا في القبائل ، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك أبا طالب فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله ، فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية ، فلما رأت قريش ذلك أجمعوا أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم والمطلب كتاباً أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلّموا إليهم رسول الله ﷺ ، ففعلوا ذلك ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن عامر ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي فَشُلَّتْ أصابعه، ويقال إن الذي كتبها النضر ابن الحارث ، وقيل طلحة بن أبي طلحة العبدي ، قال ابن إسحاق : فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع قريش ، وقيل كان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من البعثة ، قال ابن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، وجزم موسى بن عقبة بأنها كانت ثلاث سنين حتى جهدوا ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية ، حتى كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصلات .

إلى أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك صنيعاً هشام بن عمرو بن الحارث العامري ، وكانت أم أبيه تحت هاشم بن عبد مناف قبل أن يتزوجها جده ، فكان يصلهم وهم في الشعب ، ثم مشى إلى زهير بن أبي أمية وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فكلمه في ذلك فوافقه ، ومشيا جميعاً إلى المطعم بن عدي وإلى زمعة بن الأسود فاجتمعوا على ذلك ، فلما جلسوا بالحجر تكلموا في ذلك وأنكروه وتواطئوا عليه فقال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل . وفي آخر الأمر أخرجوا الصحيفة فمزقوها وأبطلوا حكمها . وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى . وأما ابن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة فذكروا عكس ذلك أن الأرضة لم تدع اسماً لله تعالى إلا أكلته ، وبقي ما فيها من الظلم والقطيعة ، فالله أعلم .

وذكر الواقدي أن خروجهم من الشعب كان في سنة عشر من المبعث ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، ومات أبو طالب بعد أن خرجوا بقليل . قال ابن إسحاق ومات هو وخديجة في عام واحد ، فنالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تناله في حياة أبي طالب . ولما لم يثبت عند البخاري شيء من القصة اكتفى بإيراد حديث أبي هريرة لأن فيه دلالة على أصل القصة ، لأن الذي أورده أهل المغازي من ذلك كالشرح لقوله في الحديث : « تقاسموا على الكفر » .

* * *

درس من الحصار :

نلاحظ من خلال قصة الحصار أن مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ وحموه كأثر من أعراف الجاهلية ، ومن ههنا ومن غيره نأخذ أنه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة على أن يكون ذلك مبنياً على فتوى صحيحة من أهلها .

إن حقوق الإنسان في عصرنا ضمان للمسلم ، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها ، وقوانين كثير من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً ، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك وغيره من خلال موازنات دقيقة .

قال الدكتور البوطي بمناسبة حادثة الحصار :

والمهم أن تعلم بأن حماية أقارب رسول الله ﷺ له ، لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها ، وإنما كانت لشخصه من الغريب ، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قِبَلِ المسلمين وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم فأنعم بذلك من جهد مشكور وسبيل ينتبهون إليها .

* * *

جزاء المقاطعة :

١١٨ ـ * روى مسلم عن مسروق بن الأجدع رحمه الله قال : كُنَّا عند عبد الله جلوساً ـ وهو مُضْطجعٌ بيننا ـ فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنَّ قاصًا عند أبواب كِنْدَة يَقُصُّ ، ويزعم : أنَّ آيةَ الدُّخان تجيءُ فتأخُذُ بأنفاسِ الكفار ، ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزُّكام ، فقال عبد الله وَجَلسَ وهو غَضبانُ : يا أيُّها الناس ، اتقوا الله ، من علم منكم شيئاً فليقلْ بما يعلم ، ومن لا يعلمُ فليقلْ : الله أعلم ، فإنه أعلمُ لأحدِكم أن يقولَ لما لا يعلمُ : الله أعلمُ ، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ [1] إنَّ رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدْباراً قال : « اللهم سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ » .

وفي رواية للبخاري [2] : أن رسول الله ﷺ لما رأى قريشاً اسْتَعْصَوا عليه ، فقال : « اللهم أعنِّي عليهم بسبعٍ كسبْعِ يُوسُفَ » فأخذتهم السَنَةُ حتَّى حَصَّتْ كُلَّ شيءٍ . حتى أكلوا الجُلودَ والمَيْتَةَ ، وجعلَ يخرُجُ من الأرضِ كهيئة الدُّخان ، فأتاه أبو سفيان ، فقال : أي محمد ، إنَّ قَوْمَكَ قد هَلَكوا ، فادْعُ الله أن يكشف عنهم فدعا ، ثم قال : « تعودُوا بعدَ هذا » ثم قرأ : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذَابٌ أَلِيم** ﴾ حتى بلغ ﴿ **إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ﴾ [3] . قال عبدُ الله : أفيُكْشفُ عنهم العذابُ يوم القيامة ؟ قال : والبطشةُ الكبْرى يومُ بدرٍ .

وفي رواية للبخاري [4] قال : قال عبد الله : إنما كان هذا ، لأن قريشاً لما اسْتَعْصَوا على

---

١١٨ ـ مسلم (٤ / ٢١٥٥) ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ ٧ ـ باب الدخان .

سبع كسبع : أراد بالسبع : سبع سنين التي كانت في زمن النبي يوسف عليه السلام المجدبة التي دكرها الله تعالى في القرآن . حَصَّت : حلقت واستأصلت . قحط : القحط : احتباس المطر . الجهدُ : بفتح الجيم ـ المشقة . لمضر : أي : أتأمرني أن أستسقي الله لمضر ، مع ما هم عليه من المعصية والإشراك به ؟! . الرفاهية . الدعة وسعة العيش .

(١) ص : ٨٦ :

(٢) البخاري (٨ / ٥٧٣) ٦٥ ـ كتاب التفسير (٤٤) سورة الدخان ـ ٥ ـ باب ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ .

(٣) الدخان : ١٠ ـ ١٦ .

(٤) البخاري (٨ / ٥٧١) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ ٢ ـ باب : يغشى الناس هذا عذاب أليم .

النبي ﷺ ، دعا عليهم بِسنِينَ كَسنِي يوسفَ فأصابهم قَحْطٌ وَجهْدٌ ، حتى أكلوا العظامَ ، فجعل الرجلُ ينظرُ إلى السماءِ فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهدِ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ فَارْتَقِب يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال : فأُتي رسول الله ﷺ ، فقيل : يا رسول الله ، استَسْقِ اللهَ لِمُضَر ، فإنها قد هَلَكتْ ، قال : « لِمُضَر ؟ إنك لجَريءٌ » ، فاستقى لهم ، فَسقُوا ، فنزلت ﴿ إِنَّكُم عَائِدُونَ ﴾ فلما أصابهم الرفاهيةُ ، عَادُوا إلى حالهم ، حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عز وجل ، ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ قال : يعني يومَ بدرٍ .

وفي رواية للبخاري [١] : فقيل له : إنْ كشفنا عنهم ، عادوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فعادوا ، فانتقم الله منهم يومَ بدرٍ ، فذلك قوله : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ .

وفي رواية الترمذي [٢] مثل الرواية الأولى إلى قوله : ﴿ فَارْتَقِب يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال أحد رواته : هذا كقوله : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ ﴾ فهل يكشفُ عذابُ الآخرة ؟ قد مضى البطشةُ واللزامُ والدخانُ ، وقال أحدهم : القمر ، وقال الآخر : الرومُ واللزام يعني : يوم بدرٍ .

وروى مسلم [٣] عن عبد الله قال : خمسٌ قد مَضَيْنَ : الدخانُ ، واللزامُ ، والرومُ ، والبطشةُ ، والقمرُ .

* * *

---

(١) البخاري (٨ / ٥٧٢) ٦٥ - كتاب التفسير (٤٤) سورة الدخان ، باب : ٢ .

(٢) الترمذي (٥ / ٣٧٩) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٤٦ - باب : ومن سورة الدخان . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) مسلم (٤ / ٢١٥٧) ٥٠ - كتاب المنافقين وأحكامهم - ٧ - باب الدخان .

فصل : في انشقاق القمر

ذكر البخاري انشقاق القمر بين إسلام عمر بن الخطاب وبين هجرة الحبشة ، وقد فهم من ذلك ابن حجر إشارة إلى أن حادثة انشقاق القمر كانت في تلك المرحلة قال :

جعل ابن إسحاق إسلام عمر بعد هجرة الحبشة ، ولم يذكر انشقاق القمر فاقتضى صنيع المؤلف أنه وقع في تلك الأيام ، وقد ذكر ابن إسحاق من وجه آخر أن إسلام عمر كان عقب هجرة الحبشة الأولى اهـ. وقد ذكر الألوسي في تفسيره بصيغة الجزم أن انشقاق القمر كان قبل الهجرة بنحو خمس سنين .

وبناء على قول الألوسي فإن انشقاق القمر كان بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة وخلال حصار الشعب وإني أرجِّح ذلك ، فحصار الشعب كان أشد المحن ، وفي المحن تأتي التثبيتات في الغالب ، ومعجزة انشقاق القمر كانت من أشد التثبيتات .

١١٩ - * روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن أهلَ مكةَ سألوا رسولَ الله ﷺ : أن يُرِيهم آيةً ، فأراهم انشقاقَ القمرِ .

وفي أخرى : فأَرَاهُم القمرَ شِقَّين(١) .

وزاد الترمذي (٢) : فنزلت : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ - إلى - ﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِر ﴾ (٣) يقول : ذاهب .

١٢٠ - * روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انشقَّ القمرُ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ بشقَّين ، فقال رسول الله ﷺ : « اشْهَدُوا » وفي أخرى : ونحنُ معهُ ، فقال

---

١١٩ - البخاري (٦ / ٦٣١) ٦١ - كتاب المناقب - ٢٧ - باب : سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر.
ومسلم (٤ / ٢١٥٩) . ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٨ - باب : انشقاق القمر .

(١) البخاري (٧ / ١٨٢) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ٣٦ - باب انشقاق القمر .

(٢) الترمذي (٥ / ٣٩٧) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٥ - باب : ومن سورة القمر . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) سورة القمر : ١، ٢ .

١٢٠ - ومسلم (٤ / ٢١٥٨) ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٨ - باب : انشقاق القمر .

« اشْهَدُوا ، اشْهَدُوا » .

وفي أخرى قال : بينما نحنُ معَ رسولِ الله ﷺ بمِنَى ، إذِ انْفلقَ القمرُ فلقتينِ ، فلْقةٌ وراءَ الجبلِ ، وفلقةٌ دُونهُ ، فقال لنا رسولُ اللهِ ﷺ : « اشْهَدُوا » .

وللبخاري[1] قال : وقال مسروقٌ عن عبد اللهِ (بمكَّةَ) وأخرجَ الترمذي مثلَهُ .

١٢١ - * روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، مثل حديث قَبْلَهُ قال : انْشقَّ القَمَر على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ فَلْقتيْنِ ، فسترَ الجبلُ فِلْقَةً ، وكانتْ فِلْقَـةٌ فوقَ الجَبلِ ، فقَـالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « اللهمَّ اشْهَدْ » .

١٢٢ - * روى البخاري عن عبد الله بن عبـاسٍ رضيَ اللهُ عنهما قـال : إنَّ القمرَ انشقَّ في زمن النبي ﷺ .

١٢٣ - * روى الترمذي عن جُبَيْرِ بن مُطْعَمٍ رضي الله عنـه قـال : انشقَّ القمر على عهـدِ النبي ﷺ ، صـار فرقتين على هـذا الجبل ، وعلى هـذا الجبل ، فقـالوا : سحرَنـا محمـد فقـال بعضهم : لئن كان سحرَنا ما يستطيع أن يسحرَ الناس كُلَّهم .

وزاد رُزين : فكانوا يتلقَّون الرُّكبان ، فيخبِرُونهم بأنَّهم قد رَأوهُ فيكذِّبونهم .

أقول : وفي رواية أبي نعيم في الدلائل : فما قدم عليهم أحد إلا أخبرهم بـذلـك ، ذكره في الفتح .

لقد روى هذه الحادثة ابن مسعود وجبير بن مطعم وحذيفـة ، قـال ابن حجر : وهؤلاء شاهدوها . ورواها من صغار الصحابة عن كبارهم ابن عبـاس وأنس مما يـدل على أن ذلـك كان متداولاً يرويه الصغار عن الكبار .

---

١٢١ - مسلم (٤ / ٢١٥٩) ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٨ - باب انشقاق القمر .

(١) البخاري : (٦ / ٦٣١) ٦١ - كتاب المنـاقب - ٢ - بـاب : سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آيـة فـأراهم إنشقـاق القمر .

ومسلم (٤ / ٢١٥٩) . ٥ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٨ - باب : انشقاق القمر .

١٢٣ - الترمذي (٥ / ٣٩٨) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٥ - باب : ومن سورة القمر . وقال : حديث حسن .

قال ابن عبد البر : قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة ، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا ، ويؤيد ذلك بالآية الكريمة ، فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر .

وقال صاحب الفتح الرباني :

وهذا من المعجزات الكونية التي لم تسبق لنبي غير نبينا ﷺ . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة .

قال : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

وقال في التاريخ : وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك زمنه ، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها ، وذكر كثيراً من الأحاديث وطرقها في التفسير والتاريخ ، أهـ .

وقال الخطابي : انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء ، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع ، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة ، فلذلك صار البرهان به أظهر ، وقد أنكر ذلك بعضهم فقال : لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة ، فالناس فيه شركاء والدواعي متوفرة على رؤية كل غريب ونقل ما لم يعهد ، فلو كان لذلك أصل لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم ، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره . والجواب عن ذلك أن هذه القصة خرجت عن بقية الأمور التي ذكروها لأنه شيء طلبه خاص من الناس فوقع ليلاً لأن القمر لا سلطان به بالنهار ، ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياماً ومستكينين بالأبنية ، والبارز بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بما يلهيه من سمر وغيره ، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مركز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه ، فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس ، وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه ،

ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مـدرك البصر . ثم أبـدى حكمـة بـالغـة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيـه إلا القرآن بمـا حـاصلـه : إن معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب بـه من قومـه للاشتراك في إدراكها بالحس ، والنبي ﷺ بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية ، فـاختص بهـا القوم الذين بعث منهم لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهـام ، ولو كان إدراكهـا عـامـاً لعوجل من كذب به كما عوجل من قبلهم . أهـ من الفتح .

أقول : لما كان هناك خلاف بين الأئمة في تواتر انشقـاق القمر ، ولمـا كانت الآيـة ﴿ وَانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ قابلة للتـأويل الضعيف بمعنى أنـه سينشق ، فـإننـا لا نحكم بكفر من أنكر الانشقـاق ، لكنه إما ضال وإما فاسق لتكذيبه الأحاديث الصحيحـة ، وعلى العموم فمثل هـذا الإنكار دليل على مرض القلب .

* * *

فصل : الإيذاء مستمر والدعوة مستمرة

١٢٤ - * روى أحمد عن رجل من بني مالكِ بن كنانة قال : رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ بسوقِ ذي المجاز يتخللها يقول : « يا أيُّها الناسُ قولوا لا إله إلا اللهُ تُفْلِحُوا » قال : وأبو جهل يَحْثِي عليه الترابَ ويقولُ : لا يغرنّكُم هَذَا عن دِينكُم ، فإنَّما يُريدُ لتتركُوا آلِهَتكم ولتتركُوا اللاّتَ والعُزَّى ، وما يلتفتَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ . قلنا : انْعتْ لنا رسولَ اللهِ ﷺ ، قال : بينَ بُردينِ أحْمَرينِ ، مربوعٌ ، كثيرُ اللحمِ ، حَسَنُ الوجهِ ، شَديدُ سوادِ الشّعرِ ، أبيضُ شديدُ البياضِ ، سابغُ الشعرِ .

١٢٥ - * روى أحمد عن ربيعةَ بن عبادٍ من بني الدِّيل ، وكانَ جَاهِلياً قال : رأيتُ النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : « يا أيُّها الناسُ قُولُوا لا إله إلا اللهَ تُفْلِحُوا » والنّاسُ مُجتمِعُون عليه ووراءهُ رجلٌ وضيءُ الوجهِ أحولُ ذو غديرتينِ يقول : إنّهُ صَابِيءٌ كاذبٌ ، يتتبعهُ حيثُ ذَهَبَ ، فسألتُ عَنْهُ فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا لي : هذا عمّه أبو لهبٍ ، وفي روايةٍ ورسولُ اللهِ ﷺ يفرُّ منهُ وهو يتبعُهُ ، وفي رواية والناس مُنْقَصِفونَ عليهِ ، فما رأيتُ أحداً يقولُ شيئاً وهو لا يَسْكت .

١٢٦ - * روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كأني أنظرُ إلى النبي ﷺ يحْكِي نبياً من الأنبياء ضَرَبَه قومُهُ فأدموهُ وهو يَمْسحُ الدَّمَ عن وجهه ، ويقول :« اللهمَّ اغْفِر لقوْمِي ، فإنّهم لا يعْلَمونَ » .

١٢٧ - * روى الطبراني عن الحارث بن الحارث قال : قُلتُ لأبي مَا هذهِ الجماعةُ قال :

---

١٢٤ - أحمد في مسنده (٥ / ٣٧٦) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٢) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

يحثي : حثى عليه التراب : حثا في وجهه التراب : هاله عليه . يغوينكم : غوى : أمعن في الضلال . أغواه : أضلّه وأغراه . مربوع : الربعة : الوسيط القامة . سابغ : سبغ الشيء سبوغاً : تمّ وطال واتسع .

١٢٥ - أحمد في مسنده (٤ / ٣٤١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٢) : رواه أحمد وابنه والطبراني في الكبير بنحوه والأوسط باختصار بأسانيد وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات . المعجم الكبير (٥ / ٦١) .

منقصفون : أي متزاحمون حتى يقصف بعضهم بعضاً ، من القصف : الكسر والدفع الشديد لفرط الزحام .

١٢٦ - البخاري (٦ / ٥١٤) ٦٠ - كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : ٥٤ .

ومسلم (٣ / ١٤١٧) . ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٣٧ - باب : غزوة أحد .

١٢٧ - المعجم الكبير (٣ / ٢٦٨) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢١) : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

هؤلاء القومَ الذينَ اجتمَعُوا على صـابئٍ لهم ، قال : فَنزلنَـا فـإذَا رسولُ اللهِ ﷺ يـدعو النَّـاسَ إلى توحيدِ الله عزَّ وجلَّ والإيمانِ ، وهم يرُدُّونَ عليه ويُؤذونَـهُ حتى انتصفَ النَّهـارُ وانصـدعَ النَّاسُ عَنْه ، أقبلت امرأةٌ قد بَدَا نَحْرُها تَحمِلُ قَدَحاً ومَنْديلاً فَتَنَاوَلَـهُ منهـا فشربَ وتَوَضـأَ ثم رَفَع رأسَهُ فقال : « يا بنيَّةُ خَمِّري عَلَيْكِ نَحْرَكِ ولا تَخَافِي على أبيكِ » قلنـا : من هذه ؟ قالوا : هذِهِ زينب بِنْتُهُ .

١٢٨ - * روى أبـو داود عن جـابر بن عبـد الله - رضي الله عنهم - قـال : كانَ رسـول اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَـهُ على النَّـاسِ في المَوْقِفِ ، فقـال : « « ألا رَجلٌ يَحْمِلُني إلى قومِـهِ ؟ فـإن قُريشاً مَنعُوني أن أبلِّغَ كلامَ ربِّي » .

١٢٩ - * روى الطبراني عن مدركةَ بن الحارث قال : حَجَجتُ مع أبي فَلمَّا نَزلْنَـا مِنى إذا نحنُ بجماعةٍ ، فقُلتُ لأبي : مـا هـذهِ الجمـاعـةُ ، قـال : هـذا الصَّـابئ ، فـإذا رسولُ اللهِ ﷺ يقول : « يا أيُّها النَّاسُ قولوا لا إله إلا الله تفْلِحُوا » .

لم ينقطع رسول الله ﷺ عن الـدعوة أبـداً منـذ كُلِّف بهـا . وهـذه نمـاذج : فلا الإيـذاء لشخصه ولا لأهله ولا لأصحابه ولا المقـاطعـة أوقفتـه عن الـدعوة ﷺ ، وقـد وضعنـا هـذا الفصل بين فصل المقاطعة وفصل عام الحزن مع أنها متتابعـان حتى لا يقع في خلـد أحـد أن الدعوة توقفت .

* * *

= صابئ : صبأ الرجل : ترك دينه ودان بآخر . انصدع : انشقّ . وانصدع الصبح : أسفر . قدحاً : القدح : إناء يشرب به الماء أو النبيذ ونحوها . خمري : التخمير : التغطية . نحرك : نحر : الصدر أعلاه أو موضع القلادة .

١٢٨ - أبو داود (٤ / ٢٣٤) كتاب السنّة - باب في القرآن .

والترمذي (٥ / ١٨٤) ٤٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٢٤ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل . وقال : حسن غريب صحيح .

وابن ماجه (١ / ٧٣) . ١٢ - المقدمة - باب : فيا أنكرت الجهمية . وإسناده صحيح .

١٢٩ - المعجم الكبير (٢٠ / ٢٤٣) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢١) : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

فصل : عام الحزن والشدّة

انتهى حصار الشعب في الحرم من السنة العاشرة للبعثة وتُوفّي أبو طالب بعد ستة أشهر من ذلك أي في شهر رجب ، وقد جاوز الثمانين من عمره ، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معلومات حتى أصابه مرض الوفاة ثم تُوفي ، وبعد وفاته بشهرين على قول توفيت أم المؤمنين خديجة في شهر رمضان من السنة العاشرة للبعثة ولها خمس وستون سنة ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره ، وحاولت قريش أن تأخذ من رسول الله شيئاً قبل وفاة أبي طالب فلم تفلح ، فلما توفي آذت رسول الله ﷺ كل الإيذاء ، ولعل أكثر روايات الإيذاء وقعت في هذه المرحلة مما اضطر رسول الله ﷺ للخروج إلى الطائف .

ويذهب الدكتور البوطي إلى أن حزن رسول الله ﷺ لم يكن على فراق عمه وزوجه بل لانسداد أبواب الدعوة أمامه ، ومع التسليم بالثاني فإنني لا أنفي الأول ، لأن رسول الله ﷺ كان أكمل الناس في كل شيء ، ومن ذلك أنه كان أكملهم عواطف ، وعاطفتا الوفاء والرحمة كانتا بارزتين عنده ، فإذا ما حزن على عمه وفاءً ، وعلى زوجته رحمة ووفاءً ، فلا حرج في ذلك بل هو الكمال بعينه ، ونحن سنذكر في هذا الفصل بعض روايات الإيذاء لأنها مظنّة أن تكون وقعت بعد وفاة أبي طالب ولكن ليس ذلك شرطاً فاقتضى التنويه :

١٣٠ - * روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مَرِضَ أبُو طالبٍ فجاءتهُ قُريشٌ ، وجاءهُ النَّبي ﷺ - وعِنْد أبي طالبٍ مجْلِسُ رَجل - فقامَ أبو جهلٍ كي يمنعهُ وَشكوهُ إلى أبي طالبٍ ، فقال : يا ابنَ أخي ، ما تُريدُ من قَوْمِكَ ؟ قال : « أُريدُ مِنْهُم كَلِمةً واحدةً ، تَدينُ لهم بها العَرَبُ ، وتُؤدِّي إليهمُ العَجمُ الجِزْيَةَ » . قال : كَلِمةً وَاحِدَةَ ؟ قالَ : « كلمةً وَاحِدةَ ، قال : يَا عَمِّ ، يقولوا : لا إله إلا الله » . فقالوا : إلهاً وَاحِداً ؟ مَا سَمِعْنَا بهذا في المِلَّةِ الآخِرَةِ . إن هذا إلا اختلاقٌ . قال : فنزلَ فيهم القرآنُ : ﴿ صٓ والقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ *

---

١٣٠ - الترمذي (٥ / ٣٦٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٣٩ - باب ومن سورة « صٓ » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ا هـ . والحاكم (٢ / ٤٣٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره وفي مسنده يحيى بن عمارة لم يوثقه غير ابن حبان فلعل تحسينه لشواهده .

تدين : دان له بدين : إذا أطاعه ودخل تحت حكمه . الملة الآخرة : النصرانية . اختلاق : الاختلاق : الكذب .

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِنهُم وَقَالَ الكَافِرُونَ هَـذَا سَاحِرٌ كَذَّاب * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ المَلأُ مِنهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُم إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَاد * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَة إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ ﴾ [١] .

١٣١ ـ * روى البخاري ومسلم عن المَسيَّب بن حَزَنٍ رضي الله عنه قال : لما حَضرتْ أبا طالبِ الوَفاةُ ، جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ ، فوجَدَ عنْدَهُ أبا جهل ، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أُميَّةَ بن المغيرةَ ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « يا عمِّ ، قل : لا إلـه إلاَّ الله ، كلمةً أشهدُ لـك بها عندَ اللهِ » ، فقال أبو جهلٍ وعبد الله بنُ أبي أميَّةَ : يا أبَا طالب ، أترغبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطَّلبِ ؟ فلمْ يزلْ رسول الله ﷺ يعرضُها عليهِ ويُعيد له تلك المقالة ، حتَّى قالَ أبو طالبٍ آخرَ ما كلَّمَهُم هو على ملَّة عبد المطلبِ ، وأبى أن يقول : لا إله إلا اللهُ ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « أما واللهِ ، لأستغفرنَّ لك ، ما لم أُنْهَ عَنْكَ » ، فأنزل اللهُ عزَّ وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُم أَصْحَابُ الجَحِيمِ ﴾ [٢] . وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ في أبي طالبٍ ، فقال لرسولِ اللهِ ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ ﴾ [٣] .

١٣٢ ـ * روى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : مَازَالتْ قريشٌ كاعَةً حتى تُوُفِّي أبو طالب .

١٣٣ ـ * روى أحمد [٣] عن عُروةَ بنِ الزُّبير عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص ، قال : قلت له : ما أكثرَ ما رأيتَ قريْشًا أصابتْ من رسولِ اللهِ ﷺ فيما كانت تُظْهِرُ من عَداوتِهِ ، قالَ : حَضَرْتُهم وقد اجتمع أشرافُهُمْ يومًا في الحِجرِ فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا : ما

---

(١) صٓ : ١ ـ ٧ .

١٣١ ـ البخاري (٨ / ٣٤١) ٦٥ ـ كتاب التفسير ١٦ ـ باب ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ ومسلم (١ / ٥٤) ١ ـ كتاب الإيمان (٩) باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت . والنسائي (٤ / ٩٠) . كتاب الجنائز ، باب ـ النهي عن الاستغفار للمشركين .

(٢) التوبة : ١١٣ .　　(٣) القصص : ٥٦ .

١٣٢ ـ المستدرك (٢ / ٦٢٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

كاعة : كعّ ـ يكع : وتكَع : بالضم كموعاً جبن وضعف .

١٣٣ ـ أحمد في مسنده (٢ / ٢١٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٦) : قلت : في الصحيح طرف منه ، رواه أحمد وقد صرح ابن إسحاق بالسماع وبقية رجاله رجال الصحيح . =

رأيْنا مثلَ ما صبرنا عليهِ من هذا الرَّجلِ قطُّ ، سفَّه أحْلاَمنا ، وشتمَ آباءنَا ، وعابَ دينَنَا وفرَّقَ جماعَتَنَا ، وسَبَّ آلِهتَنَا ، لقد صَبَرنا مِنهُ على أمرٍ عظيمٍ ، أو كما قالوا .

قال : فبينمَا كذلك إذ طلعَ عليهمْ رسولُ الله ﷺ فأقبلَ يمشي حتى الرّكنَ ثم مرَّ بهمْ طائفاً بالبيتِ ، فلمَّا مرَّ بهم غَمزوهُ ببعضِ ما يقُولُ قال : فعرفتُ ذلكَ في وجههِ ثم مَضى ، فلما مرَّ بِهم الثانيةَ غمزوهُ بمثلها فَعرفتُ ذلكَ في وجههِ ثم مَضى ، فلما مرَّ الثالثةَ فغمزوهُ بمثلِها ، فقال : « أتَسمعونَ يا معشرَ قُريشٍ أما والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لقد جئْتُكُم بالذّبحِ » فأخذت القومَ كلمتُهُ حتى ما مِنهم رجلٌ إلا على رأسهِ طائرٌ واقعٌ ، حتى إنَّ أشدهُم فيه وَصَاةً قبلَ ذلك ليرْفَؤهُ بأحسنَ ما يجدُ من القولِ ، حتى إنَّهُ ليقولُ انصرفْ يا أبا القاسمِ انصرفْ راشداً فواللهِ ما كنتَ جَهُولاً ، قال : فانصرفَ رسولُ الله ﷺ .

حتى إذا كانَ الغدُ اجتمعُوا في الحِجْرِ وأنا مَعهُم ، فقال بعْضُهُم لبعضٍ : ذَكرتُمْ ما بلغَ منكُمْ ومَا بلغكُم عنهُ ، حتى إذا بَاداًكُم بما تكرهُونَ تركتُمُوهُ ، فبينما هم في ذلكَ إذ طَلَعَ عليهمْ رسولُ اللهِ ﷺ فوثبُوا إليه وثبةَ رجلٍ واحدٍ ، فأحاطوا به يقولون لهُ : أنتَ الذي تقولُ كَذَا وكَذا - لما كان يبلغُهُمْ عنه من عيبِ آلهتهمْ ودينِهم - قال : فيقولُ رسولُ اللهِ ﷺ : « نعمْ أنا الذي أقولُ ذلكَ » قال : فلقدْ رأيتُ رَجُلاً منهم أَخَذَ بمجمعِ ردائهِ ، وقامَ أبو بكر دُونه يَقولُ وهو يبكي : أتقتُلونَ رَجُلاً أن يقولَ رَبّي اللهُ ؟ ، ثم انصرفوا عنهُ فإنَّ ذلكَ لأشدُّ ما رأيتُ قريشاً بلغت منهُ قطُّ .

١٣٤ - * روى البخاري عن عروةَ بنِ الزبيرِرضي الله عنهما قال : سألتُ عبدَ اللهِ بن عمرو عن أشدِّ ما صَنَعَ المشركونَ برسولِ اللهِ ﷺ ؟ قال : رأيتُ عقبةَ بن أبي مُعيطٍ جَاءَ إلى النبيِّ ﷺ وهو يُصلي ، فوضعَ رِدَاءَهُ في عنقهِ ، فخنقهُ خنقاً شَديداً ، فجاء أبو بكرٍ حتى دفعهُ عنه ، ثم قَالَ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَد جَاءَكُمْ بالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[1].

= سفّه أحلامنا : جهل عقولنا . غمزوه : غمزه بيده يغمزه : نخسه . أشدهم فيه وصاة : يعني أشدهم له أذى وهيّا عن اتباعه .

١٣٤ - البخاري (٧ / ٢٢) ٦٢ - كتاب فضائل الصحابة - ٥ - باب : قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » .

البيّنات : المعجزات الظاهرات . فناء الكعبة : الساحة التي حولها . والفناء : الساحة في الدار أو بجانبها وتجمع على أفنية . المنكب : المنكب مجتمع رأس الكتف والعضد أي نقطة التقاء الذراع بالكتف .

(١) غافر : ٢٨ .

وفي رواية : بَيْنَا رسولُ اللهِ ﷺ بفناءِ الكعبةِ ، إذ أقبلَ عقبة بن أبي مُعَيْطٍ ، فأخَذَ بِمَنْكِبِ رسولِ اللهِ ﷺ فلفَّ ثوبَهُ في عُنُقِه ، فَخَنقهُ خَنْقاً شَدِيداً ، فجاء أبو بكر فأخذ بِمنْكِبيهِ ودفعهُ عن رَسولِ اللهِ ﷺ .. وذكر الحديث .

١٣٥ ـ * روى البزار والطبراني في الأوسط ، عن عبد الله بن مسعود قال : بَيْنَا رسولُ اللهِ ﷺ في المسجدِ ، وأبو جهل بنُ هشامٍ وشيبةُ وعتبةُ ابنا ربيعَةَ وعقبةُ بن أبي معيطٍ وأميةُ بن خلفٍ وَرَجُلان آخران كانُوا سبعةً وهم في الحِجْرِ ورَسُولُ اللهِ ﷺ يُصلّي فلمَّا سجدَ أطالَ السجودَ ، فقال أبُو جهلٍ : أيكُم يأتي سلا جَزُورِ بني فُلانٍ فيأتينَا بفرْثِهَا فنكْفَئهُ على محمدٍ ؟ ، فانطَلَق أشْقَاهُم عقبةُ بن أبي معيْطٍ فأتى به فألقاهُ على كتفيهِ ورسولُ اللهِ ﷺ ساجدٌ .

قال ابن مسعودٍ : وأنا قائمٌ لا أستطيعُ أن أتكلَّم ليسَ عندي منعةٌ تمنعُني فأنا أذهبُ ، إذ سمعتُ فاطمةَ بنتَ رسول اللهِ ﷺ فأقبلتْ حتَّى ألقت ذَلكَ عن عَاتِقِهِ ، ثم استقبلتْ قُريشاً تَسبُّهُم فلم يرجِعُوا إليها شَيْئاً ، ورَفعَ رسولُ اللهِ ﷺ رأسهُ كما كانَ يرفعُ عندَ تَمام السُّجود ، فلما قضى رسولُ اللهِ ﷺ صلاتَه قال : « اللهمَّ عليْكَ بقُريشٍ ـ ثلاثاً ـ عليْكَ بعُتبةَ وعُقبةَ وأبي جَهلٍ وشَيْبَةَ » .

ثم خرجَ من المسجدِ فلقيهُ أبو البخْتَري بسوطٍ يتخصَّرُ بهِ ، فلما رأى النبيّ ﷺ أنكرَ وجههُ

١٣٥ ـ البزار : كشف الأستار (٣ / ١٢٦) . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٨) : قلت : حديث ابن مسعود في الصحيح باختصار قصّة أبي البختري ـ رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي ، وهو ثقة عند ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره ، أ.هـ وبقية رجاله ثقات .

قلت : الأجلح الكندي قال عنه الحافظ في التقريب (١ / ٤٩) « صدوق » وعلى ذلك فالحديث حسن إن شاء الله تعالى .

السلا : بفتح السين المهملة : قال في النهاية الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه ، وقيل هو في الماشية السلا وفي الناس المشيمة والأول أشبه لأن المشيمة تخرج بعد الولد ولا يكون الولد فيها حين يخرج أهـ (وقال الحافظ ابن كثير) في تاريخه : السلا هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة ، وفي بعض ألفاظ الصحيح أنهم لما فعلوا ذلك استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض أي يميل هذا على هذا من شدة الضحك لعنهم الله . الجزور : ما يصلح لأن يذبح من الإبل ، ولفظه أنثى . يقال للبعير : هذه جزور سمينة يجمع على جزائر وجزر . الفرث : الأوساخ في الكرش . نكفئه : (كفأ) الإناء ـ كفئا : كبّه وقلبه . العاتق : ما بين المنكب والعنق . السّوط : ما يضرب به من جلد ، . يتخصّر بالسوط : يلفه على خاصرته . خلّى : خلّى الأمر : تركه ، ويقال خلّى سبيله : تركه وأرسله . الملأ : أي : أشراف القوم وسراتهم .

فقال مالَـكَ ؟ فقـال النبيُّ ﷺ : « خَلِّ عَنّي » قـال : عَلِمَ اللهُ لا أُخلي عَنْـكَ أو تُخْبرِني مـا شأنكَ فلقدْ أصابكَ شيءٌ ، فلمّا عَلِمَ النبيُّ ﷺ أنّهُ غيرُ مُخلٍ عنهُ أخبرهُ ، فقالَ : « إنَّ أبا جهلٍ أمر فَطُرِحَ عَليَّ فَرثٌ » فقـال أبـو البختري : هَلُمَّ إلى المسجـدِ ، فـأتى النبيُّ ﷺ وأبـو البختري فدخلا المسجدَ ، ثم أقبلَ أبو البَخْتَري إلى أبي جهلٍ فقالَ : يا أبا الحَكَم أنتَ الـذي أمرتَ بمحمـدٍ ﷺ فطُرِحَ عليـه الفرثُ ؟ قـال : نعم ، قـال : فَرفعَ السـوْطَ فَضَربَ بـه رأسـهُ ، قـال : فثـارَ الرجالُ بعضها إلى بعضٍ ، قال : وصاح أبو جهلٍ : ويحكم هي لـهُ ، إنّما أرادَ محمدٌ ﷺ أن يلقيَ بينَنَا العداوةَ وينجُوَ هو وأصحابهُ . وفي روايةٍ فلمّـا رَفَعَ رسولُ اللهِ ﷺ رأسـه حَمِـدَ الله وأثنَى عليهِ ، ثم قال : « أمّا بعدُ ، اللهمَّ عليكَ بالملأ من قريشٍ ».

١٣٦ ـ * روى أبو يعلى والطبراني عن عمرو بن العـاص قـال : مـا رأيتُ قريشـاً أرادوا قتلَ رسولِ اللهِ ﷺ إلا يوماً ائتمروا بهِ وهم جُلوسٌ في ظلِّ الكعبةِ ، ورسولُ اللهِ ﷺ يُصلّي عنـدَ المقَـامِ ، فقـامَ إليـهِ عُقبـةُ بن أبي مُعَيْـط فجعلَ رِداءهُ في عُنُقِـهِ ثم جَـذَبـهُ حتّى وجَبَ لِرُكبتيـهِ ، وتَصـايَحَ النَّاسُ وظنُّوا أنه مَقْتُولٌ ، قال : وأقبلَ أبو بكرٍ يشتدُّ حتى أخـذَ بضبعِ رسولِ اللهِ ﷺ من ورائهِ وهو يقول : أتقتلونَ رجُلاً أن يقول ربيَ اللهُ ؟ ثم انصرفُوا عن النَّبي ﷺ.

فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ فلما قضى صلاتهُ مرَّ بهم وهم جلوسٌ في ظلِّ الكَعبةِ فقـال : « يـا معْشَرَ قُريشٍ أنا والذي نفسي بيدهِ ما أُرْسِلْتُ إليكم إلا بالذَّبح » وأشارَ بيدهِ إلى الحَلْقِ ، فقال لـهُ أبو جهلٍ : يا محمدُ ما كنتَ جهُولاً . فقال رسول اللهِ ﷺ : « أنتَ مِنْهُمْ ».

١٣٧ ـ * روى أبو يعلى والبزار عن أنس بن مالك قال : لقَدْ ضربُوا رسولَ اللهِ ﷺ مرةً حتّى غُشِيَ عَليـهِ ، فَقـامَ أَبُو بَكرٍ فَجعلَ يُنَـادِي : وَيْلكمْ أتقتلُونَ رَجُلاً أن يقُـولَ ربي اللهُ ، فقالُوا : من هذَا ؟ فقالُوا : أَبُو بكرٍ المجنُونُ .

---

١٣٦ ـ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٦) : رواه أبو يعلى والطبراني وفيه محمد بن عمرو عن علقمة وحديثه حسن ، وبقية رجال الطبراني رجال الصحيح .

وجب : سقط . الضبع : وسط العضد . جهولاً : جهل فلان على غيره ، جهلاً ، وجهالة : جفا وتسافه .

١٣٧ ـ البـزار : كشف الأستار (٣ / ١٢٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٧) : رواه أبو يعلى والبزار . وزاد فتركوه وأقبلوا على أبي بكر ورجاله رجال الصحيح .

غشي عليه : أغمي عليه . ويلكم : من الويل وهو حلول الشر ، أو هي كلمة عذاب ، وقيل إنها واد في جهنم .

١٣٨ - * روى أحمد عن ابن عباس قال : إن الملأَ من قُريشٍ اجتمعُوا في الحِجْرِ فَتعاهـدُوا باللاّتِ والعُزّى وَمناةَ الثالثةِ الأخْرَى ، وقد رأيْنَا مُحمّداً ، قُمْنَـا إليـه قِيَـامَ رَجُلٍ وَاحِـدٍ فلم نُفارِقْهُ حتى نَقْتلهُ .

فأقبلت فَاطمـةُ رضي الله عنهـا تَبْكي حَتّى دَخلتْ على أبيهـا ، فقـالت : هؤُلاءِ الملأُ من قومِكَ في الحِجْرِ قـد تعـاهـدُوا أن لو قَـدْ رأوكَ قـامُوا إليـكَ فقتلُوكَ ، فليس منهم رجلٌ إلا وقد عرفَ نصيبهُ من دَمِكَ .

قال : « يا بنيَّةَ أدْني وَضُوءاً » فَتَوضّأ ثُمَّ دَخَلَ عليهم المسجِدَ فلما رأوْهُ قالوا : هو هنـا فَخَفضوا أبصارهُمْ ، وعُقِرُوا في مَجَالسهم فلمْ يرفعُوا إليه أبْصـارَهم ، ولمْ يقُمْ منهم رجلٌ فـأقبلَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى قَام على رؤُوسِهم فَأَخَذَ قبضةً من ترابٍ فحصبَهمْ بهَا وقـال : « شَـاهَتِ الوُجُوه » قال : فما أصابتْ رجُلاً منهم حَصَاةٌ ، إلا قُتِلَ يومَ بدرٍ كافِراً .

أقول : ليس كل ما ذكرناه في هذا الفصل من الإيذاء قد وقع بالضرورة في عام الحزن ، ولكن يحتمل إلى حد كبير أن يكون قد وقع في هذا العام ولذلك أثبتناه ههنا ، والظـاهر أن هذا العام وصلت الدعوة إلى حد معين وقفت عنده فقد استقر الوضع في مكـة بين مستجيب ومعـارض ، والقبـائل العربيـة وقفت تنتظر ، ولكن مـوقفهـا الرسمي هـو مـوقف قريش ، وقرر رسول الله ﷺ أن يحرّك هذا السكون فتحرك نحو الطائف فكانت محنة جديدة .

* * *

١٣٨ - أحمد في مسنده (١ / ٣٦٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٢٢٨): رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح .

فصل : في رحلة الطائف

١٣٩ - * روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت :قلتُ للنبي ﷺ : هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ ؟ فقال : « لقدْ لَقِيتُ من قَوْمِك ، وكانَ أشدَّ ما لقيتُ مِنْهُم يومَ العقبةِ ، إذْ عَرَضتُ نفسي على ابن عَبْدِ ياليْل بن عبدِ كُلال ، فلم يُجبْني إلى ما أردتُ ، فانطلقت وأنا مَهْمُومٌ على وَجْهي ، فلم أَسْتَفِق إلا بقَرْنِ الثَّعالب ، فرفعتُ رَأسي ، فَإذَا أَنَا بَسحَابَةٍ قد أظلَّتني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ ، فناداني ، فقال : إن الله عز وجل قد سَمِعَ قول قومكَ لكَ ، وما ردُّوا عليك ، وقَدْ بَعثَ إليْكَ مَلَكَ الجبَالِ لتَأْمُرَه بما شئْتَ فيهم . قال : فناداني مَلَكُ الجبَال ، وسلم عليَّ ، ثم قال : يا مُحمدُ ، إن اللهَ قد سَمِعَ قولَ قَوْمِكَ لَكَ ، وأنا مَلَكُ الجبَالِ ، وقد بَعَثَني رَبُّكَ إليْكَ لتَأْمُرَني بأمْركَ ، فَمَا شِئْتَ ، إن شِئْتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ ، فقال له رسُولُ الله ﷺ : بل أرْجُو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبدُ اللهَ وحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شَيْئاً » .

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث : وذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب أنه ﷺ لما مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤوه ، فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم وهم إخوة عبد ياليل وحبيب ومسعود بنو عمرو فعرض عليهم نفسه وشكى إليهم ما انتهك منه قومه فردوا عليه أقبح رد ، وكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد مطولاً ، وذكر ابن سعد أن ذلك كان في شوال سنة عشر من المبعث وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة .

وقد لخص الدكتور البوطي رحلة الطائف من سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد بقوله:

---

١٣٩ - مسلم (٣ / ١٤٢٠) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٣٩ - باب : ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين والبخاري (٦ / ٣١٢) . ٥٩ - كتاب بدء الخلق - باب : إذا قال أحدكم (آمين) والملائكة في السماء .

على وجهي : أي على الجهة المواجهة لي . بقرن الثعالب : هو ميقات أهل نجد ويقال له قرن المنازل أيضاً ، وهو على يوم وليلة من مكة . وقرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير ، وحكى عياض أن بعض الرواة ذكره بفتح الراء قال : هو غلط ، وحكى القابسي أن من سكن الراء أراد الجبل ومن حركها أراد الطريق التي يقرب منه ، وأفاد ابن سعد أن مدة إقامته ﷺ بالطائف كانت عشرة أيام . ملك الجبال : أي : الموكل بها . الأخشبان : جبلا مكة المحيطان بها ، وكل جبل عظيم فهو أخشب .

ولما نالت قريش من النبي ﷺ ما وصفناه من الأذى ، خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادته ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله فردوا عليه رداً منكراً ، وفاجأوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمج القول ، فقام رسول الله من عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش إذاً ، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً . ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلي رسول الله ﷺ لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه عدة شجاج ، حتى وصل رسول الله ﷺ إلى بستان لعتبة بن ربيعة ، فرجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . فعمد عليه الصلاة والسلام ، وقد أنهكه التعب والجراح إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، فلما اطمأن النبي ﷺ في ذلك الظل رفع رأسه يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تُنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ». ولا سند لهذا الدعاء ، فلم ندخله في المتن.

ثم إن ابني ربيعة ـ صاحبي البستان ـ تحركت الشفقة في قلبيهما ، فدعوا غلاماً نصرانياً لهما يقال له (عدّاس) فأرسلا إليه قطفاً من العنب في طبق . فلما وضع عداس العنب بين يدي رسول الله ﷺ وقال له : كل . مد الرسول يده قائلاً : « بسم الله » . ثم أكل . فقال عداس متعجباً : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له الرسول ﷺ : « ومن أي البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ » قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى (قرية بالموصل) . فقال الرسول ﷺ : « من قرية الرجل الصالح يونُس بن متّى ؟ » فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ذلك أخي ، كان نبياً وأنا نبي » فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه . وسند هذه القصة مرسل ، فلم ندخلها في المتن .

قـال ابن إسحـاق : ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطـائف راجعـاً إلى مكـة حتى إذا كان بنخلـة قـام من جـوف الليـل يصلي ، فمر بـه النفر (من الجن) من الـذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، فاستمعوا له . فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قـد آمنوا وأجـابوا إلى ما سمعوا .

وقد قص الله خبرهم عليه ﷺ في قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَـا إِلَيْـكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [١] إلى قـولـه : ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِن عَـذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٢] وقـولـه : ﴿ قُـلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّـهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ الايات .

ثم عاد رسول الله ﷺ ـ ومعه زيد بن حارثـة ـ يريـد دخول مكـة ، فقـال لـه زيـد : كيف تدخل عليهم يارسول الله وهم أخرجوك ؟ فقال : « يـازيـد إن الله جـاعل لمـا ترى فرجًا ومخرجًا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيـه » ثم أرسل رجلاً من خزاعـة إلى مطعم بن عدي يخبره أنه داخل مكة في جواره . فاستجاب مطعم لذلك ، وعاد رسول الله ﷺ إلى مكـة.

أقول : دخول رسول الله ﷺ مكة بجوار المطعم بن عدي ثابت ومما يدل على ثبوت هـذا:

١٤٠ ـ * روى البخـاري عن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ أن النبي ﷺ قـال في أُسَـارَى بـدرٍ : « لو كانَ المطْعِمُ بن عدي حَيًا ، ثم كَلَّمني في هَؤُلاءِ النَّتْنَى لتركتُهم له » .

قال سفيان : وكَانَتْ له عِنْدَ النبي ﷺ يَدٌ ، وكَانَ أجزى النَّاسِ باليَدِ .

وقال ابن حجر :

وبيَّن ابن شاهين من وجه آخر السبب في ذلك ، وأن المراد باليد المذكورة مـا وقع منـه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عـدي ، وقـد ذكر ابن إسحـاق القصة في ذلك مبسوطة ، وكذلك أوردها الفاكهي بـإسنـاد حسن مرسل . فـإذا ثبت ذلـك فيكون هذا أصلاً كبيراً من أصول الحركة للدعوة الإسلامية ، فللإسلاميين الحق أن يستفيدوا

---

(١) الأحقاف : ٢٩ .

(٢) الأحقاف : ٣٠ .

(٣) الجن : ١ .

١٤٠ ـ البخاري (٦ / ٢٤٣) ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ـ ١٦ ـ باب ما منّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمّس .

من الأعراف والقوانين التي تعطيهم أمناً وحماية لأشخاصهم ولحرياتهم ، كما أن هذا التصرف أصل يستند إليه في فعل كل ما هو من مصلحة الدعوة الإسلامية وحَمَلتها ومن ذلك التحالفات والتعاقدات المرحلية .

وبمناسبة ما ذكره كتّاب السير أن الجنّ استمعوا قراءته مَقْفِلَه من الطائف فسيكون الفصل اللاحق في بعض الروايات التي تذكر سماع الجن منه عليه الصلاة والسلام .

* * *

فصل : في تبليغ الجن

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [1] ، فرسالته عليه الصلاة والسلام رحمة للخلق جميعهم ، وهذه الرحمة مظهرها الأول أن المستجيبين لها مرحومون في الدنيا والآخرة ، وبرحمتهم وبتطبيقهم لشريعة الله يرحم الخلق وترحم أنفسهم فتعطى طمأنينة قلب واستقامة سلوك ، والمكلّفون من الخلق هم من يملكون إدراكاً يستطيعون به فهم الخطاب ، وهم مبتلون بالشر والخير ولهم إرادة يختارون بها طريق الخير من الشر وهذا ينطبق على الإنسان والجن .

ولقد حدث في سيرة رسول الله ﷺ الأولى أن تسمّع الجنّ لقراءته عليه الصلاة والسلام ، وقد قصّ القرآن علينا ذلك في سورتي الأحقاف والجن فكان ذلك نوع بلاغ ، ولكن البلاغ المباشر المقصود تمّ كذلك ، وإن كنّا لا نستطيع تعيين الزمن الذي تم فيه هذا النوع من البلاغ بدقة ، لكن الشيء الثابت أن سماع الجنّ من رسول الله ﷺ وتبليغهم المباشر قد حدث ، وقد مرّ معنا فصل من قبل في حفظ أمر السماء ، وههنا نذكر بعض الروايات بمناسبة أن كتّاب السير ذكروا أنه قد حدث سماع للجن من رسول الله ﷺ بعد رحلة الطائف .

قال الحافظ في الفتح :

تقدم في أوائل المبعث في (باب ذكر الجن) أن ابن إسحاق وابن سعد ذكرا أن ذلك كان في ذي القعدة سنة عشر من المبعث لما خرج النبي ﷺ إلى الطائف ثم رجع منها ، ويؤيده قوله في هذا الحديث : (إن الجن رأوه يصلي بأصحابه صلاة الفجر) والصلاة المفروضة إنما شرعت ليلة الإسراء ، والإسراء كان على الراجح قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث فتكون القصة بعد الإسراء ، لكنه مشكل من جهة أخرى ، لأن محصل ما في الصحيح كما تقدم في بدء الخلق وما ذكره ابن إسحاق أنه ﷺ لما خرج إلى الطائف لم يكن معه من أصحابه إلا زيد بن حارثة ، وهنا قال إنه انطلق في طائفة من أصحابه ، فلعلها كانت

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

وجهة أخرى . ويمكن الجمع بأنه لما رجع لاقاه بعض أصحابه في أثناء الطريق فرافقوه .

١٤١ ـ * روى مسلم عن عَلْقَمَةَ رحمهُ اللهُ قال : أنا سألت ابن مَسْعُودٍ فقلت : هل شَهِدَ أحدٌ منكم مع رسولِ اللهِ ﷺ ليلة الجنّ ؟ قال : لا ، ولكنّا كُنّا مع رسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ ففقدناهُ ، فالتمسناهُ في الأوْدِيَةِ والشِّعابِ ، فقلنا ، استُطِيرَ ، أو اغْتِيل ، قال : فبِتْنا بِشرِّ ليلةٍ باتَ بِهَا قَوْمٌ ، فلما أصْبَحْنَا إذا هوَ جاءٍ من قِبَلِ حِرَاءٍ ، قالَ : فقُلنا : يا رسُولَ اللهِ ، فقدناكَ ، فطلبناكَ ، فلم نجدك ،فبِتْنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قَوْمٌ ، فقال : « أتاني داعِي الجنِّ ، فذهبتُ معهُ ، فقرأتُ عليهمُ القُرآنَ » قال : فانطَلَقَ بِنَا ، فأرَانا آثارَهُمْ ، وَآثارَ نيرانِهم ، وَسألُوهُ الزَّاد ، فَقالَ : « لَكُم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عَليهِ ، يَقعُ في أيْدِيكُم أوْفَر ما يكُونُ لَحْماً ، وكُلُّ بعْرَةٍ عَلفٌ لِـدَوابِّكُمْ » فقال رسُولُ اللهِ ﷺ : « فَلا تسْتَنجُوا بِهِما ، فإنَّهما طَعَامُ إخْوانِكُم » .

وفي رواية بعد قوله : (وَآثَار نيرَانِهم) قال الشعبي : وسَألُوهُ الزَّاد ؟ وَكانُوا من جِنّ الجَزِيرَةِ إلى آخر الحديث ، من قول الشعبي مفصلاً من حديث عبد الله .

وفي رواية أن ابن مسعود قال : لَمْ أكنْ لَيْلَةَ الجِنّ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ووددْتُ أنّي كُنْتُ معهُ .

وأخرجه الترمذي [1] ، وذكر فيه قول الشعبي ، كما سبق في هذه الرواية الآخرة ، وزاد فيه : أو رَوْثَةٍ .

وأخرج أبو داود منه طرفاً [2] ، قال : قلت لعبد الله بن مسعود : مَنْ كَانَ مِنْكُم ليلَةَ الجنّ مع النَّبِي ﷺ ؟ فَقَالَ : ما كَانَ معهُ منَّا أحَدٌ .

---

١٤١ ـ مسلم (١ / ٣٣٢) ٤ ـ كتاب الصلاة ـ ٣٣ ـ باب : الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن .

اسْتُطِيرَ : استُفعل من الطيران ، كأنه أخذ شيء وطار به . اغْتِيلَ : أخِذَ غيلة والاغتيال : الاحتيال .

(١) الترمذي (٥ / ٣٨٢) ٤٨ ـ كتاب التفسير ـ ٤٧ ـ باب : ومن سورة الأحقاف . قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح.

(٢) أبو داود (١ / ٢٢) كتاب الصلاة ـ باب ـ الوضوء بالنبيذ .

قال الحافظ في الفتح :

وقد روى ابن مردويه أيضاً من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس : كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل ، فقال النبي ﷺ لابن مسعود : « انظرني حتى آتيك » وخط عليه خطاً . الحديث . والجمع بين الروايتين تعدد القصة ، فإن الذين جاءوا أولاً كان سبب مجيئهم ما ذكر في الحديث من إرسال الشهب ، وسبب مجيء الذين في قصة ابن مسعود أنهم جاءوا لقصد الإسلام وسماع القرآن والسؤال عن أحكام الدين وقد بيّنت ذلك في أوائل المبعث في الكلام على حديث أبي هريرة ، وهو من أقوى الأدلة على تعدد القصة . فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد الهجرة ، والقصة الأولى كانت عقب المبعث ، ولعل من ذكر في القصص المفرقة كانوا ممن وفد بعد ، لأنه ليس في كل قصة منها إلا أنه كان ممن وفد ، وقد ثبت تعدد وفودهم . وتقدم في بدء الخلق كثير مما يتعلق بأحكام الجن والله المستعان .

١٤٢ ـ * روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ العِشاءَ ، ثُمَّ انصرفَ فأخذَ بيَدِ عبد اللهِ بن مسْعُودٍ ، حتى خَرَجَ بِهِ إلى بَطْحَاءِ مكَّةَ ، فَأجْلَسَه ، ثُمَّ خطَّ عَلَيْهِ خَطاً ، ثُمَّ قَالَ : « لا تَبْرحَنَّ خَطَّكَ ، فَإنَّهُ سينتهي إليْكَ رِجَالٌ فلا تُكلمهُمْ ، فإنَّهُمْ لا يُكلِّمونك » ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيْثُ أرادَ ، فبيْنَا أنَا جَالِسٌ في خَطِّي ، إذ أتَانِي رِجَالٌ كَأنَّهم الزُّطُّ أشْعَارُهُمْ وأجْسَامُهُمْ ، لا أرى عَوْرةً ، ولا أرَى قِشْراً ، وينتهونَ إليَّ ، لا يُجاوِزُونَ الخطَّ ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ ، حتى إذا كانَ من آخرِ اللّيلِ ، لكِنْ رسولُ اللهِ ﷺ قد جاءَني وأنا جَالِسٌ ، فقال : لَقدْ أراني مُنذُ الليلةَ، ثم دخَلَ عَلَيَّ في خَطي ، فَتوسَّدَ فَخِذِي فَرَقَدَ ، وكَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ إذا رقَدَ نَفَخَ ، فَبيْنَا أنا قَاعِدٌ ورسولُ اللهِ ﷺ مُتوسدٌ فَخِذِي ، إذا أنا برِجَال عليهم ثيابٌ بيضٌ ، اللهُ أعلمُ ما بِهِم من الجمالِ ، فانتهوا إليَّ ، فَجلَسَ طائفةٌ منهم عند رأسِ رَسُول اللهِ ﷺ ، وطائفةٌ منهم عندَ رجليهِ ، ثم قالوا بينهم : مارأيْنا عبداً قطُّ أُوتِيَ مثلَ ما أُوتِيَ هذا النبيُّ ، إنَّ عينيهِ

---

١٤٢ ـ الترمذي (٥ / ١٤٥) ٤٥ ـ كتاب الأمثال ـ ١ ـ باب ما جاء في مَثَلِ الله لعباده . وقال هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وهو كما قال .

الدارمي (١ / ٧) المقدمة باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه .

قِشراً : أراد بالقشر : الثوب ، وذلك أنه قال : لا أرى عورة منكشفة منهم ، ولا أرى عليهم ثياباً تغطي عوراتهم .

الزُّطُّ : جيل من الناس .

تَنَامَانِ ، وقلبهُ يقْظانُ ، اضربُوا لهُ مثلاً : مثلَ سيِّدٍ بنَى قَصْراً ثم جعلَ مأدبة فدعَا النَّاسَ إلى طعامه وشرابه ، فمنْ أجابهُ أكلَ من طعامهِ وشربَ من شَرابـهِ ، ومن لم يُجبْهُ عاقبهُ - أو قال : عذَّبهُ - ثمّ ارتفعُوا ، واستيقظَ رسولُ الله ﷺ عند ذلكَ ، فقال : « سمعتَ ما قالَ هؤلاءِ ؟ وهلْ تدري مَنْ هؤلاء ؟ » قلتُ : اللهُ ورسولهُ أعلمُ ، قال : « همُ الملائكةُ ، فتدري ما المثلُ الذي ضَربوا ؟ » قلتُ : اللهُ ورسولهُ أعلمُ . قال : « المثلُ الذي ضربُوا : الرحمنُ تبارك وتعالى بنَى الجنّةَ ، ودعا إليها عبادَهُ ، فمن أجابه دخلَ الجنَّةَ ، ومن لم يجبْهُ عاقبهُ وعذَّبهُ » .

١٤٣ - * روى البخاري عن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، قال : سمعتُ أبي ، قالَ : سألتُ مسْروقاً : من آذنَ النّبي ﷺ بالجن ليلةَ استمعوا القرآن ؟ فقال :حدَّثني أبوك - يعني : عبد الله - أنه آذَنَتْ بهم شجرة .

١٤٤ - * روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَة ﴾ . قال : كانَ نفرٌ من الإنسِ يعبدونَ نَفَراً من الجنّ ، فأسلمَ النفرُ من الجنّ واستمسك الإنس بعبادتهِمْ ، فنزلت : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَة ﴾ [1] .

قال الحافظ : أي : استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن ، والجن لا يرضون بذلك ، لكونهم أسلموا ، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، وروى الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود فزاد فيه : والإنس كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم وهذا هو المعتمد في تفسير الآية .

---

١٤٣ - البخاري (٧ / ١٧١) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٣٢ - باب : ذكر الجن وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ ﴾ .

ومسلم (١ / ٣٣٣) ٤ - كتاب الصلاة - ٣٣ - باب : الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن .

آذن : بالمد أي أعلم .

١٤٤ - مسلم (٤ / ٢٣٢١) ٥٤ - كتاب التفسير - ٤ - باب : قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ... الوَسِيلَة ﴾ .

﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَة ﴾ : الوسيلةُ : ما يتوسلُ به إلى الشيء ، أي : يطلبون القُرْبة إلى الله تعالى بطاعته .

النفر : دون العشرة من الرجال وتجمع على أنفار .

(١) الإسراء : ٥٧ .

وقد علق الدكتور البوطي على سماع الجنّ من رسول الله ﷺ في عودته من الطائف فقال :

والذي يهمنا أن نعلمه بعد هذا كله هو أن على المسلم أن يؤمن بوجود الجن وبأنهم كائنات حية كلفها الله عز وجل بعبادته كما كلفنا بذلك ، ولئن كانت حواسنا ومداركنا لا تشعر بهم فذلك لأن الله عز وجل جعل وجودهم غير خاضع للطاقة البصرية التي بثها في أعيننا ، ومعلوم أن أعيننا إنما تبصر أنواعاً معينة من الموجودات بقدر معين وبشروط معينة .

ولما كان وجود هذه الخليقة مسنداً إلى أخبار يقينية متواترة وردت إلينا من الكتاب والسنّة ، وكان أمرها معلوماً من الدين بالضرورة ، أجمع المسلمون على أن إنكار الجن أو الشك في وجودهم يستلزم الردة والخروج عن الإسلام . إذ إن إنكارهم إنكار لشيء عُلم أنه من الدين بالضرورة ، عدا أنه يتضمن تكذيب الخبر الصادق المتواتر إلينا عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ .

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشد مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم أنه لا يؤمن إلا بما يتفق مع العلم ، فيمضي يتبجح بأنه لا يعتقد بوجود الجان ، من أجل أنه لم ير الجان ولم يحس بهم .

إن من البداهة بمكان أن مثل هذا الجهل المتعالم ، يستدعي إنكار كثير من الموجودات اليقينية لسبب واحد هو عدم إمكان رؤيتها . والقاعدة العلمية المشهورة تقول : عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود . أي عدم رؤيتك لشيء تفتش عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقوداً أو غير موجود . أهـ .

أقول : لم يزل بين المسلمين الثقات العدول من يحدثنا عن صلة له بالجن ، وتاريخنا طافح بأخبار علماء كانت للجن بهم صلة تلمذة ، وقد كتب الشيخ ابن عابدين الفقيه الحنفي المشهور رسالة عن صلات أحد شيوخه بالجن وتلمذتهم عليه ، ولا أذكر هذا كتدليل على وجود الجنّ فكفى بشهادة القرآن والسنّة الثابتة ، ولكن أقول هذا بين يدي الدعوة إلى

تتبع هذه الروايات وجمعها في كتاب مع التحليل والتعليل .

الفرج بعد الشدّة :

وَالَى رسول الله ﷺ دعوته في مكة بعد رحلة الطائف ، وفي أوائل السنة الحادية عشر للبعثة اجتمع مع وفد من الأوس ، جاءوا يطلبون النصرة والحلف من قريش بعد وقعة بعاث التي كانت بينهم وبين أقاربهم من الخزرج ، فتجاوب أحد أعضاء الوفد مع رسول الله ﷺ ، وفي موسم الحج من السنة الحادية عشرة للبعثة استجاب ستّة من الخزرج لرسول الله ﷺ ، ولما رجع هؤلاء إلى المدينة المنورة حملوا إليها رسالة الإسلام حتّى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ، وفي السنة الثانية عشرة من النبوّة وفي موسم الحج وفد اثنا عشر رجلاً من المدينة المنوّرة فيهم خمسة من الستّة الذين استجابوا في عام سابق وكان منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وكانت بيعة العقبة الأولى ، وأرسل الرسول مع هؤلاء مصعب بن عمير ليعلّمهم ويقوم بالدعوة إلى الله ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وخاصّة بعد أن أسلم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وقبل حلول موسم الحج التالي عاد مصعب بن عمير إلى مكّة ليبلّغ رسول الله ﷺ ما حدث وليهيّئ لبيعة العقبة الثانية ، وفي موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة تمّت بيعة العقبة الثانية وكانت بعدها الهجرة .

وخلال هذه السنوات الثلاث بقي البلاغ مستمراً ، وحدثت أثناءها حادثة الإسراء .

وهناك حادثة نرجّح أنها حدثت في هذه المرحلة وهي حادثة تكسيره عليه الصلاة والسلام لبعض الأصنام ، ومن ثم سنعرض لكل هذا بالتفصيل .

* * *

فصل : في تكسير بعض الأصنام

١٤٥ - * روى أحمد عن علي بن أبي طالب قال : انطلقتُ أنا والنّبي ﷺ حتّى أتينَا الكعبةَ فقالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ : « اجْلسْ » وصعدَ على مَنْكِبي ، فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفاً فنزل ، وجلس لي نبي الله ﷺ وقال : « اصْعدْ على مَنْكِبي » قال : فصعدتُ على منكبيه ، قال : فنهضَ بي ، فإنهُ يُخيَّلُ إليَّ أنّي لو شِئْتُ لنلْتُ أُفقَ السَّماءِ ، حتّى صعدتُ على البيتِ وعليهِ تمثالٌ أصفر أو نحاس ، فَجعلتُ أزاولهُ عن يمينهِ وعن شمالهِ وبين يديهِ ومن خلفهِ ، حتى إذا استمكنتُ منهُ قال لي رسول الله ﷺ : « اقْذِف بِهِ » فقذفتُ بهِ فتكسَّر كما تتكسرُ القواريرُ ، ثم نزلتُ . فانطلقت أنا ورسولُ اللهِ ﷺ نستبقُ ، حتى توارينا بالبيوتِ خشيةَ أن يلقانَا أحدٌ من النَّاسِ . وفي روايةٍ : كان على الكعبةِ أصنامٌ ، فذهبتُ أحملُ النبي ﷺ فلم أستطعْ ، فحملني فجعلتُ أقطعُهَا ، ولو شئتُ لنلتُ السَّماءَ .

هذه الحادثة الثابتة الوقوع يرويها الحاكم على أنها حدثت ليلة الهجرة ، وقد وصف الذهبي رواية الحاكم بأن إسنادها نظيف ومتنها منكر ، والظاهر أن نكارة متنها سببه أن هذه الرواية ذكرت أن الحادثة تمت ليلة الهجرة ، وإلا فالرواية صحيحة كما رأينا ، ولذلك اعتمدنا الرواية التي لم تذكر الهجرة ، ورجحنا أن الحادثة تمت خلال السنوات الثلاث الأخيرة دون تحديد زمن فعقدنا لها هذا الفصل .

وبعد أن ذكر اللهُ عز وجل عدداً من رسله في سورة الأنعام قال : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ** ﴾ ومن ذكر هناك ومن أمر عليه الصلاة والسلام بالاقتداء به إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولقد كسّر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام ، وهذا رسول الله ﷺ يفعل ذلك اقتداء به ، وهذا يفتح أمامنا آفاقاً في التطبيق ، ومن ثم فإننا نلفت النظر إلى ضرورة التأمل في قصص الأنبياء في القرآن ، وأن يحاول المسلم الاقتداء فيما

---

١٤٥ - أحمد في مسنده (١ / ٨٤) ، والبزار : كشف الأستار ، (٣ / ١٢٨) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٣) وقال : رواه أحمد وابنه وأبو يعلى والبزار ورجال الجميع ثقات .

لنِلت : (نلته) والنيل والنائل ما نلته وما أصاب منه نيلاً ولا نيلة ولا نولة . الصفر : النحاس مخلوط بغيره .

أزاوله : (زاوله) مزاولة وزوالاً : عالجه وحوله وطلبه القوارير : الزجاج . نستبق : (استبقا) : تسابقا .

يستطيعه من أخلاقهم . وغلب على بعض المسلمين تصوّر أن المرحلة المكية لم يحدث فيها تغيير للمنكر باليد ، وهذه الحادثة تدل على عكس ذلك ، ولكنا ننبه دائماً على أن تغيير المنكر يحتاج إلى موازنات كثيرة ، حتى لا يؤدي تغيير منكر إلى منكر أكبر .

* * *

فصل : في الإسراء والمعراج

١ ـ تحدّث القرآن عن الإسراء في سورة الإسراء وعن المعراج في سورة النجم ، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا ﴾ [1] وقال في سورة النجم بعد ذكر ما حدث : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [2] . لقد كانت حكمة الإسراء والمعراج أن يُريَ اللهُ رسولَه من آياته الكبرى توطئة لمرحلة المجابهة المسلحة ، فمن حكمة الله أنه عندما كلّف موسى بمواجهة فرعون أراه آياته الكبرى لأنها مواجهة تحتاج إلى مزيد من اليقين : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَكَ مِن آيَاتِنَا الكُبْرَى * اذْهَب إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ [3] .

لقد كانت رؤية الآيات الكبرى توطئة للأمر بمواجهة فرعون ، وكان الإسراء والمعراج توطئة للهجرة ولأعظم مواجهة على مدى التاريخ للكفر والضلال والفسوق ، والآيات التي رآها رسول الله ﷺ كثيرة :

الذهاب إلى بيت المقدس ، العروج إلى السماء ، رؤية الغيب الذي دعا إليه : الأنبياء والمرسلين ، الملائكة ، السماوات ، الجنة والنار ، نماذج من النعيم والعذاب ، ولقد رأى الله عز وجل ذاته بقلبه أو بعينيّ بصره على قول .

وبذلك يكون قد شاهد عياناً ما دعا إليه الناس من الإيمان بالغيوب ، وكان بذلك الشاهد المبصر على أمر الغيوب :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ [4] .

٢ ـ هذا والإسراء والمعراج من معجزاته عليه الصلاة والسلام التي تقوم بها الحجّة على

---

(١) الإسراء : ١ .

(٢) النجم : ١٨ .

(٣) طه : ١٧ ـ ٢٤ .

(٤) الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦ .

الخلق ، لا من حيث أنها خارقتان حدثتا له وأخبر الناس عنهما ـ وهو الصادق المصدوق ـ ثم أكد وقوعهما القرآن ، فذلك حجّة بالنسبة للمؤمن ، ولكن بما رافق ذلك من مشاهد أخبر بها الناس ما كان ليستطيع الإخبار بها لولا أنه قد أسري به عليه الصلاة والسلام .

٣ ـ ولقد حدث نوع آخر من المعراج لرسول الله ﷺ بالروح أو بالرؤيا ، ممّا جعل الأمر يختلط على بعضهم ، والأمر من النصوص واضح فالإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح ، وهذا لا ينفي أن يكون له عليه الصلاة والسلام معراج آخر كان توطئة أو تأكيداً ، سابقاً أو لاحقاً على المعراج الذي تحدّث عنه القرآن .

٤ ـ وفي الإسراء والمعراج علوم وأسرار ودقائق ودروس وعبر ، فهو يؤكد وجود السماوات السبع ـ وهي من أمر الغيب عندي بما فيها ـ وفي المعراج ، فرضت الصلوات الخمس ، وأوتي رسول الله ﷺ خواتيم سورة البقرة ، فذلك إيمان وعمل ورمز على معان كثيرة ، منها أنّ الصلاة معراج القلب .

قال الأستاذ أبو الحسن الندوي :

ولم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى ، وتجلى له ملكوت السماوات والأرض مشاهدة وعياناً ـ بل زيادة إلى ذلك ـ اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معان عميقة دقيقة كثيرة ، وشارات حكيمة بعيدة المدى : فقد ضمت قصة الإسراء ، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه وتسميان سورة (الإسراء) وسورة (النجم) أن محمداً ﷺ هو نبي القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده ، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس ، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلى الأنبياء خلفه ، فكان هذا إيذانا بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه ، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان ، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصية النبي ﷺ ووصف إمامته وقيادته وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به ، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم ، ومن بين الشعوب والأمم .

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلّم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها ، وكان عليه الصلاة والسلام وأصحابه يصلّون ركعتين صباحاً ومثلها مساء .

زمن الإسراء والمعراج :

قال المباركفوري في الرحيق المختوم :

واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى :

(١) فقيل : كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة ، اختاره الطبري .

(٢) وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين ، رجح ذلك النووي والقرطبي .

(٣) وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة ، واختاره العلامة المنصورفوري .

(٤) وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهراً ، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة .

(٥) وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة .

(٦) وقيل : قبل الهجرة بسنة ، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .

ورُدَّتْ الأقوال الثلاثة الأُولى ؛ بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة ، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس . ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحداً منها ، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً .

قال البوطي : والذي رواه ابن سعد في طبقاته أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً .

الإيمان بالإسراء والمعراج :

قال الشيخ أديب الكيلاني رحمه الله في شرحه على جوهرة التوحيد :

وأجزم بمعراج النبي ﷺ كما رووا : أي أعتقد جازماً بعروج النبي ﷺ وصعوده إلى

السماوات السبع إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء الله بعد الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حال كون العروج الذي جزمت به مثل الذي رواه أهل الحديث والتفسير والسير . وقد استغنى الناظم بذكر المعراج عن الإسراء لشهرة إطلاق أحد الاسمين على ما يعم مدلوليهما ، وهو سيره ﷺ ليلاً إلى أمكنة مخصوصة على وجه خارق للعادة . والحق أنه كان يقظة روحاً وجسدًا خلافاً لمن قصره على المنام ، والإسراء ثابت بالكتاب والسنّة وإجماع المسلمين ، فمن أنكره كفر ، وأما المعراج فثابت بالأحاديث المشهورة من المسجد الأقصى إلى السماوات السبع ، ومنها إلى الجنة ، ثم إلى المستوى أو العرش وبخبر الواحد ، لذا لا يكفر منكره بل يفسق . والتحقيق أنه لم يصل إلى العرش .

الإسراء بالروح وبالجسد :

وقال الدكتور البوطي :

كان الإسراء والمعراج بكل من الروح والجسد معاً . على ذلك اتفق جمهور المسلمين من المتقدمين والمتأخرين . قال النووي في شرح مسلم ما نصه :

والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أُسري بجسده ﷺ ، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها ، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل .

ويقول ابن حجر في شرحه على البخاري : إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه ، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ، ولا ينبغي العدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل .

ومن الأدلة التي لا تقبل الاحتمال على أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح ، ما ذكرنا من استعظام مشركي قريش لذلك ، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له . إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياها لذلك على هذا الوجه ، لما استدعى الأمر منهم أي

تعجيب أو استعظام أو استنكار ، لأن المرئيات في النوم لا حدود لها » بل ويجوز مثل هذه الرؤيا حينئذ على المسلم والكافر ، ولو كان الأمر كذلك لما سألوه أيضاً عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتحدي .

أما كيف تمت هذه المعجزة وكيف يتصورها العقل فكما تتم كل معجزة غيرها من معجزات الكون والحياة !.. لقد قلنا آنفاً أن كل مظاهر هذا الكون ليست في حقيقتها إلا معجزات ، فكما تتصورها العقول في سهولة ويسر يمكن لها أن تتصور هذه أيضاً في سهولة ويسر . وقال الدكتور البوطي :

احذر وأنت تبحث عن قصة الإسراء والمعراج أن تركن إلى ما يسمى بـ (معراج ابن عباس) فهو كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند . اهـ .

قلت : وبعضها صحيح ، إلا أن التمييز عسير على غير أهل العلم .

وسنسرد هنا الروايات دون توقف ؛ لأن الحادثة وما جرى فيها من أمر الغيب الذي يجب الإيمان به والتسليم . ومما يضيء لنا فهم بعض النصوص أن نعرف أن هناك اتجاهاً يقول : إن حادثة الإسراء قد تكررت وأن حادثة المعراج قد تكررت ، وهناك اتجاه يقول : إنه قد كان بين يدي المعراج رؤيا مهّدت له ووطأت ، وبذلك يجمع بين النصوص .

ولقد كان الإسراء على البراق ، أما المعراج فهناك قولان فيه فبعضهم ذهب أنه كان على البراق ، وبعضهم ذهب إلى أنه نصب شيء فكان العروج عليه .

١٤٦ - روى ابن حبان عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ ليْلَةَ أُسريَ بي رِجَالاً تُقرضُ شِفاهُهمْ بمقاريضَ من النّار ، فقلتُ : من هَؤلاءِ يا جبريل ؟ فقال : الخطباءُ من أمّتكَ الذين يأمرون النّاس بالبرِ وينسَوْنَ أنفسهم وهم يتلُونَ الكتاب أفلا يعقلون » .

---

١٤٦ - ابن حبان : موارد الظمآن (٣٩) رقم ٣٥ . وأخرجه البيهقي وهو صحيح .

١٤٧ ـ * روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كانَ ليلةَ أُسْرِيَ بي وأصْبحتُ بمكّةَ فَظِعْتُ بأمْري ، وعرفتُ أن الناسَ مُكَذِّبيَّ ، فقعدتُ مُعتزلاً حَزيناً » ، فمرَّ به عدوُّ اللهِ أبو جهلٍ ، فجاء حتّى جلسَ إليهِ فقال له كالمستهزئ : هل كان من شيءٍ ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « نعم » قال : وما هُوَ ؟ قال : « إنه أُسريَ بيَ الليلة » قال : إلى أين ؟ قال : « إلي بيت المقدِس » قال : ثمَّ أصبحتَ بين ظهْرانيْنا ؟ قال : « نعم » فلم ير أنه يُكذّبه ، مخافةَ أن يجحدهُ الحديثَ إذا دعا قومَهُ إليهِ ، قال : أرأيتَ إن دعوتُ قومكَ أتُحدثْهم ما حدثْتني ؟ قال : « نعم » قال : هيا مَعْشَرَ بني كعبِ بن لُؤيٍّ حتّى قال : فانتقضتْ إليهِ المجالسُ وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال : حَدِّثْ قومكَ بما حدثتني ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « إني أُسري بي الليلةَ » قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى بيتِ المقدس » قالوا : ثم أصبحتَ بين ظهرانَيْنا ؟ قال : « نعم » قال : فمن بين مصفّقٍ ومن بين واضعٍ يدهُ على رأسهِ مُتعجّباً للكذبِ ـ زعم ـ قالوا : وهل تستطيعُ أن تنعتَ لنا المسجدَ ؟ وفي القومِ من قد سافرَ إلى ذلك البلدِ ورأى المسجدَ ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « فذهبتُ أنعت فما زلت انعتُ حتى التبسَ عليَّ بعضُ النعتِ قال : فجيء بالمسجدِ وأنا أنظرُ حتّى وُضِعَ دون دار عقاب أو عَقيل فنعتُّهُ ، وأنا أنظرُ إليهِ قال : وكانَ مع هذا نعتٌ لم أحفظْهُ » قال : فقال القومُ : أمّا النعتُ فواللهِ لقد أصابَ .

١٤٨ ـ * روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ليلةَ

---

١٤٧ ـ أحمد في مسنده (١ / ٣٠٩) والبزار : كشف الأستار (١ / ٤٦) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ٦٥) وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح .
فظعت بأمري : أي : اشتد علي رهبته .

١٤٨ ـ البخاري (٦ / ٤٧٦) ٦٠ ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ ٤٨ ـ باب : قول الله تعالى : ﴿ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .
ومسلم (١ / ١٥٤) ، ١ ـ كتاب الإيمان ـ ٧٤ ـ باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلاة .
والترمذي (٥ / ٣٠٠) ٤٠ ـ كتاب التفسير ـ ١٨ ـ باب : ومن سورة بني إسرائيل .
مُضطربٌ : رجلٌ مضطرب الخلقة ، يجوز أن يُريد به : أنه غير متناسب الخلقة ، وأن أعضاءه متباينة ، لكنه قال في حديث آخر في صفة موسى عليه السلام : « إنه ضربٌ من الرجال » والضرب : الرقيق ، فيجوز على هذا أن =

أُسريَ به لَقيتُ مُوسَى ، قال : فَنَعتهُ فإذا رجُلٌ - حَسِبتهُ قـال : مُضطربٌ - رَجِلُ الرأس ، كأنّهُ من رِجَالِ شَنُوءةَ ، قال : وَلقِيتُ عِيسى ، فنعتَـهُ النبيُّ ﷺ ، ربعـةٌ أحمرُ كأنّما خرجَ من ديماسٍ - يعني : الحمّامَ - ورأيتُ إبراهيم ، وأنا أشبهُ ولـدهِ بـه ، قَـال : وأُتِيتُ بـإنـاءينِ أحـدُهُما لبنٌ ، والآخرُ فيـه خَمرٌ ، فقيـل لي : خُـذ أيَّهُما شئتَ ، فأخذتُ اللبنَ فشربتُـهُ ، فقيل لي : هُـديتَ الفطرَةَ - أو أصبتَ الفِطرةَ - أما إنَّكَ لو أخذتَ الخمرَ غوتْ أمَّتُكَ » .

وفي رواية نحوه ، وفيه : « فإذا موسى ، ضَرْبٌ من الرجال ، كأنه من رِجَالِ شَنُوءَةَ ».

في روايــة لمسلم [1] قــال رســول الله ﷺ : « لقــد رَأيْتُنِي في الحِجْرِ ، وقُريشٌ تَسـألُنِي عن مَسْرايَ ؟ فَسـألتني عن أشيـاء من بَيْتِ المقـدس لم أثبتْهَـا ، فكَرِبْتُ كُربةً ما كُربتُ مِثلَها قطُّ ، قال : فرفعهُ الله لي ، أنظرُ إليه ، مـا يَسـألُونِي عن شَيءٍ إلا أنبأتُهم بهِ ، وقد رأيتُني في جماعةٍ من الأنبياءِ ، فـإذا مُوسى قَـائِمٌ يُصَلِّي ، فَإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كأنَّه مِنْ رِجالِ شَنُوءةَ ، وإذا عيسى بنُ مريمَ قَـائمٌ يُصلِّي ، أقربُ النـاسِ بـهِ شَبهـاً عُروةُ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ ، وإذا إبراهيمُ عليْـهِ السلامُ قَـائِمٌ يُصَلِّي ، أشْبهُ النَّاسِ بهِ : صَـاحِبُكم - يَعْنِي نَفْسَـهُ فَحَـانَتِ الصلاةُ فَأَمَمْتُهُم ، فَلمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاةِ قَالَ قائلٌ : يا مُحمَّدُ هَذَا مالك صـاحب النَّـار ، فَسلِّمْ عَلَيْـهِ ، فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ ، فَبَدَأَنِي بالسَّلامِ » .

= يكون قوله : « مصطرب » أنه مُفْتَعِلٌ من الضرب ، أي : أنـه مستـدقٌ ، والله أعلم . ديماس : الـديمـاسُ في اللغـة · الظلمة ، ويسمى الكنُّ ديماسا ، والسَرب ديماساً ، وقد جاء في بعض طرق الحديث مفسراً بالحمّام ، ولم أره في اللغة ، وقال الجوهري في كتاب (الصحاح) في تفسير الحديث : إنه أراد به : الكن ، وكذلك قـال الهروي : أراد بـه الكِن أو الشَّرب . الفِطْرةُ : الخِلْقةُ ، والفطرة . الإسلام . غَوَت · الغيُّ : الصلال ، وهو ضد الرشاد .

(١) مسلم (١ / ١٥٦) ١ ـ كتاب الإيمان ـ ٧٥ ـ باب : ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال .

١٤٩ ـ * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى ليلةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الكثِيبِ الأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ » .

١٥٠ ـ * روى عبد الله بن أحمد عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قالَ : « فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاء زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِيءٍ حكمَةً وإيماناً فَأَفرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاء فلما جاء السماء الدُّنْيَا فَافْتَتِح ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيل ، قَالَ : هَلْ مَعَكَ أَحدٌ : قَالَ : نَعَم ، مَعِي مُحَمَّدٌ : قَالَ أُرسِلَ إِلَيْهِ ، قَالَ : نَعَمْ فَافْتَحْ ، فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِه أَسْوِدَة ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَة ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ تَبَسَّمَ ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى ، قَالَ : مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ والابْنِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلتُ لِجبْرِيلَ عليه السلام : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ هَذَا آدَمُ وهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وشِمَالِهِ نَسَمُ بنيهِ فَأَهْلُ اليَمِينِ هُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ والأَسْوِدَةُ التِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى ، قَالَ : ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى جَاءَ السَّمَاءَ الثانِيَةَ فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قالَ خَازِنُ سَمَاء الدُّنْيَا فَفَتِحَ لَهُ » .

١٥١ ـ * روى الحاكم عن عائشةَ رضي اللهُ عنها قَالَتْ : لَمَّا أُسْرِيَ بِالنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانُوا آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وسَعَوا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالُوا : هَلْ لَكَ إلى صَاحِبِكَ يَزْعَمُ أَنَّهُ

---

١٤٩ ـ مسلم (٤ / ١٨٤٥) ٤٣ ـ كتاب الفضائل ـ ٤٢ ـ باب من فضائل موسى عليه السلام .

والنسائي (٣ / ٢١٥) . كتاب قيام الليل ، باب : ذكر صلاة نبي الله موسى عليه السلام .

الكثيب : الرمل المرتفع المستطيل المحدودب .

١٥٠ ـ المسند (٥ / ١٤٣) .

مجمع الزوائد (١ / ٦٦) وقال : رواه عبد الله من زياداته على أبيه ورجاله رجال الصحيح .

أسودة : جمع قلة لسواد وهو الشخص لأنه يرى من بعيد أسود .

١٥١ ـ المستدرك (٣ / ٦٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بيتِ المقدسِ وَقَالَ : أو قَالَ ذَلِكَ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ لَئِنْ كَانَ قَـالَ ذَلِـكَ لَقَدْ صَدَقَ . قَـالُوا : أَوَ تُصَـدِّقُـهُ أَنَّـهُ ذَهَبَ اللَّيْلَـةَ إِلى بَيْتِ الْقُـدسِ وَجَـاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ؟ قَالَ . نَعمْ إِنِّي لأُصَدِّقُهُ فِيمَـا هُوَ أَبْعَـدُ مِنْ ذَلِـكَ أُصَـدِّقُـهُ بِخَبَرِ السَّمَاء فِي غَـدْوَةٍ أَوْ رَوْحَـةٍ فَلِذَلِكَ سُمِّي أَبُو بَكْرٍ الصِدِّيقَ .

١٥٢ ـ * روى الترمـذي عن عبـد الله بن مسعود رضي الله عنـه قـال : قَـالَ رسـولُ الله ﷺ : « لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَـةَ أُسْرِيَ بِي ، فَقَـالَ : يـا مُحَمَّـدُ ، أَقْـرِئْ أُمَّتَـكَ مِنِّي السَّلاَمَ ، وأَخْبِرْهُم : أَنَّ الجنـةَ طَيِّبَـةُ التُّرْبَـةِ ، عَـذْبـةُ المَـاءِ ، وأَنَّهـا قِيْعَـانٌ ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا : سُبْحَانَ اللهِ ، والحَمْدُ للهِ ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، واللهُ أَكْبَرُ » .

١٥٣ ـ * روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لَمَّا أُسْرِيَ برسولِ اللهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلى سِدْرَةِ المُنْتَهى ، وَهِيَ فِي السَّماء السَّادِسَـةِ ، إِلَيْهَـا يَنْتَهِي مـا يُعْرَجُ بِـهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا ، وإِليها يَنْتَهِي ما يهبط به مِنْ فَوْقِها فَيُقْبَضُ مِنْهـا ـ قـال ﴿ إِذ يَغْشَى السِّدْرَةَ مـا يَغْشَى ﴾ [1] قَـالَ : فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ ، قَـالَ : فَـأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَـلاثـاً : أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ ، وأُعْطِيَ خواتِيمَ سورةِ البقَرةِ ، وغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ باللهِ مِنْ أُمَّتِـهِ شَيْئاً المقحِمَاتُ .

وفي رواية الترمذي [2] قَـالَ : لَمَّـا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِـدْرَةَ الْمُنْتَهى ، قَـالَ : انْتَهَى إِلَيْهَا ما يَعْرُجُ مِنَ الأَرْضِ وما يَنْزِلُ مِنْ فَوْقٍ ، فَأَعْطَاهُ الله عِنْـدَهَـا ثَلاثـاً ، لم يُعْطِهِنَّ نبيـاً كان قبْلَه : فُرِضَتْ عَليهِ الصلاة خمساً ، وأُعْطِيَ خَواتِيمَ سُورةِ البقَرَةِ ، وغَفَرَ لأُمَّتـه المقحِماتِ

---

١٥٢ ـ الترمذي (٥ /٥١٠) ٤٩ ـ كتاب الدعوات ـ باب : ٥٩ . وحسنه وهو كما قال (م) .

قِيعَان : جمع قاع ، وهو المكان المستوي الواسع في وطاءٍ من الأرض يَعلُوهُ ماءُ السماء فيمسكه ويستوي نباته ، ويجمع القاعُ : قِيعةً ، وقِيعَاناً . غِرَاسها : الغِرَاسُ : مصدر غَرستُ الشجرة غرساً وغِراساً : إذا نَصَبْتَها في الأرض .

١٥٣ ـ مسلم (١ / ١٥٧) ١ ـ كتاب الإيمان (٧٦) ـ باب في ذكر سدرة المنتهى . والنسائي (١ / ٢٢٣) .

فراش من ذهب : الفراش : هـذا الحيوان الـذي يرمي نفسـه في النـار وضوء السراج . المقحمات : هي الـذنـوب التي تقحم صاحبها في النار ، أي : تلقيه فيها .

(١) النجم : ١٦ .

(٢) الترمـذي (٥ / ٣٩٣) ٤٨ ـ كتـاب تفسير القرآن ـ ٥٤ ـ بـاب : ومن سـورة النجم قـال أبو عيسى : هـذا حـديث حسن صحيح

ما لَمْ يُشرِكُوا باللهِ شَيْئاً . قالَ ابنُ مَسْعودٍ : ﴿ إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قَالَ : السدرةُ فِي السَّمَاء السادسة ، قَالَ سُفْيَانُ : فَرَاشٌ مِنْ ذَهبٍ ، وأشَارَ سفيان بيَدِهِ فَأَرْعَدَهَا .

وفي رواية « إليها ينتهي عِلْمُ الخلقِ ، لا عِلْمَ لَهُمْ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ » .

جاء في هذه الرواية أنّ سدرة المنتهى في السماء السادسة ، وهذا خلاف المشهور .

قال الحافظ ابن حجر :

وقال القرطبي في (المفهم) : ظاهر حديث أنس أنها في السابعة لقوله بعد ذكر السماء السابعة « ثم ذهب بي إلى السدرة » وفي حديث ابن مسعود أنها في السادسة ، وهذا تعارض لاشك فيه ، وحديث أنس هو قول الأكثر ، وهو الذي يقتضيه وصفها بأنها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل وكل ملك مقرب على ما قال كعب ، قال : وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله أو من أعلمه ، وبهذا جزم إسماعيل بن أحمد ، وقال غيره : إليها منتهى أرواح الشهداء ، قال : ويترجح حديث أنس بأنه مرفوع ، وحديث ابن مسعود موقوف ، كذا قال .

١٥٤ ـ * روى البزار والطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « بَيْنَا أَنَا قَاعِد إذ جاءَ جبريلُ عليه السلام ، فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ فقُمتُ إلى شَجَرةٍ فيها كَوَكْرَي الطيْرِ فَقَعَدَ في أَحَدِهِما وقَعَدْتُ في الآخَرِ ، فسَمَتْ وارْتَفعتْ حتَّى سَدَّتْ الخَافِقَيْنِ وَأَنا أُقَلِّب طَرْفِي وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمَسَّ السَّماءَ لَمَسَسْتُ ، فالْتَفتُّ إلى جبْريل كَأنَّهُ حِلْسٌ لاطِئ فَعَرَفْتُ فَضْل عِلْمِهِ بالله عَلَيَّ وَفُتحَ بابٌ منْ أبوابِ السَّماء ورأيت النُّورَ الأَعْظَمَ ، وَإذَا دُونَ الحِجَابِ رَفْرَفَةُ الدُّرِّ والياقُوتِ فَأُوْحِيَ إليَّ مَا شَاءَ أَنْ يُوحَى » .

١٥٥ ـ * روى البخاري عن قتادة بن دعامة : عن أنسٍ عن مالك بن صعصعة : أنَّ نبيَّ

---

١٥٤ ـ البزار : كشف الأستار (١ / ٤٧) .

مجمع الزوائد (١ / ٧٥) وقال . رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

لاطىء : لطأ بالشيء لطئاً : لزق . الحلس : ما ولي ظهراً لدابة والقتب والسرج ، وما يبسط في البيت من حصيرة ونحوه ، ويقال هو حلس بيته : لا يبرحه .

١٥٥ ـ البخاري (٧ / ٢٠١) ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٤٢ ـ باب المعراج .

=

اللهِ ﷺ حدثه عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ ، قَالَ : « بَيْنَمَا أَنا فِي الحَطِيم - وَربَّما قَالَ : فِي الحِجْر - مُضْطَجِعًا - إذْ أَتَانِي آتٍ فَقَدَّ - قَالَ : وَسَمِعْتُه يَقُول : فَشَقَّ - ما بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فَقُلْتُ للجَارُودِ ، وَهُوَ إلى جَنْبِي : مَا يَعْنِي بِهِ ؟ قَالَ : مِنْ ثُغْرة نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ ، وَسَمِعْتُه يَقُولُ : مِنْ قَصِّهِ إِلَى شِعْرَتِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي ، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ من ذَهَبٍ مملوءَةٍ إيماناً ، فَغُسِلَ قَلْبِي ، ثم حُشِيَ ، ثُمَّ أُعِيدَ ، ثُمَّ أُتِيتُ بدابَّةٍ ، دُونَ البَغْلِ وفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَضَ ، فَقَالَ لَهُ الجَارُودُ : هُوَ البُرَاقُ يا أَبا حَمزَةَ ؟ فقَالَ أَنسٌ : نَعَم يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ ، فانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فاسْتَفْتَحَ ، فَقِيل : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحمَّدٌ ، قيلَ : وَقَدْ أُرسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحباً بِهِ ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاء ، فَفَتَحَ ، فَلَمَّا خَلَصْتُ ، فَإِذَا فِيهَا آدمُ ، فَقَالَ : هَذَا أَبُوكَ آدَمُ ، فسلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ ، فَرَدَّ السلامَ ، وقَالَ : مَرْحباً بالابْنِ الصَّالحِ ، والنبيِّ الصالحِ ، ثم صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّماءَ الثانِيَةَ ، فاسْتَفْتَحَ ، قيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جبْرِيلُ ، قَالَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحمَّدٌ ، قيلَ وقد أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نعَمْ ، قيلَ : مرحَباً بِهِ ، فَنِعْمَ المجيءُ جَاءَ ، فَفَتَحَ ، فلما خَلَصْتُ ، فإِذَا يَحْيَ وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا خَالَة ، قَالَ : هَذَا يَحْيَ وعِيسَى فسلِّم عَلَيْهما ، فَسَلَّمْتُ ، فَرِدَّا ، ثُمَّ قَالا : مَرْحَباً بالأَخِ الصَّالِحِ والنبيِّ الصَّالح ، ثم صَعِدَ بِي إلى السَّمَاء الثَّالِثَةِ فاسْتَفْتَحَ ، قِيلَ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ

= إذ أتاني آت : هو جبريل عليه السلام . لثغرة النحر : الثغرة : النقرة التي بين الترقوتين . القص : رأس الصدر ، وقيل : وسطه .

قال الحافظ في الفتح : قوله « إيماناً » زاد في بدء الخلق « وحكمة » وهما بالنصب على التمييز ، قال النووي : معناه أن الطست كان فيها شيء يحصل به زيادة كال الإيمان وكال الحكمة وهذا الملء يحتمل أن يكون على حقيقته ، وتجسيد المعاني جائز كما جاء أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها ظلة ، والموت في صورة كبش ، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك من أحوال الغيب . وقال البيضاوي : لعل ذلك من باب التمثيل ، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيراً ، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط ، وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس . وقال ابن أبي حمزة : فيه أن الحكمة ليس بعد الإيمان أجل منها ، ولذلك قرنت معه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ وأصح ما قيل في الحكمة أنها وضع الشيء في محله ، أو الفهم في كتاب الله ، فعلى التفسير الثاني قد توجد الحكمة دون الإيمان وقد لا توجد ، وعلى الأول فقد يتلازمان لأن الإيمان يدل على الحكمة . أ.هـ .

مَعَكَ ؟ قَالَ : مَحمَّدٌ ، قيلَ : وقَدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَم ، قيلَ : مَرْحَباً بِهِ ، فنِعْمَ المجيءُ جَاءَ ، فَلَمَّا خَلصتُ ، إذا يوسفُ[1] ، قَالَ : هذا يُوسفُ فسلِّمْ عليْهِ ، فسلَّمتُ علَيْهِ ، فَردَّ ، ثمَّ قالَ : مَرْحَباً بالأخ الصَالِحِ والنبيِّ الصالِحِ ، ثمَّ صَعِدَ بِي حتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرابعَةَ ، فاسْتَفْتَحَ ، قيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جبْرِيلُ ، قِيلَ ومَنْ مَعَك ؟ قَالَ : محمَّدٌ ، قيلَ : وقَدْ أُرْسِلَ إليْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَباً بِهِ فنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ ، فَفَتَحَ ، فَلَمَّا خَلَصتُ ، فإذَا إدرِيسُ ، قَالَ : هٰذَا إدْرِيسُ فسلِّمْ عليهِ ، فَسلَّمتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ ، ثمَّ قَالَ : مَرْحَباً بالأخِ الصَّالِحِ والنبيِّ الصالِحِ ثمَّ صَعِدَ بِي ، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسةَ ، فاسْتَفْتَح ، قيْلَ : مَنْ هٰذَا ؟ قَالَ : جبْرِيلُ ، قيلَ : ومَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : محَّمدٌ ، قيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ قيلَ : مَرْحَباً بهِ ، فَنِعْمَ المجيءُ جَاءَ ، فَلَمَّا خَلَصْتُ ، فإذا هَارُونُ ، قَالَ : هٰذَا هَارُون فسلِّمْ عَلَيْهِ ، فسلَّمتُ عَلَيْهِ ، فَردَّ ، ثمَّ قالَ : مَرْحَباً بالأخِ الصَّالِحِ والنبيِّ الصَالِحِ ، ثم صَعِدَ حتَّى أَتى السماءَ السادسةَ ، فاستفْتَحَ ، قيلَ : مَنْ هٰذَا ؟ قَالَ : جبريلُ ، قيلَ : ومَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : محمدٌ ، قيلَ : وقَدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ قِيلَ : مرحبَاً بهِ ، فَنِعْمَ المجيءُ جاءَ ، فَلَمَّا خَلَصتُ ، فإذا مُوسى ، قَال : هٰذَا مُوسى فسلِّمْ عليهِ ، فسلَّمتُ علَيهِ ، فَرَدَّ ، ثم قَالَ : مَرْحَباً بالأخِ الصَّالِحِ والنبيِّ الصالِحِ ، فَلَمَّا تجاوزت بَكَى ، قِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ : أبْكِي ، لأَنَّ غُلاماً بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْخُلها مِنْ أُمَّتِي ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إلى السَّمَاءِ السَّابعَةِ ، فاستفْتحَ جبريلُ ، فقيلَ : مَنْ هٰذَا ؟ قَالَ : جبريلُ ، قيلَ : ومَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : محمدٌ ، قيل : وقد بُعِثَ إلَيهِ ؟ قَالَ : نعَم ، قيلَ : مرحبَاً

---

(١) قال الحافظ في الفتح : قوله « فلما خلصت إذا يوسف » زاد مسلم في رواية ثابت عن أنس : « فإذا هو قد أعطي شطر الحسن » وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي وأبي هريرة عند ابن عائذ والطبراني : « فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وهذا ظاهره أن يوسف عليه السلام كان أحسن من جميع الناس ، لكن روى الترمذي من حديث أنس : ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً ، فعلى هذا يحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي ﷺ ، ويؤيده قول من قال : إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه ، وأما حديث الباب فقد حمله ابن المنير على أن المراد : أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا ﷺ ، والله أعلم .

بـهِ ، ونعم المجيءُ جَـاءَ ، فلمَّـا خلصْتُ ، فـإذا إبراهيمُ ، قَـالَ : هـذا أبوكَ ، فسلِّمْ عَليـهِ ، فسلَّمتُ عَلَيْـهِ ، فردَّ السـلامَ ، ثمَّ قـالَ : مَرْحَبـاً بـالابْنِ الصـالِـحِ والنبيِّ الصـالِحِ ، ثم رُفِعْتُ إلى سِـدْرةِ المنتهى فـإذا نبقُهـا مثلُ قِـلال هَجَرَ ، وإذا وَرَقُهـا مثلُ آذانِ الفِيَلة ، قَالَ : هٰذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهى ، فَإِذا أربعةُ أنْهارٍ : نَهرانِ باطنـان ، ونَهْرَان ظاهِرَانِ ، فقُلْتُ : ما هٰذَانِ يا جبْريلُ ؟ قَالَ : أَمَّـا البـاطِنـان ، فنَهْرَانِ في الجنَّةِ ، وأَمَّـا الظَّـاهِرَان ، فـالنِّيلُ والفُرَاتُ[1] ، ثمَّ رُفِعَ لي البيتُ المعْمُورُ ، ثُمَّ أُتيتُ بِإنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، وإناءٍ مِنْ عسَلٍ ، فَـأَخَـذْتُ اللَّبَنَ ، فَقَـال : هِيَ الفِطْرَةُ التِي أَنْتَ عَلَيْهَـا وأُمَّتُـكَ ، قَـالَ : ثمَّ فُرِضَتْ عَليَّ الصَّلاةُ ، خَمْسِينَ صلاةً كلَّ يَوْمٍ ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ على مُـوسى ، فقَـالَ : بِمَ أُمرتَ ؟ قُلتُ : أُمِرتُ بخمسينَ صَلاةً كلَّ يـومٍ ، قَـالَ : إنَّ أُمَّتَـك لا تستطيـعُ خَمْسِينَ صَـلاَةً كلَّ يَـوْمٍ ، وإنِّي واللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بني إِسْرَائِيلَ أشدَّ المعَالَجَةِ ، فَـارْجِعْ إلى ربِّـكَ فـاسْـأَلـهُ التخفيفَ لأُمَّتِـكَ ، فَرَجَعْتُ فَوَضَـعَ عَنِّي عَشْراً ، فَرَجَعْتُ إلى مُوسَى ، فَقَـالَ مثْلَـهُ ، فَرَجَعْتُ ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْراً ، فَرَجَعْتُ إلى مُـوسَى ، فَقَـالَ مثْلَـه ، فَرَجَعْت فَوَضَعَ عَنِّي عَشْراً ، فَرَجَعْتُ إلى مُـوسَى ، فَقَـالَ مثْلَـهُ ، فَرَجَعْتُ فـأُمِرتُ بعَشرِ صَلَـوَاتٍ كلَّ يَـوْمٍ ، فَرَجَعْتُ فَقَـالَ مِثْلَـهُ ، فَرَجَعْتُ فَـأُمِرتُ بخَمْسِ صَلَواتٍ كلَّ يَوْمٍ ، قَالَ : إنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَواتٍ كلَّ يَوْمٍ ، وإنِّي قَدْ جَرَّبْتُ الناسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بني إِسْرَائِيلَ أشدَّ المعَـالَجـةِ ، فـارْجِعْ إِلَى رَبِّـك ، فـاسْـأَلْـهُ التَخْفِيفَ لأُمَّتِـكَ ، قَـالَ : سَـأَلْتُ ربِّي حَتَّى استَحْيَيْتُ ، ولٰكِنْ أرضى وأُسَلِّمُ ، فَلَمَّا جاوَزْتُ ، نَادَى مُنَادٍ : أَمْضَيْتُ فرِيضَتِي ، وخفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي » .

= نَبقها مثل قلال هجر : النبق : معروف ، أراد : ثمرة سـدرة المنتهى و« القلال » جمع قُلَّـة ، وهي الحُبُّ يسع مرادةً من الماء ، ونَسبَت إلى « هجر » لأنها تعرف بها . سِدرة المنتهى : السدر : شجر النبق ، وأما سدرة المنتهى ، فهي شجرة في أقصى الجنة ، إليها ينتهي علم الأولين والآخرين .

(١) قال القرطبي « وقيل إنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهاً لها بأنهار الجنة لما فيهـا من شـدة العزوبـة والحسن والبركة .

وفي رواية (١) : « بيْنَا أَنَا عِنـدَ البَيْتِ بَيْنَ النَّـائِمِ واليَقْظَـانِ » وفيـه : « ثُمَّ غُسِلَ البَطْنُ بمـاء زَمْزَمَ ، ثُمَّ مُلِيءَ حِكْمَـةً وإيمـاناً » وفيـه : « فَرُفِعَ لِي البيتُ المعمورُ ، فسأَلْتُ جِبْرِيلَ ؟ فَقَـالَ : هٰـذَا البَيْتُ المعمورُ ، يُصلِّي فيـهِ كلَّ يومٍ سَبْعُونَ ألفَ مَلَـكٍ ، إذا خَرَجُـوا لَمْ يَعُـودُوا إِلَيْـهِ آخرَ مَـا عَلَيْهِم » وفي آخِرِهِ « وخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي ، وَأَجْزِي بالحَسَنَةِ عَشْراً » .

وفي أخرى (٢) : « بيْنَا أَنَا عِنْدَ البَيْتِ ، بَيْنَ النَّـائِمِ واليَقْظَـانِ ، إذ سَمِعْتُ قَـائلاً يقول : أَحَدُ الثَّلاثَةِ ، بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ، فَـأَتَيْتُ ، فـانْطُلِقَ بي ، فـأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فِيهَـا مِنْ مَـاء زمـزمَ ، فشُرِحَ صَـدْرِي إلىَ كَـذَا وكَـذَا - يَعْنِي إلى أسْفَـلِ بَطْنِهِ » .

وفي أخرى (٣) : « فَـأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلئٍ حِكْمَـةً وإيمَـاناً ، فشقَّ مِنْ النَّحْرِ إلى مَرَاقِّ البَطنِ ، فَغُسِلَ بِمَاء زَمْزَم » .

وأخرجه النسائي (٤) نحوَه بمعْنَاهُ وأخصرَ منه ، وهٰذَا أتم وأطول .

وأخرجه الترمذي (٥) إلى قولِهِ : « فَغسَله بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَـانَـهُ ، ثُمَّ حُشِيَ إيمَاناً وحِكْمَةً » ، قَالَ التِرْمِذِيُّ : وفي الحديث قصةٌ طويلَةٌ ، ولَمْ يَذْكُرْهَا .

قال الحافظ في الفتح : وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلـة الإسراء وقـال : إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد ، ولا إنكار في ذلـك ، فقـد تواردت الروايـات بـه ، وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في (الدلائل) ولكل منها حكمة فـالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس « فأخرج علقـة فقـال : هـذا حـظ الشيطـان

---

(١) للبخاري (٦ / ٣٠٢) ٥٩ - كتاب بدء الخلق - ٦ - باب : ذكر الملائكة .

(٢) لمسلم (١ / ١٥٠) ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب : الإسراء برسول الله ﷺ .

(٣) لمسلم (١ / ١٥١) ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .

(٤) النسائي (١ / ٢١٧) كتاب الصلاة ، باب فرض الصلاة .

(٥) الترمذي (٥ / ٤٤٢) ٤٨ - كتاب التفسير - ٨٣ - باب : ومن سورة ألم نشرح . قال أبو عيسى : هذا حـديث حسن صحيح

منـك » وكان هـذا في زمن الطفولـة فنشـأ على أكمل الأحوال من العصمـة من الشيطـان ، ثم وقع شق الصدر عند البعث زيـادة في إكرامـه ؛ ليتلقى مـا يوحى إليـه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير ، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ؛ ليتأهب للمنـاجـاة ، ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل ؛ لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه ﷺ . ويحتمل أن تكون الحكمة في انفراج سقف بيته الإشـارة إلى مـا سيقع من شق صدره وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بهـا ،وجميع مـا ورد من شق الصـدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم لـه دون التعرض لصرفـه عن حقيقتـه ؛ لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك ، قـال القرطبي في (المفهم) : لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء لأن رواته ثقات مشاهير .

ثم قال : وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم : أن للسماء أبواباً حقيقـة وحفظـة موكلين بها ، وفيه إثبات الاستئذان ، وأنه ينبغي لمن يستـأذن أن يقول : أنـا فلان ،ولا يقتصر على (أنا) لأنه ينافي مطلوب الاستفهام ، وأن المـارّ يسلم على القـاعـد وإن كان المـار أفضل من القاعد ، وفيه استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثنـاء والـدعـاء ،وجواز مـدح الإنسان المـأمون عليـه الافتتـان في وجهـه ، وفيـه جواز الاستنـاد إلى القبلـة بـالظهر وغيره مأخوذ من استناد إبراهيم إلى البيت المعمور وهو كالكعبة في أنـه قبلـة من كل جهـة ، وفيـه جواز نسخ الحكم قبل وقوع الفعل ،وقد سبق البحث فيـه في أول الصلاة ، وفيـه فضل السير بـالليل على السير بـالنهـار لمـا وقع من الإسراء بـالليـل ، ولـذلـك كانت أكثر عبـادتـه ﷺ بـالليل ،وكان أكثر سفره ﷺ بـالليـل ، وقـال ﷺ « عليكم بـالـدلجـة فـإن الأرض تطـوى بالليل » وفيه أن التجربة أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة ، يستفـاد ذلـك من قول موسى عليـه السـلام للنبي ﷺ أنـه عـالـج النـاس قبلـه وجربهم ،ويستفـاد منـه تحكيم العـادة ، والتنبيـه بـالأعلى على الأدنى لأن من سلف من الأمم كانـوا أقـوى أبـدانـا من هـذه الأمة ، وقد قال موسى في كلامه إنه عالجهم على أقل من ذلـك فـما وافقوه ، أشـار إلى ذلـك ابن أبي جمرة قال : ويستفاد منه أن مقـام الخلـة مقـام الرضـا والتسليم ،ومقـام التكليم مقـام الادلال والانبساط ، ومن ثم استبد موسى بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون إبراهيم عليـه

السلام ، مع أن للنبي ﷺ من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفعة المنزلة والاتباع في الملة ، وقال غيره : الحكمة في ذلك ما أشار إليه موسى عليه السلام في نفس الحديث من سبقه إلى معالجة قومه في هذه العبادة بعينها وأنهم خالفوه وعصوه ، وفيه أن الجنة والنار قد خلقتا ، لقوله في بعض طرقه التي بينتها « عرضت على الجنة والنار » وفيه استحباب الإكثار من سؤال الله تعالى وتكثير الشفاعة عنده ، لما وقع منه في إجابته مشورة موسى في سؤال التخفيف ، وفيه فضيلة الاستحياء ، وبذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك . اهـ .

١٥٦ ـ * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان أبو ذر يحدث أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ : قَالَ : « فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثم غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وإيماناً ، فأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي ، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ ، فَلَمَّا جِئْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام لِخَازِنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا : افْتَح ، قَالَ : مَنْ هٰذَا ؟ قَالَ : هٰذَا جِبْرِيلُ ، قَالَ : هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، مَعِي محمدٌ ﷺ ، قَالَ : فَأُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَفَتَحَ ، قَالَ ، فَلَمَّا عَلَوْنَا السمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدة ، وعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ ، قَالَ : فإِذَا نَظَر قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وإِذا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى ، قَالَ : فَقَالَ : مَرْحَباً بِالنبيِّ الصالِحِ ، والابْنِ الصالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ : ياجبريلُ مَنْ هَذَا ، قَالَ : هٰذَا آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهٰذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ ، فَأَهْلُ اليمينِ أَهْلُ الجَنَّةِ ، والأَسوِدَةُ التِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَإِذَا نَظَر قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرَ

---

١٥٦ ـ مسلم (١ / ١٤٨) ١ ـ كتاب الإيمان ـ ٧٤ ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .

والبخاري (١ / ٤٥٨) . ٨ ـ كتاب الصلاة ـ ١ ـ باب : كيف فرضت الصلوات في الإسراء ؟

الأسوِدَة : جمع سواد ، والسواد : الشخص ، إنساناً كان أو غيره ، أراد : وحوله أشخاص . نَسَم بنيه : النسم جمع نَسَمة ، وهي كل شيء فيه روح ، وقيل : (النسمة) النفس والروح .

ظَهَرتُ لمستوى : أي : علوتُ وارتفعت ،. وصرتُ على ظهره ، والمستوى : المكان المستوي . صريف الأقلام : الصريف : الصوت ، ومنه : صريف البكرة ، وصريف ناب البعير . الجنابذ : القصور .

قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى ، قَالَ : ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ ، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَانِيَةَ ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، قَالَ : فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ خَازِنُ السماء الدُّنْيَا ، فَفَتَحَ » . فَقَالَ أَنَسُ بنُ مالِك : فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمٰوات آدمَ وَإِدْرِيسَ وعِيسَى وَمُوسَى وإِبْرَاهِيمَ صلوات الله عليهم أجمعين .

ولم يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلهم ، غَيْر أنَّه ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ آدَمَ عليه السلام في السَّمَاء الدُّنْيَا ، وإبراهيمَ في السَّمَاء السَّادِسَةِ - قَالَ : « فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللهِ بِإِدْرِيسَ صَلَوَاتُ اللهِ وسلامُهُ عليه ، قَالَ : مَرْحَباً بالنبيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ ، قَالَ : ثُمَّ مَرَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ هٰذَا ؟ قَالَ : هٰذَا إدريسُ ، قَالَ : ثم مررْتُ بمُوسَى عليه السلام ، فَقَالَ : مَرْحَباً بالنبيِّ الصالِحِ والأخِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلتُ : مَنْ هٰذَا ؟ قَالَ : هٰذَا مُوسى ، ثم مَرَرْتُ بعِيسَى ، فَقَالَ : مَرْحَباً بالنبيِّ الصَّالِحِ والأَخِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ مَنْ هٰذَا ؟ قَالَ : هٰذَا عِيسَى بنُ مَرْيَمَ ، قَالَ : ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ السَّلاَمُ ، فقَالَ : مَرْحَباً بالنبيِّ الصَّالِحِ ، والابْنِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هٰذَا ؟ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » .

قال ابن شهاب : وأخبرني ابن حزم ، أن ابن عباس وأبا حبَّة الأنصاري كانا يقولان : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فيه صَرِيفَ الأقلام » .

قال ابن حزم وأنس بن مالك : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « فَفَرَضَ الله عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاةً ، قَالَ : فَرَجَعْتُ بِذٰلِكَ ، حَتَّى أَمُرَّ بمُوسَى ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ : مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ على أُمَّتِكَ ؟ قَالَ : قُلتُ : فَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسِينَ صَلاَةً ، قَالَ لِي مُوسَى عليه السلام : فَرَاجِعْ رَبَّكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تَطِيقُ ذٰلِكَ ، قَالَ : فَرَاجَعْتُ رَبِّي ، فوضَعَ شَطْرهَا ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إلى مُوسَى فأَخْبَرْتُه ، قَالَ : رَاجِعْ ربَّك ، فإن أُمَّتك لا تَطيق ذٰلِكَ ، قَالَ : فَرَاجَعْتُ رَبِّي ، فَقَالَ : هِيَ خَمْسٌ ، وَهِيَ خَمْسُونَ لا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : رَاجِعْ رَبَّكَ ، فَقُلْتُ : قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ، قَالَ : ثُمَّ انطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى

نَأْتِي سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ ، لا أَدْرِي مَا هِيَ ؟ قَالَ : ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا فِيهَا جنابِذُ اللُّؤْلُؤِ ، وإِذَا تُرابُها المِسك » .

١٥٧ - * روى مسلم عن أبي هريْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [١] . قَالَ : رَأَى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلامُ .

١٥٨ - * روى البخاري ومسلم عن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكَانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [٢] ، وفي قولِهِ تَعَالَى : ﴿ ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [٣] ، وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [٤] .

قَالَ فيها كُلِّهَا : رَأَىَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، له سِتُّمَائَةِ جَنَاحٍ . زَادَ فِي قَوْلِهِ تَعَالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ أَيْ : جِبْرِيل فِي صُورَتِهِ . كذا عِنْدَ مُسْلِم .

وعِنْدَ الْبُخَارِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَو أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا

---

١٥٧ - مسلم (١ / ١٥٨) ١ - كتاب الإيمان - ٧٧ - باب : معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ .

١٥٨ - البخاري (٦ / ٣١٣) ٥٩ - كتاب بدء الخلق ٧ - باب : إذا قال أحدكم « آمين » والملائكة في السماء .

ومسلم (١ / ١٥٨) ١ - كتاب الإيمان - ٧٦ - باب : في ذكر سدرة المنتهى .

قابَ قَوْسَيْنِ : قاب الشيء : قدره ، والمعنى : فكان قُرب جبريل من محمد ﷺ قدر قوسين عربيتين ، وقيل : قاب القوس : صدرها ، حيث يشد عليه السير .

قال الحافظ في الفتح : و(القاب) : ما بين القبضة والسية من القوس ، قال الواحدي : هذا قول جمهور المفسرين : أن المراد : القوس التي يرمى بها ، قال : وقيل : المراد بها : الذراع ، لأنه يقاس بها الشيء ، قلت : (القائل ابن حجر) : وينبغي أن يكون هذا القول هو الراجح ، فقد أخرج ابن مردويه بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : (القاب : القدر ، والقوسان : الذراعان) ويؤيده أنه لو كان المراد به القوس التي يرمى بها لم يمثل بذلك ليحتاج إلى التثنية ، فكان يقال مثلاً : قاب رمح ، ونحو ذلك . وقد قيل : إنه على القلب ، والمراد : فكان قاب قوس ، لأن القاب : ما بين المقبض إلى السية ، ولكل قوس قابان بالنسبة إلى خالفته ، وقوله : ﴿ أو أدنى ﴾ : أي : أقرب . قال الزجاج : خاطب الله العرب بما ألفوا ، والمعنى : فيما تقدرون أنتم عليه ، والله تعالى عالم بالأشياء على ما هي عليه ، لا تردد عنده ، وقيل : « أو » بمعنى « بل » والتقدير : بل هو أقرب من القدر المذكور .

(١) النجم : ١٣ .

(٢) النجم : ٩ .

(٣) النجم : ١١ .

(٤) النجم : ١٨ .

أوحَى ﴾ (١) قَالَ : رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ ستمائةِ جَنَاحٍ .

وفِي رِوَايَةِ التِّرمِذيِّ (٢) قَالَ : ﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ مِنْ رَفْرَفٍ قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ .

وللبُخَارِي (٣) فِي قَوْلِهِ : ﴿ لقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى ﴾ قَالَ : رَفْرَفاً أَخْضَرَ سَدَّ أُفُقَ السماء .

١٥٩ - * روى أحمد والطبراني عَن ابْنِ عَباسٍ قَالَ : سَأَلَ النبيُّ ﷺ جِبْرِيلَ عليه السلام أَنْ يَرَاهُ في صُورَتِهِ ، قَالَ : ادْعُ رَبَّكَ عزَّ وجَل ، فَطَلَعَ عَلَيْه سَوَادٌ مِنْ قبلِ المَشْرِقِ . قَالَ فَجَعَلَ يَرْتَفِعُ وَيَنْتَشِرُ فَلَمَّا رَآهُ النبيُّ ﷺ صُعِقَ فَأَتاهُ فنَعَشه ومسح البُزَاقَ عَنْ شِدْقَيه .

١٦٠ - * روى مسلم عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : ﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ﴿ ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٤) ، قَالَ : رَآهُ بفُؤَادِهِ ، مَرَّتين ، وفي رِوَايَةٍ قَالَ : رَآهُ بقَلْبِه ، ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ .

وفي رِوَايَةِ التِرمِذِيِّ (٥) قَالَ : رَأَىٰ مُحَمَّدٌ ربَّهُ ، قُلْتُ : أليس اللهُ يقول : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ (٦) . قَالَ ، ويْحَكَ ، ذَاكَ إذا تَجَلَّى بِنُورِهِ الذي هُوَ نُورُهُ ، مَرَّتَيْنِ .

وفي أُخْرَى له (٧) : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزلةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدرَةِ المُنْتَهَى ﴾ ﴿ فَأَوْحَى إلى عَبدِهِ

---

(١) النجم : ٩ ، ١٠ .

(٢) الترمذي : (٥ / ٣٩٦) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن ٥٤ - باب : ومن سورة النجم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) البخاري : (٦ / ٣١٣) ٥٩ - كتاب بدء الخلق - ٧ - باب : إذا قالت للملائكة آمين والملائكة في السماء .

١٥٩ - أحمد في مسنده (١ / ٣٢٢) ، والطبراني (١١ / ٥٧) . قال الهيثمي (٨ / ٢٥٧) : رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات.

١٦٠ - مسلم (١ / ١٥٨) ١ - كتاب الإيمان - ٧٧ - باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء .

(٤) النجم : ١١ - ١٤ .

(٥) الترمذي : (٥ / ٣٩٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٤ - باب : ومن سورة النجم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن.

(٦) الأنعام : ١٠٣ .

(٧) الترمذي في الموضع السابق .

مَا أَوْحَى ﴾ ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدنَى ﴾ قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ : قَدْ رَآهُ النبي ﷺ .

ولَهُ فِي أُخْرَى : ﴿ ما كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ قَالَ : رَآهُ بِقَلْبِه .

١٦١ - * روى مسلم عن جابرِ بن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ ، فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَة ، وَرَأَيْتُ عِيسى بنَ مَرْيَمَ ، فَإِذَا أَقْرَبُ من رَأيتُ بِه شَبَهاً : عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فإذا أَقْرَبُ من رأيتُ بِهِ شَبَهَاً صَاحِبُكم - يَعْنِي نَفْسَهُ - وَرَأيتُ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فإذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِه شَبهاً : دِحْيَةُ بنُ خَلِيفَة » .

١٦٢ - * روى البخاري عن عبدِ اللهِ بن عباسٍ رضي الله عنهما : قال مجاهد : أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما وذكروا له الدجال مكتوب بين عينيه كافر ، أوْ ك ف ر - قال : لم أسمعه ولكنه قَالَ : « أَمَّا إِبْرَاهِيمُ ، فانْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ ، وأَمَّا مُوسى : فَجَعْدٌ آدَمُ ، على جَمَلٍ أحمر مَخْطُومٍ بِخُلبةٍ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إليه انْحَدَرَ في الوَادِي » .

وفي رواية [1] قَالَ : « ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَة أُسْرِيَ بِهِ فَقَالَ : مُوسى آدَمُ طُوالٌ ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وقَال : عِيسَى جَعْدٌ مَرْبُوعٌ ، وذكرَ مَالِكاً خَازِنَ النَّارِ ، وَذكرَ الدَّجالَ » .

زادَ فِي روايَة : « وَرأيتُ عِيسَى بنَ مريمَ مَرْبُوعَ الخَلْقِ ، إلى الحُمرَةِ والبَيَاضِ ، سَبِطَ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكاً خَازِنَ النَّار ، والدَّجالَ في آياتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ : ﴿ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ [2] .

---

١٦١ - مسلم (١ / ١٥٣) ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .

والترمذي (٥ / ٦٠٤) ٥٠ - كتاب المناقب ٢١٢ - باب : في صفة النبي ﷺ .

١٦٢ - البخاري (٦ / ٣٨٨) (٦٠) - كتاب الأنبياء (٨) - باب قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ .

خُلْبَة : الخُلْبُ : اللِّيف ، واحدته خُلْبةٌ طُوالٌ : رجلٌ طُوالٌ : مثل طويل .

(١) لمسلم (١ / ١٥٣) ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ .

(٢) السجدة : ٢٣ .

١٦٣ - * روى البخاري عن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾[1] . قَالَ : هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ ، أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ ، ﴿ والشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ ﴾ هِيَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ .

قال الحافظ :

واختلف السلف هل رأى ربه في تلك الليلة أم لا ؟ على قولين مشهورين ، وأنكرت ذلك عائشة رضي الله عنها وطائفة ، وأثبتها ابن عباس وطائفة .

١٦٤ - * روى مسلم عن ابن عباس قال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾[2] قال : رآه بفؤاده مرتين .

١٦٥ - * روى البخاري عن مسروق قال : قلتُ لعائشة رضي الله عنها : يا أُمَّتاهُ ، هل رأى محمدٌ ﷺ ربَّه ؟ فقالت : لقد قفَّ شعري مما قُلتَ ، أينَ أنتَ من ثلاثٍ من حدَّثكهنَّ فقد كذَب : من حدَّثكَ أنَّ محمداً ﷺ رأى ربَّه ، فقد كذب ، ثم قرَأت ﴿ لا تُدْرِكه الأبصارُ وهو يُدركُ الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير ﴾[3] ﴿ وما كان لِبشرٍ أن يكلمَهُ الله إلا وَحياً أو من وَراءِ حِجَابٍ ﴾[4] . ومَن حدَّثكَ أنهُ يَعلم ما في غدٍ فقد كذَب ، ثم قرأت : ﴿ وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً ﴾[5] . ومن حدَّثك أنه كَتَمَ فقد كذَب ، ثمَّ

---

١٦٣ - البخاري (٧ / ٢٠٣) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٢ - باب المعراج .

الترمذي (٥ / ٣٠٢) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ١٨ - باب : ومن سورة بني إسرائيل

إلا فتنة للناس : الفتنة : الاختبار والابتلاء ، وقيل : أراد به الافتتان في الدين . وذلك أن النبي ﷺ لما أُسري به . وحدَّث الناس بما رأى من العجائب . صدقه بعض الناس وكذَّبه بعضهم ، فافتتنوا بها .

(١) الإسراء : ٦٠ .

١٦٤ - مسلم (١ / ١٥٨) ١ - كتاب الإيمان - ٧٧ - باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء .

قفَّ له شعري : إذا سمع الإنسان أمراً عظيماً هائلاً قام شعر رأسه وبدنه ، فيقول : قد قفَّ شعري لذلك .

(٢) النجم : ١١ ، ١٣ .

١٦٥ - البخاري (٨ / ٦٠٦) ٦٥ - كتاب التفسير ، باب : ١ .

(٣) الأنعام : ١٠٣ .

(٤) الشورى : ٥١ .

(٥) لقمان : ٣٤ .

قرأت : ﴿ يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزلَ إليك من ربك ﴾ (١) الآية . ولكن رأى جبريلَ عليه السلام في صُورتهِ مرَّتين .

١٦٦ - * روى الترمذي عن الشعبي رحمه الله قال : لقِيَ ابنُ عباس كعْباً بعرفةَ ، فسألَهُ عَنْ شيءِ ، فكَبَّرَ ، حتى جاوبَتْهُ الجبالُ ، فقال ابن عباس : إنَّا بنُو هاشمٍ ، فقَالَ كَعْبٌ : إنَّ اللهَ قسمَ رؤْيَتَهُ وكلاَمَه بَيْنَ محمدٍ وَمُوسَى ، فكلَّمَ مُوسَى مرَّتَيْنِ ، ورآهُ محمَّدٌ مرَّتَيْنِ ، قَالَ مَسْرُوقٌ : فَدَخَلْتُ على عائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا ، فَقُلْتُ : هل رَأى محمدٌ ربَّهُ ؟ فَقَالَتْ : لَقَدْ تكلَّمْتَ بشَيءٍ قَفَّ لهُ شَعْرِي ، قُلْتُ : رُوَيْداً ، ثمَّ قَرأْتُ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَىٰ ﴾ (٢) فَقَالَتْ : أيْنَ يَذْهَبُ بِكَ ؟ إنَّما هُوَ جِبْرِيلُ ، مَن أخبَرَكَ أنَّ مُحمَّداً رَأى رَبَّهُ ، أَوْ كتَم شيْئاً ممَّا أُمِرَ بهِ ، أَوْ يَعْلَمُ الخَمْسَ التِي قَالَ الله : ﴿ إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وينزِّلُ الغَيْثَ ﴾ (٣) فقد أعظمَ الفِرْيَةَ ، ولَكِنَّهُ رَأى جِبْرِيلَ ، لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ إلا مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً عند سِدرةِ المُنْتَهى ، وَمَرَّةً في جِيَادٍ له سِتُّمَائَةِ جَناحٍ ، قَدْ سَدَّ الأُفُقَ .

١٦٧ - * روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمتُ فِي الحِجْرِ ، فَجَلاَ اللهُ لي بَيْتَ المَقْدِسِ ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ » .

وزاد البخاري في رواية قال : « لَمَّا كَذَّبني قُرَيْش حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ ... » وذكر الحديث .

قال ابن حجر : قال الشيخ ابن أبي جمرة :

الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء إرادة إظهار الحق لمعاندة من

---

(١) المائدة : ٦٧ .

١٦٦ - الترمذي (٥ / ٣٩٤) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٤ - باب : ومن سورة النجم . وسنده فيه ضعيف ، لكن له طرق وألفاظ أخرى نحوه عند الشيخين . الفِرية : الكذب . جيادٌ : موضع بمكة .

(٢) النجم : ١٨ .

١٦٧ - مسلم (١ / ١٥٦) ١ - كتاب الإيمان - ٧٥ - باب : ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال .

والبخاري (٧/ ١٩٦) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤١ - باب : حديث الإسراء .

(٣) لقمان : ٣٤ .

يريد إخماده ؛ لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح ، فلما ذكر أنه أسري به إلى بيت المقدس سألوه عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك ، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة ، وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره ، فكان ذلك زيادة في إيمان المؤمن وزيادة في شقاء الجاحد والمعاند . انتهى ملخصاً .

أقول : ومن ههنا عدّ من المعجزات التي تقوم بها الحجة على الخلق ، ولولا ذلك لكانت من الغيوب التي يجب الإيمان بها فقط ، ولكن بإظهاره عليه الصلاة والسلام معاني ما كانت لتكون لولا وقوع الخارق قامت الحجة على الناس بأنها معجزة وأن عليهم أن يسلموا لصاحبها بالرسالة ، و أن يسلموا له بما نقله من أمرها .

* * *

فصل : في بداية دخول الإسلام المدينة المنورة وفي بيعتي العقبة

دخل الإسلام إلى المدينة المنورة على مدار ثلاث سنين قبل الهجرة ، وكان بداية ذلك مجيء وفد من الأوس إلى مكة باحثين عن تحالفات ضد أبناء عمهم الخزرج الذين كانوا في صراع معهم ، فهؤلاء أول ناس طرق سمعهم الإسلام وقد أسلم واحد منهم ، ثم جاء وفد من أهل المدينة معتمرين في رجب ، فاجتمع بهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم الدعوة فأسلموا ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعوهم فاستجاب لهم عدد ، فقدم من استطاع منهم إلى الحج وبايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الأولى ثم عادوا ، وأرسل معهم أو بعدهم رسول الله ﷺ مصعب ابن عمير ففشا الإسلام في المدينة حتى سيطر ، ووافى ممن أسلم حوالي سبعين في موسم الحج وكانت بيعة العقبة الثانية ، ثم أمر رسول الله ﷺ من بايعه أن يختاروا له اثني عشر نقيباً ، يكونون على أقوامهم كفلاء وبين أقوامهم وبين رسول الله ﷺ وسطاء ، وعلى إثر ذلك أمر الرسول ﷺ بالهجرة .

وبقبول أهل المدينة للإسلام من ناحية ولنصرة رسول الله ﷺ تحقق هدفان بآن واحد : هدف النصرة من أهلها وأن هؤلاء مسلمون ، وهذا يقتضي تفصيلاً :

لقد كان الهدف السياسي المرحلي لرسول الله ﷺ في مكة ـ فيما نعلم ـ أن يجد من يحميه وينصره ليبلغ دعوة ربه دون أن يقيّد هذه النصرة بإسلام هؤلاء ، وباصطلاح عصرنا فإن رسول الله ﷺ كان يبحث عن حرّية الدعوة والعبادة في مجتمع قادر على أن يحمي هذه الحرية . قال ابن حجر في الفتح :

وقال موسى بن عقبة عن الزهري : فكان في تلك السنين ـ أي التي قبل الهجرة ـ يعرض نفسه على القبائل ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه ، ويقول : « لا أكره أحداً منكم على شيء ، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالة ربي » فلا يقبله أحد بل يقولون : قوم الرجل أعلم به . اهـ .

ولو أنه استجاب له من يستطيع المنعة والنصرة من العرب لسارت الدعوة غير المسار

الذي سارت فيه باستجابة أهل المدينة للإسلام وللنصرة بآن واحد ، إذ قد تسير الدعوة في الحالة الأولى على مسار تجميع للمستجيبين يعيشون به في ظل الحماة ثم تكون انطلاقة بعد ذلك نحو أرض أخرى ، أما وقد قبل الأنصار الإسلام والنصرة بآن واحد فقد طويت مرحلتان في مرحلة واحدة ، ومع ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يتعامل مع الأنصار ابتداءً على أن البيعة كانت على الدفاع ، ولذلك نلحظ أنه لم يشرك في التحركات العسكرية قبل بدر إلا المهاجرين ، ويوم بدر طلب شورى الأنصار خشية أن يكونوا فهموا من النصرة الدفاع فقط ، مع أن الأنصار دخلوا في الإسلام وقبلوا أحكامه فهم والمهاجرون سواء في التكليف ، ومع ذلك كان رسول الله ﷺ يراعي تلك الظروف .

ومن ههنا نعرف أن أكبر نصر سياسي للإسلام كان في قبول أهل المدينة النصرة وما ترتب على ذلك من هجرة .

ومن ههنا نقول : إنه عندما يكون المسلمون في حالة ضعف وليست لهم دار إسلام يستطيعون الهجرة إليها ، فلهم أن يضعوا هدفاً سياسياً مرحلياً من مثل الوصول إلى حريتهم في الدعوة والعبادة ، وإذا وجدوا في مجتمع يعطيهم ذلك فعليهم أن يعمقوا جذور الإسلام ويطوّروا امتداده ويعملوا لانتصاره .

وقد حلّل الأستاذ الندوي الأسباب التي جعلت المدينة المنورة مؤهلة لقبول الإسلام فقال :

وكان من صنع الله تعالى لرسوله وللإسلام ، أن هيأ الله الأوس والخزرج ـ وهما قبيلتان عربيتان عظيمتان في مدينة يثرب ـ لتقدرا هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها ، وتسبقا أهل عصرهما ، وأبناء الجزيرة ، إلى الترحيب بالإسلام والدخول فيه ، حين تنكرت له قبائل العرب وفي مقدمتها وعلى رأسها قريش ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل ، هي من خلق الله تعالى وتيسيره وصنعه ، كانت فارقة بين قريش وأهل مكة ، وقبائل يثرب العربية ، منها ما طبعها الله عليه من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية

والسلالية التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وفد وفدٌ من اليمن ، بقوله : « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً » وهما ترجعان في أصلها إلى اليمن ، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم ، يقول القرآن مادحاً لهم :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) .

ومنها أنها قد أنهكتها الحروب الداخلية ، وما يوم بعاث ببعيد ، وقد اكتووا بنارها ، وذاقوا مرارتها ، وعافوها ، ونشأت فيهم رغبة في اجتماع الكلمة ، وانتظام الشمل ، والتفادي من الحروب ، وذلك ما عبروا عنه بقولهم : (إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فإن يجمعهم الله بك ، فلا رجل أعز منك) ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان يوم بعاث يوماً قدمه الله تعالى لرسوله .

ومنها أن قريشاً ، وسائر العرب قد طال عهدهم بالنبوات والأنبياء ، وأصبحوا يجهلون معانيها بطول العهد ، وبحكم الأمية والإمعان في الوثنية ، والبعد عن الأمم التي تنتسب إلى الأنبياء وتحمل الكتب السماوية ـ على ما دخل فيها من التحريف والعبث ـ وذلك ما يشير إليه القرآن بقوله : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٢) .

أما الأوس والخزرج فكانوا يسمعون اليهود يتحدثون عن النبوءة والأنبياء ويتلون صحف التوراة ويفسرونها ، بل كانوا يتوعدونهم به ، ويقولون إنه سيبعث نبي في آخر الزمان ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وبذلك لم تكن بين أبناء الأوس والخزرج وسكان المدينة من العرب المشركين تلك

---

(١) الحشر : ٩ .

(٢) يس : ٦ .

(٣) البقرة : ١٩٠ .

الفجوة العميقة الواسعة من الجهل والنفور من المفاهيم الدينية والسنن الإلهية التي كانت بينها وبين أهل مكة وجيرانهم من العرب ، بل قد عرفوها وألفوها عن طريق اليهود ، وأهل الكتاب الذين كانوا يختلطون بهم بحكم البلد والجوار والصلح والحرب والمحالفات ، فلما تعرفوا برسول الله ﷺ وقد حضروا الموسم ، ودعاهم إلى الإسلام ، ارتفعت الغشاوة عن عيونهم ، وكأنهم كانوا من هذه الدعوة على ميعاد .

١٦٨ ـ * روى أحمد والطبراني عن محمودِ بنِ لبيدٍ أخِي بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ قَالَ لَمَّا قَدِمَ أَبُو الجليس أنسُ بنُ رافع مكَّةَ ومَعَهُ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ فِيهم إِيَاسُ بنُ مُعَاذٍ يَلْتَمِسُونَ الحِلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى قَوْمِهِم مِنَ الخَزْرَجِ سَمِعَ بِهِم رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَتَاهُم فَجَلَسَ إِلَيْهِم فَقَالَ لَهُمْ : « هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُم لَهُ ؟ » قالوا : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : « أَنَا رسولُ اللهِ بَعَثَنِي إلى العِبَادِ أَدْعُوهُم إِلَى أَنْ يعبدوا الله ولا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الكِتَاب » ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً : أي قَوْمِ هَذَا واللهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُم له . قَالَ : فَأَخَذَ أبو جَلِيس أَنَسُ بنُ رافعٍ حَفْنَةً مِنَ البَطْحَاء فَضَرَبَ بِهَا فِي وَجْهِ إِيَاسِ بنِ مُعَاذٍ وقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْهُم ، وانْصَرَفُوا إلى المَدِينَةِ ، فَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعاثٍ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ قَالَ : ثُمَّ لَم يَلْبَثْ إِيَاسُ بنُ مُعَاذٍ أَنْ هَلَكَ قَالَ محمودُ بنُ لَبِيدٍ فَأَخْبَرَنِي مَن حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِي عند موته أنهم لَمْ يَزَالُوا يَسْمَعُونَهُ يُهَلِّلُ اللهَ وَيُكَبِّرُهُ ويَحْمدُهُ وَيُسَبِّحُهُ حَتَّى مَاتَ ، فَمَا كَانُوا يَشُكُّونَ أَنْ قَدْ مَاتَ مُسْلِماً لَقَدْ كَانَ اسْتَشْعَرَ الإِسْلامَ في ذَلِكَ المَجْلِسِ حِينَ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا سَمِعَ .

المفروض أنْ تكون هذه الحادثة قبل خمس سنين من الهجرة لأنّ موقعة بعاث كانت كذلك على رأي ابن هشام .

١٦٩ ـ * روى البخاري عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْماً قَدَّمه

---

١٦٨ ـ أحمد في مسنده (٥ / ٤٢٧) .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٣٦) وقال : رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات .

بُعاث : بضم الباء وهو يوم كان بين الأوس والخزرج فيه قتال قبل الإسلام ، وهو اسم حصن للأوس وبعضهم يقوله بالغين المعجمة وهو تصحيف .

١٦٩ ـ البخاري (٧ / ١١٠) ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ١ ـ باب مناقب الأنصار .

الملأ : الأشراف والجماعة من الناس الذين يكونون رؤوس القوم . السروات : جمع سراة وسَراة : جمع سري ، وهو =

اللهُ لرَسُولِهِ ﷺ ، فقَدِم رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلاهم ، وقُتِلَتْ سَرَوَاتُهم ، وَجُرِحُوا ، فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ في دُخُولِهِمْ في الإسْلامِ .

١٧٠ - * روى أحمد عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول : « هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إلى قَوْمِهِ ، فَإنَّ قُرَيشاً قَدْ مَنَعُونِي أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فقَالَ : « مِمَّنْ أَنْتَ ؟ » فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْ هَمْدَانَ . قَالَ : « فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ ؟ » ، قَالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ إنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أنْ يحقره قَوْمُهُ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ : آتِيهِمْ فأخبرهم ثُمَّ آتِيكَ مِنْ عَامٍ قابل ، قال : « نعم » فانْطَلَقَ وَجَاءَ وَفْدُ الأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ .

قال ابن حجر في الفتح :

وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في (الدلائل) بإسناد حسن عن ابن عباس : حدثني علي بن أبي طالب قال : لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى ، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، وتقدم أبو بكر وكان نسابة فقال : من القوم ؟ فقالوا : من ربيعة . فقال : من أي ربيعة أنتم ؟ قالوا : من ذهل - فذكروا حديثاً طويلاً في مراجعتهم وتوقفهم أخيراً عن الإجابة - قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، وهم الذين سماهم رسول الله ﷺ الأنصار لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره ، قال : فما نهضوا حتى بايعوا رسول الله ﷺ انتهى . وذكر ابن إسحاق أن أهل العقبة الأولى كانوا ستة نفر وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة النجاري ، ورافع بن مالك بن العجلان العجلاني ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وجابر بن عبد الله ابن رئاب ، وعقبة بن عامر - وهؤلاء الثلاثة من بني سَلِمة - وعوف بن الحارث بن رفاعة من بني مالك بن النجار . وقال موسى بن عقبة عن الزهري وأبو الأسود عن عروة : هم أسعد بن زرارة ورافع بن مالك ومعاذ بن عفراء ويزيد بن ثعلبة وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة ، ويقال : كان فيهم عبادة بن الصامت وذكوان . قال ابن إسحاق :

= الشريف الكبير من الناس ، وسراة جمعٌ عزيزٌ ، قال الجوهري : لا يعرف غيره ، وهو أن يجمع فعيل على فعلة .

١٧٠ - أحمد في مسنده (٣ / ٣٩٠) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٣٥) وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات .

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قال : لما رآهم النبي ﷺ قال : من أنتم ؟ قالوا : من الخزرج . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : نعم . فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله لهم أن اليهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب ، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا : إن نبياً سيبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه ، فنقتلكم معه ، فلما كلمهم النبي ﷺ عرفوا النعت ، فقال بعضهم لبعض : لا تسبقنا إليه اليهود . فآمنوا وصدقوا ، وانصرفوا إلى بلادهم ليدعوا قومهم ، فلما أخبروهم لم يبق دور من قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان الموسم وافاه منهم اثنا عشر رجلاً .

١٧١ - * روى الطبراني عن ابن إسحق قال : فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِظْهَارَ دِينِهِ وإِعْزَازَ نبيِّهِ ﷺ وإِنْجَازَ وَعْدِهِ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في المَوْسِمِ الذِي لَقِيَه فيهِ النَّفَرُ مِنَ الأَنْصَارِ وَهُم فِيمَا يَزْعُمُونَ سِتَّةٌ فِيهِم جَابِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ رِئَابٍ ..

١٧٢ - * روى الطبراني عن عُرْوَةَ قال : لَمَّا حَضَرَ المَوسِمُ حَجَّ نَفَرٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْ بَنِي مَازِنِ بنِ النَّجارِ منهم مُعَاذُ بنُ عَفْرَاءَ وأَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ ، ومن بَنِي زُرَيْقٍ رَافِعُ بنُ مَالِكٍ وذكوانُ بنُ عَبْدِ القَيْسِ ، وَمِنْ بني عَبْدِ الأَشْهَلِ أَبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ ، ومِنْ بَنِي عمرو بن عَوْفٍ عُوَيْمُ بنُ ساعِدَةَ ، وأَتاهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَخْبَرَهُمْ خبرهم الذي اصْطَفَاهُ اللهُ بِهِ مِنْ نُبُوَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِم القُرْآنَ ، فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ أَنْصَتُوا واطْمَأَنَّتْ أَنْفُسُهُمْ إلى دَعْوَتِهِ وَعَرَفُوا مَا كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ بِصِفَتِهِ وَمَا يَدْعُوهُم إِلَيْهِ ، فَصَدَّقُوهُ ، وآمَنُوا بِهِ ، وَكَانُوا مِنْ أَسْبَابِ الخَيْرِ ، ثُمَّ قَالُوا لَهُ قَدْ عَلِمْتَ الذِي بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ مِنْ الدِّمَاءِ ونَحْنُ نُحِبُّ مَا أَرْشَدَ اللهُ بِهِ أَمْرَك ، ونَحْنُ للهِ ولكَ مُجتهدُونَ ، وإِنَّا نُشِيرُ عَلَيْكَ بِمَا تَرَى فَامْكُثْ عَلَى اسْمِ اللهِ حتَّى نرْجِعَ إلى قَوْمِنَا فنخْبِرَهُم بشأْنِكَ ونَدعُوهُم إلى اللهِ ورسُولِه ، فلعَلَّ اللهَ يُصْلِحُ بَيْنَنَا وَيَجْمَعُ أَمْرَنَا فَإِنَّا اليَوْمَ مُتَبَاعِدُونَ مُتَبَاغِضُونَ ، فَإِنْ تَقَدَّمَ عَلَيْنَا اليَوْمَ وَلَمْ نَصْطَلِحْ لَمْ يَكُنْ لَنَا جَمَاعَةٌ عَلَيْكَ ، وَنَحْنُ نُوَاعِدُكَ المَوْسِمَ مِن العَام

١٧١ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٢) · رواه الطبراني ورجاله ثقات

١٧٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٢) : رواه الطبراني مرسلاً : وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسنُ الحديث ، وبقية رجاله ثقات . أقول : وإنما يحسن حديث ابن لهيعة إذا وافق المشهور ، وهو ههنا كذلك .

القَابِل فَرَضِي رَسُولُ الله ﷺ الذي قَالُوا ، فَرَجَعُوا إلى قَوْمِهِم يَـدْعُونَهم سِرّاً وأَخْبَروهُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ والذي بَعَثَهُ الله بِـهِ ودعـا عليـه بـالقرآن حتى قَـلَّ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَـارِ إلا أَسْلَمَ فِيهَا نَـاسٌ لاَ مَحَـالَـةَ ، ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِ ابْعَثْ إِلَيْنَـا رَجُلاً مِنْ اقِبلِـكَ يَـدْعُو النَاسَ بِكِتَابِ اللهِ ، فإِنَّه أَدْنَى أَنْ يُتَّبَعَ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مصعبَ بنَ عميرٍ أخا بني عبْـدِ الـدار ، فَنَزلَ في بَنِي غَنْمٍ عَلَى أَسْعَـدَ بن زُرَارَةَ فَجَعَلَ يَـدْعُو النَّـاسَ وَيفْشُـو الإِسْـلامُ وَيَكْثُرُ أهلُهُ وهُم في ذَلِكَ مُسْتَخْفُون بدُعَـائِهِم ، ثُمَّ إِنَّ أَسْعَـدَ بنَ زرارَةَ أَقْبَلَ هُوَ ومُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ حَتَّى أَتَيَـا بِئْرَ مَرَقٍ أَوْ قَرِيبـاً مِنْهَـا ، فَجَلَسُـوا هُنَـالِـكَ ، وَبَعَثُـوا إِلَى رَهْـطٍ مِنْ أَهْـلِ الأَرْضِ فَأَتَوهُم مُسْتَخْفِينَ ، فَبَيْنَمَـا مصعبُ بنُ عُمَيْرٍ يُحَـدِّثُهُمْ وَيَقُصُّ عَلَيْهِم القرآنَ أُخْبِرَ بِهِمْ سَعدُ بنُ مُعَاذٍ فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الرمحُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ عَلاَمَ يأْتِينا في دُورِنَا بِهٰذَا الوحيـدِ الفريدِ الطَّرِيحِ الغريبِ ، يُسَفِّهُ ضعفاءَنا بـالبَـاطِلِ وَيَـدْعُوهُم لا أراكُما بَعْـدَ هَـذَا بشيءٍ مِنْ جِوَارِنَا فَرَجَعُوا ثُمَّ إِنَّهُم عَادُوا الثَّـانِيَـةَ بِبِئْرِ مَرَقٍ أَوْ قَرِيبـاً مِنْهـا ، فـأُخْبِرَ بِهِمْ سَعْـدُ بنُ مُعَـاذٍ الثَّانِيَةَ ، فَوَاعَدَهُم بِوَعِيدٍ دُونَ الوَعِيدِ الأَوَّلِ فَلَمَّا رَأَىٰ أَسْعدُ مِنْهُ لِينًا قَالَ : يَاابنَ خَـالَـةِ اسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ فَإِنْ سَمِعْتَ مِنْهُ مُنْكَراً فارْدُدْهُ يا هٰذَا مِنـهُ ، وَإِنْ سَمِعْتَ خَيْراً فـأَجِبِ اللهَ فَقَـالَ : مَاذَا يَقُولُ فَقَرَأَ عَلَيْهِم مصعبُ بنُ عميرٍ ﴿ حمٓ والكِتَابِ المُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّـاً لعَلَّكُمْ تَعْقِلُون ﴾ [1] فَقَالَ سَعْد وَمَا أَسْمَعُ إلا مـا أَعْرِفُ فَرَجَعَ وقـد هَـدَاهُ اللهُ تَعَـالَى وَلَمْ يَظْهَرْ أَمْرَ الإِسْلامِ حَتَّى رَجَعَ إلى قَوْمِهِ ، فَدَعا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَل إلى الإِسْلامِ وَأَظْهَرَ إِسْلامَـهُ وَقَالَ فِيهِ : مَنْ شَكَّ مِن صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ أَوْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى فَلْيأْتِنَا بأهدى مِنْهُ نأْخُذْ بِـهِ فَوَاللهِ لَقَـدْ جَـاءَ أَمْرٌ لَتُحَزَّنَّ فِيهِ الرقابُ فَـأَسْلَمَتْ بَنُو عَبْـدِ الأَشْهَلِ عِنْـدَ إِسْلامِ سَعْـدٍ ، ودُعَـائِـهِ إلا مَنْ لا يُـذْكَرُ فكَانَتْ أَوَّلَ دُورٍ مِنْ دورِ الأنصَـارِ أَسْلَمَتْ بـأَسْرِهَـا ، ثُمَّ إِنَّ بَنِي النَّجَّـارِ أَخْرَجُوا مصعَبَ بنَ عميرٍ ، واشتَدُّوا على أسعدَ بنِ زرارةَ فانتقَلَ مصعبُ بنُ عميرٍ إلى سَعْدِ بنِ مُعاذٍ فَلَمْ يزلْ يَدْعُو ويَهْدِي على يَدَيْهِ حَتَّى قَلَّ دارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصارِ إلا أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ لاَ مَحَالَةَ وَأَسْلَمَ أَشْرَافُهُمْ وأَسلَمَ عمرُو بنُ الجَمُوحِ ، وكُسِرَت أَصْنَامُهُمْ ؛ فَكَـانَ المُسْلِمُون أَعَزَّ أهلِهَـا وَصَلَحَ أَمْرُهُم وَرَجَعَ مصعَبُ بنُ عميرٍ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وكَانَ يُدْعَى المقرئ .

---

(١) الزخرف : ١ ـ ٣ .

قال ابن حجر في الفتح :

وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ بعث مع الاثني عشر رجلاً مصعب بن عمير العبدري، وقيل بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليفقههم ويقرئهم ، فنزل على أسعد بن زرارة ، فروى أبو داود من طريق عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، قال : كان أبي إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة ، فسألته ، فقال : كان أول من جمع بنا بالمدينة . وللدارقطني من حديث ابن عباس : أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أن اجمع بهم . أهـ ، فأسلم خلق كثير من الأنصار على يد مصعب بن عمير بمعاونة أسعد بن زرارة حتى فشا الإسلام بالمدينة ، فكان ذلك سبب رحلتهم في السنة المقبلة ، حتى وافى منهم العقبة سبعون مسلماً وزيادة ، فبايعوا كما تقدم .

١٧٣ ـ * روى الإمام أحمد عن جَابِرٍ قَالَ : مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بمكةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِم بِعُكَاظَ ومِجَنَّةَ وفِي المَوْسِمِ بِمَنىً يَقُولُ : « مَنْ يُؤْوِينِي ، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الجَنَّةُ ؟ » حَتَّى إنَّ الرجلَ لِيَخْرُجُ مِن اليمنِ ـ أو مِنْ مُضَرَ كَذَا قَالَ ـ قَالَ : فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ احْذَرْ غُلَامَ قريْشٍ لا يَفْتِنُكَ . وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِم ، وهُمْ يُشيرُونَ إِلَيْهِ بالأصابِعِ حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ ، فَآوَيْنَاهُ ، وَصَدَّقْنَاهُ ، فيخْرُجُ الرجلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرِئُهُ القُرْآنَ ، فينْقَلِبُ إلى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإسْلامِهِ ، حَتَّى لم يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إلا وفيهَا رَهْطٌ مِنَ المُسْلِمينَ يُظْهِرُون الإسْلامَ ، ثُمَّ ائتَمَرُوا جميعاً فقُلنَا حتَّى متى نتركُ رسولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ في جِبَالِ مكَّةَ ويَخَافُ ، فَرَحَلَ إِلَيْهِ سَبْعُونَ رَجُلاً حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي المَوْسِمِ ، فَوَاعَدنَا شِعْبَ العَقَبَةِ ، فَاجْتَمعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا ، فَقُلْنَا : يَارَسُولَ اللهِ نُبَايِعُكَ : قال : « تُبَايِعُونِي على السَّمْعِ والطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ والكَسَلِ والنَّفقَةِ فِي العُسْرِ واليُسْرِ وعَلَى الأَمْرِ بالمعرُوفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ وأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لا تَخَافُون فِي اللهِ لَومَةَ لائِمٍ وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إذا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تمنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُم وأَزْوَاجَكُم وأَبْنَاءَكُمْ ، وَلَكُمْ

---

١٧٣ ـ أحمد في مسنده (٣ / ٣٢٢ ، ٣٣٩) ، البزار : في كشف الأستار (٢ / ٣٠٧) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٦) وقال : رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح .

الجَنَّةُ » قَالَ : فقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ وَأَخَذَ بيدِهِ أَسْعَدُ بنُ زرارةَ وَهُوَ أصغرُهُم فَقَال : رُوَيْدًا يا أهلَ يَثْرِبَ فإِنَّا لَمْ نضربِ أكبادَ الإِبلِ إلا ونَحنُ نَعْلَمُ أنهُ رسولُ اللهِ وأَنَّ إخْرَاجَه اليومَ مُفَارَقَةُ العربِ كافَّةً ، وقتلُ خيارِكُم وأن تعضَّكُمُ السيوفُ فإما أنتُمْ قومٌ تَصبرُونَ عَلَى ذَلِكَ وأجْرُكُم عَلَى اللهِ وَإِمَّا أنتم قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَبِيئَةً فَتَبَيَّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ قَالُوا أَمِطْ عَنَّا يا أَسْعَدُ فواللهِ لا نَدَعُ هٰذِهِ البَيْعَةَ أبَداً ولا نُسْلَبُهَا أبَداً ، فَبَايَعْنَاهُ فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ ويُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الجَنَّةَ .

١٧٤ - * روى أحمد والطبراني عن كعبِ بنِ مالِكٍ وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ العَقَبَةَ وبَايَعَ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ : خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قومِنَا منَ المشركينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا وَمَعَنَا البَرَاءُ ابنُ معرورٍ كبيرُنا وسيِّدُنا ، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ المدينَةِ ، قَالَ البَرَاءُ لَنَا يَاهؤُلاَءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ واللهِ رَأْياً وَإِنِّي واللهِ مَا أَدْرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لا ؟ قُلْنَا لَه : وَمَا ذَاكَ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لاَ أَدَعَ هٰذِهِ البَنِيَّةَ مِني بِظَهْرٍ يَعْنِي الكَعْبَةَ ، وَأَنْ أُصَلِّي إِلَيْهَا قَالَ : فَقُلْنَا وَاللهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ يُصَلِّي إلا إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيد أَنْ نُخَالِفَهُ فقالَ : إني أصلي إليها : فَقُلْنَا له : لَكِنَّا لاَ نَفْعَلُ ، فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إلى الكَعْبَةِ حَتَّى قَدِمْنَا مكَّةَ قَال : وَقَدْ عِبنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ ، وَأَبَى إلا الإِقَامَةَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ : يَاابنَ أَخِي : انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هٰذَا ، فَإِنَّه واللهِ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ خِلافِكُم إِيَّايَ . قَالَ : فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكُنَّا لا نَعْرِفُهُ لم نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَقِينَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَسَأَلْنَاه عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فقَالَ : هَلْ تَعْرِفَانِهِ قُلْنَا : لاَ فقال : هَلْ تَعْرِفَانِ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المطَّلِبِ عَمَّهُ : قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : كُنَّا نَعْرِفُ العبَّاس كَانَ لاَ يَزَالُ يَقْدُمُ علينَا تَاجِرًا ، قَالَ فَإِذَا دَخَلْتُمَا المَسْجِدَ ، فهُوَ الرجُلُ الجَالِسُ مَعَ العبَّاسِ قَالَ : فَدَخَلْنَا المسْجِدَ فَإِذَا العبَّاسُ جَالِسٌ ورَسُولُ اللهِ ﷺ معه جالِسٌ فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ النبيُّ ﷺ للعبَّاسِ « هَلْ تَعْرِفُ هٰذَيْنِ الرجُلَيْنِ يَاأَبَا الفَضْلِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ هٰذَا البَرَاءُ بنُ معرورٍ سيدُ قَوْمِهِ ، وَهٰذَا كَعْبُ بنُ مَالِكٍ قَالَ : فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رسُولِ اللهِ ﷺ « الشَّاعِرَ » . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَقَالَ

---

١٧٤ - أحمد في مسنده (٣ / ٤٦٠ ، ٤٦١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٥) : رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع .

البَرَاءُ بنُ معرورٍ يانبيَّ اللهِ إنّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هٰذَا وَهَـدانِي اللهُ للإسْلامِ، فَرَايتُ أن لا أجعل هٰذِهِ البَنِيَّةَ مِني بظهر ؛ فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذٰلِكَ حتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيءٌ فَمَاذَا تَرَى يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا » ، قَالَ : فَرَجَعَ البَرَاءُ إلى قِبْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ قَال ، وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنهُ صَلَّى إِلَى الكَعْبَةِ حتَّى مَاتَ وَلَيسَ ذٰلِكَ كَمَا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ . قَالَ : وَخَرَجْنَا إِلَى الحَجِّ فَوَاعَدَنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ العَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الحَجِّ وكانت اللَيْلَةُ التي وَعَدَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَنَا عبدُ اللهِ بنُ عمرو بن حَرَام أبو جابر سيدٌ مِنْ سَاداتِنا وكُنَّا نكْتُم مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِن المُشْرِكينَ أَمْرَنَا فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنا لَهُ يَاأَبَا جَابِرٍ إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنا وشريفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا ، وإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ أَنْ تَكُونَ حَطَباً للنَّارِ غَداً ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إلى الإسْلامِ ، وأَخْبَرْتُهُ بميعَادِ رسولِ اللهِ ﷺ فأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا العَقبَةَ وَكَانَ نقيباً ، قَالَ : فنِمْنا تلكَ الليلة مَعَ قومِنَا في رحَالنَا حتَّى إذا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِن رِحَالِنا لميعادِ رسولِ اللهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتخفينَ تَسَلُّلَ القَطَا ، حتَّى اجتمَعْنَا في الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ ونَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً ومَعَنَا امرأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِم نسيبةُ بنتُ كعبٍ أمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاء بني مازنِ بن النَّجارِ وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عمرو بن عديٍ بن ثابتٍ إِحْدَى نِسَاء بَنِي سَلَمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ فَاجْتَمَعْنَا بالشِّعْبِ ننتظرُ رسولَ اللهِ ﷺ حتَّى جاءَنا ومعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّه العبَّاسُ بنُ عَبْدِ المطَّلبِ وَهُوَ يومَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ إلا أنَّه أحَبَّ أنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابنِ أخيهِ ويتوثقَ ، فلما جَلَسْنَا كانَ العبَّاسُ بنُ عَبْدِ المطَّلِبِ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فَقَالَ يامعشرَ الخَزْرَجِ - وكَانَتْ العَرَبُ مِمَّا يُسَمونَ هٰذَا الحيَّ مِنَ الأنصارِ الخزرج أوسَها وخزرَجَها - إنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ علمتم وقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ومَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ . قَالَ : فَقُلْنَا قَدْ سَمِعْنَا ما قُلتَ فَتَكَلَّمْ يَارَسولَ اللهِ فخذْ لِنَفْسِكَ ولِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ فَتَكلَّم رسُولُ اللهِ ﷺ فَتَلا وَدَعا إلى اللهِ عَزَّ وَجلَّ وَرَغَّبَ في الإسْلامِ . قال : « أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ » ، قَالَ : فَأَخَذَ البَرَاءُ بنُ معرورٍ بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ نَعَمْ والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا فبايعْنا يارسُولَ اللهِ فَنَحْنُ واللهِ أهلُ الحروبِ وأَهْلُ الحَلَقَةِ ورِثْنَاهَا كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، قَالَ : فاعْتَرَضَ القَوْلَ والبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أبو الهيثم بنُ التَّيِّهانِ حليفُ بني عَبْدِ الأشْهَلِ فَقَالَ يارَسُولَ

اللهِ : إنّ بيننَا وبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَـالاً وإنّـا قَـاطِعُوهَـا يعني العُهُودَ فَهَلْ عسيْتَ إنْ نحنُ فَعَلْنَـا ذٰلكَ ثم أظهركَ اللهُ أنْ تَرْجِعَ إلى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا ، قَـالَ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فقَـال : « بل الدمُ الدمُ والهدمُ الهـدمُ ، أنَـا مِنْكُمْ وَأَنْتُم مِني ، أُحَـارِبُ مَنْ حَـارَبْتُمْ وأُسَـالِمُ مَنْ سالمْتُم » وقَـدْ قَـالَ رسولُ اللهِ ﷺ « أخْرِجُوا إليَّ منكم اثْنَي عَشَر نَقِيباً يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِم » فَأَخْرَجوا منهم اثني عَشَرَ نَقيباً مِنْهُم تِسْعَةٌ مِن الخزْرَجِ وثَلاثَةٌ مِن الأوْسِ .

وأمَّا معبد بنُ كعبٍ فحدَّثني في حديثِهِ عَنْ أخيهِ عَنْ أبيهِ كعبِ بنِ مالِكٍ قَـال : كَـانَ أوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ البَرَاءُ بنُ مَعْرورٍ ، ثُمَّ تَتَابَعَ القَوْمُ فَلَمَّا بَايَعْنَـا رَسُولَ اللهِ ﷺ صرخَ الشَيْطَـانُ مِنْ رَأْسِ العَقَبَةِ بِـأَبْعَـدِ صَـوْتٍ سَمِعْتُـهُ قـط يَـاأَهْـلَ الجَبَـاجِبِ - والجباجبُ المنازلُ - هَلْ لكُمْ في مُـذَمَّمٍ والصُّبَـاةِ معـهُ قَـدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ قَـالَ علـيٌّ - يعني ابنُ إسحاقٍ -: ما يَقُولُ يامُحمَّدُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « هٰـذَا أَزَبُّ العَقَبَـةِ هٰـذَا ابنُ أَذيب ، اسْمَـعْ أيْ عـدوَّ اللهِ أَمَـا واللهِ لأُفَرِّغَنَّ لَـكَ » ، ثمّ قَـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ : « ارفعُوا إلى رِحَالِكُمْ » ، قَالَ فَقَالَ لَهُ العبَّاسُ بنُ عبادَةَ بنِ نضلَـةَ : والـذِي بَعَثَـكَ بـالحَقِّ لئِنْ شِئْتَ لَنَميلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنىً غداً بأسْيَافِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَمْ أُوْمَرْ بِذٰلِكَ » ، قَالَ : فَرَجَعْنَا ، فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جِلَةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَـا في مَنَازِلِنَا فَقَالُوا : يَامَعْشَرَ الخَزْرَجِ ، إنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُم إلَى صَاحِبِنَا هٰذَا تَسْتَخْرِجُونَـهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا ، وَاللهِ إِنَّهُ مَـا مِنَ العَرَبِ أَحـدٌ أبغضَ إِلَيْنَـا أَنْ تَنْشَبَ الحرْبُ بيْنَنا وبينَهُم مِنْكُمْ ، قَالَ : فانْبَعَثَ منْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُم باللهِ مَا كَانَ مِنْ هٰذا شَيْءٌ وَمَا عَلِمْنَاهُ وَقدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مـا كَـانَ مِنَّـا قَـالَ : فَبَعْضُنَـا يَنْظُرُ إلى بَعْضٍ قَالَ : وَقَـامَ القَوْمُ وفيهم الحرثُ بنُ هشـامِ بنِ المغيرةَ ، وعَلَيْـهِ نَعْلانِ جـديـدان قَـالَ : فَقُلتُ كلمةً كأنّي أُريد أن أُشْرِكَ القَوْمَ بِهَا فِيَا قَالُوا : مَا تَسْتَطِيعُ يـاأَبا جَـابِرٍ ، وَأَنْتَ سَيِّـدٌ مِنْ سَادَاتِنَا أَنْ تَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِثْلَ نَعْلَي هٰذَا الفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ ، فَسَمِعَهَا الحرثُ فخلعَهُمَـا ، ثُمَّ رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ فَقَال : واللهِ لتنتعلَنَّهُمَـا ، قَـالَ يَقُولُ أَبُو جـابرٍ : أَحْفَظْتَ واللهِ الفَتَى فَـارْدُدْ عَلَيْهِ نَعْلَيْهِ قَالَ : فَقُلْتُ وَاللهِ لاَ أَرُدُّهُمَا فَأْلٌ : واللهِ صَالح لئِنْ صَدَقَ الفَـأْلُ لأَسْلُبَنَّـهُ . فهٰـذَا

أزب العقبة : الأزب · القصير الضخم البطن والالية - واللئيم الـداهيـة ، والمراد بـه اسم شيطـان العقبـة . أحفظت : احفظه : أغضبه . الفأل : قول أو فعل يستبشر به .

حديثُ ابنِ مَالِكٍ عَنِ العَقَبَةِ وما حَضَر مِنْها .

وقالَ الطبراني [١] في حديثه فخرجْنَا نسألُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ فَلَقِينَا رَجُلٌ بالأبطحِ فقُلْنَا لَهُ تَدُلُّنَا عَلَى محمَّدِ بنِ عبْدِ اللهِ بن عَبْدِ المطَّلِبِ ؟ قَالَ : فَهَلْ تعرفَانِهِ إذَا رَأَيْتُمَاهُ ؟، وقَالَ أيْضاً وتكَلَّم رسولُ اللهِ ﷺ وتَلا القرْآنَ وَرَغَّبَ فِي الإسْلامِ فأجَبْنَاهُ بالإيمَانِ بِهِ والتَّصْدِيقِ بِهِ ، وقَالَ أيْضاً : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَخْرِجُوا مِنْكُم اثْنَي عشَرَ نقيباً » فأخْرَجَهُم فكَانَ نقيبَ بني النجَّارِ أسعدُ بنُ زرارَةَ ، وكان نقيبَ بَنِي سَلَمَةَ البراءُ بنُ معرورٍ وعبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ حَرَامٍ وكانَ نقيبَ بَنِي سَاعِدَة سعدُ بنُ عبادةَ والمنذرُ ابنُ عَمرو ، وكَانَ نقيبَ بَنِي زُرَيْقٍ رافعُ بن مَالِكِ بنِ العجْلانِ ، وَكَانَ نَقِيبَ بَنِي الحَارثِ بنِ الخَزْرَجِ عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ ، وسعدُ بنُ الربيعِ ، وَكَانَ نَقِيبَ بَنِي عَوْفِ ابن الخَزْرَجِ عبادَةُ بنُ الصَّامِتِ ونقيبَ بَنِي عَبْدِ الأشْهَلِ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ وأبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ وكانَ نَقِيبَ بَنِي عَمرو بنِ عَوْفٍ سعْدُ بنُ خَيْثَمَةَ .

١٧٥ ـ * روى أحمدُ عن الشعبي قَالَ : انطَلَقَ النبيُّ ﷺ وَمَعَهُ العباسُ عمُّه إلى السبعينَ مِنَ الأنْصَارِ عِنْدَ العَقَبَةِ تحتَ الشَجرة فَقَالَ لِيَتَكَلم مُتَكَلِّمُكُم ولا يُطيل الخُطْبَةَ فَإن عَلَيْكُم مِنَ المُشْرِكِينَ عَيْناً وإن يَعْلَمُوا بكُم يفضحُوكُم ، فَقَالَ قَائِلُهُم وهُوَ أبُو أُمامَةَ : سَلْ يامُحمَّدُ لِربِّكَ ما شِئْتَ ثمَّ سَلْ لِنَفْسِكَ ولأصْحَابِكَ مَا شِئْتَ ، ثمَّ أخْبِرْنَا مَالَنَا مِنَ الثَّوَابِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَيْكُمْ إذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَقَالَ : « أسْأَلُكُمْ لِرَبِي عزَّ وجلَّ أن تعبدُوه ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وأسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي ولأصْحَابِي أنْ تُؤوونَا وتَنْصُرونَا ونَمْنَعُونَا ممَّا مَنَعْتُم مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ » قَالُوا : فمَا لَنَا إذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ؟، قَالَ : « لَكُمُ الجنَّة » قَالُوا : فلَكَ ذَلِكَ.

١٧٦ ـ * روى أبو يعلى عن أنسٍ بنِ ثابتِ بن قيسٍ أنه خَطَبَ مقدِمَ النبيِّ ﷺ فَقَالَ : إنَّا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَوْلادَنَا ، فَمَا لَنَا يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « لَكُمُ الجَنَّةُ » قَالُوا رَضِينَا .

---

(١) الطبراني (١٩ / ٨٨) .

١٧٥ ـ أحمد في مسنده (٤ / ١١٩ ، ١٢٠) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٨) وقال : رواه أحمد مرسلاً ورجاله رجال الصحيح .

١٧٦ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٨) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

١٧٧ - * روى أبـو يعلى والبزار عن جـابِرِ بنِ عَبْـدِ اللهِ ، قَـالَ : لَمَّـا لَقِيَ النبيُّ ﷺ النُّقَبَاءَ مِنَ الأَنْصَـارِ قَـالَ لَهُمْ : « تُؤْوونِي وَتَمْنَعُونِي » ، قـالوا فَمَـا لَنَـا ؟ قَـالَ : « لَكُمُ الجَنَّةُ » .

ونلاحظ أن الخطاب الذي وجّه للنقباء هو نفسه الذي خوطب به الجميع ، مما يشير إلى ضرورة التأكيد على الخاصة بما تطالب به العامة .

١٧٨ - * روى البخـاري عن جـابِرِ بنِ عبـدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قـال : شَهِـدَ بِي خَـالايَ العَقَبَةَ قَالَ ابن عُيَيْنَةَ : أحدُهُما : البَرَاءُ بنُ معرورٍ .

وفي رواية قال : أنا وأبي وخَالايَ مِنْ أَصْحَابِ العَقَبَةِ .

١٧٩ - * روى الطبراني عن جابر بن عَبْدِ اللهِ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَـةِ قَالَ جَابِر : وأَخْرَجَنِي خَالايَ وَأَنَا لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْمِي بِحَجَرٍ .

أقول : في هذا الحديث إشارة إلى جواز إشراك الصبيان في العمل الإسلامي بل حتى فيا يعتبر من الأسرار ، ولكن هذا منوط بتربية الطفل ، وضمانة أقاربه ، وحياطتهم له .

١٨٠ - * روى الطبراني عن جـابِرِ بنِ عبـدِ اللهِ قَـالَ : حَمَلَنِي خَـالِي جـدُّ بن قيسٍ في السَّبْعِينَ رَاكِبـاً الـذِينَ وَفَـدُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قِبَـلِ الأَنْصَـارِ لَيْلَـةَ العقبَـةِ ، فخَرَجَ عَلَيْنَـا رَسُـولُ اللهِ ﷺ ومَعَـهُ عَمُّـهُ العبـاسُ بنُ عبـد المُطلبِ فَقَـالَ : « يَـا عَمّ خُـذْ عَلَى أخوالِكَ » فَقَالَ له السَّبْعُونَ يـا محمـدُ سَلْ لِرَبِّـكَ ولِنَفْسِـكَ مـا شِئْتَ فَقَـالَ : « أَمَّـا الـذي أَسـأَلُكُمْ لِرَبِّي فتَعْبُـدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُـوا بِـهِ شَيْئًـا وأَمَّـا الـذِي أَسْـأَلُكُمْ لِنَفْسِي مِنْـهُ فتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ » قَالُوا : فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَالِكَ قَالَ : « الجَنَّةُ » .

---

١٧٧ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٨) . وقال : رواه أبو يعلى والبزار بنحوه ورجال أبي يعلى رجال الصحيح .

١٧٨ - البخاري (٧ / ٢١٩) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٣ - باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ وبيعة العقبة .
البراء بن معرور : من أقارب أم جابر ، وأقارب الأم يسمون أخوالاً مجازاً .

١٧٩ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٩) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

١٨٠ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٩) : رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله ثقات .

١٨١ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٥٠) : رواها كلها الطبراني ، وإسنادها إلى ابن شهاب واحد ، ورجاله ثقات .

١٨١ - * روى الطبراني عن ابنِ شهابٍ في تسميةِ مَنْ حَضَرَ العقبَةَ مِنَ الأَنْصَارِ ثمَّ مِنْ بني النجّارِ : أوسُ بنُ ثابتٍ وأوسُ بن يزيدَ بنِ أَصْرمَ وأبُو أمامَةَ أسعدُ بنُ زرارَةَ ، ومن الأنصارِ ثمَّ مِنْ بني سَلَمةَ البَرَاءُ بنُ معرورٍ وهوَ أوَّلُ مَنْ أوْصَى بثُلُث مَالِهِ واسْتَقْبَلَ الكَعْبَةَ وَهُوَ ببِلادِهِ وكَانَ نَقِيبًا ، وَمِنَ الأَنْصَارِ ثمَّ مِنْ بَنِي الحارثِ بنِ الخزرَجِ بشيرُ بنُ سعدِ بنِ النعمانِ، ومِنَ الأَنْصَارِ جَابِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرو وجبَّارُ بنُ صَخْرٍ ، ومِنَ الأَنْصَارِ ثمَّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ الحارثُ بنُ قَيْسِ بنِ مَالِكٍ وقَدْ شَهِدَ بَدْراً وذكوانُ بنُ عبْدِ القيْسِ بنِ خلدةَ ، ورافعُ بنُ مالِكٍ وَقَدْ شَهِدَ بَدْراً ، ومِنَ الأَنْصَارِ ثمَّ مِنْ بَنِي الجبلي رِفَاعةُ بنُ عمرو ، وَمِنَ الأَنْصَارِ ثمَّ مِنْ بني ساعِدَةَ بنِ كعْبٍ سعدُ بنُ عُبَادَةَ وهو نَقِيبٌ ، وَمِنَ الأَنْصَارِ ثمَّ مِنْ بَنِي عمرو بنِ عَوْفٍ سعدُ بنُ خَيْثَمةَ وهوَ نقيبٌ ، ومِنَ الأَنْصَارِ ثمَّ مِنْ بني عبْدِ الأشهَلِ سَلَمَةُ بنُ سَلامَةَ بنِ وَقْشٍ ، ومنَ الأنصارِ ثمَّ مِنْ بني حارِثَةَ بنِ الحَرثِ ظهيرُ بنُ رافِعٍ ، وَمِنْ الأنصَارِ ثمَّ مِنْ بَنِي حَارِثَة أبو بُرْدَةَ بنُ نِيَارٍ ..

١٨٢ - * روى الحاكم عن سلمةَ بن سَلامَةَ بن وَقْش ، قَالَ : كَانَ لنا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عبْدِ الأشْهَلِ قَالَ : فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْماً مِنْ بَيْتِهِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الأشْهَلِ قَالَ سَلَمَةُ وَأَنَا يومَئِذٍ حَدَثٌ عَلَيَّ بُرْدَةٌ لي ، مُضْطَجِعٌ فِيهَا بفِنَاءِ أهْلِي ، فَذَكَرَ القِيَامَةَ وَالبَعْثَ والحِسَابَ والميزَانَ والجَنَّةَ والنَّارَ قَالَ : فَقَالَ ذَلِكَ فِي أهْلِ يَثْرِبَ ، والقَوْمُ أصْحَابُ أوْثَانٍ لا يَرَوْنَ بَعْثاً كَائِناً عِنْدَ المَوْتِ ، فَقَالُوا لَهُ : وَيْحَكَ أَتَرَى هَذَا كَائِناً يَافُلانُ أنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلى جَنَّةٍ وَنَارٍ ويُجْزَوْنَ فِيهَا بأعْمَالِهِمْ قَالَ : نَعَمْ والَّذِي يَحْلِفُ بِهِ ، قَالُوا يافُلانُ وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ البِلادِ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلَى مَكَّةَ . قَالُوا : وَمَتَى نَرَاهُ ؟ قَالَ : فَنَظَرَ إلَيَّ وَأَنَا أصْغَرُهُمْ سِناً فقَالَ : إنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الغُلامُ عُمْرَهُ يُدْرِكْهُ قَالَ سَلَمَةُ ، فَوَاللهِ مَا ذَهبَ الليْلُ والنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللهُ تَبَارك وَتَعَالى رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أظْهُرِنَا ، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بَغْياً وَحَسَداً ، فَقُلْنَا لَهُ وَيْحَكَ يافُلانُ ألَسْتَ الذي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ ؟ قَالَ : بَلَى وَلَكِنَّهُ لَيْسَ به .

* * *

---

١٨٢ - الحاكم (٣ / ٤١٧) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

فصل : في الهجرة إلى المدينة المنورة

مقدمة :

١ ـ كانت الهجرة هي الدرس الأخير في المرحلة المكية ، وهي التصفية النهائية لأنفس الرعيل الأول ، لقد طولب الرعيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ بالتوحيد والعبادة ففعلوا ، وسلط عليهم الإيذاء ، وأمروا بالصبر وكفّ اليد ، والاستسلام لأمر الله ففعلوا ، وحب الوطن أصيل في النفس فطولبوا بالهجرة فهاجروا ، ثم قاتلوا مع الأنصار أهليهم وقبيلتهم فوجد بذلك كله جيل لم يعرف العالم له مثيلاً بالتجرّد من أهواء النفوس وعصيانها .

٢ ـ والهجرة بالنسبة للدعوة الإسلامية هي أعظم الأحداث الدعوية والحركية ، لأن بها قامت دولة الإسلام ووجدت قاعدته التي حملت هذه الدعوة ابتداء وقدّمتها للعالم انتهاء ، ولذلك أرّخ المسلمون بالهجرة .

٣ ـ وقد أقبل المسلمون على الكتابة في الهجرة واستخراج دروسها وعبرها وخاصة في عصرنا فمن سابق ومن مقتصد ، واستخرج بعضهم تعميمات تحتاج إلى تخصيص ، وأراد بعضهم أن يستخرج نظرية محددة يقيد بها الحركة الإسلامية باعتماده فكرة الهجرة إلى جهة ما وهذا كله يحتاج إلى شيء من الإيضاح ، وستأتي الإيضاحات شيئاً فشيئاً ، وقد اخترنا أن ننقل لك في هذه المقدمة ثلاثة نقول تفتح لك آفاقاً في الهجرة بين يدي الروايات :

قال الشيخ الغزالي :

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناءٍ ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة .

إنها إكراه رجل آمن في سربه ، ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه ، وتضحية أمواله والنجاة بشخصه ، وإشعاره ـ وهو يصفي مركزه ـ بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدري ما يتمخض

عنه من قلاقل وأحزان ، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل : مغامر طياش ، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها ، يحمل أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضيّ الضمير ، وضاء الوجه ؟!

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بمن ؟ بالله الذي له ما في السماوات والأرض ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن ، أما الهيّاب الخوّار القلق ، فما يستطيع شيئاً من ذلك ، إنه من أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُم ..** ﴾ [١] .

أما الرجال الذين التقوا بمحمد ﷺ في مكة ، وقبسوا منه أنوار الهدى ، وتواصوا بالحق والصبر . فإنهم نفروا ـ خفافاً ـ ساعة قيل لهم : هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله .

* * *

الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام :

وقال الأستاذ البوطي :

يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان شرعيان :

١ ـ وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، روى القرطبي عن ابن العربي : (أن هذه الهجرة كانت فرضاً في أيام النبي ﷺ ، وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة . والتي انقطعت بالفتح ، إنما هي القصد إلى النبي ﷺ ، فإن بقي في دار الحرب عصى) . ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان ، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة .

---

(١) النساء : ٦٦ .

ومما يستدل به على ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِم قَالُوا فِيمَ كُنْتُم قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَت مَصِيراً * إلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَان لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

٢ ـ وجوب نصرة المسلمين لبعضهم ، مهما اختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكناً . فقد اتفق العلماء والأئمة على ان المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين ، في أي جهة من جهات الأرض ، ثم لم يفعلوا ذلك ، فقد باءوا بإثم كبير .

يقول أبو بكر بن العربي : إذا كان في المسلمين أسراء أو مستضعفون فإن الولاية معهم قائمة ، والنصرة لهم واجبة بالبدن ، بأن لا تبقى منا عين تطرف ، حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم ، حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك ، أهـ .

أقول : ليست الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام واجبة في كل حال ، وإن اشتهر من مذهب الحنفية ذلك كما اشتهر في مذهبهم وجوب الهجرة من دار البدعة إلى دار السنّة فالأمر فيه تفصيل .

فإذا كنت في دار كفر لكنّك حر آمن تستطيع أن تعبد الله وتدعو إليه ولا تخشى على نفسك وأهلك وذريّتك الفتنة ، ولم يطلب منك أمير المؤمنين الشرعي الهجرة إلى دار الإسلام ، فمقامك حيث أنت أجود وأطيب وأكثر أجراً ، بل اعتبر الشافعية أنه يندب لك البقاء لأنه ببقائك يصبح جزء من دار الكفر دار إسلام .

أما حيث يخاف المسلم الفتنة على نفسه وأهله أو ذريته فعندئذ تجب عليه الهجرة إن كان قادراً عليها ووجدت الجهة التي تستقبله ولا يخشى فيها الفتنة على نفسه وأهله وذريته ، وفي عصرنا تجد الأمر في غاية التعقيد ، فليس الخروج من بلد إلى بلد سهلاً ، واحتمال الفتنة قائم

---

(١) النساء : ٩٧ ، ٩٨ .

في كثير من البلدان ، ولذلك فإنني أرى أن حكم الهجرة الآن منوط بالفتوى البصيرة من أهلها ، ولا ينبغي أن يكون هناك تسرع فيه .

قال ابن حجر في الفتح بمناسبة تعليل عائشة رضي الله عنها للهجرة بقولها الذي ورد في صحيح البخاري :

(كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه .. إلخ) أشارت عائشة إلى بيان مشروعية الهجرة وأن سببها خوف الفتنة ، والحكم يدور مع علته ، فمقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت ، ومن ثَمّ قال الماوردي : إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام ، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام .

وقال الخطابي : كانت الهجرة أي إلى النبي ﷺ في أول الإسلام مطلوبة ، ثم افترضت لما هاجر إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين ، وقد أكد الله ذلك في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِن وِلايَتِهِم مِن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ [1] فلما فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل سقطت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب . وقال البغوي في (شرح السنّة) : يحتمل الجمع بينهما بطريق أخرى بقوله : « لا هجرة بعد الفتح » أي من مكة إلى المدينة ، وقوله (لا تنقطع) أي من دار الكفر في حق من أسلم إلى دار الإسلام ، قال : ويحتمل وجهاً آخر وهو أن قوله لا هجرة أي : إلى النبي ﷺ حيث كان بنية عدم الرجوع إلى الوطن المهاجر منه إلا بإذن ، وقوله : (لا تنقطع) أي : هجرة من هاجر على غير هذا الوصف من الأعراب ونحوهم . قلت : الذي يظهر أن المراد بالشق الأول وهو المنفي ما ذكره في الاحتمال الأخير ، وبالشق الآخر المثبت ما ذكره في الاحتمال الذي قبله ، وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلي بلفظ (انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار) أي : ما دام في الدنيا دار كفر ،

(١) الأنفال : ٧٢ .

فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أن يفتن عن دينه ، ومفهومه : أنه لو قدر أن لا يبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها والله أعلم أ.هـ .

لماذا اختيرت المدينة :

ولْنُرَصِّعْ جيدَ هذه المقدمة بذكر الحِكَم التي اختيرت من أجلها المدينة داراً لهجرة رسول الله ﷺ ننقلها عن الشيخ أبي الحسن الندوي في كتابه (السيرة النبوية) :

وكان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة ، داراً للهجرة ، ومركزاً للدعوة ، هذا عدا ما أراده الله من إكرام أهلها ، أسرار لا يعلمها إلا الله ، أنها امتازت بتحصن طبيعي حربي ، لا تزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة ، فكانت حرة الوبرة ، مطبقة على المدينة من الناحية الغربية ، وحرة واقم ، مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية ، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة ، هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب) وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة ، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري ، وترتيب الصفوف .

وكانت خفارات عسكرية صغيرة ، كافية بإفساد النظام العسكري ومنعه من التقدم ، يقول ابن إسحاق : (كان أحد جانبي المدينة عورة ، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل ، لا يتمكن العدو منها) .

ولعل النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة : « إني رأيت دار هجرتكم ، ذات نخيل بين لابتين وهما الحرتان » فهاجر من هاجر قبل المدينة .

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكيمة ، ألفوا الحرية ، ولم يخضعوا لأحد ، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة أو جباية ، وقد جاء ذلك صريحاً في الكلمة التي قالها سعد بن معاذ - سيد الأوس - لرسول الله ﷺ : قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا

يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً .

يقول ابن خلدون : ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا اليهود على يثرب ، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك ، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر .

وجاء في (العقد الفريد) : ومن الأزد الأنصار ، وهم الأوس والخزرج وهما ابنا حارثة ابن عمرو بن عامر ، وهم أعز الناس أنفسًا وأشرفهم هما ، ولم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك .

وكان بنو عدي بن النجار أخواله ، فأم عبد المطلب بن هاشم إحدى نسائهم ، فقد تزوج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار ، وولدت لهاشم عبد المطلب ، وتركه هاشم عندها ، حتى صار غلاماً دون المراهقة ، فذهب إليه عمه المطلب ، فجاء به إلى مكة ، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية ، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة .

وكان الأوس والخزرج من قحطان ، والمهاجرون ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان ، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقام الأنصار بنصره ، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسد واحد ، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهلية ، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم ، لإثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية باسم الحمية القحطانية أو العدنانية .

فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه واتخاذهم لها داراً وقراراً ، حتى يقوى الإسلام ، ويشق طريقه إلى الأمام ، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن . اهـ .

١٨٣ - * روى الحاكِمُ عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قَالَ : مَكَثَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وآله وسلمَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سِنِينَ نبياً ، فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ : ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ﴾[1] بِفَتْحِ المِيمِ ، فَهَاجَرَ .

---

١٨٣ - المستدرك (٢ / ٢٤٣) وقال : هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(١) الإسراء : ٨٠ .

١٨٤ ـ * روى الحاكمُ عن جرير أنّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « إن اللهَ عزَّ وَجَلَّ أوْحَى إليَّ أيَّ هٰؤلاء البِلادِ الثَّلاثِ نَزَلْتَ فَهِيَ دَارُ هِجْرَتِكَ المَدِينَةُ أو البَحْرَيْنِ أوْ قِنَّسْرِين » .

١٨٥ ـ * روى الحاكمُ عن عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قالَتْ : قَالَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم للمُسْلِمينَ : « قَدْ أُريتُ دارَ هِجْرَتِكُمْ أُرِيتُ سَبخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ » وَهُمَا الحرَّتَانِ .

١٨٦ ـ * روى البخاري عن أبي مُوسَى الأَشْعَرِيّ رضِيَ اللهُ عَنهُ أنّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « رأيتُ في المَنَامِ أنّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إلى أرْضٍ بهَا نَخْلٌ ، فَذَهَبَ وَهْلِي إلَى أنها اليَمَامَةُ ، أو هَجَرُ ، فإذَا هِيَ المَدِينةُ يَثْرِبُ ، وَرَأَيْتُ في رُؤْيايَ هٰذِهِ : أني هَزَزْتُ سَيْفاً ، فانْقَطَعَ صَدْرُهُ ، فإذا هُوَ مَا أُصِيبَ بِهِ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى ، فعَادَ أحْسَنَ ما كَانَ ، فَإذَا هُوَ مَا جَاءَ اللهُ بِهِ مِنَ الفَتْحِ ، واجْتِمَاعِ المُؤْمِنِينَ ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بقراً والله خَيْرٌ ، فَإذَا هُمْ المُؤْمِنونَ يَوْمَ أحدٍ ، وَإذَا مَا جَاءَ اللهُ بِهِ مِنَ الخَيْرِ وَثَوَاب الصدْقِ الذِي آتَانَا اللهُ بعدَ يَوْمِ بدرٍ » .

إلا أنَّ عِنْدَ البُخَارِي عَنْ أبِي مُوسَى : أُرَاه عن النبيِّ ﷺ ـ بالشك .

وعند مسلم : عنهُ عَنِ النبيِّ ﷺ بغيْرِ شَكٍّ .

---

١٨٤ ـ المستدرك (٣ / ٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

البحرين : هي المنطقة الشرقية من السعودية اليوم بالإضافة إلى الكويت وقطر . قنسرين : بلد بالشام قريب من حلب .

١٨٥ ـ المستدرك : (٣ / ٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

سبخة : أرض ذات ملح ، لاتكاد تنبت . اللابة : الحرّة ، والحرّة : الأرض ذات الحجارة السود .

١٨٦ ـ البخاري (٦ / ٦٢٧) ٦١ ـ كتاب المناقب ـ ٢٥ ـ باب : علامات النبوة في الإسلام .

ومسلم (٤ / ١٧٧٩) ٤٢ ـ كتاب الرؤيا ـ ٤ ـ باب رؤيا النبي ﷺ .

أهاجر : الهجرة عند العرب : خروج البدوي من البادية إلى المدن ، ليقيم بها ، يقال : هاجرت إلى مدينة كذا ، أي قصدتها للإقامة فيها ، والهجرة في الباب الانتقال إلى المدينة . وَهْلي : يقال : وَهَلَ إلى الشيء بالفتح : يَهِلُ ، وَيوهِل : بالكسر ، وهلا بالسكون : إذا ذهب وهمه إليه . والله خير : قال النووي ١٥ / ٣٢ : قال القاضي : قال أكثر شراح أي صنع الله بالمقتولين خير لهم من بقائهم في الدنيا ؛ ثم قال والأولى قول من قال : =

١٨٧ - * روى الحاكمُ عن قتادةَ : قَوْلَـهُ تَعَـالَى : ﴿ وَقُـل رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَـلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ فَأَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ مُخْرَجَ صِدْقٍ ، وَأَدْخَلَهُ المدينَـةَ مُدْخَلَ صِدْقٍ ، قَالَ ونبيُّ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لا طَاقَةَ لَـهُ بِهٰذَا الأَمْرِ إلا بِسُلْطَانٍ فَسَأَلَ سُلْطَاناً نَصِيراً لِكِتَابِ اللهِ وَحُدُودِ اللهِ وَلِفَرَائِضِ اللهِ ولإقامَـةِ كِتَـابِ اللهِ وإنَّ السُّلْطَانَ عِزَّةٌ مِنَ اللهِ جَعَلَـهُ بَيْنَ أَظْهُرِ عِبَـادِهِ ، وَلَوْلاَ ذٰلِـكَ لأَغَـارَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ وَأَكَلَ شَدِيدُهُم ضَعِيفَهُمْ .

أقول : في كلام قتادة هـذا إشـارة إلى ضرورة وجود السلطـان السيـاسي للإسلام ، وأنـه لابد من تلاحم السلطان مع القرآن ليقوم الإسلام .

قدوم المهاجرين إلى المدينة :

١٨٨ - * روى الطبرانيُّ عَن البَرَاء قالَ : كانَ أَوَّلَ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَـا مِن المُهَـاجِرينَ مُصْعبُ ابنُ عُميرٍ أخُو بني عبدِ الدَّارِ بن قُصَيٍّ فقلتُ له : ما فعلَ رسولُ اللهِ ﷺ ؟ قالَ : هوَ مكانَـه وأصحابُهُ على أَثَري .

أقول : جاء مصعب إلى المدينـة عقب العقبـة الأولى ثم عـاد ليقـدم تقريره مع أصحـاب العقبة الثانية ، والنص ههنا يشير إلى عودته إلى المدينة بعد ذلك .

١٨٩ - * روى البخاري عن البَرَاء بنِ عَازِب رضيَ اللهُ عَنْهُ قَـالَ : أَوَّلُ مَن قَـدِمَ عَلَيْنَـا مِنْ أصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : مُصعَبُ بنُ عُمَيْرٍ ، وابنُ أُمِّ مَكتومٍ ، فَجَعَلاَ يُقْرِئَانِنَـا القُرْآنَ ، ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ وبلالٌ وَسَعْدٌ ، ثم جَاءَ عُمَرُ بن الخطَّابِ في عِشْرِين ، ثُمَّ جَاء النبيُّ ﷺ ، فَمَـا رَأَيْتُ أَهْـلَ المـدِينَـةِ فَرِحُـوا بشيءٍ فرَحَهُم بِـهِ ، حَتَّى رَأَيْتُ الـوَلائِـدَ والصِّبْيَـانَ يَقُـولُـونَ : هٰذَا رَسُولُ اللهِ قَـدْ جَـاءَ ، فَمَـا جَـاءَ حَتَّى قَرَأْتُ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [1] في سُـوَرٍ مِثْلِها .

= والله خير من جلة الرؤيا وكلمة ألقيت إليه وسمعها في الرؤيا : اهـ .

١٨٧ - الحاكم (٢ / ٣) وسكت عنه الذهبي .

١٨٨ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٦٠) وقال : رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح .

١٨٩ - البخاري (٨ / ٦٩٩) - ٦٥ - كتاب التفسير - ٨٧ - سورة سبح اسم ربك الأعلى .

(١) الأعلى : ١ .

١٩٠ ـ * روى البزارُ عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ قَالَ : لَمَا اجْتَمَعْنَا لِلْهِجْرَةِ اتَّعَدْتُ أنَا وعيَّاشُ ابنُ أبي ربيعةَ وهشامُ بنُ العَاصِ المَيْضَأَةَ مَيْضَأَةَ بَنِي غِفَار فوقَ شَرَفٍ وَقُلْنَـا : أيكُم لَم يُصْبِحْ عِنْدَها فَقَدِ احْتُبِسَ فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ فَحُبِسَ عَنَّا هِشَامُ بنُ العاصِ فَلَمَّا قَدِمْنَـا المَـدِينَةَ نَزَلْنَـا فِي بَنِي عَمْرِو بنِ عَـوْفٍ وَخَرَجَ أَبُـو جَهْـلِ بنُ هِشَـامٍ وَالحَـارِثُ بن هِشَـامٍ إلى عيَـاشِ بنِ أبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ ابنَ عَمِّهِمَا وَأَخَاهُمَا لأُمِّهِمَا حَتَّى قَدِمَا عَلَيْنَا المدِينَةَ ، فَكَلَّمَاهُ فَقَالا لَـهُ : إنَّ أُمَّكَ نَذَرَتْ أن لا يَمَسَّ رَأْسَهَا مِشْـطٌ حَتَّى تَرَاكَ فَرقَّ لَهَـا ، فَقُلْتُ لـه : يَـاعَيَّـاشُ واللهِ إن يُرِيدُكَ القَوْمُ إلا عَنْ دِينِكَ فَـاحْـذَرْهُم ، فَواللهِ لَو قَـدْ آذَى أُمَّـكَ القَمْلُ لامْتَشَطَتْ وَلَوْ قَـدِ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ أحسبُهُ قَالَ لامتَشَطَتْ ، قَالَ : إنَّ لي هُنَاكَ مَـالاً فَـآخُـذُهُ قَـالَ قلتُ : واللهِ إنَّكَ لتعْلَمُ أنِّي مِنْ أكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالاً ، فلَكَ نِصفُ مَالِي ، ولا تَذْهَبْ مَعَهُمَا . فـأَبَى إلا يَخْرُجَ مَعَهُمَا ، فقُلتُ لَهُ لَمَّا أَبَى عَلَيَّ : أمَّا إذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ فَخُذْ ناقـةَ هـٰذِهِ فـإنَّها نَـاقَـةٌ ذَلُولٌ ، فَالْزَمْ ظَهْرَهَا فَإنْ رَابَـكَ مِنَ القَوْمِ رَيْبٌ فَـانجُ عَلَيْهَـا فَخَرجَ مَعَهُمَـا عَلَيْهـا حَتَّى إذا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ أبُو جَهلِ بن هِشَامٍ وَاللهِ لَقَـدِ اسْتَبْطَـأْتُ بَعِيرِي هـٰذَا أفَلاَ تَحْمِلُنِي على نَاقَتِكَ هٰذِهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، فَأَنَاخَ وَأَنَاخَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَـا ، فَلَمَّـا اسْتَوَوْا بـالأرْضِ عـدِيـا عَلَيْهِ ، وَأَوْثَقَاه ، ثُمَّ أدْخَلاهُ مَكَّةَ وَفَتَنَاهُ فـافْتَتَنَ ، قَـالَ : فكُنَّـا نقُولُ واللهِ لا يَقْبَلُ اللهُ مِمَّنْ افْتَتَنَ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً وَلاَ يَقْبَلُ توبةَ قَوْمٍ عَرَفُوا اللهَ ، ثُمَّ رَجَعُوا إلَى الكُفْرِ لِبَلاءٍ أصابَـهُ قَـالَ وَكَانُوا يَقُولُونَ ذٰلِكَ لأَنْفُسِهِم ، فَلَمَّـا قَـدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المدِينَـةَ أُنْزِلَ فِيهِم وفِي قَوْلِنَـا لَهُم وَقَولِهِم لأنفُسِهِم : ﴿ ياعِبَادِيَ الذِينَ أسْرَفُوا على أنْفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَـةِ اللهِ إنَّ اللهَ يغفرُ الذنُوبَ جَمِيعاً إنَّـهُ هُوَ الغَفُورُ الرحِيمُ ﴾ (١) إلى قَـوْلِـه : ﴿ وأنتُم لاَ تَشْعُرُون ﴾ (٢) قَالَ عُمَرُ فكَتَبتها في صَحِيفةٍ وَبَعَثْتُ بِهَا إلى هِشَامِ بنِ العَاصِ قَـالَ هِشَـامُ : فَلَم أزل أقرَؤُهَـا بذِي طُوَى أُصعِّدُ بهَا فِيهِ حَتَّى فهمتهـا . قَـالَ : فَـألقي في نَفْسِي أنَّمَـا نَزلت فينَـا وفيما كُنَّـا نَقُول في أنْفُسِنَا وَيُقَال فينا فرجعتُ فَجَلَسْتُ على بَعيرِي فلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ بالمَدِينَةِ .

---

(١) في الأصل (لا متشطت) ولا يتم المعنى .

١٩٠ ـ البزار : في كشف الأستار (٢ / ٣٠٢) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٦١) وقال رواه البزار ورجاله ثقات .

(٢) الزمر : ٥٣ .

(٣) الزمر : ٥٥ .

١٩١ ـ * روى البخاري عن أبي عثمان النهدي رحمه الله قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما إذا قيل له هاجرَ قبل أبيه يغضب . قال : وقدمت أنا وعمر على رسول الله ﷺ فوجدناه قائلاً ، فرجعنا إلى المنزل ، فأرسلني عمر وقال : اذهب فانظر هل استيقظ ؟ فأتيته فدخلت عليه فبايعته ، ثم انطلقت إلى عمر فأخبرته أنه قد استيقظ ، فانطلقنا إليه نهرول هرولة حتى دخل عليه فبايعه ، ثم بايعته .

١٩٢ ـ * روى البخاري عن أمِّ العلاء الأنصارية رضي الله عنها قالت : إن عثمان بن مظعون طار له سهمه في السكنى حين أقرعت الأنصار سكن المهاجرين ، قالت : فسكن عندنا عثمان بن مظعون ، فاشتكى ، فمرَّضناه ، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه ـ وذكرت الحديث ـ قالت: فنمت فأريت لعثمان عيناً تجري ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « ذلك عمله » .

هجرة الرسول ﷺ :

١٩٣ ـ * روى الحاكم عن عليٍّ رَضِيَ الله عَنهُ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ لِجبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ « مَنْ يُهَاجِرُ مَعِي ؟ » قَالَ : أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ .

١٩٤ ـ * روى أحمد عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وإذ يمكرُ بك الذين كفروا ﴾ [1] الآية ، قال : تشاورت قريش ليلةً بمكّة ، فقالَ بعضُهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوَثَاقِ ، يريدون النبيَّ ﷺ . وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أَخرِجوه . فأَطْلَعَ الله نبيَّه على ذلك فباتَ عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة ، وخرجَ النبي ﷺ حتى لحق

---

١٩١ ـ البخاري (٧ / ٢٥٥) ـ ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٤٥ ـ باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

القائل : الذي أقام وقت شدة الحر ، إما في مكان أو بيت ، لينكسر الحر ويخرج أو يسير .

١٩٢ ـ البخاري (٥ / ٢٩٣) ٥٢ ـ كتاب الشهادات ـ ٣٠ ـ باب : القرعة في المشكلات .

طار لنا : كذا : أي حصل لنا ، وجرى سهمنا أي كان من حصتنا بالقرعة . اشتكى : مرض . فمرضناه : تمريض العليل : معالجته وتدبيره في مرضه .

١٩٣ ـ المستدرك (٣ / ٥) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه وقال الذهبي: صحيح غريب .

١٩٤ ـ أحمد في مسنده (١ / ٣٤٨) قال الهيثمي (٧ / ٢٧) : وفيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح . اهـ . وقد حسن بعضهم الحديث .

(١) الأنفال : ٣٠ .

بالغار ، وباتَ المشركونَ يحرسونَ علياً يحسبونه النبي ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا عليه فلما رأوا علياً رد الله مكرَهم فقالوا : أين صاحبُكَ هذا ؟ قال : لا أدري . فاقتصُّوا أثرَه ، فلما بلغوا الجبلَ خُلِّطَ عليهم ، فصعدوا الجبلَ فمرّوا بالغار فرأوا على بابه نسجَ العنكبوتِ فقالوا : لو دخلَ ههنا لم يكن نسجُ العنكبوتِ على بابهِ ، فمكثَ فيه ثلاثَ ليال » .

١٩٥ - * روى الحاكم عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : شَرَى عَلِيٌّ نفْسَهُ ، وَلَبِسَ ثَوْبَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ثم نام مَكَانَهُ وَكَانَ المُشْرِكونَ يَرومُونَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَلبَسَهُ بُرْدَةً ، وكَانَت قُرَيْشٌ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فَجَعَلُوا يرقبون علياً وَيَرَوْنَهُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَدْ لَبِسَ بُرْدَةً وجَعَلَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَتَضوَّر فإذَا هُوَ عليٌّ فَقَالُوا إِنَّكَ للئيمٌ إنَّكَ لَتَتَضور ، وكان صَاحِبُكَ لا يَتَضوَّرُ وَلَقَدِ استَنْكَرْنَاهُ مِنْكَ .

١٩٦ - * روى أحمد والطبراني عن أسماء بنتِ أبي بكر قالت لما خَرجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وخَرَجَ معه أبو بكر احتمل أبو بكْرٍ معه مَالَهُ كلَّه خمسة آلافِ دِرْهَم أوْ سِتَّة آلافِ دِرْهَم وانْطَلَق بها مَعَهُ قَالَت فدَخلَ علينَا جَدّي أبو قُحَافَة وَقد ذَهَبَ بَصَرُهُ فَقَال : واللهِ إنّي لأَرَاهُ قَدْ فجَعَكُم بمالِهِ مَعَ نَفْسِهِ قَالت : قلت كَلا يَا أبتِ قَدْ تركَ لنا خَيْراً كثيراً قَالتْ فأخَذْت أحجاراً فتركتها فوضعتها في كَوة لبيت كان أبي يضع فيها مَالَهُ ثم وضعت عليها ثَوْباً ثمَّ أخَذتُ بيَدِه فقلْت : يَا أبَتِ ضع يَدك عَلَى هٰذا المَالِ قَالَتْ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَال لاَ بَأْسَ إنْ كَانَ ترك لَكُم هٰذَا لَقدْ أحْسَنَ ، وفي هَذَا لَكُم بَلاَغٌ قَالَتْ وَلاَ واللهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئاً ، ولٰكِن قد أَرَدْتُ أَنْ أُسكِّنَ الشَّيْخَ بذلِكَ .

١٩٧ - * روى البخاري عن أسماءَ بنتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ : صَنَعْتُ سُفْرَةَ

---

١٩٥ - المستدرك (٣ / ٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

يتضوّر : أي يتلوى ويتقلب ظهراً لبطن .

١٩٦ - أحمد في مسنده (٦ / ٣٥٠) والطبراني (٢٤ / ٨٨) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٥٩) وقال : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع .

الكوة : ثقب في الحائط .

١٩٧ - البخاري (٦ / ١٢٩) ٥٦ - كتاب الجهاد - ١٢٣ - باب : حمل الزاد في الغزو .

للنبيِّ ﷺ في بَيْتِ أبي بَكْرٍ ، حين أَرَاد أنْ يُهَاجِرَ إلى المدِينَةِ ، فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِه ولا لِسقَائِه ما نَربطُها به ، فقلْت لأَبي بَكْر : واللهِ مَا أَجِدُ شَيْئاً أرْبِطُ بهِ ، إلا نِطَاقي ، قَالَ : فشُقِّيهِ باثْنَيْنِ ، فَارْبِطيهِ بِوَاحِدِ السِّقَاء ، وبالآخر السُّفْرَةَ ، فَفَعلت ، فلذلِكَ سُمِّيتُ : ذَاتَ النِّطَاقَين .

١٩٨ - * روى الترمذي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ : لما أُخرِج رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ مكَّة ، قَالَ أبو بَكْرٍ : أخرجوا نبيَّهم ، لَيَهْلِكُنَّ فأنزَلَ اللهُ تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِين يُقَاتَلون بأنَّهم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِم لقَديرٌ** ﴾ (1) فقَال أبو بكرٍ : لَقَدْ عَلِمْتُ أنَّه سَيَكُونُ قِتَالٌ .

وفي رواية النسائي (2) قال : لما أُخْرِجَ النبيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، قَالَ أبو بَكْرٍ : أَخْرَجوا نَبِيَّهُمْ ، إنَّا للهِ وإنا إليْهِ رَاجِعُون ليهلكن ، فَنَزَلَتْ ﴿ **أُذِنَ للذين يُقَاتَلون ....** ﴾ الآية . فَعَرفتُ أنهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ . قَالَ ابنُ عبَّاسٍ : هِيَ أوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ في القِتَال .

١٩٩ - روى أبو يعلى عن ابن عَبَّاس قَالَ لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ : « أَمَا وَالله لأَخْرج مِنْكِ ، وإنِّي لأعْلَمُ أنَّكِ أَحَبُّ بِلادِ الله إليَّ وَأَكْرمُهُ عَلَى اللهِ وَلَوْلا أنَّ أهْلَكِ أخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ يَابَنِي عَبْد مُنَاف إن كُنْتُم وُلاةَ هَذَا الأمر مِنْ بَعْدِي فَلا تَمنَعُوا طَائِفًا بِبَيْتِ الله ساعَةَ مَا شَاءَ مِنْ لِيْل وَلاَ نَهَار وَلَوْلا أنْ تَطْغَى قُرَيْش لأَخبَرْتها مَا لَها عِنْدَ الله اللهم إنَّكَ أذقَت أوَّلَهُم وَبالا فأذق آخِرَهُم نَوَالاً » .

٢٠٠ - * روى البخاري ومسلم عن أبي بكر قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار فقلت : يا رسول اللهِ لو أن أحدَهم نظرَ إلى قدميهِ أبصَرَنا تحت قدميه فقال : « يا أبا

نطاقي : النطاق : شيء تشد به المرأة وسطها ، وترفع به ثوبها أن يسال الأرض عند قضاء الأشغال . سقاء : السِّقاءُ : إناء للماء من الجلود كالقربة .

١٩٨ - الترمذي (٥ / ٣٢٥) (٤٨) - كتاب تفسير القرآن (٢٣) باب « من سورة الحج » . قال : هذا حديث حسن .

(1) الحج : ٣٩ .

(2) النسائي : (٦ / ٢) كتاب الجهاد - باب وجوب الجهاد . وإسناده صحيح .

١٩٩ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣ / ٢٨٣) . وقال : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

٢٠٠ - البخاري (٨ / ٣٢٥) ٦٥ - كتاب التفسير - ٩ - باب : ثاني اثنين إذ هما في الغار . =

بكر ما ظنُّكَ باثنين اللهُ ثالثهما » .

٢٠١ - * روى البخاري عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالتْ : لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إلا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّين ، ولَمْ يمرّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إلا يأْتِينَا فيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَرَفي النهارِ ، بُكْرَةً وعَشِيةً ، فلما ابْتُلِيَ المسْلِمُونَ ، خَرَجَ أبو بكرٍ مُهَاجِراً نَحْوَ أرْضِ الحَبَشَةِ ، حتّى بلغ بَرْكَ الغِماد ، لَقِيَهُ ابنُ الدُّغُنَّةِ - وهو سَيِّدُ القَارَة - فَقَالَ : أيْنَ تُريد يا أبا بَكْرٍ ؟ فَقَال أبُو بَكْرٍ : أخْرَجَنِي قَوْمِي ، فأريدُ أنْ أسيحَ في الأرْضِ وأعْبُدَ رَبِّي ، فقال ابنُ الدُّغُنَّة : فإنَّ مِثْلَكَ يا أبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَج ، إنَّك تَكْسِبُ المَعْدُوم ، وتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَحْمِل الكل ، وتَقْري الضَّيْفَ ، وتُعينُ على نَوَائبِ الحقّ ، فأنَا لَكَ جَار ، ارْجِعْ فاعْبُدْ ربَّكَ بِبَلَدِكَ ، فرَجَعَ . وارتحَلَ مَعَهُ ابنُ الدُّغُنَّة ، فطَافَ ابنُ الدُّغنَّة في أشْرَافِ قُرَيْش ، فقالَ لَهُمْ : إنَّ أبَا بَكْر لا يَخْرُجُ مثلُه ولا يُخْرَج ، أتُخْرِجُونَ رَجُلاً يَكْسِب المَعْدُومَ ، ويَصِلُ الرَّحِمَ ، ويحمِل الكل ، ويَقْري الضَّيفَ ، ويُعِينُ عَلَى نَوَائبِ الحقّ ؟ فلم تُكَذِّب قُرَيْشٌ بِجوَارِ ابن الدُّغُنَّة .

وفي رِوَايةٍ : فأنفذَت قُرَيْشٌ جِوَارَ ابن الدُّغُنَّةِ - وآمَنُوا أبَا بَكْرٍ - وقالُوا لابْنِ الدُّغُنَّة : مُرْ أبا بَكرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ في دَارِهِ ، فليُصَلِّ فيها ، وليَقْرَأْ ما شَاءَ ، ولا يؤذِينا بذلك ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ ، فَإنَّا نَخْشَى أنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وأبْنَاءَنا ، فقَالَ ذَلِكَ ابن الدُّغُنَّة لأبي بَكَر ، فَلبث أبُو بَكر بِذَلِك يَعْبُدُ رَبَّهُ في دَارِهِ ، وَلاَ يَسْتَعلِنُ بصَلاتِهِ ، وَلاَ يَقْرأ في غير دَارِهِ ، ثم بَدَا لأبي بَكْر ، فابتَنى مَسْجِداً بفِنَاءِ دَارِهِ ، وَكَانَ يُصَلي فيه ، ويقرأ القرآن فيتقذف عليه نِسَاء المشركِينَ وَأبْنَاؤهم وَهُم يَعجبُون منهُ ، وينْظُرونَ إليهِ ، وكانَ أبو بكرٍ رجُلاً بَكَّاءً ، لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إذَا قَرَأ القُرْآنَ ، فأفْزَعَ ذَلِك أشْرَافَ قُرَيْش من المُشْرِكِين ، فأرْسَلُوا إلى ابن

= ومسلم (٤ / ١٨٥٤) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ١ - باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

٢٠١ - البخاري (٧ / ٢٣٠) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب : هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

يدينان الدين : مسلمين على دين الإسلام . **بَرْك الغِماد** : بفتح الباء وكسر الغين وفتحها : هو بلدٌ بِيَمَن . **القارة** : بتخفيف الراء قبيلة من كنانة . **تكْسِب المعدوم** : تعطي الفقير المعدم مالا وفعل (كسب) متعدٍ . **الكلّ** : ما يثقل حمله ، من صلات الأرحام ، والقيام بالعيال ، وقرى الأضياف ، ونحو ذلك . **نوائب الحق** : النوائب : ما ينوب الإنسان من المغارم ، وقضاء الحقوق لمن يقصده ويؤمّله . **فأنا لك جار** : أي : حامٍ وناصر ومُدَافِعٌ .

تقصّف : الناس عليه : أي : ازدحموا .

الدُّغُنَّةِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِم ، فقالُوا : إنَّا كُنَّا أجرنا أبا بكْرٍ بِجِوَارِكَ عَلَى أنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ ، فَقَدْ جاوَزَ ذٰلك ، فابْتَنَى مسجداً بفِنَاءِ دارِهِ ، فأعْلَنَ بالصَّلاةِ والقِرَاءةِ فيهِ ، وإنَّا قَدْ خشينَا أنْ يَفْتِنَ نساءَنا وأبناءنَا ، فَانْهَهُ ، فإنْ أحبَّ أن يقتصرَ عَلَى أنْ يعبدَ ربَّه فِي دَارِه فَعَل ، وإنْ أبَى إلا أن يُعلنَ بذلكَ ، فَسَلْهُ أن يَرُدَّ ذِمَّتَكَ ، فَإنَّا قَدْ كَرِهْنَا أنْ نُخْفِرَكَ ، ولَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الاسْتِعْلانَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَأتَى ابنُ الدُّغُنَّةِ إلى أبي بكر ، فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتَ الذي عاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ ، فإمَّا أن تَقْتَصِرَ على ذٰلك ، وَإمَّا أن تَرْجِعَ إلَيَّ ذِمَّتِي ، فَإنِّي لاأُحِبُّ أن تَسمَعَ العَرَبُ أني أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ له ، فَقَالَ لَهُ أبُو بَكرٍ : فَإنِّي أرُدُّ إلَيْكَ جِوَارَك وأرْضَى بجوارِ اللهِ - والنبيُّ ﷺ يومئذٍ بِمَكَّة - فَقَالَ النبيُّ ﷺ للمسلمين : « إنِّي أُرِيتُ دارَ هِجْرَتِكم ، ذاتَ نَخْلٍ ، بين لابَتَيْن » وهُمَا الحَرَّتَان - فهاجَرَ مَنْ هاجَرَ قِبَلَ المدينة ، ورجَعَ عامَّةُ مَنْ كَانَ بأرض الحبشة إلى المدينَة ، وتَجَهَّزَ أبُو بَكْرٍ قِبَلَ المدينَة ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « عَلَى رِسْلِكَ ، فَإنِّي أرْجُو أنْ يُؤذَنَ لِي » فَقَالَ أبُو بَكْرٍ : وهَل تَرْجُو ذٰلِكَ بأبِي أنْتَ ؟ قَالَ : نَعمْ ، فَحَبَسَ أبُو بَكْرٍ نَفْسَه عَلَى رسُولِ الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ ، وعَلَفَ راحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ مِنْ وَرَق السَّمُرِ - وَهُوَ الخَبَط - أربَعَةَ أشْهُرٍ .

قال ابنُ شِهَاب : قالَ عُرْوَةُ : قَالَتْ عائشةُ : فَبيْنَا نَحْنُ يَوْماً جُلُوسٌ فِي بَيتِ أبِي بَكْرٍ فِي نحرِ الظَّهِيرةِ قال قائِلٌ لأبِي بَكْرٍ : هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتقنِّعا ، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأتِينَا فيها ، فَقَالَ أبُو بَكْرٍ : فِداء لهُ أبِي وأمِّي ، واللهِ ماجاءَ به فِي هَذِهِ الساعة إلا أمرٌ ، قالتْ : فجَاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فاستأذَنَ ، فأُذِن لَهُ ، فدَخلَ ، فقالَ النبيُّ ﷺ لأبي بَكر : « أخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ » فقَالَ أبُو بكْر : إنَّما هُمْ أهلُكَ - بأبِي أنتَ يارَسُولَ اللهِ - قَالَ « فَإنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُروجِ » قَال أبُو بَكْرٍ : الصُّحابةَ ، بأبِي أنْتَ يارَسُولَ اللهِ قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : « نَعَمْ » . قالَ أبُو بكرٍ : فَخُذْ - بأبِي أنتَ يارسولَ اللهِ - إحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْن ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « بالثَّمَنِ » قَالَتْ عائشة : فجهَّزنَاهُمَا أحَثَّ الجهازِ ، وصنعنا لَهما سُفْرَةً فِي جِرَابٍ ، فقطَعَتْ أسماءُ بنتُ أبِي بكرٍ قطْعَةً مِنْ نِطَاقِها ، فَرَبَطَتْ به عَلَى فَمِ الجراب ، فبذلِكَ سُمِّيَتْ ذات النِّطَاقِ قَالَتْ : ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ الله ﷺ وأبُو بكر بِغَار في جبل ثَور ، فكَمَنَا فيه

الذمَّة : العهد والأمان . اخفرت الرجل : إذا نقضت عهده . سبخة : السبخ من الأرض : الموضع الذي لا يكاد ينبت لملوحته ، وقلما يوافق إلا النخيل . على رسلك : بكسر الراء · على هينتك . الراحلة : البعير القويُّ على الأحمال والسَّير . الظهيرة : أشد الحر ، و (نحرها) : أوائلها . النطاق : أن تشد المرأة وسطها بحبل أو نحوه ، وترفع ثوبها من تحته ، =

ثَلاثَ ليـالٍ يبيتُ عِنْـدَهُما عبْـدُ اللهِ بنُ أبي بَكْرٍ ، وَهُوَ غُـلامٌ شـابٌ ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيـدَّلِـجُ مِنْ عندِهمَا بسَحَرٍ ، فيُصْبحُ مَعَ قُرَيْشٍ بمكَّـةَ كبَـائِت ، فَلا يَسْمَعُ أمْراً يكتـادان بـهِ إلا وَعَـاهُ ، حتى يـأتيَهما بخبَرِ ذٰلِـكَ حينَ يَخْتَلِـطُ الظَّلامُ ، ويَرْعَى عَلَيهما عـامرُ ابنُ فُهيرةَ - مَـوْلَى أبي بَكْرٍ - مِنْحَةً مِنْ غَنَم ، فيُرِيحُها عَلَيْهمَا حِينَ تَذْهَبُ ساعـةٌ مِنَ العِشَـاءِ ، فَيَبيتَـان فِي رِسلٍ - وَهُوَ لَبَنُ مِنْحتِهما ، وَرَضِيفُهما - حَتَّى يَنْعِق بهـا عـامرُ بن فُهيرة بغَلَسٍ ، يَفْعَـلُ ذلـك في كلّ ليلةٍ مِنْ تلـكَ الليَـالِي الثَّلاثِ ، واستـأجَرَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ رَجُلاً مِنْ بني الـدِّيل - وَهُو مِنْ بني عبْد بن عديٍّ - هَادياً خِرِّيتاً - والخِرّيتُ : الماهرُ بالهداية - قـد غَمَس حِلْفًـا في آل العاصِ بنِ وائلٍ السَّهمي ، وَهُوَ عَلَى دين كُفَّارِ قُرَيشٍ ، فَأَمِنَاهُ ، فَدفَعا إليـه رَاحِلَتيهما ، ووَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْر بعْدَ ثلاثِ لَيَالٍ بَراحِلَتيْهما ، وانْطَلَقَ مَعَهُما ابنُ فهيْرةَ ، والـدليل ، فـأَخَـذَ بِهِم طريقَ السَّوَاحِلِ » وفي روايـة « طريقَ السَّـاحِـل » .

قَالَ ابنُ شهابٍ [1] وأخبرني عبـدُ الرحمن بنُ مـالـك المـدْلجيُّ - وهُو ابنُ أخي سُراقـةَ بن مالك بن جُعْشُم - أَنَّ أبـاهُ أخبَرهُ : أَنَّـه سَمِعَ سُراقَـةَ بنَ جُعْشُمٍ يقُولُ : جَـاءَنَـا رُسُل كُفَّـارِ قريْشٍ يَجْعَلُونَ في رَسُولِ الله ﷺ وأبِي بكْر ديةَ كُلِّ واحدٍ منهُما مَنْ قتلـه أو أسَرَهُ ، فبَيْنَـا أَنَا جَـالسٌ في مَجْلِسٍ من مجـالسِ قَومِي بَني مُـدلج ، إذ أَقْبَلَ رَجُل مِنْهُم ، حَتَّى قَـامَ عَلَيْنَـا ونَحْنُ جُلُوسٌ ، فَقَـالَ : يـاسرَاقـةُ ، إنِّي قَـدْ رَأَيْتُ آنفـاً أسـودةً بـالسَّـاحِـل ، أرَاهَـا مُحمَّـداً وأصحَابَهُ ، قالَ سراقَةُ : فَعَرَفْتُ أَنهمْ هُمْ ، فَقُلْتُ له : إنَّهم لَيْسُوا بِهِم ، ولٰكِنَّـك رَأيتَ فُلانـاً وفُلاناً انطَلقوا بأعْيُننا ، ثم لبثتُ في المجلِس سَاعَةً ، ثم قُمتُ فَـدَخَلْتُ ، فـأمَرْتُ جـاريَتي أنْ

= فتعطف طرفًا من أعلاه على أسفله ، لئلا ينال الأرض .

ثَقِف : تقف الرجل ثقافة ، أي : صار حـاذقًـا خفيفًـا ، فهو ثقف ، متـال ضخم ، فهو ضخم . لَقِن : اللَّقِنُ : سريع الفهم . أدلج : يدلج : إذا سار من أول الليل ، وادلج يدلج - بتشديـد الـدال -: إذا سـار من آخره . كدتُ : الرجل أكيدُه : إذا طلبتُ له الغوائل ومكرتُ به منحة : الأصل في المنحـة : أن يجعل الرجل لبن نـاقتـه أو شـاتـه لآخر وقتًا ما ، ثم يقع ذلك في كل ما يرزقه المرء ويعطاه . فيريحها : الرَّواح : ذهـاب العشي ، وهو من زوال الشمس إلى الليل في رِسلٍ : الرسل ، بكسر الراء وسكـون السين : اللبن . الرضيف : اللبن المرصـوف ، وهـو الـذي جعـل فيـه الرصفـة ، وهي الحجـارة المحماة . نعق الراعي بـالغنم : أصل النعيق للغنم ، يقـال : نعـق الراعي بـالغنم : إذا دعـاهـا لترجع إليـه . بغلس : الغلس : ظلام آخر الليل . غمس : فـلان حلفًـا في آل فـلان ، أي : أخـذ بنصيـب من عقـدهم وحلفهم ، والحلف : التحالف .

(١) في البخاري (٧ / ٢٣٨) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

أسودة : جمع سـواد ، وهـو الشخص . الأكمة : الرابيـة المرتفعـة عن الأرض من جميـع جـوانبهـا .

تَخُرُجَ بفَرَسي وهيَ مِنْ وَرَاء أكَمَةٍ ، فَتَحْبِسُها عَلَيَّ ، وأخذْتُ رُمْحِي ، فَخَرَجْتُ بـهِ مِنْ ظَهْرِ البَيْتِ ، فَخطَطْتُ بزُجِّه الأرْضَ ، وخفضْتُ عَاليَـهُ ، حَتَّى أتَيْتُ فرسِي فركِبتُها ، فَرَفَعتها تُقرِّب بي ، حَتَّى دَنَوتُ منهم ، فعَثَرت بي فَرسي ، فَخرَرْتُ عنهـا ، فَقُمتُ فـأهْـوَيْتُ بيـدي إلى كِنانتي فاستخرجْتُ مِنهَا الأزلام ، فاستقسمت بها : أضرهم ، أمْ لا ؟ فخَرَجَ الـذِي أكرهُ ، فَركِبْتُ فَرسِي ـ وعَصَيْتُ الأزلام ـ تُقرِّبُ بي ، حتيّ إذا سمعتُ قراءةَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَهُـوَ لا يَلْتفِتُ ، وأبُو بكر يُكثِر الالْتِفاتَ : ساخت يدَا فَرَسي في الأرْضِ حَتَّى بَلَغتَـا الركْبَتيْنِ ، فَخرَرْتُ عَنهَا ، ثُمَّ زَجَرْتُها فَنهضَتْ ، فَلَمْ تَكَد تُخرِجُ يَـدَيهَـا ، فَلَمَّـا اسْتَوَتْ قَـائمَـةً إذَا لأثَرِ يَدَيْهَـا عُثَـانٌ سَـاطِعٌ في السَّماءِ مثلُ الـدُّخَـانِ ، فـاستقسمت بـالأزلام ، فخَرجَ الـذِي أكْرهُ ، فنـاديتُهم بـالأمَــانِ ، فـوَقَفـوا ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئتُهم ، ووَقَعَ في نَفْسِي ـ حِينَ لقيتُ مَالَقيتُ مِنَ الحبسِ عَنهم ـ أنْ سَيَظهر أمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقُلْتُ لَهُ : إنَّ قومَكَ قَدْ جَعَلُوا فيك الدِّيَةَ ـ وَأَخْبَرتُهُم أَخْبَارَ مَايُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ ـ وَعَرضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ والمتَاعَ ، فَلَمْ يَرْزآني إلا أن قَالَ : « أخفِ عَنَّا » ، فَسَألتُـهُ أنْ يَكْتُبَ لِي كِتَـابَ أمنٍ ، فـأمَر عـامرَ بن فُهَيرَة ، فكَتَب لِي في رقعَةٍ مِنْ أدَمٍ ، ومَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ .

قالَ ابنُ شِهَابٍ : « فأخْبَرَني عُرْوَةُ بنُ الزُّبيْرِ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَقِيَ الزبيرَ في رَكْبٍ مِنَ المسْلِمين تُجّاراً قافِلِينَ مِن الشَّام ، فكَسَا الزبيرُ رسولَ اللهِ ﷺ وأبا بَكْرٍ ثيابَ بياضٍ ، وسَمِعَ المسلمون بـالَمـدِينـة مَخرَجَ رَسُـولِ الله ﷺ مِنْ مكَّـةَ ، فكَـانُـوا يَغْـدون كُـلَّ غـدَاةٍ إلى الحَرَّة فينتَظِرُونَهُ ، حَتَّى يَرُدَّهُم حَرُّ الظَّهِيرَةِ ، فانْقلَبُوا يَوْماً بَعْدَمَـا أطَـالُوا انْتِظَـارَهُم ، فَلَمَّـا أوَوْا إِلَى بُيُوتِهِم أوْفى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِن آطـامِهم لأمْرٍ يَنْظُرُ إليْـهِ ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ الله

= قَرَّبَ : الفرس يقرب تقريباً : إذا عَدا عَدواً دون الإسراع ، ولـه تقريبـان أدنى وأعلى . الكنـانـة : كيس من جلد تجعل فيها السهام ، وهي الجعبة . الأزلام : القداح ، واحدها : زُلم ، وزَلم ـ بفتح الزاي وضمها ، وفتح اللام فيها ـ و (القِـدْحُ) : السهم الـذي لا نصل لـه ولا ريش ، وكان لهم في الجاهليـة هـذه الأزلام ، مكتـوب عليهـا الأمر والنهي ، وكان الرجل منهم يضعها في كنانته أو في وعائه ، ثم يخرج منها عند عزيمته على أمر مـا اتفق لـه من غير قصد ، فإن خرج الآمر مضى على عزمه ، وإن حرج الناهي انصرف . الاستقسام : أصل الاستقسـام : طلب مـا قسم الله له من الأقسام . و (القسم) : النصيب المغيب عنه عند طلبه ، وذلك محمود إذا طلب من جهته سبحانه ، وكان أهل الجاهلية يطلبون ما غيب عنهم من ذلك من جهة الأزلام ، فما دلتهم عليـه فعلوه . ساخت : قوائم الـدابـة في الأرض : غاصت فيها . عثانٌ : العُثَان : الغبار ، وأصلـه الـدخـان ، وجمعـه عواثن ، على غير قيـاس . السـاطع : المرتفع في الجو منتشراً . مارزأت فلاناً شيئاً : أي : ما أصبت منه شيئاً ، والمراد : أنهما لم يأخذا منه شيئاً . قـافلين : القافل : الراجع من سفره .

ﷺ وأصحابه مبيّضين ، يَزُولُ بِهِمُ السّرابُ ، فلم يَمْلِكِ اليهوديُّ أنْ قالَ بأعْلَى صَوْتِهِ : يامعشَر العَرَبِ ، هٰذا جَدُّكم الذي تَنْتظرُونَ ، قَالَ : فَثَارَ المسلمون إلى السلاح ، فتلَقَّوا رَسُولَ اللهِ ﷺ بظَهْرِ الحرَّةِ ، فعَدَلَ بهم ذاتَ اليمين ، حتّى نَزَلَ بهم في بني عمرو بنِ عَوفٍ ، وذٰلكَ يَومَ الاثْنَينِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأوَّلِ ، فَقَامَ أبو بَكْرٍ للنَّاسِ ، وجَلَسَ رَسُول اللهِ ﷺ صَامِتاً ، فطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأنْصَار مِمَّن لَم يَرَ رسولَ اللهِ ﷺ يُحَيّي أبَا بَكْر ، حتّى أصَابَتِ الشّمسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فأقْبَلَ أبو بَكْرٍ حتّى ظَلَّلَ عَلَيهِ بردائِه ، فعَرَفَ النَاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلك ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في بَنِي عمرو بن عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرةَ ليلةً ، وأسسَ المسجدَ الذي أُسِّسَ على التَّقْوَى ، وصَلَّى فيهِ رَسولُ اللهِ ﷺ ، ثمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ ، فَسَارَ يَمشي مَعَهُ الناسُ حتّى بَرَكَتْ عِند مسجدِ الرسولِ ﷺ بالمدينَةِ ، وَهُوَ يُصَلّي فيهِ يَومَئِذٍ رِجَالٌ من المُسلِمينَ ، وكَانَ مِربدًا للتمر ، لِسَهْل وسُهَيْلٍ - غلامَين يتيمَيْنِ في حِجْرِ أسْعَد بن زُرارة - فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ حِيْنَ بَرَكَتْ راحِلَتُهُ « هٰذا إن شَاءَ اللّٰهُ المنزِلُ » ثمَّ دعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الغُلامَين ، فساومهما بالمربدِ ليتخذه مَسْجداً ، فَقَالا : بل نَهَبُه لَكَ يارسُولَ الله فأبى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يقبلَهُ مِنْهما هِبَةً حتّى ابتاعَهُ منهما ثمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا ، وطَفِق رَسولُ الله ﷺ ينقلُ مَعَهم اللَّبنَ في بُنْيانِهِ ، ويَقُولُ وَهُو يَنْقُلُ اللَّبن :

هٰذا الحِمَالُ لاحِمَالُ خَيْبَرْ هٰذا أبَرُّ رَبَّنَا وأطْهر

ويقول :

اللهمَّ إنَّ الأجرَ أجرُ الآخره فارحمِ الأنصارَ والمهَاجِرَهْ

فتمثَّلَ بِشعْرِ رَجُلٍ مِنَ المهاجِرِينَ ، لَمْ يُسمَّ لي .

قَالَ ابنُ شِهَابٍ : وَلَمْ يَبْلغْنَا في الأَحَادِيثِ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تمثَّل ببَيْتِ شعرٍ تامٍّ غير هٰذهِ الأبيَاتِ .

مبيّضين : بكسر الياء ، أي : هم ذوو ثياب بيض ، ومنه المسود بكسر الواو للابس السواد ، ولذلك قيل لأصحاب الدعوة العباسية : المسودة . يزول بهم : زال بهم السراب ، أي : ظهرت حركتهم فيه للعين . جدكم : حظكم . المربد : المكان الذي يوضع فيه التمر . الحِمال : بكسر الحاء : من الحمل ، والذي يحمل من خيبر هو التمر ، ولعله عنى : أن هذا في الآخرة أفضل من ذلك ثواباً وأحسن عاقبة .

فوائد من فتح الباري :

١ - عن ابن شهاب قال : كان بين ليلة العقبة - يعني الأخيرة - وبين مهاجر النبي ﷺ ثلاثة أشهر أو قريب منها . قلت : هي ذو الحجة والمحرم وصفر ، لكن كان مضى من ذي الحجة عشرة أيام ، ودخل المدينة بعد أن استهل ربيع الأول فهما كان الواقع أنه اليوم الذي دخل فيه من الشهر يعرف منه القدر على التحرير ، فقد يكون ثلاثة سواء وقد ينقص وقد يزيد ، لأن أقل ما قيل إنه دخل في اليوم الأول منه ، وأكثر ما قيل إنه دخل الثاني عشر منه .

٢ - بمناسبة قول ابن الدُّغُنَّة عن أبي بكر (لا يَخرج مثله) قال ابن حجر : أي : من وطنه باختياره على نية الإقامة في غيره مع ما فيه من النفع المتعدي لأهل بلده ، (ولا يُخْرَج) أي : ولا يخرجه أحد بغير اختياره للمعنى المذكور ، واستنبط بعض المالكية من هذا أن من كانت فيه منفعة متعدية لا يمكن من الانتقال عن البلد إلى غيره بغير ضرورة راجحة .

٣ - بمناسبة أمر رسول الله ﷺ لعامر بن فهيرة أن يكتب عقد أمان لسراقة . قال ابن حجر :

قوله : فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم وفي رواية بن إسحاق : (فكتب لي كتاباً في عظم - أو ورقة أو خرقة - ثم ألقاه إلي ، فأخذته فجعلته في كنانتي ثم رجعت) وفي رواية موسى بن عقبة نحوه وعندهما (رجعت فسئلت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا فرغ من حنين بعد فتح مكة خرجت لألقاه ومعي الكتاب ، فلقيته بالجعرانة حتى دنوت منه فرفعت يدي بالكتاب فقلت : يا رسول الله هذا كتابك ، فقال : يوم وفاء وبر ، أدن ، فأسلمت) وفي رواية صالح بن كيسان نحوه ، وفي رواية الحسن عن سراقة قال : (فبلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي ، فأتيته فقلت : أحب أن توادع قومي ، فإن أسلم قومك (أي : قريش) أسلموا وإلا أمنت منهم ، ففعل ذلك ، قال : ففيهم نزلت : ﴿ إلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ [1] الآية) اهـ .

---

(١) النساء : ٩٠ .

انظر إلى الوفاء كيف أن العقد لسراقة سرى على قومه بطلبه ، مع العلم أن قومه لم يكونوا يقاتلون المسلمين ولولا ذاك ما سرى ذلك العقد إليهم .

٤ ـ بمناسبة الحديث عن نزول رسول الله ﷺ ابتداء في قباء ، قال ابن حجر :

وهو في التحقيق أول مسجد صلى النبي ﷺ فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة .

٥ ـ وبمناسبة خروج رسول الله ﷺ من قباء إلى المدينة قال ابن حجر عند قوله :

(ثم ركب راحلته) وقع عند ابن إسحاق وابن عائذ أنه ركب من قباء يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فقالوا : يا رسول الله هلم إلى العَدَد والعُدَدُ والقوة ، أنزل بين أظهرنا . وعند أبي الأسود عن عروة نحوه وزاد : وصاروا يتنازعون زمام ناقته . وسمى ممن سأله النزول عندهم : عتبان بن مالك في بني سالم ، وفروة بن عمرو في بني بياضة ، وسعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وغيرهما في بني ساعدة ، وأبا سليط وغيره في بني عدي ، يقول لكل منهم : « دعوها فإنها مأمورة » وعند الحاكم من طريق إسحاق بن أبي طلحة عن أنس : (جاءت الأنصار فقالوا إلينا يا رسول الله ، فقال : « دعوا الناقة فإنها مأمورة » ، فبركت على باب أبي أيوب) قوله : (حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة) في حديث البراء عن أبي بكر (فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه فقال : إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك) وعند ابن عائذ عن الوليد بن مسلم وعند سعيد بن منصور كلاهما عن عطاف بن خالد : « أنها استناخت به أولاً فجاءه ناس فقالوا : المنزل يا رسول الله ، فقال : « دعوها » ، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد ، ثم تحلحلت فنزل عنها ، فأتاه أبو أيوب ، فقال : إن منزلي أقرب المنازل فأذن لي أن أنقل رحلك ، قال : « نعم » ، فنقل وأناخ الناقة في منزله . وذكر ابن سعد أن أبا أيوب لما نقل رحل النبي ﷺ إلى منزله قال النبي ﷺ : « المرء مع رحله » وأن أسعد بن زرارة جاء فأخذ ناقته فكانت عنده ، قال : وهذا أثبت ، وذكر أيضاً أن مدة إقامته عند أبي أيوب كانت سبعة أشهر .

٢٠٢ - * روى البخاري عن البَراء بنِ عَازِب رَضي الله عنه قال : جاء أبو بَكْرٍ رضي الله عنه إلى أبِي في منزِلِه ، فاشْتَرى منْهُ رَحْلاً ، فَقَال لِعَازِبٍ : ابْعث ابنَكَ يَحْمِلْهُ مَعِي ، قال فَحَمَلْتُهُ معه ، وخَرَجَ أبِي يَنتَقِد ثَمَنه ، فَقَالَ لَهُ أبِي : ياأبا بَكْرٍ حدثني كَيْفَ صَنَعْتُمَا لَيْلَة سَرَيتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ قَال : نَعَمْ ، أسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا ومن الغد ، حَتّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرةِ ، وخَلا الطريقُ لايَمُرُّ فيهِ أحدٌ ، فرُفِعَتْ لنا صَخْرةٌ طويلة لها ظِلٌّ لم تأتِ عليه الشمْسُ ، فنَزلْنَا عِنْدها وَسوَّيْتَ للنبي ﷺ مَكَاناً بيدي يَنَامُ عليه وبَسَطْتُ عَلَيْهِ فَروَةً ، وَقُلتُ له : نَمْ يارَسُولَ الله ، وَأَنَا أنفضُ لَكَ مَاحَوْلك ، فنَامَ ، وَخَرَجْتُ أنْفضُ مَاحَوْلَهُ ، فإذَا أنَا براعٍ مُقْبلٍ بغَنَمِه إلى الصخرةِ ، يريدُ مِنْهَا الذي أرَدْنَا ، فَقُلْتُ : لِمن أنْتَ ياغلامُ ؟ فقَالَ : لَرجُل مِنْ أهْلِ المدينَةِ ، فَقُلْتُ : أفي غنَمِك لبَنٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : أفَتَحْلُبُ لي ؟ قَالَ : نَعَم ، فأخذَ شاةً ، فقُلتُ : انفُضُ الضَّرْع من التُّراب والشعر والقَذَي - قَالَ : فَرَأيْتُ البراءَ يضْربُ إحدى يديه عَلَى الأُخْرى يَنفُضُ - فَحَلَبَ في قَعْبٍ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ ، قَال : ومَعِي إداوةٌ حملتها للنبيِّ ﷺ يَرتوي مِنها ويشربُ ويَتَوَضّأ ، فأتيْتُ النبي ﷺ فكَرهْتُ أنْ أُوقِظَهُ فَوَافَقْتُهُ حتى استيقَظَ - فصبَبتُ مِنَ المَاء على اللبن حَتّى بردَ أسفَلُهُ ، فقلتُ : يارَسُولَ الله اشربْ : فَشَربَ حَتّى رَضِيتُ ، ثُمَّ قَالَ : « ألَمْ يأنِ للرَّحيل ؟ » قُلتُ : بَلَى ، قَالَ : فارْتَحَلنا بَعْدَمَا مالت الشَّمْسُ ، وأتبَعَنَا سُراقةُ بنُ مالكٍ ، فَقُلْتُ : أُتينا يارَسُولَ الله ، فَقَالَ : « لاتَحْزَنْ ،إنَّ الله معنا » فدعَا عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ، فارتَطَمَت به فَرَسُهُ إلى بَطْنِها : فَقَالَ : إنّي أراكُمَا قد دعَوْتُما عَلَيَّ ، فادعُوَا لي ، فالله لكُمَا أنْ أردَّ عَنْكُما الطّلَبَ ، فدعَا له رَسُولُ الله ﷺ ، فنجَا ، فجعل لايَلْقَى أحَداً إلا قَال : كفيتكم مَا هُنَا ، فَلا يَلْقَى أحَداً إلا ردَّه قال : وَوَفَى لنا .

---

٢٠٢ - البخاري (٦ / ٦٢٢) ٦١ - كتاب المناقب (٢٥) باب علامات النبوة في الإسلام .

ومسلم (٤ / ٢٣٠٩) ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق - ١٩ - باب : في حديث الهجرة .

الرّحل : سرج البعير - وهو الكور - وقد يراد به القتب والحداجة . قائم الظهيرة : أشد الحر وسط النهار ، وقائمها : وقت استواء الشمس في وسط السماء (أنفض لك ما حولك) أي أحرسك وأطوف هل أرى أحداً يطلبك .

قعب : قدح ضخم غليظ . كثبة : الكثبة : القليل من اللبن . ألم يأن : ألم يقرب ويجيء وقت الرواح . الجلد : الأرض الغليظة الصلبة . أتينا : المراد : أنهم لحقونا وأدركونا . فارتطمت : ارتطمت في الوحل : إذا نشبت فيه ولم تكد تتخلص ، وارتطم الرجل في أمره : إذا سدت عليه مذاهبه .

٢٠٣ - * روى البخاري عن أَنَسِ بنِ مَالكٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَال : أَقبَلَ نبي الله ﷺ إلى المدينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْر ، وأبو بَكْرٍ شَيْخٌ يُعرَفُ ، ونبي الله ﷺ شَابٌ لايُعْرَفُ ، فَيَلْقى الرجُلُ أبا بَكرٍ ، فَيَقُولُ : يَاأَبا بكْرٍ ، مَنْ هٰذا الرجُلُ الذي بَيْنَ يَديكَ ؟ فَيَقُولُ : هٰذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبيلَ فَيَحسِبُ الحاسِبُ : أنه إنَّما يَعْنِي الطَّرِيقَ ، وَإنَّما يَعْنِي بِهِ سَبِيلَ الخَيْرِ ، فالْتَفَتَ أبو بكرٍ ، فإذا هُوَ بِفَارِسٍ قد لَحِقَهُم ، فقَالَ : يارَسُولَ اللهِ ، هٰذَا فَارِسٌ قَدْ لحقَ بنا ، فَالتَفَتَ نبيُّ اللهِ ﷺ ، فقَال : « اللهُمَّ اصْرَعْهُ » ، فَصَرَعَتْهُ فَرَسُهُ ، ثُمَّ قَامَتْ تُحَمْحِمُ ، فَقَالَ : يانبيَّ اللهِ ، مُرْنِي بما شِئْتَ ، قَالَ : « فَقِفْ مكانَك ، لاتَتْرُكَنَّ أحَداً يلْحَقُ بنَا » ، فكَانَ أوَّلَ النَّهارِ جَاهِداً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وكان آخر النهار مَسلحةً لَهُ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَانِبَ الحَرَّةِ ، ثم بَعَثَ إلى الأنْصَارِ ، فَجاؤوا إلى نبيِّ اللهِ ﷺ وأبي بَكْرٍ ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِمَا ، وقَالُوا : ارْكَبَا آمِنيْنَ مطاعين ، فرَكِبَ نبيُّ اللهِ ﷺ وأبُو بَكْرٍ ، وحَفُّوا دُونَهُما بالسِّلاحِ ، فَقِيل في المدينَةِ : جاءَ نبيُّ الله ، جَاءَ نبيُّ اللهِ ، فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُون ، ويَقُولُون : جاءَ نبيُّ اللهِ فأَقْبَلَ يَسيرُ حتّى نَزَلَ جانِبَ دَارِ أبي أيُّوب فإنه لَيحَدِّثُ أهلَهُ ، إذ سَمِعَ بِهِ عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ - وَهُوَ في نَخْلٍ لأهْلِهِ يَخْتَرِفُ لَهُم - فَعَجل أنْ يَضَعَ الذِي يَخْتَرِفُ لَهُم فيها ، فَجَاءَ وَهِيَ مَعَهُ ، فَسَمِعَ مِنْ نبيِّ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ رَجَعَ إلى أهْلِهِ ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أيُّ بُيُوتِ أهْلِنَا أقْرَبُ ؟ » فقَالَ أبُو أيُّوبَ : أنَا يانَبيَّ اللهِ ، هٰذِهِ دَارِي ، وَهٰذَا بَابِي ، قَالَ : « فانْطَلِقْ فهيِّئْ لنا مَقيلاً » ، قَالَ : قُوما عَلى بركةِ اللهِ ، فلمَّا جَاءَ رسولُ اللهِ ﷺ ، جَاءَ عبدُ الله بنُ سلامٍ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ ، وأنَّكَ جِئْتَ بالحَقِّ ، وقَدْ عَلِمَتْ يَهُودُ أنِّي سَيِّدُهم وابن سيِّدهم ، وأعْلَمُهم وابنُ أعلَمِهم ، فَادْعُهُمْ ، فَاسْأَلْهُم عَنِّي قَبْلَ أنْ يَعْلَمُوا أنِّي قَدْ أسْلَمْتُ ، فَإنَّهُم إنْ يَعْلَمُوا أنِّي قَدْ أسلَمْتُ قَالُوا فِيَّ مَاليْسَ فِيَّ ، فأرسَلَ

---

٢٠٣ - البخاري (٧ / ٢٤٩) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب هجرة النبي ﷺ .

(وأبو بكر شيخ يعرف ورسول الله ﷺ شاب لايعرف) : لعل الراوي أنسا يعني أن أبا بكر حسب مظهره يبدو أنه أسن من النبي ﷺ والمعلوم أن النبي ﷺ كان أسن من أبي بكر بنحو سنتين ، وهذا ما ذكره ابن حجر في الفتح قال : يريد أن أبا بكر قد شاب .

جاهداً : الجاهد : المبالغ الباذل غاية ما يقدر عليه . مسلحة : المسلحة : قوم ذو سلاح ، والمسلحة أيضاً : كالثغر والمرقب وهو الموضع الذي يقيم فيه قوم يحفظون من وراءهم من العدو ، لئلا يهجموا عليهم ، ويدخلوا إليهم ، وهو بالأعجمية : اليرك . الاختراف : اجتناء الثمر من الشجر .

رَسولُ الله ﷺ ، فأقبلوا فدَخلوا عَلَيْهِ فَقَالَ : « يامَعْشَرَ اليَهُودِ ، وَيْلَكُم ، اتَّقُوا اللهَ ، فَوَاللهِ الذِي لا إلهَ إلاَّ هُوَ إنَّكُم لَتعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ حَقّاً ، وأنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ ، فأَسْلِمُوا » ، قَالُوا : مانعلَمُهُ - قَالَها ثَلاثَ مِرَارٍ - قَالَ : « فأَيُّ رجُلٍ فِيكُم ابنُ سَلامٍ ؟ » قَالُوا : ذَاكَ سيِّدُنا وابنُ سيِّدِنا ، وأعلمُنا وابنُ أعْلَمِنَا ، قال : « أفرأَيْتُم إنْ أَسْلَمَ ؟ » قَالُوا : حَاشَى للهِ ، ماكان ليُسْلِمَ - قَالَها ثَلاثَ مِرارٍ ، وردُّوا عَلَيْه - فَقَالَ : « يا ابْنَ سَلامٍ ، اخْرُجْ عَلَيْهِم » فَخَرَجَ عَلَيْهِم ، فَقَالَ : يامَعشَرَ اليهُودِ ، اتَّقُوا اللهَ ، فواللهِ الذِي لاإلَهَ إلاَّ هُوَ ، إنَّكُم لتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ وأنه جَاءَ بِحَقٍ ، قَالُوا : كَذَبْتَ ، فأَخرَجَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

٢٠٤ - * روى البزارُ عن قيسِ بنِ النعمانِ قَالَ : لمَّا انطلَقَ رسُولُ اللهِ ﷺ وأَبُو بَكْرٍ يَسْتَخفِيَانِ نَزَلاَ بأَبِي مَعْبَدٍ فَقَالَ : وَاللهِ مَالنَا شَاةٌ وإنَّ شَاءَنَا لَحَوَامِلُ فَمَا بَقِيَ لَنَا لَبَنٌ ، فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ - أحسبُه - « فَمَا تِلْكَ الشَّاةُ ؟ » فأُتِيَ بِهَا ، فدَعَا رسولُ اللهِ ﷺ بالبَرَكَةِ عَلَيْها ثمَّ حَلَبَ عُسّاً ، فَسَقَاهُ ثم شَرِبُوا ، فَقَالَ : أَنْتَ الذِي تَزْعُمُ قريش أَنَّكَ صَابِئٌ ، قَالَ : « إنَّهُم ليقُولُون » قَالَ أَشْهَدُ أنَّ ماجِئْتَ بِهِ حَقٌّ ، ثُمَ قَالَ : أَتْبَعُكَ قَالَ : « لا حتى تَسمعَ أَنَّا قَدْ ظَهَرْنَا » فاتَّبَعهُ بَعْدُ .

٢٠٥ - * روى الحاكم عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها قَالَتْ : لما خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِن الغار مُهاجراً وَمَعهُ أَبُو بكرٍ وعامرُ بين فُهَيْرةَ مُرْدِفُه أَبُو بكْرٍ وخَلْفَهُ عبْدُ الله ابنُ أُرَيْقطٍ الليثي ، فَسَلَكَ بِهِمَا أَسْفَل مِن مَكَة ثمَّ مَضى بِهِمَا حَتَّى هَبَطَ بِهِمَا عَلَى السَّاحِلِ أَسْفَلَ مِنْ عسفَانَ ، ثمَّ استَجَارَ بِهِمَا عَلَى أَسْفل أمجٍ ، ثمَّ عَارِضَ الطريقَ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ قُدَيْداً ثمَّ سَلَكَ بِهِمَا الحِجاز ، ثمَّ أَجَازَ بِهِمَا ثَنِيَّةَ المُرَارِ ، ثمَّ سَلَكَ بِهِمَا الحَفياءَ ، ثُم أَجَازَ بِهِمَا مَدْلَجَة لَقْف ثمَّ اسْتَبْطَنَ بهما مِدْلَجةَ صِحَاحٍ ، ثمَّ سَلك بهما مَذْحِجَ ، ثم بَطْن مَذْحجَ مِنْ ذِي الغُصْنِ

---

٢٠٤ - البزار : كشف الأستار (٢ / ٣٠١) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٥٨) وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

عُسّاً : القدح الكبير .

٢٠٥ - الحاكم (٣ / ٨) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي .

ذي الغصن : وادٍ من حرة بني سليم .

السنيه : في الجبل كالعقبة فيه وقيل هو الطريق العالي فيه .

ثمَّ بِبَطْنِ ذِي كشدٍ ، ثمَّ أَخَذَ الجَبَاجِبَ ثمَّ سَلَكَ ذِي سَلَمٍ مِنْ بَطن أَعْلَى مَدْلَجَةِ ، ثم أَخَذَ القَاحَةَ ثمَّ هَبَطَ العَرْجَ ، ثمَّ سَلَكَ ثَنِيَّةَ الغَائِرِ عَنْ يَمِينِ رَكُوبةٍ ثمَّ هبَطَ بطنَ رِيْمٍ ، فَقَدِمَ قُبَاءَ عَلَى بَنِي عَمْرِو بِن عَوْفٍ .

فائدة : عبد الله هو دليل الرحلة وكان مشركًا من بني ليث من كنانة وقد استأجره أبو بكر وفي ذلك ما يدل على أنه إذا لم يوجد مسلم لمهمة لابد منها فبالإمكان الاستفادة من الكافر الثقة .

يلاحظ أن الدليل سار بهم في طريق راعَى فيه كل مقتضيات الأمن وكان رسول الله ﷺ مسلّماً في ذلك مما يدل على أن أخذ الاحتياط الأمني جزء من السنة النبوية .

٢٠٦ - * روى الحاكم عن محمد بن سيرينَ قالَ : ذكَرَ رِجَالٌ عَلَى عهدِ عُمَرَ رضي الله عنْهُ فكأنَّهم فضَّلُوا عُمَرَ عَلَى أبي بكْرٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِك عُمَرَ رَضِيَ الله عنه فَقَالَ : واللهِ لَلَيْلَةٌ مِنْ أبي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ وليَوْمٌ مِنْ أبي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَر ، لَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لِيَنْطَلِقَ إِلَى الغَارِ ومَعَهُ أبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ يَمْشِي سَاعة بَيْنَ يدَيْهِ وسَاعَةً خَلْفَهُ حتَّى فطَنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « ياأبا بكْرٍ مَالَكَ تمْشِي سَاعَةً بَيْنَ يدَيَّ وَسَاعةً خَلْفِي » فَقَالَ : يارسُولَ اللهِ أَذْكُر الطَّلَبَ فأمْشِي خلْفَك ثمَّ أذكُر الرَّصْد فَأَمْشِي بَيْنَ يَدَيْك ، فَقَالَ : « ياأبا بكْرٍ لوْ كَانَ شَيءٌ أَحْبَبْتَ أَنْ يكُونَ بِكَ دُونِي » قَالَ : نَعَم والذي بعثَكَ بالحق ما كَانَتْ لِتَكُونَ مِنْ مُلِمَّةٍ إلاَّ أنْ تَكُونَ بِي دُونَكَ ، فَلَمَّا انْتَهيَا إِلَى الغَارِ قَالَ أبُو بَكْرٍ : مَكَانَكَ يَارَسُول اللهِ حتى أَسْتَبْرِئَ لَكَ الغَارَ ، فَدَخَلَ وأَسْتَبْرَأَهُ حَتَّى إذَا كَانَ فِي أَعْلاهُ ذَكَرَ أَنَّه لَمْ يَسْتَبْرِئِ الجِحَرَة فقَالَ : مَكَانَكَ يارَسُولَ الله حتى أَسْتَبْرِ الجِحَرَةَ ، فَدَخَلَ واسْتَبْرأ ثمَّ قَالَ : انزلْ يارسُولَ الله ، فَنَزَلَ فقَالَ عُمَرُ : والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتِلْكَ الليْلَة خَيْرٌ من آل عُمَرَ .

٢٠٧ - * روى الحاكم عن عروة بن الزُّبَيْر أنهُ سَمِعَ الزبَيْرَ يَذْكُرُ أنَّه لَقِيَ الرَّكْب من المسلمين

٢٠٦ - المستدرك (٣ / ٦) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرساله فيه ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

ملمة : نازلة شديدة من شدائد الدهر . استبرئ : استبرأ الشيء : تقصى بحثه . الجحرة : بكسر الجيم جمع جحر.

٢٠٧ - المستدرك (٣ / ١١) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

كَانُوا تجَّاراً بالشَّام قَافِلين مِنْ مَكةَ عَارَضوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبا بَكْرٍ بثِيَاب بيضٍ حينَ سمعُوا بخُروجِهِم فَلَمَّا سَمِعَ المسلِمُونَ بالمدينَةِ بمَخْرَجِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم كَانُوا يَغْدُون كُلَّ غَداة إلى الحرَّةِ فيَنْتَظِرونَهُ حَتَّى يُؤْذِيَهُمْ حَرُّ الظَّهيرَةِ فانقلبُوا يَوْمًا بَعْدَمَا أطالوا انْتِظَارَهُ فَلَمَّا أوَوْا إلَى بُيوتِهِم أوْفَى رَجل من يَهُودَ أُطُماً مِنْ آطامِهِم لينْظُرَ إلَيْهِ ، فَبَصُرَ برَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَأَصْحَابِهِ مُبَيِّضين يَزُولُ بهم السَّراب فَلَمْ يَمْلِكِ اليَهُودِيُّ أنْ قَالَ بأعْلَى صَوْتِهِ : يامَعْشَرَ العَرَبِ هٰذَا صَاحِبُكُم الذِي تَنْتَظِرُونَ فَثَار المسلِمون إلى السلاح فتلقوا رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بظُهرِ الحَرَّةِ .

٢٠٨ ـ * روى الطبراني عن ابن إسحٰق قَالَ : نَزَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ بِقُبَاءَ عَلَى كُلْثوم بنِ هِرمٍ أخي بَنِي عَمرو بنِ عَوْفٍ ويُقَال : بَلْ نَزَل عَلَى سَعْدِ بنِ خيثمة فَأَقَامَ في بَني عَمرو بنِ عَوْفٍ يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم وخرج من بني عمرو بن عوف، فأدْرَكَتْهُ الجمعَةُ فِي بَنِي سَالِم بنِ عَوْفٍ فَصَلَّى الجمعَة في المَسْجِد الذي ببَطْنِ الوَادِي قَالَ ابنُ إسْحٰاق : ثم نَزلَ رسُول اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي أَيُّوب ، وأَمَر رَسُولُ الله ﷺ ببِنَاء مسْجدِهِ في تِلْكَ السَّنَة .

٢٠٩ ـ * روى الطبراني عن الشَّموس بنت النعمان قَالتْ نَظَرْت إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ حينَ قَدِمَ وَنَزَلَ وأَسَّسَ هٰذَا المَسْجِدَ مسجدَ قبَاء فَرأيْتهُ يأخُذُ الحجرَ أو الصَّخْرة حتَّى يَهْصُرَه الحَجَرُ، وأنظر إلى بَيَاضِ الترابِ على بطْنِهِ أو سُرَّتِهِ فيَأتي الرَّجُلُ مِنْ أصحَابِه وَيَقولُ بأبِي وَأُمِّي يارسُولَ اللهِ أعْطِنِي أكفِكَ فيَقُول : « لا ، خُذْ مِثْلَه » حَتَّى أَسَّسَهُ . ويقولُ : « إنَّ جبْرِيلَ عليْهِ السَّلاَمُ هُوَ يَؤُمُّ الكعْبَة » قَالَ فَكَانَ يُقَال إنَّه أقوم مَسجد قِبلةً .

٢١٠ ـ * روى الطبراني عن عَاصِم بنِ عَدِي قالَ قدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الاثنيْنِ لاثْنَتَي

قافلين : راحعين ـ القافل الراجع من سفره . أوفى . أشرف واطلع . مبيضين : بكسر الياء أي هم ذو ثياب بيض .

آطامهم : الأطم : البناء المرتفع .

٢٠٨ ـ المعجم الكبير (٦ / ٣٠) ومجمع الزوائد (٦ / ٦٢) . قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله ثقات

٢٠٩ ـ المعجم الكبير (٢٤ / ٣١٨) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤ / ١١) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

يهصره : أي يميله .

٢١٠ ـ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٦٣) · رواه الطبراني ورجاله ثقات .

عَشَرةَ ليلَة خَلَت مِن رَبيعِ الأَوَّلِ فأَقَامَ بالمدينَةِ عشْرَ سِنِينَ .

٢٢١ ـ * روى الحاكم عن أنس رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنه قَالَ : شَهِدْتُ يَوْم دَخَلَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المدينةَ فَلَمْ أَرَ يَوْمًا أَحْسَنَ وَلا أَضْوَءَ مِنه .

٢١٢ ـ * روى الحاكم عن أبي بكر الصدّيق رَضِيَ اللهُ عنهُ قَالَ : وَمَضَى رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم حَتَّى قدم المدينة وخَرَجَ النَّاسُ حَتَّى دَخَلْنَا في الطَّرِيقِ وَصَاحَ النِّسَاءُ والخُدَّامُ والغِلْمَانُ جَاءَ رَسُولُ اللهِ اللهُ أكبرُ جاءَ مُحَمَّدٌ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ، فلَمَّا أَصْبَحَ انْطَلَقَ فَنَزلَ حَيْثُ أُمِرَ .

هذا الحديث أصل في جواز الهتاف الذي اعتاده أبناء الحركة الإسلامية في المناسبات .

٢١٣ ـ * روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لَمَّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة لَعِبَتِ الحبَشَةُ لِقُدُومِهِ ، فَرَحاً بذلك ، لَعِبُوا بِحِرَابهم » .

٢١٤ ـ * روى الحاكم عن عكرمة قالَ لماّ خَرَجَ صهيبٌ مُهاجِراً تَبِعَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَنَثَلَ كِنَانَته فَأخرج منها أَرْبعينَ سَهْمًا فَقَالَ : لاتصِلُونَ إليَّ حَتَّى أَضعَ في كُلِّ رَجُلٍ منْكم سَهْماً ثم أصِيرُ بَعدُ إلى السَّيفِ فَتَعلَمُونَ أَنِّي رجل وقَد خَلَفْتُ بِمَكَّةَ قَينَتَيْنِ فهُمَا لَكُم . قَالَ (وحدَّثَنَا) حَمَّادُ بن سَلَمَة عَن ثابتٍ عَنْ أَنسٍ نَحوهُ وَنَزَلَتْ عَلَى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَه ابتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله ﴾ الآية فَلَمَّا رآه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ « أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعُ » قَالَ : وتَلا عَلَيْهِ الآية .

٢١٥ ـ * روى الحاكم عن سعيد بن المسيَّب عن صهيب قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم : « أُريتُ دَارَ هِجْرَتِكُم سَبْخَة بيْن ظَهْرانِي حَرَّة فإمَّا أَن تكونَ هَجَرا أَوْ تكُونَ يَثْرِبَ » قَالَ : وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينَةِ ، وخَرَجَ مَعَه

---

٢١١ ـ المستدرك (٣ / ١٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢١٢ ـ الحاكم (٣ / ١٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢١٣ ـ أبو داود (٤ / ٢٨١) كتاب الأدب ، باب في النهي عن الغناء . وإسناده صحيح .

فنثل : نثل الشيء نثلاً : استخرجه .

٢١٤ ـ المستدرك (٣ / ٣٩٨) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي .

٢١٥ ـ المستدرك (٣ / ٤٠٠) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه وكنتُ قد هممتُ بالخروجِ معه فَصَدَّني فِتْيانٌ مِنْ قريشٍ فجعلتُ لَيلَتي تلْكَ أقُومُ ولا أقعد فقَالوا : قد شغلـه الله عنكم ببطنـه وَلَم أكُنْ شـاكِيًـا فقـاموا فَلَحِقَني منهم نَاسٌ بَعْـدَ مَـا سِرْتُ بريـدًا ليَرُدّوني فَقُلتُ لَهُم : هَلْ لكُم أنْ أعطيكُم أواقي مِنْ ذَهَبٍ وتُخلُّون سَبِيلي وتَفُون لِي فَتَبعْتُهم إلى مَكَّة فقلتُ لَهُم : احْفُروا تَحْتَ أُسْكُفَّةِ البَابِ فـإنَّ تَحتهـا الأواق واذهبوا إلى فُلانَـة فخـذُوا الحُلَّتينِ وخرجتُ حَتَّى قَـدِمتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليـه وآلـه وسلم قبل أن يتحول منهـا يعني قبـاء فلمَّـا رَآني قَـال : « يَـاأبَـا يَحْيَى رَبِحَ البيْعُ » ثَـلاثًـا فقُلتُ : يـارَسُـولَ اللهَ مـا سَبَقني إليْــك أحَـدٌ وَمَـا أَخْبَرَك إلا جبْرِيــلُ عليْــه السَّــلامُ.

٢١٦ ـ * روى الحـاكم عن صهيب ، قــالَ : قَــدِمْتُ عَلَى رسـول اللهِ صلى اللهعليـه وآلــه وسلم بالهجرَةِ وَهُوَ يَأكُل تمرًا فأقبَلتُ آكُلُ مِن التَّمْرِ وبعَيني رَمَدٌ فَقَال : « أتأكُلُ التَّمرَ وبِـكَ رَمَـدٌ » فَقُلْتُ إنَّمَا آكُلُ عَلَى شِقِّي الصَّحِيحِ لَيْسَ بِهِ رَمدٌ قَالَ : فضَحِكَ رَسولُ الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم.

٢١٧ ـ * روى البخـاري ومسلم عن أسماءَ بنتِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ الله عنْهُما ، أنَّهـا حَمَلَتْ بعبْـدِ اللهِ ابنِ الزُّبَيرِ بمكَةَ ، قَالَتْ : فَخَرَجْتُ وَأنا مُتِم ، فَأَتَيْتُ المدِينَةَ ، فَنَزلتُ بقُبـاءَ ، فَوَلَـدْتـه بقُبَـاءَ ، ثُمَّ أَتَيتُ رَسُولَ الله ﷺ ، فوضَعَه في حِجرهِ ، ثُمَّ دَعَـا بتَمْرةٍ فَمَضَغَهـا ، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيـه ، فَكَان أوَّلَ شَيء دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ حنَّكَه بالتَّمرةِ ، ثُمَّ دَعَا لَهُ ، وبرَّك عَلَيـهِ ، وكَان أوَّلَ مَولُودٍ ولِدَ في الإسْلام » .

وفي رواية : ففرحوا به فرحًا شديدًا لأنَّهُم قِيلَ لَهُم : إن اليَهُود سَحَرَتكم فلا يولد لَكُمْ .

٢١٨ ـ * روى مالك عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قَالَتْ : لَمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينَةَ

---

٢١٦ ـ المستدرك (٣ / ٣٩٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢١٧ ـ والبخاري (٧ / ٢٤٨) ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٤٥ ـ باب . هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

متمٌّ : أتمت الحامل : دنا وقت ولادتها ، وأتمت أيام حملها فهي متمّ .

مسلم (٣ / ١٦٩١) ٣٨ ـ كتاب الآداب ـ ٥ ـ باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ، وحمله إلى صالح يحنكه .

٢١٨ ـ الموطأ (٢ / ٨٩٠) ٤٥ ـ كتاب الجامع (المدينة) ٤ ـ باب ما جاء في وباء المدينة .

والبخاري (٤ / ٩٩) . ٢٩ ـ كتاب فضائل المدينة ، باب ١٢ .

ومسلم (٢ / ١٠٠٣) . ١٥ ـ كتاب الحج ـ ٨٦ ـ باب : الترغيب في سكنى المدينة ، والصبر على لأوائها .

وعك : وعك فلان أصابه ألم من شدة التعب ، ووعك المرض فلاناً آذاه وأوجعه . أقلع : أقلع الشيء : انجلى وانكشف . العقيرة : الصوت رفع عقيرته : رفع صوته من الألم .

وُعِـكَ أبـو بَكْرٍ وبـلالٌ ، قَـالَتْ : فَـدَخَلتُ عليهما ، فقُلتُ : يَـاأَبتِ ، كَيْفَ تَجِـدُكَ ؟ ويَابلالُ ، كيف تجِدُكَ ؟ قَالت : فكانَ أَبُو بَكر إذا أَخذَته الحُمّي يَقُول :

كُـلُّ امْـرِئٍ مُصَبَّـحٌ فـي أَهلِـهِ والمَـوْتُ أَدْنَـى مِـنْ شِـراكِ نَعْلِـهِ

وَكَان بلاَل إِذَا أُقلِع عنهُ ، يَرْفَع عَقِيرَتَهُ فَيقُولُ :

أَلا لَيـتَ شِعْـرِي هَـل أَبيتَـنَّ ليلَـةً بِـوادٍ ، وَحَـولي إِذْخِـرٌ وَجليـلُ ؟

وَهَـل أَرِدَنْ يَـوْمًـا مِيَـاهَ مَجَنَّـةٍ وَهَلْ يَبْدُوَنَ لـي شَـامَةٌ وَطفيـلُ ؟

قَالَتْ عائشةُ : فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : « اللهمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدينَةَ كحُبِّنا مَكَّةَ أو أَشَدَّ ، وَصحِّحْها ، وبَارك لَنَا في صاعِها ومُدِّها ، وانقُل حُمَّاها فاجْعَلهَا بالجُحْفَةِ » .

وفي رواية نحوه ، وزَادَ بَعْدَ بيتَيْ بلالٍ من قوله : اللهم الْعَنْ شيبة بنَ ربيعةَ ، وعُتْبةَ ابنَ ربيعةَ ، وأُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ ، كما أخْرجُونَا مِنْ أرضِنَا إلى أرض الوبَاء . ثُمَّ قَالَتْ : قَال رسولُ اللهِ ﷺ : « اللهمَّ حبِّبْ إِلَيْنَا المدينة ... » .

وذَكَرَ بَاقِي الدُّعَاء . قَالَتْ : وقَدِمْنا المدينَةَ وهيَ أَوْبأُ أَرْضِ اللهِ ، قَالَتْ : وَكَانَ بُطحَانُ يَجْرِي نَجْلاً ، تَعْنِي ماءَ آجِنا » .

وأخرج الموطأ عقِيبَ هذا الحديث عن يحي بن سعيد أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتَ : وكَانَ عَامِرُ ابنُ فُهيْرةَ يَقُولُ :

لَقَـدْ رَأَيْـتُ المَـوتَ قَبْـلَ ذَوْقِـهِ إِنَّ الجَبَـانَ حَتْفُـهُ مِـنْ فَـوْقِـهِ

٢١٩ ـ روى النسائي عن عَبْدِ اللهِ بنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما قَالَ : إن رَسُولَ اللهِ ﷺ وأبا بَكْرٍ وعُمَرَ كانوا مِنَ المهاجِرِينَ ، لأَنَّهُم هَجَرُوا المشركِينَ ، وكَانَ مِن الأَنْصَارِ مُهَاجِرُون، لأَنَّ المدينَة كَانَتْ دَارَ شِركٍ ، فجاؤوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ليلةَ العقبةِ .

---

٢١٩ ـ النسائي (٧ / ١٤٤) كتاب البيعة ـ باب تفسير الهجرة . وإسناده صحيح .

٢٢٠ - * روى البزارُ عن حذيفةَ قَالَ : خَيَّرَنِي رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ الهجرةِ والنُّصْرَة فاخْتَرْتُ الهِجْرَة .

وكان حذيفة بن اليمان من عبس وفَدَ مع أبيه إلى المدينة قبل الهجرة النبوية .

٢٢١ - * روى الحاكم عن عبدِ الله بن عَمْرو رضيَ الله عنه قَالَ : قَالَ لي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم : « أتَعْلَم أوَّل زُمْرَة تَدْخُلُ الجَنَّةَ من أمَّتِي » قَالَ : اللهُ وَرَسُولهُ أعْلَم فَقَالَ : « المُهَاجِرُون يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ إلى بَابِ الجَنَّةِ ويَسْتَفْتِحُونَ فَيَقُولُ لَهُمُ الخَزَنَةُ أوَ قَدْ حُوسِبْتُم فَيَقُولُونَ بأيِّ شَيءٍ نُحاسَبُ وَإنَّما كَانَت أسْيَافُنا عَلَى عَوَاتِقِنَا في سبيلِ اللهِ حَتَّى مِتْنَا عَلَى ذَلِكَ قَالَ : فَيُفْتَحُ لَهُم فَيَقِيلُونَ فيه أرْبعين عَاماً قبْلَ أنْ يَدْخُلَها النَّاسُ »

وبقيت الهجرة مستمرّة إلى المدينة المنوّرة في حياة الرسول ﷺ حتّى فتح مكّة عندئذ قال رسول الله ﷺ « لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة » لكن بقيت الهجرة مشروعة حيث وجدت أسبابها : من خوف فتنة في دار الكفر أو البدعة إلى وجوب تجمّع في دار الإسلام لصالح جهاد أو قوّة للإسلام والمسلمين ، ومن تأمل هذه المعاني عرف كيف يحمل النصوص اللاحقة على محاملها الصحيحة .

٢٢٢ - * روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس : كان قدومُنا على رسول الله ﷺ لخمسٍ من الهجْرةِ خرجنا متواصِلين مع قريشٍ عامَ الأحزابِ وأنا مع أخي الفضلِ ومعنا غلامُنا أبو رافعٍ حتى انتهيْنا إلى العَرْج ثم أخذنا في طريق حتى خرجنا على بني عمرو بن عوف فدخلنا المدينة فوجدناه ﷺ في الخندق وأنا يومئذ ابن ثمانِ سنينَ وأخي في ثلاثَ عشرةَ .

---

٢٢٠ - البزار « كشف الأستار » (٢ / ٢٦٥) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٦٥) وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو حسن الحديث .

٢٢١ - المستدرك (٢ / ٧٠) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢٢٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٦٤) : رواه الطبراني في الأوسط من طريق عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري عن سليمان بن داود بن الحصين وكلاهما لم يوثق ولم يضعف ، وبقية رجاله ثقات .

٢٢٣ ـ * روى النَّسـائي ـ عن يعلى بن أميـة : جئت رسـولَ اللهِ ﷺ بـأبي أميـة يـومَ الفتْحِ فقُلْتُ : يارسولَ اللهِ بايعْ أبي على الهجرة فقال : « أبايعُه على الجهاد وقدِ انقطَعتِ الهجرةُ » .

٢٢٤ ـ * روى النَّسائي عن عمَرَ ، قال : لا هِجْرَةَ بعد وفاةِ رسول اللهِ ﷺ .

٢٢٥ ـ * روى النَّسـائي عن ابن عمرو بن العـاص : قـال رجلٌ يـارسولَ اللهِ أيُّ الهجرةِ أفضلُ ؟ قال : « أن تَهْجُرَ ما كَرِه ربُّـكَ » وقـال : « الهجرةُ هجرتـان هجرةُ الحـاضرِ وهجرةُ البـادي فـأمـا البـادي فيُجيبُ إذا دُعِي ويُطيعُ إذا أُمرَ وأمـا الحـاضرُ فهو أعظمُها بليةً وأعظمُها أجرًا » .

أما الأحاديث التي تدل على عدم انقطاع الهجرة إذا وجدت أسبابها فمنها :

٢٢٦ ـ * روى النَّسائيُّ عن عبدِ الله بن السعديِّ : قلت يـارسول الله يزعمون أن الهجرة قد انقطعت قال : « لا تنقطعُ الهجرةُ ماقوتِل الكفار » .

٢٢٧ ـ * روى أبو داودَ عن معاويةَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليـه وآلـه وسلم قـال : « لا تنقَطِعُ الهجرةُ حتى تنقطعَ التوبةُ ، ولا تنقطعُ التوبـةُ حتى تطْلُع الشمسُ من مَغْرِبِهَا » .

قال ابن حجر : وروى الإسماعيلي عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفـظ : (انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولاتنقطع الهجرة مـاقوتل الكفـار) . أي مادام في الـدنيـا دار كفر ، فـالهجرة واجبـة منهـا على من أسلم وخشي أن يفتن عن دينـه ، ومفهومه أنه لو قدر أن لايبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها ، والله أعلم .

---

٢٢٣ ـ النسائي (٧ / ١٤١) كتاب البيعة ، باب ـ البيعة على الجهاد وسنده حسن .

٢٢٤ ـ النسائي (٧ / ١٤٦) كتاب البيعة ، باب ـ في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة وسنده حسن .

٢٢٥ ـ النسائي (٧ / ١٤٤) كتاب البيعة ، باب ـ في هجرة البادي وسنده حسن .

٢٢٦ ـ النسائي (٧ / ١٤٦) كتاب البيعة ، باب ـ في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة وسنده حسن .

٢٢٧ ـ أبو داود (٣ / ٣) كتاب الجهاد ، باب ـ ما جاء في الهجرة وسكنى البدو . وسنده صالح .

٢٢٨ - * وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله السعدي : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لاتنقطعُ الهجرةُ مادامَ العدو يُقاتل » ، فقال معاويةُ ، وعبدُ الرحمن ابن عوف وعبدُ الله بن عمرو بن العاص : إن النبي ﷺ قال : « إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجرَ السيئاتِ ، والأخرى أن تهاجرَ إلى اللهِ ورسولهِ . ولاتنقطعُ الهجرة ما تُقُبِّلت التوبة ، ولاتزالُ التوبةُ مقبولةً حتى تطلعَ الشمسُ من المغربِ فإذا طلعتْ طُبِع على كل قلبٍ بما فيه ، وكُفي الناسَ العملَ » .

تعليق :

إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها ومن مقدماتها إلى ماجرى بعدها يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائماً وأن التخطيط جزء من السنة النبوية وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ماطولب به المسلم وأن الذين يميلون إلى العفوية بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة أمثال هؤلاء مخطئون ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين .

---

٢٢٨ - أحمد في مسنده (١ / ١٩٢) وإسناده صحيح .

فوائد من كتاب الهجرة للدكتور محمد أبو فارس

ـ إن الهجرة أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية ، إذ بالهجرة تكوّن الكيان السياسي للأمة الإسلامية لنشر الإسلام والدفاع عن حرماته .

ـ ولأهميتها كان التأريخ بالهجرة ولم يكن بغيرها من الأحداث الهامة كالميلاد والبعثة أو وقعة بدر أو ما شابه .

ـ ولم يؤرخ المسلمون بتأريخ غيرهم حفاظاً على استقلالية الأمة وتميزها .

ـ تعلمنا الهجرة كيف أن على الدعاة أن يبحثوا دائماً عن أماكن خصبة للدعوة تكون مركز انطلاق ونواة تأسيس .

ومن دروس الهجرة أيضاً :

ـ أن في الهجرة رد على من يقول أن الأحداث مبعثها حاجات الإنسان المادية والدوافع الجنسية والبطنية . فهذه الهجرة فر أصحابها بدينهم وتركوا أموالهم وديارهم دون ربح مادي .

ـ بروز عنصر التخطيط في هذه الهجرة وأهمية ذلك في حياة المسلمين ، فكان الهدف محدداً والوسائل محددة والعقبات مأخوذة بالحسبان واختيار الطريق والمكان والتموين ومن يحمل الأخبار والدليل ؛ كل ذلك مؤمّن ، مع إحاطة ذلك بالسرية والحيطة والحذر وكل ذلك ينبئ عن تخطيط وتنظيم وترتيب لا مثيل له .

ـ ينبغي على المسلم ألا يغفل أبداً عن جانب الدعاء إلى الله والتوجه إليه وطلب العون والنصرة منه ـ مع الأخذ بالأسباب ـ إذ إن الأول هو الأهم في حياة المسلم وكان هذا واضحاً في هجرة الرسول ﷺ بل وفي كل حركاته وسكناته .

ـ من معاملة أبي بكر لرسول الله ﷺ يتجلى الحب الصادق والتضحية بالنفس ، وتجلى هذا في الغار وعند الخروج منه ، وفي الطريق حينما كان يمشي تارة خلفه وتاره أمامه وتارة عن يمينه ...

ـ نجد رسول الله ﷺ في طريقه يدعو من يراه إلى الإسلام ، وكان من ذلك أن أسلم بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قوم ، مما يدل على أن الداعية يجب أن لايفتر عن الدعوة إلى الله بل يغتنم كل فرصة تلوح له ولا يزهد بشيء من ذلك[1]

* * *

(١) انظر كتاب : في ظلال السيرة النبوية ـ الهجرة النبوية للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس .

تأملات في العهد المكي وتصويبات

أخذنا فيا مضى تصوراً إجماليا عن المرحلة المكية ، والتفصيل الكامل يحتاج إلى جهود كثيرة لايطيقها فرد ، واستكمال صورة العهد المكي يقتضي عرضاً للقرآن المكي ونقصد به القرآن الذي نزل قبل استقرار رسول الله ﷺ في المدينة وهذا القسم من القرآن يكاد يكون نصف القرآن ، والصحابة الذين عاصروا تنزل القرآن كان عندهم علم بأمكنة النزول وتسلسل النزول وأسباب النزول .

ولو أن هذا العلم وصلنا كاملاً لأمكن من خلاله أن نعرف المسيرة العلمية والتربوية لرسول الله ﷺ وأصحابه ، ولأمكننا أن نعرف كيف كان التدرج في بناء النفس والأمة بشكل تفصيلي ، وزيادة على ذلك فإنه كان بالإمكان أن نعرف تفاصيل دقيقة عن سيرة رسول الله ﷺ ، ولكن هذا العلم لم ينقل لنا بشكل تفصيلي كامل ، وإذا نقل ففي حدود ضيقة ، وذلك لأن الجيل الأول والأجيال اللاحقة لم يقدروا أن لذلك أهمية كبيرة ما دام ترتيب القرآن توقيفياً والله عز وجل هو الذي تولى ترتيبه ، وقد رأينا في كتابنا (الأساس في التفسير) الحكمة بل المعجزة في هذا الترتيب .

ونتيجة لعدم وصول دقائق تاريخ النزول ؛ فإن العلماء اجتهدوا في تحديد ترتيب نزول السور القرآنية ، فكان عملهم اجتهادياً من ناحية وإجمالياً من ناحية أخرى ، ولذلك فإذا ما تكلف متكلف أن يقدم عرضاً لأحداث السيرة من القرآن فالإجمال والاجتهاد هما عمله ، نسجل هذا كأول ملاحظة على استحالة الفصل بين المرحلة المكية والمدنية من الناحية التشريعية البحتة ، ومن ههنا ننطلق لنقول :

إنّ الذين يعتبرون المرحلة المكية إمامهم في العمل الإسلامي بمعنى أنهم مطالبون بها وحدها ومكلفون بالاقتداء برسول الله ﷺ في حدودها فقط ، هؤلاء جاهلون بالإسلام .

فالتشريع الإسلامي اكتمل والأمة الإسلامية مطالبة به كله ، فهي مطالبة بالكتاب كله وبالسنة كلها ، وبما استقر عليه التشريع في المرحلتين المكية والمدنية .

إن الحج والصوم والحدود والقصاص والجهاد وغير ذلك ، كل ذلك لم يكن مفروضاً في المرحلة المكية فمن اعتبر نفسه مكلفاً بالمرحلة المكية وحدها في بعض الشئون عليه أن يفطن لما يترتب على تفكيره من إلزامات توصله للكفر فإذا وضح هذا وهذا نقول :

إننا مطالبون أن نقتدي برسول الله ﷺ في كل ما لم ينسخ وما لا يعتبر خاصاً به ، وعلى هذا الأساس فكل ما لم ينسخ من المرحلة المكية أو ما لا يعتبر خاصاً به عليه الصلاة والسلام فهو محل الطلب منا ، وهو محل التكليف فإذا ما اتضح هذا نقول :

لقد ركز القرآن المكي على معان بعينها وجاء القرآن المدني فأكمل وتمم ، وقد يكون من المناسب أن نلحظ في التربية الأولى للإنسان هذه المعاني مع ملاحظة أن ذلك تحصيل حاصل لمن يأخذ الكتاب والسنة جملة وتفصيلاً ، لقد ركز القرآن المكي على اليقين ونفي الريب وجاءت في ذلك سور كثيرة ، كما ركز على الإيمان بالغيب والصلاة والإنفاق وعتق الرقاب والإحسان إلى الناس عامة والضعفاء والأيتام خاصة وجاءت في ذلك سور ، وركز على أخلاق بعينها وعلى أعمال صالحة من مثل ما يدخل في تزكية النفوس ، ومن مثل التواصي بالحق والصبر والتواضع وعدم الاختيال وعدم رد السيئة بمثلها وقيام الليل وعدم الإسراف ، وإنصات القلب لآيات الله والحرص على صلاح الذرية وترك الزنا والسرقة والإقبال على الله بصلة الوالدين والأرحام ، وركز على عبادة الله وحده والإخلاص فيها وعدم مشاركة الكافرين في عبادتهم .

وركز على إقامة الحجة على الكافرين وتبيان الكفر وأخلاقه وأسبابه وشبهه وأقوال أهله .

وركز على التذكير بالنعم لاستخراج الشكر .

وركز على أن القدوة الحسنة في الحياة البشرية هم الرسل .

وركز على تبيان أن الخلقين الرئيسيين الواجبي الاجتناب هما : الحسد والكبر ، وهما خلقا الشيطان .

وركز على اتباع الوحي وترك اتباع الشيطان وأئمة الضلال .

هذه المعاني وغيرها تعرض لها القرآن المكي وركز عليها ، ولكنها ليست خاصة به بل هي سمة القرآن كله .

ومن ههنا لا نجد مسوغاً للتمييز بين التكليف المكي والتكليف المدني ، فنحن الآن مكلّفون بالإسلام كله ومن جملته المرحلة المكية .

في العهد المكي وجدت مرحلة سرية ، وللمسلمين إذا وجدت ظروف أن يلجأوا إلى الدعوة السرية ، ولكن هل نحن مقيدون أن تكون هذه المرحلة السرية في حدود تلك المرحلة ؟ ثم إذا خرجنا منها ألا نعود إليها ، إن الذين يريدون أن يفهموا المرحلة المكية كذلك لايدركون حقائق هذا الإسلام ، فالفتوى تقدر زماناً ومكاناً وشخصاً ، ونادراً ما تتكرر الظروف التي مرت في مرحلة بحيث تكون طبق الأصل ، والشريعة الإسلامية جاءت لتلبي كل ظرف وكل وضع ولتعطيه الحكم المناسب المستخرج من الكتاب والسنة .

* * *

فإذا ما اتضح هذا الذي قدمناه وانتفى المحذور فإننا ننصح دارس القرآن الراغب في فهم المرحلة المكية أن يتأمل السور التي توصف بأنها مكية فإن ذلك يفتح عليه آفاقاً في الفهم والسلوك والدعوة ، كما يعطيه كمالاً في فهم المرحلة من الناحية التاريخية والنفسية والعملية والتكليفية .

فمن خلال ذلك يدرك كيف تدرج التكليف ، ويدرك الأوليات والأساسيات في هذا التكليف ، ويدرك كيف تكامل البناء على الزمن ، ويدرك لماذا استطاع هؤلاء العدد القليل أن يصهروا بعد ذلك أضعاف أضعافهم ثم استطاعوا هم ومن صهروهم أن يصهروا الشعوب والأمم ، كما يستطيع أن يدرك مَن مِن الناس مؤهلون ومرشحون لبناء الدول والمحافظة عليها والتوسع من خلالها ، إن هذا كله يتأتى لنا من خلال دراسة متأنية للقرآن المكي ، وهذا شيء وأن تعتبر المرحلة المكية وحدها هي مناط التكليف شيء آخر ، فنحن نحذر من هذا وندعو إلى ذاك .

* * *

الباب الثالث

مِنَ

الاستقرار في المدينة حتّى الوفاة

هذه المرحلة في سطور

أرّخ المسلمون بالمجرة ؛ لأهميتها كعلم بارز في تاريخ الدعوة النبويّة ، لِمَا للهجرة من آثار على انتصار الدعوة وظهورها ، ولأنه بالهجرة ولدت دولة الإسلام .

ولم يبدأوا التأريخ من يوم وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة ، بل منذ بدأ الأصحاب يتوافدون على المدينة ، ولذلك تبدأ السنة الهجرية بالمحرم مع أنّ الرسول ﷺ وصل إلى المدينة بعد ذلك .

ولأهميّة الهجرة فقد اعتاد المسلمون أن يحيوا هذه الذكرى ، وأن يجدّدوا لها فرحا . وقد انتكس من أرّخ بالوفاة لمخالفته للإجماع ، وكأنه أراد أن يقطع على المسلمين طريق الفرح بالذكرى ، فأرّخ بالوفاة ليقطع الدوافع التي تحييها ذكرى الهجرة ليستبدلها بالحزن .

وقد قضى الرسول ﷺ في المدينة المنورة عشر سنين كانت مليئة بالأحداث ، ثرّة بجلائل الأعمال وعظيها ، فتحت الطريق أمام المسلمين للسيطرة على مقاليد هذا العالم إن أحسنوا العمل والتأسي ، ونحن سنعرض هذه المرحلة حسب السنين مبتدئين بأحداث السنة الأولى ثم الثانية وهكذا إلى السنة الحادية عشرة .

* * *

من ملامح هذه المرحلة

١ ـ أنها مرحلة حركة مستمرة دعوياً وتربوياً واجتماعياً واقتصادياً وقانونياً ودستورياً وسياسياً وعسكرياً ، يتلاحم فيها العمل الدعوي والتربوي مع العمل السياسي والعسكري .

٢ ـ أنّها مرحلة عمل وجهاد متواصلين لتحقيق الأهداف ، ومنها أخذ الأستاذ البنا فكرته عن التنفيذ .

٣ ـ كما أنّها مرحلة تجريد شامل للنفس فلا تبقى نزعة للنفس إلا وهذّبت ، ولا مظهر ارتخاء إلا وشدّ نحو المثل الأعلى ، فوجد بذلك وغيره جيل ليس له مثيل « خير القرون قرني » .

٤ ـ وهي مرحلة إحكام للبناء الداخلي للمجتمع والأمّة والدولة ؛ يظهر ذلك في الإخاء والمؤاخاة بين المسلمين وفي التحالفات مع المواطنين من غير المسلمين ، وفي الصيغ الدستورية والعمليّة لضبط العلاقات السياسيّة والاجتماعيّة .

٥ ـ وهي مرحلة توسّع فيها الصراع الفكري فشمل دوائر جديدة : أهل الكتاب ، المنافقين ، المجوس .

٦ ـ وبهذه المرحلة قام البناء السياسي للإسلام وللمسلمين ، ووجد اللواء الأوّل للسلطان السياسي للأمّة الإسلاميّة في رحلتها الخاتمة .

٧ ـ ومن ملامح الحركة السياسيّة في هذه المرحلة أنّها كانت بحثًا عن الأحلاف وفصلاً بين الأطراف ، ولذلك لم يستطع الأعداء أن يلتقوا على حرب الإسلام في وقت واحد إلّا مرّة واحدة يوم الأحزاب ، ومع ذلك فقد قصم الرسول ﷺ هذا التحالف .

٨ ـ ومن ملامح الحركة العسكريّة أنّها كانت مطّردة مستمرّة ، ويكفي أن نعرف أنّ بعضهم أوصل مجموع سراياه وبعوثه وغزواته العسكرية إلى المئة خلال عشر سنين لندرك مدى الحركيّة والفاعليّة التي حفلت بها هذه المرحلة .

* * *

السَّنَة الأولى لِلهجْرَة

أحداث السنة الأولى في سطور

١ - في يوم الإثنين ٨ ربيع الأول - على القول الراجح - سنة ١٤ من النبوة الموافق لسنة ٦٢٢ م ، وصل الرسول ﷺ إلى قباء ، وأقام بها أربعة أيّام (الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس) - على القول الراجح - وأسس فيها مسجد قباء ، وصلّى فيه ، وهو أوّل مسجد أسس ، وفي يوم الجمعة انطلق إلى المدينة ، فأدركته الجمعة في منازل بني سالم بن عوف ، فأقام أول صلاة جمعة في الإسلام وخطب فيها ، ودخل المدينة بعد صلاة الجمعة تاركاً لناقته العنان ، وكان مسجده ومنزله حيث بركت ناقته ، ونزل ريثما أسّس مسجده وبنى بيوته في دار أبي أيّوب الأنصاري .

٢ - قام الرسول ﷺ في المدينة بخطوات ثلاث :

أ - بناء المسجد النبوي ، فأوجد بذلك مركزاً للعبادة ، ومقراً للتجمع ، ومنطلقاً للحركة .

ب - آخى بين المهاجرين والأنصار ، فحلّ مشكلة الهجرة عن أقرب طريق ، وصهر بين المقيمين والوافدين أقوى صهر وأجوده .

جـ - كتب وثيقة دستورية متفقاً عليها بين سكّان المدينة جميعاً - مسلمين ومشركين ويهود - ، وهكذا رتّب أمور البيت الداخليّة مباشرة .

٣ - بدأت تهديدات قريش تتوالى ، ونزل الإذن بالقتال ، وأخذ الرسول ﷺ يرسل سراياه للاستطلاع ، ولإيجاد التعبئة النفسيّة ، ولعقد تحالفات مع القبائل القاطنة حول المدينة أو في الطرق التجاريّة لقريش .

٤ - أرسل في السنة الأولى للهجرة ثلاث سرايا ، لخص الحديث عنها صاحب الرحيق المختوم بما يلي :

(١) سريّة سيف البحر (أي : ساحل البحر) في رمضان سنة (١) هـ الموافق سنة ٦٢٣ م :

أمّر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترض عيرًا لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص [1] ، فالتقوا واصطفوا للقتال ، فمشى مجدي بن عمرو الجهني - وكان حليفاً للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أبيض وكان حاملُه أبا مَرْثَد كَنّاز ابنَ حُصَين الغَنَوِي .

(٢) سرية رابغ ، في شوال سنة (١) من الهجرة - أبريل (نَيْسَان) سنة ٦٢٣ م :

بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابغ ، وقد ترامى الفريقان بالنبل ، ولم يقع قتال .

وفي هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو البهراني ، وعتبة بن غزوان المازني ، وكانا مسلمين ، خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين . وكان لواء عبيدة أبيض ، وحامله مسطح بن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف .

(٣) سرية الخرار (موضع بالقرب من الجُحْفَة) في ذي القعدة سنة (١) هـ الموافق مايو (آيار) سنة ٦٢٣ م :

بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين راكباً يعترضون عيراً لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار ، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض ، وحمله المقداد بن عمرو .

---

(١) العيص : مكان بين ينبع والمروة من ناحية البحر الأحمر .

٥ ـ عاقد في هذه السنة جهينة على ألّا يعتدوا ولا يعينوا ، وكانت مساكِنهم على ثلاثة مراحل من المدينة المنوّرة .

٦ ـ بنى في هذه السنة بالسيدة عائشة رضي الله عنها ، وكان قد عقد عليها بمكة قبل الهجرة ، وشرع في هذه السنة الأذان .

وسنعقد عدداً من الفصول مما يحسن ذكره في مثل هذا الكتاب من أحداث السنة الأولى .

* * *

فصل : المدينة عند الهجرة

رسم الأستاذ الندوي في كتابه (السيرة النبوية) صورة للمدينة عند الهجرة فقال :

ولكي نأخذ صورة إجمالية صحيحة عن مدينة يثرب - التي اختارها الله دار هجرة للرسول ، ومنطلق الدعوة الإسلامية في العالم ، ومهد أول مجتمع إسلامي يقوم بعد ظهور الإسلام - يجب أن نعرف وضعها المدني ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، وصلة القبائل المقيمة فيها ، بعضها ببعض ، ومركز اليهود فيها ، الاجتماعي ، والاقتصادي ، والحربي ، والواقع الذي كانت تعيشه هذه المدينة الخصبة الغنية ، التي التقت فيها ديانات ، وثقافات ، ومجتمعات مختلفة ، بخلاف مكة ذات الطبيعة الواحدة ، والطابع الموحد ، والدين المشترك ، وإلى القارئ بعض أضواء :

اليهود :

المرجح في ضوء التاريخ أن غالبية اليهود حلوا بالجزيرة العربية بصفة عامة ، ومدينة يثرب بصفة خاصة ، في القرن الأول الميلادي ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التي انتهت بخراب بلاد فلسطين ، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود في أصقاع العالم ، قصدت جموع كثيرة من اليهود بلاد العرب كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودي (يوسي فوس) الذي شهد تلك الحروب ، وكان قائداً لبعض وحداتها ... وتؤيد المصادر العربية كل هذا .

وكانت في المدينة ثلاث قبائل من اليهود ، بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين ، وهي : قَيْنُقاع ، والنضير ، وقُرَيظة ، ويقدر أن رجال قينقاع المحاربين ، بلغ عددهم سبعمائة ، كما كان عدد رجال النضير مثل هذا العدد ، وكان الرجال البالغون من قريظة ما بين سبعمائة وتسعمائة .

وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة متوترة ، وقد يكون بعضهم حرباً على بعض ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

قد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقية اليهود ، سببها أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم (بعاث) وقد أثخن بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع ، ومزقوهم كل مُمَزَّق ، مع أنهم - أي بني النضير وبني قريظة - دفعوا الفدية عن كل من وقع في أيديهم من اليهود - من بني قينقاع - ، وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم (بعاث) ، حتى وقعت الحرب بين المسلمين وبين بني قينقاع فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة المسلمين .

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله :

﴿ وَإِذ أَخَذنَا مِيثَاقَكُم لاَ تَسفِكُونَ دِمَآءَكُم وَلاَ تُخرِجُونَ أنفسَكُم مِن دِيَارِكُم ثُمَّ أقرَرتُم وَأَنتُم تَشهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُم هَـٰؤُلَاءِ تَقتُلُونَ أَنفُسَكُم وَتُخرِجُونَ فَرِيقاً مِنكم من دِيارِهِم تَظَاهَرونَ عَلَيهِم بِالإِثمِ والعدوان وَإِن يَأتُوكُمْ أُسارىَ تُفَادُوهم وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُم إخرَاجُهُم ﴾ [1] .

وكانوا يعيشون في أحياء وقرى مختلفة خاصة بهم ، فكانت بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في محلة خاصة بهم ، بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وقريظة من مساكنهم التي كانت خارج المدينة ، وكانت مساكن بني النضير بالعالية - جنوب شرق المدينة - بوادي (بطحان) على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة ، وكانت عامرة بالنخيل ، والزروع ، وكانت بنو قريظة يسكنون في منطقة مَهْزُور التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة .

وكانت لهم حصون ، وآطام ، وقرى ، يعيشون فيها متكتلين مستقلين ، لم يتمكنوا من إنشاء حكومات يحكمها اليهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها ، يؤدون لهم إتاوة في كل عام ، مقابل حمايتهم لهم ، ودفاعهم عنهم ، ومنع الأعراب من التعدي عليهم ، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم ، وكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب .

وكانوا ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع ، وكانت لهم مدارس يتدارسون

---

(١) البقرة : ٨٤ ، ٨٥ .

فيها أمور دينهم ، وأحكام شريعتهم ، وأيامهم الماضية ، وأخبارهم الخاصة برسلهم وأنبيائهم ، كما كانت أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم ، وكانت تسمى (المدراس) وكان المكان الذي يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة في سائر أحوالهم الدينية والدنيوية .

وكانت لهم تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم ، أخذوا بعضها عن كتبهم ، وبعضها وضعه لهم كهانهم وأحبارهم من عند أنفسهم ، وكانت لهم أعيادهم الخاصة بهم ، وأيام خاصة ، يصومون فيها ، كيوم عاشوراء .

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على الرهون وتعاطي الربا ، وكانت لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك ، لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد .

وكانت المراهنة لا تقتصر على الرهائن المالية ، بل تخطتها إلى مراهنة النساء والولدان وقد جاء في قصة قتل كعب بن الأشرف النضري التي رواها الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه ، أنه قال له محمد بن مسلمة : قد أردنا أن تُسْلفنا وَسْقاً أو وَسْقين ، فقال : نعم ، أرهنوني . قالوا : أي شيء تريد ؟! قال : أرهنوني نساءكم ، قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ، قال : فأرهنوني أبناءكم ، قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رُهِنَ بوَسْق أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكنا نرهنك اللأْمَة [1] .

ومن طبيعة هذه المراهنات خصوصاً إذا كانت في الأبناء والنساء نشوء الحقد والكراهة بين الراهنين والمرتهنين ، لاسيما لأن العرب اشتهروا بالغَيرة الشديدة على نسائهم وشدة الأنفَة .

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أن قوي نفوذهم المالي ، وصاروا يتحكمون في الأسواق تحكماً فاحشاً ، ويحتكرونها لمصلحتهم

(١) اللأْمَة : الدرع .

ومنفعتهم ، فكرههم السواد الأعظم من الناس بسبب أنانيتهم واشتطاطهم في أخذ الربا ، وحصولهم على غنى وثراء بطرق يأنف العربي عن سلوكها والتعامل بها ، ولما طبعوا عليه من الجشع ، ولسياستهم التوسعية .

يقول (De- Lacy , O'Leary) في كتابه (العرب قبل محمد) :

ساءت العلاقات بين أولئك البدو (المدنيين) واليهود المستعمرين في القرن السابع الميلادي ، فإنهم كانوا قد وسعوا مناطقهم المزروعة إلى مراعي هؤلاء البدو .

وكانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج ـ سكان المدينة العرب ـ خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية ، فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين ، متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج ، وكان يهمهم فقط أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة ، وحديثهم عن النبي المرتقب شجع الأوس والخزرج على الدخول في الإسلام .

أما لغة اليهود في بلاد العرب ، فقد كانت العربية بطبيعة الحال ، ولكنها لم تكن خالصة ، بل كانت تشوبها الرطانة العبرية ، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً ، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم . أ هـ .

أما الجانب الديني والدعوي فيقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

لاشك أنه كان في المقدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الديني بين العرب ، حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ، ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الإسرائيلية لم تَمِل بوجه عام إلى دعوة الأمم على اعتناق دينها ، وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود . أ هـ .

ولكن مما لا شك فيه أن عدداً من العرب المنتمين إلى الأوس والخزرج وغيرهما من القبائل العربية الأصيلة ، دانوا باليهودية عن رغبة منهم ، أو بتأثير المصاهرة والزواج ، أو

بحكم النشأة في البيئة اليهودية ، وقد كان في يهود العرب جميع هذه الأنواع ، وقد ثبت أن التاجر اليهودي الكبير والشاعر المشهور كعب بن الأشرف الذي يعرف بالنضري كان من قبيلة (طَيِّئ) تزوج أبوه في بني النضير ، فنشأ كعب بن الأشرف يهودياً متحمساً .

قال ابن هشام : وكان رجلاً من طَيِّئ ، ثم أحد بني نَبْهان ، وكانت أمه من بني النضير ، وكان بعض من لايعيش له ولد من العرب ينذر ، إذا ولد له ابن وعاش هَوَّدُوه ، فكان في المدينة عدد من العرب الذين دخلوا في اليهودية عن هذا الطريق .

روى الإمام أبو داود السجستاني [١] بسنده عن ابن عباس قال : كانت المرأة تكون مِقْلاتاً فتجعل على نفسها إن عَاشَ لها ولد أن تُهودهُ ، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لاندع أبناءنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ [٢] .

* * *

الأوس والخزرج :

تنتمي بطون الأوس والخزرج ـ سكان المدينة العرب ـ إلى القبائل الأزدية اليمنية ، وكانت موجات هذه الهجرة من اليمن إلى يثرب متفرقة في أوقات مختلفة ، وكانت لعوامل متعددة ؛ منها اضطراب أحوال اليمن وغزو الأحباش ، وإهمال أمر الإرواء بخراب سد (مأرب) ، وعلى هذا فالأوس والخزرج أحدث عهداً في المدينة من اليهود .

وقد سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية ، وهي منطقة العوالي من يثرب ، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى الشمالية ، وهي سافلة المدينة ، وليس وراءهم شيء في الغرب إلى خلاء حَرة الوبرة .

---

(١) أبو داود (٣ / ٥٩) كتاب الجهاد ـ باب في الأسير يكره على الإسلام .
(مِقْلاتاً) المقلاة ، هي التي لا يعيش لها ولد .

(٢) البقرة : ٢٥٦ .

وكان من جملة بطون الخزرج أربعة أبطن ، وهم : مالك ، وعدي ، ومازن ، ودينار ، كلها من بني النجار المعروف بـ (تيم اللات) ، وقد سكنت بطون بني النجار في المنطقة الوسطى التي حول مسجد النبي ﷺ .

وقد سكن الأوس المناطق الزراعية الغنية في المدينة ، وجاوروا أهم قبائل اليهود وجموعهم ، واستوطن الخزرج مناطق أقل خصباً ، وقد جاورهم قبيلة يهودية كبيرة واحدة ، وهي القينقاع .

ليس من السهل الحصول الآن على إحصاء دقيق عن عدد رجال الأوس والخزرج ، ولكن الباحث المتتبع للحوادث يستطيع تحديد قوتهم الحربية من المعارك التي خاضوها بعد الهجرة ، فقد بلغ عدد محاربيهم في يوم فتح مكة أربعة آلاف مقاتل .

وكان العرب في وقت الهجرة النبوية أصحاب الكلمة العليا في يثرب ، وبيدهم كان توجيه الأمور بها ، ولم يستطع اليهود مقابل ذلك أن يجمعوا كلمتهم ، ويقفوا صفاً واحداً في وجه خصومهم ، فتفرقت بطونهم ، ودخل بعضها في محالفات مع الأوس ، ودخل بعضها في محالفات مع الخزرج ، وكانوا في القتال أقسى على بني جنسهم من العرب ، واستحكم عداء بين بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، جعل بني قينقاع يتركون أرضهم وزرعهم ، ويقتصرون على الصياغة .

ووقعت كذلك بين الأوس والخزرج حروب كثيرة ، أولاها حرب (سمير) وآخرها حرب (بُعَاث) قبل الهجرة بخمس سنوات ، وقد عمل اليهود على الدس بين الأوس والخزرج ، وتشجيع عوامل الفرقة ، وإذكاء روح التحاسد ، حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم ، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم بـ (الثعالب) .

* * *

الوضع الطبيعي :

كانت يثرب عند الهجرة النبوية منقسمة إلى عدة دوائر تسكنها بطون عربية ويهودية ، وكل دائرة تابعة لبطن من البطون ، وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين : يشتمل القسم الأول على الأراضي الزراعية بمنازلها وسكانها ، ويشتمل القسم الثاني على الأطم أو الآطام .

وقد بلغ عدد آطام اليهود في يثرب تسعة وخمسين أطماً ، ويقول الدكتور ولفنسون في وصف هذه الآطام :

كانت أهمية الآطام عظيمة في يثرب ، فكان يفزع إليها أفراد البطن عند هجوم العدو ، ويأوي إليها النساء والأطفال والعجزة حين يذهب الرجال لمقاتلة الأعداء ، وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثمار ، ذلك أنها كانت معرضة في أماكنها المكشوفة للنهب والسلب ، وكان الأطم مربعاً لكنز الأموال والسلاح ، وكان للقوافل المثقلة بالبضائع أن تنزل بالقرب منه ، كما كانت تقام على أبوابه الأسواق .

وكانت الآطام تشتمل ـ كما يظن ـ على المعابد وبيوت المدراس ، إذ كانت فاخرة الأثاث ، كثيرة الأدوات ، مملوءة بالأسفار ، فكان يجتمع فيها الزعماء للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة ، حين يهمون بإبرام العقود والاتفاقات .

ويقول الدكتور في تفسير كلمة (أطم) : أنها مأخوذة من اللغة العبرية ، فيقال : أطم عينيه : أغمضها ، وأطم أذنيه : سدهما ، والأطم في الجدران والحيطان : هي النوافذ المغلقة من الخارج ، والمفتوحة من الداخل ، ويستعمل في السور أي الحائط الضخم ، يقول الدكتور :

وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم أطم ، لأنه كان في إمكانهم أن يغلقوا أبوابه ، وإن كانت له نوافذ من الخارج وتفتح من الداخل .

ومن هذه الأحياء والدوائر المحصنة كانت تتكون مدينة يثرب ، فهي في الحقيقة مجموعة من القرى تقاربت وتجمعت ، فتكونت منها المدينة ، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ [(١)] ، وبقوله :

﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ [(٢)] .

وحَرّة واقم التي تحد المدينة من الشرق ، كانت أكثر عمراناً من الوبرة ، وحين هاجر النبي ﷺ إلى يثرب ، كانت حرة واقم مسكونة بأهم قبائل اليهود من بني النضير وقريظة ، وعدد من عشائر اليهود الأخرى ، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية : بنو عبد الأشهل وبنو ظَفَر وبنو حارثة ، وبنو معاوية ، وفي منازل بني عبد الأشهل كان يقوم حصنهم واقم ، الذي سميت الحرة باسمه .

* * *

الحالة الدينية والمكانة الاجتماعية :

كان العرب تابعين لقريش وأهل مكة في العقيدة والديانة ، ينظرون إلى قريش كسدنة للبيت ، وقادة في الدين ، وقدوة في الاعتقاد والعبادة ، خاضعين للوثنية السائدة على جزيرة العرب ، يعبدون من الأصنام ما تعبد قريش وأهل الحجاز ، إلا أن علاقتهم ببعض الأصنام كانت أقوى من علاقتهم ببعضها ، فكانت مناة لأهل المدينة ، وكانت أقدم الأصنام ، وكان الأوس والخزرج أشد إعظاماً لها من غيرهم ، وكانوا يهلون لها شركاً بالله تعالى ، وكانت حذو (قُدَيْد) الجبل الذي بين مكة والمدينة من ناحية الساحل ، كما كانت اللاّتّ لأهل الطائف ، والعُزّى لأهل مكة ، وكان أهل هذه المدن أكثر تعصباً وحمية لها من غيرها ، وكان من اتخذ في داره صنماً من أهل المدينة من خشب أو غيره يسميه « مناة » أيضاً ، كما فعل ذلك عمرو بن الجموح سيد من سادات بني سَلمة قبل أن يسلم .

وقد جاء في حديث رواه الإمام أحمد عن عروة عن عائشة في تفسير قوله تعالى ﴿ إن

---

(١) الحشر : ٧ .

(٢) الحشر : ١٤ .

الصفـا والمروة من شعـائر الله فمـن حج البيت أو اعتمر فلا جنـاح عليـه أن يَطـوّف بهما ﴾ [١] .

قالت : إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية ، التي كانوا يعبـدونها عنـد المشَلَّل ، وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفـا والمروة ، فسـألوا عن ذلـك رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله إنا كنا نتحرّج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهليـة ، فـأنزل الله عز وجل : **﴿ إن الصفـا والمروة من شعـائر الله ﴾** الآيـة . ولم نطّلع على صنم لهم خـاص في المدينة اشتهر كاللات ومناة ، والعزى ، أو كهُبَل ، يعكفون على عبادته ، ويشدّ إليه الرحال من خارج المدينة ، ويبدو أن الأصنام لم تنتشر في المدينة انتشارها في مكة ، فقـد كان لكل بيت في مكة صنم خاص ، وكانت الأصنام يطاف بهـا وتبـاع ، فكانوا في الوثنيـة عيـالاً على أهل مكة وأتباعاً لهم .

وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما ، فلما قـدم النبي ﷺ المـدينـة قـال لهم : « قـد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما يوم الفطر والأضحى » ، وقـد ذكر بعض شراح الحـديث أنهما النَّيْروز والمهرجان ، وكأنهم أخذوهما من الفُرس .

وكانت قريش تعترف بشرف الأوس والخزرج ، وهم بنو قَحْطان العرب العاربـة ، وكانوا يصاهرونهم ، ويتزوجون فيهم ، وقـد تزوج هـاشم بن عبـد مَنَـافٍ وهو سيـد قريش في بني النجار ، تزوج سَلْمَى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجـار وهم من الخزرج ، إلا أنهم كانوا يرون لأنفسهم فضلاً عليهم ، وقد قال عتبة بـن ربيعة وشيبـة بن ربيعـة ، والوليـد بن عتبة ـ الذين دعوا إلى المبارزة يوم بدر ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ـ فقـالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : مالنا بكم من حاجة ، ثم نادى منـاديهم ، يـامحمـد ! أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : « قم ياعبيدة بن الحـارث ، وقم يـاحمزة ، وقم ياعلي » فلما قاموا ودنوا منهم ، وسمّوا أنفسهم ، قالوا : نعم أكفـاء كرام ، وكانوا ينظرون إلى الفلاحة التي كان يمارسها أهل المـدينـة بحكم طبيعـة أرضهم لاعتمادهم عليهـا في معـاشهم نظرة

---

(١) البقرة : ١٥٨ .

فيها شيء من الاحتقار ، وقد تجلت هذه النظرة في الكلمة التي قالها أبو جهل وهو عقير ، قد قتله ابنا عفراء وهما من الأنصار ، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق (لو غير أكار قتلني) .

* * *

الحالة الاقتصادية والحضارية :

كانت مدينة يثرب بطبيعتها منطقة زراعية ، وكان أكثر اعتماد أهلها على الزراعة والبساتين ، وكان من أهم حاصلاتها التمر والعنب ، فكانت فيها جنات النخيل والأعناب ، وجنات معروشات وغير معروشات ، وزروع ونخيل صنوان وغير صنوان ، ومن الزروع الحبوب والبقول ، وكان التمر وخاصة أيام الجدب ، وتخلف الأمطار ، يسد كثيراً من حاجة السكان الغذائية ، وكان كعملة يتبادل بها أهلها عند الحاجة ، وكانت النخيل مصدر خيرات كثيرة في حياتهم ، فكانوا يستخدمونه في الغذاء والبناء ، والصناعة ، والوقود ، وعلف الدواب ، ولتمر المدينة أنواع كثيرة وتفاصيل دقيقة تصعب الإحاطة بها ، لأهل المدينة تجارب وطرق في تنمية حاصل النخيل وتحسينه استفادوها من طول المراس ، منها تأبير النخل .

هذا لا ينفي وجود حركة تجارية في المدينة ، ولكنها لم تكن في القوة والانتشار بمكانة الحركة التجارية في مكة ، إذ كان اعتماد أبناء الوادي (مكة) وهو غير ذي زرع ومياه وفيرة ـ على التجارة ورحلة الشتاء والصيف .

وكانت في المدينة بعض الصناعات يمارس أكثرها اليهود ، ولعلهم جلبوها من اليمن ، فلم يزالوا فيه إلى أن غادروه في الزمن الأخير ، حاذقين في الصناعات ، وكان عامة بني قينقاع صاغة ، وكانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب ، وكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة ، والحلي الكثيرة من الفضة والذهب ، مع أن عددهم كان غير كثير .

وقد منحت طبيعة يثرب ، وهي بركانية التربة ، أراضيها خصباً زائداً ، وهي ذات وديان كثيرة ، تفيض بمياه السيول ، فتروي أرضها وتسقي النخل والزروع ، اشتهر منها

وادي العقيق الذي كان متنزه المدينة ، وكان يتدفق بالماء ، ويزهو بالبساتين ، وكانت الأرض صالحة لحفر الآبار ، وقد كثرت في البساتين ، ومنها ما هو مسور ويسميه أهل المدينة (الحائط) واشتهرت آبار كثيرة بعذوبة الماء ووفرته ، وكانت لهم شِرَاج [١] ، وكانوا يحولون الماء بالمساحي [٢] إلى حدائقهم .

وكان من الحبوب الرئيسية الشعير ، ثم القمح ، وتكثر الخضروات والبقول ، وكانت لهم طرق في المزارعة والمؤاجرة والمزابنة ، والمحاقلة ، والمخابرة ، والمعاومة ، منها ما أقره الإسلام ومنها ما منعه أو أصلحه .

وكانت العملة في مكة والمدينة واحدة ، وكانت المدينة تعتمد على المكاييل وتحتاج إليها أكثر من مكة ، لاعتياد أهلها على الحبوب والثمار ، وكانت الأكيال المستعملة في المدينة هي المد والصاع والفَرْق والعرق والوَسْق ، أما الأوزان المستعملة فهي الدرهم والمثقال والدانق والقيراط والنواة والرطل والقنطار والأوقية .

ولم تكن المدينة ـ على خصبها ـ مكتفية غذائياً ، فكان أهلها يستوردون بعض المواد الغذائية من الخارج ، وكانوا يجلبون دقيق الحوار والسمن والعسل ، من الشام .

قد جاء في حديث رواه الترمذي عن قتادة بن النعمان ـ رضي الله عنه ـ : « كان الناس إنما طعامهم بالمدينة ، التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فَقَدِمت ضافطة [٣] من الشام من الدرمك [٤] ، ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير » والقصة تلقي ضوءاً على الحالة الغذائية في المدينة ـ التي لم تحدث بعد الهجرة فجأة ـ وعلى المستويات المختلفة في المعيشة .

وكان اليهود ـ كما عرف من طبيعتهم وتاريخهم في كل بلد ـ أكثر غنى من العرب ، وكان

---

(١) الشِّراج : جمع شَرْج ، وهو سيل الماء من الهضاب ونحوها إلى السهل .

(٢) المساحي : هي المجارف ، وهي على أشكال .

(٣) (ضافطة) : قافلة الحيرة .

(٤) (الدرمك) : الدقيق الأبيض .

العرب بطبيعتهم العربية البدوية ، لا يفكرون في المستقبل كثيراً ، فيوفرون له المال ، وكانوا أهل ضيافة وكرم ، يضطرون إلى الاستدانة من اليهود ، وكثيراً ما تكون هذه الاستدانة بالربا والرهن .

وكان لأهل المدينة ثروة من الإبل والبقر والأغنام ، ويستخدمون الإبل في إرواء الأراضي ويسمونها بـ (الإبل النواضح) وكانت لهم مراعِي اشتهرت منها : (زُغابة) و (الغابة) ، يحتطب منها الناس ، ويرعون فيها ماشيتهم وكانت لهم خيل يستخدمونها في الحروب وإن كانت قليلة بالنسبة إلى مكة ، وكان بنو سُليم مشهورين باقتناء الخيل ، يجلبونها من الخارج .

وكانت في المدينة عدة أسواق ، أهمها (سوق بني قينقاع) مركز بيع الحلي والصوغات الذهبية ، وكانت سوق البزازين ، وتوجد في المدينة المنسوجات القطنية والحريرية ، والنمارق الملونة والستور المرسومة ، وكان عطارون يبيعون أنواع العطور والمسك ، وكان يوجد من يتجر في العنبر والزئبق ، وكانت أنواع من البيع منها ما أقره الإسلام ومنها ما منعه ، من النَّجْش والاحتكار ، وتلقّي الرُّكبان خارج المدينة ، وبيع المُصَرّاة ، والبيع بالنَّسيئة ، وبيع الحاضر للبادي ، وبيع المجازفة ، وبيع المزابنة ، والمخاطرة [1] . وكان من الأوس والخزرج من يتعامل بالربا ، وإن كان ذلك نادراً بالنسبة إلى اليهود ـ يعني فيما بينهم .

وقد توسعت الحياة في المدينة بعض التوسع ، ورقت بحكم طبيعة أهلها ، فكانت البيوت ذات طبقات ، وكانت لبعض البيوت حدائق ، وكانوا يستعذبون الماء ، وقد يأتون به من بعيد ، وكانت توجد كراسي ، وكانت تستعمل أقداح من زجاج وأقداح من الحجارة ، وسُرج منوعة ، وكانوا يستخدمون المكاتل والقفف في أعمال المنزل والزراعة ، وكان للأغنياء شيء كثير من الأثاث لبيوتهم ، خصوصاً اليهود ، وكانت أنواع من الحلي كالأساور ، والدمالج ،

---

(١) سيأتي شرح هذه البيوع في القسم الرابع من الكتاب بإذن الله تعالى .

والخلاخيل ، والأقرطة ، والخواتم والعقود من الذهب أو من جَزْع ظَفارِ[1] ، وكان الغزل والنسيج فاشيين في النساء ، فكانت الخياطة وَالدباغة وعمل بناء البيوت ، وضرب الطوب والنحت ، من الصناعات التي عرفت في المدينة قبل الهجرة .

الوضع المعقد الذي واجهه الرسول ﷺ في مدينة يثرب :

وهكذا لم ينتقل رسول الله ﷺ والمهاجرون من مدينة - مكة - إلى قرية - يثرب - بل انتقل من مدينة إلى مدينة ، وإن كانت هي الأخرى تختلف عن الأولى في مظاهر كثيرة للحياة ، وكانت أصغر منها نسبياً ، ولكن الحياة فيها كانت أكثر تعقيداً ، والقضايا التي سيواجهها الرسول أكثر تنوعاً ، لوجود ديانات وبيئات وثقافات مختلفة ، لا يتغلب عليها ولايصهر المدينة كلها في بوتقة عقيدة واحدة ، ودعوة واحدة إلا الرسول المؤيد من الله ، الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وقوة الجمع بين الأنماط البشرية الكثيرة ، والقوى المتصارعة ، والأهواء المتعاكسة ، وألقى عليه محبة منه ، وصدق الله العظيم :

﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ [2] .

* * *

---

(١) ظَفَار : إقليم في غربي عمان على شاطئ البحر العربي .

(٢) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

فصل : التأريخ بالهجرة

٢٢٩ - * روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال : ما عدُّوا من مَبْعَثِ النبي ﷺ ولا مِن وفاته ، ما عدُّوا إلا من مَقْدَمِهِ المدينة .

٢٣٠ - * روى الحاكم ، عن سعيد بن المسيِّب رضي الله عنه قال : جمع عمرُ الناسَ فسألهم : مِنْ أيِّ يوم يُكتبُ التاريخ ؟ فقال علي بن أبي طالب : مِنْ يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترك أرض الشرك ، ففعله عمر - رضي الله عنه .

أقول : قال ابن كثير في البداية والنهاية : اتفق الصحابة رضي الله عنهم في سنة ست عشرة - وقيل سنة سبع عشرة ، أو ثماني عشرة - في الدولة العُمَرية على جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة ، وذلك أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رُفع إليه صك - أي حجة - لرجل على آخر وفيه ؛ إنه يحل عليه في شعبان . فقال عمر : أي شعبان ؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية ، أو الآتية ؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تاريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك . فقال قائل : أرخوا كتاريخ الفرس فكره ذلك ، وكانت الفرس يؤرخون بملوكهم واحداً بعد واحد . وقال قائل : أرخوا بتاريخ الروم ، وكانوا يؤرخون بملك إسكَنْدَر بن فِلِبُّس المقدوني فكرِه ذلك . وقال آخرون : أرّخوا بمولد رسول الله ﷺ . وقال آخرون : بل بمبعثه . وقال آخرون : بل بهجرته . وقال آخرون : بل بوفاته عليه السلام . فمال عمر رضي الله عنه إلى التأريخ بالهجرة لظهوره واشتهاره . واتفقوا معه على ذلك .

والمقصود أنهم جعلوا ابتداء التأريخ الإسلامي من سنة الهجرة ، وجعلوا أولها من المحرم فيما اشتهر عنهم وهذا هو قول جمهور الأئمة ، وذلك لأن أول شهور العرب المحرم فجعلوا السنة الأولى سنة الهجرة ، وجعلوا أولها المحرم كما هو المعروف لئلا يختلط النظام والله أعلم .

---

٢٢٩ - البخاري (٧ / ٢٦٧) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٨ - باب : التاريخ من أين أرخوا التاريخ ؟

٢٣٠ - المستدرك (٣ / ١٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

أقول : للبداءة بالمحرم سببان :

أوّلاً : لأنّه بداية السنة عند العرب .

ثانياً : لأنّ الأصحاب بدأوا هجرتهم من المحرّم ، فالمحرّم وجدت فيه مقدمات الهجرة .

وقال في الفتح : وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبة ، فقال : كانت القضايا التي اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربعة : مولده ومبعثه وهجرته ووفاته ، فرجح عندهم جعلها من الهجرة لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين السنة ، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما توقع بذكره من الأسف عليه ، فانحصر في الهجرة ، وإنما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم ؛ لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم ، إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة وهي مقدمة الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ ، وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم .

* * *

فصل : في حسن الاستقبال وقوّة الإقبال

شهد الله عز وجل للأنصار بالإيثار وحبّ الأضياف المهاجرين . فقال تعالى : ﴿ والذِينَ تَبَوَّؤا الدَّارَ والإيمانَ من قَبْلِهِم يُحبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهم وَلاَ يَجِدُونَ في صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤثِرُونَ عَلَى أنفُسِهِم وَلَو كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ﴾ (١) وبهذه الروح وبحسن التربية من رسول الله ﷺ وحسن التدبير حلّت مشكلة الهجرة ، وكأن ليس لها مشكلات مع أنّ مشكلات الهجرة من أعقد المشكلات في العالم .

وهذه نصوص نذكرها توضح حسن الاستقبال من الأنصار للمهاجرين ومنهم لرسول الله ﷺ ، وكثرة إقبالهم عليه ﷺ :

٢٣١ - * روى البخاري عن خَارِجَةَ بْن زَيْدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ : أنَّ أمَّ العلاء - امرأةً مِنَ الأنْصارِ - بَايَعَتِ النَّبيَّ ﷺ ، أخْبَرَتْهُ : أنَّهُ اقْتسم المُهَاجِرُونَ قُرْعةً ، فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعونٍ ، فَأنْزلْنَاهُ فِي أبْياتِنا ، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوفِّي فيه ، فَلَمَّا تُوفيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أثْوابِهِ ، دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ : لَقَدْ أكْرَمَكَ اللهُ ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكِ أنَّ اللهَ أكْرَمَهُ ؟ » فَقُلْتُ : بِأبِي أنْتَ يارَسُولَ اللهِ ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللهُ ؟ فَقَالَ : « أمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ ، وَاللهِ إنِّي لأرْجُو لَهُ الخَيْرَ ، وَاللهِ مَا أدْرِي - وَأنَا رَسُولُ اللهِ - مَا يُفعَلُ بِي ؟ » قَالَتْ : فَوَاللهِ لاَ أُزَكِّي أحَداً بَعْدَهُ أبَداً .

زاد في رواية قالت : وَأُرِيتُ لعُثْمَانَ فِي النَّوْمِ عَيْناً تَجْرِي ، فجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : « ذَاكَ عَمَلُهُ » .

وفي رواية قالت : فَأحْزَنَنِي ذَلِكَ ، فَنمتُ ، فَرَأيْتُ لعُثْمانَ عَيْناً تَجْرِي .

---

(١) الحشر . ٩ .

٢٣١ - البخاري (٣ / ١١٤) ٢٣ - كتاب الجنائز - ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه

فطار لنا : أي وقع لنا في سهمنا ، أي صار من حظنا .

أبو السائب : تعني عثمان بن مظعون .

٢٣٢ - * روى الترمذي عن أنس بن مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ ، لما قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ المدينَة أَتاهُ المُهَاجِرُونَ فَقَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ . مَا رَأَيْنَا قوماً أبذل مِنْ كَثِيرٍ ، وَلا أَحْسَنَ مُواسَاةً مِنْ قَلِيلٍ ، مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنا بَيْنَ أظْهُرِهِم ، لَقَدْ كَفُونَا المُؤْنَةَ ، وَأَشرَكُونَا فِي المَهْنَأ ، حَتَّى لَقَدْ خِفنا أنْ يَذْهَبوا بالأجْرِ كُلِّه فقال النبي ﷺ : « لا ، مادَعَوتُمُ اللهَ لَهُمْ ، وَأَثْنيتُم عَلَيْهِمْ » .

واختصره أبو داود [(١)] وقال : إن المُهاجرينَ قَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ ، ذَهَبَ الأَنْصَارُ بالأجْرِ كُلِّهِ ، قَالَ : « لاَ ، مَا دَعَوْتمُ اللهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُم عَلَيْهِمْ » .

٢٣٣ - * روى البخاري عن أبي هريرة قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسمْ بيننا وبين إخواننا النَّخيلَ . قال : « لا » ، فقالوا : تكفونا المؤْونَةَ وَنَشْركَكُم في الثمرة ، قالوا : سمعْنا وأطعْنا .

٢٣٤ - * روى البخاري عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال : لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع . قال لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالي نصفين . ولي امرأتان فانظر أعجبها إليك فسمها لي أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها . قال : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطٍ وسمن .... وذكر الحديث .

٢٣٥ - * روى البخاري عن أنس رضِي اللهُ عَنْهُ قَال : قَدِم عَبْدُ الرّحمنِ بْنُ عَوفٍ

---

٢٣٢ - الترمذي (٤ / ٦٥٣) ٣٨ - كتاب صفة القيامة - باب : ٤٤ . وقال : هذا حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه .

المهنأ : السرور - ما يأتيك فتسيغه وتقبله طبيعتك ، جمعه مهانئ .

(١) أبو داود (٤ / ٢٥٥) كتاب الأدب - باب : في شكر المعروف . وإسناده صحيح .

٢٣٣ - البخاري (٥ / ٨) ٨١ - كتاب الحرث والمزارعة - ٥ - باب : إذا قال اكفني مؤونة النخل وغيره وتشركني في الثمر .

٢٣٤ - البخاري (٧ / ١١٢) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٢ - باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

أقطا : الأقط : لبن جامد يابس .

٢٣٥ - البخاري (٤ / ٢٨٨) ٣٤ - كتاب البيوع ١ - باب ماجاء في قول الله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ... ﴾ .

وضر من صفرة : الوضر : الأثر ، والصفرة من الزعفران والخلوق .

مهيم : كلمة استفهام أي ما حالك وما شأنك وما وراءك أو أحدث لك شيء ؟.

المدينة ، فـآخى النبيُّ ﷺ بَيْنَـهُ وَبَيْنَ سَعـدِ بْنِ الرَّبيعِ الأنصاري ، وَكَـانَ سعـد ذا غِنىً ، فَقَـالَ لِعَبْـدِ الرَّحْمَنِ : أُقَـاسِمُـكَ مَـالِي نِصْفَيْنِ وَأُزَوِّجُـكَ . قَـالَ : بَـارَكَ اللهُ لَـكَ فِي أَهْلِـكَ وَمالِكَ ، دُلُّوني عَلَى السّوق ، فَمَا رَجَعَ حَتّى استَفْضَلَ أَقِطاً وَسَمْناً ، فَـأَتى بـهِ أهلَ منـزلـه ، فَمَكَثْنَـا يَسيراً ـ أَوْ مَـا شَـاءَ اللهُ ـ فَجَـاءَ وَعَلَيْـه وَضَرٌ من صُفْرةٍ فَقَـالَ لَـهُ النَّبيُّ ﷺ : « مَهْيَم ؟ » قال : يارسُولَ اللهِ تزوَّجْتُ امرَأَةً مِنَ الأنْصارِ . قَالَ : « مَـا سُقْتَ إلَيْهـا ؟ » قَالَ : نَواةً مِنْ ذَهَبٍ ـ أو وَزنَ نَواةٍ مِنْ ذَهَبٍ ـ قَالَ : « أَوْلِمْ وَلَوْ بشَاةٍ » .

قال صاحب الفتح الرباني : قال النووي : الصحيح في معنى هذا الحـديث أنـه تعلق بـه أثر من الـزعفران وغيره من طيب العروس ولم يقصـده ولا تعمـد التزعفر ، فقـد ثبت في الصحيح النهي عن التزعفر للرجال ، وكذا نهى الرجال عن الخلوق لأنه شعار النسـاء ، وقـد نهى الرجال عن التشبـه بـالنسـاء فهـذا هو الصحيح في معنى الحـديث ، وهو الـذي اختـاره القاضي والمحققون ، قـال القـاضي وقيل : إنـه يرخص في ذلـك للرجل العروس ، وقـد جـاء ذلك في أثر ذكره أبو عبيد أنهم كانوا يرخصون في ذلك للشاب أيام عرسه ، قال : ومـذهب مالك وأصحابه جواز لبس الثياب المزعفرة ، وحكاه مالك عن علماء المدينة ، وهـذا مـذهب ابن عمر وغيره ، وقال الشافعي وأبو حنيفة لا يجوز ذلك للرجل . اهـ .

٢٣٦ ـ * روى أحمد عن عَائِشَةَ قَالَتْ : قـال رسُولُ اللهِ ﷺ : « مَـا يَضُر امْرَأَةً نَزَلَتْ بَيْنَ بَيْتَيْنِ مِنَ الأنْصَارِ أَوْ نَزَلَتْ بَيْنَ أَبَوَيْهَا » .

٢٣٧ ـ * روى الحـاكم عن أبي أيـوبَ قـال : لمـا نَـزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليـه وآلـهِ وَسَلَّم قُلتُ : بـأبي أنت وَأمي أكرَهُ أنْ أكُونَ فَوقَـكَ وَتكُونَ أسفلَ مِنِّي ، فقَـال رَسُولُ اللهِ صَلّى الله عَلَيْـه وَآلـهِ وَسَلَّم : « إني أرْفَـقُ بي أن أكُـونَ في السُّفْلَي لِما يَغْشـانـا من

---

٢٣٦ ـ أحمد في مسنده (٦ / ٢٥٧) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائـد (١٠ / ٤٠) وقـال : رواه أحمـد والبزار ورجـالهما رجـال الصحيح .

امرأة نزلت : أي نزولها بين بيتين من الأنصار كنزولها بين أبويها .

٢٣٧ ـ المستدرك (٣ / ٤٦١) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

أهريق : أريق .

القطيفة : كساء له خمل وأهداب .

فرقاً : خوفاً من أن يصل إليه الماء .

النَّاسِ » قَالَ فَلقَدْ رَأَيْتُ جَرَّةً لَنَا انكَسَرتْ فَأُهْرِيق مَاؤهـا ، فَقُمْتُ أنـا وَأمُّ أيُّوبَ بقطِيفـةٍ لَنَا مَا لَنَا لِحافٌ غَيْرُهَا نُنَشِّفُ بِهَـا المـاء ، فَرَقَـاً أنْ يَصِلَ إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْـه وآلـهِ وَسَلَّمَ شيءٌ يُؤذيه .

أقول : إن كثيراً من النـاس يهملون قضيـة الـذوق العـام ، ولا يعطـون للتصرف الـذوقي أهميـة مع شـدة أهميتـه في حيـاة المسلمين ، ومـا أكثر مـا نجـد هـذا في حيـاة رسول الله ﷺ وأصحابه ، وتصرف أبي أيوب وأم أيوب المذكور في الحديث نموذج على هذا .

٢٣٨ - * روى الحاكم عن جَابر بن سَمُرةَ قال : نزل رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِـهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي أيّوبَ وَكَـانَ إذا أكَلَ طَعَـامـاً بعث إلَيْـهِ بِفَضْلِـهِ فَيَنْظُر إلى مَوْضِعِ يَـدِ رَسُـولِ الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَيَـأكُلَ مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ يَـدِهِ ، فَصَنَعَ ذَاتَ يَوْم طَعَـامـاً فيـهِ ثَومٌ فَأرْسَلَ به إليه فَرَدَّهُ رَسُولُ الله صلى الله عَلَيْـهِ وآلـهِ وَسَلَّم ، فـأتى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَآلِـهِ وَسَلم فَقَالَ : يَا رسُولَ اللهِ لَم أرَ أثر أصَابعك ، فَقَال : « إنَّهُ كَانَ فِيه ثومٌ » قـال شُعبـةُ في حـديثـه : أحَرَمٌ هُوَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلهِ وَسَلَّم : « لا » وَقَال حَمَّادٌ في حَديثـهِ : يَـا رسُولَ الله بَعَثْتَ إليَّ بما لَمْ تَأكُلْ ، فَقَالَ : « إنَّكَ لَستَ مِثْلي إنه يأتِيني المَلَكُ » .

* * *

---

٢٣٨ - المستدرك (٣ / ٤٦٠) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

فصل : المسجد أولاً

قال ابن كثير في البداية والنهاية : ولما حل الركاب النبوي بالمدينة ، وكان أول نزوله بها في دار بني عمرو بن عوف وهي قُبَاء كما تقدم فأقام بها - أكثر ما قيل - ثنتين وعشرين ليلة ، وقيل : ثماني عشرة ليلة ، وقيل : بضع عشرة ليلة ، وقال موسى بن عُقْبة : ثلاث ليال . والأشهر ما ذكره ابن إسحاق وغيره أنه عليه السلام أقام فيهم بقباء من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ، وقد أسس في هذه المدة المختلف في مقدارها - على ما ذكرناه - مسجد قباء .

ولما ارتحل عليه السلام من قباء وهو راكب ناقته القصواء وذلك يوم الجمعة أدركه وقت الزوال وهو في دار بني سالم بن عوف ، فصلى بالمسلمين الجمعة هنالك ، في واد يقال له وادي رانوناء ، فكانت أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمسلمين بالمدينة ، أو مطلقاً لأنه والله أعلم لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من الاجتماع حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة ، وما ذاك إلا لشدة مخالفة المشركين له ، وأذيتهم إياه . ا هـ .

ولمّا قدم المدينة كان من أوائل أعماله عليه الصلاة والسلام بناء المسجد .

٢٣٩ - * روى البخاري عن أنس بن مالك قال : قَدِمَ النبي ﷺ المدينَة فنَزَل في أعلى المدينة في حيٍّ يُقالُ لَهمْ بَنُو عَمرو بنِ عَوْفٍ . فأقَامَ فيهم أربع عشر ليلة ، ثُم أَرْسَلَ إِلَى بَنِي النَّجَّار فجاءُوا مُتقَلِّدي السيوف كأَنِّي أَنْظُرُ إلى النبي ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفَه ، وملأ بَني النَّجَّارِ حَوْلَهُ حَتَّى أَلْقىَ بِفنَاءِ أَبي أَيُّوبَ ، وكان يحب أن يُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ ، وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ ، وإِنَّه أَمَرَ ببِنَاءِ المسْجِدِ ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلأ من بَني النَّجَّارِ فقال : « يَابَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُوني بِحَائطكم هذا » فَقَالوا : لاَ واللهِ لاَنَطْلُبُ ثَمَنَهُ إلاَّ إلى اللهِ ، فقال أنس : فَكَانَ فيهِ مَا أَقُولُ لكُم : قبُورُ المُشْرِكِيْنَ ، وفيهِ خِرَبٌ ، وفيه نخلٌ ، فَأَمَرَ النبي ﷺ بقُبُورِ المُشْرِكِينَ فنُبِشَتْ ، ثم بالخِرَب فَسُوِّيتْ ، وبالنَّخْلِ فَقُطِعَ ؛ فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ المسْجِدِ ، وجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الحِجَارةَ ، وجعلوا ينَقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ ، والنبي ﷺ معهم وهو يقولُ « اللهُمَّ إنَّه لا خير إلاَّ خَيرُ الآخرةِ ، فاغْفر للأنصار والمُهاجرةِ »

---

٢٣٩ - البخاري (١ / ٥٢٤) ٨ - كتاب الصلاة - ٤٨ - باب : هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ، ويتخذ مكانها مساجد ؟.
ومسلم (١ / ٣٧٣) - ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - ١ - باب ابتناء مسجد النبي ﷺ .

٢٤٠ ـ * وقد ورد في صحيح البُخَاري عَنِ الزُّهْرِيّ عَنْ عُرْوَة أنّ المَسْجِدَ الذي كَانَ مِرْبَداً ـ وَهُوَ بَيْدَرُ التّمْرِ ـ ليَتيمين كَانا في حِجْرِ أَسْعَدَ بن زُرَارَةَ ، وهُما سَهْلٌ وسُهَيْلٌ ، فَساوَمَهُمَا فيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فقالا : بَل نَهَبَهُ لَكَ يارَسُولَ اللهِ ، فَأَبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حَتّى ابتَاعهُ مِنْهُما ثم بَنَاهُ مَسْجِداً وطفق رَسولُ اللهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُم اللبن في بنيانه ويقول :

هَذا الحِمَالُ لا حِمال خَيْبر ... هذَا أبَرُّ رَبّنا وأطهرْ

ويقول :

اللهم إنّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِره ... فَارْحَم الأَنصَارَ والمُهَاجِرَه

٢٤١ ـ * روى البخاري عن ابن عمر أن المسجدَ كانَ على عَهدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَبْنِيًّا باللَّبِنِ، وسقفُه الجَريدُ ، وعُمُدُهُ خَشَبُ النخْلِ ، فلم يَزِدْ فيهِ أَبُو بَكْرٍ شَيْئاً ، وزادَ فيه عُمرُ وبناهُ عَلَى بنيانه في عَهْدِ رسول الله ﷺ باللَّبنِ والجريدِ وأعادَ عُمُدَه خَشَباً . ثم غيَّرهُ عثمان فزاد فيهِ زِيادَة كبيرةً ، وبَنَى جِدَارَهُ بالحِجارَةِ المَنْقُوشَةِ والقَصَّة وجعل عُمُده من حِجَارةٍ منقوشةٍ وسقَفه بالسَّاج .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : زاده عثمان بن عفان رضي الله عنه متأولاً قوله ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بني الله له بيتاً في الجنة » ووافقه الصحابة الموجودون على ذلك ولم يغيروه بعده ، فيستدل بذلك على الراجح من قول العلماء أن حكم الزيادة حكم المزيد ، فتدخل الزيادة في حكم سائر المسجد من تضعيف الصلاة فيه وشد الرحال إليه ، وقد زيد في زمان الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق زاده له بأمره عمر ابن عبد العزيز حين كان نائبه على المدينة ، وأدخل الحجرة النبوية فيه كما سيأتي بيانه في

---

٢٤٠ ـ البخاري (٧ / ٢٤٠) ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٤٥ ـ باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

٢٤١ ـ البخاري (١ / ٥٤٠) ٨ ـ كتاب الصلاة ـ ٦٢ ـ باب : بنيان المسجد .

وأبو داود (١ / ١٢٣) كتاب الصلاة ـ باب : في بناء المسجد .

القَصّة : الجَصّ .

السَّاج : ضرب من الشجر .

وقته ، ثم زيد زيادة كثيرة فيما بعد ، وزيد من جهة القبلة حتى صارت الروضة والمنبر بعد الصفوف المقدمة كما هو المشاهد اليوم .

وبني لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف حُجَر لتكون مساكن له ولأهله ، وكانت مساكن قصيرة البناء قريبة الفِناء . قال الحسن بن أبي الحسن البصري ـ وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة ـ: لقد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي . قلت : إلا أنه قد كان الحسن البصري شكِلاً[1] ضخماً طُوالاً رحمه الله .

وقال السُّهيلي في الروض : كانت مساكنه عليه السلام مبنية من جريد عليه طين بعضها من حجارة مرضومة وسقوفها كلها من جريد ، وقد حكي عن الحسن البصري ما تقدم ، قال : وكانت حُجَره من شعر مربوطة بخشب من عرعر . قال وفي تاريخ البخاري أن بابه عليه السلام كان يقرع بالأظافير ، فدل على أنه لم يكن لأبوابه حلق . ا هـ .

٢٤٢ ـ * روى الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كنا ننقُل اللبِن للمسجد لَبِنةً لَبِنةً وكان عمارٌ ينقُل لبنتين لَبنتين فنفَضَ رسول الله ﷺ عن رأسه وقال : « وَيْحَكَ يا ابنَ سمية تقتُلك الفئةُ الباغيةُ » .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : وهذا الحديث من دلائل النبوة حيث أخبر صلوات الله وسلامه عليه عن عمار أنه تقتله الفئة الباغية ، وقد قتله أهل الشام في وقعة صفين وعمار مع علي وأهل العراق كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه ، وقد كان عليّ أحق بالأمر من معاوية ، ولا يلزم من تسمية أصحاب معاوية بغاة تكفيرُهم كما يحاوله جهلة الفرقة الضالة من الشيعة وغيرهم ؛ لأنهم وإن كانوا بغاة في نفس الأمر فإنهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال ، وليس كل مجتهد مصيباً ، بل المصيب له أجران والمخطئ له أجر ، ومن زاد في هذا الحديث بعد تقتلك الفئة الباغية ـ لا أنالها الله شفاعتي يوم القيامة ـ فقد افترى في هذه الزيادة على رسول الله ﷺ ، فإنه لم يقلها إذ لم تنقل من طريق تقبل ، والله

---

(١) الشكِل : مالونه أبيض خالطته حمرة .

٢٤٢ ـ أورده الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٩٦) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

أعلم . وأما قوله يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، فإن عمارًا وأصحابه يدعون أهل الشام إلى الألفة واجتماع الكلمة ، وأهل الشام يريدون أن يستأثروا بالأمر دون من هو أحق به ، وأن يكون الناس أوزاعاً [1] على كل قطر إمام برأسه ، وهذا يؤدي إلى افتراق الكلمة واختلاف الأمة فهو لازم مذهبهم وناشئ عن مسلكهم ، وإن كانوا لا يقصدونه ، والله أعلم .

ونختم هذا الفصل بكلمة للشيخ الغزالي وأخرى للسباعي حول بدئه عليه الصلاة والسلام أوّل استقراره في المدينة ببناء المسجد .

قال الشيخ الغزالي حفظه الله :

بادر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بناء المسجد ، لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين ، وتنقي القلب من أدران الأرض ، ودسائس الحياة الدنيا .

وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد ، وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح .

هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذي ربى ملائكة البشر ، ومؤدبي الجبابرة وملوك الدار الآخرة ، في هذا المسجد أذن الرحمن لنبي يؤم بالقرآن خير من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي ، تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي فهو ساحة للعبادة ، ومدرسة للعلم ؛ وندوة للأدب وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام .

والمسجد الذي وجه الرسول ﷺ همته إلى بنائه قبل أي عمل آخر بالمدينة ، ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها ؛ فالأرض كلها مسجد ، والمسلم لا يتقيد في عبادته بمكان .

إنما هو رمز لما يكترث له الإسلام أعظم اكتراث ، ويتشبث به أشد تشبث ، وهو وصل

---

(١) أوزاع : جماعات متفرقة .

العباد بربهم وصلاً يتجدد مع الزمن ، ويتكرر مع آناء الليل والنهار ، فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخلط المعروف بالمنكر ! .

والحضارة التي جاء بها الإسلام ، تذكِّر أبداً بالله وبلقائه وتمسّك بالمعروف وتبغّض في المنكر ، وتقف على حدود الله ... اهـ .

وقال الدكتور السباعي حول بناء المسجد : من وقائع الهجرة إلى المدينة تبين لنا أنه ﷺ ما أقام بمكان إلا كان أول ما يفعله بناء مسجد يجتمع فيه المؤمنون فقد أقام مسجد قباء حين أقام فيها أربعة أيام ، وبنى مسجداً في منتصف الطريق بين قباء والمدينة لما أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي « وادي رانوناء » .

فلما أن وصل إلى المدينة ، كان أول عمل عمله بناء مسجد فيها .

وهذا يدلنا على أهمية المسجد في الإسلام ، وعبادات الإسلام كلها تطهير للنفس ، وتزكية للأخلاق ، وتقوية لأواصر التعاون بين المسلمين ، وصلاة الجماعة والجمعة والعيدين ، مظهر قوي من مظاهر اجتماع المسلمين ، ووحدة كلمتهم ، وأهدافهم ، وتعاونهم على البر والتقوى ، لاجرم أن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين ، فهو الذي يوحد صفوفهم ، ويهذب نفوسهم ، ويوقظ قلوبهم وعقولهم ، ويحل مشاكلهم ، وتظهر فيه قوتهم وتماسكهم .

ولقد أثبت تاريخ المسجد في الإسلام أن منه انطلقت جحافل الجيوش الإسلامية لغمر الأرض بهداية الله ، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم ، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت ، وهل كان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وخالد ، وسعد ، وأبو عبيدة ، وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسة المحمدية التي كان مقرها المسجد النبوي .

وميزة أخرى للمسجد في الإسلام أنه تنبعث منه في كل أسبوع كلمة الحق مدوية مجلجلة على لسان خطيبه ، في إنكار منكر أو أمر بمعروف ، أو دعوة إلى خير ، أو إيقاظ من غفلة ، أو دعوة إلى تجمع ، أو احتجاج على ظالم ، أو تحذير لطاغية ، ولقد شاهدنا في عهد

الطفولة كيف كانت المساجد مراكز الانطلاق للحركات الوطنية ضد المستعمرين يلجأ إليها زعماء الجهاد ضد الاستعمار وضد الصهيونية . اهـ .

* * *

فصل : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

أقام الرسول ﷺ بعد وجوده في المدينة نوعين من التعاقدات ، تعاقد على الإخاء الخاص بين أصحابه ، وتعاقد بين المسلمين وغيرهم من سكّان المدينة .

وهذه نصوص تشير أو تتحدّث عن التعاقدات من النوع الأوّل :

٢٤٣ - * روى مسلم عن جبير بن مطعِم ، رضي الله عنه قال : قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لا حِلْفَ في الإِسلَامِ ، وأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ في الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلَامُ إلا شِدَّةً » .

قال ابن الأثير : (لا حِلْفَ في الإِسْلَامِ) أصل الحِلْفِ : المُعَاقَدَةُ والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق ، فما كان منه في الجاهلية على الفِتَنِ والقتال بين القبائل والغارات ، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ : « لا حِلْفَ في الإسلام » وما كان منه في الجاهلية على نَصْرِ المظلوم وصلة الأرحام ، كحِلْفِ المُطَيَّبين وما جرى مجراه ، فَذلك الذي قَال فيهِ ﷺ : « وأيُّما حِلْفٍ كَانَ في الجَاهِلِيَةَ لَم يَزِدْهُ الإسْلَام إلاَّ شِدَّةً » يريد : من المُعاقَدَةِ عَلَى الخَيرِ ، والنَّصرِ للحق ، وبذلك يجتمع الحديثان ، وقد حالف رسولُ الله ﷺ في الإسلام بين قريش والأنصار ، يعني : آخى بينهم ، وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام ، والممنوع منه : ما خالف حكم الإسلام ، وكان رسولُ الله ﷺ وأبو بكر من المطيَّبين ، وكان عمر من الأحلاف ، والأحلاف ستُّ قبائل : عبدُ الدار ، وجُمَح ، ومَخْزوم ، وعَدِيٌّ ، وكَعب ، وسَهم ، سُمُّوا بذلك لأنهم لما أرادت بنو عبد مناف أَخْذَ ما في أيدي عبد الدار ؛ من الحِجَابَةِ والرِّفَادَةِ واللِّواء والسِّقَايَةِ ، وأبَتْ عبدُ الدار ، عَقَدَ كلُّ قوم على أمرهم حِلْفاً مُؤَكَّداً على أن لايَتخَاذَلوا ، فأخْرَجَت بَنُو عبد مناف جَفْنَةً مملوءةً طيباً ، فوضعتها لأحْلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غَمَسَ القوم أيديهم فيها وتعاقدوا ، وتعاقدت بَنُو عبد الدار

---

٢٤٣ - مسلم (٤ / ١٩٦١) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥٠ - باب : مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم .

وأبو داود (٣ / ١٢٩) كتاب الفرائض - باب في الحلف .

وقال أبو داود : يريد : حلف المطيبين .

وحَلَفَاؤها حِلْفاً آخر مُؤكّداً على أن لا يتخاذلوا ، فسمّوْها الأحلاف لذلك .

٢٤٤ - * روى البخاري عن عاصم بن سليمانَ الأحول قَال : قُلتُ لأنسِ بن مـالـكٍ رضي اللهُ عنه :

أَبَلَغَكَ أنّ النبي ﷺ قال : « لا حِلْفَ في الإسلاَمِ ؟ » فَقَالَ : قَدْ حَالَفَ النبي ﷺ بينَ قُرَيْشٍ والأنْصارِ في دَارِي .

وعنـد أبي داود [١] قـال : سمعتُ أنسَ بنَ مـالـكٍ يقُول : حَـالَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بين المهـاجرين والأنصـار في دَارِنَـا ، فقيـلَ لَـه : أَلَيْسَ قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ : لا حِلْفَ في الإسْلاَمِ ؟فقـال : حَالَفَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ المُهَاجِرِيْنَ والأنْصَـارِ في دَارِنَـا ، مَرَّتَينِ أو ثَلاثاً .

أقول : يرى بعض الناس أنّه لا تجوز التعاقدات السياسيّة بين المسلمين وغيرهم ، ومن ثمّ بين الجماعة الإسلاميـة وغير المسلمين أو غير الإسلاميين ، وذلـك خطأ ووهم ، فحيثما وجـدت مصلحة حقيقيّة للإسلام ولجماعة المسلمين جاز التحـالف على أن يكون ذلـك بشورى المسلمين وبالفتوى الصحيحة من أهلها ، ونحن سنرى في حياة الرسول ﷺ أنّ التحالفات كانت جزءاً من سيرته عليه الصلاة والسلام .

٢٤٥ - * روى أبو يعلى عن زيد بنِ حَارِثَـةَ أنـه قَـالَ : يـارسُولَ الله آخَيْت بيني وبَيْنَ حَمْزةَ بنِ عَبْد المطَّلب .

٢٤٦ - * روى مسلم عن أنسُ بن مَـالِـكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ قَـالَ :آخى رَسُولُ اللهِ ﷺ بين

---

٢٤٤ - البخاري (٤ / ٤٧٢) ٣٩ - كتاب الكفالة - ٢ - باب : قول الله تعالى ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ .
ومسلم (٤ / ١٩٦٠) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥٠ - باب : مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم .

(١) أبو داود (٣ / ١٢٩) كتاب الفرائض - باب : في الحلف .

٢٤٥ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ١٧١) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن صالح الأزدي وهو ثقة .

٢٤٦ - مسلم (٤ / ١٩٦٠) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥٠ - باب : مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم .

أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح وبين أبي طلحة .

٢٤٧ ـ * روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ آخى بين الزبير وابن مسعود .

٢٤٨ ـ * روى أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه قال : آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أصْحَابه ، آخى بَيْنَ سَلْمَانَ وَأبي الدَّرْدَاء وَبَيْنَ عَوْفِ بنِ مالكٍ وَبَيْنَ صَعْب بن جَثَّامَةَ .

٢٤٩ ـ * روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾(1): ورثة . ﴿ والذين عقدت أيمانكم ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرُ الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ نسخت ثم قال : ﴿ والذين عقدت أيمانكم ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويوصى له .

وبعقد الإخاء بين المهاجرين والأنصار حلّ رسول الله ﷺ مشكلات الهجرة عن أقرب طريق وأسهله ، وقد تحدّث الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة عن هذا الموضوع فقال :

أما أمر صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر ، فقد أقامه الرسول ﷺ على الإخاء الكامل . الإخاء الذي تمحى فيه كلمة « أنا » ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها ، فلا يرى لنفسه كياناً دونها ، ولا امتداداً إلا فيها .

ومعنى هذا الإخاء ، أن تذوب عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام . وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن . فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

---

٢٤٧ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ١٧١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، ورجال الأوسط ثقات .

٢٤٨ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ١٧١) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

٢٤٩ ـ البخاري (٨ / ٢٤٧) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ ٧ ـ باب ﴿ ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ... ﴾ .

(١) النساء : ٣٣ .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال .

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع ، لا يمكن أنْ يصحَّ إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جُبلُوا على شمائِلَ نقية ، واجتمعوا على مبادئ رضيّة ، ما سجّلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله .

فَسُمُوّ الغاية التي التقوا عليها وجلال الأسوة التي قادتهم إليها ،نَمَّيَا فيهم خِلال الفضل والشرف ، ولم يدعا مكاناً لنجوم خِلّة رديئة .

ذلك ، ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً ، تجمَّع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات ، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا كان الذين قَبَسُوا منه ، وداروا في فلكه ، رجالاً يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده ، ولا يُتكلف استخراجه بالآلات والأثقال ، والأخوة لا تُفرض بقوانين ومراسيم ، وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والشُّح والضِّعة .

وقد تُبودلت الأخوّة بين المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقَوا ـ بالإسلام ـ في نواحي حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخواناً ، ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض .

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة (بدر) حتى نزل قوله تعالى : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم** ﴾ [1] فألغى التوارث بعقد الأخوة ، ورجع إلى ذوي الرحم .

* * *

---

(١) الأنفال : ٧٥ .

أهداف المؤاخاة :

قال ابن حجر في الفتح : قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار ، فهي المقصودة هنا .

وقال السهيلي : آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ يعني في التوادد وشمول الدعوة .

وأنكر ابن تيمية في « كتاب الرد على ابن المطهر الرافضي » المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلي قال : لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتأليف قلوب بعضهم على بعض فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري ، وهذا رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة ، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى ، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي ، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيداً مولاهم ، فقد ثبت أخوتها وهما من المهاجرين ، وسيأتي في عمرة القضاء قول زيد بن حارثة : إن بنت حمزة بنت أخي ، وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن أبي الشعثاء عن ابن عباس :« آخى النبي ﷺ بين الزبير وابن مسعود » وهما من المهاجرين . قلت : وأخرجه الضياء في المختارة من المعجم الكبير للطبراني ، وابن تيمية يصرح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك ، وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر : « آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان ـ وذكر جماعة قال ـ فقال علي : يارسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي ؟ قال « أنا أخوك » وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به .

وحول المؤاخاة قال الدكتور مصطفى السباعي : في مؤاخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار أقوى مظهر من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية الأخلاقية البناءة ، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم ، فجاؤوا المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً ، والأنصار قوم أغنياء بزروعهم وأموالهم وصناعتهم . فليحمل الأخ أخاه ، وليقتسم معه سراء الحياة وضراءها ، ولينزله في بيته ما دام فيه متسع لهما ، وليعطه نصف ماله ما دام غنياً عنه ، موفراً له ، فأية عدالة اجتماعية في الدنيا تعدل هذه الأخوة ؟

إن الذين ينكرون أن يكون في الإسلام عدالة اجتماعية ، قوم لا يريدون أن يبهر نور الإسلام أبصار الناس ويستولي على قلوبهم ، أو قوم جامدون يكرهون كل لفظ جديد ولو أحبه الناس وكان في الإسلام مدلوله ، وإلا فكيف تنكر العدالة الاجتماعية في الإسلام وفي تاريخه هذه المؤاخاة الفذة في التاريخ . وهي التي عقدها صاحب الشريعة محمد ﷺ بنفسه ، وطبقها بإشرافه .

* * *

فصل : في الترتيبات الدستوريّة

قال الأستاذ البوطي : روى ابن هشام أن النبي عليه الصلاة والسلام لم تمض له سوى مدة قليلة في المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب ، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها ، عدا أفراداً من قبيلة الأوس . فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم .

وقد ذكر ابن إسحاق هذا الكتاب بدون إسناد . وذكره ابن خيثمة فأسنده : حدثنا أحمد ابن جناب أبو الوليد ، ثنا عيسى بن يونس ، ثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله عليه السلام كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، فذكر نحو ما ذكره ابن إسحاق ، وذكره الإمام أحمد في مسنده فرواه عن سريج قال حدثنا عباد عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ... إلخ .

وقال الشيخ الغزالي في معرض كلامه عن أهمّ أعمال الرسول ﷺ بعد مقدمه المدينة : أما عن صلة الأمة بالأجانب عنها ، الذين لا يدينون بدينها ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تُعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي ، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر ، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط ، هو رجل مخطئ بل متحامل جريء .

أقول : هذه الوثيقة التي ذكرها الأستاذان الكريمان لم تكن تنّظم الحياة بين المسلمين وغيرهم فحسب ، بل كانت كذلك تنظّم الحياة بين المسلمين أنفسهم ، وهذه الحادثة بالذات تعتبر أهم معلم يجب أن تضعه الحركة الإسلاميّة نصب عينيها ، بل هذه الوثيقة تعتبر من أعظم السوابق الدستورية في تاريخ البشريّة ، ففي مراحل متأخّرة بدأت البشريّة تفكّر في كتابة الدساتير الناظمة لحياة الأمم في أطرها الكبرى ، فأن نرى ذلك في حياة رسول الله ﷺ في السنة الأولى لإقامة الدولة فتلك من معجزات الإسلام ، ولقد جهل ناس حاربوا

التقعيد الدستوري والقانوني لحياة شعوب الأمّة الإسلاميّة ، كما أفرط ناس في التصوّرات السياسيّة حتّى دخلوا معارك ضدّ مصطلحات لاحرج في استعمالها ، وكل ذلك أثر عن تشنّجات سقيمة لم يعرف أصحابها الحدود بين ما يحرم أخذه وما يجوز وما يفترض ، وبين مالا يسيغ إغفاله وما يجب إبطاله له .

ومع أنّ هذه الوثيقة قد أوردها ابن إسحاق بلا إسناد فإنّ لها قوّة كبرى من حيث إنّ ابن خيثمة قد أوردها بإسناد كما ذكر ذلك ابن سيّد الناس في عيون الأثر ، ومن حيث إنّ هناك نصوصاً ثابتة تشير إلى أنّ عقوداً ما قد تمت بين رسول الله ﷺ وبين اليهود ، وأنّ تعاقداً أبرمه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ولذلك فإنّ ابن كثير في البداية والنهاية قد لخّص هذه الوثيقة وعنون لمضمونها وقدّم لها بذكر بعض الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى بعض مضموناتها ، وعلى كل الأحوال فعلى مذهبنا الذي ذكرناه في مقدّمة هذا القسم والذي اعتمدنا فيه أنّ إماماً من الأئمة عندما يذكر شيئاً بلا نكير فذلك يدلّ على أنّ مذهبه اعتماد ما ذكره فإذا كان من أهل الاجتهاد في شأن فبإمكاننا اتباعه فيه ، ولا أحد يشكّ أنّ ابن إسحاق إمام الأئمة في السيرة .

وها نحن نذكر بعض ما ذكره ابن كثير عن هذه الوثيقة : فقد قال بعد ذكره عقد الرسول عليه السلام الألفة بين المهاجرين والأنصار والمؤاخاة بينهم ، وموادعته اليهود الذين كانوا بالمدينة :

وكان بها من أحياء اليهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، وكان نزولهم بالحجاز قبل الأنصار أيام بخت نصر حين دوّخ بلاد المقدس فيما ذكره الطبري ، ثم لما كان سيل العرم وتفرقت شذر مذر ، نزل الأوسُ والخزرج المدينة عند اليهود فحالفوهم وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من الفضل في العلم المأثور عن الأنبياء ، لكن منّ الله على هؤلاء الذين كانوا مشركين بالهدى والإسلام وخذل أولئك لحسدهم وبغيهم واستكبارهم عن اتباع الحق .

٢٥٠ ـ * روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أنّ رسول الله ﷺ

---

٢٥٠ ـ أحمد في مسنده (٢ / ٢٠٤) .

كتب كِتَاباً بَيْن المهاجرينَ والأنْصَارِ على أنْ يعْقِلوا مَعَاقِلَهُم ، ويَفْدُوا عَانيهم بالمعْرُوفِ والإصْلاحِ بَيْن المسلِمين .

٢٥١ - * روى مسلم عن جابر . كَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ : « عَلَى كُلِّ بَطْنٍ عُقُولَـــهُ » .

وقال محمد بن إسحاق (١) : كتَبَ رسول الله ﷺ كِتَابًا بينَ المهاجرين والأنْصَارِ وادَعَ فيهِ اليهُود وعاهَدَهُم وأقرَّهم عَلَى دِينهم وأمْوَالِهم واشْتَرَطَ عَلَيْهم وشَرطَ لَهم : « بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ، هذا كتابٌ من محمَّدٍ النبيِّ الأميِّ بين المؤمنينَ والمسلمينَ من قُرَيْشٍ ويثربَ ومَنْ تَبعَهُم فلَحِقَ بِهم وجاهَدَ مَعَهُم أنَّهم أمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِن دونِ النَّاسِ ، المهاجِرُونَ مِنْ قرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِم يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُم وهُمْ يَفْدون عَانِيَهم بالمعْروفِ والقِسْطِ ، وبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِبْعَتِهِم يتَعَاقَلُون معاقِلَهُم الأولى وكلُّ طَائِفَةٍ تَفْدي عَانِيَها بالمعْروفِ والقِسْطِ بَيْن المؤمِنْيْنَ » ثمَّ ذَكَرَ كُلَّ بَطْنٍ مِنْ بُطُونِ الأنْصَارِ ، وأَهْلَ كُلِّ دارٍ : بني سَاعِدَة ، وبني جُشَم ، وبني النَّجَّارِ ، وَبني عَمْرو وبن عَوفٍ ، وبني النَّبيتِ ، إلى أن قال :

« وإنَّ المؤمنين لا يتركونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُم أنْ يَعطوهُ بالمعْروفِ في فِدَاءٍ أو عَقل ، ولا يحَالِف مؤمِن مَوْلَى مُؤمِن دُونَهُ ، وإنَّ المؤمِنينَ المتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى منْهُم أو ابتغَى دَسِيعَةَ ظلْمٌ أوْ إثم أو عُدوَانٍ أو فَسَادٍ بَينَ المؤمنينَ ، وإنَّ أيْدِيَهُم عَلَيْه جميعهم ولَوْ كَانَ وَلَدَ أحَدِهِمْ ، ولاَ يَقْتُلُ مُؤمِنٌ مُؤمِنًا في كافرٍ ، ولا يَنْصُرُ كَافِرٌ على مؤمِنٍ ، وإنَّ ذِمَّةَ اللهِ وَاحِدةٌ يجير عَلَيْهم أدْنَاهُم ، وَإنَّ المؤمِنينَ بَعضَهُم مَوَالي بَعضٍ دُونَ النَاسِ وَإنَّه مَنْ تَبِعنَا مِنْ يَهُود ، فَإنَّ لَهُ النَّصْر والأسْوَةَ غيرَ مَظلُومين ولا مُتَنَاصَرٍ عَلَيْهم ، وَإن سِلْمَ المؤمنين وَاحِدة لا يُسَالِمُ مؤمن دونَ

---

٢٥١ - مسلم (٢ / ١١٤٦) ٢٠ كتاب العتق - ٤ - باب : تحريم تولي العتيق غير مواليه .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١١٩) .

يتعاقلون معاقلهم : يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات عند قتل أحد وإعطائها . والمَعَاقِلُ جمع مَعْقُلَةٍ وهي الدِّيةُ والعُقول جمع عَقْلٍ وهي الدِّيةُ أيضاً .

عانيهم : أسيرهم .

رِبْعَتُهمْ : الحال التي جاء الإسلامُ وهم عليها .

المفرَحُ : المثقَلُ بالدين ، الكثيرُ العيالِ .

دَسيعةٌ : عظيمةٌ .

مُؤمِنٍ في قِتَالٍ في سَبِيلِ اللهِ إلاَّ علىَ سَوَاءٍ وعَـدْلٍ بَيْنَهُم ، وَإِنَّ كُل غَـازِيَـةٍ غزتْ مَعَنَا يعقبُ بَعْضها بَعْضاً ، وإنَّ المؤمنين يبيء بَعضهم بَعْضاً بمَـا نَـالَ دِمـاءَهُم في سَبِيل اللهِ ، وإنَّ المؤمنين المتَّقِينَ عَلَى أَحْسَن هُدَىً وأقْومِـهِ ، وإنَّـه لايُجِيرُ مُشْرِك مَالاً لقرَيشٍ وَلا نَفْساً وَلاَ يَحُول دونَهُ عَلَى مُؤْمنٍ ، وَإنَّهُ مَنِ اعتَبَـط مؤمِنـاً قتلاً عَنْ بيِّنةٍ فإنَّهُ قَوَدٌ به إلاَ أنْ يَرْضَى وَليُّ المقْتولِ ، وَإنَّ المؤْمنين عَلَيْهِ كافَّةً ولاَ يحل لَهُم إلا قِيامٌ عَليه ، وإنَّه لا يَحِلُ لمؤمنٍ أقرَّ بمَا في هذهِ الصحيفةِ وآمَنَ باللهِ واليَومِ الآخرِ أنْ يَنصر مُحدِثا ولا يؤوِيَـهُ ، وَإنَّـه مَنْ نَصَرهُ أو آواهُ فـإنَّ عَلَيْـه لعنـةُ اللهِ وغَضَبَهُ يَوْمَ القيَامَةِ وَلا يُؤخذُ مِنْه صرف وَلا عَدْل ، وَإنَّكُم مَهْما اخْتَلَفتُم فِيـهِ مِنْ شيء فَـإنَّ مَرَدَّهُ إلى اللهِ عـزَّ وجَـلَّ وإلَى مُحمَّـد ﷺ وإن اليهـودَ ينْفقـون مـعَ المؤمنينَ ، ما دَامُوا محارَبينَ ، وَإنَّ يهودَ بَني عَوْفٍ أمةٌ معَ المؤمنين ، لليهود دِينهُم وللمسلمين دينُهُم مَواليهم وأنفسهُم إلاَّ منْ ظَلَم وأَثِم فَـإنَّـه لا يُوتِغُ إلا نَفْسـهُ وأهْـلَ بيتهِ ، وإن ليهودِ بني النجَّار وبنِي الحَـارث وبني سَـاعِـدَة وبني جُشَم وبني الأَوْسِ وبني ثعلبـةَ وجَفْنَـةَ وبنِي الشُّطَيْبَـة مثلَ مـا ليهودِ بني عَوْفٍ ، وإنَّ بِطـانَـة يَهود كأنْفُسِهم ، وإنه لايُخْرَجُ منهم أحـدٌ إلا بـإذن محمـد ، ولا ينحجز على نـارِ جُرْحٍ ، وإنـه من فَتـك فبنَفْسـه إلا مَنْ ظَلَمْ ، وإنَّ اللهَ على أبرّ هــذا ، وإنَّ على اليهـودِ نفقتُهم وَعَلى المسلمين نَفَقَتُهم ، وإنَّ بَيْنَهمُ النصر عَلَى من حَـــاربَ أهْـلَ هـــذهِ الصحيفَـةِ ، وإنَّ بينَهُم النُّصـحَ والنصيحــةَ والبر دون الإثمِ ، وإنَّــه لَمْ يـــأثم امرؤ بحَليفهِ . وإنَّ النصرَ للمظلوم وإن يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصحيفَة ، وإنَّ الجار كالنفسِ غير مضارٍ ولاآثمٍ ، وإنَّه لا تُجَارُ حرمة إلا بـإذنِ أهلِهـا ، وإنَّـهُ مَـا

يبيء : يبيء من البواء أي المساواة ، يقال : با وأباء بمعنى ساوى . اعْتَبَطَ : قتلَ بلا جناية .

قَوَدَ : القصاص . مُحْدِثاً : جانياً . صَرْفٌ ولا عَدْلٌ : نافلةٌ ولا فرضٌ أو توبةٌ ولا فديةٌ .

لا يُوتِغ : أي لا يوبق ويهلك . ولا ينحجز على ثأر جرح : لا يمنع صاحب حق من حقه في القصاص .

وإن الله على أبر هذا : أي أن الله راض أو شاهد على أبر هذا العقد .

أقول : قال أبو عبيد : إنما كتب رسول الله ﷺ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية وإذ كان الإسلام ضعيفًا ، وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين ، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب.

والبر دون الإثم : أي أن البر والوفاء ينبغي أن يكون حاجزاً عن الإثم .

لم يأثم امرؤ بحليفه : لا يحاسب الحليف على جُرْم حليفه .

=

كَانَ بيْنَ أَهْلِ هذِهِ الصحيفة مِنْ حَدَثٍ أو اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إلى اللهِ وإلى محمدٍ رَسُولِ اللهِ ، وإنَّ اللهَ عَلَى أَتْقَى مَا فِي هذه الصحيفةِ وأبَرِّهُ ، وإنَّهُ لا تُجَارُ قريشٌ ولاَ من نصَرهَا وإنَّ بينَهم النصرَ على مَنْ دَهَم يَثْرِبَ ، وإذَا دُعُوا إلى صُلح يُصَالِحُونَهُ وَيلبَسونَهُ فإنَّهمُ يصالحونه ويلْبَسونه وإنَّهَم إذا دعُوا إلى مثل ذلك فإنهُ لَهُمْ علَى المؤمنينَ ، إلاَّ مَنْ حَارب في الدِّينِ عَلَى كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتُهم مِنْ جانِبهم الذِي قِبَلهم ، وإنه لا يَحُول هَذَا الكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أو آثِمٍ ، وإنَّهُ مَنْ خرَجَ آمِنٌ ، ومن قَعَد آمنٌ بالمدِينةِ إلاَّ مَنْ ظَلَمَ أوْ أَثِمَ ، وإنَّ اللهَ جَارٌ لمنْ برَّ واتَّقَى » . كذا أورده ابن إسحاق بنحوه .

دروس من الصحيفة :

١ - هذه الوثيقة ضبطت العلاقة بين أبناء المجتمع المدني جميعهم مؤمنهم ومشركهم ويهوديّهم ، ومن ههنا نأخذ أنّ على الحركة الإسلامية حيثما وجدت أن تفكّر في الصيغة الدستوريّة التي تحكم العلاقات بين المسلمين وبين غيرهم ، والأمر في هذا الموضوع يختلف من وضع لوضع ومن قطر لقطر ومن ضعف لقوّة ، ومن كثرة لقلّة ، ومن استخلاف لسعي نحو الاستخلاف ، والفتوى والشورى والمصلحة هي ضوابط هذا الأمر .

٢ - من تعبيرات هذه الوثيقة (وأن يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) هذا التعبير يفيد في المصطلحات الحاليّة أنّ كل المواطنين شعب واحد ، وفي هذا أبلغ ردّ على بعض المتشنّجين الذين تتّسع دائرة المحرّمات عندهم حتّى تصل إلى كلّ شيء .

٣ - إنّ على الحركة الإسلامية المعاصرة أن تأتي الناس من حيث يعرفون بما لايحلّ حراماً ولا يحرّم حلالاً ولا يناقض نصًّا ولا فتوى ولا شورى ، فتلك هي مصلحة الإسلام والمسلمين في عصرنا ، وليس العكس كما يحلو لبعضهم أن يصوّر ، فليس مطلوباً منّا أن

لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها : ليس لأحد أن يجير ذات حرمة لغيره إلا بإذن أهلها .

على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبلهُمْ : على كل قوم أن يدافعوا عن المدينة من جهتهم إذا دوهمت .

نصارع كل شيء ولا أن نغيّر كل شيء والقدر الذي يجب أن نغيّره لسنا مطالبين بتغييره طفرة واحدة ، فهناك قضايا للإسلام فيها أكثر من حكم على حسب الضعف والقوّة ، وهناك رخصة وعزيمة ، وأحكامٌ أصليّة وأحكام استثنائيّة ، وأنت مطالب بالممكن والمستطاع ، على حسب المرحلة والقدرة، والفتوى والشورى من أهلها هما اللذان يضبطان السير .

٤ ـ إنّ فقه التحالفات وفقهَ الجهاد يشكّلان الأساسين النظريين لاندفاعة الحركة الإسلاميّة فما لم تدرك الجماعة الإسلاميّة دقائق هذا الفقه فإنّ حركتها تكون قاصرة أو عاجزة أو مبتورة .

٥ ـ **علق الدكتور السباعي حول الوثيقة فقال :** وفي الكتاب الذي عقد فيه الرسول الأخوة بين المهاجرين والأنصار ، والتعاون بين المسلمين وغيرهم جملة من الأدلة التي لا ترد على أن أساس الدولة الإسلامية قائم على العدالة الاجتماعية ، وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم ـ من مواطني الدولة الإسلامية ـ هو السلم ما سالموا ، وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس ، ودفع أذى الأشرار عن المجتمع ، هو أبرز الشعارات التي تنادي بها دولة الإسلام ، وبذلك تكون الدولة الإسلامية أينما قامت ، وفي أي عصر نشأت قائمة على أقوم المبادئ وأعدلها ، وهي تنطبق اليوم على أكرم المبادئ التي تقوم عليها الدول ، وتعيش في ظلها الشعوب ، وإن العمل في عصرنا هذا لإقامة دول في مجتمعنا الإسلامي ترتكز قواعدها على مبادئ الإسلام عمل يتفق مع تطور الفكر الإنساني في مفهوم الدولة ، عدا أنه يحقق للمسلمين بناء مجتمع من أقوى المجتمعات وأكملها وأسعدها وأرقاها .

وأياً ما كان فإن من مصلحتنا أن تبنى الدولة عندنا على أساس الإسلام ، وفي ترك ذلك خرابنا ودمارنا ، والإسلام لا يؤذي غير المسلمين في الوطن الإسلامي ، ولا يضطهد عقائدهم ، ولا ينتقص من حقوقهم ، ففيم الخوف من إلزام الدول في البلاد الإسلامية بتنفيذ شرائع الإسلام وإقامة أحكامه وهي كلها عدل وحق وقوة وإخاء وتكافل اجتماعي شامل على أساس من الإخاء والحب والتعاون الكريم ؟ إننا لن نخلص ممّن الاستعمار ، إلا بالمناداة

بالإسلام ، وفي سبيل ذلك فليعمل العاملون ﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [(١)] ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾ [(٢)] ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ [(٣)] ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ [(٤)] ﴿ ومن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا ﴾ [(٥)] .

٦ ـ ومن تعليقات الدكتور سعيد رمضان البوطي على هذه الوثيقة ننقل ما يلي :

إن كلمة (الدستور) هي أقرب إطلاق مناسب في اصطلاح العصر الحديث ، على هذه الوثيقة ، وهي إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أي دستور حديث يعني بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة في الداخل والخارج : أي فيما يتعلق بعلاقة أفراد الدولة مع بعض ، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين .

وحسبنا هذا الدستور الذي وضعه رسول الله ﷺ بوحي من ربه واستكتبه أصحابه ، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود ـ حسبنا ذلك دليلاً على أن المجتمع الإسلامي قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة ، وأن الدولة الإسلامية قامت ـ منذ أول بزوغ فجرها ـ على أتم ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية .

ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية ، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه ، وليس له من مقومات الدولة والتنظيم الدستوري شيء ، وهي أحبولة عتيقة ، كان يقصد منها محترفو الغزو الفكري وأرقاء الاستعمار ، أن يقيدوا بها الإسلام كي لا ينطلق فيعمل عمله في المجتمعات

---

(١) الأعراف : ٩٦ .

(٢) الأنعام : ١٥٣ .

(٣) الطلاق : ٢ .

(٤) الطلاق : ٤ .

(٥) الطلاق : ٥ .

الإسلامية ، ولا يصبح له شأن قد يتغلب به على المجتمعات المنحرفة الأخرى ، إذ الوسيلة إلى ذلك محصورة في أن يكون الإسلام ديناً لا دولة ، وعبادات مجردة ، لا تشريعاً وقوانين . وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة في الواقع ، فينبغي أن يتقلب فيصبح غير صالح لذلك ، ولو بأكاذيب القول .

إن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود ، ولقد كان بالإمكان أن تؤتي هذه المسألة العادلة ثمارها فيا بين المسلمين واليهود ، لو لم تتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر والغدر والخديعة ، فما هي إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعاً بما تضمنته بنود هذه الوثيقة التي التزموا بها ، فخرجوا على الرسول والمسلمين بألوان من الغدر والخيانة .

وقد دلت هذه الوثيقة على أحكام هامة في الشريعة الإسلامية نذكر منها ما يلي :

ـ يدلنا البند الأول منها على أن الإسلام هو وحده الذي يؤلف وحدة المسلمين وهو وحده الذي يجعل منهم أمة واحدة ، وعلى أن جميع الفوارق والميزات فيا بينهم تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة ، تفهم هذا جلياً واضحاً من قوله عليه الصلاة والسلام « المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس » .

ـ إنها تدل على مدى الدقة في المساواة بين المسلمين لا من حيث إنها شعار براق للدعاية والعرض ، بل من حيث إنها ركن من الأركان الشرعية الهامة للمجتمع الإسلامي ، يجب تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة .

ـ كما تدل أيضاً على أن الحَكَم العدل الذي لا ينبغي للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره ، في سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشؤونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه ، وهو ما تضمنه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، ومهما بحثوا عن الحلول لمشاكلهم في غير هذا المصدر فهم آثمون ، معرضون أنفسهم للشقاء في الدنيا وعذاب الله تعالى في الآخرة .

* * *

فصل : في البيعة

٢٥٢ - * روى أحمد عن أم عَطية قَالَتْ : لَمَّا قَدمَ رَسول الله ﷺ المدينَة ، جَمَعَ نِسَاءَ الأنصَار في بَيتٍ ، ثم أرْسَل إليهنَّ عمرَ بن الخَطّاب ، فَقَامَ عَلَى البَاب فَسَلم عَلَيْهنَّ ، فَرَدَدْنَ السَّلام فَقَالَ : « أنـا رسوُل رَسولِ الله ﷺ إليكنَّ » فَقُلنَ مَرحباً بِرسُول الله ﷺ وَبِرسُول رَسُول الله ﷺ فَقَال : « تُبَايعنَ عَلَى أنْ لا تُشْركْنَ بـالله شَيْئـاً ، وَلاَتَسرقْنَ ولاتَزنين ولا تَقْتُلن أوْلادَكُن ولا تَأتِيْنَ بِبُهتَانٍ تَفْتَرينه بَيْنَ أيْـديكُنَّ وأرْجلكُنَّ وَلا تَعصِينَ في مَعْروف » قُلنْ : نَعَمْ فَمَد عُمرُ يده مِنْ خَارج البَاب ، وَمَدَدن هُنَّ أيْديَهُنَّ مِنْ دَاخل ، ثُمَّ قَال « اللَّهم اشهَدْ » وَأمَر أنْ نخرج في العيـدين العُتَّـق والحُيَّضَ وَنُهِينـا عَن اتبـاع الجَنَـائِـز ، وَلاَ جُمُعَـةَ عَلَينا ، فَسَألْتهُ عَنِ البُهْتَانِ ، وَعَن قَوْهِ وَلايَعْصينك في مَعْروف ، قال : « هِي النِّياحَةُ » .

قال في عون المعبود في باب ما جاء في البيعة : (فـأعطتـه) أي المرأة الميثـاق للنبي ﷺ . وفي رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها قـالت : كان النبي ﷺ يبـايع النساء بالكلام بهذه الآية ﴿ **لا يشركن بالله شيئًا** ﴾[1] قالت : ما مسّت يد رسول الله ﷺ إلا امرأة يملكها .

---

٢٥٢ - أحمد في مسنده (٦ / ٤٠٨) .

وأورده الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٣٨) وقال : رواه أبو داود باختصار شديد ، ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني .

أم عطيّة : اسمها نُسَيْبة بالتصغير ، بنت الحارث الأنصارية صحابيّة مشهورة .

أراد بقتل الأولاد : وأد البنات الذي كان يفعله (بعض العرب) في الجاهلية .

﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه .. ﴾ الآية : المراد منه : من تلتقط مولوداً وتقول لزوجها : هذا ولدي منك .

﴿ ولا يعصينك في معروف .. ﴾ الآية : أي في كل أمر وافق طاعة الله وفي كل نهي عن معصية الله .

الحيض : بوزن عُتّق جمع حائض وهي المرأة زمن الحيض . والمراد أنهنّ يشهدن الخير ويكبّرن مع المكبّرين وإن كنّ لا يصلين .

العتّق : بضم العين المهملة وفتح المثناة فوق مشددة . جمع عاتق : وهي الشابة أوّل ماتدرك وقيل : التي لم تبن من والديها ولم تتزوّج وقد أدركت وشبّت .

النوح : البكاء على الميت وتعديد محاسنه . وقيل : النوح بكاء مع الصوت ومنه ناح الحمام نوحاً .

(١) الممتحنة : ١٢ .

قال النووي : فيه دليل على أن بيعة النساء بالكلام من غير أخذ كف وأنّ صوتها ليس بعورة وأنه لا يلمس بشرة الأجنبية من غير ضرورة ، كتطبّب وفصد وحجامة وقلع ضرس وكحل عين ونحوهما ممّا لا توجد امرأة تفعله جاز للرجل الأجنبي فعله للضرورة .

٢٥٣ ـ * روى أحمدُ عن محمدِ بنِ الأسودِ بنِ خلفٍ ، أنّ أباه حَضر النبيَّ يبايعُ الناسَ عند قرنِ مسقلة ، فجاءه الرجالُ والنساءُ والصغارُ والكبارُ فبايَعوه على الإسلام والشهادة . قيل : وما الشهادةُ ؟ فقال محمدُ بن الأسودِ : شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ .

٢٥٤ ـ * روى أحمد عن سَلْمَى بنْتِ قَيْسٍ وكَانَتْ إحدى خالات رَسُول الله ﷺ قد صَلَّتْ مَعَه القبلَتَيْن وَكَانَتْ إحدَى نِسَاء بَنِي عَديٍّ بن النَّجَّار . قَالَتَ : جئتَ رَسُولَ الله ﷺ فَبَايَعْتُه في نِسْوة مِنَ الأنصار ، فَلَمّا شرط عَلينا أن لانُشرِكَ بالله شيئاً ولاَ نَسْرِقَ ولا نَزني وَلا نَقْتلَ أولاَدَنَا وَلا نَأتي ببهتان نَفْتريه بين أيدينا وَأرجُلنا وَلا نَعْصيَهُ في مَعروفٍ قال : « ولا تَغْشُشْنَ أزواجَكُنَّ » قالت : فَبَايعْنَاهُ ثُم انْصَرفنا ، فقلت لامرأةٍ منْهنَّ ارْجعي فاسألي رَسوَل الله ﷺ مَا غِشُّ أزواجنا ؟ قالت ، فَسَألَتهُ ، فقال : « تَأخذ مَالَهُ فَتُحَابي به غَيْره »

* * *

---

٢٥٣ ـ أحمد في مسنده (٣ / ٤١٥) . والمعجم الكبير (١ / ٢٨٠) .

مجمع الزوائد (٦ / ٣٧) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحمد باختصار ورجاله ثقات .

٢٥٤ ـ أحمد في مسنده (٦ / ٣٧٩) .

بهتان : الكذب المفترى .

ولا تغششن : من الغش : وهو ضد النصح ، غشّه : لم يمحضه النصح أو أظهر له خلاف ما أضمره .

فصل : في الإذن بالقتال وبدء الحركة القتاليّة

الراجح عند علماء السير أن رسول الله ﷺ حرّك ثلاث سرايا في السنة الأولى للهجرة وهي سريّة سيف البحر وكان على رأسها حمزة بن عبد المطلب ، وسرية رابغ وكان على رأسها عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسريّة الخَرّار وكان على رأسها سعد بن أبي وقاص .

وهذا يؤكد أنّ الإذن بالقتال كان في السنة الأولى للهجرة :

﴿ أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرِهم لقدير * الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله .... ﴾ [١] .

وممّا يرجح أن الإذن بالقتال كان في السنة الأولى ، أنّه بالهجرة قامت دولة ، ولا دولة إلّا باستعداد لقتال ، وفي أصول هذا الكتاب إشارات لهذه السرايا المذكورة وفيها ذكر لاستعداد قريش للحرب :

٢٥٥ - * روى أحمدُ عن سعدِ بن أبي وقاصٍ قال : لما قَدِمَ النبي ﷺ المدينةَ جاءتْ جُهَيْنَةُ فقالوا : إنك نزلت بين أظهُرِنا فأوثِقْ لنا حتى نأتِيَك وتؤمّنا ، فأوثَقَ لهم فأسلموا ، فبعثَنا صلى الله عليه وسلم في رجب ولم نكن مائة وأمرنا أن نُغيرَ على حيٍّ من كِنانةَ إلى جَنْبِ جُهينةَ فأغَرْنا عليهم وكانوا كثيراً ، فلجأنا إلى جُهَيْنَةَ فمنعونا وقالوا : لِمَ تقاتِلون في الشهرِ الحرامِ ؟ فقلنا : إنما نُقاتلُ من أخرَجَنا من البلدِ الحرامِ في الشهرِ الحرام ، فقال بعضُنا لبعضٍ : ما تَرَوْنَ ؟ فقال بعضُنا : نأتي نبيَّ الله ﷺ فنخبرَه ، وقال قوم : لا بل نُقيمُ ههنا ، وقلت أنا في أُناس معي : لا بل نأتي عِيرَ قريشٍ فنقتطعَها فانطلقْنا إلى العيرِ وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئاً فهو له فانطلقنا إلى العير ، وانطلق أصحابُنا إلى النبي ﷺ فأخبروه الخبر فقام غضبانَ محمرَّ الوجه، فقال : « أذَهَبْتُمْ من عِندي جميعاً وجئتم متفرقين ؟ إنما أهلكَ من كان قبلكم الفُرقةُ ، لأبعثنَّ عليكم رجلاً ليس بخيركم أصبرُكم على الجوع والعطش » فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي فكان أولَ أميرٍ أُمّرَ في الإسلام .

---

(١) الحج : ٣٩ ، ٤٠ .

٢٥٥ - أحمد في مسنده (١ / ١٧٨) والحديث حسن على مذهب النسائي ، وضعفه بعضهم .

أقول : هذا نموذج آخر على التحالفات والتعاقدات التي كان يجريها رسول الله ﷺ ، والتي كانت لها ثمارها المباركة ، وآثارها الطيّبة على المسلمين .

٢٥٦ - * روى الطبراني عن جُبَيْرِ بنِ مُطْعِم ، قال أبو جهل حين قَدِمَ مكةَ مُنْصَرفه عن حمزةَ : يامعشرَ قريشٍ إن محمداً قد نزل يثربَ وأرسل طلائعه ، وإنما يريد أن يُصيبَ منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمرُّوا طريقه وأن تُقارِبوه فإنه كالأسدِ الضَّاري ... وزاد : بعث حمزةَ حين بعثه النبي ﷺ إلى سيف البحر في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا جهل في ثلاث مائة راكب في عيرٍ لقريشٍ جاءت من الشام فحَجَز بينهم مجديٌّ بنُ عوفٍ الجُهني ولم يكن قتالٌ .

وهذه رواية جبير كاملة :

٢٥٧ - * روى الطبراني في الكبير عن جُبَيْر بْن مُطْعِم قال : قَالَ أَبُو جَهْل بْن هشامٍ حين قدِم مكة مُنْصَرِفَهُ عَنْ حَمزة : يَامَعشرَ قَرَيش إنَّ محمداً قد نَزل يثرب وَأَرْسَلَ طلائعه : وَإنما يُريدُ أنْ يُصيبَ مِنْكُم شَيئاً فاحْذَروا أن تَمُروا طُرقَه وَأنْ تُقَارِبُوه فإنه كالأسد الضَّاري إنه حَنِق عَلَيكم ، نقيتموه نَقْيَ القِرْدَان عَلَى المَناسِم ، والله إن له لسحْرَة مَا رأيته قطُّ ، ولا أحداً من أصحابه إلا رَأَيْتَ مَعَهُم الشَّيَاطين ، وإنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ عَداوَة ابني قَيْلَة فَهُو عَدوٌ اسْتَعان بعدوٌ فَقَال له مُطْعِمُ بن عديّ : يَا أبا الحَكم وَالله مَا رَأيت أحداً

---

٢٥٦ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٦٨) وقال : أخرجه الطبراني وجادة ورجاله ثقات .

٢٥٧ - المعجم الكبير (٢ / ١٢٣) قال أحمد بن صالح : أرجو أن يكون صحيحاً .

نقّيتموه نَقْي القِردان على المناسم : أي نقيتموه كما ينقي القِردان على المناسم . والقردان : حشرة تلصق بجسم البعير ، والمناسم : مفردها منسم : خفّ البعير .

ابنا قَيْلة : يريد الأوس والخزرج قبيلتي الأنصار ، وقَيْلَة : اسم أم لهم قديمة ، وهي قيلة بنت كاهل .

الحمتوهم خبر كنانة : افعلوا بهم كما فعلتم بكنانة في الحرب .

دهلك : جزيرة بين بر اليَمن وبر الحبشة وأهلها مستذلون .

إن لي أسماء : أراد بهذه الأسماء التي عدها ما هو مذكور في كتب الله تعالى المنزلة على الأمم التي كذبت بنبوته حجة عليهم .

يحشر الناس على يدي : أي الذي يُحشر الناس خلفي وعلى ملتي دون ملة غيري .

العاقب : الذي ليس بعده نبي .

أصْدَق لِساناً ولا أصدقَ مَوعداً مِنْ أخِيكم الـذي طَردتمْ ، فـإذا فعلتم الـذِي فعلتم فكونوا أكفَّ النَّاس عنه . فقَـال أبو سُفيـان بنُ الحـارث : كُونوا أشـد مـا كنتم عَلَيـه فـإن ابْنَي قَيْلَـة إنْ ظَفِرُوا بكم لَمْ يَرْقُبـوا فيكم إلّاً وَلاذِمـة ، وَإنْ أطَعتمُـوني الْحمَتُـوهم خَبَرَ كنـانَـة أو يُخرجـوا مُحَمـدًا مِنْ بَيْن أظْهُرِهم فَيَكـونَ وحِيـدًا مَطْرودًا . وَأمّـا ابْنَـا قَيْلَـةِ فَـوالله مَـا هُمَا وَأهـل دَهْلَكٍ في المَذَلّة إلّا سَواءٌ وَسَأكفيكُم حَدَّهُمْ وقال :

سَـأمْنَـحُ جَـانِبـاً مِنّي غَليظـاً عَلَى مَـا كَـانَ مِنْ قُربٍ وَبُعـدِ
رِجَـالُ الخَـزْرَجِيَّـةِ أهـلُ ذُلٍّ إذا مَـا كَـانَ هَـزْلٌ بَعْـدِ جِـدِّ

فَبَلَـغَ ذَلِـكَ رَسـولَ الله ﷺ فَقَـالَ : « وَالَّـذي نَفْسي بَيـده لأقْتلنهُم وَلأصلبنَّهمْ لأهْدينَّهُم وَهُمْ كارِهُونَ إني رَحْمَةٌ بَعَثَنِي اللهُ عَزّ وَجَلَّ وَلا يَتوفَّـاني حَتّى يُظْهِرَ الله دِينه . لِي خَمْسَةُ أسْماء : أنا مُحَمَّدٌ وَأحْمَدُ وَأنا المَاحِي الـذي يَمْحو الله بِي الكُفرَ وَأنَا الحَاشِرُ يحشر النَّاس عَلَى يَدَيَّ وأنا العَاقِب » .

أقول : المطعم بن عـدي وأبو سفيـان كـلاهمـا من أسرة النبي ﷺ من بني عبـد منـاف ، وكان المطعم أوصل الرجلين لرحمـه ، وهو الـذي أجـار النبي ﷺ عنـد عودتـه من الطـائف ودخوله مكة .

والشاهد من ذكره أسماءه ﷺ أنه المـاحي الـذي يمحو الله بـه الكفر ، فهو واثق أنـه لن يترك كافراً من قومه إلا أن يسلم أو يقتل .

٢٥٨ - * روى الحاكم عن جابر بن سَمُرَة قال : أوّل مَنْ رَمَى بِسهمٍ في سَبيل الله سَعْدُ بنُ أبي وَقاص .

قـال في الفتـح : وورد عن البخـاري جزء من حـديث سعـد : (إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله) قال : وكان ذلك في سريّة عبيدة بن الحـارث ، وكان القتـال فيهـا أوّل حرب وقعت بين المشركين والمسلمين ، وهي أوّل سريّة بعثها رسول الله ﷺ في السنة الأولى

---

٢٥٨ - المستدرك (٣ / ٤٩٨) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

من الهجرة ، بعث ناساً من المسلمين إلى رابغ ليلقوا عيراً لقريش فترامـوا بـالسهـام ولم يكن بينهم سابقة ، فكان سهمه أوّل ما رمي .

ذكر ذلك الزبير بن بكار بسند له وآخرون .

أقول : هذا وهنـاك خلاف بين كتّـاب السير حول هـذه السرايـا الثلاث ، هل كانت في السنة الأولى أو الثانية ، وأيها كانت أولاً ، وقد رجّح ابن كثير أنّهـا كانت في السنـة الأولى ، وقد نص كتّاب السِّيَر على أن سرية حمزة وسريّة عبيدة بن الحارث لم يكن فيهما أنصاري واحد، وذلك من حكمتـه عليـه الصلاة والسلام . فمن خلال تحرّك الرعيل الأول للجهـاد تبـدأ دائرة الحركة الجهـاديّـة تتوسع وتبـدأ الروح الجهـاديّـة تعمّ ، ثم إن المهـاجرين كانوا معبئين نفسيـاً للصراع مَع قريش ، كما أنهم بحـاجـة إلى أن يتحرّروا من مظـاهر الضعف وأسر الاضطهـاد ، وهذه قضايا يجب أن يفطن لها القادة ، فنقل الأمـة من طور السلم إلى طور الحرب ، ونقل الجماعات من طور الاضطهاد إلى دور الجهاد ينبغي أن تصحبه تمهيـدات تعين عليـه ، وبمثل هذا تظهر حكمة القيادات ، وكل قيادة لاتراعي الجوانب النفسية تخفق .

ويلاحظ أنه بمجرّد إذن الله بالقتال بـدأت الحركـة العسكريّـة ، فلم ينتظر الرسول ﷺ حتّى يفرض القتال ، وهذا شيء ينبغي أن تراعيه القيـادات الإسلاميـة ، فمتى أصبح الجهـاد ممكناً فليكن سير فيـه ، ولكنّ هـذا الموضوع يحتـاج إلى موازنـات كثيرة محليّـة وعـالميـة فما يصلح لمكان لايصلح لمكان ، وما يصلح في زمـان لا يصلح في زمـان آخر ، وتقـدير الموقف واتخاذ القرار المناسب هما علامتا جديّة القيادات وكفاءتها .

ومن موقف أبي جهل وردّ المطعم بن عدي عليـه نعرف حكمـة الرسول ﷺ السيـاسيّـة ، فأن تجعل من خصومك من يدافع عنك ، وأن تلقي الرعب في قلب عدوّك ، تلـك قمـة من قمم النجاح السياسي والعسكري ، وهكذا كانت البدايات ناجحة .

* * *

فصل : في أمور متفرّقة
حدثت في السنة الأولى

هناك أحداث ذات دلالات حدثت في هذه السنة يحسن ذكرها :

١ ـ إسلام عبد الله بن سلام :

٢٥٩ ـ * روى ابن ماجه عن عبد الله بن سَلاَم قال : لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ انْجَفَلَ الناسُ إليه ، وقيل : قَدِمَ رسول الله ﷺ ، فجئْتُ في الناسِ لأنظرَ إليه ، فلما استَبَنْتُ وجهَ رسولِ الله ﷺ عَرَفتُ أنّ وجهَه ليس بوجهِ كذّابٍ ، فكان أول شيء تكلّم به ، أن قال : « يـأيها النـاسُ أفشُوا السلامَ ، وأطعِمُوا الطعـامَ ، وصَلوا بـالليـل والنـاس نِيـامٌ ، تدخلُوا الجنةَ بسلامٍ » .

٢٦٠ ـ * روى البخاري من طريق عبد العزيز عن أنس قال : فلمَّا جَاء النبي ﷺ جاء عبدُ الله بنُ سلام فقال ؛ أشهدُ أنّك رسولُ اللهِ وأنك جئتَ بحق ، وقد علمت يهود أني سيِّدهم وابنُ سيدهم وأعلَمُهم وابنُ أعْلمِهم فادْعهُم فاسألهم عني قَبل أنْ يَعْلَمُوا أني قد أسلَمت فإنهم إنْ يُعلَموا أنّي قَدْ أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ . فأرسَل نبيُّ الله ﷺ إلى اليهود فدخَلوا عليه . فقال لهم رسول الله ﷺ : « يامَعشرَ اليهودِ وَيْلَكُم اتقوا اللهَ فوالله الذي لا إلهَ إلّا هو إنّكم لتَعلمونَ أني رسولُ الله حقًّا وأني جئتُكم فأسْلِمُوا » قالوا : ما نَعْلَمُه . قالوا ذلك للنبي ﷺ قالها ثَلاثَ مِرار . قال « فأيُّ رجُل فيكم عبد الله بنُ سَلام » قالوا ذَاك سيدُنا وابنُ سيدنا وأعلمنا وابنُ أعلَمنا . قَالَ : « أفرأيتم إن أسلَمَ » قالوا : حَاشَ لله ما كَانَ ليُسْلمَ . قال « يا ابن سَلام اخْرُجْ عَلَيْهم » فخرج فقال : يامعشر يهودَ اتقوا الله الذي لا

---

٢٥٩ ـ ابن ماجه (١ / ٤٢٣) ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ـ ١٧٤ ـ باب ما جاء في قيام الليل .
والترمذي (٤ / ٦٥٢) ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة ـ باب : ٤٢ . وقال : حديث صحيح .
انْجَفَل الناس : أقبل الناس لرؤية رسول الله ﷺ .
أفشوا : انشروا .

٢٦٠ ـ البخاري (٧ / ٢٤٩) ـ ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ ٤٥ ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وهذا جزء من الحديث .

إله إلاَ هوَ إنّكم لتعلمون أنّه رسول الله وأنّه جاء بَالحق فقالوا : كذبت فأخرجَهم رسول الله ﷺ .

٢٦١ - * روى الإمام أحمدُ عن عبدِ اللهِ بن سَلاَمٍ قال : لما قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ أُخْبِرَ عبدُ اللهِ بقُدومِهِ وهو في نَخْلِهِ فأتاه ، فقال : إني سائلك عن أشياءَ لا يعلمها إلاَ نبي فإنْ أخبرتَني بها آمنتُ بك وإن لم تعلمْهن عرفتُ أنك لستَ نبي ، قال : فسأله عن الشَّبَه وعن أول شيء يأكله أهلُ الجنة وعن أول شيء يَحْشُر الناسَ ؟ قال رسول الله ﷺ : « أَخْبَرَني بهن جبريلُ آنفاً ، قال : ذاك عدوّ اليهود ، قال : أما الشبه إذا سَبَقَ ماءُ الرجل ماءَ المرأةِ ذهبَ بالشبه وإذا سَبقَ ماءُ المرأةِ ماءَ الرجلِ ذهبتْ بالشَّبَه ، وأما أوّل شيء يأكلُه أهل الجنةِ فزيادةُ كَبِدِ الحُوتِ ، وأما أوّلُ شيء يَحْشُرُ الناسَ فنارٌ تخرجُ من قِبَلِ المشرقِ فتحشرَهم إلى المغربِ » فآمن ، وقال : أشهد إنك رسول الله . قال ابن سلام : يارسول الله إن اليهود قومٌ بهتٌ وإنهم إن سَمِعوا بإسلامي يبهتوني فأخبئني عندك وابعث إليهم فتسألهم عني فخبّأه رسولُ الله ﷺ وبعث إليهم فجاؤا فقال : « أيُّ رجل عبدُ اللهِ بنُ سَلاَمٍ فيكُم » قالوا : هو خيرُنا وابن خيرِنا وسيدُنا وابن سيدِنا وعالمنا وابن عالمنا . فقال : « أرأيتم إنْ أسلمَ تُسْلِمون » فقالوا : أعاذه الله من ذلك فقال : « ياعبدَ اللهِ بنَ سلام اخرجْ إليهمْ فأخبرْهم » فخرج فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا : أشرّنا وابن أشرِنا وجاهلُنا وابن جاهِلنا فقال ابن سلام : قد أخبرتُك يارسولَ الله إن اليهودَ قومٌ بهتٌ .

أقول : إنّ إسلام عبد الله بن سلام على علمه ومعرفته بعلامات النبوّة ، وبعد امتحانه لرسول الله ﷺ ، حجّة كاملة على يهود وعلى غيرهم ، فهذا الموقف هو استجابة الفطرة السليمة والإنصاف الكامل ، ومتى اجتمعنا عند فرد من أهل الكتاب فإنه لابد مسلم .

ومن النصوص التي يخطئ في فهمها بعض الناس قوله عليه الصلاة والسلام : « وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع ..... » فالسبق ههنا - والله أعلم - سبق قوّة فإذا

---

٢٦١ - أحمد في مسنده (٢٧١) .

يهتولي : بهت فلاناً : قذفه بالباطل .

كانت بويضة الأنثى أقوى من الحيوان المنوي تغلبت خصائص المرأة على خصائص الرجل فشابهها الولد والعكس صحيح .

* * *

٢ ـ خروج وباء المدينة منها :

٢٦٢ ـ * روى البخاري عن ابن عُمَرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ الله عَنهما أنَّ رَسُول الله ﷺ قال : « رَأَيْت امْرَأة سَوداء ثَائرةَ الرأس ، خَرجت مِنَ المدينة ، حتى قامت بَميهَعَة » وَهِيَ الجُحفة ، فَأوَّلتُ : أن وَبَاء المدينة نقل إلَيها .

أقول : انتقال وباء المدينة إلى الجحفة كان معجزة لرسول الله ﷺ ، وأثراً عن بركته عليه الصلاة والسلام ، ولكنّا نأخذ منه درساً كبيراً ؛ لأنّه كان من فعل الله لرسوله عليه الصلاة والسلام ، ولذلك فإنّ على الحركة الإسلامية أن تعمل جاهدة من أجل إيجاد نظام صحي رفيع المستوى ، فإن كانت لها سلطة فعليها أن تبذل الجهود الكثيرة في ذلك ، وفي كل الأحوال عليها أن تساعد .

* * *

٣ ـ دخوله عليه الصلاة والسلام بعائشة :

٢٦٣ ـ * روى مسلم عن عَائشة قَالت : تزوَّجني رسول الله ﷺ في شَوال ،وَبَنَى بِي في

---

٢٦٢ ـ البخاري (١٢ / ٤٢٥) ٩١ ـ كتاب التعبير ـ ٤١ ـ باب إذا رأى أنه أخرج الشيء من كوة وأسكنه موضعاً آخر ، والترمذي (٤ / ٥٤١) ٣٠ ـ كتاب الرؤيا ـ ١٠ ـ باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو . قال : حديث حسن صحيح غريب .

ثائرة الرأس : أي شعثة الشعر ، بعيدة العهد بالتسريح والغسل .

الجحفة : موضع بالحجاز على ثلاث مراحل من مكة على طريق المدينة ، وهي ميقات أهل الشام وكانت تسمى قديماً مهيعة ، وقد هجرت ولم يبق إلا آثارها ، وقد بُني فيها مسجدٌ حديثاً ، والرسول ﷺ يقص علينا في هذا الحديث رؤيا منامية رآها ورؤيا الأنبياء وحي ، ويبدو أن وباء المدينة كان مرض الملاريا الذي أصاب الصحابة أول هجرتهم ومنهم أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة وعائشة ..

٢٦٣ ـ مسلم (٢ / ١٠٣٩) ١٦ ـ كتاب النكاح ـ ١١ ـ باب : استحباب التزوج والتزويج في شوال ، واستحباب الدخول فيه .

شوّال ، فأيُّ نساء رَسول الله ﷺ كَان أحظى عِنده مني. قال : وكانت عَـائشة تَستَحبُّ أنْ تُدخل نساءَهَا في شوّال .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : فعلى هذا يكون دخوله بها عليـه السلامَ بعـد الهجرة بسبعة أشهر ـ أو ثمـانيـة أشهر ـ وقـد حَكى القولين ابن جرير ، وقـد تقـدم في تزويجـه عليـه السلامَ بسودة كيفية تزويجه ودخولـه بعـائشـة بَعْـدمـا قَـدموا المـدينـة وأن دخولـه بهـا كان بالسُّنْح نهاراً ، وهذا خلاف مَا يعتاده النّاس اليَوم ، وفي دُخُوله عَلَيه السّلام بَها في شَوال ردٌّ لما يتوهمه بعض الناس من كراهية الدخول بين العيدين خشية المفارقة بين الزوجين ، وهـذا ليس بشيء لما قـالتـه عـائشـة رادة على من توهمـه من النـاس في ذلـك الوقت : تزوّجني في شوال ، وبنى بي في شوال ـ أي دخل بي ـ في شوال ، فـأي نسـائـه كان أحظى عِنـده مني ؟ فَدلَّ هذا عَلَى أنها فَهمت منه عَليه السّلام أنها أحب نَسَائه إليه ، وهذا الفهم منها صحيح لمـا دَلّ عَلى ذلك مِنَ الدّلائل الوَاضحة ، ولو لم يكن إلا الحديث الثابت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص : قُلتُ : يارسول الله أي النّاس أحبُّ إليك ؟ قَـال : « عَـائِشـة » قلتَ مِنَ الرّجال قال : « أبُوهَا » .

أقول : والملاحظ أنّ الدعوة والجهاد والتربيـة ومـا يترتّب على ذلـك من تعب وأحزان لم يعطّل الزواج في حياة الرسول ﷺ وأصحابه ، بل الزواج والإكثار منه كان عادياً جـداً في حياتهم كالطعـام والشراب ، وذلـك من مظـاهر أنّ الإسلام دين الفطرة والواقع ، وفي ذلـك أبلغ ردّ على المتحرّجين من هـذه المعـاني واللائمين لغيرهم عليهـا ، لكنّ المـلاحـظ كـذلـك أنّ الزواج في حياة الرسول ﷺ وأصحابه لم يؤخرهم عن واجب .

* * *

٤ ـ تشريع الأذان وإكمال الصلاة :

٢٦٤ ـ * روى أبو داود عن عَبد الله بن زَيْد بن عبد ربه قَالَ : لمـا أمرَ رَسُولُ الله ﷺ

---

٢٦٤ ـ أبو داود (١ / ١٣٥) كتاب الصلاة ـ باب : كيف الأذان .

وابن ماجه (١ / ٢٣٢) ٣ ـ كتاب الأذان والسنة فيها ـ ١ ـ باب بدء الأذان .

=

بالنّاقُوس يُعمل ليُضْرَبَ بِه للنّـاس لجمع للصّلاةِ (وفي روايـة وَهُوَ كَـارِهٌ لِموافَقتـهِ النصـارى) طَافَ بي وَأنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ ناقُوساً في يَده فَقُلْتُ : يَاعبد الله أتبيعُ النّاقوس ؟ قَال : مَـا تَصْنَعُ به ؟ فَقلتُ : نَدعو بـه إلى الصّلاة ، قَـالَ : أَفَلا أَدُلّـكَ عَلَى مَـا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلـك ؟ فَقُلْتُ له : بَلى ، قَال : تَقُولُ ، الله أكْبَرُ ، الله أكبرُ ، الله أكْبَرَ ، الله أكْبَرَ ، أشْهَدُ أن لا إلـه إلا الله ، أشْهَدُ أن لا إله إلا الله ، أشْهَدُ أن مُحَمداً رسولُ الله ، أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّـداً رَسُولُ الله ، حَيٌّ على الصَّلاةِ ، حَي عَلَى الصَّلاة ، حي عَلَى الفَلاحِ ، حَي عَلَى الْفَلاَح ، الله أكْبرُ ، الله أكْبَرُ ، لاَ إلـه إلاّ الله ، ثُمَّ اسْتَـأخَر عني غَيْر بَعِيـد ، ثُمَّ قَـال : وَتَقول إذا أقمت الصّلاة : الله أكْبَرُ ، الله أكبرُ ، أشْهَدُ أنْ لا إله إلا اللهُ ، أشْهَـدُ أن مُحمَّـداً رَسُولُ الله ، حَي عَلَى الصلاة ، حَي عَلَى الفَلاحِ ، قَدْ قَامَتِ الصلاةُ ، قَـدْ قَـامَتِ الصَّلاةُ ، الله أكْبَرُ ، الله أكبَرُ ، لا إلـه إلا اللهُ ، فَلما أصْبَحْت أتَيْتُ رَسول الله ﷺ فأخْبَرتهُ بِمَا رَأيْتُ فقال : « إنَّهـا لَرُؤيَـا حَقٌّ إن شَاء الله ، فَقُمْ مَعَ بَلال فَأَلْقِ عَلَيْه مَا رَأيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بهِ ، فَإنهُ أنْدى صَوتـاً مِنـك » فَقُمْتُ مَعَ بِلال ، فَجَعَلْتُ أُلقيه عَلَيه وَيؤذنُ بهِ ، قَـال : فَسَمِع ذَلـكَ عُمَرُ بنُ الخطـابِ وَهوَ في بَيته فَخَرجَ يَجُرُّ رِداءه وَيَقُولُ : وَالّـذي بَعَثَـكَ بـالْحق يـارسول الله لَقَـدْ رَأيْتُ مِثْلَ مـا رأى ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ : « فللّهِ الْحمدُ » .

وَعَنـه مِنْ طَرِيق ثَـانٍ بِنَحْوِه وَزادَ : ثُم أمر بـالتـأذين فَكَـانَ بِلاَلٌ مَولى أبي بكر يؤذنُ بذلك وَيدعو رسولَ الله ﷺ إلى الصّلاة قَال ، فَجَاءه فَدَعاهُ ذات غَدَاة إلى الفَجْرِ ، فقيل له : إن رسول الله ﷺ نـائمٌ ، قـال : فصرخ بـلالٌ بـأعلى صَـوْتِـه : الصَّلاةُ خَير من النـوم ، قـال سَعيـدُ بْنَ المسيَّب فـأُدْخلَتْ هَـذه الكلمـة في التـأذين إلى صـلاة الفجر (أدخلت بـأمر النبي ﷺ) .

٢٦٥ ـ * روى البخـاري عن عـائشـةَ قـالت : فُرِضَتِ الصـلاةُ أوّلَ مـا فُرِضتْ ركعتين ،

= وأحمد في مسنده (٤ / ٤٣١) والبيهقي (١ / ٣٩٠) .

وابن خزيمة (١ / ١٨٩) كتاب الصلاة ـ ٣١ ـ باب في بدء الأذان والإقامة .

أندى صوتاً : فيـه دليل على اختيـار المؤذن الحسن الصوت ، وليس من الحكمـة الأذان بـالأصوات الرديئـة المنفرة في بعض أقطار الإسلام وكان بلال قبل إسلامه مغنياً حسن الصوت بالغناء .

٢٦٥ ـ البخاري (١ / ٤٦٤) ٨ ـ كتـاب الصلاة ـ ١ ـ بـاب : كيف فرضت الصلوات في الإسراء ؟ =

فأقِرّتْ صلاةُ السّفرِ ، وزِيدَ في صلاةِ الحَضَرِ .

قال ابن جرير : (وفي هذه السنة - يعني السنة الأولى من الهجرة - زيد في صلاة الحضر - فيما قيل - ركعتان ، وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين ، ذلك بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بشهر في ربيع الآخر لمضي ثنتي عشرة ليلة مضت) .

أقول : إنّ دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً تقوم على العبادة ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [1] والعبادة مظهرها الأوّل الصلاة ، لذلك كان تشريع الصلاة وتنظيمها وإقامتها من أوائل ما وقع في الإسلام ، وممّا استمرّ به اهتمام رسول الله ﷺ ، وهذا شيء يجب أن يفطن له الدعاة دائماً وأبداً ، والصلاة لابدّ لها مع التأقيت من منظّم ، ولقد كان الأذان هو المنظّم وقد رأينا قصّته وستأتي معنا في باب الصلاة أحكامه .

ومن استقرار أمر الصلاة في السنة الأولى ندرك أنّ أوّل ما ينبغي أن تهتمّ به الحركة الإسلاميّة قبل النصر وبعد النصر هو إقامة الصلاة :

﴿ الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ [2]

* * *

٥ - حراسة الصحابة لرسول الله ﷺ :

٢٦٦ - * روى مسلم عن عَبْد اللهِ بن عَامِرٍ رَحِمهُ اللهُ قَالَ : سَمِعْتُ عَائشَةَ تَقُولُ : سَهِرَ رسول الله ﷺ مَقْدمَهُ المَدِينَةَ لَيْلَةً ، فَقَالَ : « لَيْتَ رَجُلاً صالحاً مِنْ أصْحَابِي يَحْرُسُنِي

= ومسلم (١ / ٤٧٨) ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - ١ - باب : صلاة المسافرين وقصرها .

(١) الأنبياء : ٢٥ . (٢) الحج : ٤١ .

٢٦٦ - مسلم (٤ / ١٨٧٥) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥ - باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

والبخاري (١٣ / ٢١٩) ٩٤ - كتاب التمني - ٤ - باب قوله ﷺ « ليت كذا وكذا » .

خشخشة سلاح : صوت سلاح صدم بعضه بعضاً .

غطيطه : هو بالغين المعجمة . وهو صوت النائم المرتفع .

اللَّيْلَةَ » قَالَتْ : فَبيْنَا نحن كَذلِكَ ، سَمِعْنا خَشْخَشَةَ سِلاحٍ ، فَقَالَ :« مَنْ هـذا ؟ » قَالَ : سَعْدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا جَاءَ بِكَ ؟ » قَالَ : وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَجِئْتُ أَحْرُسُه ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ نَامَ .

وفي رواية نحوه ، وفي آخرِه : فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطه .

هـذا الحـديث فيـه جواز الاحتراس من العـدو والأخـذ بـالحزم وترك الإهمـال في موضع الحاجة إلى الاحتياط . قـال العلماء : وكان هـذا الحـديث قبل نزول قولـه تعـالى : ﴿ واللهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاس ﴾ [1] لأنّـه ﷺ ترك الاحتراس حين نـزلت هـذه الآيـة وأمر أصحـابـه بالانصراف عن حراسته ، وقـد صرّح بروايتـه الثـانيـة بـأنّ هـذا الحـديث الأول كان في أوّل قدومه المدينة ومعلوم أنّ الآية نزلت بعد ذلك بأزمان .

وقد نقل الشيخ الشعراوي أن مستشرقاً أسلم بسبب هـذا الموضوع وقـال : إن اهتمام النبي ﷺ بحراسته ثم صرفه للحرس بعد ذلك بعد نزول الآية ﴿ والله يعصمك من النـاس ﴾ أكبر دليل على صدقه في رسالته عن الله فأي عـاقل يصرف حرّاسـه ولـه آلاف الأعـداء الموتورين إلا أن يكون واثقاً من حراسة الله عز وجل له .

أقول : هذا وإن مما أمر الله عز وجل به المسلم أن يأخذ حذره قال تعـالى : ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [2] فالمسلم مطالب بالتوكّل ومطـالب بـأخـذ الأسبـاب ، وليس الكمـال أن يفرّط الإنسان في الأخذ بأسبـاب الأمن ، هـذا رَسُولُ اللهِ ﷺ أكمل الخلق يرغب في الحراسـة . إنّ أمن القيـادات يشكل جزءاً هـامـاً من أمن الشعوب والهيئـات والحكومـات وأفراد الجمـاعـات نفسها ، فكثيراً ما يعني وجود جهة ما بقاء قيادتها ، وعلى هـذا فـإن علينـا أن نعطي لأمن القيادات دائماً الكبير الكثير ووسـائل ذلـك متعـدّدة ، وبعض هـذه الوسـائل يصلح لمـا قبل الحكم وبعضهـا يصلح لمـا بعـد الحكم ، ويـزداد الطلب لأمن القيـادات بعـد الحكم ، لأنّ الحكم الإسلامي نفسه يُسْتَهْدَفُ من خلال استهداف العناصر القيادية .

---

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) النساء : ١٠٢ .

تقويم الموقف في نهاية السنة الأولى

تنتهي السنة الأولى وقد نظّم الرسول ﷺ أمور العبادة والاجتماع والصلة التوجيهيّة المباشرة بالأُمّة ، كما صهر بين المهاجرين والأنصار وجعل المسلمين صفًّا واحداً وأوجد علاقات منضبطة بين المسلمين وغيرهم داخل المجتمع المدني ، وبدأ تحرّكات واسعة خارج المدينة هدفها توسعة دائرة أمن المدينة ، وفتح الطريق أمام انتشار الإسلام ، والضغط على قريش ، وأوجد المناخ الكامل لتلقّي الأحكام والخضوع لها ، فأوجد بذلك كل مقوّمات الدولة النموذجية : أرض ودستور وقوانين وجيش ودعوة ورسالة وهدف . على رأس ذلك كلّه رئيس يسلّم له الجميع ، وبدأت بذلك عمليّة مدّ الرسالة من خلال أمّة لم يعرف لها العالم مثيلاً .

* * *

السَّنَة الثَّانِيَة لِلهِجْرَة

هذه السنة في سطور

حَوّلت في هـذه السنـة القبلـة من المسجـد الأقصى إلى المسجـد الحرام ، ونـزلت فريضـة صيام شهر رمضان ، وفرضت زكوات الأموال وزكاة الفطر ، وتمّ تشريع المعاقل لتصفية آثار القتل الخطأ وتوّفيت رُقَيّةُ بنت رسول الله ﷺ زوج عثمان بن عفان عقب غزوة بـدر، وقـدمت زينب بنت رسول الله مهاجرة من مكّة إلى المدينة ، وتزوّج علي رضي الله عنه فاطمـة بنت رسول الله ﷺ ، وكانت الحركة السياسيّة متمثّلة في التحالفات ، والحركـة العسكريّـة متمثلـة في البعوث والسرايا والغزوات على أشدّها ؛ فتحقّق من خلال ذلك كلّـه : أن توسّعت دائرة الأمن والنفوذ للـدولـة الإسلاميـة وأصبحت سيطرة المسلمين على الطريـق بين مكّـة والشـام كاملة ، ولذلك حاولت قريش أن ترسل تجارتها بعد بدر عبر العراق ومع ذلـك سقطت بيـد المسلمين ، وترتّب على ذلك تلقائياً أن تأخذ المعارك منحى أكثر شدّة وأوعب تعبئـة ، وهـذا عرض سريـع للتحـالفـات ، وللحركـة العسكريّـة لهـذا العـام كما عرضها كتـاب السير ، مـع ملاحظـة أنّ في تـاريخ بعض السرايـا والغزوات خلافـاً بين كتّـاب السير ، وهو خـلاف لا يترتّب عليه عمل ؛ لذلك لم نشدّد فيه .

* * *

١ ـ في تحالفات هذا العام :

قال ابن كثير في البداية والنهـايـة : ثم خرج رسول الله ﷺ غـازيـاً في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة . قال ابن هشـام : واستعمل على المـدينـة سعد بن عبادة . قـال ابن إسحـاق : حتى بلغ وَدّان وهي غزوة الأَبْواء ، قـال ابن جرير : ويقـال لهـا غـزوة وَدّان أيضاً ، يريد قريشاً وبني ضَمرة بن بكر بن عبد مَنَـاة بن كنـانـة ، فوادعتـه فيهـا بنو ضمرة ، وكان الذي وادعه منهم مخشي بن عمرو الضمري ، وكان سيدهم في زمانه ذلك . ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بهـا بقيـة صفر وصـدراً من شهر ربيع الأول . قال ابن هشام : وهي أول غزوة غزاها عليه السلام .

وقـال ابن كثير نقلاً عن ابن إسحـاق : نزل العشيرة من بطن ينبـع فـأقـام بهـا جُمَـادى

الأولى وليالي من جمادى الآخرة ، ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضَمْرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا .

٢ - في الحركة العسكرية :

حدث في هذا العام :

١ - غزوة الأبواء أو وَدّان : في صفر سنة ٢ هـ - وودّان بالفتح والتشديد - موضع بين مكة والمدينة بينه وبين رابغ مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً ، والأبواء موضع بالقرب من ودّان .

قال في الرحيق المختوم : خرج رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن استخلف على المدينة سعد ابن عبادة في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيرًا لقريش حتى بلغ ودان ، فلمْ يلق كيداً .اهـ .

وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع مَخْشِيّ بن عمرو الضمري ، وكان سيد بني ضمرة في زمانه ، وهاك نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ، مابَلّ بحر صُوفَة [١] . وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه . (المواهب اللدنية وشرحه للزرقاني) .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب .

٢ - غزوة بُوَاط : في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسائة بعير ، فبلغ بواطاً من ناحية رَضوى [٢] ولم يلق كيداً .

---

(١) ما بل بحر صوفة : تعبير دارج عند العرب بمعنى على الدوام .

(٢) بواط ورضوى : جبلان بينهما وبين المدينة أربعة برد .

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ، واللواء كان أبيض ، وحامله سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه .

٣ ـ غزوة سَفْوان : في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ الموافق سبتمبر (أيلول) سنة ٦٢٣م ، أغار كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة ، ونهب بعض المواشي ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغَزوة بدر الأولى .

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله علي ابن أبي طالب .

٤ ـ غزوة ذي العُشَيرة : في جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر (تشرين الثاني وكانون الأول) سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ويقال : في مائتين من المهاجرين ، ولم يكره أحداً على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ، يعترضون عيراً لقريش ، ذاهبة إلى الشام ، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش ، فبلغ ذا العشيرة ، فوجد العير قد فاتته بأيام ، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى .

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادى الأولى ، ورجوعه في أوائل جمادى الآخرة على ما قاله ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهر هذه الغزوة . (وبعضهم يرى أن هذه الغزوة هي نفسها غزوة وَدَّان) .

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة .

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

٥ ـ سرية نخلة : في رجب سنة ٢ هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤ م ، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يعتقبان

على بعير .

٦ ـ في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة حدثت واقعة بدر ، وكان خروج الرسول ﷺ من المدينة في ٨ أو في ١٢ من الشهر .

٧ ـ قال في الرحيق : نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة ، فباغت النبي ﷺ في مائتي راكب هذه القبائل المتحشدة في عقر دارها ، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له الكَدُر [1] . ففر بنو سليم وتركوا في الوادي خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين ، وأصاب غلاماً يقال له (يسار) فأعتقه .

وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة . وقيل : ابن أم مكتوم .

٨ ـ وفي شوال سنة ٢ هـ حاصر رسول الله ﷺ بني قينقاع بعد نقضهم للعهد ، فنزلوا على حكمه فأجلاهم إلى الشام .

٩ ـ وفي هذه السنة حاول عمير بن وهب الجمحي اغتيال رسول الله ﷺ فكشف ، وكاشفه الرسول ﷺ بأسراره فأسلم .

١٠ ـ وفي ذي الحجة سنة ٢ هـ حدثت غزوة السويق كرد على محاولة قريش أخذ ثأرها من بدر فارتدّت على أعقابها هاربة ملاحقة من رسول الله ﷺ .

وقال في الرحيق : وقصة ذلك أنّه بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المغارم ظاهر الأثر ، يتعجل به ، ليحفظ مكانة قومه ، ويبرز ما لديهم من قوة، وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً . فخرج في مائتي راكب ليبر يمينه ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب ، من المدينة على بريد [2] أو نحوه ، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهاراً ، فقام

---

(١) الكدر : اسم ماء لبني سليم قبل نجد .

(٢) البريد : اثنا عشر ميلاً .

بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة ، فإنه دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفياً تحت جنح الظلام ، فأتى حُيي بنَ أَخْطَب ، فاستفتح بابه ، فأبى وخاف فانصرف إلى سَلّام بنِ مِشْكَم ـ سيد بني النَّضير ، وصاحب كنزهم إذ ذاك ـ فاستأذن عليه فأذن . فقرَاه وسَقاه الخمر ، وبَطَن لـه من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها « العُرَيْض » ، فقطعوا وأحرقوا هناك أسواراً من النخل ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً لـه في حرث لهما فقتلوهما ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، وطرحوا سويقاً [١] كثيراً من أزوادهم وتموينـاتهم يتخففون بـه ، فتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرْقرة الكدر [٢] ، ثم انصرف راجعاً ، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سَويقهمْ ، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق . وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر . أ هـ .

* * *

* وهكذا نجد في هذه السنة تلاحم عمليّة البناء للأمّة مع الحركة السياسيّة والعسكريّة على أشدّها فالمسلمون في حركة عسكريّة دائمة ، ومع هذه الحركة حركة سياسيّة تظهر بالتحالفات وقطع الطريق على تألّب الأعداء أو غدرهم مع تنزّل التشريع شيئاً فشيئاً بما يعمّق الوحدة وينير الطريق لتقوم صروح التشريع الإسلامي على أرضيّة الواقع والخلود .

* وبسبب من الانتصارات في هذه السنة فقد دخل مشركو المدينة في الإسلام ، فمنهم صادق ومنهم كاذب ومن ههنا بدأت ظاهرة النفاق في المدينة المنوّرة .

* ومن خلال الحركة السياسيّة والعسكريّة ندرك أنّ : الحكم والدولة والسياسة تحتاج إلى يقظة وسهر دائم وأخذ بالأسباب وقوّة مبادرة وكل ذلك نجده في حياة رسول الله ﷺ على

(١) السويق : أن تحمص الحنطة أو الشعير أو نحو ذلك ثم تطحن ثم يسافر بها وقد تمزج باللبن والعسل والسمن وإلا فالماء .

(٢) قرْقرة الكُدْر : موضع بناحية المعدن ، بينها وبين المدينة ثمانية برد .

أكله ، وهناك تصرّفات فعلها رسول الله ﷺ قد تكون منسوخة ، ولكن يبقى المنحى العام الذي سار عليه رسول الله ﷺ سُنّةً ينبغي أخذها بعين الاعتبار ، فالحركة الدائمة والتحالفات المستمرّة سمتان ينبغي أن تفطن لهما الحركة الإسلامية المعاصرة مع الأخذ بعين الاعتبار الشورى والفتوى والمصلحة الإسلامية العليا .

* إنّ الذين يشتغلون بالعمل السياسي والعسكري يصبح في حكم البديهي عندهم أنّ النجاح في المعركة يقتضي أن تقطع طرق الإمداد عن عدوّك ، وأن تخذّل عنه ما استطعت ، وأن تبقي طرق إمدادك مفتوحة وتجمّع حولك ما استطعت ، ومن لم تستطع أن تحشده معك فلا أقلّ أن تُحَيِّدَه في معركتك مع خصمك الرئيسي ، وبقدر نجاح القائد العسكري أو السياسي في مثل هذه الأمور تظهر عبقريّته ، وقليلون من الساسة والعسكريّين هم الذين يستطيعون أن يحقّقوا هذه المعاني متكاملة دون أن يرتكبوا خطأ ، وأقلّ من القليل الذين يستطيعون أن يفعلوا ذلك دون أن يتناقضوا مع دعواتهم ورسالتهم إن كان لهم دعوة أو رسالة ، ولكنّ رسول الله ﷺ حقّق هذه المعاني مجتمعة على كمالها وتمامها ، فأي شرف لهذا العالم أن يكون فيه مثل رسول الله ﷺ ؟ وأي قدوة للإنسان هذا الرسول ؟.

* وكل العسكريّين والسياسيّين يدركون أهمّيّة الحركة الداخلية والخارجية في حياة الشعوب والجيوش كما يدركون أهميّة التوعية والتربية والثقافة ، ولكنّ القلّة هي التي تقدر على أن توائم بين هذه المعاني فتحقّقها جميعاً ، وأقلّ من القليل هم الذين تكون توعيتهم وتربيتهم وتثقيفهم حقّاً وحركتهم ضمن الحدود التي لا تزيد ولا تنقص عن القدر المطلوب ، ولكن رسول الله ﷺ حقّق هذه المعاني كلّها على غاية من الكمال ما كانت لتكون لولا أنّه رسول الله ﷺ .

وما حدث في هذه السنة نموذج ، ولا يعرف أحد أبعاد هذه المعاني إلّا إذا استوعب نصوص الكتاب والسنّة واستوعب دروس السيرة .

* ولمّا كان كثير من مواضيع السيرة تأتي في أمكنة متفرقة من كتب السنة ، فنحن ههنا لن نتحدّث عن الصغيرة والكبيرة من الحوادث والأحكام فلذلك مقاماته في هذا الكتاب ، ولذلك سنقتصر ههنا على أبرز الأحداث .

فصل : في سريّة عبد الله بن جحش

٢٦٧ ـ * روى الطبراني عن جُنْدَبِ بن عبد اللهِ عن النبي ﷺ أنه بعث رَهْطاً وَبَعثَ عَلَيهِم أَبا عبيدة فلما ذهب لينطلق ، بكى صبابَة إلى رَسُول الله ﷺ فجلس ، فبَعَثَ عَلَيْهِم عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ مَكَانهُ ، وكَتَبَ لَهُ كِتَاباً وأَمَرَه أنْ لاَيَقْرأ الكتَابَ حَتَّى يَبْلُغَ مَكَان كَذَا وَكذا ، وقال : « لاتُكْرِهَنَّ أحداً من أصحابك على المسيرِ معك » ، فَلَمَّا قَرأ الكِتَابَ استَرجَعَ وَقَال : سَمْعٌ وطَاعَةٌ للهِ ولِرَسُولهِ ، فَخبَّرَهُمُ الخَبَر وقَرَأ عَلَيْهم الكِتَاب ، فرَجَعَ رَجُلانِ ، وَمَضَى بَقيَّتُهُم ، فَلَقُوا ابنَ الحَضْرمِي فقَتلوه ، ولم يَدْروا أن ذلِك اليَوْم مِنْ رَجَب أو جُمادى ، فَقَالَ المشركون للمسلمين : قَتَلْتم في الشَّهْرِ الحَرَامِ ، فأَنْزَلَ الله عَزَّ وجَلَّ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرامِ ﴾ الآية . فَقَال بَعْضُهم : إنْ لم يكونوا أصَابُوا وِزْراً فَلَيْس لَهُم أجْرٌ ، فَأَنزلَ اللهَ عَز وَجَل ﴿ إنَّ الذينَ آمنُوا والذينَ هَاجَروا وجَاهَدُوا في سَبيلِ الله أولئِك يَرجُون رَحمةَ اللهِ والله غفورٌ رَحِيم ﴾ [(١)] .

٢٦٨ ـ روى الطبراني عن زيد قَالَ : أولُ رايةٍ رُفِعتْ في الإسلام رَايةُ عبدِ اللهِ بنِ جَحشٍ ، وأول مَالٍ خُمِّسَ في الإسلامِ مالُ عبدِ اللهِ بنِ جحشٍ .

لقد رأينا أنّ هناك سرايا سبقت سريّة عبد الله بن جحش هذه ، كما أنّ هناك غزوة قادها رسول الله ﷺ نفسه وهي غزوة العشيرة ، وكانت قبل هذه السريّة فالأولية بالنسبة لعلم الراوي ، وعلى كل الأحوال فلسريّة عبد الله بن جحش هذه أهميّة كبيرة في التاريخ ؛ فهي التي مهّدت لتجاوز فكرة تحريم القتال في الأشهر الحرم ، فلقد انطلق الصحابة بعد ذلك وكل أيامهم جهاد ، ولو بقيت فكرة تحريم القتال في الأشهر الحرم وهي تلك السنة لأصيب المسلمون بالحرج ، ومع ذلك فقد بقي رسول الله ﷺ يلاحظ قدسية الأشهر الحرم

---

٢٦٧ ـ المعجم الكبير (٢ / ١٦٢) . مجمع الزوائد (٦ / ١٩٨) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

الرهط : الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو مادون العشرة .

صبابة : الشوق أو رقّته وحرارته .

استرجع : عن مصيبة وفيها أرجع ، وأرجع في المصيبة قال : إنّا لله وإنا إليه راجعون .

(١) البقرة : ٢١٨ .

٢٦٨ ـ أورده الهيثمي (٦ / ٦٧) وقال رواه الطبراني بإسناد حسن .

عند العرب وتجنبهم فيها القتال وذلك من مراعاة للرأي العام ، وبعضهم يرى أنّ نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم جاء متأخراً ولا أرى ذلك .

* * *

دروس من هذه السرية :

١ ـ **قال الشيخ الغزالي تعليقاً على هذه الحادثة :** ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله وكثر في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً مسلك عبد الله تجاه المشركين .

﴿ يَسألونكَ عنِ الشهر الحرام قتالٍ فيه قُل قتال فيه كبيرٌ وَصدٌ عن سبيل الله وكفر بهِ والمسجدِ الحرام وإخراج أهله منه أكبرُ عند اللهِ والفتنةُ أكبرُ من القتل ﴾ [1] .

إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انْتُهِكت كلّها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله ! فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرَّةً وشناعةً ؟

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وسلب أموالهم ؟ لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عندما تكون في مصلحته ، فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقضُها هدم القوانين والدساتير جميعًا .

فالقانون المرعي ـ عنده في الحقيقة ـ هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب .

وقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضي في خطتهم الأصلية ، وهي سحق المسلمين ، حتى لاتقوم لدينهم قائمة فقال : **﴿ ولا يَزالونَ يقاتِلونكمْ حتىّ يردوكمْ عن دِّينكم إن استطاعوا ﴾** [2] .

ثم حذر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية والتفريط في الإيمان الذي شرفهم

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

(٢) البقرة : ٢١٧ .

الله به ، وناطَ سعادتهم في الدنيا والآخرة بالبقاء عليه فقال : ﴿ ومَنْ يرْتَـد مِنكم عَنْ دِينـه فيمتْ وهُو كافر فأولئكَ حبطتْ أعمالهمْ فِي الدنيا والآخِرة وأولئكَ أصحابُ النـار هُمْ فِيهـا خَالِدونَ ﴾ (١) .

وزكّى القرآن عمل « عبد الله » وصحبه ، فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة وشجاعة وتوغلوا في أرض العدو مسـافـات شـاسعـة ؛ متعرضين للقتل في سبيل الله متطوعين لـذلـك من غير مكرِه أو محرج .

فكيف يُجْزَوْنَ على هذا بالتقريع والتخويف ؟ قال الله فيهم :

﴿ إنَّ الذينَ آمنوا والذين هاجرُوا وجاهدُوا في سبيل الله أولئك يرجوُن رَحمة الله والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٢) .

والقرآن في فعال هذه السرية ، لم يدع مجـالاً للهوادة مع المشركين المعتـدين ممـا كان لـه أثره البعيد لدى المسلمين وخصومهم .

فبعـد أن كان أغلب المكتتبين في السرايـا السـابقـة من المهـاجرين ، أخـذت البعـوث الخارجة تتألف من المهاجرين والأنصار معاً .

وزاد الشعـور بـأن الكفـاح المرتقب قـد يطـول مـداه ، وتكثر تبعـاتـه ، ولكنـه كفـاح مستحب ، مقرون بالخير العاجل والآجل .

وأدركت مكة أنها مؤاخذة بما جد أو يجد من سيئـاتها ، وأن تجـارتهـا مع الشـام أمست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة .

وكأن هذه الأحاديث الشداد هي المقدمـة لمـا أعـده القـدر بعـد شهر واحـد من وقوعهـا عندما جمع رجالات مكة . وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور في « بدر » .

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

(٢) البقرة : ٢١٨ .

٢ ـ لقد جاء قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال ..... ﴾ قبيل الآية التي تحدّثت عن سريّة عبد الله بن جحش ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ..... ﴾ وقد ربطنا في تفسيرنا بين آية القتال ههنا وبين سورة الأنفال ربطاً غير متعسّف ولا متكلّف ، فههنا يأتي قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهوشرّ لكم ﴾ (١) وفي سورة الأنفال يأتي قوله تعالى : ﴿ كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ (٢) فغزوة بدر كانت هي المصداقيّة لحكمة فرضية القتال ،فهي التي صدّقت أنّ القتال وإن كان مكروهاً للنفس البشريّة لكنّ فيه خيراً لأهل الإيمان ، وبدر هي الدليل ، فكم ترتّب من خير على غزوة بدر .

* * *

الحكمة في السرايا :

كان مما قاله الدكتور محمد أبو فارس حول فوائد إرسال السرايا والمناوشات الأولى :

ـ إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم وعلى المستوى الخارجي : فهم مظلومون مطاردون قد صودرت أموالهم وضيق عليهم في حرية التفكير والقول والتعبد ، وبالتالي كان لابد من إحيائها في نفوسهم ليسمعوها للآخرين ، وأنه بدون السلاح لا يمكن أن يعطي الآخرون أذناً صاغية للمستضعفين .

ـ إنهاك الاقتصاد القرشي ومحاصرته ، فقد كانت قريش تعتمد على التجارة وكذلك استعادة بعض الحقوق المسلوبة .

ـ إضعاف قريش عسكرياً وتوجيه ضربة قاصمة لسمعة قريش لإلقاء الرعب في صفوف مقاتليها وإرباكهم .

ـ رفع معنويات المهاجرين وجعلهم يحطمون الخوف ، وإلقاء الرعب في نفوس المشركين

---

(١) البقرة : ٢١٦ .

(٢) الأنفال : ٥ .

وتحطيم معنوياتهم ورصد تحركات قريش .

ـ التعرف على طبيعة الأرض التي سيقاتلون عليها .

ـ وهذه المناوشات استمرار للتدريب العملي وتربية الكفاءة القتالية عند الجنود في التخطيط والتنفيذ ، وفيها تعويد على السِّرِّية في التحرك والقتال ، وفيها اختبار للرجال والتعرف على معادنهم .

ـ وفي المناوشات إرهاب العدو الداخلي في المدينة ، وإضعاف جبهة الأعداء الخارجية ، مع اختبار قدرة العدو ، وفوائد أخرى .

* * *

فصل : في تحويل القبلة

قال صاحب الرحيق المختوم : في شعبان سنة ٢هـ الموافق فبراير (شباط) ٦٢٤م ، أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين ، لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة .

وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لاينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة ، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم ، وإن كانت بأيديهم فلابد من تخليصها يوماً ما .

٢٦٩ - * روى البخاري عن البراء بن عَازِب رَضِيَ اللهُ عنهُمَا أنّ رسول الله ﷺ صلّى إلى بَيْت المَقْدِسِ ستّةَ عشر شَهْراً ، أو سَبْعَةَ عَشر شَهراً وكان يُعجبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البيْتِ ، وأنّه صلّى - أو صلّاها - صَلاةَ العَصْرِ ، وصلّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّن صلّى معه ، فمرّ عَلَى أهل المسجِد وهم رَاكِعُونَ ، قَالَ : أشهدُ بالله لَقَدْ صلّيتُ مَعَ النبي ﷺ - قِبلَ مكة فَدَارُوا كَمَا هُم قِبَلَ البَيْتِ .

قَالَ : وفي روَاية : وكان الذي مَاتَ عَلَى القِبْلَة - قبل أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ البيت - رجالٌ قُتلُوا لَم نَدْرِ ما نَقُولُ فيهم ؟ فأَنْزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وما كَانَ اللهُ لِيُضيع إيمانَكُمْ ﴾ (١) .

وَفي أخْرى (٢) : وكَانَ رسول الله ﷺ يُحبُّ أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة ، فأَنْزَلَ الله عز وجَل ﴿ قَدْ نَرَى تقلُّب وَجْهِكَ في السمَاء ﴾ فتوجَّهَ نحو الكعبة ، وقَالَ السُّفَهَاءُ من الناس - وَهُمُ اليَهُودُ - ﴿ مَاوَلاهُم عَن قِبْلتِهِمُ التي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدي مَنْ يَشَاء إلَى صِراطٍ مُسْتَقِيم ﴾ (٣) .

---

٢٦٩ - البخاري (٨ / ١٧١) ٦٥ - كتاب التفسير - ١٢ - باب : ﴿ سيقول السفهاءُ من الناس .... ﴾ .

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) البخاري (١ / ٥٠٢) ٨ - كتاب الصلاة - ٣١ - باب التوجه نحو القبلة حيث كان .

(٣) البقرة : ١٤٢ .

وأخرجه الترمذي [1] قال : لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ، صلَّى نحو بيت المقدس ستَّةَ ، أو سبعةَ عشر شهراً ، وكان رسولُ الله ﷺ يُحِبُّ أنْ يُوَجَّهَ إلى الكعبةِ ، فأنزلَ الله تبارك وتعالى ﴿ قد نرى تقلُّبَ وَجهِكَ في السماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فولِّ وجهك شَطر المسجدِ الحرام ﴾ [2] فوَجَّهَ نَحْوَ الكعْبَةِ ، وكَانَ يُحِبُّ ذلك ، فصلَّى رجُل مَعَه العَصْرَ ، ثم مرَّ على قومٍ مِن الأنْصَارِ وَهُمْ رُكوع في صَلاةِ العصْرِ نَحْو بيْتِ المقدِسِ . فقالَ : هو يشهد أنَّه صَلَّى معَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وأنَّهُ قَدْ وُجِّهَ إلَى الكَعبةِ ، فانحرَفوا وهم رُكُوعٌ .

وأخرجه النسائي [3] قال : قدم رسول اللهِ ﷺ المدِينة ، فَصَلَّى نَحْو بيت المَقْدِسِ ستَّةَ عشر شَهْراً ، ثمَّ إنَّهُ وُجِّهَ إلى الكَعبَةِ ، فمرَّ رَجُلٌ قَدْ كَانَ صَلَّى مع النبي ﷺ عَلَى قَومٍ مِنَ الأنْصَارِ ، فَقَالَ : أشْهَدُ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قد وُجِّهَ إلى الكَعْبَةِ ، فانْحَرَفُوا إلى الكَعْبَةِ .

٢٧٠ - * روى الطبراني عن تُوَيْلَةَ بنتِ أسلم وَهِيَ مِن المبَايعاتِ قَالت : إنَّا لبِمُقَامِنا نُصَلِّي في بَنِي حَارِثَة ، فَقَالَ عَبَّادُ بنُ بشرِ بن قِبطِيّ : إنَّ رسُول الله ﷺ قَد اسْتقبَلَ البيْتَ الحَرَام والكعبة ، فَتَحوَّل الرجال مكانَ النِّسَاء والنِّسَاءُ مَكانَ الرِّجَالِ ، فَصَلُّوا الركْعَتَين البَاقِيتَيْنِ نَحْوَ الكَعْبَةِ .

٢٧١ - * روى الطبراني عن سهل بن سَعْد أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يُصلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ ،فَلمَّا حُوِّلَ انْطَلَقَ رَجُلٌ إلَى أهْلِ قُباء فوجَدَهُم يُصلُّون صَلاةَ الغَدَاةِ ، فَقَال : إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أمَرَ أنْ يُصَلِّى إلَى الكعْبَةِ فاسْتَدَارَ إمَامُهُم حَتَّى اسْتَقْبَل بِهِم القِبْلَةَ .

---

(١) الترمذي (٢ / ١٦٩) أبواب الصلاة - باب ما جاء في ابتداء القبلة وقال : حديث حسن صحيح وكذا في (٥ / ٢٠٧) كتاب تفسير القرآن - ١ - باب : ومن سورة البقرة .

قِبَل البيت : أي حذاءَه ، وجهتَه التي تقابله .

شطر الشيء : جهته ونحوه

(٢) البقرة : ١٤٤ .

(٣) النسائي (١ / ٢٤٣) كتاب الصلاة - باب فرض القبلة .

٢٧٠ - المعجم الكبير (٢٤ / ٢٠٧) . أورده الهيثمي (٢ / ١٤) وقال : رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله موثقون .

٢٧١ - أورده الهيثمي (٢ / ١٤) وقال : رواه الطبراني ورجاله موثقون .

صلاة الغداة : هي صلاة الفجر .

دروس من تحويل القبلة :

١ ـ قال الأستاذ الندوي : وكان المسلمون العرب ـ وقد رضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها ، وامتزج ذلك بلحومهم ودمائهم ـ لا يعدلون بالكعبة بيتاً ، ولا بقبلة إبراهيم وإسماعيل قبلة ، وكانوا يحبون أن يصرف إلى الكعبة ، وكان في جعل القبلة إلى بيت المقدس محنة للمسلمين ، ولكنهم قالوا : سمعنا وأطعنا وقالوا : آمنا به كل من عند ربنا ، فلم يكونوا يعرفون إلا الطاعة لرسول الله ﷺ والخضوع لأوامر الله ، وافقت هواهم أم لم توافقها ، واتفقت مع عاداتهم أم لم تتفق .

فلما امتحن الله قلوبهم للتقوى واستسلامهم لأمر الله ، صرف رسوله والمسلمين إلى الكعبة يقول القرآن :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ [١] .

٢ ـ إنّ لحادثة تحويل القبلة أبعاداً كثيرة : منها السياسي ، ومنها العسكري ، ومنها الديني البحت ، ومنها التاريخي ....

فبعدها السياسي أنّها جعلت الجزيرة العربيّة محور الأحداث ، وبعدها التاريخي أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربي لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبعدها العسكري أنّها مهّدت لفتح مكّة وإنهاء الوضع الشاذّ في المسجد الحرام حيث أصبح مركز التوحيد مركزاً لعبادة الأصنام ، وبعدها الديني أنّها ربطت القلب بالحنيفيّة وميّزت الأمّة الإسلاميّة عن غيرها ، والعبادة في الإسلام عن العبادة في بقيّة الأديان .

* * *

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

عدد غزواته ﷺ :

٢٧٢ - * روى البخاري عن أبي إسحاق قال : كنت إلى جنب زيدِ بنِ أرقم فقيل له : كم غزا النبي ﷺ من غـزوة ؟ قـال : تسعَ عَشْرة قـال : كم غَـزَوْتَ أنتَ مَعَـه ؟ قـال : سبـعَ عَشْرةَ ، قلت : فـأيّهم كانت أولَ ؟ قـال : ذاتُ العُشَيرِ أو العُسَيرةِ . فذكرت لقتادة فقـال : العُشَيرة .

٢٧٣ - * روى الشيخان عن بُرَيْدَة قـالَ : غزا رسول الله ﷺ تسع عَشْرة غَزْوةً ، قـاتل في ثمانٍ منهُن .

قـال ابن حجر : قولـه (تسع عشرة) كـذا قـال ، ومراده الغزوات التي خرج النبي ﷺ فيها بنفسه سواء قاتل أو لم يقـاتل ، لكن روى أبو يعلى من طريق أبي الزبير عن جـابر أن عدد الغزوات إحدى وعشرون ، وإسناده صحيح وأصله في مسلم ، فعلى هـذا فـات زيـد بن أرقم ذكر ثنتين منها ولعلها الإبواء وبواط ، وكأن ذلك خفي عليه لصغره ، ويؤيد مـا قلتـه ما وقع عند مسلم بلفظ (قلت ما أول غزوة غزاهـا ؟ قـال : ذات العشير أو العشيرة) أهـ ، والعشيرة كما تقدم هي الثالثة .

وأما قول ابن التين : يحمل قول زيد بن أرقم على أن العشيرة أول ما غزا هو ، أي زيـد ابن أرقم ، والتقـدير : فقلت مـا أول غزوة غزاهـا أي وأنت معـه ؟ قـال : العشير فهو محتمل أيضًا ، ويكون قد خفي عليه ثنتان مما بعد ذلك . أو عد الغزوتين واحدة ، فقد قال موسى ابن عقبة : « قَاتَل رسول الله ﷺ بنفسه في ثمـان : بـدر ثم أُحـد ثم الأَحزاب ثم المصطلق ثم خيبر ثم مكـة ثم حنين ثم الطـائف ، وأهمل غزوة قريظـة ؛ لأنـه ضمهـا إلى الأحزاب لكونهـا كانت في إثرها ، وأفردها غيره لوقوعها منفردة بعـد هزيمـة الأحزاب ، وكـذا وقع لغيره عـد

---

٢٧٢ - البخاري (٧ / ٢٧٩) ٦٤ - كتاب المغازي - ١ - باب غزوة العُشَيرة أو العُسيرة .
ومسلم (٣ / ١٤٤٧) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٤٩ - باب عزوات النبي ﷺ .
والترمذي (٤ / ١٩٤) ٢٤ - كتاب الجهاد - ٦ - باب ما جاء في عزوات النبي ﷺ وكم غزا .
٢٧٣ - البخاري (٨ / ١٥٣) ٦٤ - كتاب المغازي - ٨٩ - باب كم غزا النبي ﷺ .
ومسلم (٣ / ١٤٤٨) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٤٩ - باب عدد عزوات النبي ﷺ .

الطائف وحنين واحدة لتقاربها ، فيجتمع على هذا قول زيد بن أرقم وقول جابر .

وقد توسع ابن سعد فبلغ عدة المغازي التي خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه سبعاً وعشرين ، وتبع في ذلك الواقدي ، وهو مطابق لما عده ابن إسحاق إلا أنه لم يفرد وادي القرى من خيبر ، أشار إلى ذلك السهيلي ، وكأن الستة الزائدة من هذا القبيل ، وعلى هذا يحمل ما أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب قال : غزا رسول الله ﷺ أربعاً وعشرين ، وأخرجه يعقوب بن سفيان عن سلمة بن شبيب عن عبد الرزاق فزاد فيه أن سعيداً قال أولاً : ثماني عشرة ، ثم قال : أربعاً وعشرين ، قال الزهري : فلا أدري أوهم أو كان شيئاً سمعه بعد . قلت : وحمله على ما ذكرته يدفع الوهم ويجمع الأقوال ، والله أعلم . وأما البعوث والسرايا فعد ابن إسحٰق ستاً وثلاثين وعد الواقدي ثمانياً وأربعين . وحكى ابن الجوزي في (التلقيح) ستاً وخمسين ، وعد المسعودي ستين ، وبلغها شيخنا في « نظم السيرة » زيادة على السبعين ، ووقع عند الحاكم في « الإكليل » أنها تزيد على مائة ، فلعله أراد ضم المغازي إليها . اهـ .

لقد كانت مرحلة عجيبة في تاريخ البشريّة برجالها وأعمالها وبمجموع ما تمّ ، ويكفي أنّها وضعت الأمّة الإسلاميّة على طريق الانطلاق في حيويّة متجدّدة ، وأنّها أسلمت الإسلام لهذا العالم هادياً قوياً دائم التوسّع والانتشار ، وجعلت العالم القديم كلّه أمام خيار وحيد إمّا أن يسلم للحق أو يستسلم لأهله .

* * *

فصل : في غزوة بدر

تمهيد :

لبدر أهميّة كبيرة في السيرة النبويّة وفي التاريخ الإسلامي ، فلقد تركت بصماتها على كل معارك الإسلام ، فلا تجد اندفاعاً نحو الجهاد إلّا ودروس بدر وراءه ، بل إنّ سورة الأنفال التي نزلت بسببها هي التي اعتاد المسلمون أن يقرؤوها بين يدي القتال ، وأن يدرسوها كلّما أرادوا جهاداً ، ولقد كانت بدر معلماً بارزاً بين مرحلتين مرحلة الضعف ومرحلة القوة **﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة ﴾** [1] .

ولذلك فقد وجد بعدها النفاق ومن قبل كان كفر وإيمان فقط ، ولقد حقّق الله عز وجل بها وعوداً كثيرة وعدها رسوله ﷺ والمسلمين وأنجز فيها وعيداً كثيراً كان تهدّد به الكافرين ، وعنها وبها وجدت كثير من أحكام القتال المستقرّة وآدابه المستمرّة ، إنّ القتال يتفرّع عنه الغنيمة والأسر ، ولم تنج أمّة من انحدار أخلاقي في شأن الغنائم والأسارى إلّا هذه الأمّة ، ولقد كانت غزوة بدر هي الفاتحة لإقامة الصرح الأخلاقي الأعلى في هاتين القضيتين وغيرهما .

كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً معهم فَرَسان وحوالي سبعين بعيراً ، وكان المشركون ألفاً وثلاثمائة ابتداء ، تقلّصوا إلى حوالي ٩٥٠ انتهاء ، معهم حوالي مائة فرس وستمائة درع وأعداد كبيرة من الجمال ، وهؤلاء عرب وهؤلاء عرب ، ومع ذلك كانت النتيجة أن هُزِمَ المشركون وانتصر المسلمون ، وكانت هزيمة عجيبة غير متوقّعة على ضوء عالم الأسباب ، قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون وفرّ الباقون بينما قتل من المسلمين أربعة عشر رجلاً ، ستّة من الأنصار وثمانية من المهاجرين ، إنّه في موازين المادّة لأمر عجيب ، ولكنّه في الموازين الإيمانيّة نتيجة عادية ، إنّها إرادة الله التي لا يقف أمامها شيء ، وهذه هي عبرة بدر الكبرى .

---

(١) آل عمران : ١٢٣ .

عندما تلتقي قوّتان ماديتـان ، ففي ميزان الأسبـاب تتغلّب الأوزان في قوانين الكون ، فإذا تعادل السلاح والأرض والمقاتلون والقيادة والوسائل فلا انتصـار لإحـدى القوّتين ، وإذا حدث التفاضل فالميزان في النهاية لمن فضل ، وإرادة الله غالبة ، أمّا في الموازين الإيمـانيّـة فـالنصر من عنـد الله ولو قلّت الإمكانـات أمـام الإمكانـات ، ففي غزوة بـدر كان المشركون متفـوّقين من بعض النـواحي، وكان المسلمـون متفـوّقين من بعض النـواحي ، ولكن يبقى تفوّق المشركين من الناحية الماديّة أوضح ولكنّ جند الله غلب بفضل الله عز وجل .

اجتمع على المشركين البطر والغرور والريـاء والشقـاق وعدم وحـدة القيـادة ، واجتمع للمسلمين أن خذّل الله بعض المشركين فانسحبوا ، وأنزل الله مطراً قبيل المعركـة كان لصـالح المسلمين ، وأرى الله عز وجل المشركين المسلمين ضعفيهم أثناء القتـال فوهنوا، وأنزل ملائكـة وقذف رعباً، وكان رسول الله ﷺ هو القائد وهو أحبّ قائد في التـاريخ لجنـده مع طـاعـة لامثيل لهـا ، واجتمع مع الحب والطـاعـة للقـائـد الـدعـاء والشـورى والإقبـال على الشهـادة والتنافس على الآخرة ، وبـذل الجهـد في القتـال وإحكام الرأي وتجنّب الظلم والبغي وحسن الترتيب والتنظيم والسبق إلى الأمكنة الاستراتيجيّة ، وكلّها توفيقـات سيـاسيـة وتـأييـدات ، وللمسلمين مثلها ، ومن ثمّ كان لبدر هـذا الشـأن العظيم في التـاريخ الإسلامي وعنـد المسلمين فهي كما قال الأستاذ الندوي :

فكل ما حدث من فتوح وانتصارات ، وكل ما قام من دول وحكومـات ، مـدين للفتح المبين في ميدان بدر ، ولذلك سمى الله هذه المعركة بـ « يوم الفرقان » فقال :

﴿ إن كنتم آمنتم بـالله ومـا أنزلنـا على عبـدنـا يوم الفرقـان يـوم التقى الجمعـان ﴾ [1]
اهـ .

ولأهمّيـة بـدر قـد ذكرهـا الله في سورة آل عمران كما أنزل فيهـا سـورة كاملـة هي سـورة الأنفال ، وقد عرضنا ذلك في التفسير ، وههنا نعرض بدراً من خلال النصوص الحديثية .

* * *

---

(١) الأنفال : ٤١ .

١ ـ مقدّمات الغزوة

٢٧٤ ـ * روى أبو داود عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنهما عن رَجلٍ مِن أصحابِ النبي ﷺ : أنَّ كُفَّارَ قرَيْشٍ كَتَبوا إلى ابن أُبيٍّ، ومن كان يعبد معه الأوثان مِنَ الأَوْسِ والخزرجِ ، ورسولُ اللهِ ﷺ يَومئذٍ بالمدينةِ قبل وَقعة بدر :

إنكم آويْتم صاحِبنا ـ وإنا نُقْسِمُ بالله لتُقاتلنّه أو لتُخْرِجنَّ ، أو لَنَسِيرنَّ إليكم بأجمعِنَا ، حَتى نقتُل مُقاتِلَتكم ، ونستَبيح نِساءكم ـ فَلَما بَلَغَ ذلك عَبد اللهِ بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقِيَهم فقال : « لقد بلَغَ وعيدُ قريشٍ مِنكم المبَالغَ ، ما كانت تَكيدُكم بأكثر مما تَريدُون أن تَكيدُوا به أنفسكم ، تريدُون أن تقَاتلوا أبْنَاءكم وإخوانكم » فلما سَمعوا ذلك من النبي ﷺ تَفرّقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهلُ الحلقة وَالحصُون وإنكم لتُقاتِلنَّ صاحِبَنَا ، أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء ـ وهي الخلاخيل ـ فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ : اجْتَمَعَتْ بَنُو النَّضِير ، بالغَدْرِ ، فأرْسَلُوا إلى رسول الله ﷺ : أُخرُجْ إلينا في ثَلاثين منْ أصحابك ، ويَخْرُجُ مِنّا ثَلاثُونَ حبْراً ، حتى نلتقي بمكان المنصَفِ ، فَيَسْمعوا منك ، فَإنْ صدّقوك وآمنوا بِكِ ، آمنّا بك ، فقص خبرهم ، فلما كان الغد عَليهم رسول الله ﷺ بالكَتَائِب فَحَصَرهُم ، فَقَال لهم : « إنكم وَاللهِ لا تَأمَنونَ عِنْدي إلا بعَهد تُعاهِدُوني عَلَيه » ، فَأبَوا أن يُعطوه عهْداً ، فَقَاتَلَهم يَومَهم ذلِكَ ، ثُمّ غَدَا الغَدَ عَلَى بني قُريظَةَ بالكتائِبِ ، وَتَرك بني النَضِير ، وَدَعَاهُم إلى أن

---

٢٧٤ ـ أبو داود (٣ / ١٥٦) كتاب الخراج والإمارة والفيء ـ باب في خبر النضير .

نستبيح : استباحتهم : نَهبُهم وسبيهم والتصرف فيهم .

وعيد : الوعيد : التخويف والتهديد .

تكيدكم : كاده يكيده : إذا مكر به وخدعه .

الحلقه : بسكون اللام : الدرع ، وقيل . اسم جامع للسلاح .

حبرْ : الحِبْر : العالم الفاضل .

منْصف : المنصف بالفتح : نصف الطريق ، أراد : أنهم يجتمعون في موضع لا يميل إلى جهته ولا جهتهم ، ليكون أعدل وأقرب إلى الأمن .

الكتائب : جمع كتيبة ، وهي الجيش .

يُعَاهِدُوه ، فَعَاهَدُوهُ ، فَانْصَرف عَنْهم ، وغَدَا على بني النَّضِير بالكتَـائِب ، فَقَـاتلَهم حتى نزلُوا عَلى الجَلاَء ، فَجَلتْ بنـو النَّضير ، واحتملـوا مَـا أَقلَّتِ الإبـلُ مِنْ أمتعتهم ، وَأَبْـواب بيـوتِهم وَخَشَبِها ، فكَانَ نَخْلُ بني النضير لرَسولِ اللهِ ﷺ خَاصة ، أعطَاهُ اللهُ إيَّاهَـا ، وَخَصّـهُ بهَـا ، فقال : ﴿ وَمَا أفاء الله على رسُولِهِ مِنْهم فما أوجفتُم عليهِ مِن خَيْلٍ وَلا ركابٍ ﴾ [1] .

يَقول : بغير قِتالٍ ، فَأعطى النبي ﷺ أكثرهـا للمهـاجرين ، وقسمهـا بينهم وقسم منهـا لرجُلينِ مِن الأنصَار ، وكَانَا ذوي حَاجَةٍ ، وَلَمْ يقْسم لأحدٍ من الأنصار غيرهما ، وبَقي منْهـا صَدَقَةُ رسولِ الله ﷺ التي هِيَ في أيدي بني فاطمة رضي الله عنها .

٢٧٥ ـ * روى البخاري عن عبدِ الله بن مَسْعُودٍ رضي اللهُ عَنهُ حَدَّثَ عن سَعْدِ بن مُعَـاذٍ أنه قالَ : كَانَ صديقاً لأُميَّةَ بنِ خَلَفٍ ، وكَانَ أُميَّةُ إذا مرَّ بالمـدينـةِ نزل عَلَى سَعْـدٍ ، وكان سَعْدٌ إذا مرَّ بمكة نزل على أمية ، فَلَمَّـا قَـدِمَ رسول الله ﷺ المـدينـة : انطَلَق سَعْـدٌ مُعتمِراً ، فَنَزلَ عَلَى أُمية بمكَّة ، فَقَال لأميّة : انْظر لي سَاعة خلوةٍ ، لعليِّ أطوفُ بالبيتِ ، فخَرَجَ بـهِ قريباً من نِصْفِ النَّهارِ ، فَلَقيهما أَبو جَهْلٍ ، فَقال : يا أَبا صَفْوانَ ، مَنْ هذَا مَعَك ؟ فَقَـال : هَذَا سَعْد ، فَقَالَ له أبو جَهْل : ألا أَرَاك تطُوف بمكَّة آمِنًا ، وَقَدْ زَعَمْتُمْ آويْتُم الصُّبـاةَ، وزَعمتم أَنَّكُم تَنْصُرونَهم وتُعينُونهم ، أما واللهِ ، لَوْلاَ أَنكَ مع أبي صَفْوانَ مَـا رَجعْت إلى أَهْلِـك سَـالِماً ، فَقَالَ لَهُ سَعْـدٌ ـ ورَفَعَ صَوْتَه عَلَيهِ ـ: أما واللهِ ، لَئِنْ مَنَعْتني هذا لأَمْنَعَنَّك مَا هو أَشَـدُّ عَلَيْـك منهُ : طريقَكَ عَلَى المدينَةِ ، فقالَ له أميةُ : لاَ ترفَعْ صَوْتَكَ يـا سَعْـدُ عَلى أَبي الحَكَم سيـد

= الجلاء : النفي عن الأوطان .
أقلت الإبل : الأحمال ، أي : حملتها .
ما أفاء الله : الفيء : ما يحصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا قتال .
أوجفْتُم : الإيجـاف : الإسراع والحثُّ في السير ، وأراد به : الإسراع في القتال .
ركاب : الركاب جماعة الإبل فوق العشرة .

(1) الحشر : ٦ .

٢٧٥ ـ البخاري (٧ / ٢٨٢) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ ٢ ـ باب : ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر .
الصُّبَاةِ : جمع صابىء ، وهو الذي فارق دينه إلى غيره .
اسْتنْفَر : الاستنفار : طلب النُّصْرة من الناس ، ليَنفِروا معه إلى مقصده .
الصَّرِيخُ : الصائح ، وهو الذي يستنجد الناس .

أهل الوادي ، فقَالَ سَعْد : دَعْنا عَنْـك يـا أميَّـةَ ، فَوَاللهِ ، لَقَـدْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول « إنَّهم قاتِلُوكَ » ، قال : بمكَّةَ ؟ قَالَ : لاَ أَدْري ، فَفَزِع لذلِكَ أُميَّة فَزَعاً شديداً ، فَلَمَّا رَجَع أُميةُ إلى أهله ، قَالَ : ياأمَّ صفوان ، ألم تَريْ ما قَالَ لي سَعْدٌ ؟ قَالت : ومَاقَالَ لكَ ؟ قال : زَعَمَ أنَّ مُحمَّداً أخبَرهُم : أنهم قاتلي ، فقلتُ له : بمكَّة ؟ قـال : لا أدْري . فقال أمية : والله لا أخرجُ مِنْ مكَّة ، فلما كَانَ يَوْمُ بدرٍ اسْتَنْفَر أبو جَهْلٍ الناسَ ، فقَـالَ : أدْرِكوا عِيرَكُم ، فكَرِهَ أميَّة أنْ يَخْرج ، فأتَاهُ أبوُ جَهْلٍ ، فَقَـالَ : يـا أبـا صفْوانَ ، إنَّـكَ مَتى مـا يَرَاك النَّـاسُ قـدْ تَخلَّفْتَ ، وأنتَ سَيِّدُ أهْلِ الوَادِي : تَخلفُوا مَعَكَ ، فَلَمْ يَزَل بـه أبُو جَهْل حتى قـال : أمَّـا إذْ غَلَبْتَني ، فَوَاللهِ ، لأشتَرينَّ أجودَ بعير بمكَّة ، ثمَّ قَالَ أميَّةُ : يـاأمَّ صفوَان ، جَهِّزِيني ، فقـالَت له : ياأبا صفوانَ ، وَقَدْ نَسِيتَ مَا قَالَ لَكَ أخوك اليَثْرِبي ؟ قَالَ : لاَ ، وَمَـا أريـد أن أجوزَ مَعَهم إلا قَريباً ، فَلَمَّا خَرَجَ أميَّةُ أخَـذَ لا يَنْزِل مَنزلاً إلا عقَل بَعِيرهُ ، فَلم يَزَلْ بـذلـكَ حَتَّى قَتَلهُ الله عز وجل ببدر .

وفي روايـة نحوه ، إلا أنَّ فيـه : فجَعَل أميـة يقُول لسَعْـد : لا تَرْفَـعْ صَوْتَـكَ ، وجَعَـل يُمسكُهُ ، فَغَضِبَ سَعْد ، فَقَالَ : دَعْنَا مِنْكَ ، فَـإنِّي سَمِعْتُ مُحمـداً ﷺ : يزعُم أنَّـه قَـاتِلُـكَ ، قَال : إيَّاي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَال : والله ، مَـا يَكْـذِبُ مُحمـدٌ إذا حـدَّثَ ، فرَجَعَ إلى امْرأتـه ، فقَالَ : أتعْلَمِيْنَ ما قَال أخِي اليثْرِبي ؟ قَالت : وَمَا قَالَ ؟ قَالَ : زَعَم أنَّه سَمِعَ مُحمداً يَزْعُم أنَّهُ قَاتِلي ، قَالَتْ : فَوَاللهِ ، ما يَكْذِبُ مُحمَّدٌ ، قَالَ : فَلَمَّا خَرَجُوا إلى بَدْرٍ وَجَـاء الصَّرِيخُ ، قَـالَتْ لَهُ امْرَأتُه : أمَا ذَكَرْتَ ما قَالَ لَكَ أخُوك اليثْرِبيّ ؟ قَالَ : فَأرادَ أنْ لا يَخْرُجَ ، فَقَـالَ لَـهُ أبُو جَهْلٍ : إنَّكَ مِنْ أشرافِ الوَادِي ، فَسِرْ يَوْماً أو يَوْمَيْنِ ، فَسَارَ معهُم ، فَقَتَلهُ اللهُ .

قال في الفتح : وفي الحديث معجزات للنبي ﷺ ظاهرة ، وما كان عليه سعـد بن معـاذ من قوة النفس واليقين ، وفيه أن شأن العمرة كان قديماً ، وأن الصحابـة كان مـأذونـاً لهم في الاعتمار من قبل أن يعتمر النبي ﷺ بخلاف الحج ، والله أعلم .

٢٧٦ - * روى الطبراني عن عروَةَ قَالَ : كَانَتْ عَاتِكةَ بنت عبْدِ المطلب عَمـة رَسُولِ اللهِ

---

٢٧٦ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٧٠) وقال : رواه الطبراني مرسلاً وفيه ابن لهيعة ، وفيه ضعف ، وحديثه حسن .

ﷺ ساكنَةً معَ أخيها عبَّاس بنِ عَبدِ المطلب ، فرأت رُؤيا قُبَيْل بَدْرٍ فَفَزعْتَ ، فأَرْسَلَتْ إلَى أخيها عبّاسٍ مِن لَيْلتِها حينَ فَزِعَتْ واسْتَيْقظَت مِنْ نَوْمِهَا ، فقَالتْ : قَد رأيْتُ رُؤيا وَقَدْ خَشيتُ مِنْها علَى قَوْمكَ الْمَلكَة ، قَال : وَمَا رَأَيْتِ ؟ قَالَت : لَمْ أحدّثْك حتى تُعاهِدَني أن لا تذْكرَها ، فإنهم إن يسمعوها آذوْنا فأسمعونا مالا نُحبُّ ، فعَاهَدَهَا عبّاسٌ ، فقَالتْ : رأيت رَاكِباً أقبَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مِنْ أعْلَى مَكةَ يصيحُ بأعْلَى صَوْتِهِ : ياآلَ غُدَرٍ ويـاآلَ فجرٍ اخْرجُوا مِنْ ليلتَيْنِ أو ثَلاثٍ ، ثمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فصَرَخَ في المسجد ثَلاثَ صَرخَاتٍ ، وَمَالَ عَلَيهِ مِنَ الرجَالِ والنِّسَاء والصِّبيَانِ وفزِع النَّاسُ لَه أشد الفزع ، ثم أراه مَثُل على ظهر الكعْبَة عَلَى رَاحِلتِهِ فَصَرَخ ثلاث صرخَات يا آل غُدَر ويَا آل فُجَر اخْرُجُوا مِن ليلتينِ أوْ ثَلاثٍ حتىّ أسمع مَنْ بين الأخشبين من أهل مكة ، ثم عمد لصَخرةٍ عَظيمةٍ فَنَزَعَها مِنْ أصلها ثم أرسلها على أهل مكة ، فأقبلتِ الصخرة لَهَا دَويٌّ ، حتى إذا كانت عَلَى أصْلِ الجبلِ رمضت ، فلا أعلم بمكة بيتاً ولا داراً إلا قد دخلها فرقةٌ مِنْ تلك الصخرة ، فَلَقد خَشِيتُ عَلَى قومِكَ أن يَنزل بِهِم شر ، ففَزع عباس ، وخرج مِنْ عِنْدهَا ، فَلَقيَ مِنْ لَيْلتِهِ الوليدَ بنَ عُتْبةَ بن ربيعَة ، وكان خليلاً للعباسِ فقصّ عَلَيهِ رُؤيَا عَاتِكة وأمرهُ أن لا يَذْكُرهَا لأحَدٍ ، فذكرها الوليد لأبيه ، وذكرها عتبة لأخيه شيْبَة ، وارتَفَع حَدِيثُها حتّى بَلغ أبا جَهْلِ بن هشامٍ واسْتَفَاضَتْ ، فلما أصبحوا غَدَا العباس يَطوفُ بالبيْت حتّى أصْبحَ ، فَوَجد أبا جهل وعتبة بنَ ربيعة وشيبةَ بنَ ربيعةَ وأميّةَ بنَ خَلَفٍ وزمْعةَ بنَ الأسودِ وأبا البَخْتَري في نفرٍ يَتحدَّثُونَ ، فَلَما نَظَرُوا إلى عبّاسٍ يَطُوفُ بالبيتِ ؛ نَاداه أبُو جهل بن هِشَام : ياأبا الفَضْلِ إذا قَضيت طَوَافَك فائتِنَا ، فَلَمّا قَضَى طَوَافهُ أتَى فَجَلسَ . فقَال أبُو

مَثُل به : قام به .

غُدَر : جمع غدور .

الأخشبان : الجبلان المطيقان بمكة وهما أبو قبيس والأحمر .

رمضت : اشتدت .

سجلاً : الكتاب يدون فيه ما يراد حفظه .

يا مُصَفِّرَ استه : رماه بالأُبْنة وأنه كان يُزَعْفِر استه ، وقيل هي كلمة تقال للمُتنعم المُترف الذي لم تحنكه التجارب والشدائد وقيل : أراد يا مضرِّط نَفْسه من الصفير وهو الصوت بالفم والشفتين ، كأنه قال يا ضرّاط . نسبَه إلى الجُبن والخَوَر ، وقيل كان به بَرَصٌ فكان يردعه بالزعفران .

=

جَهْلٍ : يَا أبا الفَضْلِ ، مَا رُؤيَا رأتها عَاتِكة ؟ قَـالَ : مَـا رَأت مِنْ شَيءٍ . قَـالَ : بَلى ، أمَـا رَضِيتم يا بَنِي هَاشِم بكَـذِبِ الرجَـالِ حَتّى جئتُمونَـا بكَـذب النِّسَـاء ، إنـا كُنّـا وأنتُم كَفرَسَي رهَانٍ فاسْتَبَقْنَا المجْد مُنذُ حيْنٍ ، فَلمَّا حَاذَت الركَبُ قُلتُم : منّـا نبيٌّ ، فَما بقيَ إلّا أنْ تَقولُوا منّـا نبيّـةٌ ، ولا أعلَمُ أهلَ بَيت أكـذب رَجُـلاً وَلاَ أكْـذَبَ امْرَأة مِنكُم . فـآذَوْهُ يَـوْمئـذٍ أشَـدَّ الأذى ، وقَالَ أبُو جَهْلٍ : زَعمَتْ عَاتِكة أنّ الرّاكِبَ قَـالَ : اخْرجُوا في لَيْلَتَيْنِ أو ثَلاثٍ ، فَلَو قَدْ مَضتْ هذهِ الثّلاثُ تَبيّن لقُرَيْشٍ كَذِبكُمْ ، وكَتَبْنا سِجلاً ، ثمّ علّقناهُ بالكَعبَة إنّكُم أكْـذَبُ بَيتٍ في العَرَبِ رَجُلاً وامْرأة ، أمَا رَضيتُم يا بَنِي قُصيٍّ أنكم ذَهَبْتم بالحجَابة والنّدوة والسّقايـة واللوَاء حَتّى جئتُمُونا زَعَمْتم بنبيٍّ منكم ، فآذوه يَومَئذ أشَدّ الأذى ، وقـال لَـهُ العبـاسُ : مَهْلاً يا مُصَفر اسْتِهِ هَل أنْتَ منْتهٍ ، فإنّ الكَذب فيك وفي أهلِ بَيْتكَ . فقَال له ممنْ حَضَرهُ : يـا أبا الفَضْلِ ما كُنْتَ بجَـاهِلٍ ولا خرِف ونَـال عبّـاساً مِنْ عَـاتِكـة أذىً شَـديـداً فِيما أفْشَى مِنْ حديثها . فَلَما كانَ مَساءَ لَيْلةِ الثّالِثَة مِنَ الليالِي التي رَأتْ فيهَا عَاتِكةُ الرؤْيا جَـاءهُم الراكِبُ الذي بَعث أبُو سُفْيَـان ضَمْضَمَ بنَ عَمرِو الغفـارِي فقـال : يـا آل غُـدَرٍ انفِروا فَقَـد خَرَجَ محَمّـدٌ وأصْحَابَهُ ليَعْرِضُوا لأبِي سفْيَانَ فَـأحْرِزُوا عِيرَكُم، فَفَزعَتْ قُرَيْشٌ أشَـدَّ الفَزَع وأشْفَقُوا مِنْ قِبلَ رُؤْيا عَاتِكة ونَفَروا عَلى كل صَعْبٍ وَذَلُولٍ .

٢٧٧ ـ * روى الإمام أحمد عن عـائشـةَ أنّ رسول الله ﷺ أمَرَ بـالأجراسِ أن تُقطَعَ من أعناقِ الإبلِ يومَ بدرٍ .

وهناك سببان لهذا الأمر :

السبب الأول : كراهة الأجراس لشبهها بـالنواقيس ، وكان رسول الله ﷺ حريصـاً على ألّا يبقي مظهراً دينياً غير إسلامي إلّا وخالفه أو نقصه أو أدخله في غيره أو أوجد له صيغة استقلاليّة .

السبب الثاني : عسكري ، فالأجراس تدلّ وتشعر الخصم فتنبّهه .

* * *

---

٢٧٧ ـ أحمد في مسنده (٦ / ١٥٠) . قال في المجمع (٥ / ١٧٤) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

٢ ـ صور ومشاهد

٢٧٨ ـ * روى الطبراني عن أبي أيّوب الأنصاري قال : قَالَ رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : « إنّي أُخْبِرْتُ عن عِيرِ أبي سفيانَ أنّها مُقْبِلَة فَهَلْ لَكم أن نخرجَ قِبَلَ هَذا العِيرِ لعلَّ اللهَ يُغْنِمَنَاهَا » فقلنا : نعم فخَرج وخرجنَا ، فلمَّا سِرْنا يوماً أو يومَين قالَ لَنا : ما تَرونَ في القومِ فإنّهم قد أُخبِرُوا بمخْرَجكُم : فقُلْنا : لا وَاللهِ مَا لَنا طاقةٌ بقِتَال العَدو ولكِنْ أردْنا العِيرَ ، ثم قَال : ما تَرَوْنَ في قتالِ القومِ ؟ فقُلْنا مثل ذلك . فقالَ المقدادُ بنُ عَمرو : إذاً لا نقولُ لكَ يا رسُول الله كما قَالَ قومُ موُسى لموسى : اذهب أَنْتَ وربُّك فقاتِلا إنَّا هٰهنا قَاعِدُون . قَال : فتَمَنَّيْنَا معشَرَ الأنْصَارِ لو أنّا قُلْنا كَمَا قَال المِقْدَادُ أحبُّ إلينَا مِنْ أنْ يكونَ لنا مال عظيم فأنزَلَ اللهُ عز وجلّ عَلَى رَسُولِهِ ﴿ كما أخرجَك ربُّكَ من بيْتِكَ بالحقّ وإنَّ فريقاً مِنَ المؤمِنينَ لَكَارهُون * يجادلونك في الحقّ بَعْدَما تَبيّنَ كأنما يُساقُونَ إلى الموْتِ وهُمْ يَنْظُرون ﴾ [١] ثم أنزل اللهُ عز وجلّ : ﴿ إني معكُم فثبّتوا الذين آمنُوا سألقي في قُلُوبِ الذين كفروا الرعْبَ فاضْرِبوا فوقَ الأعْناقِ واضْربوا منْهُم كل بنان ﴾ [٢] وقال ﴿ وإذْ يعدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتَودُّون أن غيرَ ذاتِ الشوْكَةِ تَكُونُ لكُمْ ﴾ [٣] والشوكة القومُ وغيْر ذاتِ الشوكة العيرُ ، فلما وعدَنا إحدى الطائفتين إما القومَ وإمَّا العيرَ طَابتْ أنْفُسنا ، ثمَّ إنَّ رسُول الله ﷺ بعث رجلاً لينظُر ما قِبل القوم ، فقال : رأيتُ سواداً ولا أدري فقال رسول الله ﷺ : «هُم هُم ، هَلُمُّوا أن نَتَعَادَّ» ففعلنا فإذا نَحنُ ثلثمائة وثَلاثَةَ عشرَ رجلاً ، فأخبرنا رسول الله ﷺ بعدَّتِنا فسرَّه ذلك فحمد الله وقال « عِدَّةُ أصحابِ طالُوتَ » ثمَّ إنَّا اجْتَمَعنا مَعَ القَوْم فصففْنا فبدرت مِنَّا بَادِرة أمام الصَّف فنظر رسول الله ﷺ إليْهم فَقَالَ : « مَعي مَعي » ثم إن رَسُول اللهِ ﷺ قال : « اللهُمَّ إني

---

٢٧٨ ـ المعجم الكبير (٤ / ١٧٤) وإسناده حسن .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٧٣) وقال : رواه الطبراني وإسناده حسن .

حسد لنا : على أخذ الفدية .

(١) الأنفال : ٥ ، ٦ .

(٢) الأنفال : ١٢ .

(٣) الأنفال : ٧ .

أنشَدَكَ وَعْدَكَ » فقال ابن رَوَاحةَ : يا رسول الله إني أريد أنْ أشيرَ عليك ورسول الله ﷺ أفضل مِنْ يشير عليهِ وإن الله أعظم من أن تنشده وعده فقال : « ياابن رواحةَ لأنشدَنَّ الله وعدَه فإنّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد » فأخذ قبضةً مِنَ التراب فرمى بها رَسُول الله وُجُوه القَوْمِ فانهزموا فأنزل الله عز وجل : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (١) فقتلنا وأسرْنا فقَالَ عمر بن الخطاب : يارسول الله مَا أَرَى أنْ تكُون لك أسرى فإنما نحن داعونَ مؤلفونَ فقُلْنا معشرَ الأنصَار : إنما يَحْمل عُمَر عَلَى مَا قَالَ حسدٌ لنا ، فنام رسول الله ﷺ ثُم استيقظ ثم قال : « ٱدْعُوا لي عمر » فَدُعي له فقال : « إنّ الله عز وجلّ قد أنزل عليَّ » : ﴿ ما كَان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخنَ في الأرضِ تريدون عَرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيم ﴾ (٢) .

أقول : فيه ابن لهيعة ، والملاحظ أن الهيثمي يحسن أحاديث ابن لهيعة ولو كانت عن غير العبادلة ، وذلك فيما نعتقد لملحظ دقيق يلحظه الشيخ الهيثمي ، ولذلك فإننا كثيراً ما نتابعه على تحسينه في هذا الكتاب لقوة مدركه في الحديث .

٢٧٩ - * روى مسلم عن أنس بن مالكٍ رَضي الله عَنْه قَال : بَعَث رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ ، عيْناً ينظرُ ما صنعَتْ عِيرُ أبي سُفيانَ ، فَجَاء ومَا فِي البيتِ أحَدٌ غَيري وَغَيْرُ رسولِ اللهِ ﷺ - قال : لا أدري ، ما استثْنَى بَعْضَ نِسائه .. - قال : فحدَّثَهُ الحَديثَ ، فخَرَج رَسُولُ اللهِ ﷺ فتَكلَّم ، فَقَالَ : « إنَّ لَنَا طَلِبَةً ، فَمَنْ كَانَ ظَهرُه حَاضِراً فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا » فَجَعَلَ رِجَالٌ يَستأذِنُونه في ظُهرانِهِم في عُلْوِ المَدينةِ ، فَقَال : « إلا مَنْ كان ظَهْرُهُ حَاضِراً » فانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ وأصحابهُ حَتَّى سَبقوا المشركينَ إلى بَدْرٍ ، وجاء المُشركُونَ ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « لا يُقَدِمَنَّ أحدٌ منكم إلى شَيْءٍ حَتَّى أكُونَ أنا دُونه » فدنا المشركونَ ، فقال رسولُ الله ﷺ : « قُومُوا إلى جنةٍ عَرضُها السمٰواتُ والأرضُ » قال : يقول عُمَيْر بن الحُمام الأنصاري : يا رسولَ الله ، جنةٌ عرْضُها السموات

(١) الأنفال : ١٧ .

(٢) الأنفال : ٦٧ .

٢٧٩ - مسلم (٣ / ١٥١٠) ٣٣ - كتاب الإمارة - ٤١ - باب : ثبوت الجنة للشهيد .

والأرض ؟ قال : « نعم » قال : بخٍ بخٍ يا رسولَ الله ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : « ما يحْمِلُك على قولِك : بخٍ بخٍ ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رَجَاءَة أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » قال : فأخرج تمرات من قَرَنه ، فجعل يأكلُ منهن ، ثم قال : لَئِنْ أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذهِ إنها لَحَياة طَوِيلة ، قال : فرمى بمَا كَان معهُ مِن التَّمر ثمَّ قَاتَلَهم حَتّى قُتِلَ .

قال النووي : قوله : (بَعَثَ رَسُول الله ﷺ بُسَيْسَة عَيْناً) هكذا هُوَ في جَمِيع النسخ بُسَيْسَةَ بباء موحدة مضمومة وبسينين مهملتين مفتوحتين بينهما ياء مثناة تحت ساكنة ، قال القاضي : هكذا هو في جميع النسخ ، قال : وكذا رواه أبو داود وأصحاب الحديث . قال : والمعروف في كتب السيرة بَسْبَس بباءين موحدتين مفتوحتين بينهما سين ساكنة وهو بسبس ابن عمرو ، ويقال : ابن بشر من الأنصار من الخزرج ، ويقال : حليف لهم ، قلت : يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له والآخر لَقَباً . وقوله (عيناً) أي : متجسساً ورقيباً . قوله (ما صنعت عير أبي سفيان) هي الدواب التي تحمل الطعام وغيره من الأمتعة ، قال في المشارق : العير هي الإبل والدواب تحمل الطعام وغيره من التجارات ، قال : ولا تسمى عِيراً إلا إذا كانت كذلك . وقال الجوهري في الصحاح : العير الإبل تحمل المِيرةَ وجمعها عِيَرات، بكسر العين وفتح الياء . قوله ﷺ : (إن لنا طَلِبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب) هي بفتح الطاء وكسر اللام أي شيئاً نطلبه والظهر الدواب التي تركب . قوله : (فجعل رجال يستأذنونه في ظهرانهم) هو بضم الظاء وإسكان الهاء أي مركوباتهم في هذا استحباب التورية في الحرب وأن لا يبين الإمام جهة إغارته وإغارة سراياه لئلا يشيع ذلك فيحذرهم العدو . قوله (في علو المدينة) بضم العين وكسرها . قوله ﷺ : (لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه) أي قدامه متقدماً في ذلك الشيء لئلا يفوت شيء من المصالح التي لا تعلمونها . قوله : (عمير بن الحمام) بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم . قوله : (بخ بخ) فيه لغتان إسكان الخاء وكسرها منوناً وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير . قوله : (لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها) هكذا هو في أكثر النسخ المعتمدة رجاءة بالمد ونصب التاء ، وفي بعضها رجاء بلا تنوين وفي بعضها بالتنوين ممدودان

بحذف التاء ، وكله صحيح معروف في اللغة ، ومعناه والله ما فعلته لشيء إلا لرجاء أن أكون من أهلها . قوله (فأخرج تمرات من قرنه) هو بقاف وراء مفتوحتين ثم نون أي جَعْبة النُشّاب [1] ووقع في بعض نسخ المغاربة فيه تصحيف . قوله : (لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل) فيه جواز الانغمار في الكفار والتعرض للشهادة وهو جائز بلا كراهة عند جماهير العلماء . قوله : (وهو بحضرة العدو) هو بفتح الحاء وضمها وكسرها ثلاث لغات ، ويقال أيضاً بَحَضَر بفتح الحاء والضاد بحذف الهاء . اهـ .

وقال الأستاذ البوطي : يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين ، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبيّنوا ما هم عليه من قوة في العدة والعدد . ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك ، بشرط أن لا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو ، وربما استلزمت الوسلية تكتماً أو نوعاً من المخادعة أو التحايل ، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث إنه وسيلة لابد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم .

٢٨٠ - * روى الإمام أحمد عن عَبْد اللهِ بن مَسْعُودٍ قَالَ : كُنَّا يومَ بَدْرٍ ثَلَاثَة عَلَى بَعِيرٍ كَانَ أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زَميلي رسُول اللهِ ﷺ قال : وكَانَتْ عُقْبة رسول اللهِ ﷺ فقالاَ : نَحْنُ نمشي عَنْكَ فقَالَ : « مَا أَنْتُما بِأَقوى مِنّي ولا أنا بأغْنَى عَن الأَجْرِ منْكُما » .

أقول : إن مواساة القائد جنده بقدر ما يستطيع تستخرج من الجندي أقصى الطاقات وأعلى الطاعات وأشد الحب ، وحياة الرسول ﷺ مليئة بهذه المواساة والمساواة إلا إذا كان هناك عذر . أو كان هناك تقعيد لمبدأ .

---

(١) النُشّاب : النبل .

٢٨٠ - أحمد في مسنده (١ / ٤١١) وكذا في (١ / ٤٢٤) .

عقبة : نوبة . أي دور أو نوبة رسول الله ﷺ في المشي .

ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما : لست بغني عن الثواب . شأني شأنكم في الحاجة إلى الثواب والأجر من الله تعالى .

٢٨١ ـ * روى أبو داودَ عن عبد الله بن عبد الله بن عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ خَرَجَ يوم بَدْرٍ في ثَلاثِمائَةٍ وخمسةَ عشرَ فقال رسولُ الله ﷺ : « اللّهمَّ إنهمْ حُفَاةٌ فَاحْمِلْهم ، اللّهُمَّ إنهم عُرَاةٌ فَاكْسُهُم ، اللّهُمَّ إنهم جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُم » فَفَتَح اللهُ لهُ يَوْمَ بدرٍ ، فَانْقَلَبُوا ـ حِينَ انْقَلَبُوا ـ وَمَا مِنْهُم رَجُل إلا وَقَدْ رَجعَ بِجَمَلٍ ، أو جَمَلينِ ، واكْتَسَوْا وشَبِعُوا .

أقول : بعض الروايات تذكر أنّ عدد المسلمين يوم بدر كانوا (٣١٣) وبعضها تذكر أنّهم كانوا (٣١٤) ، وبعضها تذكر أنّهم كانوا (٣١٥) ، وبعضها تذكر أنهم كانوا (٣١٧) ، وبعضها تذكر أنهم (٣١٩) وسبب الخلاف يعود إلى أن بعضهم أدخل ما لم يدخله الآخر ، فمثلاً هناك روايات صحيحة تذكر حضور أنس وهو صغير ، وهناك روايات تذكر أن بعض الناس ردهم الرسول ﷺ إلى المدينة للقيام بأمرها ، فبسبب من الإدخال والإخراج تعددت الروايات ، عد منهم عثمان بن عفان ولم يحضر ، أمره النبي ﷺ أن يمرض امرأته رقية ، وكذلك عد منهم قوماً كلفوا بمهات ولم يحضروا المعركة ، وقد وردت أسماء تسعة لم يحضروا وضرب لهم بسهم وأجر ذكروا في هذا الكتاب تحت عنوان من غاب عن بدر وكان كأهلها .

وفي سنن أبي داود [(١)] عَنْ جابر بن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ حَرَامٍ أنه قال : كنت أَمِيحُ [(٢)] لأَصْحابِي الماءَ يوم بَدرٍ .

وهذا الحديث لم يذكره البخاري ولا الضياء . كذا في البداية والنهاية .

٢٨٢ ـ * روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كنا أصحاب محمدٍ نتحدَّثُ : أن عِدَّةَ أصحاب بدر على عِدَّةِ أصحاب طالوت الذين جاوَزُوا مَعَهُ النَّهر ـ ولم يُجاوزْ معه إلا مؤمِنٌ ـ بِضْعة [(٣)] وثلاثَمائة ، وَفي رِوَاية قَالَ البَراءُ : لاَ ، واللهِ مَا جَاوز معه

٢٨١ ـ أبو داود (٣ / ٧٩) كتاب الجهاد ـ باب : في نفل السرية تخرج من العسكر .

(١) أبو داود (٣ / ٧٥) كتاب الجهاد ـ باب : في المرأة والعبد يحذيان من الغنيمة .

(٢) أميح : أستقي .

٢٨٢ ـ البخاري (٧ / ٢٩٠) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ ٦ ـ باب عدة أصحاب بدر .

(٣) بضعة : البضع : ما بين الثلاثة إلى التسعة .

النهْرَ إلا مؤمنٌ .

٢٨٣ - * روى البخـاري عن البراء بن عـازب رَضي الله عنـه قـال : اسْتُصْغِرْتُ أنـا وابنُ عُمَرَ يَـوْمَ بَـدْرٍ ، وكان المهـاجِرُون يَـوْم بَـدْرٍ : نَيِّفـاً على ستين ، والأنصـار نَيِّفـاً وأربعين ومائتين .

٢٨٤ - * روى الحـاكم عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أنّ رسُول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم دَفَعَ الراية إلى عَليّ رضي الله عنه يوم بدرٍ وهو ابن عشرين سنة .

٢٨٥ - * روى مسلم عن عائشَة رضي الله عنها قَالَت : خَرَجَ رسول اللهِ ﷺ قِبَلَ بـدْر ، فلما كان بحرّةِ الوبْرة أدركـهُ رجُل قـد كانَ يُـذْكَر منـه جُرأةٌ ونَجْـدة ، ففرح أصحـاب النبي ﷺ حين رأوه . فلما أدْركَهُ ، قال لرسول الله ﷺ : جئْتُ لأتْبعَك وأصيبَ مَعَكَ ، قال له رَسولُ اللهِ ﷺ : « تُؤمِنُ بـاللهِ ورَسُولـه » ؟ قـال : لا ، قـال « فَـارْجِعْ ، فلنْ أسْتعينَ بِمشْرِكٍ » قالتْ ثم مضَى ، حتَّى إذَا كنا بالشجَرَة أدْرَكَهُ الرَّجُلُ ، فقال له كما قال أوّل مرةٍ ، فقالَ له النبي ﷺ كما قال أوّل مرةٍ قال : « فارْجِعْ فلنْ أسْتَعِينَ بمشْرِكٍ » ثم رَجَعَ ، قال ، فأدركهُ بالبيداء ، فقالَ لَهُ كما قال أول مرة : « تؤمِنُ باللهِ وَرَسولِهِ ؟ » قال : نعم ، فقـال له رسول الله ﷺ : « فانْطَلِقْ » .

وأخْرجـه الترمـذي [1] إلى قولـه : « فَلَنْ أَسْتَعِين بِمشْرِكٍ » قَـالَ : وفي الحـديثِ كَلَامٌ أكثرُ مِنْ هَذَا .

---

٢٨٣ - البخاري (٧ / ٢٩٠) ٦٤ - كتاب المغازي - ٦ - باب : عدة أصحاب بدر .

نيّف : بوزن الهيّن : الزيادة يخفف ويشدّد ، وكل مازاد على العقد فهو نيف حتىّ يبلغ العقد الثاني .

٢٨٤ - المستدرك (٣ / ١١١) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي وقال : هـذا نص في أنه أسلم وله أقل من عشر سنين ، بل نص في أنه أسلم وهو ابن سبع سنين أو ثمان وهو قول عروة .

٢٨٥ - مسلم (٣ / ١٤٤٩) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٥١ - باب : كراهة الاستعانة في الغزو بكافر .

حرّة الوبرة : موضع على بعد أربعة أميال من المدينة .

نجدة : النجدة : القوة والشجاعة .

(١) الترمـذي (٤ / ١٢٧) ٢٢ - كتـاب السير ١٠ - بـاب : مـا جاء في أهل الـذمـة يغزون مع المسلمين هل يسهم لهم . وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ[1] مُخْتَصَراً أَنَّ رَجُلاً مِنَ المشرِكين لَحق بالنبي ﷺ ليُقاتِلَ مَعَهُ ، فقَال : « ارْجِعْ » ، ثم اتفقا فقال : « إنَّا لاَ نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ » .

قال النووي : قوله عليه الصلاة والسلام : (فارجع فلن أستعين بمشرك) وقد جاء في الحديث الآخر أن النبي ﷺ استعان بصفوان بن أمية قبل إسلامه ، فأخذ طائفة من العلماء بالحديث الأول على إطلاقه ، وقال الشافعي وآخرون : إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استعين به وإلا فيكره ، وحمل الحديثين على هذين الحالين ، وإذا حضر الكافر بالإذن رضخ له أي أعطاه قليلاً ولا يسهم له ، هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة والجمهور ، وقال الزهري والأوزاعي يسهم له والله أعلم .

٢٨٦ - * روى مسلم عن أبي الطُّفيل رحمه الله قَالَ : حدَّثنا حذيفةُ بنُ اليمان قال : مَا مَنَعَنِي أن أشهدَ بَدْراً إلا أنِّي خرَجْتُ أنا وأبي ، حُسَيْلٌ ، فأَخَذَنا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، فقالوا : إنكم تُرِيدُونَ محمداً ، فقُلنَا : مَا نُرِيده ، وما نريد إلا المدينةَ ، فأخذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وميثاقَهُ : لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المدِينةِ ، وَلا نُقَاتِل مَعه ، فأتيْنا رَسولَ الله ﷺ ، فأَخْبَرنَاهُ الخَبَر ، فقال : « انصَرِفا نَفِي لهم بِعهْدِهم ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهم » .

قال النووي : في هذا الحديث جواز الكذب في الحرب ، وإذا أمكن التعريض في الحرب فهو أولى ، ومع هذا يجوز الكذب في الحرب وفي الإصلاح بين الناس وكذب الزوج لامرأته كما صرح به الحديث الصحيح وفيه الوفاء بالعهد ، وقد اختلف العلماء في الأسير يعاهد الكفار أن لا يهرب منهم ، فقال الشافعي وأبو حنيفة والكوفيون : لا يلزمه ذلك بل متى أمكنه الهرب هرب ، وقال مالك : يلزمه ، واتفقوا على أنه لو أكرهوه فحلف لا يهرب لا يمين عليه لأنه مكره ، وأما قضية حذيفة وأبيه فإن الكفار استحلفوهما لا يقاتلان مع النبي ﷺ في غزاة بدر فأمرهما النبي ﷺ بالوفاء . وهذا ليس للإيجاب فإنه لا يجب الوفاء بترك الجهاد مع الإمام ونائبه ولكن أراد النبي ﷺ أن لا يشيع عن أصحابه نقض العهد وإن كان

---

(١) أبو داود مختصراً (٣ / ٧٥) كتاب الجهاد - باب : في المشرك يسهم له .

٢٨٦ - مسلم (٣ / ١٤١٤) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٣٥ - باب : الوفاء بالعهد .

لا يلزمهم ذلك لأنّ المشيع عليهم لا يذكر تأويلاً .

٢٨٧ ـ * روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : شهدتُ من المِقدادِ ابن الأسود مشهدًا لأن أكونَ صاحبَهُ أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به : أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركينَ فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فاذهب أنت وربكَ فقاتلا ﴾ [١] ولكنا نقاتلُ عن يمينك وعن شِمالِكَ وبين يَدَيْكَ وخَلْفَك . فرأيتُ النبي ﷺ أشرقَ وجهُهُ وسرَّه ، يعني قوله .

وفي رواية [٢] : قال المقدادُ يومَ بدرٍ : يا رسولَ اللهِ ، إنّا لا نقولُ لك كما قالتْ بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾ ولكن امضِ ونحن معك . فكأنهُ سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ .

قال ابن حجر : قوله (مما عدل به) بضم المهملة وكسر الدال المهملة أي وزن أي مِنْ كل شيء يُقابلُ ذَلك من الدنيويات ، وقيل مِن الثواب ، أو المرادُ الأعَمُّ مِنْ ذلك ، والمراد المبالغةُ في عَظَمةِ ذَلك المشهد ، وأنّه كان لو خُيِّرَ بَيْن أن يكونَ صَاحبَه وبينَ أن يحصلَ له ما يقابل ذلكَ كائناً ما كان لكانَ حصولُه له أحبَّ إليه ، وقوله : (لأنْ أكونَ صَاحبَه) هو بالنصب ، وفي رواية الكشميهني (لأن أكون أنا صاحبَه) ويجوز فيه الرفعُ والنصب ، قال ابن مالك : النصب أجود . قوله : (وهو يدعو على المشركين) زاد النسائي في روايته (جاء المقدادُ على فرسٍ يومَ بدر فَقَالَ) وَذَكر ابن إسحاق أنَّ هذا الكلامَ قاله المقدادُ لما وصلَ النبي ﷺ الصفراء وبلغهُ أن قريشاً قصدتْ بدراً وأن أبا سفيانَ نجا بِمَنْ مَعهُ فاسْتَشارَ الناسَ ، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمرُ كذلكَ ، ثم المقدادُ فذكرَ نحو ما في حديث الباب وزادَ « فقال : والذي بَعثَكَ بالحقِّ لو سَلَكْتَ بنا بِرْكَ الغِمادِ لجاهَدْنا مَعَكَ مِنْ دُونِه . قال: فقال: (أشيروا علي) قال : فعرفوا أنه يريد الأنصارَ، وكان يتخوفُ أن لا يوافقوهَ لأنهم لم

---

٢٨٧ ـ البخاري (٧ / ٢٨٧) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ ٤ ـ باب : قول الله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ .

(١) المائدة : ٢٤ .

(٢) البخاري (٨ / ٢٧٣) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ ٤ ـ باب : فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون .

سُرِّيَ : عن المحزون وغيره : إذا كشف عنه ما به .

يبايعوهُ إلا على نُصرَتِهِ ممن يقصده لا أن يَسير بهم إلى العدو ، فقال له سعدُ بن معاذٍ : امضِ يا رسولَ الله لما أمرتَ بـه فنحنُ معـكَ . قـال فسره قولـه ونشطـه » وكـذا ذكره موسى ابن عُقبة مبسوطاً ، وأخرجَه ابن عائذ مِنْ طَريقِ أبي الأسودِ عن عروة ، وعند ابن أبي شيبة من مرسل علقمة بن وقاص في نحو قصة المقداد (فقـال سعـد بن معـاذ : لئِنْ سرْتَ حَتّى تـأتي برْكَ الغِمادِ من يَمنٍ لنَسيرَنَّ مَعَك ، وَلاَ نكُونَ كالـذِين قـالُوا لموسى ـ فـذكرهُ وفيـه ـ لعلـك خَرَجْتَ لأمْرٍ فأَحْدَثَ الله غَيْرَه ، فامْضِ لمـا شِئْتَ ، وصِلْ حِبَـالَ مَنْ شِئْتَ ، واقْطَعْ حِبَـالَ مَنْ شِئْتَ ، وسَـالم مَنْ شِئتَ ، وَعادِ مَنْ شِئْتَ ، وخُـذْ مِنْ أموالنـا مـا شِئْتَ » قـالَ : وإنّما خَرَجَ يريدُ غنيمةَ مَا مَعَ أبي سفيانَ فأحدَث الله لهُ القِتَالَ .

وروى ابنُ أبي حـاتم من حـديث أبي أيـوب قـال : قـال لنـا رسـول الله ﷺ ونحنُ بالمـدينـةِ : « إني أخْبرتَ عَنْ عِيرِ أبي سُفْيَـانَ ، فَهَلْ لَكُم أن تَخْرُجُوا إليْهـا لَعَلَّ الله يغنمناهَا ؟ » قُلنَا : نَعَم ، فَخرجْنَا . فَلما سِرْنَا يَوماً أو يَوْمَيْن قَالَ : « قَدْ أُخْبرُوا خَبرنـا فاستَعِدُّوا للقتال » فقلنا : لا واللهِ ما لنَا طاقَة بقِتالِ القَومِ ، فأعادَهُ ، فَقَالَ لهُ المقدادُ : لا نَقُولَ لك كَمَا قَـالَتْ بنُو إسرائيلَ لموسى ولكنْ نقول : إنَّـا مَعَكُما مُقَـاتِلُون . قَـالَ : فتمنَّيْنَـا معشر الأنصَارِ لو أنَّـا قُلنَـا كما قَـالَ المقـدَادَ . فـأنْزَلَ اللهُ تعـالَى : ﴿ كَما أخرجَـكَ رَبُّـكَ من بَيْتِك بالحقِّ وإنَّ فريقاً مِنَ المؤمِنِينَ لكَارِهُون ﴾ [1] وأخرج ابن مردويـه من طريق محمد ابن عمرو بن علقمة بن وقاص عن أبيه عن جده نحوه ، لكن فيه أنَّ سعد بن مُعـاذٍ هو الـذي قَالَ ما قَالَ المقْدادَ ، والمحفوظ أنَّ الكلام المذكور للمقداد كما في حديث الباب ، وأن سعـد بن معاذ إنما قال : (لو سِرْتَ بنَا حَتَّى تَبْلغَ بَرْكَ الغِمادِ لسِرنَا مَعَكَ) كـذلـك ذكره موسى بن عقبة . وعند ابن عائـذ في حـديث عروة (فَقَـالَ سَعْـدُ بنُ مُعَـاذٍ : لَوْ سِرْتَ بِنَـا حتَّى تبلغَ البَرْكَ مِنْ غِمـدِ ذِي يمنٍ) ووقـع في مسلم أنَّ سعْـدَ بنَ عُبَـادةَ هـو الـذِي قَالَ ذَلِـكَ ، وكـذا أخرجه ابن أبي شيبة من مرسل عكرمة ، وفيه نظر لأن سعدَ بن عُبَادةَ لم يشهدْ بَدْراً ، وإن كان يعد فيهم لكونه ممن ضرب له بسهمه كما سأذكره في آخر الغزوة ، ويمكن الجمع بـأن النبي ﷺ استشارهم في غزوة بدر مرتين : الأولى : وهو بالمـدينـة أول مـا بلغـه خبر العير مع أبي

---

(١) الأنفال : ٥ .

سفيـان ، وذلـك بين في روايـة مسلم ولفظـه (أن النبي ﷺ شـاور حين بلغـه إقبـال أبي سفيان) والثانية : كانت بعد أن خرج كما في حديث البـاب ؛ ووقع عنـد الطبراني أن سعـد ابن عبادة قـال ذلـك بـالحـديبيـة ، وهـذا أولى بـالصواب ؛ وقـد تقـدم في الهجرة شرح برك الغماد ، ودلت رواية ابن عائذ هذه على أنها من جهة اليمن ، وذكر السهيلي أنه رأى في بعض الكتب أنها أرض الحبشة ، وكأنه أخذه من قصة أبي بكر مع ابن الدغنة ، فإن فيها أنـه لقيـه ذاهباً إلى الحبشة ببرك الغماد فأجاره ابن الدغنة كما تقدم في هذا الكتـاب ، ويجمع بـأنهـا من جهة اليمن تقابل الحبشة وبينهما عرض البحر . أ.هـ .

٢٨٨ ـ * روى مسلم عن أنس بن مـالـك رضي الله عنـه أنَّ رَسـولَ اللهِ ﷺ شَـاور حينَ بَلغهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَان ، قَالَ: فَتَكَلَّم أبو بَكْرٍ ، فَأَعرضَ عَنْه ثم تكلم عُمَرُ فأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ ابنُ عُبَادةَ ، فَقَالَ: إِيَّانا تُريدُ يَـارَسُولَ اللهِ ؟ وَالـذِي نَفْسي بِيَـدهِ، لو أَمَرتَنـا أَنْ نخيضَهـا البَحْرَ لأخَضناها ، وَلَوْ أَمَرْتَنَـا أَنْ نَضْربَ أَكْبَـادَهـا إلى بَرْكِ الغُمَـادِ لَفَعَلنـا، قَـالَ : فَنَـدب رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ فَانطَلَقوا ، حتَّى نَزَلوا بَدْراً ، وَوَرَدتْ عَلَيْهم رَوايا قُريشٍ وفيهم غُلامٌ أَسودُ لبني الحَجَّاجِ ، فَأَخَـذُوهُ، فكـانَ أَصْحَـاب رسول الله ﷺ يَسـأَلونَـهُ عَن أَبِي سُفْيـانَ وأَصْحَـابِـهِ ؟ فَيَقُولُ . مَالي عِلم بأَبِي سُفْيَـانَ ، وَلَكن هـذا أَبو جَهْل ، وعُتبـةُ ، وَشَيْبَـةُ ، وأُميَّـةُ بنُ خَلَف فإذا قالَ ذَلك ضَرَبُوه ، فَقَالَ : نَعم أَنا أُخْبِرُكُم ، هَذَا أبو سفيان ، فإِذَا تَرَكُوهُ فسَـأَلوهُ قَـال : مَالي بِأَبِي سُفيان عِلْم وَلكنْ هذا أبو جهل ، وَعتبـةُ ، وشيبـةُ ، وأُمَيَّـةُ بنُ خلفٍ في النَّـاسِ ، فَإذَا قال هَذَا أيضًا ضَرَبوهُ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَـائِم يُصَلي ، فَلَما رَأى ذَلِـكَ انْصَرفَ ، وَقَـالَ : « وَالذِي نَفْسِي بِيَده ، لَتَضْرِبُوه إذا صَدَقَكم ، وَتَتْركوهُ إذا كَذَبَكم » قال : فَقَـالَ رَسُولُ

---

٢٨٨ ـ مسلم (٣ / ١٤٠٣) ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ـ ٢٠ ـ باب : غزوة بدر .

نخيضها : الضمير يعود على الخيل .

الكبد : أوسط الشيء ومعظمه .

برك الغماد : بَرْك بفتح الباء وإسكان الراء ، وقال بعضهم : صوابه كسر الراء والغماد بغين معجمة مكسورة ومضمومة لغتان مشهورتان ، لكن الكسر أفصح والمشهور عند المحدثين ، والضم هو المشهور في كتب اللغة .

= روايا : جمع راوية ، وهي المزادة ، والمراد به هاهنا : الجمال التي تحمل المزاد ، والجمل : راوية ، وتسمى به المزادة .

اللهِ ﷺ : « هَذا مَصْرعُ فَلانٍ » وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأرض هَاهُنَا وهَاهُنَا ـ قَالَ : فما مَاط أَحَدُهُم عَنْ مَوضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَليه وَسَلم .

وَأَخْرَجَهُ أَبو داودَ [١] ، وَأَوّلُ حَديثِهِ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَدبَ أَصْحَابَه ،فَانْطَلَقَ إلى بَدرٍ ، فَإِذَا هُمْ بِرَوَايَا قُرَيْشٍ ، فِيها عَبْد أسودُ لبني الحَجاج ... وَذَكَر الحَديثَ إِلى آخِرِهِ بِتَغْيِيرِ شَيءٍ مِنْ أَلْفَاظِه ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ : وَالذي نَفْسِي بِيده ، ما جَاوَزَ أَحَدٌ مِنْهُم عَنْ مَوضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَمَر بِهِم رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَأُخِذُوا بِأَرْجُلِهِم فَسُحِبوا ، فَأُلْقُوا في قليب بدر .

٢٨٩ـ * روى الطبراني عن عبد اللهِ يعني ابنَ مسعود قَال : لقَدْ قُلِّلُوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْم بَدْرٍ حتَّى قُلتُ لصاحِبِي الذي إلى جَانبي أتراهُم سَبْعين ؟ قال : أراهُم مائة ، حتَّ أَخَذنَا مِنْهُم رَجُلاً فَسَأَلْنَاه قال : كُنَّا أَلفاً .

وقد ذكرنا الحديث مع أن فيه عنعنة ابن إسحاق لما يشهد له من ظاهر النصوص القرآنية كا ذكر ذلك ابن كثير في البداية والنهاية فقال :

قال تعالى : ﴿ وَ إِذْ يريكُمُوهُم إِذِ التقيتُم فِي أعيُنِكُم قليلاً ويقلِّلُكم فِي أعيُنهم ليقضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً ﴾ [٢] فعندمَا تقابل الفريقَانِ قَلَّلَ اللهُ كُلاً مِنْهما فِي أَعْيُنِ الآخرينَ ليجتَرِئ هؤلاء عَلَى هَؤُلاء وَهَؤُلاء عَلَى هؤلاء لِمَا لَهُ فِي ذَلِك مِنَ الحِكْمَةِ البَالِغَةِ ، وَلَيْسَ هَذَا مُعَارِضاً لقولِهِ تَعَالَى فِي سُورة آل عِمْرانَ ﴿ قَدْ كَانَ لَكُم آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وأُخْرَى كَافِرةٌ يَرَوْنَهم مِثْلَيهم رَأْيَ العَيْنِ واللهُ يُؤيدُ بِنَصرِهِ مَنْ

= مَصْرَع : المصرع : موضع القتل .

ماماط : أي : مازال وما بعدَ ، والمَيْط : الميل والعدول .

(١) أبو داود (٣ / ٥٨) كتاب الجهاد ـ باب : في الأسير يُنَالُ منه ويضرب .

نَدَبَ : ندبتُ الرجل لهذا الأمر ، أي : هيأتُه له ، وبعثتُه فيه ، فانتدب ، أي : أجاب .

القليب : البئر لم تُطْو ، وإنما هي حفيرةٌ قُلب ترابُها ، فسميت قليباً .

٢٨٩ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٨٤) وقال : رواه الطبراني . ولم يتكلم عليه في الجمع ، وفيه عنعنة ابن إسحاق .

(٢) الأنفال : ٤٤ .

يشَاءُ ﴾ [1] فإنّ المَعْنى فِي ذَلِك عَلَى أَصَحّ القَوْلَيْنِ أنّ الفِرْقَة الكافرةَ تَرى الفرقَة المؤمنة مثلي عدد الكافرة على الصحيح أيضاً ، وذلك عند التحام الحرب والمسابقة أوقع الله الوهن والرعب في قلوب الذين كفروا فاستدرجهم أولاً بأن أراهم إياهم عند المواجهة قليلاً ، ثم أيد المؤمنين بنصره فجعلهم في أعين الكافرين على الضعف منهم حتى وهنوا وضعفوا وغلبوا . ولهذا قال : ﴿ والله يؤيّدُ بنَصْرِهِ من يشاءُ إنّ في ذلك لعبرة لأولِي الأبْصَارِ ﴾ .

أقول : كان هذا من فعل الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين ، ولو أخلص المسلمون وأحسنوا لوجدوا التوفيقات والتأييدات تحفّهم من كلّ جانب .

وقد علّل الله عز وجل لإراءته المسلمين المشركين قلّة بقوله : ﴿ ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكنّ الله سلّم ﴾ [2] .

إنّ هذا التعليل يوحي بأشياء كثيرة : منها : أولاً : أنّ المسلمين يحكمهم عالم الأسباب فعندما يرون أنّ القوى غير متكافئة لابدّ أن يختلفوا في أمر القتال هل يقاتلون أو لا يقاتلون ؟ فالله عز وجل بحكمته جنّبهم هذا الموقف يوم بدر ، ولكنّ هذا الموقف يمكن أن يواجه المسلمين في كل لحظة فعلى قياداتهم أن تلاحظ ذلك أوّلاً في الموازنات التي تسبق القرار . ثانياً : في القرار نفسه ، ثالثاً : في الخطّة المناسبة على ضوء تفاضل القوى ، رابعًا : في الإعداد النفسي والتدريبي ، خامساً : في إدارة المعركة .

٢٩٠ - * روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قالَ : قالَ رسول اللهِ ﷺ يوم بَدْر : « من اسْتَطعْتُم أن تأسِرُوه من بني عبد المطَّلبِ فإنّهم خرجُوا كَرْهاً » .

معنى الحديث : من استطعتم عليه من بني عبد المطلب فأسروه ولا تقتلوه .

تعليق : لم تكن قريش كلّها مقتنعة بهذه الحرب ولذلك خرج بعضهم ثمّ نكص وبعضهم

---

(١) آل عمران : ١٣ .

(٢) الأنفال : ٤٣ .

٢٩٠ - أحمد في مسنده (١ / ٨٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٨٥) وقال : رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد ثقات .

لم يخرج أصلاً . وقد عرض ابن كثير صورة عن هذه الأمور في البداية والنهاية قال : وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي - وكان حليفاً لبني زهرة - وهم بالجحفة : يا بني زهرة قد نجّي الله لكم أموالكم ، وخلّص لكم صاحبَكم مَخْرَمَة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جُبْنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا . قال : فرجعوا فلم يشهدها زُهري واحد ، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً ولم يكن بقي بطن من قريش إلا وقد نفر منهم ناس إلا بني عدي لم يخرج منهم رجل واحد ، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحد . قال : ومضى القوم وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة . فقالوا : والله لقد عرفنا يا بني هاشم - وإن خرجتم معنا - أن هواكم مع محمد ، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع .

٢٩١ - * روى البزار عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما نزل المُسْلمون بدراً وأقبل المشركون نظر رسول الله ﷺ إلى عتْبة بن ربيعة وهو على جَمل أحْمر فقال : « إنْ يكُنْ عِنْد أحد مِن القومِ خيْرٌ فهوَ عِند صاحِب الجمل الأحمر ، إنَ يُطيعُوه يَرْشُدوا » وهو يقولُ : يا قوم أطيعُوني في هؤلاء القوم فإنكم إنْ فعلتم لنْ يَزالَ ذَلك في قلوبكم ، يَنْظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه فاجعلوا جبنها برأسي وارْجعوا ، فقال أبو جهل : انتفخ والله سَحره حين رأى مُحَمَّداً وأصْحابه ، إنما مُحَمَّدٌ وأصْحَابُه كأكلة جَزُور لوْ قد التقيْنا ، فقال عتبة : ستعلم من الجبان المُفسد لقومه ، أمَا والله إنّي لأرى قوْماً يَضْربُونكم ضَرْباً ، أما تَرون كأنَّ رُؤوسهم الأفَاعيِ وكأنَّ وَجُوههم السيوفُ ، ثُمّ دعا أخاهُ وابْنه فخرجَ يَمْشي بَيْنَهُما ودعا بالمبارزة .

٢٩٢ - * روى الإمام أحمد عن علي قال : لما قدِمْنا المدينةَ أصَبْنا مِنْ ثمارها

---

٢٩١ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٧٦) وقال : رواه البزار ورجاله ثقات . كشف الأستار (٢ - ٣١٣) .
انتفخ سحره : السحر الرئة ، والمعنى امتلأ خوفاً وجبناً .

٢٩٢ - أحمد في مسنده (١ / ١١٧) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٧٥) وقال : روى أبو داود منه طرفاً ، ورواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مُضرِّب وهو ثقة .

فاجْتَوَيْناها وأصابنا بها وَعْكٌ وكان النبي ﷺ يتخبّرَ عن بدرٍ ، فلما بَلَغَنا أن المشركين قدْ أقْبلوا سار رسول الله ﷺ إلى بدر ، وبدر بئر ، فسبقنا المشركون إليها فوجدنا فيها رجّلين منهم رجلاً من قريش ومولى لِعُقبة بنِ أبي مُعَيْط ، فأما القرشي فانفلت وأما مولى عقْبة فأخذْناه فجعلْنا نقُول له : كم القوم ؟ فيَقُولُ : هُم واللهِ كثيرٌ عددهُم ، شديدٌ بأسُهم فجعل المسْلمُون إذا قال ذلك ضَربُوه ، حتى انْتهوا به إلى النبي ﷺ فقال له : «كَمِ القومُ» قال : هُم واللهِ كثيرٌ عددهم شديدٌ بأسهم فجهد رسول الله ﷺ أنْ يُخْبره كم هم فأبى ، ثمّ إنّ النبي ﷺ سأله : « كمْ يَنْحرُون مِن الجَزُورِ» قال : عَشْراً كلَّ يوم . فقال رسولُ الله ﷺ : « القومُ ألفٌ كل جَزور لِمائة وتبعها » ثمّ إنه أصابنا من الليل طش من مَطَر فانْطلقْنا تحْت الشجر والحجفِ نسْتظِلُّ تحتها من المطر ، وبات رسولُ الله ﷺ يدْعو ربَّه ويقول : « اللهم إنك إن تُهْلِك هذه الفئة لا تُعْبدُ » قال : فلما أنْ طلع الفجرُ ، نادى الصلاة عباد الله فجاء الناسُ منْ تحت الشجر والحَجَفِ فصلى بنا رسُول الله ﷺ وَحرض عَلى القتال ثم قال : « إن جَمْع قريش تحتَ هَذه الضِّلَع الحمراء من الجبل » فلما دنا القوم منا وصافقناهم إذا رجل منهم على جمل له أحمرَ يسيرُ في القوم فقال رسولُ الله ﷺ : « ياعليُّ نادِ حمزةَ » وكان أقرَبهم من المشْركينَ منْ صاحب الجمل الأحْمر وماذَا يقُول لهم ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إنْ يكنْ في القومِ أحدٌ يأمرُ بخيرٍ فعسىَ أن يكونَ صاحبَ الجملِ الأحمرِ» فجاء حمزة فقال : هو عتبة بن ربيعة وهو ينهى عن القتال ويقول لهم : يا قوم إني أرَى قوماً مُستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خَير ، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا جَبُنَ عُتْبةُ بنُ ربيعةَ وقد علمتم أني لستُ بأجْبَنِكم فسَمِعَ ذَلكَ أبو جهل فقال : أنْت تقولُ

= فاجتوينناها : أي أصابهم الجوى وهو المرض وداء إذا تطاول وذلك لم يوافقهم هواؤها .
واستوخموها : يقال اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة .
الوعك : أذى الحمىّ ووجعها .
طش : هو الضعيف القليل .
الحَجَفة : الترس جمعها : حَجَف .
الضِّلَعُ : جبيل منفرد صغير يشبه بالضلع .
صافقناهم : أي واقفناهم وقمنا حذاءهم .

ذَلِك والله لو غيرُك يقول لأعْضَضْتُه ، قد ملئت رئتُك رُعبًا فقال عتبةُ : إياي تعني يامُصَفِّر إسْته ستعلمُ اليومَ أيُّنا الجبانُ قال : فبرزَ عتبة وأخوه شيبةُ وابْنهُ الوليد حمية ، فقالوا : مَنْ يُبارز ؟ فخرج فِتيةٌ مِن الأنصار ستةٌ ، فَقَال عتْبةُ : لا نُريدُ هؤلاء وَلكن يُبَارزُنا من بني عمنا منْ بني عبْدِ المطّلب . فَقَالَ رَسُولَ الله ﷺ : « قُم يا عَليٌّ وقُمْ ياحَمزَةُ وقُمْ ياعُبيدةُ بنَ الحَرْث بن المطلب » فقتل الله شيْبةَ وَعتْبة ابْني ربيعةَ والوليدَ بنَ عُتْبة وَجُرحَ عبيدة ، فقتلنا منْهُم سَبْعين وأسرْنا سبعين ، فجاء رجُلٌ من الأنْصَار بالعبَّاس بن عبْدِ المطَّلب أسيراً ، فقال العباسُ : يا رسول اللهِ إن هذا والله ما أسرني ، أسرني رجل أجلح منْ أحسن الناس وجْهاً على فرسٍ أبلق ما أراه في القوم . فقال الأنصاري : أنا أسرْتُه يا رسول اللهِ قال : « اسكت فَقد أيَّدك اللهُ بِمَلَك كريم » قال عليّ عليه السلامُ فأسرْنا من بني عبد المطلب العبَّاس وعقيلاً ونوفل بن الحارث .

٢٩٣ - * روى أبو داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عَنْه قال : تَقَدَّم عُتْبةُ بن ربيعةَ ، وتَبِعه ابنهُ وأخُوه ، فنَادَى : مَنْ يُبارِزُ ؟ فانتَدَبَ له شَبَابٌ مِنَ الأنْصَارِ ، فَقَالَ : مِنْ أنْتُم ؟ فأخبروه فقال : لا حَاجَة لَنَا فيكُم ، إنَّما أرَدْنا بَنِي عمِّنا ، فقالَ رسُولَ الله ﷺ : قُم يا حمزةُ ، قُمْ ياعَليُّ ، قُمْ يا عُبيدةَ بنَ الحارثِ ، فأقبَل حمزةُ إلى عُتْبَة ، وأقْبَلْتُ إلى شَيْبة ، وأختُلفَ بين عُبيدَة والوليدِ ضَرْبتَان ، فأثخن كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُما صَاحِبَهُ ثم مِلْنا على الوليدِ ، فَقَتلْنَاهُ ، واحْتَمَلْنَا عُبيدةَ .

لأعضضته : عضّ هنَ أبيك (وهي كلمة شتم عند العرب) .

ملئت رئتك رعباً : تعبير يقال لمن خاف خوفاً عظيماً .

يامصفر استه : الاست : المقعدة ، والتصفير يكون بدهنها بالخلوق وهو طيب أصفر اللون ، وهي شتيمة .

أجلح : الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه . حمية : الأنفة . أبلق : بَلَق الفرس : كان فيه سواد وبياض .

٢٩٣ - أبو داود (٣ / ٥٢) كتاب الجهاد - باب : في المبارزة .

يبارز : ينفرد عن جماعته ويظهر أمام عدوه .

فانتدب : ندبه إلى الأمر : كنصره ودعاه وحثّه .

اختلفت ضربتان : ترددت الضربة خلف الضربة الأخرى .

أثخن : بالغ في جراحة عدوّه .

وفي روايـة ذكرهـا رزين : لما كانَ يومُ بـدر تقـدَّم عتبـةُ بنُ ربيعـةَ ، وشَيْبـةُ أخـوُه ، والوليدُ بنُ عتبة ... وذكره ، وفيها : إنَّما أَرَدْنا أَكْفاءَنا مِنْ بَني عمِّنا . وفيهُ قَالَ عَلِيٌّ : فَـأمَّـا أَنَا وَحمزةُ: فأنجَزْنا صاحِبَيْنا ، وأما عبيدةُ والوليد: فـأثخن كل واحـد منهُما صَاحبـه ... وذكرهُ

أقول : أخرجَ النبي ﷺ للمبارزة ثلاثة هم أقرب الناس إليه نسباً فلم يكن لـه ولـد ذكر أو أخ أو أب وكان أقرب الناس منه حمزة عمـه وعلي ابن عمـه وعبيـدة ابن عمـه الأعلى وهـذا يعلمنا ألا نبخل بأقرب الناس منا لنقـدمهم للجهـاد ونعرضهم للشهـادة ، وكان في هـذا درس للصحابة والمسلمين بليغ .

٢٩٤ ـ * روى البزار عن عبد الله يعني ابن مسعود قال : كَانَ سَعْدٌ يُقَاتِلُ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ يَوْم بَدْر قتَال الفارِس والرَّاجل .

٢٩٥ ـ * روى البخـاري عن عليٍّ بن أبي طَـالب رَضِيَ الله عَنْـهُ قَـالَ : أنـا أولُ مَنْ يجثُو بين يَـدَي الرحمن للخصـومـة يَـوْم القِيـامـةِ ، قَـالَ قَيْس : وفيهم نـزلت : ﴿ هـذان خَصْمانِ اختَصَمُوا في ربهم ﴾ (١) قالَ : هُم الذين بارزُوا يَوْمَ بدرٍ : عَلِيٌّ ، وَحَمْزةُ ، وَعُبَيْدَةُ ، وشَيبَـةُ ابنُ رَبيعَةَ : وعتبةُ بن ربيعة ، والوليد بن عُتبة .

وَفي رِوايةٍ أنَّ علياً قال . فينا نزلت هذه الآية ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِيْ رَبِّهِمْ ﴾ .

٢٩٦ ـ * روى البخاري عن أبي ذر الغِفاري رضي الله عنـه ؛ قال قَيسُ بن عُبَادٍ : سمعت أبا ذَرٍّ يُقسِمُ قسمًـا أن هـذه الآيـة : ﴿ هـذان خصمان اختصموا في ربِّهِمْ ﴾ نزلت في الـذين برزُوا يوم بَدرٍ : حمزة وعلي ، وعبيدَة بنِ الحارث ، وعُتبة وشَيبةَ ابنَيْ رَبيعةَ ، والوليد بن عتبة .

---

٢٩٤ ـ كشف الأستار (٢ / ٣١٥) .

مجمع الزوائد (٦ / ٨٢) وقال : رواه البزار بإسنادين أحدهما متصل والآخر مرسل ورجالهم ثقات .

٢٩٥ ـ البخاري (٨ / ٤٤٣) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ ٣ ـ باب ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ .

يَجثُو : أي : يقعد على رُكْبَتيه .

(١) الحج : ١٩ .

٢٩٦ ـ البخاري (٧ / ٢٩٧) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ ٨ ـ باب : قتل أبي جهل .

ومسلم (٤ / ٢٣٢٣) ٥٤ ـ كتاب التفسير ـ ٧ ـ باب : في قوله تعالى : ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ .

٢٩٧ ـ * روى أحمد عن عُتبةَ بنِ عبْد السُّلَميِّ أنّ النبي ﷺ قَال لأصحَابِـهِ : « قُوموا فَقَاتِلُوا» قَالوا : نَعَم يـا رسُول الله ولا نقُول كَما قَالت بَنُو إسرائيـل لموسَى عليه السلام انطلق أنت وربُّك فقَاتلا إنّا هَهُنا قَاعِدون ، ولكن انطلِق أنتَ وربُّك يـا محمدَ فقاتلا وإنَّا معكم نُقاتِل .

٢٩٨ ـ * روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنّ رسولَ الله ﷺ قـالَ ـ وهو في قُبّةٍ يومَ بَدرٍ ـ : « اللهم إني أنشُدُك عَهدَك ووَعْدَك ، اللّهمَّ إنْ تَشأْ لاتُعبَدْ بعدَ اليوم » فأخذَ أبو بكر بيدِهِ فَقالَ : حَسْبُك يارسولَ اللهِ أَلحَحْت علَى ربِّكَ ، وهو يَـثِبُ في الدِّرعِ ، فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [1] .

قال في الفتح : وعن سعيدِ بنِ منصور من طريقِ عبيدِ اللهِ بنِ عبـدِ اللهِ بن عتبـة قـال:«لما كان يـوم بـدرٍ نظرَ رسـول الله ﷺ إلى المشركينَ وتكاثرهم وإلى المسلمينَ فـاستقلهُمْ ، فركـعَ رَكعتين وقـام أبو بكرعن يمينـه ، فقـال رسول الله ﷺ وهوَ في صَلاتِـه : « اللهم لاتُـودِع مني ، اللهم لاتخذلنيْ ، اللهم لا تَتِرْني » .

وعند الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود قال : « ما سمعنا مناشداً ينشد ضـالـة أشد مناشدة من محمد لربه يوم بدر : « اللهم إني أنشـدك مـا وعـدتني » قـال السهيلي : سبب شدة اجتهاد النبي ﷺ ونَصَبه في الـدعـاء لأنـه رأى الملائكـة تنصب في القتـال ، والأنصـار يخوضون غمار الموت ، والجهاد تارة يكون بالسلاح وتـارة بـالـدعـاء ، ومن السنـة أن يكون الإمام وراء الجيش لأنه لا يقاتل معهم فلم يكن ليريح نفسه ، فتشاغل بـأحـد الأمرين وهو الدعاء . قوله : (اللهم إن شئت لم تعبد) في حديث عمر « اللهم إنّ تَهلكْ هذه العصابـه من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض » . أمـا « تهلـك » فبفتح أولـه وكسر اللام ، « والعصـابـة » بالرفع ، وإنما قال ذلك لأنه علم أنـه خـاتم النبيين فلو هلـك هو ومن معـه حينئذ لم يبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان ، ولاستمر المشركون يعبدون غير الله ، فالمعنى لا يعبد في الأرض

---

٢٩٧ ـ أحمد في مسنده (٤ / ١٨٤) . ومجمع الزوائد (٦ / ٧٤) وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات .

٢٩٨ ـ البخاري (٨ / ٦١٩) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ ٥ ـ باب : قوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾

(١) القمر : ٤٥ .

بهذه الشريعة ، ووقع عند مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال هذا الكلام أيضاً يوم أحد ، وروى النسائي والحاكم من حديث علي قال : « قاتلت يوم بدر شيئاً من قتال ، ثم جئت فإذا رسول الله ﷺ يقول في سجوده : « يا حي يا قيوم » فرجعت فقاتلت ، ثم جئت فوجدته كذلك » .

قال الخطابي : لا يجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحال ، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه وتقوية قلوبهم ، لأنه كان أول مشهد شهده ، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عند ذلك ، لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة ، فلما قال له أبو بكر ما قال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة ، فلهذا عقب بقوله « سيهزم الجمع » انتهى ملخصاً .

قوله (فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر) وفي رواية أيوب عن عكرمة عن ابن عباس لما نزلت ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر : أى جمع يهزم ؟ قال : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويقول : (سيهزم الجمع) أخرجه الطبري وابن مردويه . وله من حديث أبي هريرة عن عمر : (لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله أى جمع يهزم ؟) فذكر نحوه وهذا مما يؤيد ما قدمته أن ابن عباس حمل هذا الحديث عن عمر ...) اهـ .

٢٩٩ ـ * روى البخاري عن أبي أُسَيْد رضيَ اللهُ عنهُ قَالَ : قَالَ لنا رَسُول اللهِ ﷺ يَومَ بدرٍ : « إذَا أكثَبُوكم » يَعْني أكثروكم وَفي أخرَى يعني : أكْثَرُوكُم ـ « فَارْمُوهُمْ ، واسْتَبْقُوا نَبْلَكُم » .

وَفي أخرى لأبي داود [1] « إذا أكثَبُوكُم فَارمُوهم بالنبل ولاَ تَسُلُّوا السُّيوفَ حتى يَغْشَوْكم » .

---

٢٩٩ ـ البخاري (٧ / ٣٠٦) ٦٣ ـ كتاب المغازي ـ باب ـ ١٠ .

(١) أبو داود (٣ / ٥٢) كتاب الجهاد ـ باب : في سل السيوف عند اللقاء .

أكثبوكم : قربُوا منكم ، والكَثَبُ : القُرْبُ . غشوكم : دنوا منكم أو ازدحموا عليكم وكثروا .

طَرَفَاهَا ، قَال عُرْوَةُ : فسألَهُ إيَّـاهَـا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فـأعْطَـاهُ ، فلمـا قُبِضَ رسول الله ﷺ أخذَهـا ، ثمَّ طَلَبَهـا أَبُو بكر ، فـأعْطَـاهُ ، فَلَمَّـا قُبِضَ أَبُو بكْرٍ سَـألَهَـا إيـاه عُمَرُ ، فـأعْطَـاهُ إيَّاهَا ، فلمَّا قُبِضَ عُمَرُ أخذَهَا ، ثُمَّ طَلَبها عُثمانُ منْه ، فأعْطَاهُ إيَّاهَا ، فَلَمَّا قُتِلَ عثمان وَقعَتْ عند آل عَلِيٍّ ، فَطَلَبَها عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ ، فكَانَتْ عندَه حَتَّى قُتِل .

أقول : هذا الحديث يصلح أصلاً لفكرة المتاحف على أن يلحظ حدود الجائز في شأنها .

٣٠١ ـ * روى أبو يعلى عن علي بن أبي طالب قـال : كنْتُ على قَليبٍ فكُنْتُ يومَ بـدْرٍ أميحُ وأمتح منه فجَاءتْ ريحٌ شَدِيدَةٌ ، ثم جاءتْ ريحٌ شَـديـدةٌ شـديـدة فلم أرَ ريحـاً أشـدَّ منهـا إلّا التِي كانَتْ قَبْلَهَـا ، ثم جَـاءَتْ ريحٌ شَـديـدةٌ ، فكانت الأُولى ميكائيـلَ في ألفٍ من المَلائكةِ عن يمين النبي ﷺ ، والثانيةُ إسْرافيلَ في ألفٍ من الملائكـة عن يَسـارِ النبي ﷺ ، والثالثـة جبريلَ في ألف من الملائكـة وكانَ أبو بَكْرٍ عن يَمينـه ، وكنتُ عن يَسـاره ، فَلَمَّـا هَزَمَ اللهُ الكفَّارَ حَملني رسولُ اللهِ ﷺ على فَرَسه ، فلما استَويْتُ عليـهِ حَمل بي فَصِرْتُ على عُنُقِه فدَعوتُ اللهَ فَثَبَّتني عَلَيْه فطعنْتُ برُمحي حتى بلغَ الدمُ إبْطي .

٣٠٢ ـ * روى الطبراني عن عروةَ قـال :نَزَل جبْريل عَلَيـه السَّـلاَمُ يَـومَ بَـدْرٍ عَلى سيمَـا الزبَيْرِ ، وَهُوَ مُعْتَجِر بِعمامةٍ صَفْراء .

٣٠٣ ـ * روى البزار عن عليّ قـال : قــالَ لي النبي ﷺ ولأبي بَكْر يـومَ بَـدْرٍ : « مَـعَ أَحـدِكُما جبريلُ وَمَـعَ الآخَرِ ميكائيـلُ ، وإسْرَافِيلُ مَلَـك عظِيمٌ يَشْهَـدُ القِتَـالَ ، أو

---

٣٠١ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٧٧) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

متح : متح الدلو يمتحها إذا جذبها مسقياً لها ، وماحها يميحها إذا ملأها .

حمل بي : ظهر واشتدّ .

استويت عليه : صعدت عليه .

٣٠٢ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٨٤) وقال : رواه الطبراني ، وهو مرسل صحيح الإسناد .

سيما : السيما : العلامة .

معتجر : اعتجر فلان بالعمامة : لفّها على رأسه وردّ طرفها على وجهه .

٣٠٣ ـ كشف الأستـار (٢ / ٣١٤) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائـد (٦ / ٨٢) وقـال : رواه أحمد بنحوه والبزار واللفـظ لـه ، ورجالها رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى .

قال في الفتح : والذي يظهر لي أن معنى قوله « واستبقوا نبلكم » لا يتعلق بقوله « ارموهم » وإنما هو كالبيان للمراد بالأمر بتأخير الرمي حتى يقربوا منهم ، أي إنهم إذا كانوا بعيداً لا تصيبهم غالباً ، فالمعنى استبقوا نبلكم في الحالة التي إذا رميتم بها لا تصيب غالباً وإذا صاروا إلى الحالة التي يمكن فيها الإصابة غالباً فارموا . أ . هـ

* * *

عوامل النصر

جرت عادة القادة في الحروب أنّهم يتقدّمون لجندهم بتوجيهات القتال بين يدي المعركة والملاحظ من خلال هذا الحديث وغيره ممّا مرّ معنا ويمرّ ما يلي :

١ ـ أنّ توجيهات القتال كانت واضحة وحكيمة .

٢ ـ أنّ التعبئة النفسيّة كانت على أرقاها وأعلاها .

٣ ـ أنّ القناعة بالمعركة كانت كاملة .

وكل ذلك كانت عوامل مناسبة للوصول إلى النصر وهي جزء من عالم الأسباب الذي يجب أن يلاحظه المسلمون في معاركهم .

٣٠٠ ـ * روى البخاري عن الزبير بن العوام القرشي قال : لَقِيتُ يَوْمَ بَدْرٍ عُبيدة بنَ سعيد بنِ العَاص ، وَهُوَ مدجَّج ، لا يُرى مِنْهُ إلاَّ عَيناهُ ، وكَانَ يُكْنى أَبَا ذَاتِ الكَرِشِ ، فَقَالَ : أنا أَبُو ذَاتِ الكَرِشِ ، فَحَمَلْتُ عليه بالعَنَزَةِ ، فطعنتهُ في عينه ، فمات ، قَالَ فأُخْبِرْتَ أنّ الزبيْر قَالَ : لَقَدْ وَضَعْتُ رَجلِي عَلَيْهِ ، ثُم تمطأت فكان الجُهد : أن نزَعْتُها ، وَقَدِ انْثَنَى

---

٣٠٠ ـ البخاري (٧ /٣١٤) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ باب : ١٢ .

مدجج : المدجَّج : الغائص في سلاحه .

العنزة : شبه العكّازة في رأسها سنان كسنان الرمح .

تمطيت : تمطّى : امتدّ وطال ومنه التمطي .

الجُهد : بضم الجيم . الوسع والطاقة وبفتحها : المشقّة . وقيل : هما لغتان في المشقّة .

يَكوُن في الصَّفّ » .

٣٠٤ - * روى البخاري عن عبدِ اللهِ بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنهُما أنَّ رسُول اللهِ ﷺ قال يَوم بدْرٍ : « هَذا جِبْريلُ آخِذٌ بِرأسِ فَرَسِهِ ، عَلَيهِ أدَاةُ الحَرْبِ » .

٣٠٥ - * روى الحاكم عن أبي أمامة بن سهل قال : قال لي أبي : يابُنَيّ لقدْ رأيتُنا يومَ بدرٍ وإنَّ أحدَنا يُشيرُ بسيفِه إلى رَأسِ المشْرِكِ فيقَعُ رأسُه عن جسدِه قبلَ أن يَصِلَ إليه .

٣٠٦ - * روى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : حدَّثني عمرُ بنُ الخطاب قال : لما كانَ يوم بدرٍ نَظَر رَسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ ، وأصحابُه ثلاثمائة وتسعَ عشر رَجُلاً ، فاستقبَل نبي الله ﷺ القبْلةَ ، ثُمَّ مد يديه ، فجَعَلَ يَهْتفُ بَربِّه يقول : « اللهمَّ أنجزْ لي ما وعَدْتني ، اللهمَّ آتني مَاوَعَدْتَني ، اللهمَّ إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابةُ مِنْ أهْلِ الإسْلام ، لا تُعبدُ في الأرض » فما زَال يهتِفُ بربِّه مادًّا يَدَيه مُسْتقبلَ القبلةِ ، حَتى سَقَط رِداؤهُ عَنْ مَنْكبَيْه ، فَأتاهُ أبو بَكْرٍ ، فأخَذَ رداءَه ، فألْقَاهُ على منكبيْه ثُمَّ التَزمَهُ مِن وَرَائِه ، وقال : يانبيَّ الله كذاك مُنَاشَدَتُك ربَّك ، فإنه سَيُنْجزُ لَكَ مَا وَعَدَك ، فأنزلَ الله عزَّ وجَل : ﴿ **إذْ تَسْتغيثُون رَبَّكم فاسْتَجابَ لَكُم أني مُمِدُّكم بألفٍ مِنَ الملائكة مُرْدِفين** ﴾ [1] فأمَدَّه الله بالمَلائكَة ، قَال سِمَاكٌ : فَحَدَّثني ابنُ عبَّاس قَال : بَيْنَما رَجُلٌ مِنَ المُسْلمين يشْتَدُّ في أثْرِ رَجُلٍ مِنَ المشركين أمامَه ، إذ سَمع ضَرْبَةً بالسَّوْط فَوْقَهُ ، وَصَوْتَ الفارس يقولُ : أقْدِم حَيْزُوم فنظر إلى المشْرِك أمَامَهُ خرَّ مُسْتلقياً ، فَنَظَر إليه ،

---

٣٠٤ - البخاري (٧ / ٣١٢) ٦٤ - كتاب المغازي - ١١ - باب شهود الملائكة بدراً .

٣٠٥ - المستدرك (٣ / ٤٠٩) كتاب معرفة الصحابة ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

٣٠٦ - (٣ / ١٣٨٣) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ١٨ - باب : الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم .

هتف به : إذا ناداه وصاح به ، والمراد به : الدعاء والتضرع في السؤال .

العصابة : الجماعة من الناس .

يناشده : المناشدة : المسألة والطلب ، والابتهال إلى الله تعالى .

مُرْدِفِين : أي : متتابعين ، يتبع بعضهم بعضاً .

(١) الأنفال : ٩ .

يشتدّ : الشدُّ : العَدْوُ .

= حَيْزُوم : اسم فرس من خيل الملائكة الذين أمَدَّ الله بهم المسلمين يوم بدر .

فَإذَا هُوَ قد خُطِمَ أنْفُه وشُقَّ وجْهُه ، كَضَرْبة السَّوط ، فاخْضَرَّ ذلك أجْمَعُ ، فجاء الأنصَاريُّ ، فَحَدَّث بذلك رَسول الله ﷺ ، فقال : « صَدَقتَ ، ذلكَ مِنْ مَددِ السماء الثالثة » فقتَلُوا يَوْمئذ سبْعين ، وأَسَروا سبْعين ، قال ابنُ عَبّاسٍ : فَلَمّا أسَرُوا الأُسَارَى ، قال رسول الله ﷺ لأبي بَكرٍ وعُمرَ : « مَا ترَوْنَ في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بَكر : يانبي الله ، هم بَنو العمِّ والعَشيرة ، أرَى أن تَأخذَ منهم فِدْية ، فَتكونَ لنَا قُوّةً على الكُفار ، فعَسَى الله أنْ يهديَهم إلى الإسلام فَقَالَ رَسول الله ﷺ : « ما تَرى ياابن الخَطّاب ؟ » قُلْتُ : لا والله ، يارسولَ اللهِ ، ما أرى الذي رأى أبُو بكرٍ ، ولكنّي أرى أنْ تُمكِّنّا ، فَنَضْربَ أعنَاقَهم ، فَتُمَكِّن علياً من عَقيلٍ فَيَضْرب عُنقَه ، وتُمَكِّنِّي مِنْ فَلان - نسيباً لعُمَر - فأضربه عُنقَه ، فَإن هؤلاء أئمة الكُفر وصَنَاديدُها ، فهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بَكرٍ ولم يَهْوَ ما قلْتُ ، فلَمّا كَانَ مِنَ الغَد جئتُ ، فإذا رَسولُ الله ﷺ وأبُو بَكر قاعِدَيْن يبْكيان ، قلتُ : يا رسول الله ، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصَاحِبُك ؟ فإن وجدْتُ بكاءً بكَيْت ، وإن لم أجد بكاءً تباكَيْتُ لبكَائِكُما ، فقال رسول الله ﷺ : « أبكي للذي عَرَض عليَّ أصحابُك من أخْذِهم الفداءَ ، لقد عُرِضَ عَليَّ عذابُهم أدنَى مِنْ هذه الشَّجَرَة » لِشَجَرَةٍ قريبةٍ مِنْ نبي الله ﷺ - وأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا كَانَ لنبيٍّ أن يكون له أسْرى حتى يُثْخن في الأرض تُريدُونَ عَرَضَ الدُّنيا واللهُ يُريد الآخرة واللهُ عزيزٌ حكيم * لَولا كتابٌ مِنَ الله سَبَق لَمَسَّكُم فيما أخَذْتُم عَذاب عظيمٌ * فكلُوا مما غَنِمْتُم حَلالاً طيِّبًا ﴾ [1] . فأحلَّ الله الغنيمة لهم .

وأخرج الترمذي [2] منه إلى قوله : فأمدّه اللهُ بالملائكة .

= خُطِم أنفه : الحَطْم - بالحاء المهملة - الدّقُّ والكسر ، وبالخاء المعجمة : الأثر على الأنف ، كما يُخْطَم البعيرُ بالكيّ ، يقال : خطمتُ البعيرَ : إذا وسمْتَه بكي في الأنف إلى أحد خدّيه ، والخِطامُ : السّمةُ في عرض الوجه إلى الخدّ .

صَنَاديدها : الصناديد جمع صِنْديد ، وهو السيد الشجاع .

فَهَوِيَ : هَويتُ الشيء أهواه : إذا ملت إليه ، ورغبت فيه .

يثخن : أي حتى يُكثر فيها القتل ، ويتمكّن منها ، وتقوى شوكته .

(١) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) الترمذي (٥ / ٢٦٩) كتاب تفسير القرآن - باب : ومن سورة الأنفال . قال : حديث حسن صحيح غريب .

وأخرج أبو داود [1] منه طرفاً قال : حدثني عمرُ بنُ الخطاب قال : لمّا كانَ يومُ بدر ، فأخذ - يعني النبي ﷺ - الفِداء ، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ ما كان لنبيٍّ أن يكونَ له أسرى حتى يُثخِنَ في الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ لمسّكم فيما أخذتُم ﴾ منَ الفِداء ، ثم أحلّ لهم الغنائم .

٣٠٧ - * روى البخاري [2] عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : بينا أنا واقفٌ في الصفّ يومَ بدر ، فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثةٍ أسنانُهما ، تمنيتُ أن أكونَ بَيْنَ أضلع منهما ، فغمزني أحدُهما ، فقال : ياعمّ ، هل تعرف أبا جهل ؟ قلتُ : نعم ، ما حاجتك إليه يا ابن أخي ؟ قال : أُخبِرتُ أنه يسبُّ رسولَ الله ﷺ ، والذي نفسي بيده ، لئن رأيته لا يُفارق سوادي سوادَهُ حتى يموتَ الأعجلُ منّا ، قال : فتعجّبْت لذلك ، قالَ : فغمزني الآخر فقال لي مثلها ، فلم أنشب أنْ نظرتُ إلى أبي جهل يجولُ في الناس ، فقلت : ألا إنّ هذا صاحبكما الذي سألتماني ، فابتدراهُ بسيفيهما فضرباه حتى قتلاهُ ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبَراه ، فقال : « أيُّكما قتله ؟ » قال كلُّ واحد منهما : أنا قتلتُه ، فقال : « هلْ مسحتُما سيفيكما؟ » قالا : لا ، فنظر في السّيفين ، فقال : « كلاكُما قتله سَلبهُ لِمعاذ بن عمرو بن الجَموح»، وكانا معاذُ بن عمرو بن الجموح ومُعاذُ بنُ عفْراء .

وفي أخرى [3] قال : إني لفي الصفّ يوم بدر ، إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري

---

(١) أبو داود (٣ / ٦١) كتاب الجهاد - باب : في فداء الأسير بالمال .

٣٠٧ - البخاري (٦ / ٢٤٦) ٥٧ - كتاب فرض الخمس - ١٨ - باب : من لم يخمس الأسلاب .

ومسلم (٣ / ١٣٧٢) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ١٣ - باب : استحقاق القاتل سلب القتيل .

بين أضْلَعَ منهما أي : أقوى منهما وأشد ، والضّليعُ : القوي الشديد .

سوادي سواده : أي شخصي شخصه .

حتى يموت الأعجل منا : أي لا أفارقه حتى يموت أحدنا ، وهو الأقرب أجلاً .

لم أنشب : أي لم ألبث . أي لم يمض زمن كثير على سؤالهما إلا وأنا رأيته .

كلاكما قتله : تطييباً لقلب الآخر من حيث أن له مشاركة في قتله . وإلا فالقتل الشرعيّ الذي يتعلق به استحقاق السلب ، وهو الإثخان وإخراجه عن كونه ممتنعاً ، إنما وُجِدَ من معاذ بن عمرو بن الجموح ، فلهذا قضى له بالسلب .

(٣) البخاري (٧ / ٣٠٧) ٦٣ - كتاب المغازي - باب : ١٠ .

فَتيان حديثا السنّ ، فكأني لم آمَنْ بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سِرًّا مِنْ صَاحبه : ياعم ، أرني أبا جَهل ، فقلتُ : يا ابن أخي وماتصنعُ به ؟ قَال : عاهدت الله إن رأيتُه أن أقتله أو أمُوتَ دُونه ، فقال لي الآخر سرًّا مِنْ صَاحبه مثله ، قال : فما سَرني أني بين رجلين مكانهما ، فأشَرت لهما إليه فَشدًّا عَلَيه مثل الصَّقْرَيْنِ ، حَتى ضَرَبَاه ، وَهُما ابْنَا عفراءَ .

٣٠٨ ـ * روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ يوم بدر « مَنْ يَنظر ما صَنَع أبو جَهل » فانطلق ابن مسعود فوجَدَهُ قد ضربه ابنا عفراء ، حَتى برد فأخذ بلحْيَتِهِ ، فَقَال : أنْتَ أبو جَهْل ؟ قال : وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتلْتموهُ ؟ أوْ قَال : قَتَلَهُ قَوْمُهُ ؟ .

وفي رواية : قَالَ أبوْ جَهْلٍ : فَلَو غير أكّار قَتَلَني .

٣٠٩ ـ * روى الطبراني عن ابن مَسْعُود قال : أدْرَكْتُ أبا جَهْلٍ يَوم بَدر صريعاً ، فقلتُ : أي عَدُوَّ الله قَدْ أخْزَاك الله قَال : وبِما أخزاني مِنْ رَجُل قَتَلْتُموه . ومَعي سَيف لي فَجَعلت أضْربه ولا يَحْتَكُّ فيه شيءٌ ومَعَه سَيْفٌ له جيدٌ فضَرَبْتُ يَدَهُ فَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يده فأخَذْتهُ ، ثمَّ كَشَفْتُ المِغفر عَنْ رَأْسِهِ فضَرَبْتُ عُنقَهُ ، ثمَّ أتَيْتُ النبيَّ ﷺ فأخْبَرْتُهُ فَقَالَ : « اللهِ الذي لا إلَهَ إلا هُو » قُلْت : اللهِ الذي لا إله إلا هُوَ قَالَ : « انطلقْ فَاسْتَثْبِتْ » فانْطَلَقْتُ وَأنَا أسْعى مِثْلَ الطَّائر ثم جِئْتُ وأنا أسْعى مِثْلَ الطَّائِر أضْحَك فأخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « انْطَلِقْ » فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ ، فَأرَيْتُهُ فَلَمَّا وقَفَ عَلَيْهِ ﷺ قَالَ : « هَذَا فِرْعَونُ هَذِهِ الأمَّةِ » .

---

٣٠٨ ـ البخاري (٧ / ٢٩٣) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ ٨ ـ باب : قتل أبي جهل . وكذا في (٧ / ٣٢١) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ ١١ ـ باب : شهود الملائكة بدراً .

ومسلم (٣ / ١٤٢٤) ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ـ ٤١ ـ باب : قتل أبي جهل .

أكّار : الأكّار : الفَلاح ، وأراد بقوله ذلك استصغاراً واستعظاماً ، كيف مثلُه يقتل مِثْلَه .

حتى برد : أي صار في حالة من مات ولم يبق منه إلا حركة المذبوح .

٣٠٩ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٧٩) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن وهب بن أبي كريمة ، وهو ثقة .

المغفر : زَرَدٌ ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

٣١٠ ـ * روى الطبراني عن حَكيمِ بن حِزامٍ قالَ : سَمِعْنا صَوتًا وقعَ من السماء إلى الأرضِ كأنه صوتُ حَصاةٍ في طَسْتٍ ورَمَى رسولُ اللهِ ﷺ بتلكَ الحصاةِ فانهزَمْنا .

٣١١ ـ * روى البزارُ عن ابنِ عباسٍ ، قال : أَخَذَتْهم ريحٌ عقيمٌ يومَ بدرٍ .

٣١٢ ـ * روى الطبراني عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال لعلي : « ناولْني كفًّا من حَصَى » فناوَلَه ، فرمَى به وجوهَ القوْمِ فما بَقِيَ أحدٌ من القومِ إلا امتلأتْ عيناه من الحصْباء ، فنزلت : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى ... ﴾ [1] .

أقول : وهكذا اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن مع التوفيق الربّاني في تهيئة جميع أسباب النصر متعاونة متكافئة مع التأييدات الربّانيّة الخارقة والغيبيّة ، ففي عالم الأسباب تشكّل دراسة الأرض والطقس ووجود القيادة والثقة بها والروح المعنويّة لَبِناتٍ أساسية في صحّة القرار العسكري ، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين وكان الطقس مناسباً للمعركة ، والقيادة الراقية موجودة والثقة بها عالية والروح المعنوية سابقة ، وبعض من هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه وبعضها كان من فعل رسول الله ﷺ أخذاً بالأسباب المطلوبة فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله وزيد على ذلك التأييدات الغيبيّة والخارقة فكان ما كان ، وذلك نموذج على ما يعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيّات عند الجند والقادة ووجدت الاستقامة على أمر الله ، وأخذ المسلمون بالأسباب .

* * *

---

٣١٠ ـ أورده الهيثمي في المجمع (٦ / ٨٤) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن .

٣١١ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٧٧) وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .

الريح العقيم : هي التي لا تُلْقِح .

٣١٢ ـ المعجم الكبير (١١ / ٢٨٥) وأورده الهيثمي في المجمع (٦ / ٨٤) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

(١) الأنفال : ١٧ .

٣١٣ - * روى البخاري عن أنس بن مالك رَضي الله عنه أن أُمَّ الرُّبَيِّع بنت البَراء - وهي أم حارثةَ بن سُرَاقة - أتت النبي ﷺ ، فقالت : يانبي الله ألا تحدِّثني عَنَ حَارِثة - وكان قُتِلَ يوم بدر ، أصابه سهمٌ غَرْب - فإن كان في الجنة صَبَرْتُ ، وَإن كان غيرَ ذلك اجتَهدْتُ عَلَيه في البكاء ؟ قال : « ياأمَّ حارثةَ ، إنها جِنَانٌ في الجنةِ ، وإن ابنَكِ أصابَ الفِرْدَوسَ الأعْلَى » .

وفي رواية [1] : قال أنس : أُصيبَ حارثةُ يومَ بدرٍ وهو غلامٌ ، فَجاءتْ أُمه إلى النبيِّ ﷺ ، فَقَالتَ : يارسولَ الله ، قد عَرَفْتَ منزلةَ حارثة منيِّ ، فإن يكُ في الجنة أصبرْ وأَحتَسب ، وإن تكنِ الأخرى ترى ما أصنعُ ، فقال : « وَيْحَكِ - أو هَبِلْتِ - أوَ جَنَّةٌ واحدةٌ هِي ؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ ، وإنه في جنة الفِرْدَوْسِ » .

وزاد رَزِين : « وإنه في الِفرْدوس الأعلَى. وسَقْفُه عَرشُ الرحمن ، ومنه تَفَجَّر أنهارُ الجنةِ ، وإنّ غدْوةً في سبيلِ الله أو رَوْحةً خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، ولَقَابُ قوْس أحدِكم - أو موضعُ قِدِّه - من الأرض في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولو أنَّ امرأةً من نساء أهلِ الجنةِ اطَّلَعَتْ إلى الأرضِ لأضاءتْ الدنيا وما فيها ، ولَنَصيفُها - يعني خِمارَها - خيرٌ من الدنيا وما فيها » .

٣١٤ - * روى الحاكم عن عبد الله بن عباس ، ذكر حديثَ المبارَزةِ وأن عُتْبةَ بن ربيعة قتل عُبَيْدةَ بن الحارث مبارزةً ضربَه عُتْبةُ على ساقِهِ فقطعها فحمله رسول الله صلى الله عليه وآله وَسَلم فمات بالصَّفراء مُنصرفِهِ من بدرٍ فَدَفَنه هنالك .

---

٣١٣ - البخاري (٦ / ٢٦) ٥٦ - كتاب الجهاد - ١٤ - باب : من أتاه سهم غرب فقتله .

سهم غربٍ : يقال : أصابه سهم غرب ، يضاف ولا يضاف ، وتحرك الراء وتسكن إذا لم يدر من أين أتاه .

وَلقَابُ قوسِ أحدكم - أو مَوْضِع قِدِّه : القاب : القَدْر ، والقدُّ : السوْط ، يَعني لَقَدْرُ قَوْسِه مِنَ الجنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدنْيا وَمَا فيها .

(١) البخاري (١١ / ٤١٥) ٨١ - كتاب الرقاق - ٥١ - باب : صفة الجنة والنار

٣١٤ - المستدرك (٣ / ١٨٨) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

الصفراء : واد قرب المدينة كثير النخل والزرع والخير يجلب منه التمر إلى المدينة .

٣١٥ ـ * روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : كاتَبْتُ أميةَ بنَ خَلفٍ كتاباً : بأن يَحْفَظَني في صَاغِيَتي بمكّة ، وأحفَظَهُ في صَاغيَتِه بالمدينةِ ، فلما ذكرتُ (الرحمنَ) قال : لا أعرف الرحمنَ ، كَاتِبْني بِاسْمك الذي كانَ لكَ في الجاهليّة ، فكَاتَبْتُه (عبدَ عَمْرو) فلمَّا كَانَ يَوم بَدْر خَرَجْتُ إلى جَبَلٍ لأُحْرِزَه حين نام الناس فأبْصَرَهُ بلالٌ ، فخرَجَ حَتى وَقفَ عَلى مجلسٍ مِن الأنصارِ ، فقَال : أُميَّةَ بن خَلفٍ ، لا نَجوْتُ إن نجا أميةُ ، فخرج مَعَه فريقٌ مِنَ الأنصار في آثارنا ، فَلَما خَشِيتُ أن يَلْحقَونا خَلَّفتُ لهم ابنه ، لأشْغَلَهُم به ، فقَتَلُوه ، ثم أبوا حَتَى يَتْبَعُونَا ، وكَانَ رَجلاً ثقيلاً . فلما أدْرَكُونا قلْتُ له : ابْرُك ، فَبَرك ، فألْقَيْتُ عَلَيه نفسي لأمنعه ، فتجلَّلُوه بالسُّيوف من تحتي حتى قتلوه ، وأصاب أحَدُهم رجلي بسَيفه ، وكان عبدُ الرحمن يُرينا ذلك الأثر في ظَهْر قَدمِهِ .

وفي رواية : فَلَما كان يَومُ بَدر ، حَصَل لي درعان ، فلقيني أميَّة فقال : خُذني وابني ، فأنا خَيْرٌ لك من الدِّرعَيْن ، أفْتدي مِنْك ، فَرَآه بلالٌ ، فقال : أميةُ رأسُ الكفر ، لا نجوتُ إن نجا أمية ، فقتلَهُما ، فكان ابنُ عَوْفٍ يقول : يَرْحَمُ الله بلالاً ، فلا دِرْعيٌ ولا أسيرَيٌ .

قال في الفتح : قوله : (بأن يحفظني في صاغيتي) الصاغية بصاد مهملة وغين معجمة خاصة الرجل ، مأخوذ من صغى إليه إذا مال . قال الأصمعي : صاغية الرجل كل من يميل إليه ، ويطلق على الأهل والمال . وقال ابن التين : رواه الداودي ظاعنتي بالظاء المشالة المعجمة والعين المهملة بعدها نون ، ثم فسره بأنه الشيء الذي يسفر إليه قال ولم أر هذا لغيره . قوله : (لا أعرف الرحمن) أي لا أعترف بتوحيده ، وزاد ابن إسحق في حديثه أن أمية بن خلف كان يسميه عبد الإله . قوله : (حين نام الناس) أي رقدوا ، وأراد بذلك اغتنام غفلتهم ليصون دمه . قوله (فقال : أمية بن خلف) بالنصب على الإغراء ، أي عليكم أمية ، وفي رواية أبي ذر بالرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر أي هذا أمية . قوله : (خلفت لهم

---

٣١٥ ـ البخاري (٤ / ٤٨٠) ٤٠ ـ كتاب الوكالة ـ ٢ باب . إذا وكل المسلم حربياً في دار الحرب أو في دار الإسلام .

لأُحْرِزه : أي : لأحوطه وأحفظه من القتل ، ومنه الحرزُ ، وهو الموضع الذي يحفظ فيه الشيء .

فتجلّلوه : تخلّلوه بالسيوف . أي : قتلوه بها طعناً ، جعل السيوف في هذه الحالة كالأخلّة ، حيث لم يقدروا أن يضربوه بها .

ابنه) هو علي بن أمية ، ووجه أخذ الترجمة من هذا الحديث أن عبد الرحمن بن عوف وهو مسلم في دار الإسلام فوض إلى أمية بن خلف وهو كافر في دار الحرب ما يتعلق بأموره ، والظاهر اطلاع النبي ﷺ عليه ولم ينكره ، قال ابن المنذر : توكيل المسلم حربياً مستأمناً وتوكيل الحربي المستأمن مسلماً لا خلاف في جوازه . قوله (وكان رجلاً ثقيلاً) أي ضخم الجثة .

٣١٦ - * روى الطبراني عن شَقِيق أنَّ ابنَ مَسْعود حَدَّثَهُ : أنَّ الثانية عَشر الذين قُتلوا مِنْ أَصْحاب رَسُول الله ﷺ يَوم بَدر جَعَل الله أَرْوَاحَهمْ في الجَنَّة في طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ في الجَنة ، فبينما هم كَذَلك إذ اطَّلَعَ عَلَيْهم رَبُّك اطِّلاعةً ، فَقَال : ياعبادي مَاذَا تَشْتَهون ؟ فَقَالُوا : ياربَّنا هَل فَوْقَ هَذَا شيءٌ قال : فيقول عِبادي مَاذا تَشْتَهون ؟ فَيَقُولُون فِي الرَّابعَة تَرُدُّ أرواحَنا في أجْسَادِنَا فَنُقْتَلُ كما قُتِلْنَا .

أقول : المشهور أنَّ الذين استشهدوا من المسلمين يوم بدر أربعة عشر فلعل ذكر الثانية عشر ههنا وهم ، وقد ذكر أسماء الشهداء ابن كثير في البداية والنهاية فقال :

وكان الذين استشهدوا من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً : من المهاجرين ستة وهم : عُبيدة بن الحارثِ بن المطلب قطعت رجله فمات بالصفراء رحمه الله ، وعُمير بن أبي وقَّاص أخو سعد بن أبي وقاص الزُّهْري قتله العاص بن سعيد وهو ابن ست عشرة سنة ويقال إنه كان قد أمره رسول الله ﷺ بالرجوع لصغره فبكى فأذن له في الذهاب فقتل رضي الله عنه ، وحليفهم ذو الشمالين بن عبد عمرو الخُزاعي ، وصَفْوان بن بيضاء ، وعاقلُ بن البُكَير الليثي حليف بني عدي، ومهجَع مولى عمر بن الخطاب وكان أول قتيل قُتِلَ من المسلمين يومئذ، ومن الأنصار ثمانية وهم : حارثة بن سراقة رماه حِبّان بن العَرِقة بسهم فأصاب حَنْجرته فمات ، ومُعوِّذ وعوف ابنا عفراء ، ويزيد بن الحارث - ويقال ابن قُسْحُم - وَعُمير بن الحمام ، ورافع بن المُعلَّى وسعد بن خيثمة ، ومبشر بن عبد المنذر رضي الله عن جميعهم .

٣١٧ - * روى الترمذي عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما قال : لما فرغ رَسُول الله

---

٣١٦ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٩٠) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

٣١٧ - الترمذي (٥ / ٢٦٩) كتاب التفسير - باب : ومن سورة الأنفال . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

=

ﷺ منْ بَدرٍ قيل له : عليْك العيرَ ، ليس دُونها شيءٌ ، قال : فَنَاداه العباس وهو في وثاقهِ : لا يصلُحُ ، وقال لأن الله وَعَدَكَ إحدى الطائفتين ، وقد أعطاكَ ما وعدكَ .

قال صاحب الفتح الرباني : العير بكَسر العين الإبل بأحمالها يعني عير أبي سفيان التي كان رسول الله ﷺ خرج بالمسلمين من المدينة يريدها فبلغ ذلك أهل مكة فأسرعوا إليها وسبقت العير المسلمين ، فلما فاتهم العدو نزل النبي ﷺ بالمسلمين بدراً فوقع القتال ، وهذه العير يقال كانت ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار وكان فيها ثلاثون رجلاً من قريش وقيل أربعون وقيل ستون ، (ليس دونها شيء) أي ليس دون العير شيء يزاحمك ، (فناداه العباس) يعني ابن عبد المطلب وكان إذ ذاك أسيرًا (في وثاقه) بكسر الواو وفتحها ما يشد به من قيد وحبل ونحوهما (لا يصلح لك) أي لا ينبغي لك . المراد بالطائفتين العير والنفير فكان في العير أبو سفيان ومن معه كعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وما معه من الأموال ، وكان في النفير أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهم من روساء قريش ، زاد الترمذي قال : أي النبي ﷺ (صدقت) أي فيما قلت . اهـ .

٣١٨ ـ * روى البخاري عن أنس بن مَالك رَضي الله عنه عن أبي طلحة قَال : إنّ نَبي الله ﷺ ، أمرَ يوم بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رَجُلاً مِنْ صَنَاديدِ قُرَيْشٍ ، فقذفوا في طَويٍّ من أطْوَاء بَدْرٍ خَبيثٍ مُخْبِثٍ ، وكان إذا ظَهرَ عَلَى قوْمٍ أقام بالعَرْصَة ثلاثَ ليالٍ ، فلما كان ببدْرٍ اليومَ الثالث : أمر براحِلَتِه فَشُدَّ عليها رحْلها ، ثم مشى ، واتَّبعه أصحابه ، وقالوا : مَانرى يَنْطِقُ إلا لبعض حاجتِهِ حتى قام على شفة الرَّكِيِّ فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسْماء آبائهم : « يافلانُ بنَ فلانٍ ، ويافلانُ بنَ فلانٍ ، أيَسُرُّكم أنكم أطَعْتُم اللهَ ورسولَه ؟ فإنا قد وَجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدَ ربُّكم حقاً ؟ » فقال عمر : يارسول الله ما تُكلِّمُ مِنْ أجْسَادٍ لا أرواح لها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نَفسُ محمدٍ

= وأحمد في مسنده (١ / ٢٢٩) .

٣١٨ ـ البخاري (٧ / ٣٠٠) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ ٨ ـ باب : قتل أبي جهل . ومسلم (٤ / ٢٢٠٤) ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ ١٧ ـ باب : عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه .

عرصة الدار : ساحتها .

الرحل : رحل البعير : ما يوضع على ظهره للركوب فكل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع وغيره .

بيـدِهِ ، مـا أنتم بـأسْمَعَ لمـا أقـولُ منهمْ » قـال قتـادة : أحْيَـاهُم الله حتى أسْمَعهم قَـولَـهُ ، تؤْبيخاً ، وتصْغيراً ، ونِقْمةً ، وَحَسْرةً ، وَنَدَماً .

قـال صـاحب فتح البـاري : وسيـأتي من حـديث البَرَاء أن قتلى بـدر من الكفـار كانـوا سبعين ، وكأن الذين طرحوا في القليب كانوا الرؤساء منهم ثم من قريش ، وخصوا بالمخاطبة المذكورة لما كان تقدم منهم من المعاندة ، وطرح باقي القتلى في أمكنة أخرى . وأفاد الواقدي أن القليب المـذكور كان حفره رجـل من بني النـار فنـاسب أن يلقى فيـه هـؤلاء الكفـار . قوله : (على شفة الركي) أي طرف البئر ، وفي روايـة الكشميهني (على شفير الركي) والركي بفتح الراء وكسر الكاف وتشـديـد آخره : البئر قبل أن تطوى . والإطـواء جمـع طـوى وهي البئر التي طـويت وبنيت بـالحجـارة لتثبت ولا تنهـار ، ويجمـع بين الروايتين بـأنهـا كانت مطوية فاستهدمت فصارت كالركي . قوله : (فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يـافلان بن فلان) في رواية حميد عن أنس (فنادى يا عتبة بن ربيعة ، ويـاأمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام) أخرجه ابن إسحق وأحمد وغيرهما ، وكذا وقع عنـد أحمـد ومسلم من طريق ثابت عن أنس ، فسمى الأربعـة ، لكن قـدم وأخر ، وسيـاقـه أتم . قـال في أولـه : (تركهم ثلاثة أيام حتى جيفوا) فذكره ، وفيـه من الزيـادة : فسمع عمر صوتـه فقـال : يـارسول الله أتناديهم بعد ثلاث ، وهل يسمعون ؟ ا هـ

٣١٩ ـ * روى الطبراني عن عبـد الله بن مسعود قَـال : وقف رسـول الله ﷺ على أهـل القَليب فقال : « ياأهل القَليبِ هل وجـدتم مَـاوَعَـدَ رَبُّكَم حقـاً فـإنِّي وَجَـدْتُ مَـا وَعَدَني رَبِّي حَقاً » قالوا : يارسُولَ الله هل يَسْمَعُونَ ما تقول ؟ قال : « مَا أنتم بأَسْمَعَ لمـا أقول مِنْهم وَلَكنَّهم اليوْم لا يُجيبُونَ » .

٣٢٠ ـ * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ترك قَتلَى بـدرٍ ثلاثاً ، ثم أتاهُم ، فقـام عليهم ، فنـاداهم فَقَـال : « يـاأبـا جهل بنَ هشـام ، يـاأميَّـةُ بنَ

---

٣١٩ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٩١) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

٣٢٠ ـ مسلم (٤ / ٢٢٠٣) ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ ١٧ ـ باب : عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه . =

خَلفٍ ، يا عُتبةُ بنُ ربيعةَ ، يا شَيبة بنُ ربيعةَ ، أليس قد وَجَدتم ما وعَدَ ربُّكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً » فسمع عمر قول النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله ، كيفَ يسمعوا ؟ وأنّى يُجيبوا وقد جَيَّفُوا ؟ قال : « والذي نَفْسي بيدهِ ، مَا أنتمْ بأَسْمَعَ لما أقولُ منهم ، ولكنهم لايَقْدِرونَ أن يُجيبُوا » ، ثم أمِرَ بهم فسُحبوا ، فألقوا في قَليبِ بدرٍ .

قال النووي : (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم) : قال المازري : قال بعض الناس : الميت يسمع عملاً بظاهر الحديث ثم أنكره المازري وادعى أن هذا خاص في هؤلاء وردّ عليه القاضي عياض وقال : يحمل سماعهم على ما يحمل عليه سماع الموتى في أحاديث عذاب القبر وفتنته التي لا مدفع لها وذلك بإحيائهم أو إحياء جزء منهم يعقلون به ويسمعون في الوقت الذي يريد الله . ا هـ .

هذا كلام القاضي وهو الظاهر المختار الذي تقتضيه أحاديث السلام على القبور والله أعلم . ولأنّ عائشة رضي الله عنها كان لها تحفّظ على بعض هذه الروايات فقد قال ابن حجر في الفتح :

ومن الغريب أنّ في المغازي لابن إسحٰق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد عن عائشة مثل حديث أبي طلحة وفيه « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » وأخرجه أحمد بإسناد حسن ، فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة لكونها لم تشهد القصة ، قال الإسماعيلي : كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم مالا مزيد عليه ، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته ، فكيف والجمع بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن .

٣٢١ ـ * روى الحاكم عن أمامة بن سهل قال : لما فَرَغ رسول الله صلى الله عليه وآله

جَيَّفُوا : جاف القتيلُ وجَيَّف : إذا أنتن .

القَليبُ : البئر يذكر ويؤنث .

٣٢١ ـ المستدرك (٣ / ٢١٨) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي . =

وسلم من بدرٍ بعث بشيرَيْنِ إلى أهلِ المدينة ، بعَثَ زيد بنَ حارثةَ إلى أهل السَّافلة وبعث عبد الله بنَ رَوَاحة إلى أهل العَالية يُبشِّرُونَهم بفتح الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فوافق زيد بن حارثة ابنه أسامة حين سوى التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآلهِ وسلم ، فقيل له : ذَاك أبوك حين قدم قال أسامة : فجئت وهو واقف للناس يقول : قُتِل عُتْبَة بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة وأبو جهلٍ بنُ هشام ونُبَيهُ ومُنَبه وأميَّةُ بن خَلَفٍ فقلت : يا أبَتِ أحقٌ هذا قال : نعمْ ، واللهِ يا بُنَيَّ .

٣ ـ الأنفال

٣٢٢ ـ * روى أحمدُ عن عبادةَ بنِ الصامِتِ قال : خَرَجنَا مع النبي ﷺ فشهد مَعَهُ بَدْرًا فَالْتقى النَّاسُ فَهَزمَ الله تبارك وتعالى العدوَّ فانْطَلَقت طَائفةٌ في آثارِهم يَهْزِمُون ويَقْتُلُون ، فأكَبَّت طَائفة عَلَى العَسْكر يَحوونَهُ ويَجمعُونَهُ أحْدَقَتْ طَائفة برسُول الله ﷺ لا يُصيبُ العدوُ منه غُرَّةً حتى إذا كان الليلُ و فَاءَ الناسُ بعضُهُم إلى بعْضٍ قَال الذين جَمَعوا الغنائم نحن جَوَيْناها وجمعْناها فَلَيْس لأحَدٍ فيها نصيبٌ ، وقال الذين خَرجوا في طلب العدوّ لستم بأحَقَّ بها منّا نحن نَفَيْنا عنها العدوَّ ، وَهزمناهم ، وقال الذين أحْدقوا برسُول الله ﷺ لستم بأحقَّ بها مِنّا ، نحن أحْدَقْنا برسول الله ﷺ وخِفْنا أنْ يصيبَ العدوُ منه غرَّةً واشتغَلْنا به فنزلت : ﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسُول فاتقوا الله وأصْلِحُوا ذَات بَينكُم ﴾ [١] فقسمها رسولُ الله ﷺ على فواق بَيْنَ المسْلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدُوونفلَ الربعَ ، وإذا أقْبَل رَاجعاً وَكَلَّ الناسِ نَفَل الثُلُثَ ، وَكَان يَكْره الأنفال ويقول : « ليَرُدَّ قويُّ المؤمنينَ على ضَعيفِهم » .

العالية : اسم لما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمائرها .

سوّى : سوى الشيء : قوّمه وعدّله وجعله سوياً .

٣٢٢ ـ أحمد في مسنده (٥ / ٣٢٤) .

غِرّة : غفلة في اليقظة ـ جمع غِرَر .

فاء : رجع .

النفل : الغنيمة .

(١) الأنفال : ١ .

روى الترمذي وابن ماجه منه : كانَ يَنَفِّل في البَدْأةِ الرُّبُعَ وفي القُفُولِ الثلث فقط . وفي رواية عندهُ سألت عبادةَ بنَ الصامتِ رحمه الله عن الأنْفَالِ فقال : فينا معْشَرَ أصْحابِ بدرٍ نَزَلت حين اخْتَلَفْنَا في النَّفْل وساءت فيه أخْلاقُنا ، فانْتَزَعَهُ الله مِنْ أيْدينا وجَعَلَه إلى رَسُول الله ﷺ فقَسَّمهُ رسول الله ﷺ بيْن المسلمين عن بَوَاءٍ يَقُولُ على السَّواء .

أقول : (في البَدْأة الرُّبع) : أراد بالبدأة ابتداء الغزو ، وبالرجعة القفول منه . قال في النهاية باختصار : (أي إذا نهضت سرية من جملة العسكر المقبل على العدو فأوقعت بهم نفلها الرُّبع ، وإذا فعلت ذلك عند عود العسكر نفلها الثلث لأن الكرة الثانية أشق ولأنهم في الأول أنشط وأشهى وهي عند القفول أضعف وأفتر .

٣٢٣ ـ * روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كَان يَومُ بدرٍ ، جِئْتُ بسَيْفٍ، فقلت : يارسُولَ الله ، إن الله قد شَفَى صَدري من المشركينَ ـ أو نحو هذا ـ هَبْ لي هذا السَّيف ، فقال : « هذا لَيْسَ لي ولا لك » ، فقلتُ : عَسى أن يُعطى هذا من لا يُبْلِي بلائي ، فجاءني الرسولُ فقال : « إنك سألْتني وليست لي وقد صارت لي ، وهو لك » قال : فنزلت ﴿ **يسألونك عن الأنفال ..** ﴾ الآية .

٣٢٤ ـ * روى الترمذي عن عُبادَة بْنِ الصَّامت : أنَّ النَّبي ﷺ كان يُنَفِّل في البَدْأةِ الرُّبُعَ وفي القُفُول الثُّلُثَ .

٣٢٥ ـ * روى الترمذي عن ابن عَبّاسٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبي ﷺ تَنَفَّلَ سَيْفَهُ ذَا الفَقَارِ

---

٣٢٣ : الترمذي (٥ / ٢٦٨) كتاب تفسير القرآن ـ باب : ومن سورة الأنفال . وقال : حديث حسن صحيح .

وأبو داود (٣ / ٧٧) كتاب الجهاد ـ باب : في النفل .

يُبْلي بَلائي : أبْلَيْتَ بَلاءً حسناً ، أي : صَنعْتَ ، والأصل فيه : الابتلاء والاختبار ، أي : فَعَلْتَ فِعْلاً اختُبِرتَ فيه ، وظهر به خيري وشرّي .

٣٢٤ ـ الترمذي (٤ / ١٣٠) كتاب السير ـ باب : في النفل .

وقال : وفي الباب عن ابن عباس وحبيب بن مسلمة ومعن بن يزيد وابن عمر وسلمة بن الأكوع . وحديث عبادة حديث حسن .

٣٢٥ ـ الترمذي (٤ / ١٣٠) كتاب السير ـ باب : في النفل . وقال : هذا حديث حسن غريب .

تنفل : تنفّل الشيء : إذا أخذه زيادة عن السهم .

ذا الفَقَار : اسم سيف النبي ﷺ ، سمي بذلك لأنه كان فيه حُفَر صغار حسان ، فيقال للحفرة : فُقْرة .

=

يومَ بَدْرٍ وَهُوَ الَّذي رَأى فِيه الرُّؤيَا يوم أُحُدٍ .

قال الترمذي : وَقَد اخْتَلَفَ أَهلُ العِلم في النَّفَل مِنَ الخُمُسِ . فَقَالَ مَالِكُ بن أنسٍ : لَمْ يَبْلُغني أنَّ رَسُول الله ﷺ نفَّل في مَغَازيه كُلِّهَا .

وَقَدْ بَلَغني أَنَّهُ نَفَّل في بَعْضِها وَإِنما ذلِكَ عَلى وَجْهِ الاجتهادِ مِنَ الإمامِ في أوَّل المَغْنَم وَآخرِه ، قَالَ ابْنُ مَنْصُورٍ : قُلتُ لِأَحْمَدَ : إنَّ النَّبي ﷺ نَفَّل إذا فَصَل بالربُع بَعْدَ الخُمُسِ وإذَا قفلَ بالثُّلث بَعْدَ الْخُمُسِ ؟ فَقَالَ : يُخْرِجُ الخُمسَ ثُم يَنْفل مِمَّا بَقيَ وَلاَ يُجاوزُ هَذَا .

قَالَ أَبُو عيسى : وَهَذَا الحديثُ عَلَى مَا قَالَ المُسَيَّبُ النَّفَلُ مِنَ الخُمسِ ، قَال إسحٰقُ كما قَالَ .

٣٢٦ ـ * روى أبو داود عن جَابر بن عَبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : كُنتُ أَميحُ أَصْحَابي المَاء يَومَ بدْرٍ .

وفي نسخة : أَمنَحُ أَصْحَابي الماءَ يوم بدْرٍ .

قَالَ أبو دَاود : مَعْنَاه : أنهُ لم يُسْهِمْ له .

٣٢٧ ـ * روى الترمذي عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أن رَسول الله ﷺ قال : « لم تَحلَّ الغنائمُ لأحَدِ سُودِ الرؤوسِ من قَبلكُم كَانَتْ تَنزلُ نار مِنَ السَّماء فتأكُلُها » قَال سليمان الأعمش : فَمَن يقول هذا إلا أبو هُرَيرة الآن ؟ فَلَما كَانَ يَوْمُ بَدرٍ ، وَقَعوا في الغَنَائم قبل أن تحِلَّ لَهُم ، فأنزَل الله تعالى : ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُم فيما أَخذْتُمْ

= الرؤيا : التي رآها النبي ﷺ يوم أحُد : هي أنه رأى كأن في سيفه فُلولاً ، فأوَّلها : هزيمةً ، وكانت يوم أُحد .

٣٢٦ ـ أبو داود (٣ / ٧٥) ، كتاب الجهاد ، باب : في المرأة والعبد يُحذيان من الغنيمة ، وإسناده قوي .

أمْنَح ، أميح : المانح : المُعطي ، والمائحُ : الذي ينزل إلى أسفل البئر فيملأ الدلو ، ويدفعها إلى الماتح ، وهو الذي يستقي الدلو .

٣٢٧ ـ الترمذي (٥ / ٢٧١) ، ٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن ، ٩ ـ باب : « ومن سورة الأنفال » وقال : حديث حسن صحيح غريب .

لأحد سود الرءوس : للناس . فمن يقول هذا إلا أبو هريرة الآن : أي لا يروي هذا عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة .

عذابٌ عظيمٌ ﴾ (١) .

أقول : ورد في الحديث : وأحلت لي الغنائم . وكانت الغنائم لا تحل لبني إسرائيل وإحلالها للأمة الإسلامية من التيسير في دين الإسلام ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ (٢) .

٣٢٨ - * روى الطبراني عن الأرقم بن أبي الأرقم قالَ : قالَ رسول الله ﷺ يَوْمَ بدرٍ : «رُدُّوا مَا كَانَ مَعَكُم مِنَ الأَنْفَال» فرفع أبُو أسَيد السّاعدي سَيْفَ بني العَابد المرزُبَان فعرفَهُ الأرْقَم ، فقال : هَبْهُ لي يارسول الله فأعْطَاهُ إيَّاه .

٣٢٩ - * روى أبو داود عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رَسُول الله ﷺ يوم بدر : « من فَعَلَ كذا وكذا ، فله من النَّفَل كذا وكذا » قال : فتَقَدَّمَ الفِتْيَانُ ، وَلَزِمَ المشيخةُ الراياتِ ، فلم يَبْرَحوها ، فلما فتح الله عليهم ، قال المشيخَةُ ، كُنا رِدْءاً لَكم ، لو انْهَزَمْتُم لفِئْتُم إلينا ، فلا تذهبوا بالمغنم ونَبْقى ، فأبى الفِتْيان ، وقالوا : جَعَلَه رسول الله ﷺ لنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْألونَك عَنِ الأنفَالِ قُلِ الأنفال لله والرسولِ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كُنْتم مُؤْمِنين * إنما المؤمنونَ الذين إذا ذُكِر الله وَجِلَتْ قلوبهم وإذا تُليتْ عليهم آياته زادَتْهُم إيماناً وعلى ربهم يَتَوكَّلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رَزَقْناهُم يُنْفِقُون * أولئك هُمُ المؤمنون حقًّا لهم درجاتٌ عندَ

(١) الأنفال : ٦٨ .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

٣٢٨ - المعجم الكبير (١ / ٣٠٧) مختصراً .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٩٢) ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير باختصار ، ورجاله ثقات .

بنو عابد : من بني مخزوم ، والأرقم : من بني مخزوم ، والمرزبان : اسم السيف فقد طلب الأرقم رضي الله عنه سيف أسرته المشهور .

٣٢٩ - أبو داود (٣ / ٧٧) ، كتاب الجهاد ، باب في النفل .

النَّفَل : بفتح الفاء : الغنيمة ، وأصله الزيادة ، وهو أيضاً : ما يُعطاه الإنسان زيادة على سهمه من الغنيمة ، وتروى بسكون الفاء .

رِدْءاً لكم : الرِّدء : المساعد والمعين .

فِئتم : فاء ، يفيء : إذا رجع ، يعني : إن خفتم أمراً رجعتم إلينا .

ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم * كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحقِّ وإن فريقًا من المؤمنين لكَارِهُون ﴾ [١] يقول : فكان ذَلك خيْرًا لهم ، فَكَذلك أيضًا فأَطيعُوني ، فإني أَعْلم بَعاقبة هَذَا مِنْكم .

وفي رواية يقول : فَكَما كَان خُروجُه خَيراً لكم ، فَكَذلك فأطيعوا الله ربّكم ، فإنه أعلم بعاقبة أُمورِكم ومصالحها ، فاصْطَلَحوا ، ورَضِيَ كل بِقِسْمِ اللهِ فيهم .

في رواية بإسناده [٢] ومعناه ، قال : فَقَسَمها رَسولُ الله ﷺ بالسَّواء .

٣٣٠ - * روى البخاري عن الزبير بن العوّامِ رَضِي الله عنه قال : ضُرِبَتْ يَومَ بدرٍ للمهاجرين بمائة سَهْمٍ .

قال البخاري : فَجَميع مَنْ شَهِدَ بَدْراً مِنْ قريشٍ ممن ضُرِبَ له بسَهْمه : أَحَدٌ وثمانون رجُلاً ، وَكَان عُرْوَة بنُ الزبير يقول: قال الزبير : قُسِمت سَهمَانُهم ، فَكَانُوا مائةً . وَالله أعلم.

قال الحافظ في الفتح : قوله (ضربت يوم بدر المهاجرين بمائة سهم) عند ابن عائذ من طريق أبي الأسود عن عروة (سألت الزبير على كم سهم جاء للمهاجرين يوم بدر ؟ قال : على مائة سهم) قال الداودي هذا يغاير قوله (كانوا إحدى وثمانين) قال : فإن كان قوله بمائة سهم من كلام الزبير فلعله دخله شك في العدد ، ويحتمل أن يكون من قول الراوي عنه ، قال : وإنما كانوا على التحرير أربعة وثمانين ، وكان معهم ثلاثة أفراس فأسهم لها سهمين سهمين ، وضرب لرجال كان أرسلهم في بعض أمره بسهامهم فصح أنها كانت مائة بهذا الاعتبار . قلت : هذا الذي قاله أخيراً لا بأس به ، لكن ظهر أن إطلاق المائة إنما هو باعتبار الخمس ، وذلك أنه عزل خمس الغنيمة ثم قسم ما عداه على الغانمين على ثمانين سهماً عدد من شهدها ومن ألحق بهم ، فإذا أضيف إليه الخمس كان ذلك من حساب مائة سهم ، والله أعلم .

---

(١) الأنفال : ١ - ٥ .

(٢) أبو داود (٣ / ٧٧) كتاب الجهاد ، باب : في النفل .

٣٣٠ - البخاري (٧ / ٣٢٤) ، ٦٤ - كتاب المغازي . ١٢ - باب : حدثني خليفة .

فوائد :

١ ـ قال ابن كثير في البداية والنهاية : قال ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية يقال له سَيَر إلى سرحة به فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين فقال لهم سَلَمة بن سلاَمة بن وَقْشٍ كما حدثني عاصم بن عمر ويزيد بن رومان ما الذي تهنؤننا به . والله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبُدن المعقلة فنحرناها ، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : (أي ابن أخي أولئك الملأ) قال ابن هشام: يعني الأشراف والرؤساء .

٢ ـ المسلم يقاتل لله وفي الله ، والغنيمة لا تشكل بالنسبة له هدفاً يؤثر على نيّة القتال في سبيل الله ، ولكنّها في الوقت نفسه تعتبر حافزاً للنفس البشريّة ، وقد أراح الله عز وجل هذه النفس فأعطاها من الغنائم حتّى لا تفكر أصلاً .

وقد نزلت سورة الأنفال تحدد استحقاق المقاتلين بأنه أربعة أخماس الغنيمة بعد أن يأخذ أهل البلاء ما وعدوه من الإمام وبعد أن يأخذ الإمام الخمس ليضعه في المصارف التي حدّدها الله عز وجل .

٣ ـ وأعطى الإسلام للإمام أو الأمير أن يَعِد أهلَ البلاء بأن لهم كذا وكذا ، وقد يعطي مجموعة حصّة من الغنيمة قبل التخميس ، وذلك كذلك يشكّل حافزاً ولا ينبغي أن يؤثر على أصل النيّة .

٤ ـ بالنسبة لغنائم بدر فقد أعطى الرسول ﷺ ما وعد به أهل البلاء من نَفَل ، ثّم من خمس الغنيمة ، ووزع أربعة أخماسها على المقاتلين أو من هم في حكمهم ورضخ لغير المقاتلين ، وأعطى بعض المقاتلين من الخمس لأنه عليه الصلاة والسلام كان له خمس الخمس .

٥ ـ من هذه المعاني ندرك أنّه ينبغي للأمير أن ينفل المقاتلين فيقول : من قتل قتيلاً فله سلبه ، أي ما يحمله أثناء القتل ، أو يقول : له سلبه وله ربع ما يملك أو ثلث ما يملك فكل ذلك من السنّة ، وما زاد على ذلك يخمس فتأخذ المجموعة المقاتلة أربعة أخماسه ،

والخمس يصرفه الإمام في مصارفه .

وفقه هذا الأمر من أهم أنواع الفقه لمن يمارس شؤون القتال .

* * *

٤ ـ فضل أهل بدر

٣٣١ ـ * روى البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن لاَيدْخُلَ النَّار مَنْ شَهد بدراً إن شاء الله » .

٣٣٢ ـ * روى الطبراني عن أبي هريرة أن رجلاً من الأنصار عَمِيَ فبعث إلى رسول الله ﷺ اخطط لي في داري مَسْجداً لأصليَ فيه فجاء رسول الله ﷺ وقد اجتمع إليه قومه فتغيَّبَ رجل فقال رسول الله ﷺ : « ما فعلَ فلانٌ ؟ » فذكره بعضُ القوم فقال رسول الله ﷺ : « أليس قد شَهِدَ بدرًا » قالوا : نعم وَلَكنه كَذا وَكَذَا فقال رسول الله ﷺ : « فلعل اللهَ اطَّلَع إلى أهل بَدْرٍ فقال اعْمَلوا ما شئتم فَقَدْ غَفرتُ لكم » .

٣٣٣ ـ * روى البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي ـ وكان من أهل بدر ـ رضي الله عنهُ قَال : جَاء جبْريل عليه السلام إلى النبي ﷺ ، فقال : مَا تَعدُّون أهل بَدرٍ فيكُم ؟ قَال : « من أفضَل المُسلمين » أو كَلِمةً نحوها ـ قَال : وكَذَلك من شَهِدَ بَدْرًا من الملائكة .

وفي حديث حَماد بن زيد : وكَان رِفاعةُ مِنْ أهل بدْرٍ ، وكان رَافع من أهل العقبة فكان يقول لابنه : ما يَسرُّني أني شهدتُ بدْرًا بالعقبة ، قال : سأل جبريل النبيَّ ﷺ يعني فقال : ما تعدُّون أهل بدْرٍ فيكم ؟ ... وذكر باقي الحديث نحوه .

---

٣٣١ ـ البزار (٣ / ٢٨٨) ، كتاب علامات النبوة ، باب : مناقب أهل بدر والحديبية .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ١٦١) ، وقال : رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح .

٣٣٢ ـ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٠٦) ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده جيد .

فذكره بعض القوم : أي بسوء .

الرجل الأعمى : هو عتبان بن مالك الأنصاري .

٣٣٣ ـ البخاري (٧ / ٣١٢) ، ٦٤ ـ كتاب المغازي . ١١ ـ باب : شهود الملائكة بدراً .

في رواية [١] : أن مَلَكاً سأل النبي ﷺ .

٣٣٤ ـ * روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رَسُول الله ﷺ : « اطَّلع الله على أهل بَدْرٍ ، فقال : اعْمَلوا مَاشِئْتُم ، فَقَدْ غَفَرتُ لكم » .

٣٣٥ ـ * روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن عَبْداً لحاطبٍ جَاء إلى رَسول الله ﷺ يشكو حَاطباً فقال : يارسول الله لَيَدْخُلَنَّ حَاطبٌ النار ، فقال رَسُول الله ﷺ : « كَذبتَ لا يدْخُلُها ، فإنه شَهِدَ بَدْراً والحُدَيْبية » .

قال النووي في شرحه على مسلم : وفيه فضيلة أهل بدر والحديبية وفضيلة حاطب لكونه منهم وفيه أن لفظة الكذب هي الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه عمدًا كان أو سهواً سواء كان الإخبار عن ماض أو مستقبل وخصّته المعتزلة بالعمد وهذا يردّ عليهم .

وقال بعض أهل اللغة لا يستعمل الكذب إلاّ في الإخبار عن الماضي بخلاف ما هو مستقبل وهذا الحديث يرد عليهم .

٣٣٦ ـ * روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ لايَسْتَوي القَاعدُون مِنَ المُؤمِنين ﴾ [٢] عَنْ بَدْرٍ والخَارجُون إلى بدر .

٣٣٧ ـ * روى الترمذي : لَما نَزَلَتْ غزوَةُ بدْرٍ ، قال عَبد الله بنُ جَحْشٍ ، وابنُ أُمِّ مَكْتُوم : إنا أعْمَيان يارسول الله ، فهل لنا رخصةٌ ؟ فنزلتْ : ﴿ لا يَستوي القاعدونَ مِنَ المؤمنين غيرُ أولي الضَّرَرِ ﴾ و﴿ فَضَّل اللهُ المُجاهدين على القَاعِدِين دَرَجَةً ﴾ فَهَؤلاء القاعدون

(١) البخاري (٧ ـ ٣١٢) ٦٤ ـ كتاب المغازي ـ ١١ ـ باب : شهود الملائكة بدراً .

٣٣٤ ـ أبو داود (٤ / ٢١٣) ، كتاب السنة ، باب : في الخلفاء ، وإسناده صحيح .

٣٣٥ ـ مسلم (٤ / ١٩٤٢) ، ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، ٣٦ ـ باب : من فضائل أهل بدر ، رضي الله عنهم ، وقصة حاطب بن أبي بلتعة .

٣٣٦ ـ البخاري (٨ / ٢٦٠) ، ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٨ ـ باب : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله.

(٢) النساء : ٩٥ .

٣٣٧ ـ الترمذي مطولاً (٥ / ٢٤١) ، ٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن ، ٥ ـ باب : « ومن سورة النساء » ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

غَيْر أولي الضَّرر ، ﴿ وفضل اللهُ المجاهِدِينَ عَلَى القاعدين أجرًا عظيمًا * دَرَجات مِنْـهُ ﴾ عَلى القاعدين مِنَ المؤمنين غَير أولي الضَّرَر .

قال صاحب الفتح : وأما أولو الضرر فملحقون في الفضل بأهل الجهاد إذا صدَقَت نياتهم كما تقدم في المغازي من حديث أنس (إن بالمدينة لأقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم حبسهم العذر) . ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة ﴾ أي من أولي الضرر وغيرهم .

من غاب عن بدر وكان كأهلها :

٣٣٨ - * روى البخاري عن ابنِ عمرَ رضيَ الله عنهما قال : إنما تغيَّبَ عثمانُ عن بدرٍ فإنه كان تحته بنتُ رسولِ الله ﷺ وكانت مريضةً ، فقال له النبي ﷺ « إن لَكَ أجرَ رجلٍ ممن شَهِدَ بدرًا وسهمَه » .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : وفي الذين عدهم ابن إسحاق في أهل بدر من ضرب له بسهم في مغنمها وأنه لم يحضرها تخلف عنها لعذر أذن له في التخلف بسببها وكانوا ثمانية أو تسعة وهم ، عثمان بن عفان تخلف على رقية بنت رسول الله ﷺ يمرضها حتى ماتت فضرب له بسهمه وأجره ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كان بالشام فضرب له بسهمه وأجره ، وطلحة بن عبيد الله كان بالشام أيضاً فضرب له بسهمه وأجره ، وأبو لبابة بشير بن عبد المنذر رده رسول الله ﷺ من الروحاء حين بلغه خروج النفير من مكة فاستعمله على المدينة وضرب له بسهمه وأجره ، والحارث بن حاطب بن عبيد بن أمية رده رسول الله ﷺ أيضاً من الطريق وضرب له بسهمه وأجره ، والحارث بن الصمة كسر بالروحاء فرجع فضرب له بسهمه ، زاد الواقدي : وأجره ، وخَوّات بن جُبَير لم يحضر الوقعة وضرب له بسهمه وأجره ، وأبو الصياح بن ثابت خرج مع رسول الله ﷺ فأصاب ساقه فَصِيل

---

٣٣٨ - البخاري (٦ / ٢٣٥) ، ٥٧ - كتاب فرض الخمس . ١٤ - باب : إذا بعث الإمام رسولاً في حاجة ، أو أمره بالمقام ، هل يسهم له ؟ . =

حَجَر[1] فرجع وضرب له بسهمه وأجره .

* * *

٥ ـ الأسارى

٣٣٩ ـ * روى الطبراني عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، قال : فادى رسول الله ﷺ أسَارَي بدْرٍ وَكَان فِدَاءُ كُلِّ رجلٍ منهم أربعةَ آلافٍ ، وقُتِلَ عُقبةُ بنُ أبي مُعيطٍ قَبْلَ الفداء ، قَامَ إليه عَليُّ بنُ أبي طَالب فقَتَله صَبْرًا فقال مَنْ لِلصِّبْيَةِ يامحمد ؟ قال : « النارُ » .

٣٤٠ ـ * روى الحاكم عن ابن عَبّاس رَضي الله عَنْهُما أن النبي ﷺ جعَل فَداءَ أهلِ الجاهليةِ يَوْمَ بدْرٍ أرْبعَ مِائة .

قال ابن كثير : وهَذَا كَانَ أقَل مَا فُودِيَ بِه أحدٌ مِنَ المَال ، وأكثر مَا فُودِيَ به الرَّجُل مِنْهم أربعة آلافِ دِرْهَم .

٣٤١ ـ * روى أحمد عن ابْنِ عَباس قال : كَانَ نَاسٌ مِنَ الأسْرى يَوم بَدرٍ لم يكُنْ لَهم فِداءٌ فجعل رَسُول الله ﷺ فِدَاءهم أنْ يُعلِّموا أولاد الأنْصَار الكتابة ، قال فَجَاءَ يوْمًا غلام يَبْكي إلى أبيه فَقَال : مَا شَأْنك ؟ قال : ضربَني مُعَلِّمي قال : الخبيثُ يَطْلُب بذحل بدْرٍ والله لا تأتيهِ أبدًا .

٣٤٢ ـ * روى الترمذي عن علي بن أبي طالب رَضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قَال : « إنْ جِبْرِيلَ عليهِ السلامُ هَبَطَ عليه ، فَقَال له : خَيِّرْهُم ـ يعني أصْحابَك ـ في

---

(١) فصيل حجر : قطعة من حجر .

٣٣٩ ـ المعجم الكبير (١١ / ٤٠٦) .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٨٩) ، وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله رجال الصحيح .

٣٤٠ ـ المستدرك (٢ / ١٢٥) ، كتاب الجهاد ، وقال : هذا حديث صحيح على شرطها ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

٣٤١ ـ أحمد في مسنده (١ / ٢٤٧) . وهو على شرط السنن .

الذحل : الحقد والثأر ، جمعها أذحال وذحول .

٣٤٢ ـ الترمذي (٤ / ١٣٥) ، ٢٢ ـ كتاب السير . ١٨ ـ باب ماجاء في قتل الأسارى والفداء ، وإسناده صحيح . =

أسارى بَدْرٍ : القتلُ ، أو الفِدَاءُ ، على أن يُقتَلَ مِنهم قابلَ مثلُهُم » قالوا : الفداء ، ويُقتل منّا .

٣٤٣ - * روى البخاري عن أنس بن مالك رضيَ اللهُ عَنْهُ : أنَّ رِجَالاً مِن الأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ الله ﷺ ، فَقَالوا : ائْذَنْ لَنا فَلْنَتْرُكْ لابْنِ أُختِنا عبّاسٍ فَداءَهُ فقال : « لا تَدَعُونَ مِنها دِرْهَماً » .

٣٤٤ - * روى الطبراني عن أبي عَزِير بن عُمَيْر أخي مُصْعب بن عمير قال : كُنْتُ في الأسْرَى يَوْمَ بَدرٍ فقال رسُول الله ﷺ : « اسْتَوصُوا بالأَسَارى خَيْراً » وكُنتُ في نَفَرٍ مِنَ الأنصار فكانوا إذا قدموا غَداءهم وعَشَاءَهم أكَلُوا التَّمر وأَطْعَمُوني البُرّ لِوَصِيَّة رَسُول الله ﷺ .

٣٤٥ - * روى البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر : « لو كان المطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حيّا ، ثم كلّمني في هؤلاء النَّتْنَى ، لتركتُهم له » وفي بعض الروايات : « لما له من يَدٍ » .

قال في الفتح : المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي ، وقد ذكر ابن إسحٰق القصة في ذلك مبسوطة ، وكذلك أوردها الفاكهي بإسناد حسن مرسل وفيه (أن المطعم أمر أربعة من أولاده فلبسوا السلاح ، وقام كل واحد منهم عند ركن من الكعبة ، فبلغ ذلك قريشاً فقالوا له : أنت الرجل الذي لا تخفر ذمتك) وقيل المراد باليد المذكورة أنه كان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي

= من قابل : في العام التالي .

٣٤٣- البخاري (٦ / ١٦٧) ، ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٧٢ - باب : فداء المشركين .

٣٤٤ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٨٦) ، وقال : رواه الطبراني في الصغير والكبير ، وإسناده حسن .

البُر : القمح ، أي : الخبز ، وقد كان الخبز خيراً من التمر عند العرب .

٣٤٥- البخاري (٦ / ٢٤٣) ، ٥٧ - كتاب فرض الخمس - ١٦ - باب : ما منّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس .

النَّتْنَى : أراد بهم الأسرى ، وجعلهم نَتْنى لأنهم كفار مشركون ، والمشركون نجس ، فاستعار لهم النتن مجازاً .

وإطلاقهم له ليد كانت للمطعم .

كتبتها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصروهم في الشعب ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في أوائل السيرة ، وروى الطبراني من طريق محمد بن صالح التار عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه قال : (قال المطعم بن عدي لقريش : إنكم قد فعلتم بمحمد ما فعلتم ، فكونوا أكفَّ الناس عنه) وذلك بعد الهجرة ثم مات المطعم بن عدي قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة وذكر الفاكهي بإسناد مرسل أن حسان بن ثابت رثاه لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ . وروى الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن علي قال : (جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال : خير أصحابك في الأسرى ، إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم عاماً مقبلاً مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منا) . وأخرج مسلم هذه القصة مطولة من حديث عمر ذكر فيها السبب ، هو أنه ﷺ قال : « ما ترون في هؤلاء الأسرى ؟ » فقال أبو بكر : أرى أن نأخذ منهم قوة تكون لنا ، وعسى الله أن يهديهم . فقال عمر : أرى أن تمكنا منهم فتضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر) الحديث ، وفيه نزول قوله تعالى ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ .

وقد اختلف السلف في أي الرأيين كان أصوب ؟ فقال بعضهم : كان رأي أبي بكر لأنه وافق ما قدر الله في نفس الأمر ولما استقر الأمر عليه ، ولدخول كثير منهم في الإسلام إما بنفسه وإما بذريته التي ولدت له بعد الوقعة ، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب كما ثبت ذلك عن الله في حق من كتب له الرحمة ، وأما العتاب على الأخذ ففيه إشارة إلى ذم من آثر شيئاً من الدنيا على الآخرة ولو قل ، والله أعلم .

٣٤٦ - * روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما كان يومُ بدْرٍ - وجيء بالأسارى - قال رسُولُ الله ﷺ : « مَا تَقُولون في هؤلاء الأُسَارى ؟ » فَذَكر في الحديث قصة - فقال رَسُول الله ﷺ : « لا يَنْفلِتَنَّ منهم أحدٌ إلا بِفداءٍ ، أو ضَرْبِ عُنُق » قَال عَبْدُ الله بن مسعود فقلت : يارسولَ الله ، إلا سُهَيْلَ بنَ بَيْضَاء فإني قد سمعته

٣٤٦- الترمذي (٥ / ٢٧١) ، ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٩ - باب : « ومن سورة الأنفال » ، وقال : هذا حديث حسن . وقد حسّنه مع انقطاعه لكثرة شواهده .

يذكر الإسلام ، قال : فَسَكت رَسُول الله ﷺ قـال : فمـا رأيتني في يوم أخْوَف أن تقع عَلَيَّ حِجَارةٌ من السماء مِنِّي في ذلـك اليوم ، قـال : حتى قـال رسول الله ﷺ : « إلا سُهَيْلَ بنَ بَيْضَاءَ » قـال : وَنَزل القرآن بقول عمر : ﴿ مـا كان لِنبيٍّ أنْ يكون لـه أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض ... ﴾ (١) إلى آخر الآيات .

٣٤٧ - * روى مسلم عن عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه قـال : لمـا كان يـومُ بـدرٍ نظرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى المشْرِكِينَ وَهُمْ أَلفٌ ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُمِائَـةٍ وَتِسْعَـةَ عَشَرَ رَجُلاً . فَـاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ القبلةَ . ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ « اللهُمَّ ! أَنْجِزْ لِي مَـا وَعَـدْتَنِي . اللهُمَّ ! آتِ مَا وَعَدْتَنِي . اللَّهُمَّ ! إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإسْلامِ لاَتُعْبَـدْ فِي الأَرْضِ » فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ ، مَـاداً يَـدَيْـهِ ، مُسْتَقبلَ القِبْلَـةِ ، حَتَّى سقـط رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ . فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ . فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ الْتَزَمَـهُ مِنْ وَرَائِـهِ . وَقَـالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ! كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ ، فَـإِنـهُ سَيُنْجِزُ لَـكَ مَـا وَعَـدَكَ . فَـأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلفٍ مِنَ الْمَلائِكَـةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٢) فَـأَمَـدَّهُ اللهُ بِالْمَلائِكَةِ .

قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ : فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَـامَـهُ ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَـةً بِـالسَّوْطِ فَوْقَـهُ ، وَصَوْتَ الفَـارِسِ يَقُولُ : أَقْـدِمْ حَيْزُومُ ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ ، وَشُقَّ

= يذكر الإسلام : أسلم سهيل بمكة وكتم إسلامه فأخرجته قريش إلى بدر فأسر وشهد له ابن مسعود أنه رآه يصلي بمكة ، كذا في الإصابة .

يثخن : يبالغ في القتل .

(١) الأنفال : ٩ .

٣٤٧- مسلم (٣ / ١٣٨٣) - ٣٢ - كتاب الجهاد والسير . ١٨ - باب : الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم .

العصابة : الجماعة .

مناشدتك : طلبك من ربك

ممدكم : مرسل إليكم .

مردفين : متتابعين بعضهم في إثر بعض .

(٢) الأنفال : ٦٧ - ٧١ .

=

وَجْهَهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجمَعَ ، فجاءَ الأَنْصاريُّ فحدَّث بذلكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « صَدَقْتَ . ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ » فقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سبعين ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ .

قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ : « مَا تَرَوْن فِي هَؤُلاَءِ الأَسَارَىٰ ؟ » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا نَبِيَّ اللهِ ! هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرةِ . أَرَىٰ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً . فَتكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلام . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا تَرَىٰ ؟ يَاابْنَ الْخَطَّابِ ! » قُلْتُ : لاَ . واللهِ ! يَارَسُولَ اللهِ ! مَا أَرَىٰ الذي رأى أَبُو بَكْرٍ ، ولكِنِّي أَرَىٰ أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ . فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيضْرب عُنُقَهُ . وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ (نَسِيباً لِعُمَرَ) فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَإِنَّ هؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا ، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ . وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ . قُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ! أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ . فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ . وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ . لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَىٰ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ » (شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ) وَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً ﴾ [1] فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ .

٣٤٨ ـ * روى الحاكم عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لما كان يومُ بدرٍ قال لهم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم : « ما تقولونَ في هؤلاء الأُسارَى ؟ » فقالَ عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحةَ : ايتِ في وادٍ كثيرِ الحطب فَأَضْرِمْ ناراً ثم أَلقِهِم فيها ، فقال العباس رضي الله عنه :

= لولا كتاب من الله سبق لمسكم : لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ ـ لمسكم : لنالكم وأصابكم .

فيما أخذتم : من الفداء .

يثخن : الإثخان في الشيء : المبالغة فيه والإكثار ، يقال : أثخنه المرض : إذا أثقله وأوهنه ، والمراد به هاهنا : المبالغة في قتل الكفار ، والإكثار من ذلك .

(١) الأنفال : ٦٧ ـ ٦٩ .

٣٤٨ـ المستدرك (٣ / ٢١) ، كتاب المغازي ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

قطعَ الله رَحِمَك، فقال عُمَرُ رضي الله عنه : قادتُهم ورؤساؤهم قَاتلوك وكذَّبوك فاضرب أعناقهم بعد ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : عشيرتُك وقومُك ، ثم دخل رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لبعض حَاجته فقالت طائفة : القولُ ما قال عمرُ ، فخرج رسول اللهِ صلى الله عليه وآلِه وَسَلَّم فقال : « ما تَقولُون فيْ هَؤلاء ؟ إن مَثَلَ هؤلاء كمثلِ إخوةٍ لهم كانوا مِن قبلهم قال نُوح : ﴿ رب لا تَذَر على الأرض مِن الكافِرين دَيَّاراً ﴾ [1] وقال موسى : ﴿ ربنا اطمِس على أموالهم واشْدد على قلوبهم ﴾ [2] الآية قال إبراهيم : ﴿ فَمَن تبعَني فإنّه مِني وَمن عَصَانِي فإنكَ غَفُور رحيم ﴾ [3] وقال عيسى : ﴿ إن تعذّبهم فإنّهم عبادُك وَإنْ تغفِرْ لهم فإنّك أنْتَ العَزيزُ الحكيم ﴾ [4] وأنتم قومٌ فيكم غيْلةٌ فلا ينقَلِبن واحدٌ منهم إلا بفداءٍ أو بضربِ عُنُقٍ » قال عبد الله : فقلت إلا سُهيلَ بنَ بيضاءَ فإنَّه لا يُقْتَل وقد سمِعْته يتكلم بالإسلام . فسكت ، فما كان يومٌ أخوفَ عندي أن يلقى عليَّ حجارةٌ منَ السماء من يومي ذَلك حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إلا سهيلَ بنَ بيضاءَ » .

قال الرازي : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ معنى الآية ظاهر وفيه سؤال وهو إنه كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول وإن تغفر لهم والله لا يغفر الشرك ، والجواب عنه من وجوه (الأول) أنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ علم أن قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافراً بل يكون مذنباً حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز فلهذا المعنى طلب المغفرة من الله تعالى (والثاني) أنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار ؛ لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله ، وترك التعرض والاعتراض بالكلية ولذلك ختم الكلام بقوله فإنك أنت العزيز

---

(١) نوح : ٢٦ .

(٢) يونس : ٨٨ .

(٣) إبراهيم : ٣٦ .

(٤) المائدة : ١١٨ .

الحكيم يعني أنت قادر على ما تريد حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك ، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية وقوله : إن الله لا يغفر الشرك فنقول : إن غفرانه جائز عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا : لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب وليس في إسقاطه على الله مضرة فوجب أن يكون حسناً بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرع عيسى عليه السلام (الوجه الثالث في الجواب) أن القوم لما قالوا هذا الكفر فعيسى عليه السلام جوز أن يكون بعضهم قد تاب عنه فقال إن تعذبهم علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك، وأنت قد حكمت على كل من كفر من عبادك بالعقوبة وإن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة (الوجه الرابع) إنا ذكرنا أن من الناس من قال إن قول الله تعالى لعيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة وعلى هذا القول فالجواب سهل لأن قوله إن تعذبهم فإنهم عبادك يعني إن توفيتهم على هذا الكفر وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذاك ، وإن أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضاً ذاك وعلى هذا التقدير فلا إشكال .

٣٤٩ - * روى الطبراني عن عبد اللهِ بن الزبير قال : كانت قريش ناحت قتلاها ثم نَدِمَتْ وقَالوا : لا تَنُوحُوا عليهم فيبلغَ ذلك محمدًا وأصحابَه فيشْمَتُوا بكم . وكان في الأسرىَ أبو وَدَاعَةَ بنُ ضُبَيْرَةَ السَّهْمي ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : « إنّ له بمكةَ ابناً تاجراً كيّساً ذَا مَالٍ كَأَنكم قَد جاءكم في فِداء أبيه » فَلَمّا قَالَت قُريشٌ في الفداء مَا قَالَت قال المطَّلب : صَدَقْتم والله لَئن صَدَقْتم ليثاربن عَليكم ، ثم انسَلَّ مِنَ الليل فَقَدِمَ المدينة ففدَى أباه بأربعةِ آلاف درهمٍ .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : وأولُ مَنْ أسِرُوا عُقبةُ بنُ أبي معيطٍ والنَّضرُ بن الحارث قُتلا صبراً بينَ يدَي رسول الله ﷺ من بين الأسَارَى ، وَقَدِ اختُلِفَ في أيّهما قُتِل

---

٣٤٩ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٩٠) ، وقال : رواه الطبراني ، ورجاله ثقات .

ما قالت : قالت قريش : لاتستعجلوا بفداء أسراكم . يثاربن : ثرّب فلاناً وعليه : لامه وعيّره بذنبه .

أوّلاً على قولَيْنِ وأنّه عليه السلام أطلقَ جَمَاعَةً مِنَ الأسَارى مَجّاناً بلاَ فِداءٍ ، منهُم : أبو العَاصِ بنُ الربيعِ الأمَويّ ، والمطَّلِب بن حَنْطَبِ بن الحَارث المَخزومي ، وصيْفِي بن أبي رفاعة ، وأبو عَزَّةَ الشاعرُ ، ووَهبُ بن عُمَير بن وهب الجُمحي ، وفادَى بقيتَهم حتى عمَّه العباس أخذ منه أكثرَ مما أخذ من سائرِ الأسْرى لِئَلاّ يحابيهُ لكَوْنِهِ عمَّه ، مع أنَّه قَدْ سَأله الذينَ أسَرُوهُ مِنَ الأنْصار أنْ يتْركُوا لَهُ فِداءَه فَأبى عَلَيهم ذلِك ، قال لاَ تَتْركوا مِنْهُ دِرْهَمًا ، وقَد كَانَ فِدَاؤُهُم مُتَفَاوِتًا فأقَلُّ مَا أخِذَ أرْبعمائةٍ ، ومِنْهم مَنْ أُخِذَ مِنْهُ أرْبعُون أوقيَّةً مِنْ ذَهب . قَالَ موسى ابن عُقبة وأُخِذ مِنَ العَبّاسِ مائَة أوقيَّة مِنْ ذَهبَ ، ومنهم مَنِ اسْتُؤجِر عَلَى عَمَل بمقدار فدائه .

* * *

٦ - آيات بدريّة

٣٥٠ - * روى الحاكم عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال : كان المسلمون يُحبُّون أن تظهرَ الرُّوم على فارسٍ لأنَّهم أهلُ الكِتابِ ، وكانَ المشركونَ يحبُّون أنْ تَظهَر فارس على الروم لأنهم أهلُ أوثانٍ ، فذكر ذَلك المسلمونَ لأبي بكر رضي الله عنه ، فذكر ذلك أبو بكرٍ للنبي صلى الله عليه وآلهِ وسلم : فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أما أنهم سيُهْزَمُونَ » فذكَر أبو بكر لهم ذلك ، فقالوا : اجْعَل بيننا وبينك أجلاً فإنْ ظَهرُوا كان لك كذا وكذا وإنْ ظهرنا كان لنا كذا وكذا فجعل بينَهم أجلَ خمسِ سنينٍ فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم فقال : « ألا جعلتَه (أرَاهُ قَالَ) دونَ ، العشرة » ، قال : فظهرتِ الرُّوم بعد ذلِك فذلِك قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * غُلبَتِ الرُّومُ * في أدْنى الأرضِ وهُمْ مِنْ بَعدِ غَلَبِهِم سَيغْلِبُون ﴾ قال : فَغُلِبتِ الروم ثم غَلَبت بَعد ﴿ لله الأمر من قبلُ ومِنْ بعدُ ويومئذٍ يَفرح المؤمِنونَ بنصر اللهِ ﴾ [1] قال سفيانُ : وسمعْتُ أنهم ظَهَروا يوم بدْرٍ .

٣٥١ - * وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول اللهِ عَز وجل ﴿ ويقولون

٣٥٠- المستدرك (٢ / ٤١٠) ، كتاب التفسير ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

(١) الروم : ١ .

٣٥١ - المستدرك (٢ / ٤١٤) ، كتاب التفسير ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

متى هذا الفتح إن كنتم صادقين * قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفرُوا إيمانهم ولا هم يُنْظرُون ﴾ [١] قال : يومَ بدرٍ فُتِحَ للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فلمْ يَنفعِ الذينَ كفروا إيمانُهم بَعدَ الموْتِ .

٣٥٢ ـ * روى الحاكم عن ابن عباس رَضي الله عنهما في قوله عزَّ وجل : **﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفُرقان ﴾** [٢] يعني بالفرْقَان يَوْم بُدرٍ يومَ فرَّق الله بين الحق والباطل .

٣٥٣ ـ * وروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : **﴿ ولَنذيقَنّهم مِنَ العذاب الأدْنى دونَ العذاب الأكبر ﴾** [٣] قال : يوم بدر .

٣٥٤ ـ * وروى الحاكم عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه في هذه الآية : **﴿ ومَنْ يُولّهِم يومئذٍ دُبُرَهُ ﴾** [٤] قال : نَزَلَتْ فينا يومَ بدْرٍ .

٣٥٥ ـ * روى البخاري عن سَعيد بن جبَيْر رحمه الله قالَ : قُلتُ لابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما سُورةُ الأنفال ؟ قَالَ : نَزلتْ في بَدْرٍ .

قال صاحب الرحيق المختوم : حول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهي ـ إن صح هذا التعبير ـ على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعاليق التي ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح .

---

(١) السجده : ٢٨ ، ٢٩ .

٣٥٢ ـ المستدرك (٢ / ٢٣) ، كتاب المغازي ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

(٢) الأنفال : ٤١ .

٣٥٣ ـ المستدرك (٢ / ٤١٤) ، كتاب التفسير ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

(٣) السجدة . .

٣٥٤ ـ المستدرك (٢ / ٣٢٧) كتاب التفسير ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

(٤) الأنفال : ١٦ .

٣٥٥ـ البخاري (٨ / ٣٠٦) ٦٥ ـ كتاب التفسير ـ ١ ـ باب : قوله : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » ، من سورة الأنفال .

ومسلم نحوه مطولاً (٤ / ٢٣٢٢) ٥٤ ـ كتاب التفسير ٥ ـ : باب : في سورة براءة والأنفال والحشر .

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين - أولاً - إلى التقصيرات والتفريطات الأخلاقية التي كانت قد بقيت فيهم ، وصدر بعضها منهم ، ليسعوا في تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التفريطات .

ثم ثنى بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين . ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم ، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلهم على الصفات والأخلاق التي تسببت في الفتوح في المعارك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة ، ووعظهم موعظة بليغة ، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيد به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقنن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة .

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة ، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية ، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل ، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية ، بل إنه يثقف أهله عملياً على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها .

ثم قرر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها ، والذين يسكنون خارجها .

* * *

٧ - من فقه غزوة بدر

قال الدكتور البوطي :

١ - إن عامة ممتلكات الحربيين تعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة ، فلهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما امتدت إليه أيديهم منها ، وما وقع تحت يدهم من ذلك اعتبر

ملكاً لهم . وهو حكم متفق عليه عند عامة الفقهاء ، على أن للمهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم في مكة عذراً آخر في القصد إلى أخذ عير قريش والاستيلاء عليها ، وهو محاولة التعويض ـ أو شيء من التعويض ـ عن ممتلكاتهم التي بقيت في مكة واستولى عليها المشركون من ورائهم .

إنه بالرغم من مشروعية هذا القصد ، فإن الله تعالى أراد لعباده المؤمنين قصداً أرفع من ذلك وأليق بوظيفتهم التي خلقوا من أجلها ، ألا وهي الدعوة إلى دين الله والجهاد في سبيل ذلك ، والتضحية بالروح والمال في سبيل إعلاء كلمة الله ، ومن هنا كان النصر العظيم حليف أبي سفيان في النجاة بتجارته ، بمقدار ما كانت الهزيمة العظيمة حليف قريش في ميدان الجهاد بينهم وبين المسلمين ، وإن هذه التربية الإلهية لنفوس المسلمين لتتجلى بأبرز صورها في قوله تعالى :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ [1] .

٢ ـ وعندما نتأمل كيف يجلس رسول الله ﷺ إلى أصحابه ليشاورهم في الأمر الذي فوجئوا به بعد أن أفلت منهم العير وطلع عليهم النفير العظيم المدجج بالسلاح الكامل ، نقف على دلالتين شرعيتين لكل منهما أهمية بالغة :

الدلالة الأولى : التزامه ﷺ مبدأ التشاور مع أصحابه ، وإذا استعرضنا حياته ﷺ ، وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ في كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى ، مما له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية ، ومن أجل هذا أجمع المسلمون على أن الشورى في كل ما لم يثبت نص مُلزِم فيه من كتاب أو سنة ، أساس تشريعي دائم لا يجوز إهماله . أما ما ثبت فيه نص من الكتاب أو حديث من السنة أبرم به الرسول ﷺ حكمه ، فلا شأن للشورى فيه ولا ينبغي أن يقضي عليه بأيّ سلطان .

الدلالة الثانية : خضوع حالات الغزو أو المعاهدات أو الصلح بين المسلمين وغيرهم لما

---

(١) الأنفال : ٧ .

يسمى بالسياسة الشرعية أو ما يسميه بعضهم بـ (حكم الإمامة) . وبيان ذلك أن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل ، حكم تبليغي لا يخضع لأي نسخ أو تبديل ، كما أن أصل مشروعية الصلح والمعاهدات ثابت لا يجوز إبطاله أو اجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية ، غير أن جزئيات الصور التطبيقية المختلفة لذلك ، تخضع لظروف الزمان والمكان وحالة المسلمين وحالة أعدائهم ، والميزان المحكم في ذلك إنما هو بصيرة الإمام المتدين العادل وسياسة الحاكم المتبحر في أحكام الدين مع إخلاص في الدين وتجرد في القصد ، إلى جانب اعتماد دائم على مشاورة المسلمين والاستفادة من خبراتهم وآرائهم المختلفة .

فإذا رأى الحاكم أنّ من الخير للمسلمين أن لا يجابهوا أعداءهم بالحرب والقوة ، وتثبّت من صلاحية رأيه بالتشاور والمذاكرة في ذلك ، فله أن يجنح إلى سلم معهم لا يصادم نصاً من النصوص الشرعية الثابتة ، ريثما يأتي الظرف المناسب والملائم للقتال والجهاد ، وله أن يحمل رعيته على القتال والدفع إذا ما رأى المصلحة والسياسة الشرعية السليمة في ذلك الجانب .

وهذا ما اتفق عليه عامة الفقهاء ودلت عليه مشاهد كثيرة من سيرته ﷺ اللهم إلا إذا داهم العدو المسلمين في عقر دورهم وبلادهم ، فإن عليهم دفعه بالقوة مهما كانت الوسيلة والظروف ، ويعم الواجب في ذلك المسلمين والمسلمات كافة بشرط توفر مقومات التكليف اهـ.

* * *

٨ - في أعقاب بدر

٣٥٦ - * روى الحاكم عن أبي رَافِع مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عَلَيه وآلِهِ وسلم قال : كُنْتُ غُلاماً للعباسِ بن عبدِ المطلبِ ، وكنْتُ قدْ أسْلَمْتُ وأسْلَمَتْ أمّ الفضْلِ وأسْلَم العَباسُ وَكَان يكْتُم إسْلامَه مخافَةَ قَوْمِهِ ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ بدرٍ وَبَعَثَ مَكَانَهُ العَاصَ بنَ هِشَامٍ وَكَانَ لهُ عَلَيْه دَيْن فقال له : اكْفِنِي هَذَا الغَزْوَ وأتركُ لَكَ مَا عَلَيْكَ ، فَفَعَل فَلَمَّا جَاءَ الخبرُ

٣٥٦ - المستدرك (٣ / ٣٢١) ، كتاب معرفة الصحابة . وسكت عنه الذهبي . وفي أحد رواته خلاف فالرواية حسنة على رأي بعضهم .

اكفني : كفاه الشيء كفاية : استغنى به عن غيره فهو كاف ، وكفيء .

=

وكبَتَ الله أبا لهبٍ وَكُنْتُ رَجُلاً ضَعيفاً أنحَتُ هذهِ الأَقْـداحَ في حُجرة فو اللهِ إنّي لجَـالِسٌ في الحُجْرةِ أنْحَتُ أقْدَاحِي وَعِنْدِي أمُّ الفضْلِ إذ أقبل الفَاسِقُ أبو لَهبٍ يَجُرُّ رجْلَيْه أرَاه قال عنـد طُنُبِ الحُجْرةِ وكَانَ ظهرُهُ إلى ظهري فَقَـال النّـاسُ : هَـذا أبو سفيـانَ بنُ الحـارثِ فَقَـالَ أبو لَهَبٍ: هلُمَّ إليّ ياابن أخي فجاء أبو سفيانَ حتّى جَلَس عنْدهُ فَجَاء الناسُ فَقَاموا عَليهما فَقَـال: ياابنَ أخي كَيْف كَان أمرُ الناسِ فقال لا شيء فوالله إن لَقِينَاهُم فَمَنَحْنـاهُم أكتـافَنـا يقتُلونَنـا كيف شاءُوا وَيأسِرُوننا كيفَ شَاءُوا وَأيْم اللهِ ما لُمتُ الناس قـال: ولم ؟ قـال : رأيتُ رجـالاً بيضـاً على خيل بُلقٍ لا والله مـا تَليـق شيئـاً ولا يقـوم لهـا شيء قـال فرفعت طُنب الحجرة فقلتُ : والله تِلكَ الملائكةُ ، فرفع أبو لهبٍ يده فضرب وجهي وثـاوَرْتُـه فـاحتملَني فضربَ بِيَ الأرضَ حتّى بَرَكَ على صَدْرِي فَقَـامَتْ أم الفَضْلِ فـاحْتَجَزت وَرفَعَت عموداً من عمـدُ الحجرة فضربته به فلَعَت في رأسه شجةً مُنكرة وقالَتْ : يا عدُوّ اللهِ استَضْعَفتَهُ إنْ رَأيْت سيدهُ غَائباً عنهُ فَقَامَ ذليلاً فَوالله مَا عاش إلا سبع ليال حتى ضربه اللهُ بالعدسَة فَقَتلته فلقد تركـه ابنَـاهُ لَيْلتَين أو ثلاثةً مايَدْفِنانهِ حتى أنْتَنَ ، فقال رجُلٌ من قريش لابنيه : ألا تَسْتَحيـان أن أبـاكما قـد أنتن في بيتـه فقـالا : إنـا نخْشى هَـذه القُرْحَـة ، وكانتْ قريش تتقي العـدَسَـة كما تتقي الطاعونَ فقال رجل : انطلقا فأنا معكما قال : فوالله ما غَسَّلُوهُ إلا قَذْفاً بالماء عليه مِنْ بعيـد ثم احتَمَلُوهُ فَقَذَفُوه في أعلى مكّة إلى جِدارٍ وقَذَفُوا عَلَيهِ الحِجَارة .

قال الشيخ الغزالي : شدِة العرب قاطبة للنصر الحاسم الذي ناله المسلمون في بدر ، بل إن

= كبت : المكبوت : الممتلىء غمّاً .

كبته : يكبته : صرعه وأخزاه وضربه وكسره وردّ العدو بغيظه .

الأقداح : القِدْحُ : السهم قبل أن يراش وينصل ، ونحتها : بريها ، وتأتي القدح بمعنى : السهم الـذي كانوا يستقسمون به في الجاهلية .

الطُنُبُ : حبلٌ طَويلٌ يشدُّ به سرادق البيت أو الوتد .

بُلقٌ : جمع أبْلق ، بَلَقَ الفرس ونحوه بَلَقاً وبُلْقَةً كان فيه سواد وبياض فهو أبلق وهي بَلْقاء .

وثاورته : ثاوره مثاورة وثواراً : واثبه .

فلعت : شقّت .

العدسة : بثرة تخرج بالبدن فتقتل ، ربما الجُدَري .

أنتن : نتن نتناً : خبثت رائحته ، فهو نتن .

أهل مكّة استنكروا الخَبَر أول ما جاءهم ، وحسبوه هَذَيان مجنون ، فلما استبان صدقه صَعِقَ نفر منهم فهلك لتَوّهِ ، وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدري ما يفعل ...

وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى جوبهوا بعارها ، استبعد مشركو المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشريات الفوز ، وذهب بعضهم إلى حدّ اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق ، وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مقرنين في الأصفاد ، فسقطَ في أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا الغلب الذي مكن للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها ، ومد نفوذهم على طريق القوافل في شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطووا على أنفسهم ، يداوون جراحهم ، ويستعيدون قواهم ويستعدون لنيل ثأرهم ، ويعلنون أن يوم الانتقام قريب ، ولم تزدهم الهزيمة إلا كرهاً للإسلام ، ونقمة على محمد وصحبه ، واضطهاداً لمن يدخل في دينه ، فكان من ينشرح صدره للإسلام يختفي به أو يعيش ذليلاً مستضعفاً. ذلك في مكة ، حيث كانت الدولة للكفر .

أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ؛ فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والمخاتلة ، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تغلي حقداً وكفراً ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي .

روى أسامة بنُ زَيْد قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب - كما أمرهم الله تعالى - ويصبرون على الأذى :

﴿ ودّ كثير منْ أهل الكتاب لو يردُّونكم منْ بعدِ إيمانكم كُفاراً حسداً من عند أنفسهمْ منْ بعدِ ما تبين لهم الحقُّ فاعفوا واصفحُوا حتى يأتيَ الله بأمرهِ ﴾ [1] .

فكان النبي ﷺ يتأول في العفو الذي أمره الله به - حتى أذن فيهم فلما غزا بدراً ، وقتل

---

(١) البقرة : ١٠٩ .

الله فيها من قتل من صناديد قريش ، وقفل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه منصورين غانمين معهم أساراهم . قال « عبد الله بن أبيّ » ومن معه من المشركين عبدة الأوثان هذا أمر قد توجه (أي استقر فلا مطمع في إزالته) فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا ..

على أن هذا الخداع لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذي عالن فيه فريق آخر من اليهود بسخطهم على محمد ، وألمهم للهزيمة التي أصابت قريشاً في « بدر » بل إن كعب بن الأشرف ـ من رجالات اليهود ـ أرسل القصائد في رثاء قتلاهم والمطالبة بثأرهم . !

ولقد اتسعت شقة العداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف النابي .

ثم حاول اليهود أن يحقروا من شأن النصر الذي حظي به الإسلام ، مما مهد للأحداث العنيفة التي وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم ، أفراداً وجماعات .

وعلق الدكتور السباعي على غزوة بدر فقال رحمه الله : إن النصر في المعارك لا يكون فقط بكثرة العدد ، ووفرة السلاح ، وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش . وقد كان الجيش الإسلامي في هذه المعارك يمثّل العقيدة النقية والإيمان المتّقد ، والفرح بالاستشهاد ، والرغبة في ثواب الله وجنته ، كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال ، والفرقة ، والفساد ، بينما كان جيش المشركين يمثّل فساد العقيدة ، وتفسّخ الأخلاق ، وتفكّك الروابط الاجتماعية ، والانغماس في الملذات ، والعصبية العمياء للتقاليد البالية ، والآباء الماضين ، والآلهة المزيفة .

انظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال ، فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر على أن يقيموا ثلاثة أيام ، يشربون فيها الخمور ، وتغني لهم القيان ، وتضرب لهم الدفوف ، وتشعل عندهم النيران لتسمع العرب بما فعلوا فتهابهم ، وكانوا يظنون ذلك سبيلاً إلى النصر ، بينما كان المسلمون قبل بدء المعركة يتجهون إلى الله بقلوبهم ، يسألونه النصر ، ويرجونه الشهادة ، ويشمون روائح الجنة ، ويخرُّ الرسول ﷺ ساجداً مبتهلاً يسأل الله أن ينصر عباده المؤمنين ، وكانت النتيجة أن انتصر الأتقياء الخاشعون ، وانهزم اللاهون العابثون.

والـذي يقـارن بين أرقـام المسلمين المحـاربين ، وبين أرقـام المشركين المحـاربين في كل معركة . يجد أن المشركين أكثر من المسلمين أضعـافاً مضـاعفـة . ومع ذلـك فقـد كان النصر للمسلمين ، حتى في معركتي أحـد وحنين حيث انتصر فيهمـا المسلمـون ، ولـولا مـا وقـع من أخطاء المسلمين في هاتين المعركتين ومخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ ، لما لقي المسلمون هزيمة قط .

ـ إن شدة عزائم الجيش واندفاعه في خوض المعركة ، وفرحه بلقـاء عـدوه يزيـد القـائـد إقداماً في تنفيذ خطته ، وثقته بالنجاح والنصر . كما حدث في معركة بدر .

ـ إن على القـائـد ألا يكره جيشـه على القتـال ، وخـوض المعـارك إذا كانـوا غير راغبين ومتحمسين حتى يتأكد من رضاهم وتحمسهم ، كما فعل الرسول ﷺ من استشارة أصحابـه يوم بدر قبل خوض المعركة .

ـ إن احتياط الجنود لحيـاة قـائـدهم أمر تحتمـه الرغبـة في نجـاح المعركـة والـدعوة ، وعلى القائد أن يقبل ذلك ، لأن في حياته حياة الدعوة ، وفي فواتها خسارة المعركة .

وقد رأينا في معركة بدر كيف رضي صلى الله عليـه وسلم بنـاء العريش لـه ، ورأينـا في بقية المعارك : « أحد » و « حنين » ، كيف كان المؤمنون الصـادقون والمؤمنـات الصـادقـات يلتفون جميعاً حول رسولهم ، ويحمونه من سهـام الأعـداء ، بتعريض أنفسهم لهـا ، ولم يعرف عنه ﷺ أنه أنكر ذلك مع شجاعته وتأييـد الله لـه ، بل أثنى على هؤلاء الملتفين حولـه ، كما رأينا في ثنائه على نسيبة أم عمارة ، ودعائه لها بأن تكون هي وزوجها وأولادهـا رفقـاءه في الجنة .

ـ إن الله تبارك وتعالى يحيط عباده المؤمنين الصادقين في معاركهم بجيش من عنـده ، كما أنزل الملائكة يوم بـدر ، وأرسل الريح يوم الأحزاب . ومـا دام هؤلاء المؤمنون يحـاربون في سبيلـه ، فكيف يتخلّى عنهم وهـو الـذي قـال : ﴿ وكان حقـاً علينـا نصرُ المـؤمنين ﴾ [1]

---

(١) الروم : ٤٧ .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [1] .

ـ إن من طبيعة الداعية الصادق أن يحرص على هداية أعدائه ، وأن يفسح لهم المجال لعل الله يلقي في قلوبهم الهداية ، ومن هنا نفهم سرّ ميلِ الرسولِ إلى فداء الأسرى يوم بدر ، فقد كان يرجو أن يهديهم الله ، وأن تكون لهم ذرية من بعدهم تعبد الله وتدعو إليه ، وإذا كان القرآن الكريم قد عاتب الرسول على ذلك ، فلأن هناك مصلحة أخرى للإسلام يومئذ ، وهو إرهاب أعداء الله والقضاء على رؤوس الفتنة والضلالة ، ولو قتل الأسرى يوم بدر لضعفت مقاومة قريش للقضاء على زعمائها ومؤجّجي نار الفتنة ضدد المؤمنين .

ويلوح لي سرٌّ آخر في قبول الرسول أمر الفداء ، وهو أن العباس عم الرسول ﷺ كان من بين الأسرى ، وللعباس مواقف في نصرة الرسول قبل إعلان إسلامه ، فقد شهد معه بيعة العقبة الثانية سراً ، وكان يخبر الرسول عن كل تحركات قريش ، مما يؤكد عندي أنه كان مسلماً يكتم إسلامه ، فكيف يقتله الرسول وهذا شأنه معه ؟ ولو استثناه الرسول من بين الأسرى لخالف شرعته في تحريم قتل المسلم إن كان العباس مسلماً . وإن كان مشركاً ، فشريعته لا تفرّق بين قريب وبعيد في الوقوف موقف الحزم والعداء مِن كل مَنْ يحارب الله ورسوله ، ولاغتنمها المشركون والمنافقون فرصة للتشهير به ، ولإضعاف الثقة بعدالته وتجرده عن الهوى في كل ما يصدر عنه ، وليس ذلك من مصلحة الدعوة في شيء .

فوائد من كتاب غزوة بدر للدكتور محمد أبو فارس

ومما قاله الدكتور أبو فارس حول دروس بدر الكبرى :

ـ أهمية الشورى في الإسلام وفي مجال الحرب خصوصاً ، وإذا كان النبي ﷺ الموحى إليه من ربه يستشير أصحابه في القتال وغيره ، أفلا تكون الشورى في حق غيره آكد وأوجب .

ـ ضرورة تعرف القائد على مدى رغبة الجنود في القتال وهذا ما فعله رسول الله ﷺ في مشاورة أصحابه ، إذ إن المكره على القتال لا يمكن أن يقدم بنتيجة إيجابية .

---

(١) الحج : ٣٨ .

ـ تتجلى في بدر صفات القائد الناجح ومن ذلك : التواضع وعدم التميّز والسهر على راحة الجنود وبذل الحب لهم وتوثيق الصلة بالله والسرية في التحرك والإيثار ...

ومن نعم الله على المسلمين في غزوة بدر :

١ ـ النعاس والنوم : وفي ذلك راحة للجسم واطمئنان للنفوس وسكينة وهدوء وهمة متوثبة على عكس عدوهم الذي كان متوتراً هائجاً قلقاً مضطرباً .

٢ ـ إنزال المطر : يأخذون منه حاجتهم وناحية أخرى أن المطر في جانب المسلمين كان معتدلاً حتى تماسكت الأرض تحتهم ، أما في جانب المشركين فكان غزيراً فأوحلت الأرض .

٣ ـ إراءة الله المسلمين المشركين قلة .

٤ ـ إنزال الله الملائكة تؤيد المؤمنين وتقاتل معهم .

٥ ـ إلقاء الرعب في قلوب الكافرين .

٦ ـ أوحى الله إلى النبي ﷺ أن يرمي الحصباء فاستقبل قريشاً ورماها قائلا : شاهت الوجوه ، فأوصل الله ذرات الرمل إلى أعين المقاتلين فانشغلوا بذلك عن القتال وكل ذلك بقدرة الله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى ﴾ [1] .اهـ بتصرف من كتاب غزوة بدر .

فائدة أخيرة : في كتاب فن الحرب لـ « صن تزو » ـ وهو مؤلف صيني قديم ـ ذكر أن قرار الحرب لا ينبغي أن يتخذ إلا إذا توافرت شروط :

١ ـ ثقة الشعب بحكومته .

٢ ـ ارتفاع معنويات الجنود .

٣ ـ وجود القائد الكفء .

٤ ـ معرفة الأرض .

---

(١) الأنفال : ١٧ .

٥ ـ مراعاة الطقس وأن يتخذ قرار الحرب ينبغي أن يتخذ في المعبد ليباركه الله .

وهو كلام حكيم ولو أنك تأملت غزوة بدر لوجدت توجها نحو الله ولرأيت ثقة لا مثيل لها ومعنويات لا مثيل لها وقيادة لا مثيل لها واختيار لأرض المعركة .

ولرأيت مع هذا كله طقساً مواتياً لأهل الحق وذلك كله من التوفيقات الإلهية التي تجعل أفعال رسول الله ﷺ على أعلى ما تصل إليه حكمة الحكماء مع احتمال خطئهم .

* * *

فصل : في إجلاء يهود بني قَيْنُقَاعٍ

٣٥٧ - * روى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لَمَّا أصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشاً يومَ بدْرٍ ، وَقَدِمَ المدِينَة ، جَمع اليهودَ في سُوقِ بني قَيْنُقَاعٍ ، فَقَالَ : « يا مَعْشَر يَهُودٍ ، أَسْلِموا قبل أنْ يُصيبَكُم مِثْلُ ما أَصَابَ قُرَيْشاً » قَالُوا : يا مُحَمَّدَ ، لا يغُرَّنكَ مِنْ نَفْسِكَ أنَّكَ قتلْتَ نَفَراً مِنْ قرَيْشٍ كَانُوا أغْمَاراً لا يعْرِفُون القِتالَ ، إنَّكَ لو قاتَلْتَنَا لَعَرفْتَ أنَّا نَحْن النَّاسُ ، وأنَّكَ لَمْ تلْقَ مِثْلَنا ، فأنزَلَ اللهُ تَعَالى في ذلك : ﴿ قُلْ للَّذِين كَفَروا ستُغْلَبُون ﴾ إلى قوله : ﴿ فِئَةٌ تقَاتِلُ في سَبِيْلِ اللهِ ﴾ بِبدْرٍ ﴿ وأُخْرى كَافِرةٌ ﴾ (١) .

وقد فصّل كُتّاب السير ما آل إليه أمر بني قينقاع فذكرها ابن هشام وابن سعد في طبقاته ويذكر المفسّرون قصّتهم عند قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ . وعند قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعضٍ ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين ﴾ (٢) .

وهناك خلاف بين كتّاب السير حول السنة التي حدثت فيها واقعة بني قينقاع ، والواقدي يرى أنّها كانت في يوم السبت النصف من شوّال سنة ثنتين من الهجرة .

قال ابن حجر العسقلاني في الفتح : ونون قينقاع مثلثة والأشهر فيها الضم ، وكانوا أول من أُخرج من المدينة كما تقدم في أول الباب . وروى ابن إسحاق في المغازي عن أبيه عن

---

٣٥٧ - أبو داود (٣ / ١٥٤) ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب : كيف كان إخراج اليهود من المدينة ، وهو حديث حسن بشواهده .

أغمارًا : الأغمار : جمع غُمر بضم الغين ، وهو الجاهل الغرّ الذي لم يجرب الأمور .

(١) آل عمران : ١٢ ، ١٣ .

(٢) المائدة : ٥١ ، ٥٢ .

عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع قام بأمرهم عبد الله بن أبيّ فمشى عبادة بن الصامت وكان له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي ، فتبرأ عبادة منهم . قال : فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ ـ إلى قوله ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ وكان عبد الله بن أبي لما سأل النبي ﷺ أن يمن عليهم قال : يا محمد إنهم منعوني من الأسود والأحمر ، وإني امرؤ أخشى الدوائر ، فوهبهم له . وذكر الواقدي أن إجلاءهم كان في شوال سنة اثنتين ، يعني بعد بدر بشهر ، ويؤيده ما روى ابن إسحٰق بإسناد حسن عن ابن عباس قال : « لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال يا يهود : أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً يوم بدر ، فقالوا : إنهم كانوا لا يعرفون القتال ولو قاتلتنا لعرفت أنّا الرجال . فأنزل الله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ لأولي الأبصار ﴾ وأغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بني قينقاع وإجلاء بني النضير كان في زمن واحد ، ولم يوافَق على ذلك . أ.هـ .

وقد قال ابن كثير في البداية والنهاية : قال ابنُ إسْحَاقَ : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد . قال ابن هشام فذكر عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة عن أبي عون قال : كان أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بِجَلَبٍ لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ هناك منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قَتَادَةَ قَالَ فحاصَرَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ حتى نَزَلُوا عَلَىَ حُكْمِهِ فَقَامَ إِلَيْهِ عبْدُ اللهِ بنُ أُبَيّ بنِ سَلُولٍ حينَ أمْكَنَهُ اللهُ مِنْهم فَقَالَ : يامحمّدُ أحسن في مَوَالِيَّ وكَانُوا حُلَفَاءَ الخَزْرَجِ قَالَ : فَأَبْطأ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَقَال : يامحمدُ أحْسِنْ في مَوَالِيَّ فأعْرَضَ عَنهُ ، قال : فأدْخَلَ يَدَهُ في جَيْبِ دِرْعِ النبي ﷺ قَالَ ابنُ هِشامٍ : وكَانَ يُقَالُ لَهَا

ذَاتَ الفضول فَقَـالَ لَـهُ رسولُ اللهِ ﷺ : «أَرْسِلْنِي» وغَضبَ رسولُ اللهِ ﷺ حَتَّى رأوا لِوَجْهِـه ظُلَـلاً [١] ثمَّ قَـالَ : « وَيْحَـكَ أَرْسِلْنِي » قَـالَ : لاَ واللهِ لا أُرْسِلُـكَ حَتَّى تُحْسِنَ في مَـوَالِيَّ أربعمائةُ حَاسِرٍ وثلثمائة دارعٍ قدْ مَنَعُونِي من الأحْمَرِ والأَسْوَد تحْصُدهُم في غَـدَاةٍ وَاحِـدةٍ إنِّي واللهِ امرؤٌ أخشَىَ الدوائر. قَالَ فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ : «هُمْ لكَ» . قَالَ ابنُ هشام واستعْمَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ في محاصَرَتِهِ إيَّاهم أبا لُبَـابَـة بشيرَ بنَ عَبْـدِ المُنْـذِرِ وَكَـانَتْ مُحَـاصَرَتُـه إيَّـاهُم خَمس عَشْرَةَ لَيْلَةً قالَ ابنُ إسحاق : وحدَّثَنِي أَبِي عن عُبَادَةَ بنِ الوليدِ عن عبادَةَ بنِ الصَّامِت قَالَ : لَمَّا حَـارَبَتْ بنو قينقـاعٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ تشبَّثَ بـأمرهِم عبـدُ اللهِ بنُ أُبَي وقَـام دونَهم ومشَى عبادةُ بنُ الصَّامتِ إلى رَسُول الله ﷺ وكان مِنْ بَني عَوْفٍ لـهُ مِنْ حلفِهم مثل الـذِي لهم من عبـدِ اللهِ بن أُبَي فَجَعلهم إلىَ رسـول اللهِ ﷺ وتَبَرَّأَ إلى اللهِ وإلى رسُـولِـهِ من حلْفِهم وقَالَ : يا رسُولَ اللهِ أتَوَلى اللهَ ورسولَهُ والمؤمنينَ وأبرأُ مِنْ حِلْفِ هؤلاء الكفَّارِ وولايَتِهم قَـالَ وفيـهِ وفي عبـدِ اللهِ بنِ أُبَي نزلَت الآيَـاتُ مِنَ المـائِـدَةِ ﴿ يـاأيهـا الـذين آمنُـوا لا تتَّخـذُوا اليهودَ والنَّصَـارى أوليَـاءَ بَعْضُهم أوليـاءُ بَعْضٍ ﴾ الآيـات حتَّى قَوْلِـهِ : ﴿ فترَى الـذينَ في قُلُوبِهم مَرَضٌ يُسَـارِعُون فيهِم يقـولـونَ نخْشَى أن تصيبَنَـا دَائِرة ﴾ يعني عبْـدَ اللهِ بنَ أُبَي إلى قَوْلِهِ : ﴿ ومَنْ يتولَّ اللهَ ورَسُولَه والذِينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَـالِبُون ﴾ [٢] يعني عبادةَ بنَ الصَّامِت .اهـ.

وقال ابن حجر : وكان الكفار بعد الهجرة مع النبي ﷺ على ثلاثة أقسـام : قسم وادعهم على أن لا يحـاربوه ولا يـالئوا عليـه عـدوه ، وهم طـوائف اليهـود الثـلاثـة قريظـة والنضير وقينقاع . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش . وقسم تاركوه وانتظروا مـا يئول إليـه أمره كطـوائف من العرب ، فنهم من كان يحب ظهـوره في البـاطن كخـزاعـة ، وبـالعكس كبني بكر ، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً وهم المنافقون ، فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع فحاربهم في شوال بعد وقعة بـدر فنزلوا على حكمـه ، وأراد قتلهم

---

(١) ظللاً : جمع ظُلَّة ، يعني تغير وجهه عند اشتداد الغضب .

(٢) المائد : ٥١ ـ ٥٦ .

فاستوهبهم منه عبد الله بن أبيّ وكانوا حلفاءه فوهبهم له ، وأخرجهم من المدينة إلى أذرعات .اهـ.

أقول : من أجل اعتداء على حجاب امرأة مسلمة واحدة فعل رسول الله ﷺ ما فعل ، وهذه القصّة ذات دلالات كثيرة على طبيعة اليهود وطبيعة النفاق ، وكيف أنّ الحزم من ناحية وحسن السياسة من ناحية أخرى هما طريقا المسلمين في معالجة أمور الدولة .

* * *

تقويم الموقف في نهاية السنة الثانية للهجرة

في نهاية السنة الثانية للهجرة أخذت الهيبة العسكرية للمسلمين مداها الكبير في دائرة واسعة من الجزيرة العربية ، وأحس ضعفاء المشركين بالخطر وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام ، وبدأت النفوس تتطلّع إلى الإيمان ، فتوسّعت دائرة الدخول في الإسلام ، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً ضعفاً أو خديعة ، وبهذا كلّه أصبحت الدولة الجديدة أمام أوضاع جديدة من المكر والتآلب والتحالفات ، ولكن عين رسول الله ﷺ الساهرة وحكمته الباهرة وتأييد الله له أوّلاً وآخراً دفع الأمور في غير الطريق التي يخطّط لها الأعداء :

﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (١)

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ (٢)

* * *

---

(١) الأنفال : ٣٠ .

(٢) الصف : ٨ .

الفهرس

رقم الايداع : ٢٨٧٢ / ٨٩
الترقيم الدولى : ٩ ـ ٢٤ ـ ١٤٧١ ـ ٩٧٧


